معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة

علم النفس

المجلد الثاني

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصري
دار الكتاب اللبناني

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

علم النفس

المجلد الثاني

معرفة النفس الإنسانية
في
الكتاب والسنة

علم النفس

٢

مجمع البيان الحديث

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

I.S.B.N
9953 - 483 - 56 - 6

• جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوزِيعِ مَحْفُوظَةٌ للنَّاشِرِينَ

• يمنع الاقتباس والنقل والترجمة والتصوير والتخزين الميكانيكي والإلكتروني في إطار استعادة المعلومات دون أذن خطي مسبق من الناشر

دار الكتاب المصري
القاهرة
٣٣ شارع قصر النيل ـ تلفون: ٢٣٩٢٢١٦٨ / ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤
ص.ب.: ١٥٦ ـ عتبه ـ الرمز البريدي: ١١٥١١ القاهرة ـ ج.م.ع
فاكسميلي: ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
FAX: (202) 23924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني
بيروت
شارع مدام كوري ـ مقابل فندق البريستول ـ بيروت
تلفون: ٧٣٥٧٣٢ / ٠١ ـ ص.ب.: ١١/٨٣٣٠
بيروت ـ لبنان ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

الطبعة الثانية الجديدة والمتجددة منقحة ومزيدة
١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م

Second Edition
A.D. 2008 - H. 1429

Website: - www.daralkitabalmasri.com
E-mail: - info@daralkitabalmasri.com

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب المصري ـ القاهرة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «إلكترونية» أو «ميكانيكية» أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدماً.

الفصل التاسع

- الإيمان بالغيب
وأثره على النفس الإنسانية
- الحق والباطل
- الهدى والضلال

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل lisanerab.com

البحث الأول

الإيمان بالغيب

وأثره على النفس الإنسانية

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾(١).

الإيمان هو التصديق، باتفاق معظم علماء المسلمين، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾(٢)، أي: وقال إخوة يوسف عليه السلام له: وما أنتَ بمصدِّقٍ لنا. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾(٣) معناه: الذين صدَّقوا، ووثقوا بآياتنا المنزلة في القرآنِ، وما قبله في الصحف الأولى والزبور والتوراة والإنجيل، بحيث يصاحب التصديقَ الثقةُ. قال الشاعر:

ومِنْ قبلُ آمَنّا ـ وقد كان قومُنا   يُصَلُّونَ للأوثانِ قبلُ ـ محمَّدا

«ومن قبل آمنَّا محمداً» أي ومنذ بعثه، صدَّقنا محمداً، وقد كان قومُنا يصلُّون للأوثانِ قبلَهُ.

والأمن لغةً هو ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة. وآمَنَ: صارَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٩.

ذا أمن على نفسه من خوف يعتريها، ولا خيانة تسوّل بها هذه النفس.

وفي الاصطلاح الشرعي: الإيمان هو التصديق بكل ما يلزم التصديق به من القضايا الغيبية أو من أمور الغيب التي لا تقع تحت الحواس، وإنَّما تدرك بالعقل والقلب، مثل: الملائكة، ويوم القيامة، والبعث والنشور، والحساب والجنة والنار.

أما الغيب فهو كل ما يغيب عن الإنسان ولم يشهده بما لا يقع تحت الحواس. أي هو كل مستور عن حواسنا ولا يقتضيه بدايةَ التفكيرُ.

ولكنَّ الغيب شيء، والإيمانَ بالغيب شيء آخر، لأن الغيب إذا كان هو المستور، فالإيمان بهذا الغيب هو التصديق والوثوق بحقيقة هذا المستور، الذي وإن لم يقع تحت الحواس، إلاَّ أنه موجود فعلاً، وإنما تدركه القلوب المبصرة والعقول النيّرة. قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[1]. وهذا يعني أنَّ الرسول ﷺ والمؤمنين من أتباعه قد آمنوا بالغيب، فصدقوا تصديقاً جازماً بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته التي يُخبر عنه، وما أنزل من كتبه، وأرسل من رسله..

وهذا هو الإيمان العقلي، أي الإيمان بما أيقن به العقل بعد العلم بما في كتب الله المنزلة، وتصديق رسله المبعوثين. ويستتبعه الإيمان النقلي بحقيقة وجود الملائكة، ويوم البعث والنشور، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وكلّها من غير المرئيات أو المحسوسات، إنما الإيمان بها يتأتّى من كون القرآن الكريم ـ الذي هو حقيقة ثابتة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

ومحسوسة ـ قد نقلها للبشر، ودعاهم للتصديق بها، فضلاً عن أنَّ اليقين قد أثبته هذا القرآنُ بالحقِّ، أي محقاً بكل ما جاء فيه من الحديث عن الأمور الحسيّة، أو أمور الغيب، ومن كل ما يتعلق بشؤون الدنيا والآخرة.

وأما المراد بقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، فهم الذين صدَّقوا وآمنوا بأنَّ الله عزَّ وعلا هو الرحمان، بخلاف المشركين والكفار الذين قالوا: وما الرحمان؟ ـ أي هل هو إلهٌ غير الله ـ بينما المؤمنون آمنوا بأنَّ لله الأسماءَ الحسنى كما بينها القرآن الكريم، والرحمان من أسمائه تعالى، فصاروا بعد العلم بمضامين ومصاديق الأسماء الحسنى لله يخشونه في غيبه، وبأيٍّ من أسمائه الحسنى قد ذُكر، بعيدين عن المراءاة، غير مريدين بإيمانهم تقرّباً لأحدٍ، غيرِ ربِّهم تبارك وتعالى الذي يخلصون له في غيبه المكنون...

ولا شك في أنَّ للإيمان بالغيب تأثيراً قوياً على نفس الإنسان، فالإيمان بالله تعالى، علّام الغيوب، هو الذي يجعل الإنسان يخشى ربَّهُ في سرِّه وجهره، في يسره وعسره، في إقباله وإدباره، في حركته وسكونه، فيعمل على تصحيح مسار حياته بما يرضيه تعالى.. وهذا يعني أنَّ على الإنسان نهيَ نفسه عن الهوى، واجتناب ارتكاب المعاصي، أو الوقوع في الآثام، وعندها يحصل له الأمانُ النفسي جرّاء إخلاصه لخالقه ومولاه، وطلب عفوه ورحمته..

ومتى بلغ المؤمنون هذه الدرجة من الإيمان، فلا تعود حواجز الحسّ تحول دون الاتصال بين نفوسهم، أي بين نفوس

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٣.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وملكوت الله ـ تعالى ـ في هذا الكون الواسع، حيث يستقرُّ في ذهن المؤمن أنَّ الله، الذي هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، قادرٌ على أن يقوّي في نفسه الإيمان الذي يتخطّى به حدود المحسوس إلى ما ورائه من حقائق، وقوى، وطاقات، وخلائق، وموجودات تسير كلها بتدبيره عزَّ وجلَّ؛ وأنَّ وجودها ثابتٌ بالسنن الكونية التي لا تتحوَّل ولا تتبدَّل، حتى ولو غابت كلُّ تلك الموجودات أو الخلائق، أو بعدت عن مرمى الحواس البشرية..

ولذلك كان الغيب ـ بحد ذاته ـ بمثابة الحاجز الذي يقتحمه الإنسان، أو العتبة التي يلجها بفطرته متجاوزاً مرتبة الحيوان الأعجمي ـ الذي يتحرك بمقتضى غرائزه وحواسه ـ إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أنَّ الوجودَ أكبر، وأشمل، وأوسع بكثيرٍ من هذا الحيّز الكوني المحدود الذي يحيط به، وأنَّ إدراكه لحقيقة هذا الوجود يكون بالعقل المستبصر، وما فيه من الملكات المدركة التي هي امتداد للأبصار..

وقد استطاع الإنسان أنْ ينتقل إلى عالمٍ من العلم والمعرفة من خلال نقلةٍ نوعيةٍ، بعيدةِ الأثر في تصوّر العقلِ لأبعاد الوجود، والقوى المطلقة في هذا الوجود؛ وفي إحساسه بالكون، وما وراء هذا الكون من إرادةٍ، وقوةٍ وتدبير.. كما أنها نقلةٌ بعيدة الأثر أيضاً في حياة الإنسان على الأرض، إذْ ليس من يعيش الحيّز المحدود الذي تدركه حواسه، كمن يعيش في الكون الكبير الذي يترامى أمام بصيرته، وتتلقّى نفسُه أصداءه وإيحاءاته في شتى أبعاده، فيشعر بأنَّ مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يقع تحت نطاق حواسه المحدودة، بل وفي نطاق حياته، وأنَّ وراء هذه الحياة المحدودة، ووراء هذا الكون الفسيح، في ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من ذلك كله، وهي حقيقة

وجود مصوره، أي حقيقةُ وجود الله تعالى الذي ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، ولا تحدُّه العقول، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[2]، وقد أحاط بكل شيء علماً.

ولكنَّ جماعات الماديين، سواءٌ في الماضي، أو في هذا الزمان، الذي صاروا يشكلون غالبية أناسه، لا يعنيهم بشيء هذا «الإيمان بالغيب»، ولا يبالون بحيثياته ومفرداته، لأنَّ ما يطغى على عقولهم وقلوبهم عالَمُ المادة وحده، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس الملموس!.. بمعنى أنهم يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى إلى دُنيا الجهل، والقصور الذهني، وهم يسمّون ذلك «تقدمية»، بينما كلُّ تصورهم ليس في الحقيقة إلاَّ النكسة التي وقى الله تعالى منها المؤمنين، فجعل من صفاتهم المميزة إيمانهم بالغيب، كما في قوله، عزَّ من قائل ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

والسؤال: ولكن كيف يمكن أن ندرك ما للإيمان بالغيب من تأثير على النفس الإنسانية؟! والجواب، ببساطة تامة، لو أنَّ كلَّ إنسانٍ قد خلا إلى نفسه، وتأمل بما يعتمل فيها من الأفكار والمشاعر المتضاربة، وما يتحرك فيها من الدوافع والميول والأهواء المتنوعة، لوجَدَ أنَّ نفسَهُ معبَّأَةٌ فعلاً بالأثقال التي تكاد ترهقها، وبالهموم التي تكاد تشلُّها، لولا أنَّ الإنسانَ يُبعد عن نفسه اليأس، ويلوذ بكنف من يلهمه الصبر والاحتمال، ويقوي فيه الإرادة والعزم. وهذا الواقع الذي يعيشه الناس هو حقيقةٌ راهنة لا يمكنهم أن يتجاهلوه، ولا أن يتخطوه، ولاسيما عندما تنهال عليهم المصائب، وتحيط بهم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

المشاكل.. فلا يجدون أمامهم إلاَّ اللياذَ بالقوى الغيبية التي يعتقدون أنها قادرةٌ على أن تلهمهم الصبرَ، وتقوّي في نفوسهم مشاعر الاطمئنان؛ فالمريض مثلاً عندما يشتدُّ عليه الألم، لا يجد ـ مع المداواة ـ إلاَّ مناجاةَ ربِّه إن كانَ مؤمناً، أو مناجاة تلك القوة الغيبية التي يخضع لها بالفطرة إنْ لم يكن مؤمناً، ومثله كل غريقٍ مشرفٍ على الهلاك، أو تاجرٍ على وشك الإفلاس، أو مسافر في طلب حاجةٍ ملحَّةٍ، أو حاكم يضنيه بؤسُ شعبه ـ وإنْ قلَّ نظير مثل هذا الحاكم في أيامنا ـ ولعلَّ أبرز مثالٍ على الإنسان الذي يتوجه بكليته إلى الغيب، تلك الأمّ التي تتضرع إلى ربِّ الغيب، وهي ترجو الشفاء لطفلها بعد أن عجز الأطباء والأخصائيون، ولم تنفع الوصفات والعلاجات المخبرية في انتشاله من مرضه!...

أما مَن هو واجبٌ اللجوء إليه ليُلهم الإنسان الاحتمال على شدّته وبلائه، فإنه في تصوّر الكافرين والملحدين هو تلك القوة الغيبية التي تهيمن على الوجود، أو هو العلم الماديّ ـ عند الذين لا يعنيهم الغيب بشيء ـ الذي يعتقدون أنه الأساس للسيطرة على كل شيء، حتى على المشاعر النفسية.. هذا بخلاف المؤمنين الذي يعلمون علم اليقين بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يقوّي في نفوسهم الشعور بالصبر، لأنَّ الصبر، في عرفهم، قوةٌ شعوريةٌ تتأتّى عن إيمانهم بالله، الذي يمنُّ عليهم بما يُطمئن نفوسَهم.. ولذلك تجدهم، يستجيرون بمولاهم السميع العليم، في كل أمر فيه مشقة، ويستغيثون بربهم الكريم في كل شأن فيه شدة، ويلجأون إلى خالقهم العظيم في كل وقت فيه حرج، وتوكلهم ورجاؤهم أن يلهَموا، دائماً، الصبرَ والاحتمال، حتى يأتيهم منه تعالى الفرجُ والرحمة.

ولذلك كان من أهم مقومات الاطمئنان للنفس الإنسانية: تزاوج الإيمان والصبر، كما يشير إليه الإمام علي (كرّم الله وجهه) في قوله: «وخُذُوا الصبرَ مَعَ الإيمان، فإنَّ منزلةَ الصبرِ مِنَ الإيمانِ كمنزلةِ الرأسِ من الجَسَد، فكما أنَّهُ لا خيرَ في جسدٍ بلا رأسٍ، فلا خَيرَ في إيمانٍ لا صَبْرَ مَعَه».

وهذا الصبر هو وصفة العلاج الدائمة في حياة الإنسان المسلم، الذي يجد دائماً في قرآنه الكريم الخبر اليقين، بحيث لا يكون عليه إلاَّ العمل بتوجيه ربّه ـ تبارك وتعالى ـ له في السرّاء والضرّاء، ولذلك يوصيه الحقُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾[2]، بل ويقسم الله ـ جلَّ شأنُهُ ـ إنَّ الإنسان في خسارة وهلاك إلاَّ من آمن، وعمل صالحاً، وأشاعَ الحقَّ والصبرَ بالعمل والتواصي، في قوله العزيز: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[3].

وهذا الصبر الذي تركن إليه النفس بصفائها، وخلوتها، بعيداً عن مؤثرات المادة، هو الذي يُنزل السكينة على نفس المؤمن، فيجعلها تجدّد في خلاياها قوةَ الاحتمال، وتشدّ عزمها على العطاء والمثابرة في البناء.. ولذلك كان الإيمان بالله ـ تعالى ـ وغيبه أهم ما تأوي إليه النفس الإنسانية حتى يكون هنالك توافق ما بين الإيمان وكل ما يتعقَّل أو يتحرك به الإنسان.. ولولا الإيمان بالله ـ العلي العظيم ـ

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٥.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٣) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

لما كان لنفس أن تدرك صبراً ولا اطمئناناً، وما كان لها أن تنشئ فكراً، أو تبني إعماراً. وليعلم الإنسان ـ شاءَ أو أبى ـ أنَّ كلَّ ما بلغَ، أو وَصَلَ إليه، إنما كان بمشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وفضله، وسواء أكانَ الإنسان مؤمناً أم كافراً، فإنَّ علمه إنما هو جزء من علم الله ربّه، الذي شاءَ أن يعلّمهُ إيّاهُ! . . .

ومن مزايا الإيمان بالغيب لدى المؤمن أنه يجعله يطمع برضوان الله لدخول الجنة، وأنه يجعله يخاف من سخطه للهرب من النار. أي إنَّ هذه المزايا هي التي تجعل المؤمنين يخشون ربهم بالغيب، وهي الخشية التي تعصم نفوسهم من الوقوع في الذنب أو المعصية، والإمساك عن اقتراف الجرم، كما يهدي إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]؛ وهذا الخوف، وأشدُّه الخشية من عذاب الله القاهر فوق عباده، هو الذي يمنع الرجل من الاستهانة بشرفه، والمرأة من التفريط بعفافها. وفي هذا الصدد، يُحكى أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كان يتفقد شؤون الرعيّة ليلاً، فسمع امرأةً تنشد، بصوتٍ فيه حنين ورقة، أبياتاً من الشعر، وهي تقول:

لقد طالَ هذا الليلُ واسودَّ جانِبُهْ　　وليسَ إلى جَنْبي حَبيبٌ أداعِبُهْ

فواللّهِ لولا اللّهُ، أنّي أُراقِبُهْ　　لَتَهْتَزُّ مِنْ هذا السريرِ جوانبهْ

وسأل الخليفة عن تلك المرأة، فعلم أن زوجها قد غاب مدة طويلة للجهاد في سبيل الله، فأمر ألاّ يؤخَّر الجنود في الحرب عن زوجاتهم أكثر من أربعة أو ستة أشهر.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥.

هذه المرأة العفيفة لولا إيمانها بالغيب لفرّطت بعفافها، ولولا اعتقادها بأن الله يرقب كل صغيرة وكبيرة لانزلقت مع نزواتها. ولكنها كانت تخشى الله ـ تعالى ـ في غيبه، فصبرت على ما تعانيه، وحفظت عهد زوجها من الخيانة، وصانت شرفها وكرامتها عن الابتذال.

أليس في هذا الصبر إذاً أنسٌ للنفس بخالقها، وراحة واطمئنان إلى ملهمها؟

وهذا الإمام عليٌّ (كرم الله وجهه) وبعد أن أوحشته الحياة، لم يجد لإِيناس نفسه إلاَّ اللجوء إلى الله تعالى يستجيره، ويتضرع إليه بهذا الدعاء المعبّر، قائلاً: «اللَّهُمَّ إنك آنس الآنسين لأوليائِك، وأحْضَرُهُم بالكفايةِ للمتوكلين عليك. تُشاهِدُهُم في سَرَائِرِهِمْ، وتطَّلِعُ عليهم في ضمائِرِهِمْ، وتَعلَمُ مبلَغَ بصائِرِهِمْ. إنْ أَوْحَشَتْهُمُ الغُربَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وإنْ صُبَّتْ عليهِمُ المصائِبُ لَجَأُوا إلى الاستِجارَةِ بِكَ، عِلماً بأنَّ أَزِمَّةَ الأمورِ بِيدِكَ، ومصادِرَها عن قَضائِكَ.

اللَّهُمَّ إنْ فهِهتُ[1] عن مَسْأَلَتي، أو عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتي، فَدُلَّني على مَصَالِحي، وَخُذْ بِقَلْبِي إلى مَراشِدي..».

وفي هذا الدعاء عظةٌ بالغة للمتقين ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، وهدايةٌ نيِّرةٌ لمن أحاطت بهم النكبات، كي يتوجّهوا إلى الله عند الوحشة فينير سُبُلهم، ويُلهمهم الصبرَ، فتشتد عزائمهم، وعند ذلك يأنسون بالله تعالى في وحدتهم، ويستسهلون كل صعبٍ يعترض طريقهم.

(١) فههت: عييت فلم أستطع بيان حاجتي.

صحيح أنَّ التقدُّم العلمي والتقني قد حقق من المنجزات ما يصعب إحصاؤه، كما تشهد بذلك الآثار والنتائج في شتى ميادين العلم التي اقتحمها الإنسان، وكان الفضل في ذلك لأولئك الملهمين من المكتشفين والمبدعين الذين أفاض عليهم ربُّهُم الحكيم نعمة العقل والبصيرة، وعلَّمهم ما لم يعلموا، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]. ذلك أن الإنسان، قد استطاع بمواهبه وعن طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج، أنْ يحيط بقدرٍ هامٍّ من حقائق الوجود، ليعود، من ثمَّ، إلى تنظيم ما توصَّلَ إليه في فروع عديدة ومتنوعة من العلوم والمعارف. . وهذا بطبيعة الحال، لأنَّ الإنسان، لديه توق إلى العلم والمعرفة، فيتولّد من رحم هذا التوق أولئك الأفذاذ من العلماء الذين أغنوا الحياة البشرية بالمواد الفكرية، والاكتشافات العلمية في مختلف تلك المجالات التي عرفتها مسيرة التاريخ البشري حتى اليوم. . وميزة العلماء أنهم يشعرون ـ دائماً ـ بتلك الدوافع التي تحثّهم على النظر والبحث، وترغّبهم في العمل والمثابرة وإن اعترضتهم الصعوبات، أو أرهقهم الإجهاد؛ ولعلّ هذا، لعمري، هو الجهاد الفكري بعينه، وهو الذي يجعل للحياة عندهم قيمة وأهميةً لهما مدلولات خاصة ـ ليست لدى غيرهم ـ فلا تجد في حياتهم رتابةً يقتلها الخمول البائس، ولا مللاً تأنفه النفس الطموح!. .

والسؤال: كيف يحصل العلم لدى الإنسان حتى نقول مثلاً إنه مؤرخٌ، أو أديبٌ، أو فقيهٌ، أو عالم بالذرة، أو الفلكِ، أو الفيزياء أو

---

(١) سورة العلق، الآية: ٥.

أية معرفةٍ أو علم يؤدي إلى ما يعرف بالمنجزات العظيمة؟

هناك طرق عديدة يحصل فيها هذا العلم:

أولها: الإدراك الفكري أو الذهني، وبواسطته يمكن أن يكوِّن الإنسان مفهوماً جديداً لأي أمر أو شأنٍ في الوجودِ. وقد يكون هذا المفهوم عبارة عن معانٍ مجردة مثل أنْ يكون تصوراً لأشياء قد تكون موجودة، أو لأشياء قد تكون خارجة عن ذاتيته، فيبقى في دائرة التصور والتجريد..

وثانيها: الإدراك الحسي الذي يتأتى من المراقبة والملاحظة والتجربة والاستنتاج، وهنا يكمن دور الحواس توصُّلاً إلى دور العقل.

وثالثها: الوحي الذي يتنزَّل على الأنبياء والمرسلين بالأحكام والتعاليم التي تهدي الناس إلى عبادة الله تعالى، وتأخذ بيدهم إلى طريق الحق والخير والصواب...

وقد جاء ذكر الوحي، وتعيين أشكاله، في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

والوحي، في اللغة، ما جرى مجرى الإيحاء والتنبيه على الشيء. كما في الإلهام لأم موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧.

والوحي، بمفهومنا الإسلامي، يأتي على ثلاثة أوجه:

١ ـ إما أن يكون تكليماً من وراء حجاب وهي الميزة التي اختُصَّ بها النبيُّ موسى عليه السلام، قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[(١)].

٢ ـ وإما أن يكون بإرسال مَلَكٍ إلى بشر (إنسان) يبلّغه بأنَّ الله تعالى قد اختاره ليكون نبياً أو رسولاً بما يوحي إليه من الشريعة أو الرسالة.

٣ ـ وإما أن يكون عن طريق الإلهام أو الرؤيا في المنام.

والإلهام هو علم من الله تعالى يهبه لأنبيائه أو لعباده الصالحين لمعرفة أمور غيبية قبل أنْ تحدث، وتكون الغاية إما الإخبار عنها، أو استباقها قبل حدوثها، ومثالها في القرآن الكريم ما علَّمَهُ الله تعالى لعبدٍ صالحٍ من عباده في سورة الكهف؛ فالعبد الصالح ـ قد يكون مَلَكاً، وقد يكون إنساناً آتاه الله من لدنه علماً ـ التقاه موسى عليه السلام بأمر من ربه. وقد رافقه لفترة من الزمن فشاهد خلالها من الأفعال ما لم يستطع النبيُّ موسى عليه صبراً، فأخبره العبدُ الصالحُ بتأويلها، وهو:

ـ أنَّ السفينة التي ركباها، كانت لمساكين مؤمنين، وكان وراءهم ملك ظالم يتعقَّب السفن ويستولي عليها بالقوة، فقام بخرقها حتى تتعطَّل، فلا يغتصبها ذلك الملك ويحرم أولئك المساكين مصدَر رزقهم وعيشهم..

ـ وأنَّ الغلام الذي كان يلعب مع أترابه، وجرَّهُ بعيداً عنهم، ثم قتله، كان فاسقاً، ولو قُدِّر له أنْ يكبر فسوف يرهق والديه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

الصالحين بكفره وجوره عليهما، فأراد ربُّهما تعالى أن يبدِلهما غلاماً خيراً منه زكاةً وبرّاً بأبويه، وبغيرهما من الناس، لأنَّ الرؤوفَ بأهله يستحيل أنْ يظلم غيرهم.

- وأمَّا الجدار الذي أقامَهُ في القرية التي دخلاها، بعد أنْ أنهكهم في تجوالهم الجوع والتعب، وأبى أهلُها أن يطعموهم، فكان تحتَهُ كنزٌ لغلامين يتيمين، وكان أبوهما صالحاً، قد خبَّأه لهما حتى يكبرا ويستخرجاه.

تلك الحوادث التي كان يراها النبيُّ موسى عليه السلام ويعجب من إتيانها على يدِي العبد الصالح، إنَّما كانت من علم بالغيب الذي ألهمه إيَّاه الله تعالى، وما كان له أن يفعل ما فعل، أو أن يعلم الغيب، إلا عن أمر ربِّه كما يبيّنه إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[1] أي وما فعلته عن رغبتي واختياري، وإنما هو ما ألهمني به، وأوحاه إليَّ، وأمرني به الله تعالى..

أمَّا هذا العلم من الغيب فهو مما علَّمه الله من لدنه العبدَ الصالحَ كما يقول تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2]، ولذلك يطلق عليه «العلم اللَّدُني».

وهذا «العلم اللدني»، الذي يختصُّ بأمور معينة ومحدودة من الغيب، قد أُوتيه يوسف عليه السلام بتأويل المنامات أو معرفة أمور قد تحدث قبل وقوعها.. ومنها ما أخبَرَ به صاحبَيْه في السجن ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

﴿رَبِّيٓ﴾[1]، وذلك أنَّ أحدهما كان قد رأى في الحلم بأنه يعصر خمراً: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾[2]، وأنَّ الآخر كان قد حلم بأنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾[3]. فكان تأويل يوسف عليه السلام أو تفسيره لرؤيا الأول أنه سوف يخرج من السجن بلا عقاب، ويعود لخدمة الملك يسقيه خمراً. ولرؤيا الثاني أنه سيقتل ويصلب فتأكل الطير من جسمه ورأسه. وقد صدق تأويله فعادَ الأول ساقياً في قصر الملك، وصلب الآخر كما يستنتج من السياق القرآني في قصة يوسف عليه السلام.

وكذلك فإن يوسف عليه السلام بعد أنْ أدخلَ إخوته عليه في مقامه بأرض مصر، وعرفوه بعد غيابٍ طويل، قام إلى قميصه وطلب أن يحملوه معهم إلى أرض بلادهم في فلسطين فيلقوه على وجه أبيه يعقوب عليه السلام، فيرتد إليه بصره ويأتيه مصرَ وهو بصير، كما يدلُّ عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾[4].

وهذا علمٌ من لدن الله تعالى يكشف به لأنبيائه عن بعضٍ من أسرار غيبه المكنون بما يقذف في قلوبهم الإِلهام، أو الرؤيا التي تتداخل مع الإلهام، من حيث كونها من لدن الله تعالى أيضاً، ولكنها تحصل في المنام لتدلَّ على أمر سيحدث في الواقع، فيقال لها ـ حينئذٍ ـ الرؤيا الصادقة، كما عرفها سيدنا إبراهيم عليه السلام بتمام رهبتها

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٣.

وصدقيتها، وذلك عندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام؛ يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وتستوقفنا في هذا النص القرآني عبارتان: الأولى قوله تعالى على لسان إسماعيل: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، أي إن الرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام في المنام كانت أمراً من الله تعالى. والعبارة الثانية ما أوحاه الله لنبيّه إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي إنَّ رؤياه في المنام كانت صادقة، فكان عليه أنْ يعمل بمصاديقها، وهو بالفعل ما قام به إبراهيم عليه السلام . .

ومن الرؤى بالحق التي كان سيدنا محمد ﷺ يراها ما أورده القرآنُ المجيد بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾(٢). فقد رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه ذهب هو وجمعٌ من المؤمنين إلى مكة، ودخلوا المسجد الحرام يؤدّون مناسكهم باطمئنان فنادى مناديه أنَّ نبيّكم يبشركم: لتدخُلنَّ المسجد الحرام، إنْ شاء الله آمنين فلا يطالكم أذى من قريش، وتؤدون المناسك محلقين رؤوسكم ومقصّرين، لا تخافون من عدوكم بأساً، ولا شدّة. . تلك كانت البشرى العظيمة: «لتدخلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله» ـ فاللام للتوكيد، أي إنَّ دخولهم المسجد الحرام حاصلٌ حكماً، بمشيئة من

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٥.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

الله تعالى، لا رادَّ لها.. وأذَّن رسولُ الله ﷺ في الناس ـ مسلمين وعرباً غير مسلمين ـ بالحجّ، ثم خرج في ذي القعدة بنحوٍ من ألف وأربعمئة رجل، ولكنَّ المشركين في مكة أوقفوهم في الحديبية، وحالوا دون دخولهم المسجد الحرام، وبعد مكوثٍ طويل في تلك المحلّة، اضطرت قريش لأن تعقد مع رسول الله ﷺ معاهدة، كان من بنودها عودة المسلمين العام المقبل، والدخول إلى المسجد الحرام معتمرين.

فتلك الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في المنام كانت من علم الغيب، ولكنها تحققت بعد عامٍ من معاهدة الحديبية، عندما جاء الرسول الأكرم ﷺ ومن معه من المسلمين معتمرين، ودخلوا المسجد الحرام محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، لا يخافون بأس المشركين، فكان في ذلك تصديقُ الله تعالى رؤيا نبيه محمد ﷺ بالحق، أي بالأمر الجازم المحتوم الذي لا بدَّ وأن يتحقق في دنيا الواقع، كما حصل بالفعل بعد عام الحديبية..

إذاً فالعلم اللدني علمٌ من عند الله تعالى، يكشف به، من علم الغيب الذي لا يعلمه إلاَّ هو سبحانه وتعالى، لبعضٍ من أنبيائه أو أوليائه أو عباده الصالحين عن أحداث تتحقَّق في المستقبل، وتكون عادة غير متوقعة، ويحصل ذلك العلم عن طريق الإلهام، أو عن طريق «الرؤى الصادقة»..

ولكن ماذا عن غير أولئك الذين يختصُّهم الله تعالى بشيءٍ من «العلم اللدني»، هل يقدرون على معرفة شيءٍ من الغيب عن طريق الإلهام والرؤيا؟

من الحقائق المعروفة أن اكتساب المعرفة يتم ـ كما بيّنا من قبل ـ عن طريق الحواس والعقل، وهذا يحصل للإنسان العادي كما يحصل للعالم، مع الفارق في القدرة على تحصيل العلم واكتساب المعرفة.

ومن الثابت أيضاً في مفاهيمنا الإسلامية أنه يمكن للإنسان أن يتمتع بالإلهام أو أن يُرى رؤى صالحة، ولو كان من غير الأنبياء والمرسلين، مثل العبد الصالح الذي رافقَهُ النبيُّ موسى عليه السلام وقد أمدَّنا القرآنُ الكريم بأمثلةٍ حسيةٍ على ذلك، ومنها الوحيُ لأم موسى بما ألهمَها الله تعالى وقذف في قلبها من أنْ تقذف ابنَها في اليم ـ نهر النيل ـ وألاّ تخاف عليه لأن الله تعالى رادّه إليها[1]. وكذلك الإلهام الذي قذفه ـ تعالى ـ في قلب سليمان بن داود قبل أنْ يرث أباه في الملك والنبوة، ليحكم في قضية الحرث[2].

ومثل هذا الإلهام، أو العلم من لدن الله تعالى، ما يبيّنه الحديثُ النبوي الشريف، فقد روى أبو نعيم عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ وَرَّثَهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ»**. وعن أبي سعيد: أنَّ الرسول ﷺ قال: **«اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِن فإنَّهُ يَنظُرُ بنُورِ الله تَعالى»** ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[3]: أي المتفرّسين[4].

وهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى يقذف في نفس المؤمن نوراً

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٨ و٧٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٧٥.

(٤) الترمذي، ج٦، ص١٥.

يمكّنه به من رؤية بعض الأمور الخفية، أو فهم ما يستعصي على غيره فهمه، بطريقة صحيحة كما يفهمها المؤمن، وتتوافق مع الحقيقة.

ويصدق هذا في واقع الحياة، إذْ كثيراً ما نسمع بأنَّ فلاناً من الناس ملهمٌ، وبأنَّ فلاناً ألمعيّ أو عبقريُّ، وما إلى ذلك من المرادفات التي تدل على الفكر المستنير وقوة الشعور.

وفي دراسات «علم النفس» ما يؤكد حقيقة الفكر المستنير أو المبدع. ويستعملون عادة لفظ «الإلهام»، كما كان يستعمل الفلاسفة من قبل لفظ «الإشراق». ولكنهم يردون ذلك إلى عوامل داخلية في الإنسان، وعوامل خارجية مؤثرة عليه. فإذا ما اعترضت الإنسانَ مشكلةٌ أو قضية هامة من دون أنْ يستطيع معالجتها أو حلَّها، فإنه يصرف تفكيره عنها إلى فترة من الزمن، يسمّونها «فترة الحضانة»، أي إن الفكر يحتضن المشكلة، ولكن يبقى هنالك نوع من الشعور الباطني بها، حتى إذا تسنَّت للعقل عوامل جديدة، أعاد تلك المشكلة من الحضانة الشعورية إلى اهتمام العقل، حتى تصبح لدى الإنسان الإمكانية لإيجاد علاج لها. والمقولة الشائعة في ثقافة الغرب، أنَّه إذا استعصت على الإنسان مشكلة من المشاكل فليتركها إلى الزمن وهو كفيل بمعالجتها. . .

ويعزو «علم النفس» هذا النوع من العلم المُلْهَم إلى عوامل فيزيولوجية تحدث في الدماغ وعوامل نفسية يتفاعل فيها الوعي و«اللاوعي»، حتى يأتي الإلهام في ما بعد وتحصل المعرفة المرجوة.

أما في المفهوم الإسلامي فالأمر مختلف تماماً. وهو يقوم على أنَّ الله تعالى هو السميع لأقوال عباده، العليم بفعالهم وأعمالهم،

والخبير بنياتهم، فلا يعزُبُ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بقوله الحق: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[1]، فهو سبحانه يعلم كلَّ شيء قبل أن يكون، وبعد أن يكون، فلا يغيب عنه شيء في السماء ولا في الأرض، وهذا هو معنى العلم المطلق لله سبحانه وتعالى، أي علم الله الذي وسع كلَّ شيء في الأرض وفي السماء، وهذا يعني أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عندما يخلق الإنسان بكل تكوينه، وكامل استعداداته، فإنَّه يعلم ما سيكونُ من أمر هذا الإنسان في حياته؛ فإذا قُدِّر للإنسان أن يسعى في سبل المعرفة، ومناكب العلم وهو ما يتوقف مع مكرمته الإنسانية ـ فإن التوجيه والتسديد قد يحالفه بأمر الله سبحانه وتعالى. . وما الإلهامُ إلا نوعٌ من هذا التوجيه الربانيّ أو هو فضل زائد يهبه سبحانه لعباد يختارهم لحكمةٍ إلَهيةٍ لا ندري مغازيها، ولكننا نعرف أنها تهدي لخير الإنسان. فلا يقولَنَّ أحد إنَّ هذا العالم أو الأديب أو الباحث أو المكتشف مؤمن أو كافر، أو إنَّ هذا الإنسان جاهلٌ أو أميٌّ، ملهمٌ أو غيرُ فطنٍ. . . فالله تعالى يمدُّ من يشاء من عباده بطاقاتٍ وإمكاناتٍ قد تظهر بالوحي أو الإلهام أو الرؤيا. ولكنَّ الغالب أنَّ النفس الصافية ـ ومن مقوماتها العقلُ المستنير، والقلب المطمئن ـ تكون عادة أقربَ إلى الإلهام، وأقدر على التلقي، وأقوى على العطاء. فلا عجب إذاً أنْ يُريَ الله تعالى ملك مصر في المنام رؤيا البقراتِ السبعِ السّمان، التي تأكلهنَّ سبعُ بقراتٍ عجافٍ، والسنابلِ السبعِ الخُضرِ، والسنابلِ السبعِ اليابسات، لحكمة يشاؤها

---

(1) سورة يونس، الآية: ٦١.

سبحانه، وأنْ يلهم يوسف عليه السلام تأويل تلك الرؤيا، بأنْ تأتيَ على مصر سبعُ سنواتٍ تفيض فيها الأرزاق والخيرات، ثم تعقبها سبعُ سنين من الجدب والقحط، تذهب بكل شيءٍ، إلاَّ ما حفظوه في سنابله، كما نصحهم به يوسف عليه السلام ؛ وقد تحققت رؤيا ملك مصر على أرض الواقع ـ على الرغم من أنه لم يكن يؤمن بعقيدة التوحيد ـ وصدق تأويل يوسف عليه السلام لرؤياه، وكل ذلك توكيد لأمر الله تعالى، الذي يوحي بالرؤيا، مثلما يوحي بالتأويل..

وهكذا فإنَّ الرؤيا الصادقة كما تكون للأنبياء، يمكن أنْ تكون أيضاً لغيرهم من عباد الله الصالحين، وهي تحصل ـ مبدئياً ـ في المنام، وترمي إلى إظهار أمرٍ غيبيٍّ لا بدَّ أن يحصل على أرض الواقع، وهذا ما يجعل الرؤى تختلف عن الأحلام. فالحلم، كما ذهب إليه علم النفس، هو «نشاط ذهني يحدث أثناء النوم، ويرى فيه الإنسان، وهو نائم، صوراً وأحداثاً مختلفة، ويقوم فيها بأفعال ونشاطات كثيرة قد يتذكر بعضها عند النهوض، وقد ينسى بعضها الآخر».

ويذهب المفسرون في تأويل الأحلام مذاهب شتى، وهنالك مؤلفات كثيرةٌ تتناول تفسير الأحلام، لا يعدو كثير منها أنْ يكون صفّاً من الحروف الذي لا يفيد بشيء بتاتاً.. بينما يختلف الأمر في المفاهيم الإسلامية، ففي حين هي تجعل للرؤى واقعاً محسوساً، فإنها تُبقي الأحلام في دائرة الخيالات والصور التي يراها الإنسان في منامه، ولذلك يسميها القرآن الكريم «أضغاث الأحلام»، أي الأحلام المختلطة المضطربة الغامضة، التي قد تنشأ عن مؤثرات داخلية في النفس، أو عن أحاسيس خارجية تتأثر بها الحواس أو بسبب انشغال الفكر بأمور معينة أثناء اليقظة، أو هي تعبير عن ذكريات سابقة مؤثرة.

وهي في مجملها تختلف عن الرؤى الصادقة التي يريها الله تعالى لمن يشاء. وفي هذا الصدد يقول الرسولُ ﷺ: **«لم يبقَ مِنَ النبوّةِ إلا المُبشِّراتُ»**. قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: **«الرؤيا الصالحة»**[(١)]؛ وقد فرّق رسول الله ﷺ بين الرؤيا والحلم، فعن قتادة أنّه ﷺ قال: **«الرُؤيا مِنَ الله، والحُلُمُ مِنَ الشيطان. فإذا رَأى أحدُكُم شيئاً يكرَهُهُ فلينفُثْ عن يسارِهِ ثلاثَ مراتٍ وليتَعَوَّذْ مِنَ شرِّ رُؤياهُ فإنّها لا تَضُرُّه»**[(٢)]، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأى أحدُكُم رُؤيا يحبُّها فإنّما هِيَ مِنْ عندِ الله، فليحمَدِ الله وليتحدَّث بها. وإذا رأى غيرَ ذلك مِمّا يكرَهُ فإنّما هِيَ مِنَ الشيطانِ فليستعذْ مِنْ شرّها ولا يذْكُرْها لأحد فإنّها لا تَضُرُّه»**[(٣)].

وكذلك ميَّزَ العلماءُ المسلمون بين الرؤى والأحلام، ففسَّر ابن سينا الرؤيا الصادقة بأنها تحدث نتيجة اتصال النفس بالملكوت، أو بالملأ الأعلى أثناء النوم، وتلقي الوحي أو الإلهام. أما الحلم (أضغاث الأحلام) فينشأ عن تأثير الإحساسات البدنية.

من كل ذلك يتبين الفرق بين «العلم اللدني» الذي يعلّمه الله تعالى لأناس مخصوصين، والعلم الناشئ عن الفكر المستنير ، وهو - في الأصل - إلهام من الله تعالى أيضاً، ولكنه يستلزم معه جهدَ الإنسان بلا ملل ولا كلل، حتى يمكن للعالم أنْ يُبدعَ في الاكتشافات وإنشاء الأفكار الجديدة، التي لا يمكن اعتبارها أموراً من الغيب، بل تنشأ عن القوى العقلية عند الإنسان، وما من مخلوق في السماوات

---

(١) الترمذي، باب الرؤيا، ص٢.
(٢) صحيح مسلم، باب الرؤيا، ص٢٠١.
(٣) أحمد بن حنبل، ج٢، ص١٢٧.

والأرض أوتي من علم الغيب إلاَّ بقدرٍ يسيرٍ جداً ولأمورٍ محدودةٍ جدّاً، حسبما تقتضي حكمة الله تعالى، بحيث يبقى علمُ الغيب لله تعالى، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[1]. ويتوجَّهُ النبيُّ عيسى عليه السلام إلى ربه تعالى، بالقول الحقِّ المبين: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[3].

وسواء كان علم الإنسان علماً لدنيّاً محدوداً، أو كان مما ينشئ من عقله علماً واسعاً، فإنَّ الإنسانَ لا يقدر على شيءٍ إلاَّ أن يشاءَ الله تعالى. . فها هو قد عاش منذ فجر الخليقة، والجراثيم، مثلاً، تنتشر في أجواء حياته، تصيب جسمه بالأمراض، كما تصيب الأحياء الأخرى من حوله، ومع ذلك فإنه لم يقدر على معرفة هذه الجراثيم إلاَّ منذ عهد قريب، بعدما تقدم في اكتشافه للآلات أو الميكروسكوبات التي تكبر صورة الجرثومة ملايين المرات، وبواسطة هذه الآلات استطاع معرفة حقيقة هذه الكائنات الصغيرة، وأشكالها، وكيفية تكاثرها، وكيف تصيب جسم الإنسان أو أحد أعضائه. ونتيجة لذلك أمكنه أن يوجد العلاجات المناسبة للأمراض التي كانت تفتك بأبناء جنسه، بينما كان بعض التداوي في الماضي، وقبل الاكتشافات العلمية، يتم بطرق خرافية، أو قريبة من الخرافات، مثل اللجوء إلى العرّافين الذين كانوا يوهمون الناس بأنَّ الأرواح الشريرة تدخل نفس الإنسان أو جسمه، ولا

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦ و٢٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٨.

يمكن طردها إلاَّ عن طريق الضرب حتى تخرج وتذهب بعيداً، أو مثل التداوي عن طريق التنويم المغناطيسي، أو شلّ حركة المريض بأساليب وطرق أقرب ما تكون إلى الشعوذات التي لا تجدي، ولا تشفي.. والتي لا يزال كثيرون من الناس، يعتقدون ـ ويا للأسف ـ بصحتها..

وقس على المعالجة من الجراثيم سائر الاكتشافات العلمية مثل الآلة البخارية، أو الطائرة، أو السفينة، أو الهاتف، أو المذياع، وأخيراً هذه المكتشفات الحديثة التي تُسمّى العقول الإلكترونية والأقمار الصناعية، وكلها أدت خدمات جلى للإنسان في ميادين الطب والفلك والمواصلات والاتصالات، ومختلف أنواع العلوم والمعارف. ولعلَّ البثَّ المرئيَّ من أدلّ الشواهد على التقدم العلمي، إذ بواسطة الأقمار الصناعية التي تسير في الفضاء، وبواسطة محطات التلقّي، وأجهزة البث التلفزيونية، أمكننا أن نرى بأم العين سطح القمر، وكيف نزل الإنسان عليه ووطِئه بقدميه، كما بتنا نشاهد كلَّ يوم مختلف مسارات الحياة على الأرض من أحداث تحصل، أو مؤتمرات تعقد، أو مباريات تجري، أو حرب تقتل أو غزو يدمّر، أو كوارث طبيعية تهبُّ وتهلك البشر والحجر.. بحيث صار كل ما يجري في مختلف أرجاء العالم في متناول أيدينا عبر أجهزة التلفزة، أو الإنترنت أو الهاتف، وما إلى ذلك من الوسائل الأخرى المربوطة بالأقمار الصناعية، التي تتيح لنا، ونحن نقبع في حجرةٍ من بيوتنا، أو في مكتبٍ من مؤسساتنا، أنْ نسمع، ونرى، ونطّلع على كل ما يدور في الكرة الأرضية، وفي بحارها، وفي فضاء الكون الواسع. وكل تلك المنجزات الرائعة كانت في طي الغيب، ومستورةً عن الإنسان، حتى إذا شاء الله ـ تعالى ـ علاّمُ الغيوب أنْ يعلّمها لهذا الإنسان، وهبه

القدرة العقلية، وهداه إلى طرق اكتشافها، لتصبح من الوقائع الملموسة التي تحققت بفعل العقل البشري، وقوة الإدراك لديه.

ولكن ما تقتضي الإشارة إليه هو أن هذه المنجزات ما كانت لتتحقق لو لم تتوافر المعطيات اللازمة لإيجادها. فهذه المعطيات من أوجدها؟ أليس الله تعالى؟ بلى، إذ كما خلق الطاقة العقلية في الإنسان، مكَّن له في الأرض بما أوجَدَ فيها من الأشياء، وما يحتاجه لاكتشاف خصائصها، ومعرفة قوانينها، التي تمكّنه من تحقيق الإنجازات الكبيرة في مختلف ميادين العلم والمعرفة. . وهذا ما يؤكد المفهوم الإسلامي «للعلم اللدني» الذي هو هبة من عند الله تعالى. ولو أنعمنا النظر في القرآن الكريم، كتاب الله المبين، لوجدنا أنَّ كل شيء من خلق الله تعالى إمَّا خلقاً مباشراً، وإمّا عن طريق الإلهام للفكر البشري بالاكتشاف والإنشاء، ذلك أنَّ الله تعالى هو الخالق، وقد أحصى كل شيءٍ عدداً، وقدَّر كل شيء تقديراً، لأنه سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقد أحاط بكل شيء علماً كما يؤكده قوله عزَّ وعلا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]. و«الكتاب» هو المحفوظ عند ذي العرش العظيم، وفيه إحصاء دقيق، وتام لكل المخلوقات في السماوات والأرض، وما يراد بها، وما يراد منها، والأرض كمثال جزئي على هذا الخلق الكبير إن كل ما فيها من الكائنات الحية، مما يدبّ على رجليه، أو يزحف على بطنه، أو يطير بجناحيه، إن هي إلا أجناس لا تعدّ ولا تحصى وهي تختلف بأنواعها

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

وأعدادها. والاهتداء إلى سبل عيشها كاختلاف الناس بألسنتهم، وأنماط عيشهم، وطرائق اجتماعهم وتآلفهم، أو تفرّقهم وتنازعاتهم. وقد مثّلت الحيوانات والطيور بالأمم البشرية للدلالة على حاجتها إلى مدبِّر يدبّرها في أغذيتها، وسعيها، ونومها، وهدايتها إلى مرابعها لتستطيع العيش في مختلف الأحوال المهيأة لها.. وهذا من نعم الله تعالى وعظيم قدرته في خلقه، وتقديره، وتدبيره، وإحصائه، كما هو كائنٌ في اللوح المحفوظ، بحكمة بالغةٍ وتقدير ثابت، ففي هذا اللوح مقدر لكل كائن حي حياته، ورزقه وأجله، وكل شأن خاص به. وعندما يخبرنا العليُّ القدير بقوله العزيز: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، فإنما هو الدليل القاطع على أنَّ أعمالنا ونياتنا، ومشاعرنا، وأقوالنا إنَّما هي مدرجة في الإحصاء الدقيق، الذي على أساسه يتم حسابنا يوم القيامة، وأنَّ كلَّ خلائق الأرض، وليس وحدنا نحن البشر، سوف تُحشر جميعاً، في ذلك اليوم إلى ربّها لأنَّ وراءه حياة الخلود في الجنة أو النار.. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.. وقد نعرف نحن البشر لماذا يكون حشرنا، إلا أننا لا نعلم شيئاً عن حشر الأحياء الأخرى من الحيوان والطير إلاَّ ما أشار إليه الحديث النبوي الشريف بقوله ﷺ: **«لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ حتى يُقادَ للشَّاةِ الجلحاءِ (الملساء، بلا قرون) مِنَ الشاةِ القَرْنَاءِ»**[1]. ومع ذلك فإنَّ كيفية ذلك الحشر، وزمانه ومكانه، كله من أسرار الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، إنما علينا التسليم بأنَّهُ حقٌّ يقيني، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم ٤٦٧٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

ومن حيث تأثير علم الغيب على المدنية والحضارة، فقد بات واضحاً أنَّ كلَّ شيءٍ في السماء والأرض إنما هو ـ وفقاً للتعاليم الإسلامية ـ كائن بمشيئة الله تعالى المطلقة. . .ومن نافل القول أنَّ آلافاً، وآلافاً من السنين، في الوجود البشري، قد عبرت، وأنَّ قوافل الملايين من الناس قد ذهبت، ومثلها مدنيات وحضارات كثيرة قد زالت واندثرت، ولم يبق من بعضها إلاَّ معالم قليلة شاهدة؛ ومع ذلك فلا يزال البشر يتكاثرون، وفي كل عصر وجيل تتمّ اكتشافات، وتنشأ علوم ومعارف جديدة تنمُّ عن توق الإنسان إلى المعرفة والعلم بعد أنْ هيَّأ الله تعالى له السبل لذلك فجعل الأرض ذلولاً، وجعل الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم مسخَّرات بأمره لمصلحة هذا الإنسان حتى يتاحَ له أنْ يطوِّع كثيراً من الأشياء التي تحيط به، وأنْ يكيّفها على هذا النحو من التكييف الذي تتوالى وتيرتُهُ علماً وتقدماً، ومدنية وحضارة عبر العصور. وهذا طبعاً بخلاف الحيوان الأعجم الذي ظلَّ على نشأته الأولى منذ وجوده، خلافاً لما قاله «داروين» من أَنَّ أصل الإنسان نوع متطور من القردة أمكنها أن تغير في نمط عيشها، والمثال بسيط على خطأ النظرية الداروينية: فهل أمكن للقردة ـ وتوكيداً هي لا تزال على حالها منذ خلقها الله ـ أنْ تبني قرية تسكن فيها أو تكتشف مادة تتداوى بها، إلاَّ في أذهان الخياليين والممثلين؟ أم هل نجد أنَّ قطيعاً من الغزلان عقد معاهدة مع أسود الغابة أو ذئابها بعدم الاعتداء عليها وافتراسها، إلاَّ في خيال ابن المقفع، أو لافونتين؟!

ولكن من الثابت أن الاهتداء الغريزي قد جعل النمل يعيش في مجتمع منظم بأدق تنظيم، وكذلك جماعة النحل. . كما أنه بواسطة

هذا الاهتداء الغريزي تهجر جماعات من الطيور أو السمك أو بعض أنواع الحيوان أماكن عيشها إلى أماكن أخرى، في فصل معين، أو خلال موسم معين من السنة، لأغراض معينة، مثل اتقاء الحرارة أو الصقيع، أو بداعي التناسل أو الحصول على الغذاء، وغير ذلك مما يدخل في إطار البقاء والاستمرار.. ولكن ذلك يتم بفعل الاهتداء الغريزي الذي أوجده الله تعالى في هذه المخلوقات منذ بدء خلقها، من دون أن يطرأ على غرائزها تطورات تجعلها على طبيعة غير طبائعها الأصلية.

كل هذا يثبت أن الإنسان نموذج فريد في خلقه، وبمقدار ما أكرمه الله تعالى في هذا الخلق، بقدر ما كان مقدراً على هذا الإنسان أن يعمّر الأرض، وأن يتقدم في مضمار النشوء والارتقاء ما شاء الله تعالى.

ولذلك، كان على الإنسان أنْ يتفكَّر، ويتأمَّل، ويسعى ويعمل حتى يستيقن بالدليل والبرهان أنَّ كل ما خلق الله ـ جلَّت قدرته ـ هو الحقُّ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]. أي إنَّ الله تعالى، وهو الخلَّاق العليم، قد نصب في أقطار السماوات والأرض من دلائل قدرته، وفي خلق الناس من بديع صنعه ما يحث العقل البشري على النظر والتبصّر حتى يتبيّن للناس أنَّ ذلك هو الحقُّ من ربهم، فلا يمترون ولا يجحدون الحقَّ المبين، وهل بعد الحقّ إلاَّ الضلال؟!.. أجل، إنَّ هذا ما يهدينا إليه القرآن الكريم، وهو أنَّ كل شيء في الكون، قائم على ناموس الحق فكان حرياً بالإنسان أن يهتدي

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

إلى هذه الحقيقة حتى لا تضلَّ العقول، وتعمى القلوب التي في الصدور، فلا يعود الإنسان قادراً على أن ينشئ، ويبني، ويعمّر؛ وهذا ما يجعله في ضياعٍ عن معرفة السنن والحقائق، وفي تصادم مع نظام الكون بما يؤدي إلى قهره، وتخريب مدنياته، والقضاء على حضاراته!.. ولذلك جاءت مفاهيم الإسلام تختلف عن مفاهيم الأيديولوجيات التي ابتدعها الناس، سواء في الشرق أو الغرب، والتي تجعل للمدنية أو الحضارة معنىً مختلفاً عن مضامينها الحقيقية، إذ وفقاً للمفاهيم الإسلامية:

الحضارة: هي مجموعُ المفاهيم النابعةِ من وجهةِ النظر إلى الحياةِ.

والمدنية: هي الأشكالُ الماديّةُ للأشياءِ المحسوسةِ التي تُستَعمَلُ في شؤونِ الحياةِ. وغالباً ما تكون ناشئة عن العلم كما هو الحال مثلاً في الصناعة التي تنتج المُختَبراتِ والآلات الزراعيةِ والصناعية ونحوها، والأثاثِ ولوازم البيت، وغيرها. وهي أشكالٌ مدنيةٌ عالميةٌ لا يُراعى في أخذها أيّ اعتبار، لأنها ليستْ هي الحضارة بل هي مظاهر مادية للحضارة، تختلف باختلاف أنواع الحضارات وزمانها..

ومن هذا التعريف لكل من الحضارة والمدنية، نجد أنَّ الحضارة الغربية تختلف في نظرتها إلى الحياة والإنسان عن الحضارة الإسلامية.. فمن الاختلاف في المفاهيم أنَّ الغرب يعتبر التماثيل نتاجاً حضارياً ممتعاً للإنسان، ولذلك تجده يزيّن بيوته، وحدائقه وساحاته العامة بالتماثيل على اختلاف أنواعها، بما في ذلك تماثيل النساء والرجال عراةً، بينما تُعتبر التماثيل مكروهة ومحرمة في نظر الفقهاء المسلمين. وقد ورد ذمُّها في القرآن الكريم لأنها اتُّخذت

وسيلة للشرك بالله تعالى، فعبدها الناس في جاهليتهم، واتخذوها آلهة تقربهم إلى الله زلفى.. فعندما يعتبر الغرب صورة المرأة العارية قطعةً فنيّة، يفاخر باقتنائها لأنها تعبّر عن ذوقه في الجمال، نجد ذلك يتناقض مع المفهوم الإسلامي الذي يعتبر المرأة عُرْضاً يجب أنْ يصان، ويُحرِّم بالتالي الكشف عن عورة المرأة والرجل سواء بسواء. ولقد ثبت أنَّ تصوير العُري وعرضه في البيوت، وفي الصالات والمعارض وعلى لوحات الإعلان، وشاشات التلفزيون من بين الأسباب التي تؤدي إلى إثارة الشهوات الجنسية، وما يستتبعها من علاقات غير شرعية بين الجنسين أشدُّها خطورة ضياع نسب النسل، وعدم الحفاظ على الشرف والكرامة، ما يعني أنَّ تحريمَ العُري ـ حتى بالصور ـ فيه وفقاً للمفهوم الإسلامي، نظريةٌ حضاريةٌ غايتها الحفاظ على الأخلاق الفاضلة، والحياة العائلية المصونة، والكرامة الشخصية الفردية..

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الزواج، فإنَّ الإسلام يبيح تعدد الزوجات حتى أربع، مع التوكيد على العدل بينهنَّ، بل ويرى القرآن الكريم أنَّ هذا العدل بين الزوجات غير مقدور عليه، ولو حرص الرجل.. في حين أنَّ الغرب، وإنْ كان يمنع تعدّد الزوجات قانوناً، إلَّا أنه أفسح في المجال لعلاقات الزنا تحت مقولة احترام الحرية الشخصية، كما أقرَّ الزواج المدني الذي يعقده رئيس البلدية أو أي مرجع رسمي آخر مخوّل بذلك، في حين أنَّ البلاد الإسلامية لا تزال تعمل بالزواج الشرعي، ومن أركانه مهر المرأة ـ غنية أو فقيرة ـ بحيث لا ينعقد الزواج من دونه.. بل وظهرت أخيراً في بعض دول الغرب القوانين التي تتيح زواج الرجل بالرجل ـ أي زواج المثل ـ

بينما يحرّم الإسلام أيّ تعاطٍ جنسي بين الأنثى والأنثى، وبين الرجل والرجل، ويعتبر التعاطي الجنسي بين الذكور لواطاً أشدَّ فاحشةً من الزنا بين الرجل والمرأة، ولاسيما أنه يخالف سنة الله في خلق الإنسان، ويخالف غريزة الحفاظ على النوع البشري. . والغريب أنْ تباح في الغرب مثل هذه العلاقات الشاذة بين الرجل والرجل، أو المرأة والمرأة، في حين لا توجد أي علاقة جنسية ما بين الذكور، أو ما بين الإناث، في عالم الحيوان، أو ما بين نوعٍ ونوعٍ غيره من الحيوان، وهو ما يجعل الزواج بين الذكور في الغرب أمراً مستهجناً، ويخالف النظام الطبيعي للخلق، وقس على ذلك اختلاف كثير من المفاهيم الأخرى بين الحضارتين الغربية والإسلامية. . فمن مظاهر الحياة الغربية قوننة وانتشار نوادٍ وكازينوهات القمار ـ على أنواعها ـ بينما يُعدُّ القمار، والمراهنات على شتى أشكالها، أنواعاً من الميسر الذي يحرّمه الإسلام. وكذلك الربا، ولا سيما الفوائد التي تعطيها البنوك الرأسمالية على ودائع الأموال، فالقرآن الكريم قد حرَّم الربا من قريب أو بعيد، مهما اختلفت تسمياته؛ كما حرَّم الشركات التجارية المساهمة التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية في الغرب، لأنها تخالف أنواع الشركات في الإسلام، وأباح أنواعاً أخرى من الشركات التي تولي الجهد البشري شأناً هاماً في نشاطاتها، أضف إلى ذلك أن حضارة الغرب تقوم على مبدأ فصل الدين عن الدولة، الذي أنكر على الدين قدرته على تقديم مناهج وأنظمة تصلح للحياة، أي إنَّ هذا المبدأ ـ بصورة أخرى ـ قد جرَّد الدولة من مقوّمات الدين وهديه، فانعكس ذلك على حياة الناس إلحاداً، وماديّة صرفة، مع ما يستتبع ذلك من إبعاد الحياة الإنسانية عن كثير من المعاني الروحية. . . فالواضح أنَّ

الهدف الرئيسي لحضارة الغرب هو المنفعة المادية، مهما كثرت الشعارات الطنانة حول الديموقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات الفردية والاقتصادية، وما إلى ذلك من النظريات أو المبادئ التي يرى الغرب أنها الأساس لتقدّمه الصناعي والعمراني، ولمدنيّته التي تحفل بكل المظاهر المعروفة!... ولذلك كانَتِ السعادةُ في نظر الغرب، إعطاءَ الإنسانِ أكبرَ قسطٍ من المُتْعَةِ الجسدية، وتوفير أسبابها؛ أي بما جعل حضارته نفعيةً بحتةً لا تقيمُ لغيرها من الحضارات أيّ وزنٍ ولا تعترفُ إلا بنفسها فقطْ. وأما الناحيةُ الرّوحيةُ فهيَ فرديةٌ لا شأنَ للجماعةِ بها، وتكادُ تكون محصورةً بالكنيسة، أو في أماكن العبادات الأخرى؛ ولذلك نجد أنَّ غالبية الأعمال الإنسانية تابعةٌ لمنظماتٍ منفصلةٍ عنِ الدولةِ كمؤسّسةِ الصليبِ الأحمرِ، والإرسالياتِ التبشيريةِ.. وأما أخطر وأشنع ما ظهرت عليه الحضارةُ الغربيةُ فكرة قبولها باستعمار البلاد الأخرى واستلاب خيراتها، واستغلال طاقات شعوبها لمصلحة المستعمر الأوروبي والأميركي، وكانت عصبة الأمم - وهي نتاجٌ للفكر الغربي - هي التي أقرَّت نظام الاستعمار تحت شعارات زائفة، أثبت التاريخ والواقع بطلانها، بل وكذبها الفاضح، فكل ذلك من الأدلة التي تجعل الحضارة الغربية لا تقيم كبير اعتبار للقيم الأخلاقية أوّ الروحية أو الإنسانية، بل تكتفي - في الغالب - بالقَيِمِ الماديةِ والنفعيةِ فقطْ.

أمّا الحضارةُ الإسلامية فتقومُ على أساسٍ روحيّ هو العقيدةُ الإسلاميةُ. وتصويرُ الحياةِ في الحضارةِ الإسلاميةِ يتمثّلُ في فلسفةِ الإسلامِ التي انبَثَقت من العقيدةِ الإسلاميةِ، وهي مزْجُ المادّةِ بالرّوحِ،

أيْ جعلُ الأعمالِ مُسَيَّرةً بأوامر اللَّهِ ونواهيهِ. فالعملُ الإنسانيّ مظهر ماديّ، وإدراكُ الإنسانِ صلَتَهُ باللَّهِ حينَ قيامهِ بالعملِ، منْ حيثُ كونُه حلالاً أو حراماً، هو أمر روحي، وبذلكَ تمتزجُ المادّةُ بالرّوحِ. وبناء على ذلكَ كانتْ أوامرُ اللَّهِ ونواهيهِ، هِيَ المحرّكَ لأعمالِ المسلمِ، وليس النفعية، والنفعية وحدها!.. أمّا القَصْدُ من القيامِ بالعملِ نفسهِ فلا يتعدّى القيمةَ التي يُراعى تحقيقها حينَ القيام بالعملِ. وقد تختلف القيمةُ باختلافِ العملِ، فقد تكونُ مادّيةً كالتجارةِ بقصدِ الرّبحِ، وقد تكونُ رُوحيةً كالصلاة والصيامِ والحجِ؛ وقدْ تكونُ أخلاقيةً كالأمانةِ والصّدقِ والوَفاءِ، وقدْ تكونُ إنسانيةً كإغاثةِ الملْهوفِ، والتسامح، وحب الآخرين، واحترام النفس، وإشاعة الأمن والسلام في ربوع الأرض.. وما إلى ذلك من القيم الإنسانية التي يحثُ عليها الإسلام في كل منطلقاته وغاياته.

أمّا السعادة، فإن الإسلام جعل لها معنى حقيقياً في نظر المسلمينَ؛ إذ بعدَ أن كانت السعادة عندَ الناسِ إشباعَ الجوع، وإعطاءَ الجسدِ متعَةً، صارتِ السعادةُ نوالَ رضوانِ اللَّهِ، لأنَّ السعادةَ هي الطمأنينةُ الدائمةُ للإنسان، ومقومات هذه السعادة عديدة ومتنوعة من حيث إنها تبدأ من الإيمان بوحدانية الله تعالى، والعمل على طاعته، والخشية من غضبه، والتعامل مع الناس بالحسنى.. وما إلى ذلك من المعاني والمفاهيم التي تقوم عليها الأعمال الصالحات وتتوخى الدارين..

وهكذا فإن الإسلام قد أثّر في وجهة نظر الشعوب التي اعتنقته، إنْ من حيث الاعتقاد، أو من حيث الأعمال التي يقومون بها، وغيَّر مراتب الأشياء، فرفع من مرتبة أشياء وخفض من مرتبة أشياء أخرى.

إذ بعد أن كانت الحياة هي أعلى مرتبة عند الإنسان، والمبدأ هو أقل مرتبة منها، قَلَبَ الإسلامُ هذا المفهوم بأنْ جعلَ الحياةَ تقوم على المبدأ، لا المبدأ يقوم على الحياة، وجعل المبدأ هو الذي يقيّم الحياة من حيث صلاحه، لا الحياة هي التي تقيّم المبدأ من حيث صلاحه أو عدم صلاحه.. وبذلك وضعت الأشياء في المراتب اللائقة بها، فصارت الحياةُ سامية انطلاقاً من المبدأ، أي الحفاظ على الحياة وصونها جسداً وروحاً، والشعور بالطمأنينة؛ كما تغيرت المثل العليا عند تلك الشعوب التي اعتنقت الإسلام، فبدلاً من المثل العليا والمتعددة التي كانت سائدة، صار لهم مثل أعلى واحد (رضى الله تعالى)، كما تغيرت تبعاً لذلك معاني الأشياء عما كانت عليه، فتغير مثلاً مفهومُ الفضائلِ، كالشجاعة والشهامة والمناصرة العصبية، والتفاخر بالأموال والأحساب، والكرمِ إلى حدِّ الإسرافِ، والإخلاصُ للقوم، والقسوةُ في الانتقام، والأخذُ بالثأر، وما شاكل.. كلّ هذا كان ـ في معظمه ـ من أصولِ الفضائلِ عند العرب، وعند كثير من الشعوب غيرهم؛ فلما جاء الإسلامُ لم يتركْها كما هي عليه، بل جعلها صفاتٍ يتصف الإنسانُ بها إجابةً لأمرِ الله تعالى، لا لذات هذهِ الفضائل، ولا لما فيها من منافعَ، ولا لما تجره من مفاخرَ، ولا لأنها عاداتٌ وتقاليدُ متداولة، أو تراثٌ ينبغي أن يحافظَ عليه. ثم جعل الخضوع لله ولأوامرِهِ ونواهيِهِ أصلاً لكلِّ الفضائل، فأوجب إخضاعَ منافعِ الفردِ، والجماعة، والشعبِ، والأمةِ لأوامرِ الإسلام، أي لما تقرره الأحكام الشرعية في الدين الحنيف.

وهكذا نقل الإسلامُ عقليةَ الشعوبِ التي اعتنقته إلى نضوجٍ يربط الإنسان بخالقه، كما نقل «النفسية الإسلامية» إلى صفاءٍ يوافقُ فطرة

الإنسان السليمة؛ فأصبح أبناء تلك الشعوب بعد دخولِهِم في الإسلام غيرَهُمْ قبلَ ذلك. ثم صاروا يعرفون أنَّ للحياة معنىً جديداً أسمى من المتاعِ الزائل، وأغلى من المادّية القاتلة، بل أضحى لهم مثلٌ أعلى واحدٌ وثابتٌ، ألا وهو الحصول على رضوان الله سبحانه وتعالى. وأيقنوا أنَّ نيلَ هذا المثلِ الأعلى هو السعادةُ الحقيقيةُ. ولم تعد السعادة، بنظرهم، إشباعَ جوعِ الإنسانِ، لأنَّ ذلك لازمٌ للمحافظةِ على الذات، ولا علاقةَ له بالسّعادةِ، وهذا هوَ الأساسُ الذي تقومُ عليهِ الحضارةُ الإسلاميةُ.

أمَّا الحضارة الغربية فقد عجزت ـ سواء من ناحية المفاهيم، أو من ناحية التطبيق العملاني ـ عنْ ضمان السعادةِ والطمأنينةِ للناس، إنْ على مستوى الفرد، أو على مستوى الجماعة أو الشعب؛ لا بلْ إنها هي التي سبّبَت كلَّ هذا الشّقاء الذي يعاني منه العالمُ اليومِ، ويسيرُ فوق أشواكِهِ، ويكتوي بلفح ناره.. فالحضارة التي تقفُ في وجهِ الفِطرةِ الإنسانيةِ، فَتَفْصِلُ الدين عن الدولة، ولا تُقيمُ للناحيةِ الرّوحيةِ وزْناً في الحياةِ العامّةِ، وتحصرُ الحياةَ بالمنافعِ الماديةِ، لا تُنْتِجُ إلا شقاءً وقَلَقاً دائمينِ. فما دامت المنفعةُ هيَ الأساس، فالتنازعُ عليها أمر واقع، والنضالُ في سبيلها مستمر، والاعتمادُ على القوّةِ في إقامةِ الصِّلاتِ بينَ البشرِ طبيعيّ. ولذلكَ يبقى الاستعمارُ ـ ظاهراً أو خفياً ـ قائماً في هذهِ الحضارةِ وأذهان أهلها، ما دامتِ المنفعةُ وحدها هي الهدف المنشود في هذه الحياة.

ونظرةٌ أخرى كذلك إلى الحضارة الإسلاميةِ التي سادت العالم منذُ القرْنِ السادسِ حتى أواخرِ القرنِ الثامن عشر الميلادي تُرينا أنها لمْ تكُنْ مستعمِرَةً، ولا الاستعمارُ منْ طبعِها، ولذلك فإنّها لمْ تُفرِّقْ بين

المسلمينَ وغيرِهِمْ، بل ضَمِنَتِ العدالةَ لجميعِ الشعوبِ التي خضعت للحكم الإسلامي، وأقرت لتلك الشعوب بكافة حقوقها المدنية والسياسية، وحريتها في العقيدة الدينية وممارسة شعائرها، والحفاظ على أماكن العبادة كافة. . وكلّ ذلك لأنَّ مقومات هذه الحضارة تستند إلى الأساسِ الروحيّ الذي يحقّقُ للإنسان ما يصبو إليه من القيمِ المادّية والروحية والأخلاقية والإنسانية، ولأنَّ الحضارة الإسلامية هي حضارة إنسانية بكل مفاهيمها، وليس على من يشك بذلك إلاَّ الرجوع إلى التاريخ والاطلاع على صدقية هذه الحضارة. . من أجل ذلك كان على العالم أن يتمثل بهذهِ الأيديولوجية الإسلامية الحاجات الأساسية السَّامية، وأن يعتنقَ مفاهيمها لأنها قادرةٌ على حلّ الأزَماتِ القائمةِ كلّها، وهيَ تكفلُ للناسِ جميعاً. وحتى يصل الناس إلى تطبيقها عليهم أن يعرفوا هل طبقت هذه المفاهيم الإسلامية سابقاً؟ وإذا كانت قد طبقت من قبل، فما هي العوائق التي تحول دون تطبيقها الآن؟

في رأينا أن هذه العوائق تكمن، ولا ريب، في ضعف المسلمين، لأنهم بعد الضعف الذي حاق بهم زمناً، صاروا عاجزين عن تطبيق أحكام إسلامهم تطبيقاً صحيحاً.

ولكي يمكن الوقوف على تلك العوائق التي تحول دون تطبيق الأيديولوجية الإسلامية ـ واستكمالاً للمعرفة ـ فإنَّ للقارئ الكريم أنْ يرجع إلى كتابِنا «عوامل ضعف المسلمين» فيجد كلَّ عناصر البحث حول هذا الموضوع.

وخلاصة البحث: أنَّ كل ما يحقق الإنسان من إنجازات في ميادين العلم والاكتشاف، وما ينشئ من مدنيات وحضارات، إنما هو

بفعل الإلهام الذي يقذفه الله تعالى في أفئدة الملهمين من بني البشر، الذين يهتدون إلى ما في النفس الإنسانية من الأفكار والمشاعر، وإلى ما في الكون من السنن، وذلك بفضل «العلم اللدني».

ولعلَّ من أهم مزايا التعقل والإدراك ألاّ يغفل الإنسان عن حقيقة خلقه، وألاَّ يسعى في عمارة الأرض من غير أن يفكّر بما يرضي الله تعالى؛ وأنْ يتذكّر، دائماً، ما سوف يؤول إليه من مصير في الآخرة.. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

(1) سورة الروم، الآية: ٩.

البحث الثاني

الحق والباطل وتأثيرهما في الحياة على النفس الإنسانية

الحق والباطل من المعاني المجرَّدة، ولا يمكننا أن نعرف فعلاً ما هو الحق، أو أن نعرف فعلاً ما هو الباطل إلاَّ بالاستناد إلى القرآن الكريم، الذي وردت فيه آيات كثيرة تبيّن مفهومي الحق والباطل، وتعطي عليهما الأدلة والبراهين والأمثلة العقلية والحسيّة. أما لماذا القرآن، فلأنَّهُ كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأنَّ بين دفتيه أحكام الإسلام وتعاليمه ومفاهيمه التي تشكل حقائق ثابتة، أنزلها ربُّ العالمين على قلب محمد رسول الله ﷺ لكي يقوم بتبليغها وتبيينها؛ وقد أدَّى الرسول الأعظم الأمانة بكمالها وتمامها، ثم أودعها في أعناق المسلمين ليصونوها، ويعملوا بهديها، لا من أجل أنفسهم وحدهم، ولا من أجل أمتهم وحدها، بل من أجل الناس جميعاً، لأنَّ الإسلام هو الدين عند الله، وقد ارتضاه سبحانه لصلاح الحياة الدنيا، والفوز في الآخرة، لذلك كان وجوباً على المؤمن الصادق أن يعرف أولاً ما هي الحقائق، لكي يستطيع من

ثمَّ أن يميّز بين الحق والباطل، ويجعل الحقَّ الأساس الذي تقوم عليه الحياة بأسرها.

وإنَّ معرفة الحقائق تستدعي التفريق بين أمرين: الفكر والحقيقة. فالفكر بذاته لا يشكل حقيقة، إذ الأفكار تبقى مجرد أفكار إلى أنْ تصير حقائق، ولا تصير كذلك إلاّ إذا توافرت لها شروطها. وأهم هذه الشروط أن ينطبق الفكر على الواقع في كل شيء.. لأنَّ الفكر هو الحكمُ على الواقع، فإن طابق هذا الحكمُ الواقعَ كان حقيقة، وإن خالف هذا الحكمُ الواقعَ كان وهماً أو باطلاً. ولذلك كانت الأحكام المطابقة للواقع هي التي تعني الحقائق.

وهذه قاعدة مهمة يجب أن تظل ماثلةً أمامنا عندما نريد التمييز بين الفكر والحقيقة.

ولكن كيف يمكن أنْ نعرف أنَّ التفكير الذي يتوجه نحو واقعٍ معيّن قد اكتشف حقيقة هذا الواقع؟

الأمر في غاية البساطة: إننا عندما نفكر في شيء من الأشياء التي تحيط بنا، أو في أمرٍ من الأمور التي تعرض لنا، أو في مسألةٍ من المسائل التي تواجهنا، فإنّ فكرنا، في أي حالة من تلك الحالات، يجب أن يطابق االواقع الذي يتعلق بها ليشكّل حقيقة. وإذا جاء فكرنا مناقضاً لهذا الواقع فإنه يكون وهماً أو باطلاً.

إذاً فالحقائق هي الأفكار التي تصور واقعاً محسوساً ملموساً بكل صدق وأمانة، أي هي الأحكام الصائبة التي نصدرها على الواقع الذي نحسّه أو نلمسه. فإذا جاءت أحكامنا مطابقة لهذا الواقع تحولت إلى حقائق.

وإذا كان إدراك الحقائق، يقوم على مطابقة الأفكار للواقع المحسوس، الملموس، فكيف يكون تطبيق هذه القاعدة على الأمور الغيبيّة؟ وكيف نصل من خلالها إلى معرفة حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى؟

الجواب سهل: إنَّ حقيقة وجود الله، جلّ وعلا، ثابتة بآثار خلقه في كل شيء، نجدها في أنفسنا، وفي عالم السماوات والأرض وكلها تدلُّ على أنَّ الله هو الخلّاق العليم، وإلاًّ فمن أين هذا الكون كله؟ ومن أين هذه الأرض التي تحتضننا أحياءً وأمواتاً؟ بل ومن أين جئنا نحن البشر؟ ومن أوجَدَ هذا النظام فينا للتوالد، وبقاء النوع البشري؟ أسئلة كثيرة، وكثيرة، والجواب واحد، هو الله الذي لا إله إلاَّ هو خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير..

وتظل القاعدة هي هي، ترتكز على الفكر ومطابقته للواقع. والواقع هنا هو آثاره تعالى التي تدل على حقيقة وجوده. وهذه الآثار ـ وهي المخلوقات جميعاً ـ ليست فكرة مجردة، بل هي واقع محسوس، تؤكّده حقيقته الماثلة أمام حواسنا، ثم تنقله إلى وعينا وإدراكنا.. وهذا الإدراك هو ما يدعونا إليه القرآن الكريم بصورة دائمة، ويحثنا عليه بشتى الطرق الحسية والفكرية كما بقوله تعالى في سورة الروم: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾(١) وكما في «سورة الرحمن» التي تقدّم أمثل النماذج عن آلاء الله ـ تعالى ـ وتدعو الإنس والجنَّ للتبصّر بها، من أجل إدراكها كحقائق ثابتة، غير قابلة للتكذيب بها.. فآثار رحمة الله التي تحفُّ بنا في كل شيء، وآلاء ربّنا الكريم التي

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٠.

نجدها في الأرض، وفي أنفسنا، وفي السماء، هي الشواهد الحيّة التي تحملنا على الحكم بحقيقة وجود الله. يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة تدل على حقائق ملموسة توصَّل إليها العقل، أو قد يتوصل إليها، وهي مثل سائر الحقائق الأخرى، سواءٌ كانت قائمةً بذاتها، أو ظاهرةً بآثارها فلا بدَّ أن تخضع للملاحظة ثم الاستنتاج، الذي هو حكم العقل أي الفكر.

ولكنْ هنالك حقائق أكيدة وثابتة نحن نجهل كنهها، كما هي الحال في أمور الغيب، التي قلنا بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد استأثر بعلمها، وحجبها عنا وفقاً لمقتضى الحكمة الإلَهية، وفي رأس حقائق الغيب، بل وأعظمها على الإطلاق، «الذات القدسية» التي تخشع لها القلوب المؤمنة، وتحنو لها النواصي المعاندة؛ فمن حيث حقيقة وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإنَّ أدلتها ظاهرة وثابتة بآثاره تعالى في خلائقه، وبآثار رحمته من مثل إنزال الماء من السماء، وإنبات النبات، ووفرة الأرزاق والخيرات، وهي أيضاً من الشواهد الحسية التي تثبت حقيقة الخالق العظيم، والصانع الحكيم، ولكن «الذات القدسية، ذات الله تعالى» وماهيتها، وكيفيتها، تبقى محجوبة عن مداركنا لأنها أجلُّ وأسمى من أن تقع تحت الحواس، لأن الله عزَّ وجلَّ لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفكار، ولا يتوهَّمُهُ المتوهمون.. وعلمُ الناس ليس إلّا قَدْراً محدوداً بالنسبة لعلمه تعالى الواسع، كما يؤكده

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٢٠ ـ ٢٣.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[1]، فإذا كانت قدرة عقولنا لا تستطيع الإحاطة بشيء من علم الله إلّا بما شاء! . . فكيف ـ إذاً ـ بذاته القدسية التي لا ينبغي أن نفكّر بها ـ وذلك لمصلحتنا ـ كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**فكِّروا في آلاءِ الله، ولا تُفكِّروا في ذاتِ الله فَتَهْلَكُوا**»[2].

وما عدا «الذات القدسية»، فقد أباح لنا الخالقُ الكريم التفكيرَ في كل الأشياء، والأمور، والقضايا، بل ودعانا في قرآنه المبين لإعمال العقل، والتفكير في حقائق الوجود، ولا سيما تلك التي تهمُّ الإنسان، ويكون لها تأثير على مجريات الحياة البشرية، الفردية والجماعية على حدٍّ سواءٍ. .

ولكن ويا للأسف، فقد آثرت العقول الشيطانية، وبخطة منهجية منذ مئات السنين، أن تصرف الإنسان عن التفكير بالحقائق التي تهمُّه في وجوده، وذلك بطمس بعض الحقائق أو قلبها رأساً على عقب، لأهداف خبيثةٍ ومبيّتةٍ، من هنا تبرز أهمية السؤال:

كيف يتم طمس الحقائق أو الصرف عنها؟

إن التفكير في الحقيقة ـ أية حقيقة ـ وتمحيصها، ولاسيما ما يتعلق منها بحياة الشعوب والأمم، أمر لا بدَّ منه للناس جميعاً، لأنَّ قضايا العالم مترابطة ببعضها، وعزل أية قضية هامة عن باقي قضاياه الأخرى، سوف يؤثر سلباً، إن لم يكن على العالم كله، أقلُّه على حياة هذه الأمة أو تلك، أو على حياة هذا الشعب أو غيره. . ولذلك

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية، عن ابن عباس.

كان التفكير بالقضايا الدينية، أو الوطنية، أو القومية، أو العالمية أو الإنسانية، وما يرتبط بها من الحقائق، واجباً حتمياً على القادة ـ بشكل خاص ـ وقبل غيرهم من الناس، وأن يكون تفكيرهم دائماً مطابقاً للواقع. لأنَّ تفكير القادة، الذين يتولون إدارة شؤون الناس، وتقع على عاتقهم التبعات العامة، إنْ لم يكن مطابقاً للواقع، فسوف يؤدي إلى طمس الحقائق، أو الانحراف بها عن واقعها، بما ينسحب بالآثار السيئة حتى على قضايا الأمم والشعوب التي ينتمي إليها من يعملون على طمس الحقائق، أو تحريفها، لأنَّ الحقيقة لا بدَّ وأن تظهر في نهاية المطاف، مهما طال عليها الزمن، ومهما ظنَّ أهل الباطل أنهم نجحوا في صرف الناس عنها!. . . ولا بدَّ هنا من لفت النظر إلى أمرين جوهريين، والتنبّه لهما:

الأمر الأول: ما يتعلق بالمغالطات التي تحصل من جراء تشابه الحقائق

كثيراً ما تكون بعض الحقائق متشابهة، ومتداخلة مع قضايا قريبة منها، أو متعلقة بها، إلى حدٍّ لا يمكن التميز بينها إلاَّ بتحديد كلٍّ منها تحديداً واضحاً وسليماً. . ومن جراء هذا التشابه قد يلجأ المغرضون، أو أصحاب أهداف مبيّتة إلى المغالطات التي من شأنها طمس أو إلغاء بعض، أو كلّ هذه الحقائق، وقد يسخّرون لذلك المفكرين، والمؤرخين، وأصحاب النفوذ، ورجال المال والصحافة والدين، الذين يقومون ببذر الشك حول جوهر تلك الحقائق، ويجعلون الناس ينظرون إليها نظرة خاطئة، أبعد ما تكون عن ماهيتها وواقعها. . وهذا ما يؤدي بالنتيجة ـ أي من جراء تلك المغالطات ـ إلى طمس بعض

الحقائق، وإرساء مفاهيم جديدة للحقائق المطموسة، أو لحقائق غيرها، أو قضايا أخرى!

والأمثلة التي يمكن أن نستقيها من الواقع اليوم كثيرة جداً، ولكنَّ ما يهمنا بعض القضايا الكبرى التي نرى العالم يتخبَّط بشأنها، بسبب المغالطات التي يجري التركيز عليها لإضلال الناس وتعمية عقولهم عن حقيقة تلك القضايا.. ومن قبيل ذلك:

أولاً: عداوة اليهود للمسلمين وللشعب الفلسطيني

أ ـ كون اليهود أعداء للمسلمين: حقيقة..

وهذه الحقيقة أثبتها التاريخ منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم، إذ لا يزال اليهود يعملون في مختلف بقاع الأرض، وبشتى الوسائل، لإظهار الإسلام ديناً رجعياً، وإظهار المسلمين متخلّفين، وغيرَ قادرين على مواكبة العصر!!.. وهذا منتهى العداوة للمسلمين..

ب ـ كون اليهود أعداء للشعب الفلسطيني بالذات: حقيقة أيضاً

وهذه الحقيقة باتت جليّة أيضاً لدى كل منصفٍ، يريد الحقَّ.. فمن نافل القول أنَّ عداوة اليهود للشعب الفلسطيني متأتيّةٌ عن عقيدة خاطئة تعتبر فلسطين أرض الميعاد، ولذلك وضع اليهود استراتيجية محكمة تبدأ بإيقاع مجازر بالشعب الفلسطيني ثم تعمد إلى طرده من أرضه، لإنشاء دولة لهم على هذه الأرض!.. وبالفعل، وبمساعدة دول الغرب، وبصورة خاصة دولة بريطانيا العظمى التي كانت منتدبة على فلسطين، افتعل اليهود المجازر البشرية المروّعة بحق أهل فلسطين، بما أتاح لهم طرد غالبية الفلسطينيين من ديارهم وأملاكهم، بحيث صاروا لاجئين مشتتين في كثير من البلدان، ثم أعلنوا قيام دولة

إسرائيل في أيار (مايو) عام ١٩٤٨. وبعد مدةٍ أضافوا إلى هذا السجل الإجرامي، سجلاً آخر باحتلال ما تبقى من أرض فلسطين عام ١٩٦٧م، وهدفهم من هذا الاحتلال هدم المسجد الأقصى، وجعل مدينة القدس عاصمة أبدية للصهيونية العالمية، باسم الدولة العبرية، أو دولة إسرائيل..

فهاتان الحقيقتان (عداوة اليهود للمسلمين، وعداوة اليهود للشعب الفلسطيني) متشابهتان ومتداخلتان، إلاَّ أنَّ الفكر اليهودي ـ ومن ورائه الفكر الإنجليزي، ومن ثمَّ الفكري الأميركي ـ استطاع أن يطمس حقيقة عداوة اليهود للأمة الإسلامية، مع أنها أعتى وأوضح اليوم من أي وقت مضى؛ وأن يرسخ الحقيقة الثانية ـ عداوة اليهود للشعب الفلسطيني ـ كحقيقة راهنة، لعلمهم الوطيد بأنه ليس من مصلحة دولة إسرائيل وشعبها إظهار العداوة سافرة ضد المسلمين والأمة الإسلامية، لأنَّ ذلك قد يؤثّر بصورة أو بأخرى على مصالح إسرائيل ومن يدعمها في الغرب، بينما معاداة الشعب الفلسطيني، وقهره بالاحتلال والتسلّط والقتل الفردي والجماعي.. بات كل ذلك على وتيرةٍ يومية ألفها الغرب، بفعل التضليل الذي ابتدعه العقل اليهودي، وحمله الحكام في الولايات المتحدة الأميركية بمثابة سمةٍ لحكمهم، أي إن الأميركيين ومن يسير في ركابهم، ما زالوا يضللون الغرب والعالم، وهم يظهرون الشعب الفلسطيني على أنه شعب إرهابي، بينما في الحقيقة أنَّ كل ما يملك هذا الشعب هو الدفاع عن وجوده ومصيره لئلا يُقضى عليه، ويُمحى عن خارطة الوجود البشري...

وفي العودة إلى استقراء التاريخ نجد أنَّ فلسطين ـ بالذات ـ

كانت مستهدفة لغزوات متتالية بسبب وجود الأراضي المقدسة في ربوعها، وكان الفكر اليهودي يقف دائماً وراء تلك الغزوات، ما جعل عداوة اليهود للمسلمين حقيقة راهنة في الأذهان، فوقف المسلمون في وجه الغزاة الطامعين، واستطاعوا دحر الحملات الصليبية التي توالت حوالى مئتي عام. ولكن ما إنْ قامت دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وباتت الأراضي المقدسة خاضعة للسيطرة اليهودية، حتى انصبَّ اهتمام معظم دول الغرب ـ إِنْ لم نقل بأسرها ـ على دعم الاحتلال اليهودي، ومدَّ دولة إسرائيل بمختلف أسباب القوة والتفوق، وهذا ما جعل الغربَ عدواً للمسلمين. . وهذه حقيقة ظاهرة، لا مجال للمسلمين لأن ينكروها، وهذه العداوة مستمرة، وسوف تبقى مستمرة وبحدّةٍ أكثر، ما دام المنطلق الفكري والثقافي لها، هو دائماً حرب اليهود، الخفية والظاهرة، على الإسلام والمسلمين في جميع بقاع الأرض!

ثانياً: امتلاك القوة النووية

أ ـ كون إسرائيل دولة نووية: حقيقة.

ب ـ وكون البلاد العربية الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط دولاً غير نووية: حقيقة أيضاً.

ولكنَّ إسرائيل استطاعتْ أنْ تخرس ألسنة العالم عن تصنيعها للقنابل الذرية وأسلحة الدمار الشامل، فلم تطالبها أية دولة أو أية منظمة أو هيئة دولية بوقف نشاطها النووي، في حين استطاع اللوبي الصهيوني، الحاكم في الولايات المتحدة الأميركية، أنْ يدفع بالعالم ليؤيد ـ في غالبه ـ الولايات المتحدة لغزو العراق بحجة امتلاكه

أسلحة دمار شامل. . وعلى الرغم من افتضاح هذه الأكذوبة، وتأكيد مختلف المراجع الدولية، المعنية، بل واعتراف الرئيس الأميركي نفسه، بعدم وجود مثل تلك الأسلحة في العراق، إلّا أنَّ الاحتلال الأميركي لا يزال ـ حتى تاريخ صدور هذا الكتاب ـ جاثماً على أرض هذا البلد الإسلامي. . وأشنع من كذبة «أسلحة الدمار الشامل» في العراق، ما يثيره الممثل الأميركي ـ وحليفه التابع الإنجليزي ـ من الفتن الدينية بين مختلف أطياف الشعب العراقي وصولاً إلى تقسيم العراق إلى دويلات عرقية أو مذهبية، وفقاً للتفكير اليهودي المنهجي تجاه الدول الإسلامية كافة، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط[1].

والمفارقة العجيبة بهذا الصدد تحريض إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية العالمَ على مواجهة الجمهورية الإسلامية في إيران بحجة أنها تعمل على امتلاك السلاح النووي، بل ويهدد اليهود والأميركيون بإمكانية ضرب المنشآت الإيرانية إذا لم تذعن إيران لـ«المطلب الدولي». ولقد نجحوا في عرض القضية على مجلس الأمن الدولي الذي اتخذ قراراً يلزم إيران التخلي عن نشاطها النووي السلمي، وإلّا لجأ إلى فرض العقوبات الاقتصادية عليها، كمرحلة أولى، ثم تليها تدابير أخرى لا يعرف العالم ما سيكون مدى آثارها! . . فأين هي الحقائق، وأين من يعرف الحقَّ والحقيقة في التعامل الدولي تجاه إسرائيل، وتجاه البلاد الإسلامية، وبخاصة

---

(١) أمّا عن انتهاك المحتل الغربي لحقوق الإنسان في العراق فحدّث ولا حرج، وشاهده سجن «أبو غريب» في العراق عام ٢٠٠٥ م، وما حصل فيه من جرائم يندى لها جبين البشرية. ومن صور تلك الإنتهاكات آنذاك التي تظهر خُلُق المحتل الغربي اغتصاب خمسة جنود أميركيين لفتاة عراقية، ثم حرق جثتها وقتل كل أفراد أسرتها. . فيا ديموقراطية أميركا لا تحجبي عن العالم صور حكامك، وجنودك البشعة. .

الجمهورية الإسلامية في إيران؟. . كل ذلك بسبب عداوة الغرب تجاه المسلمين، لأنه يريدهم أذلاًء، خانعين يأمرهم فيستجيبون!!. . والمعنى أنَّ الفكر الذي يسيطر على العالم اليوم لا يتوخى الحقائق في مظانّها، بل يعتمد السياسات التي من شأنها أن تصرف الناس عن الحقائق، ودائماً لتحقيق المصالح والمكاسب المادية التي يطمع فيها أصحاب تلك السياسات!.

ثالثاً: التدخل في شؤون الدول الأخرى

أ - كون الولايات المتحدة الأميركية قوة عظمى، وتتولى مقاليد الزعامة في العالم: حقيقة. .

ب - وكونها تتدخل في شؤون البلدان الأخرى، ولا سيما في بلدان العالم الثالث: حقيقة أيضاً. .

وهنا كذلك نجد السياسة الأميركية واضحة في طمس حقيقة التدخل الذي تقوم به!. . فهي تريد استغلال ثروات البلاد التي تتدخل في شؤونها، وبسط نفوذها السياسي في المناطق الحسَّاسة في العالم، وإقامة قواعد عسكرية لفرض قوة تدخلها، فضلاً عن توفير كثيرٍ من النفقات على أساطيلها البحرية!. . ولكنها تخفي كل هذه الحقائق، وتطرح شعارات تلفت العالم إليها، من مثل حمل الأنظمة على تطبيق الديموقراطية، وتأمين الاستقرار، والحفاظ على حقوق الإنسان. . ! ولعلَّ تقرير اللجنة الدولية لحقوق الإنسان يفضح أكذوبة الولايات المتحدة الأميركية ويبطل الإدعاء الأميركي حول حقوق الإنسان. كما يشهد على ذلك سجن «غوانتينامو»، وسجن «أبو غريب»، والتأييد غير المحدود لإسرائيل بهدر الدم الفلسطيني، وليس فقط بهدر حقوقه

المشروعة!.. وعلى الرغم من التذرع بتلك الشعارات، فإنَّ بدعة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأميركية كانت بما سمَّوه «الفوضى المنظمة»، التي هي، في الحقيقة، تقويض للاستقرار الداخلي في أية دولة.. ولا تزال بدعة «الفوضى المنظمة» معتَمَدَةً من قبل الولايات المتحدة في أكثر من بلدٍ في العالم، تعمل على فرض هيمنتها عليه!..

الأمر الثـاني: ويتعلق بالمغالطات التي تصرف الناس عن الحقائق عن طريق الأفكار والأعمال المضلّلة والمثال على ذلك:

أ ـ كون الأمة لا تنهض إلا بالفكر: حقيقة

ب ـ وكون الأمة الإسلامية قادرة على النهوض من كبوتها: حقيقة أيضاً..

إن الأمة الإسلامية، بما تعتنق من عقيدة راسخة أرسى أحكامها ربُّ العالمين، وبيّن مفاهيمَها رسوله الكريم ﷺ، لقادرةٌ على الأخذ بأسباب الفكر لتحقيق نهضة جديدة.. ومن أجل صرف الأنظار عن هذه الحقيقة، شجع أعداءُ الإسلام على نشر مفاهيم مغلوطة عن هذا الدين مثل الرجعية والتخلف والإرهاب إلخ.. كما سخَّروا عناصر بشرية، أفراداً وجماعات حتى من المسلمين أنفسهم، لإصدار المؤلفات التي تسيء إلى الإسلام ونبيّه ﷺ، أو ليقوموا بإثارة الاضطرابات، ونشر الفوضى تحت ذرائع مختلفة، وأهمّ من ذلك كله استطاعوا بذر روح العداوة والتفرقة والتناحر بين المسلمين عن طريق النعرات الطائفية، والمذهبية، والعنصرية وما إلى ذلك من الأساليب

والوسائل والخطط التي تبعد المسلمين عن التفكير بمصالح أمتهم، وبالتالي صرفهم عن التفكير بالنهضة الإسلامية. . .

ولعلَّ أهمّ ما يؤرّق أعداء الأمة الإسلامية الخوف من أنْ تأخذَ هذه الأمة بأسباب الفكر لتحقق نهضتها، لأنها سوف تصبح، بحسب تقديرهم، قوة «عاتية» تقف في وجه مطامعهم ومصالحهم وأهوائهم، ولذلك فإنهم ينطلقون أساساً من هذه المغالطة الكبرى التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة، لإنشاء مغالطاتٍ أدهى وأشدّ، من شأنها أن تؤدي إلى تفتيت قوى المسلمين، وإيقاعهم في التناحر بحيث لن يعود لفكرة النهضة تأثير كبير في حياتهم!. .

إذاً، فلا بدَّ لنا من البحث عن الحقائق، والتمسك بها بقوة، وكشف المغالطات التي تبعدنا عن وعي قضايانا، وتفقدنا عناصر قوتنا، وتبقينا على حالتنا الراهنة من الضعف والتفكك، والتناحر، والتأخّر. . وهذه العوامل هي التي تقدّم لأعدائنا الإمكانات، والقدرات، وتتيح لهم السبل والوسائل كي يظلوا قادرين على التحكّم بنا، وبمقدّراتنا، وبمواردنا، وبالتالي التحكّم بتقرير مصير كل بلد إسلامي منفرداً، فضلاً عن ضرب كافة العوامل والعناصر التي توحّد كلمة أمتنا.

والبحث عن الحقائق يجب أن يقوم على معرفة الصواب من الخطأ، كما يستدعي معرفة الحق من الباطل. .

الصواب والخطأ

الصواب يكون ضد الخطأ الذي ليس للإنسان فيه قصد. بمعنى أنَّ الصواب هو ما يدلُّ على الحق، والصدق والسداد وما شابه من

المعاني. فيقال: أَتَى بالصواب، أي أصاب، وحَكَمَ له بالصواب، أي صوَّب رأيه.

وقد يدل الصواب على اللائق، والأولى، والمُرْضي والثابت.

وأما الفرق بين الصواب، والصدق والحق فهو:

أنَّ الصواب هو الأمر الثابت الذي لا يجوز إنكاره.

وأنَّ الصدق والحقَّ يدلان على المطابقة بين التصورات العقلية والأشياء الخارجية. فإذا كان التصور الذهني مطابقاً لما في الخارج، كان صدقاً، وإذا كان ما في الخارج مطابقاً لما في الذهن، كان حقاً.

والصواب والخطأ يستعملان في الفروع والمجتهدات.

والحق والباطل يستعملان في الأصول والمعتقدات.

وفي التفريق بين الحق والباطل يقول علي الجرجاني: «إنَّ الحق في اصطلاح أهل المعاني هو الحكم المطابق للواقع، ويطلق على الأقوال والقصائد، والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك».

بعد هذه التوضيحات، نبحث في الحق، ومن ثم في الباطل استناداً للقرآن الكريم.

أولاً: الحق

قلنا إن الأصل في الحقّ أن يكون مطابقاً وموافقاً للواقع. ويكون الحقّ على وجوه أربعة:

الوجه الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة: الحقُّ المطلق.

وبما أنَّ الله سبحانه وتعالى ـ بحكم العقل والقلب، هو موجدُ

الأشياء كلها، كانَ هو الحق المطلق، ومن آلائه الدّالة على ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(١). أجل إنَّ القادر على ذلك كله، والخالق، والمالك لكل ما في السماء والأرض هو الله ربُّكم، الحقُّ الأزليُّ أيها العباد، والحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ، فكان وجوباً على العباد تقديسه سبحانَه وتعالى، وعبادته، وإلَّا فهو الضلال!.. ولأنَّهُ جلَّ وعلا هو ربُّ العباد، فهو مولاهم الحقّ، الذي يُردّون إليه لتُجازى كلُّ نفس على ما قدَّمت، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾(٣).

الوجه الثاني: يقال للشيء الموجَد بحسب مقتضى الحكمة الإلَهية، فكان صنع الله ـ تعالى ـ كله حقّاً، وقوله ـ سبحانه ـ كله حقّاً، وكان وجود كلّ شيءٍ منه بالحق، ثم إنَّ الخلق كله لا يمكن أن يكون على هذا النظام، وهذا التناسق، وهذه الدقة التي لا تختلف معها حركة، إلاّ بالحق.. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾(٤)، ويقول تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٥). فكل شيء في

(١) سورة يونس، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الدخان، الآيتان: ٣٨ و٣٩.
(٥) سورة يونس، الآية: ٥.

الوجود قوامه الحقُّ؛ والحقُّ غايته، والحقُّ ثابت راجح راسخ. وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة وقائمة ودائمة، وهي مبثوثة في كل شيء، وفي كل مكان في السماوات والأرض، وهي دلائل وآيات يفصّلها الله تعالى لقوم يعلمون.

بل وبعث الله ـ تعالى ـ النبيين بالحقّ وأنزل معهم الكتب بالحق لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾(١).

الوجه الثالث: يقال في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في ذاته. ومنه اعتقادنا بأنَّ الآخرة حقٌّ، وبأنَّ الثواب والعقاب حقٌّ. وبأنَّ الجنة والنار حقٌّ.

يقول الله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾(٢)، أي إنَّ الذين آمنوا هم على اتفاق تام بأنَّ الدينَ الذي آمنوا به هو الحقُّ، ولكنْ كان اختلافهم على توضيح هذا الحق، وإدراكه في الصميم، فاختلفت سبلُ وعيهم وتنوعت أفكارهم، ولكن نياتهم كانت متجهة إلى الله تعالى، لا تبتغي إلّا الحقَّ الصراح ولا شيء غيره، فهداهم الله تعالى إلى ما في الكتب السماوية المنزلة من الحقّ، لأنهم كانوا صادقين في التوجّه، والنيات والسعي، وكانت هدايته ـ سبحانه ـ لهم، لأنَّهم مؤمنون.

الوجه الرابع: يقال للفعل أو القول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، وذلك مثل أن نقول: فعلك حق، وقولك حق..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وعندما يقال: إحقاق الحق فيعني إثباته، قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[3]. وإحقاق الحق على نوعين:

- بإظهار الأدلة والشواهد، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

- بإكمال الشريعة وبثها في الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[5].

والحق يستعمل استعمال الواجب واللازم والجائز، نحو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[8]. وهو ما قاله موسى عليه السلام لفرعون، أي إنَّهُ رسولٌ من ربّ العالمين، وإنه جديرٌ به، وحقٌّ واجبٌ عليه أنْ لا يقول على الله

(١) سورة يونس، الآية: ٣٣.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٣.
(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ٧ و٨.
(٤) سورة النحل، الآية: ٣.
(٥) سورة الشورى، الآية: ١٧.
(٦) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٧) سورة يونس، الآية: ١٠٣.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٠٥.

تعالى إلاَّ الحقَّ، فإنْ قال بأنه رسولٌ من رب العالمين، فهو القولُ الحقُّ، لأنه مرسَلٌ من الحق تبارك وتعالى، ولا يقول إلاَّ ما أرسل به؛ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١). أي إنَّ الأمرَ بأنْ تتوجَّه يا محمَّدُ ـ وأمتكَ تبعٌ لك ـ في صلاتك نحو المسجد الحرام في مكة للحقُّ من ربك، وما الله، الذي يأمركم بذلك، بغافلٍ عمَّا تعملون من امتثالٍ لأوامره، سواءٌ في هذا التولي، أو في غيره من العبادات وسائر ما يأمركم به.

ثانياً: الباطل

الباطل هو نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه. يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾(٢).

الله تعالى هو الحق الثابت، قائمٌ لا يسهو، دائم لا يلهو، كما يشهد على ذلك الوجود كله الذي يقوم على سنن الحق، وقوانين الضبط، ونواميس التكامل.

وأما ما كانوا يعبدون من دون الله (سبحانه وتعالى عمَّا يشركون) فهو الباطل الزائل، وكذلك الأحكام الوضعية التي توجد التمايز، وتنشئ الأوضاع الفاسدة، وكلُّ ما لا يتوافق مع منهج الله في خلقه.. فجميعها باطل وإلى زوال، لأنها نقيضة لاطّراد سنن الكون وثباتها. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ترك للناس تدبير أمورهم، فإنَّ هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٦٢.

التدبير يجب أنْ يأتي متوافقاً مع شرعِ الله تعالى ومناهجه لعباده ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، تماماً كما هو الحال في توافق السنن الإلهية في الكون. أما إذا خالف التدبيرُ الشريعة والمنهج، فإنَّ المسؤولية تقع على عاتق الناس ويتحملون أوزار أعمالهم، لأنها غالباً ما تتنصَّل من الحق وتساند الباطل، فهي إذاً على الموازاة نفسها من الشرك بالله تعالى، لأن كل عمل لا يتوافق مع الحق يدخل فيه الباطل، إن لم يكن هو الباطل بعينه. يقول الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]. والمقصود هنا هو عمل السحرة الذين أتى بهم فرعون الطاغية لقهر النبيِّ موسى عليه السلام وغلبته، فما كانوا يعملون هو السحر، وهو باطلٌ في الأساس لأنَّه يزيف الحقيقة في العيون، ويطمس جوهر الأشياء، فالحبل أو الخشبة ـ العصا ـ لا يمكن أن تتحول كائناً حياً بفعل الإنسان، فكان من الباطل أنْ يرى المشاهدون حبالَ السحرة تتحول إلى أفاعٍ، كما خُيِّل إليهم وهم يحضرون المواجهة بين السحرة وموسى عليه السلام. ولكن عصا موسى عليه السلام انقلبت فعلاً إلى حيةٍ حقيقية تسعى وتلقف ما ألقوا من الحبال وسحروا بها أعين الناس. ولم يكن ممكناً تحوّل عصا جامدةٍ إلى كائنٍ حيٍّ إلاَّ بمشيئة الله تعالى التي أظهرت أعمالَ الباطلِ من السحرة، فبطل ما كانوا يعملون من السحر والشعوذة، وظهر الحقُّ صراحاً بإبطال سحرهم..

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2]. وإلباسُ الحق بالباطل يكون لإخفاء الحق وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل على علم، وعن عمد. وهو أمر مستنكر قبيح!..

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧١.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وهذا توبيخ وتأنيب لأهل الكتاب في ما يأمرهم به ربُّهم، أي ألّا يخلطوا الحقَّ بالباطل، أو يغلّفوه به لكي يُخفوه، وألاَّ يكتموا الحق الأصيل الثابت، ويظهروه للناس بلباسٍ آخر حتى يروه كأنَّهُ الباطل؛ فالتجسيد هنا يعبّر عن الإخفاء، فكما يلبس الإنسانُ الثوبَ ويخفي جسدَه به، هكذا كانوا يعملون لإخفاء الحق الذي يعلمونه، وهو أنَّ القرآنَ منزَّلٌ من الله تعالى، وأنَّ محمداً هو رسول الله، وفقاً لما يجدونهم مكتوباً عندهم، وقد أنزل الله تعالى من الآيات القرآنية المبينة ما يكشف نيّات وأعمال أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ من التآمر، والخداع، والتضليل لأجل أنْ يكتموا الحقَّ الذي جاء به محمد ﷺ، ويطمسوا عليه، وما ينهاهم عن ذلك، ويأمرهم بألاَّ يلبسوا الحق بالباطل، وألّا يكتموا الحق وهم يعلمونه، وألّا يحرفوا الكلام الذي ورد في التوراة عن موضعه، لأنَّ هذا التحريف هو الباطل، ولأنَّ ما أنزل في التوراة قبل التحريف والإِدخال هو الحق، ونزل من الحق تبارك وتعالى.

واليوم نجد اليهود ـ ومن يسير في ركابهم من الدول والمنظمات ـ لا يزالون على الوتيرة نفسها، وهم يلبسون الحق بالباطل على الرغم من نهي العلي القدير لهم عن هذا العمل القبيح، فكان من الطبيعي أن يلبس اليومَ العالمُ في أغلبه لباسَ الباطل، ما دام الذين يمدّون اليهود في غيِّهم هم أصحاب الشأن في دولهم، وفي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٢.

المحافل الدولية. فها هو العالم يرى كيف يذبح اليهودُ الفلسطينيين كلَّ يوم، وها هو يرى كيف يقتل الاحتلالُ الأميركي والإنجليزي الشعب العراقي كلَّ ساعة، وها هو العالم يرى كيف تقتل الطائرات الإسرائيلية الأبرياء في لبنان، وتُهدِّم كلَّ بُناه التحتية واقتصاده في الحرب الوحشية التي تشنها على هذا البلد الصغير ـ خلال عدوان تموز ٢٠٠٦ م ـ من دون أن يحرك هذا العالم ساكناً.. إلّا أن يكون قتلُ المسلمين حلالاً كما يزعم التلمود، والناس، كل الناس، بمن فيهم كثير من المسلمين، يرضون ذلك!.. فهل بعدُ هذا الباطل من باطل؟؟.. ولذلك نحن نقول لكل إنسانٍ حرٍّ وشريفٍ إنَّ الإصغاء إلى الحق، والشهادة له، والعمل به، توصل إلى الراحة الجسمانية، والسكينة النفسية، واتباع الباطل لا ينجم عنه إلّا الانزعاج، والقلق، والاضطراب الجسدي والنفسي، سواء أعرف الإنسان ذلك أم لم يعرف!..

ثالثاً: أهل الحق وأهل الباطل

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة: «حق وباطلٌ، ولكلٍّ أهلٌ. فلئن أُمِّرَ الباطلُ فقديماً فَعَلَ. ولئن قلَّ الحق فلربما ولعلَّ. ولقلَّما أدبرَ شيءٌ فأقبَلَ».

وفي القرآن الكريم أمثال يضربها الله تعالى للناس لكي تتبيَّن لهم أفعالُ أهل الحق، مِنْ أفعال أهل الباطل، ومن هذه الأمثلة:

١ ـ الباطل مثل الزبد الذي يذهب هدراً

يقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ

ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١).

إنها معركة قائمة، لن تتوقف أبداً إلَّا أنْ يشاء الله تعالى. . إنها معركة الصراع الضاري بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الصواب والخطأ. . وآثار تلك المعركة ـ التي لا تزال دائرة منذ أنْ وجدَ آدم عليه السلام واشرأبَّ له رأسُ إبليسَ بالعداوة والشرّ ـ سوف تظل تنعكس على الناس ما دام أهل الباطل جميعاً لا يخشون الله ربَّهم، ولا يدخلون في حساباتهم موتاً ولا نشوراً، ولا جنةً ولا ناراً، ولئن قلَّ المنصفون من أهل الأرض الذين يدينون أهلَ الباطل بأحكام الحق، فإنَّ الحكم الأخير والعادل سوف يبقى للعليّ العظيم الذي هو كلَّ يوم في شأن، فهو ربُّ السماوات والأرض، الذي يثيب ويجازي على الأعمال، ويحاسب ويقاضي على النيات. . ولكن من الآن وحتى قيام الساعة، سوف يظل المفسدون سادرين في غيّهم، يأتون الأعمال الباطلة، المضلّلة، التي ينصرون فيها الأبالسة والشياطين من الجنّ والإنس على أهل الحق، وبذلك تتكاثف سُحُبُ الباطل وأستاره لتحجب الحق وتخنق صوته، فينوء الخير، من جراء ذلك، تحت لطمات الشر، ويتوارى الطيّب عند صولة الخبيث، ويخفت صوت العدالة، حتى ليظن الناس أن دولة الحق قد زالت إلى غير رجعة. .

ولكن!. . مهما استفحل الشر، وتجبَّرت الطواغيت، فلا بدَّ أنْ نرى من خلال الظلام الدامس، ومن بين دخان الجَور والكفر، نوراً

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

ينبثق، وضياءً يشع، وسناءً يتألّق.. ثم يستجمع الحقُّ قواه، ليشرق، بإشعاعه وضيائه، منيراً الدروب أمام المؤمنين الصادقين، الذين سوف يحملون مشعل هُدى الله تعالى، فلا ترهبهم الأبالسة، ولا تخيفهم الطواغيت، ولو تمنطقت بكل أسباب القوة، وبقنابل الذرة والهيدروجين والأسلحة البيولوجية والغاز السام، لأنَّ المؤمنين هم جنود الله سبحانه، وهم الغالبون حقاً، وهم أنصاره فعلاً، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.. ولذا نحن على يقين من أنَّ الحق ثابت وقائم، لأنه خالد بخلود أهله وحملته، وأنَّ الباطل هالكٌ فانٍ، بحكم القرآن الكريم الذي هو قولُ ربِّ العالمين: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]. إذ مما لا شك فيه أنَّ للباطل جولة ساعة، وأن جولة الحق تدوم إلى قيام الساعة.. من هنا فإنه مهما تراءت لنا الصورُ قاتمةً محبطةً، ومهما واجهتِ المؤمنين أحداثٌ عاصفةٌ قاهرةٌ، فإنَّ الأمل يظل معقوداً على هذا الإنسان بأنْ يهتدي ـ بالفطرة التي فطره الله تعالى عليها ـ إلى طريق الحق، ومحاربة الباطل، فيؤمن عندئذٍ بما أنزل الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ويبيِّنُ للناس الحقائق التي تأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم، فيسلكها لطرد الشيطان من نفسه، والعودة في النهاية إلى طاعة ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ راضياً مرضياً، مخلصاً له الدين كله ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون.

وها هو القرآن الكريم يضرب لنا مثلاً حسياً لتوكيد ثبات الحق وديمومته، وزوال الباطل وفنائه، (وذلك في الآية ١٧ من سورة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

الرعد) التي من استشفاف معانيها يمكننا التميز ما بين الحق والباطل؛ إذْ لو أمعنَّا النظر وتأمّلنا بالسيل الجاري وما يعلوه من الزبد التافه، وبالمعدن الذي يُغلى على النار وما يعلوه في ذوبانه من زبدٍ أيضاً لا نفع منه، لأدركنا معنى المثل القرآني وأهميته.. فانظر أيها الإنسانُ ماذا يريدُ الله بهذا مثلاً بقوله تعالى: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾[1].

إنَّ الماءَ الذي ينزله الله تعالى من السماء مطراً منصبّاً، نراه يتدفق سيولاً جارفة تمتلئ بها الأودية. والسيل يحمل كثيراً مما يقع في طريقه من الغثاء، كالقش والورق والحطب والنفايات، والزيوت وغيرها مما نراه يطفو على وجهه حتى ليغطِّيَهُ في بعض الأحيان، وهو لشدة اندفاعه وتدفُّقه، تعلو سطحَهُ الرغوةُ مختلطةً بالغثاء (أي ما يسميه القرآنُ: زَبداً).. وهي على كثرة انتفاخها لا تلبث أن تتلاشى وتنطفئ فقاقيعها، وتذهب في الهواء، كما تذهبُ هباءً على جوانب الأودية وفي قعرها جميع الأقذار التي حملها السيل الجارف، ليبقى وحده الماءُ الذي يذهب إلى الأنهار فيغذيها ـ ومنه قوام حياة الناس والأنعام ـ وإلى الأراضي فيرويها، فيحلُّ الخصب والنماء، ويكثر الخير والجنى.. ومثل الرغوة التي نراها فوق السيل، وتختفي بلا نفع، الرغوةُ التي تطفو فوقَ المعادنِ التي يجري تذويبها فوق النار لتصاغ الحليُّ وأدوات الزينة (كالذهب والفضة)، أو لتصنع الأواني والأدوات والآلات (كالحديد والرصاص والنحاس..). فالمواد الخبيثة والأقذار التي تطفو على سطح السائل المذاب في القدر هي

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

الزبد الذي يطرح لأنه بلا نفع، ثم يُصفَّى المعدن الباقي في القعر، ويحوَّل إلى الحلى والمتاع التي يُنتفع بها. .

هكذا الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل قد يظهر ويعلو ويبدو رابياً، ولكنه مثل الزبد لا بدَّ وأنْ يذهب جفاءً، مطروحاً جانباً. . والحقُّ قد يُظنُّ أنه اختفى أثرُهُ أو انتهى أمره، ولكنه هو الباقي في النهاية، كبقاء المعدن الصافي لينفع الناس.

قال قتادة: «هذه ثلاثة أمثال ضربها الله سبحانه وتعالى في مثل واحد: شبَّهَ نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية والأنهار، فمن استقصى في تدبّر القرآن وتفكّر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بظاهر معانيه أدّاه إلى التصديق بالحق على الجملة وكان أقلَّ حظاً منه كالنهر الصغير. . فهذا مثل. . ثم شبَّهَ الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد الذي يعلو فوق الماء، وذلك من خبث التربة لا من عين الماء، كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فإنه يكون من ذاتها لا من ذات الحق. فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء، كذلك تذهب مخايل الشك هباءً باطلاً ويبقى الحق. . فهذا مثل ثانٍ. . ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ إلى آخره. . فالكفر مثل الخبث الذي يطفو على المعدن وهو لا يُنتفع به، والإيمان مثل المعدن الصافي الذي يُنتفع به. . فهذا مثل ثالث». .

وعندما يضربُ الله تعالى الأمثال ويبيّنها للناس، بإلقائها على أسماعهم وعرضها لأبصارهم، فإنَّما لتهتدي بها القلوب المؤمنة النيّرة البعيدة عن ظلام الكفر. . فالمثل الذي ضربَهُ ـ سبحانه ـ بالماء الذي

أنزله من السماء حتى امتلأت به الأودية بقدرها، والذي يُحيي به الأرضَ بعد موتها، كمثل القلوب التي تمتلئ بالحق والإِيمان فتحيا بهما من موت الكفر والباطل، وكما يسَعُ الوادي الكبيرُ الماءَ الكثير، كذلك القلب المؤمن يسع العلم الوفير.. وكما الوادي الصغير، فإن القلب الصغير لا يسع إلّا بحسبه.. فيكون معنى قوله سبحانه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، أنَّ قلوباً احتملت من العلم والهدى بقدر ما تستطيع حمله، وأنَّهُ كما يحمل السيلُ الجارف زبداً وغثاءً من الأرض التي يمرُّ عليها، ثم يذهب ذلك كله ويختفي، فكذلك الهدى والعلم، فإنهما عندما يحلّان في القلوب يُذهبانِ بكل ما يخالطها من آثار الشبهات والشهوات، ليستقر الإِيمان في أعماقها ويحيلها قلوباً طاهرةً، طيبةً مؤمنة..

ولكنَّ هذا التغيير في القلوب لا بدَّ أنْ ترافقه عملية استئصال حتى يأتي بالنتائج المرجوة، فقد يُظنُّ أنَّ القلوب عندما تعمى وتضلُّ لا تعودُ يُرتجى منها هدايةٌ.. وليس الأمر كذلك أبداً، بل هنالك دائماً العلاج الشافي، ويكون بإرادة الإنسان وعزمه على تغيير ما في نفسه، ثم التوكل على الله ربّه كي يمده بالعون والرحمة، وقد يصحب هذا التغيير شدةٌ وقهرٌ، ولكن لا بدَّ من الجهد. فكما أنَّ الجرّاح قد يضطر لاستئصال المرض إلى عملية جراحية، مع ما يرافق ذلك من الألم والمعاناة، فكذلك الهدى عندما ينفذ إلى القلب، لا بدَّ وأنْ يُثير لدى الإِنسان، جرّاء ما اختُزنَ في النفس من الضلال، مشاعر الضيق والحرج، حتى يتغلب نورُ الله على الشبهات ويطردها خارج ذلك القلب..

وعندما يطمئن القلب بالإيمان، وينتعش باليقين، فإنَّ آثار ذلك

تنتقل إلى سائر أعضاء البدن فتنشط للعبادة وتسرع إلى الطاعة. وفي ذلك يقول الشاعرُ المؤمنُ:

وإذا حلَّتِ الهِدايةُ قَلْباً   نَشَطَتْ للعِبَادةِ الأَعْضَاءُ

إنَّ هذا الإِيمان الصادق لينفعُ صاحبه، وينفع غيره من المؤمنين.. وعندما يكثر أهل الإِيمان، يتضاءل أهل الكفر ويقل عددهم، وكلما اتسعت رقعة الحق، ضاقت رقعة الباطل، إلى أن يمحق الله تعالى الباطل وأهله، وينصر الحق وأهله..

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1]، ليقرّب إلى أذهاننا المعاني التي تحمل مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال.

٢ ـ الكلمة الطيبة هي الحق، والكلمة الخبيثة هي الباطل

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[2].

الكلمة الطيبة هي كلمة الحق.. والكلمة الخبيثة هي كلمة

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٧.

الباطل.. فكما أنَّ الشجرة الطيبة جذورها ثابتة قوية في التربة، وفروعها وأغصانها باسقة صلبة لا تقوى الأعاصير على اقتلاعها أو تكسيرها، وهي تعطي ثمارها في المواسم بإذن ربها، فينتفع بها الناس، كذلك كلمة الحق فإنها تظلُّ صامدةً، فاعلةً، وتؤدي دورها في الحياة، حتى ولو أحاطتها ألسنة الكذب، وتفاقمت عليها أقاويل الباطل، وخيّل للناس أنها مهدَّدة بالخطر الماحق!.. فالكلمة الطيبة لها فعلها في النفوس لأنها تنطق بالصدق والإخلاص وتكون ثمارها المحبة والألفة والتقارب، تماماً كما تعطي البذرة الصالحة شجرة طيبة، يَثبت أصلها في الأرض، وتتفرع في السماء، حاملةً ثماراً يانعةً نافعة..

وكما أنَّ الشجرة الخبيثة قد تنشط فتهيج وتتشابك فروعها وأغصانها، وتبدو فارعةً في طولها حتى ليخيَّل أنَّها تطغى على ما حولها من أشجار، إلَّا أنها في الواقع تكون هشّةً في كثافتها، ضعيفةً في بنيتها، وجذورُها قريبةٌ من وجه الأرض بحيث تقتلعها الرياح، وتجتثها سريعاً، فلا يبقى لها قرار.. هكذا الكلمة الخبيثة، كلمة الباطل، التي تزرع الشر في النفوس، وتنشر الفتن بين الناس، وتناصر الظلم والطغيان والإلحاد... فإنها إلى زوال عند احتدام كلمة الحق واصطدامها بها، وإذا ما حصلت مواجهةٌ يُراد بها الحق، فلا بُدَّ أن تُهزم الكلمة الخبيثة، وتزول معها آثارها..

ولا يقف مَثَلُ الكلمةِ الطيبة، والكلمة الخبيثة عند حدود المثل وحسب، ولا هو مجرد عزاء للطيبين وتشجيع للمؤمنين، كما ليس هو مجرد تشنيع بالظالمين، وتسفيهٍ للملحدين. إنما هو تصوير لأصل الحياة الذي يقوم على الحق لا على الباطل، ولا سيما أن الخير الأصيل، والحق الثابت ـ وإن أبطأ تحققهما في بعض الأحيان ـ لا

يفنيان أبداً، ولا يزولان مهما زحمهما الشر، وأخذ عليهما الباطل الطريق.. أما الشر فإنه لا يعيش إلّا قليلاً، ثم لا يلبث أن يتآكل من داخله، ويتهالك على نفسه، إلى أن يضمحل في ذهابٍ إلى غير رجعة. وأما الخير فإنه خالد باقٍ، وهو متمثلٌ بالكلمة الطيبة، المتجددة على تعاقب الأجيال، التي تحتوي دائماً على الحقائق الثابتة مثل حقيقة الرسالة السماوية الخالدة، وحقيقة الدعوة الصادقة الباقية، وحقيقة التوحيد بأن الله تعالى واحدٌ، أحدٌ، فردٌ، صمد.. وهي الحقائق التي لا وجود للكون وللحياة وللإِنسان من دونها..

والقرآن الكريم عندما يضرب المثل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، فإنما يعني بالكلمة الطيبة الحقيقة الكاملة عن الإِيمان والحق، في حين يعني بالكلمة الخبيثة الواقع الفاسد عن الكفر والباطل.. وكما يكون للشجرة عروق، وساق، وفروع، وورق، وثمر، فكذلك الإِيمان تكون عروقه العلم واليقين، وساقه الإخلاص، وفروعه الأعمال الصالحة، وثماره الآثار والنتائج المترتبة على الأعمال الصالحة من صفاتٍ حميدة، وأخلاق كريمة، ومعاملات طيبة.. وغيرها من السجايا والمزايا التي يحمدها الله تعالى، وعباده الصالحون.

وعندما يضرب القرآن الكريم المثل عن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، فإنما يعني بالشجرة الخبيثة الكفر وما يدور في فلكه، أو يحاك في أروقته، فكما الشجرة الخبيثة مؤذية وتفتك بحياة كل من يتناول منها شيئاً أو يقربها، حتى يقيّض الله تعالى لها من يستأصلها فيخلص البَرِيَّةَ من تكاثرها، والأحياءَ من ضررها.. وكما الشجرة الخبيثة ـ والخبيث مذموم ملعون ـ كذلك الشرك والكفر فإنهما خَبَثٌ

أهلِ الباطل ـ الذين لا يتّبعون، عادةً، إلّا الخبيث، بينما هم يكرهون الحق وأهله، ويحاربون الخير والعمل الصالح. . .

سُئل رجل من أهل العلم عن معنى «الكلمة الخبيثة» فأجاب: «ليس لها في الأرض مستقر، ولا في السماء مصعد، إلاَّ أنْ تلزمَ عنقَ صاحبِها حتى يوم القيامة». وقد روي عن ابن عباس قوله: «إنَّ الشجرةَ الخبيثةَ لم يَخْلُقْها الله سبحانَه بعدُ، وإنَّما هُوَ مَثَلٌ ضرَبَهُ بهذا الواقعِ الذي يَدُلُّ على الخُبْثِ والضَّرَر».

٣ ـ الكافرون يتّبعون الباطل والمؤمنون يتّبعون الحق

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾(١).

نعم إن أهل الكفر هم دائماً على نقيض أهل الإِيمان، فالذين كفروا، وصدُّوا غيرهم عن هدى الله سبحانه، قد أحبط أعمالهم وأضلَّها فلا تقع على هدى أو خير، لأنها أعمال باطلة زائلة. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما أُنزِلَ على محمّد ﷺ من قرآن مبين، وأقروا بأنه هو الحق من ربهم، فهؤلاء يكفّر سبحانه عنهم كلَّ سيئاتهم الماضية ـ إذ الإِسلام يجُبّ ما قبله ـ ويريح بالهم من حمل همّ الذنوب والخطايا، فلا يخالفون أوامر الله ونواهيه بعد صدق إيمانهم ويقينهم.

---

(١) سورة محمد، الآيات: ١ ـ ٣.

وقيل إن هذه الآية المباركة نزلت في أهل مكة وفي الأنصار. فأهلُ مكة هم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، أما الأنصار فهم الذين آمنوا بما أُنزل على محمد ﷺ فدخلوا في الإِسلام، مخلصين صادقين بعدما تبين لهم أنه هو الدين الحق من ربهم. ولذلك فقد غَفَرَ الله سبحانه ما سلف من ذنوبهم أيامَ الجاهلية، وأصلح أحوالهم، وأراح بالهم بما وعدهم به من دخول الجنة في الآخرة...

وهذه الآية تنطبق على كل جماعة كافرة، ضالّة، كما تنطبق على كل جماعة مؤمنة مصدّقة، في كل زمان ومكان.

والله تعالى يحبط أعمال الكافرين لأنهم يتبعون الباطل، ويكفّر عن المؤمنين سيئاتهم لأنهم يتبعون الحق، ويهتدون بالقرآن المنزل إليهم من ربهم.. كذلك يضربُ الله تعالى للناس الأمثال حتى تتقرَّب بهذه الأمثال المعاني إلى عقولهم وقلوبهم، فيعرفوا الحق ويتبعوه، ويعرفوا الباطل ويجتنبوه..

البحث الثالث

الهدى والضلال والخطأ وأثرهما على النفس الإنسانية

الضلال والخطأ

الضلال هو العدول عن الطريق عمداً أو سهواً، كثيراً أو قليلاً، ويجيء بمعنى الغي، والفساد، والخطأ، والخسار، والزلل، والبطلان، والجهالة، والنسيان.

والفرق بين الضلال والخطأ، أنَّ الخطأ هو فعل الإنسان من غير قصد ـ كما قلنا سابقاً ـ في حين أنَّ الضلال هو سلوك طريق لا يوصل إلى المطلوب عمداً أو سهواً. فالضلال أعم إذاً من الخطأ. وهو ضربان: ضلال في النظر، وضلال في العمل.

وقد يطلق لفظ الضلال على سبيل الفعل، أو على سبيل الانفعال، فإذا أُطلق على سبيل الفعل، دلَّ على الحكم الفاسد، أو العمل الباطل، وإذا أُطلق على سبيل الانفعال، دلَّ على الحالة غير السويّة التي يكون عليها الفاعل عند عدوله عن الطريق المستقيم.

وقد قيل أيضاً إنَّ للضلال وجهين: أحدهما أن يضلَّ عنك

الشيء، كما في ضلال الحواس عندما لا تستطيع تبيُّن هذا الشيء، والآخر أن تحكم به أو عليه حكماً فاسداً، كما في ضلال النظر والعمل.

أما الإضلال فهو أن تدفع غيرك إلى العدول عن الحق، وهو على وجهين: أحدهما أن يكون شبيهاً بالضلال، والآخر أن يكون سبباً له. وهذا الإضلال لا ينسب إلى الله سبحانه وتعالى، لأنَّ الله سبحانه لا يُضِلُّ عبادَهُ. وإذا كان بعضُ علماءِ الكلام ينسبون إليه الإضلال، فإن هذه النسبة نسبةٌ إلى عموم مشيئته وإرادته، لا إلى رضاه ومحبته. قال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[1]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[2].

والضلالة (على وزن فعالة) من الضلال، وهي ضد الهدى وجمعها ضلالات.

الهدى والضلال

إنَّ الإِنسان ـ مهما كانت المثل التي يؤمن بها، أو القيم التي يسعى إلى تحقيقها ـ قد يخطئ في القول، وقد يخطئ في التصرف، وقد يكون ذلك عن قصدٍ ـ أحياناً ـ أو عن غير قصد.. فالمهم أنَّهُ يخطئ، لأنه محكوم بتصرفاته البشرية، إذ العصمة هي من عند الله تعالى يهبها لأنبيائه ورُسُله في دنيا الأرض.. على أنَّ الإِنسانَ، وفي محاولة تبرير أخطائه ـ إن كُشِفت له ـ يحبُّ أنْ يُسند كل خطأ ارتكبه إلى غيره، أو إلى ظرف خارج عن إرادته، في حين أنّه لو كان منصفاً

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٧.

لأقرّ بفعله وقد تدارك الأسباب التي جعلته يخطئ، واعتذر إذا كان ثمَّة من يجب الاعتذار إليه، والتعويض عن الضرر الذي ألحقه به بسبب خطئه.. وإنّما يفعل ذلك لتوقِهِ إلى تأمين الراحة الجسدية والاستقرار النفسي، ولأنه يحبُّ أنْ يبتعدَ عن كل ما يظنُّ أنَّهُ يسلُبُه راحَتَهُ واستقراره...

ولعلَّ النزعة التي تدفع الإنسانَ لتبرير أعماله، إنما تعود إلى الظنِّ الذي يغلب عليه، وهو أنّه لا إرادة له في ما يقوم به من عمل غير مَرْضيّ. وهذا ما يبدو واضحاً لك عندما تبدأ محاورته كي تصل به إلى طاعة الله سبحانه، والعمل بما يأمره به، والانتهاء عما ينهاه عنه، إذ إنَّه قد يجيبك من غير تروٍّ، ومن غير أنْ يحسبَ أَيَّ حساب لقوله: أنا على ذلك، حتَّى يهديَني الله.. فتقول له: ولكنَّ الله تعالى هداكَ ودلَّكَ على طريق الرشد، عندما بعث سيدنا محمداً ﷺ، وأنزلَ عليه القرآن الذي يتضمن الهداية والإرشاد، ومِنْ قبله بعثَ غيرَهُ من النبيين والمرسلين مبشّرين ومنذرين، فيجيبك على الفور: الهدايةُ من الله كما يقولُ في القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾(١)؟!...

ومنعاً لمثل هذا الالتباس الذي يقع فيه الإنسان، يجب أن يعرف معنى الهدى والضلال مؤيّداً بقرائن عقلية وقرائن شرعية...

يبدو أنَّ جميع الآراء توزعت حول الهدى والضلال في اتجاهين:

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

الأول: هو القائل بأنَّ الإِنسانَ مسيَّرٌ بمشيئة الله تعالى وقدره، وأنَّ كلَّ ما يأتيه أو يقع عليه يكون محكوماً به، من غير أنْ تكون له إرادة أو اختيار فيه.

والثاني: هو القائل بأنَّ الإنسان يملك زمام أمره في تيسير شؤون حياته، وإلاَّ فلماذا أُعْطِيَ هذا العقل الذي يقوم جوهرُهُ على سلطان الإرادة وقوة الإدراك والتمييز؟ وعليه فالإنسان هو الذي يختارُ سلوكَهُ وتصرفَهُ بوحيٍ من نفسه، ودافع من ملكاته وطاقاته...

وبمقتضى الاتجاه الأول، فإنَّ هدى الإِنسان وضلالَهُ أمران من مشيئة الله تعالى، بينما هما، بحسب الاتجاه الثاني، حادثان من الإِنسان، ونابعان من نفسه...

والحقيقة أنه وردت في القرآن الكريم نصوص كثيرة على الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يبيِّن المدى الذي يكون فيه الإِنسانُ خاضعاً، شاءَ أو أبى، لقدر الله تعالى فيه. وفي الوقت نفسه يدلُّ هذا التنسيق أيضاً على المدى الذي تُرك فيه للإِنسان أن يعمَلَ، ولكن ضمنَ ذلك القدر وحتميته، أي وفقاً للمشيئة الإلهية المطلقة، بحيث لا يمكن أنْ يَحدُثَ شيءٌ في الوجود البشري، بلْ وفي الكونِ كلِّه إلاَّ أنْ يشاءَ الله تعالى.

ويقف الإنسان حائراً أمام حقائق كثيرة، منها ما يختص بخَلْقِهِ وكيانِهِ وحياتِهِ، ومنها ما يتعلق بنظم الكون والوجود، وهو يحتاج فيها كلّها إلى هدى الله تعالى، وبهذا الهدى يمكن أن ينظِّم واقع حياته، وأن يكتشف بعضَ ما في الكون من عوالم وأسرار، وأن يعمل بالتالي للقاء ربه راضياً مرضياً...

وقد قضى الله سبحانَهُ بأن يُعَرِّفَ الإِنسان قيمةَ خَلْقِهِ، وقيمة ما منحه له من عطاءات، وأهمية تخصيصه بالاستخلاف. وإلاَّ فما الفرق بين إنسان لا يدرك معاني هذه القيم وغاياتها، وإنسان آخر أدركها وعرفها، فعمل بوحيها؟ وما الفرق أيضاً بين إنسانٍ مهتدٍ وإنسانٍ ضالّ؟ . . .

من هنا كانت مشيئة الله وإرادته أنْ يكون الإِنسان مخلوقاً باستعداده المزدوج للهدى والضلال، حتى يكونَ عدلُ الله سويّاً، فلا يؤخذ الجميع بمبرَّة الهدى، ولا يؤخذ الجميع بمضرَّة الضلال، بل يكون لكل إنسان ما سعى. . .

على أنَّ ذلك لا يعني أنَّ الإِنسان مسؤولٌ عن خلق الأشياء والأفعال، لأنَّ خلْقَ الفعل هو من الله سبحانه وتعالى، ولا يسأل الإنسان عن هذا الفعل إنْ كان خيراً أم شراً. . إلا أنَّ مباشرته للفعل هي التي تجعله مسؤولاً عنه: عن خيره أو شره. . فالأمر ـ في الأصل ـ يعود كلُّهُ إلى ما يشاءُ اللَّهُ ويريد، بحيث لا يقع شيءٌ إلاَّ أنْ يوقعه قدرُ الله، لأنه ليس في الوجود مشيئة أخرى يجري وفقها أيُّ شيءٌ في هذا الوجود إلاَّ مشيئة الله، وليس هنالك أية قوة إلاَّ قوة الله التي تنشئ الأحداث، وتسيِّر كلَّ شيء. . وفي إطار هذه الحقيقة يتحرك الإنسان، ويباشر الأعمال والأفعال بنفسه، ليكون مسؤولاً عنها أمام الله ربِّه قبل كل شيء، ثم أمام الناس لتترتَّب المسؤولية مِن ثَمَّ على عاتقه، بحيث لا يُعذر إنِ اتَّبَعَ فعلَ الشر، وتخلَّى عن فعل الخير. . قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[1].

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ و١٥.

وانطلاقاً من الإيمان بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الخالق، وهو المدبّر الحكيم، وأنه هو الذي خلق الإنسان، فقد جعل للحياة البشرية ـ كما جعل للكون بأسره ـ سنناً ثابتة لا تتحوَّل ولا تتبدل، وبمقتضى هذه السنن أعطى للإنسان حرية الاختيار، أي حرية مباشرة الأعمال والأفعال، بعد أنْ أودعَ فيه هبة العقل ليكون قادراً على الإدراك، والتمييز بين ما هو خير أو شر، حسن أو قبيح، حق أو باطل، صلاح أو فساد.. ليأتي عمله، أو فعله، ضمن نطاق حريته في الاختيار والمباشرة ـ ويكون الحساب الذي ينتظره على مقدار اختياره ومباشرته ـ بمعنى أنَّ الإنسان هو الذي تقع في عنقه مسؤولية اختياره، وإنْ كان في اختياره لا يخرج عن مشيئة الله ـ تعالى ـ التي تحكم خيارَه، مثلما تحكم كلَّ شيء، سواء في حياة الإنسان، أو في الكون.. وعلى هذا الأساس ـ أي ضمن مشيئة الله تعالى، واختيار الإنسان ـ تأتي الهداية.. فإنْ قام الإنسان بالعمل الطيب، أو نطق بالقول الصادق، أو أخلص في النية والعمل، أو اتَّبَعَ الحقَّ، أو رفض الفسادَ والإفسادَ، وإيذاءَ الناس والمخلوقات، وتصدّى للظلم والجور.. فكلُّ ذلك يكون من اختياره، ويصدر عن مباشرته، وكلُّهُ يصبُّ في اتجاه الهداية... وعلى العكس، إنّ قام الإنسان بالعمل السيّئ، أو تقوَّل الكذبَ، أو ناصَرَ الباطل، أو انساق وراء الشهوات بنزواتها، أو تسبب بالأذى للناس وحتى للحيوان والجماد من حوله.. فذلك أيضاً كان من اختياره ومباشرته له بجوارحه التي خلقها الله له، وأدواته التي مكّنه منها، وكلُّهُ يدلُّ على اتجاه الضلال.. فاختيار الإنسان

هو واقع، وراهن، ولكن ما يقع منه في دائرة الهداية يكون محكوماً بجزاء الثواب، وما يقع في دائرة الضلال يكون محكوماً بجزاء العقاب.. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[2]، ما يعني أنَّ المولى تبارك وتعالى قد راعى خلق الإنسان، وما جعل فيه من حالات الضعف والقوى، فكلّفه القيام بما يطيق ويقدر عليه، ثم أوكله إلى نفسه في كل ما ينوي أن يقوم به، وفي كل ما يمكن أن يفعل، بحيث ليس له من عمله إلاَّ ما سعى في سبل الخير والهداية، وهو ما يجازَى عليه بالثواب؛ بينما كل فعل يقوم به بخلاف ذلك يُرتهن الإنسان به، ويؤخذ بجريرته إلى العقاب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3] أي هي مرهونة لكل ما تؤتي من فعال السوء والشر والظلم...

وعلى الرغم ممَّا خصَّ به الخالقُ الإنسانَ من طاقات وقدرات، إلاَّ أنَّ هذا الإنسان لا يملك أن يكون قادراً وفاعلاً إلاَّ أنْ يشاءَ الله تعالى، فهو محكومٌ بمختلف الظروف والأقدار التي تسيّرها مشيئة الله ـ عزَّ وعلا ـ والتي كثيراً ما تخرج عن إرادته ـ كإنسان ـ لأنه لا يقدر على التحكّم بها؛ فلا يستطيع أن يقول بأنه فاعل لشيءٍ غداً، ويجزم، أو يطمئن على الأقل، إلى أنَّ بوسعه تنفيذه، وذلك لسبب

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.
(٣) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

بسيط، وهو أنَّ أمرَه، وغَدَه، بل ومصيرَه كله بيد الله سبحانه وتعالى، وقد يتوفّاه في أي لحظة، أو قد يصيبه بمرضٍ يقعده، أو قد يسبِّب له أي طارئ يحول بينه وبين قيامه بما عزم عليه، أي إنه يمكن أن تتبدَّل كافة المعطيات التي بنى عليها تصوراته، وتحول بينه وبين ما كان ينوي القيام به، وهذا ما يجعله غير قادر على التسيير والتحكّم بما هو آتٍ ومستقبل.. ولكنْ، وإنْ كان الإنسان لا يستطيع الجزم بأنه فاعل لشيءٍ لا في يومه، ولا غده، إلاّ أنه يملك إمكانية الاستعداد لأنْ يكون فاعلاً للشيء، وحتى في هذه الإِمكانية، فإنه لا يضمن النتائج التي يتوخاها إلاّ أن يشاء الله تعالى؛ من هنا كان توجيه العلي العظيم لرسوله الكريم، تنبيهاً له وتعليماً للناس بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾(١).

ومثل هذا الإِيمان بمشيئة الله تعالى المطلقة التي يتعلق بها كل فعل، وكل أمر، وكل شأنٍ وكل شيءٍ يدخل في صلب هداية الإنسان التي تنير عقله ووجدانه للتسليم بأمر ربّه الحق، والتوكل عليه في النية والفعل، حتى يوفقه مولاه الكريم إلى ما فيه صلاحه وخيره، وذلك بخلاف من يدّعي أنَّ كل ما يفعل هو من عنده، ولذلك تراه يسير في دروب الضلال، وقد يخدع الناس في كثير من المظاهر في حياته، وإنْ كان في الحقيقة لا يخدع إلاّ نفسه ـ دون أن يعيَ بأنَّ فوقه ربّاً يرقبه، وعلى نياته وأفعاله يحاسبه، وإنْ خال أنَّ فعاله قد خفيت على الناس،

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

فإنها لا تخفى على رب الناس ومثل هذا الإنسان هو ـ بلا ريب ـ الذي اختار الضلالَ، فزاده الله ـ تعالى ـ ضلالاً. . إذاً فما على الإنسان إلاَّ أن يتَّقي ربَّهُ فيهديه إلى الصراط المستقيم، ويبعده عن الضلال المبين! . . .

أوجه الهدى

يقال لغةً: الهداية هي الدلالة بلطف، ومنه الهدية. . وقد جرى التمييز بين تعبير «هديت» لما كان دلالة، وتعبير «أهديت» لما كان إعطاءً، كأن تقول: هديت فلاناً إلى منزلي، وأهديت له هدية. وهداية الله ـ تعالى ـ للإنسان، لما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة، تتجلى في أربعة وجوه:

الوجه الأول: الهداية التي عمَّ بها الخالق العظيم جميع خلقه

وهذه الهداية هي ما جعل الله ـ تعالى ـ لكل جنس من مخلوقاته خصائص ومميزات تدلُّهُ على الوظيفة التي وجد لأجلها، وعلى ما قدَّر له وهداه إليه، فخصَّ سبحانه أنواع الجمادات بقيم مادية تتفاوت درجاتها تبعاً لنوع الجماد وأهميته، فخصَّ الشمس مثلاً بالنور، والقمر بالضياء، ومدَّ الأرض بأسباب الحياة، كما خصَّ الحيوان ـ في البرّ والبحر ـ بالغرائز ليهتدي إلى معاشه ويذود عن بقائه، بينما خصَّ الإنسان بالإضافة إلى الغرائز والحاجات العضوية، بمزايا كثيرة ومتنوعة، وأبرزها ملكة «العقل» الذي بمقتضاه جعله سيداً على مخلوقات الأرض كلها.

وهذه المعاني يدلُّ عليها الحوار الذي جرى بين النبيِّ موسى عليه السلام وفرعون حاكم مصر، عندما سألَهُ هذا الأخير ﴿قَالَ

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[1]، فأجابه النبي موسى عليه السلام بهدي ربه تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

ولا يخفى ما تحمل هذه النصوص القرآنية من المعاني والدلالات...

إنَّها تبيِّن قبل كل شيء، أنَّ ربنا هو خالق كل شيء في الوجود، وأنه هو الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَهُ الصورةَ التي أوجده عليها، ثم دلَّ، أي هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمدَّه بما يناسب قيامه بهذه الوظيفة، ويعينه عليها. وهذا ما يسمى هداية الدلالة أي التي تدلُّ كل مخلوق على ما قدَّر له خالقه منذ البدء؛ وفيها توكيد على قدرة الله ـ تعالى ـ وحكمته في تدبيره لكل كائن في الوجود، من الذرَّة المفردة إلى أكبر الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة الذي يتمثل في خلق الإنسان في أجمل صورة وأحسن تقويم، وما ينطوي عليه خلقه من طاقاتٍ وإمكانات أهَّلته لأن يجعله الله ـ عزَّ وعلا ـ خليفة في الأرض.. وما حقَّق الإنسان من إنجازات في ميادين الحضارة والمدنية، إنْ هو إلاَّ توكيد لهداية الله ـ تعالى ـ له إلى وظيفة الاستخلاف. هذا هو الوجه الأول من هداية الخالق العظيم لكل شيءٍ خلقه.

الوجه الثاني: الهداية إلى الإيمان

إنَّ الأصل في فطرة الإنسان أن يهتدي، من تلقاء نفسه، إلى حقيقة وجود خالقه، حقيقة وجود الله تعالى، وأن يؤمن بأنه سبحانه إلهٌ واحد في السماوات والأرض، لا شريك له في خلقه وفي ملكه،

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٩.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

فلا يداخله بالتالي أي نوع من أنواع الشرك، أو الكفر الذي يقوده إلى الفسوق والعصيان. ولذلك زوّده خالقه العظيم بالاستعدادات الكامنة في نفسه، التي من شأنها أن تمكّنه من الضلال في فجوره، أو الهداية في تقواه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾(١)، ولذلك كان على الإنسان ـ وبمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها ـ أن يهتدي إلى الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، ومن ثَمَّ أن يختار ـ بمقتضى استعداداته النفسية ـ بين طريق الشر (الفجور) أو طريق الخير (التقوى). . .

وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ الله ـ تعالى ـ لم يوكل الإنسان إلى نفسه، بل زيادة منه تعالى في الهداية، ورحمة بعباده، بعث منهم الأنبياء والمرسلين دعاةً لهدايتهم إلى الإيمان الحق، أي الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله، وما ينبثق من هذا الإيمان بأنَّ الجنة حق، وأنَّ النار حق، وأنَّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وإليه النشور، لتوفَّى كل نفس جزاءها بما كسبت من خير، أو اكتسبت من شر. . ولذلك كانت الرسالات السماوية تترى على مرّ العصور، من آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ . . فكان جميع الأنبياء والمرسلين دعاةً إلى الله تعالى، مبشرين بالجنة، ومنذرين بالنار ـ مع ما تحمل دعواتهم من البراهين والأدلة العقلية والحسية ـ ليؤمن من آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بيّنة، وليكون مردود الكفر أو الإيمان على الإنسان نفسه، وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾(٢).

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧ و٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٤.

ومن منن الله ـ تعالى ـ على الناس، وعظيم فضله، وواسع رحمته، أنَّهُ وَعَدَ بألاّ يُعذِّب في الآخرة بني آدم حتى يبعث في كل أمة، أو في كل قوم رسولاً هادياً إلى الحق الذي لا مراء فيه، فقال تـعـالـى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(١).

أجل إن الله تعالى هو الرحمن الرحيم، واللطيف الخبير، فقد بعث النبيين والمرسلين أئمة يهدون بأمره إلى الإيمان الحق، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(٣)، والهداية هنا، هي الدعوة التي أرسل بها رسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وهو يخاطبه من عليائه على لسان جبريل الأمين عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(٤)، والتوكيد عليه بأنه ﷺ يهدي إلى سبيل الله ـ تعالى ـ القاصد القويم بقوله المبين: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥).

وبالفعل كان محمد رسولُ الله ﷺ أولَ المسلمين في عصره، وقد آمن بما أنزل الله ـ تعالى ـ عليه من آياتٍ كريمة في قرآنٍ مبين يهدي للتي هي أقوم، كما هدى الله ـ عزَّ وعلا ـ المؤمنين ليؤمنوا بما آمن به رسولهم الكريم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥ و٤٦.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

رَبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾(١).

وكانت الميزة التي تفرَّد بها محمد رسول الله ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين عندما بعثه ربه تعالى رسولاً للناس كافة، وليس لقوم دون غيرهم، ولا لأمة واحدة، ولا لشعب معين، بل لجميع القبائل والشعوب والأمم والجماعات والأقوام على حدٍّ سواء، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٢)، بل وأرسله رحمةً للعالمين، أي للثقلين من معشر الإنس والجن، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)..

ولأنَّ محمداً رسولَ الله ﷺ قد بُعث بتلك الميزة والخصوصية، أي رسولاً للناس كافة، فإنَّه لم يُبلِّغ الإسلام إلى العرب وحدهم في شبه الجزيرة فحسب، بل توجَّه بالدعوة الاسلامية إلى الأباطرة والملوك والأمراء والحكام في بلاد الروم وفارس والبحرين ومصر، وكافة القبائل المحيطة بأطراف الجزيرة العربية، بحيث أوفى بما عاهدَ الله ـ تعالى ـ عليه من الإِيمان والتبليغ.. وهو في ذلك كله يهدي إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بإذنه حتى كان مثله كمثل السراج المنير الذي يُهتدى به للخروج من الظلمات إلى النور.. وكيف لا، وهو يهدي إلى الدين القيم، الدين الحق، إلى الإسلام الذي ارتضاه العزيز الحكيم لعباده، دين الفطرة، دين العقل، دين الخلق، الدين الذي يدعو للتأمل والتَّفكُّر والتَّدبُّر والانقياد والاستسلام للّه الواحد الأحد، الذي لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

شريك له ولا ولد، لا إِلَهَ إلاَّ هو ربّ السماوات والأرض وما فيهنَّ، وما بينهنَّ وما تحت الثرى. .

ولقد ظلَّ رسول الله ﷺ يتلقَّى الوحي من ربه تعالى على مدى ثلاث وعشرين سنة، فيبلِّغ ما أُنزل إليه، ويبيِّن معاني ومقاصد الآيات القرآنية المنزلة بالسنة النبوية الشريفة هدىً، وتعليماً، وتثقيفاً. . وبالفعل، والقول، والإقرار ـ بحسب مقتضيات الحال ـ حتى ختام الوحي الإلهي، الذي اكتمل فيه الدين شرعة ومنهاجاً، فجاءه رضا المولى الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، وبذلك صار الحلال ـ حلال محمد ـ حلالاً، والحرام ـ حرام محمد ـ حراماً إلى يوم القيامة، ولم يعد لدى أحدٍ من الناس أيُّ عُذر إنْ لم يهتدِ إلى دين الله، أو يعمل بوحي الرسالات السماوية كما أنزلها الخالق العظيم بكامل مصداقيتها هدىً ونوراً، كما يدلُّ عليها القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2]؛ وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]. ثُمَّ كان ختام تلك الرسالات بأكمل صورها كما يتبيَّن من خطاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسوله محمد ﷺ بقوله العزيز: ﴿وَأَنزَلْنَآ

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(١).

ذلك هو الوجه الثاني للهداية، أي هداية الله للإنسان ببعث الأنبياء والمرسلين دعاةً إلى دين الله، الذي يهدي إلى الصراط المستقيم. ولئن كان إبلاغ الدعوة يقع على عاتق تلك الثلة المختارة من بني البشر، إلاَّ أن مسؤولية الاهتداء هي مسؤولية كل فردٍ ـ وحده ـ من الناس. فالأمانة التي يحملها كلُّ مكلّف ـ بالغٍ عاملٍ ـ هي الإقرار بألوهية الله المطلقة، وربوبيته المطلقة، والإيمانُ بحقيقة بعث كل الأنبياء والرسل من غير تفريق بين أحدٍ منهم، والتصديق بما جاؤوا به من الحق. . وسبل الهداية متاحةٌ ومفتوحةٌ أمام جميع الناس، إذْ يَسر الله ـ تعالى ـ كثيراً من الدعاة، والعلماء والمفكرين من المؤمنين الصادقين، وكلَّ أهل الذكر الذين يهدون الناس مباشرة أو بآثارهم الفكرية في مشارق الأرض ومغاربها، ولاسيما بعد انتشار وسائل الإعلام المرئية والمسموعة؛ وقد خصَّصَ القيِّمون على تلك الوسائل إذاعات أو قنوات تلفزيونية فضائية لبث التعاليم الدينية ونشرها، ـ بصرف النظر عن الأهداف أو السياسات الخلفية لأولئك القيِّمين ـ المهم أنَّ سبل الهداية ميسورة، وإذا تعثرت ـ افتراضاً ـ بالإنسان كلُّ تلك السبل، فقد يَسَّر ربُّ العالمين كتابه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

المبين ـ القرآن ـ ليكون في متناول أيِّ إنسان ـ خصوصاً بعد ترجمة معانيه إلى لغات حيّةٍ عديدة ـ فيغرف من منبعه الذي لا ينضب ـ وعلى قدر وسعه وطاقته ـ كل معاني الهداية، وبمختلف وجوهها الدينية والفكرية والخلقية والسلوكية؛ وهذه حقيقة راهنة أمام الناس جميعاً، فلا يخالجنَّ أحداً أيُّ شعور أو تفكير بعدم توافر سبل الهداية له، إذ على كل واحدٍ من بني البشر أنْ يبحث عن الحق والحقيقة حتى يكتب عند الله ربه من ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾(١).

ونحن ننصح الإنسان، أينما وُجد على سطح هذه الكرة الأرضية، أن يجهد فعلاً للاهتداء والإيمان بالله الحق، وخصوصاً أنَّ خالقه منحَهُ هبةَ العقل، الذي ميّزهُ عن سائر المخلوقات لمعرفة الحقائق في مظانّها، وإنَّ حقائق القرآن هي أصدق، وأسمى وأفضل الحقائق على الإطلاق، لأنها كلام الله خالق الكون والحياة والإنسان ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾(٢)، من هنا كان نصحنا للإنسان، حبّاً به، وطمعاً بهدايته إلى سبيل الله القويم، أن يقرأ القرآن الكريم، ويفهم معاني آياته البيّنات، وأنْ يطَّلعَ على تفسير هذه الآيات من أهل الفكر الذين يخافون الله، فلم يحرّفوا كلِمَهُ عن مواضعه، ولم يفسّروا آياته تبعاً للأهواء والمصالح لأنَّ حكمة الله ـ عزَّ وعلا ـ قضت بأنْ يكون القرآنُ الهادي للإنسان. . قال تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٧.

وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١] . فإذا كان ربُّ الكون، ربُّ العالمين، وربُّ الناس هو الذي يقول لنا إنَّ القرآن هو هدى للمتقين؛ وهو سبحانه الذي يهدينا بقوله الصادقِ الحق إلى اتباع الدين الحنيف: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، [٢] فهل بعدُ من عذرٍ للإنسان بألّا يتَّبع ما أمرَهُ ربُّهُ به؟!

الوجه الثالث: الهداية إلى العمل الصالح

من الطبيعي أن يتلقى الإنسانُ المؤثرات الخارجية في مختلف مراحل حياته، وأن يتأثر بها في تفكيره وشعوره، وفي حركته وتفاعله مع الحياة، ومن هنا كانت الطاقات والاستعدادات الكامنة في نفسه هي التي تستقبل كل المؤثرات من الخارج وتحدد مساره في نزوعه نحو الخير أو الشر، بمعنى أنَّ الإنسان هو الذي يباشر ـ كما قلنا سابقاً ـ بالعمل الصالح، أو يؤثر عليه العمل الصالح، فإذا كانت استعدادات الخير في نفسه أقوى غلبت على حياته الأعمال الصالحة، ولكن تحت رعاية الله تعالى ورحمته به، فالله ـ تعالى ـ خالقُ الإنسان، هو مع الإنسان أينما كان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ويرقب كل نَفَس ينبعث منه، وكل حركة تصدر عنه، وكل سكنة يلجأ إليها، وهدايته إلى الأعمال الصالحة لا بدَّ وأن ترتبط بالوجهين الأولين للهداية، أي إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد هداه إلى سبل حياته، وبعث له الأنبياء والمرسلين ليأخذوا بيده إلى حقيقة الإيمان، فإنْ لم يخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها، وآمن بما أنزلَ الله تعالى من الدين الحق، كان

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٥.

من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنه لا يمكن للمؤمن إلاَّ أن يعمل صالحاً، فهو إنْ مرَّ في حالات من الضعف التي توقعه في النسيان أو الخطأ ـ باعتبار أنه خُلق ضعيفاً ـ إلاَّ أنَّ الإِيمان لا يلبث أن يقوى في نفسه، ويردُّه إلى جادة الصواب، فيعود ـ بعد الاستغفار ـ إلى عمل الخير والصلاح.

والحقُّ يقال أنّه لا إيمانَ بلا عملٍ صالحٍ، ولا عملَ صالحاً بلا إيمان، فهما صنوان لا يفترقان، ومن لم يكن إيمانه صادقاً زلَّ عن محجّة الصلاح، وسار في طريق الضلال، فلا يعود يميِّز بين عمل ينفعه وينفع الآخرين، وعمل يضرُّه ويضرُّ الآخرين، لأنَّ ما يطغى عليه ـ حينئذٍ ـ هو مصالحه الخاصة، ومطامعه التي تزيِّن له كلَّ شيء، وتجعله يستبيح كلَّ شيء، دونما تفكير بالحلال أو الحرام، ودونما اعتبار لرضى الله ـ تعالى ـ أو سخطه! . . .

لا أيها الإنسان، ما لهذا خُلقتَ، ولا لذلك جُبلت! . . إذْ مثلما أنت مسؤول عن صلاح نفسك وأهل بيتك، فأنت مسؤول أيضاً عن صلاح الناس في مجتمعك، ومطالبٌ بألاَّ تقوم بأي عمل يمكن أن يؤذي أو يضرَّ الناس، في أي بقعةٍ وجدوا، وإلى أي جماعة أو أمةٍ انتموا، لأنك مستخلف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على هذه الأرض، واستخلافك يلزمك أن تبتغي خيرَ الناس، كلِّ الناس، حتى ترضي الله تعالى، لأنه لا فائدة ـ في نهاية المطاف ـ من أعمال لا تبتغي فيها وجه الله ـ تعالى ـ ورضاه. ولعلَّ الخطأ المهلك الذي يخسر فيه الإنسانَ كلَّ شيء، هو ظنُّه أنَّ ما يملك من أسباب القوة، والغنى، والنفوذ يبيح له أنْ يفعل ما يريد، بل والأسوأ أن يتوهم، أو أنْ يوهمه مَن حوله، أنَّ أفعاله وأعماله كلها صوابٌ، وأنه محق في ما يفعلُ. بينما لا يكون ما

يقوم به إلاَّ وبالاً وشراً، ولا سيما على الآخرين! وإنَّ أهمَّ الأسباب لذلك هو الابتعاد عن الإيمان الحق، وعدم الخوف من الله تعالى، ونحن لسنا في معرض تعداد مظاهر الظلم والفساد، والغرور والاستكبار، ومناصرة الباطل والشر التي تستشري في دنيا الأرض، على حساب المستضعفين والمقهورين من الناس جميعاً، وأصحاب تلك المظاهر يظنون أنهم يعملون لمصلحتهم، ومصلحة بلادهم! لسنا في معرض ذلك، لأنه يحتاج إلى مجلدات. إنما قصدنا التوصل إلى أيسر السبل التي تقودهم إلى الهداية وتبعدهم عن الضلال.. أجل، هذا همُّنا الأول والأخير، وعسى أن يوفقنا الله تعالى في ذلك...

من هنا كانت مطالبة الإنسان ـ على أي مستوى اجتماعي كان، وعلى أي منصب يتربَّع ـ أنْ يكون من المؤمنين الصادقين، وإيمانه هذا كفيل بأن يهديه إلى العمل الصالح.. ويجب أن يوقن الإنسان بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ هو وليُّ التوفيق، بما يفيض عليه ـ حينئذ ـ من نعمة الهداية، وينشر في حياته من واسع الرحمة، بما يُدخله في عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وهذا التوفيق هو ما يهدينا إليه نور القرآن المجيد، يقول العزيز الحكيم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4].

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

إنها حقائق قرآنية تدلُّ الإنسان على أنَّ عليه أن يهتدي أولاً في نفسه، وهذه الهداية هي السبيل إلى هداية ربه، الذي يزيد ـ سبحانه ـ عبدَهُ هداية فوق هداية، فكلما اهتدى العبدُ زاده ربه ـ تعالى ـ هدى، وسارَ في الطريق الذي يرتقي فيه إلى حقيقة إنسانية. . .

الوجه الرابع: الهداية إلى الجنة

وهي آخر صور الهداية وأعظمها شأناً، لأنها تأتي تتويجاً للهدايات الثلاث السابقة عليها. . إذ إنَّ كلَّ شيء في الوجود يجب أن يكون له منتهى وغاية، وغايات الإنسان شتى، وقد لا تحصى، ولكنَّ العاقل الحكيم من غلَّبَ رضوان الله ـ تعالى ـ والفوز بالجنة على كل غاياته الأخرى. . فلا يظنَّنَّ أحدٌ من بني البشر أنه خُلق عبثاً في هذه الحياة، وأنَّ بمفارقته لهذه الدنيا سوف ينقضي كل وجود له. . فهذا الظنُّ هو منتهى السذاجة، ومنتهى الضلال عن الحقيقة التي أكدت عليها جميع الرسالات السماوية، وهي أنَّ الإنسان ككائنٍ حيٍّ سوف يموت لا محال، ليرحل من دار فناء إلى دار بقاء. . بمعنى أن مصيره لن يكون نهائياً لمجرد موته، بل هنالك حياة أخرى تنتظره، كما يثبتها القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]. . ولكنَّ تلك الحياة الدائمة والأبدية تتوقف كيفيتها ـ ولا ريب ـ على أعمال الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فهو إن اختار الكفر، والنفاق، واتبَعَ طريق الباطل والضلال بدلاً من الحق والصواب، كان محتوماً أن يدخلَ النار خالداً فيها، وكثيرة آيات القرآن الكريم، التي تبيِّن

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

صفات أهل النار، وأفعالهم، والمصير الذي ينتظرهم يوم الدين. . .

وأما إن اختار الإنسانُ سبلَ الهداية، وكان من المتقين الذين يخشون ربهم في الغيب، بحيث يكونون في نياتهم وأعمالهم يريدون وجه الله ـ تعالى ـ ولا يخافون في الله لومة لائم فيكون مكتوباً ممن أدخلهم ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ برحمته التي يتغمَّدهم بها، الجنةَ خالدين فيها أبداً. . .

وطرق الهداية والاستقامة التي تقود إلى الجنة واضحة أمام الإنسان وضوح الشمس في كبد النهار، ولكنَّ أعظمها، وأجلَّها شأناً، القتلُ في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[1]. . وهذا يعني أنَّ كلَّ من يقتل في سبيل الله ـ تعالى ـ هو الشهيدُ حقاً. ومن عظيم محبة الحق تبارك وتعالى للشهداء وعده لهم بدخول الجنة نظراً لمآثرهم في الحياة الدنيا، فهم الصفوة من بني البشر الذين تخلوا عن الحياة الدنيا بكل متاعها، وزخرفها وشهواتها، ووضعوا نصبَ أعينهم حقاً الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيله، مثل نصرة دين الله، ورفع الجور والظلم عن عباده، ومحاربة الفساد والشر والباطل بكل الأشكال التي تظهر في دنيا الأرض، وما إلى هنالك من المآثر والفعال الطيبة التي يحمدها أهل السماوات والأرض. . ومن سمات هؤلاء الشهداء أنَّ جهادهم يكون مبنياً على الإيمان الصادق، والخلق الحسن، والعمل الصالح، وعن القناعة والرضى بأنهم ما اختاروا سبيل الجهاد إلاَّ لرضى الله ـ تعالى ـ وهديهم للثبات على الحق حتى ينالوا النصر أو الشهادة. .

---

(١) سورة محمد، الآيات: ٤ ـ ٦.

وقال رسول الله ﷺ: «**يُعطى الشهيد ست خصال: عند أول قطرة من دمه يكفَّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده في الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمَّن من الفزع الاكبر، ومن عذاب القبر، ويحلَّى حلة الإيمان..**»[1] من هنا كانت الشهادة في سبيل الله أعلى الهدايات درجة وكمالاً.. ومن الطبيعي أن تكون هذه الهداية مطمح ورجاء كل مؤمن صادق، مجاهد في سبيل الله ـ تعالى ـ وكذلك كلُّ إنسان يتولاَّه ربُّهُ ـ تبارك وتعالى ـ بالهداية، ويجعله من ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ فهو ممَّن تغمَّدهم الله برحمته الواسعة، وأدخلهم جنة الخلد، حيث يجدون فيها، كما روي عن رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[2]، وحيث يطمئن أهلها إلى نعيمها الدائم، وهم يحمدون ربهم الكريم على ما هداهم إليه، كما يبيّنه قول الحق تباركَ وتعالى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[3].

تلك هي حالات الهداية التي يمر بها الإنسان، وهي تتناسق بشكلٍ مطّردٍ، بحيث تقوم حياة الإنسان على الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، ومن ثم الإيمان بالله، وتصديق أنبيائه ورسله، وهي السبل التي تقوي في نفسه الاستعدادات للعمل الصالح، الذي ينفع العبادَ ويرضي الله تعالى، ليكون مآبُ المؤمنين الصادقين الذين يعملون الصالحات إلى الله ربهم، وهو سبحانه يجزيهم على ما كانوا

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم ١٧١١٥.

(٢) رواه الشيخان (متفق عليه).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

يعملون. ولا بدَّ أن ننبّه هنا إلى قضية هامةٍ جداً، وهي ما يعتقده كثيرٌ من الناس بأنّهم يؤمنون في قرارة أنفسهم بحقيقة وجود الله تعالى وأنَّ إيمانهم هذا كافٍ بذاته بحيث لا يحتاجون لأي شيء آخر. . وكذلك لا يفكرون بأوامر الله تعالى ونواهيه، بل ويُعرضون عن العبادة، وعن الالتزام بالفرائض المطلوبة بسبب ذلك الوهم القاتل، وهو أنَّ إيمانهم في قلوبهم يكفيهم!. .

لا، وألف لا. . . إنَّ مثل هذا الإيمان ناقص لا محالة، لأنه لا يقترن بصلاة وصيام وزكاةٍ وحجٍّ، وحتى لو اقترن إيمان هؤلاء بالعمل الصالح، فإنَّه يبقى إيماناً خلواً من المضامين الحقيقية للعمل الصالح، لا بدَّ للمؤمن أنْ يضع على عاتقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فضلاً عن الجهاد في سبيل الله، ومجاهدة النفس للابتعاد عن المعاصي، وارتكاب الفواحش. . فالهداية الحق هي هداية القلب والجوارح على حد سواء، ولا يكفي أن يقول الإنسانُ إنه مؤمن بربه تعالى، ويهمل عبادته، أو أنْ يعتقد بأنَّهُ مؤمن ولا يلتزم بأوامر الله تعالى ونواهيه كلها. . . وإلَّا فقد ضلَّ الإنسانُ، وأضلَّ غيره. . .

ومن قضايا الهداية الأخرى، أنَّ الإنسان المهتدي قد يحب أن يهدي غيره، ويدله إلى طريق الله تعالى؛ ولكن مهما عمل الإنسان في هذا المجال، فإنَّ عليه أن يوقن بأنَّ التوفيق إلى الهداية هو من أمر الله، وهو ـ سبحانه ـ يهدي من يشاء هدايته، لعلمه السابق بمن يستحق الهداية من عباده، يقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿لَّيۡسَ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

﴿عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[1]، وهذا يعني أنَّ واجبك ـ يا محمد ـ البلاغ المبين، أما هداية الناس فلا تقع على عاتقك، لأنَّ الله هو الذي يهدي من يشاء، وهو ـ سبحانه ـ أعلم بمن يتوخى الهداية، ويسعى لها سعيها.. وما ينطبق على رسول الله ﷺ، ينطبق على جميع الأنبياء والمرسلين، فقد حملوا الدعوات الربانية إلى الهداية، وكانوا من الدعاة إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أَحَبُّوا أنْ يهتدي الناسُ إلى ما كانوا يدعونهم إليه، ولكن هل كان الناس يصدقونهم، ويؤمنون بما أنزل إليهم من ربهم؟!

من الناس من يَسَّرَ الله ـ تعالى ـ لهم سبل الهداية، وزيَّنَ الإِيمان في قلوبهم وهداهم إلى الحق المبين..

ومن الناس من أبت نفوسهم هدى الله ربهم، ورغبت عن الإِيمان، فأبعدهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن رحمته، إذْ لم يدلهم على طريق الهداية، ولم يوفقهم إليها، وذلك بسبب ظلمهم وكفرهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، فكان من الطبيعي أنْ لا يؤمنوا بما جاء به النبيون والمرسلون!... مما يتبين معه أنَّ أول سبل الهداية تقع على عاتق الإنسان نفسه، فإنْ أبى الناس إلاَّ أن يكونوا من القوم الظالمين، أو أبوْا إلاَّ أن يكونوا من القوم الكافرين، فقد حقَّ الحقُّ عليهم ألاَّ يهديهم الله تعالى؛ لأنَّ الأصل هو اتباع هدى الله، فمن تبعَ هُداهُ ـ سبحانه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٧.

وتعالى ـ فلا يضلُّ ولا يشقى، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1]، ما يعني أنَّ دعوات الأنبياء والمرسلين كانت تحمل هدى الله إلى الناس، الذين يقع على عاتقهم ـ وعلى أنفسهم وحدهم ـ أمر الاهتداء بما آتاهم ربهم من الهدى بواسطة تلك الثلة المختارة من عباده، أي الذين اقتصر دورهم على أن يكونوا الوسيلة إلى الله بالبلاغ المبين، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، ولذلك كان توجيه رب العالمين لرسوله محمد ﷺ، وهو يراه يجهد في تزيين الإيمان للناس، بل ويضني نفسَهُ كي يستجيبوا له ويدخلوا في الإسلام، بألاَّ يتعب ولا يشقى وأن يكتفي بالتبليغ والتذكير بآيات القرآن الذي نزَّله على قلبه وحياً صادقاً لا ريب فيه، كما يدلُّ عليه خطابُهُ له بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[5]. وهذا كله يعني أنَّ دور الأنبياء والمرسلين كان مقصوراً على دعوة الناس إلى الإيمان، والاهتداء بآيات الله تعالى، وأنَّ الهداية هي توفيق من الله يهدي إليها قلب المؤمن فيكون مهتدياً، لأنَّ من يعمل صالحاً ويطلب الهدى ويتحرّاه فلا بدَّ أن يوفقه ربُّهُ في طلبه وسعيه؛ بخلاف من تحرَّى طريق الضلال

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ و٢٢.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٥) سورة النمل، الآيتان: ٨٠ و٨١.

أو الكفر أو النفاق، فابتعد عن هدى الله ربه، فأبعدَهُ ـ سبحانه ـ عن رحمته، وسبل هدايته. .

وهكذا فإنَّ من اهتدى إنما يكون قد تحرَّى ـ باختياره ـ الهدى، وهدايته تكون لنفسه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(١) وأن من ضلَّ هو من عدل عن المنهج القويم ـ أي عن طريق الهدى ـ إلى الضلال، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾(٢).

ولا بد أخيراً من الإشارة إلى أن الهدى والهداية، في موضوع اللغة، واحد. ولكن خصَّ الله عز وجل لفظة الهدى بمن تولاه وأعطاه نحو: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٣) ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾(٤).

وليس هذا البيان للهدى والتأكيد عليه بآيات دالّة، ومعبِّرة إلّا رحمة بالإنسان، وحباً بهدايته، إذ لعلَّهُ بعد الضلال أن يثوبَ إلى الله، ويعودَ إلى خالقه، إنَّ رحمة الله تعالى قد وسعت كلَّ شيء، وهو سبحانه يحثُّ الفرد والجماعة على الرجوع إليه، والعودة إلى توجيهه واللجوء إلى رحمته، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾(٥)، ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾(٦)، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٧)، ﴿لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ١٩.
(٧) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

إِلَيْهِ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]. فإذا عاد الإنسان عن ضلاله، وابتعد عن الغيّ، وغيَّر مفاهيمه، فإن سلوكه سيتغيَّر حتماً. وإن هو نهى نفسه عن الهوى، فإنه يكون قد غيَّر ما تكنّهُ هذه النفس.. وعندها يرسل الله سبحانه وتعالى له أولياء من الملائكة يكونون له عوناً، وأخلاَّء أصفياء في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[3].. فهل بعد ذلك رحمةٌ أوسع من رحمة الله، وإرشاد أكبر، وهداية أشمل؟!.. إنها دعوة صريحة واضحة للإنسان، كي يكون من المهتدين، وإن هو ضَلَّ يوماً أو أضَلَّه غيرُه، فإنَّ أبواب رحمة الله مشرعةٌ أمامه كي يعود إلى الهداية، والاستقامة، فتتنزَّل عليه الملائكة تأخذ بيده إلى سبيل الرشد والفلاح..

وبعد ذلك كله، أوليس الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى هو سبيلَنا الوحيد لكل ما فيه خيرُنا وصلاحُنا، إذ كم يكون عظيماً إيمانُنا بالله تعالى، ونحن ندرك أنّه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، ولا ملجأ منه إلَّا إليه، ولا تدبُّ نملةٌ سوداء على حجرٍ أصلدَ في نهار أو ليلٍ إلاَّ وهو يراها وييسِّر أمرها.. ولا ينبض عرقٌ في جزء من كائن إلَّا بأمره.. والله ـ سبحانه ـ لا يغفل عن شيء بآخر.. ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تقوم الحياة إلَّا بأمره، وإذا أراد شيئاً فإنَّما أمرُهُ أنْ يقُولَ لَهُ: «كن... فيكون..». إنَّ هذا الإيمان الذي يدعو إليه الإسلام، لكفيلٌ

(1) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

(2) سورة الرعد، الآية: ١١.

(3) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠ و٣١.

بأنْ يمسَّ شغافَ القلب، وأنْ يملأ شعاب العقل، وأنْ يملك على المرء حواسه ومشاعره، فيعيش في رحاب الهداية والاطمئنان. .

وهكذا نصل في النتيجة إلى أنَّه ليس من مشيئة تجري وفقها حياة الإنسان ـ بل وكل شيء ـ إلّا مشيئةُ الله وقدَرُهُ. وقد قضت حكمته السنية أن يكونَ في خلق الإنسان الاستعداد للهدى والضلال، بحيث يكون لهذا الإنسان الاختيارُ الحرُّ الطليق بأن يسيرَ إما على هدى الله، وإما على طريق الضلال ـ أي وفق إرادته هو في إضلال نفسه ـ وصدَقَ الله العظيم حيث يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وأما قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[4] فمنطوق هذه الآيات يشير في ظاهره إلى أنَّ الهداية والإضلال هما من العبد، وهذا يعني انَّ العبدَ، لا يهتدي مِنْ نفسِهِ إلاَّ إذا هداهُ الله تعالى، ولا يضل إلّا إذا أضله الله تعالى، إلاَّ أنَّ هذا التأويل الظاهري لمعاني الآيات قدْ جاءت قرائنُ تصرفُ مضمونَهُ عنْ جَعْلِ مباشرة الهداية والضلال من الله تعالى، إلى معنى آخرَ، هوَ جَعْلُ خلق الهداية وخلق الضّلال من الله تعالى، وأما المباشر للهداية والضلال والإضلال فهوَ العبدُ. وهذه القرائنُ شرعيّةٌ وعقليّةٌ.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٦.

القرينة الشرعية

لقد ورد في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تنسب الهداية والضلالَ والإضلالَ إلى العبد. قالَ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(1)، وقال تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾(2)، وقالَ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾(4)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(5)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾(6)، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾(7)، وقال: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾(8). وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾(9). فمنطوق هذه الآيات، فيه دَلالةٌ واضحةٌ على أنّ الإنسانَ هو الذي يَفْعلُ الهدايةَ والضلالَة، فيُضلُّ نفسَه ويُضِلّ غيرَه، والشيطانُ يقوم هو أيضاً بالإضلال ـ كما سنرى ـ فتلك الآيات المبينة فيها القرينة الشرعية على أنّ نسبة الهداية والإضلال إلى الله تعالى ليستْ نسبةً مباشرة، (مباشرة فعل الهدي أو الإضلال) بلْ هيَ نسبة خَلْق. فإنّكَ إذا وضعتَ الآيات معَ بعضها،

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٩.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٤٤.
(٦) سورة سبأ، الآية: ٥٠.
(٧) سورة طه، الآية: ٨٥.
(٨) سورة آل عمران، الآية: ٦٩.
(٩) سورة النساء، الآية: ٦٠.

وفهمتَها فَهْماً تشريعياً يتبيَّنُ لكَ انصرافُ كلّ منها إلى جهة غير الجهة التي هي للأخرى، كالآية التي تقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾(١) والآية الأخرى التي تقول: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾(٢). فالأولى تدلّ على أنّ الله تعالى هُوَ الذي يهدي، والثانية تدلّ على أنَّ الإنسانَ هو الذي اهتدى. وهداية الله في الآيةِ الأولى هيَ خَلْقٌ للهداية في نفس الإِنسان، أي إيجاد قابليّة الهداية فيه، ثم تركه يباشر الاهتداءَ بنفسه. والآيةُ الثانية تدلّ على أنّ الإنسان هو الذي يباشر ما خَلَقَه الله في نفسه من قابليّة الهداية.

فهذه الآيات التي تنسب الهدايةَ والإِضلالَ إلى الإِنسان قرينةٌ شرعيّةٌ دالَّةٌ على صَرْفِ مباشرة الهداية عن الله ـ سبحانه ـ إلى العبد.

القرينة الشرعية والعقلية

من المعلوم شرعاً وعقلاً أنَّ الله يحاسب الناسَ على مباشرتهم للأعمال، فيثيبُ المهتدي ويعذِّبُ الضالَّ. قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣). وقالَ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾(٤). وقالَ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٥). فيكونُ الذي فعل الاهتداء أو الإضلال هو العبدُ، ولذلك يُحاسَبُ على ما قام به من الأعمال إنْ لنفسه، أو لغيره. .

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٥) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

وأمّا من ناحية الآيات التي تدل على أنَّ الهداية والإضلالَ يدخلان في مشيئة الله المطلقة فإنَّه يظهر من مضمون معانيها أنَّه لا يهتدي أحدٌ، ولا يضلُّ أحدٌ جبراً، بل يهتدي مَنْ يهتدي، ولكن بإرادة الله ومشيئته، ويضلّ من يضلُّ، ولكن بإرادته ومشيئته سبحانه. وكانَ السلف الصالح يفهَم هذا المعنى ويُدْرِكُهُ إدراكاً حِسيّاً. ومما ذُكِرَ أنَّ علياً كرَّم الله وجهه، بعدَ رجوعه من صفين سأله رجلٌ: هلْ كانَ ما حدثَ في صفّينَ بمشيئةِ الله وقضائه؟ فأجابه سلام الله عليه: «إنَّ اللَّه أمرَ تخييراً ونَهَى تحذيراً وكَلَّفَ يسيراً، فلمْ يُطَعْ مُكْرهاً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولمْ يُرْسل الرسلَ عَبَثاً، ذلكَ ظَنُّ الذين كَفروا؟».

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾[(1)]، فقد وردت هذه الآية على لسان موسى عليه السلام في معرض اعتذاره لربه تعالى عمَّا فعل السفهاء من بني إسرائيل عندما عبدوا العجل أثناء غيابه، إذ إنَّ تلك العبادة هي ضلالٌ من بني قومه، ولكنَّ هذا الضلال كما عبَّر عنه موسى عليه السلام: إن هو إلّا ابتلاؤك يا ربَّنا. ولكنك لا تظلم أحداً من عبادك. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(2)]، وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾[(3)]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[(4)]، فهذه الآيات إخبارٌ من الله لأنبيائه عنْ أُناسٍ مخصوصينَ بأنَّهُمْ لن يُومِنوا، وهذا داخلٌ في علم الله، وليس معناه أنَّ هناكَ فئة قد

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٣) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٤) سورة هود، الآية: ٣٦.

خلقت مؤمنة فظلت على إيمانها، أو فئة خلقت كافرة فاستدامت على كفرها، بل كلّ إنسانٍ قد خلق الله في نفسه قابليّة الإيمان، فإمَّا أن يقوّي هذه القابلية فيهتدي، وإما أن يضعفها أو يميتها فيضل. . .

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(1)، وقولُه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(2)، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾(3)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(4). . إنّ هذه الآيات تعني عدمَ توفيق الله تعالى لهمْ بالهداية، إذ التّوفيق للهداية هو منَ الله تعالى. والفاسق والظالم والكافر والضّال والمسرف الكذّاب. . كل أولئك يتصفونَ بصفاتٍ تتناقضُ وتتنافرُ معَ الهداية، والله ـ عزّ وجلّ ـ لا يُوفّق للهدايةِ مَنْ كانتْ تلك صفاتهم. لأنَّ التوفيقَ للهداية تهيئةُ أسبابٍ للإنسان، ومَنْ يتَّصف بهذه الصفات لا تتهيأُ له أسبابُ الهداية، بل أسبابُ الضلال. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾(5)، وقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(6)، أيْ وفقنا لأنْ نهتديَ، بمعنى يَسّرْ لنا أسبابَ هذه الهداية.

---

(1) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.
(2) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.
(3) سورة الزمر، الآية: ٣.
(4) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(5) سورة ص، الآية: ٢٢.
(6) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

الفصل العاشر

- النفس ونزغ الشيطان
- الفتنة والتجربة
- الإغواء والإغراء

المبحث الأول

النفس ونزغ الشيطان

«النزغ» من الشيطان. في اللغة: هو الكلام الذي يُغري به الناس، أو يكون فيه حثٌّ على المعاصي. والنزغ يعني أيضاً الغيبة، والنازغ هو المغتاب. قال الشاعر: «واحذر أقاويلَ العُداةِ النُّزَّغِ». ولذلك يِقال: نزغه وينزغه نزغاً إذا اغتابه وذكره بقبيح، أو إذا استخفَّه وحرَّكه أدنى حركة.

وقد يأتي النزغ بمعنى الطعن بالرمح أو اللكز باليد. لأنَّ النزغة تعني الطعنة. أما نزغ الشيطان فيدخل في هذه المعاني جميعاً، لأن فيه وسوسة في الصدور، ونخساً في القلوب، وإغراء للنفوس، وطعناً للحقّ، واستخفافاً بالصواب. كما فيه تغييب لكل خير. أي إنَّ نزغَ الشيطان هو كل ما يسوّل به للإنسان من ارتكاب المعاصي من مثل: الفجور، والفساد، والفتنة، والإغواء، فكان من المحتوم أنْ تكون آثاره مدمّرة في حياة الإنسان. .

النزغ من الشيطان

إنَّ عداوة الشيطان للإنسان قديمةٌ قِدمَ الوجود البشري؛ وذلك

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

هذا هو أساسُ عداوة إبليس لآدمَ وذريته، أي عصيانُ أمر ربه، فحلَّت عليه اللعنة والإبعاد عن رحمة الله؛ وهنا استحكمت كراهيتُهُ لآدم في قلبه، ودفعته لأنْ يطلب أنْ يُنظره (يؤخّره) الله إلى يوم الدِّين، لإغواء بني آدم، وإيقاعهم في الضَّلال والمعصية (كما يستفاد من آياتٍ عديدة في القرآن الكريم). .

ويشاءُ ربُّ العالمين ـ للحكمة التي يريدها ويقدّرها ـ أن يُجيبَ إبليس إلى سؤاله، فيكون من المنظرين، ويكون سلاحُهُ، هو وقبيلُهُ من الجن والإنس، النزغَ والوسوسة في نفوس بني آدم، ولا تزال تلك الحربُ قائمةً على أشدّها، وستظل كذلك إلى يوم الساعة؛ وهنا يأتي دور القرناء الأبالسة لإغواء الناس! . .

دور القُرناء في حياة الإنسان

القرين ـ لغةً ـ هو الصاحب أو الملازم ، ولا يسمى الصاحبُ صاحباً إلاَّ من شدّةِ المصاحبة، أو من كثرة الملازمة. ولذلك يطلق لفظ «القرين» على الإنسان، أو الحيوان؛ كما يطلق لفظ (القرن) على القوم المقترنين في زمن واحدٍ، أو على كل أمةٍ هلكت ولم يبق منها أحد؛ والقرنُ، في الحساب الزمني، هو مائة عام، وجمعه قرون. وقد استعمل القرآن الكريم لفظة «القرون» تعبيراً عن الأمم الغابرة، أي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

الهالكة بأمر الله تعالى، لقوله العزيز: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾[2]. والاقتران: هو اجتماع شيئين أو جنسين بمعنى من المعاني، ولذلك سمِّيَ الزواجُ بالقران أو الاقتران، وسميت الزوجةُ قرينةً، وسميت النفس بـ«القرون»، لاقترانها بالجسم.

والقرين يكون عادةً محبّاً، وفيّاً، صادقاً ومخلصاً.. ولكن ليس هذا شرطاً في القرين، لأنه قد يكون خصيماً في مصاحبته، أي عدواً متخفياً متلبساً بدهائه، ومراوغته ونفاقه.. وعلى هذا فإنَّ لكل إنسانٍ نوعين من القرناء، قرناء الشر وهم من الجنّ، وقرناء الخير وهم من الملائكة، لقول رسول الله ﷺ: **«ما مِنكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاّ وقد وُكّلَ به قرينُهُ من الجنّ، وقرينُهُ من الملائِكَةِ، فالقرينُ من الجنّ يأمرُ دائماً بالشرّ، والقرينُ من الملائكةِ يوحي دائماً بالخير»**[3].

وعن قرناء الخير، وهم الملائكة الذين يتعقبون الإنسانَ يقول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[4]. ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام لإبراهيم الكرخي: **«يا إبراهيم! اعلم أنَّ معك ملكاً كريماً موكّلاً بك، يحفظ عليك ما تصنعُ، ويطّلعُ على سرِّك الذي تُخفيه عن الناس، فاسْتَحِ؛ لا تحقرَنَّ سيئةً فإنها ستسوؤك يوماً. ولا تحقرنَّ حسنةً، وإنْ صَغُرَتْ عندك وقلَّتْ في عينيك، فإنها سَتَسُرُّك يوماً. واعلم أنّه ليس شيءٌ أضرَّ عاقبةً، ولا أسرعَ ندامةً من**

---

(1) سورة يونس، الآية: ١٣.
(2) سورة الإسراء، الآية: ١٧.
(3) صحيح مسلم، باب المسافرين، رقم ٦٩.
(4) سورة الرعد، الآية: ١١.

الخطيئة. وأنْ ليسَ شيءٌ أشدَّ طلباً ولا أسرعَ دَرَكاً للخطيئةِ مِنَ الحسنة، أَمَا إنَّها لَتَدْرَأُ الذنبَ العظيمَ، القديمَ، المنسيَّ عند عاملِهِ فَتَجْذُبُهُ، وتُسْقِطُهُ وتذهبُ به بعدَ إثباتِهِ، وذلك لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1]».

وهذا من فضل الإسلام على الإنسان حتى يعلم أنَّ الله تعالى قد أوكل به ملائكةً يحفظونه من السوء، بما يأمرهم به ربُّهم عزَّ وجلَّ، كما أنَّهم يحفظون عنه كلَّ شيء، حتى يكون حاضراً في كتابه يوم القيامة؛ فحريٌّ بهذا الإنسان، إذا ما أرادَ القيام بسوء أنْ يستحيَ من هؤلاء الملائكة، كما ينصحُ الإمام جعفر الصادق عليه السلام بذلك؛ بل وعليه ألاَّ يستهين أو يحقرنَّ أية سيئةٍ يفعلها، ولا أن يستهين أو يحقرنَّ أية حسنةٍ يؤديها، لأنَّ لكل من السيئة أو الحسنة تأثيرها على النفس، فالأولى تقلقها ـ سواء وعى الإنسان ذلك أو غاب عنه ـ والثانية تريحها، وتبعث فيها شعوراً بالرضى..

أما عن قرناء الجنّ، وهم الشيطان وقبيله ـ وهذا مدار البحث هنا ـ فيقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].. فالشياطينُ من الجن موجودون فعلاً في حياة الناس، كما يثبتُهُ القرآنُ الكريم، وهم يلازمون كلَّ بني آدم بصورة لا تنقطع، حتى إنه ما من إنسان إلَّا وقد وكِّلَ به قرينٌ من الجن، وكما يبيّنُهُ لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «ما منكم مِن أحدٍ إلاّ وقد وُكِّلَ به قرينُهُ من الشياطين»، قالوا: وإيَّاك يا

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

رسولَ الله؟ قال ﷺ: «وإيّايَ، إلاّ أنّ الله أعانني عليه فأسلَم، فلا يأمُرني إلاّ بخير»[1]. وخطَرُ هؤلاء القرناء من الجن يأتي من كونهم مخلوقين بأجسامٍ لا يستطيع الإنسانُ رؤيتها، ولذلك فهم يروننا من حيث لا نراهم، ويفعلون أفاعيلهم بنا في الخفاء، من خلال الوساوس والهواجس التي يملأونَ بها نفوسنا، ويدفعوننا بها إلى ارتكاب المعاصي، وإتيان الفواحش، لأنَّ المهمة التي أخذها أبوهم إبليسُ على عاتقه، هي إغواء البشر جميعاً، إلاّ عباد الله المخلصين، كما يبيّنها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]..

والأدهى في حياة الإنسان، ليس أنْ يلاحقَهُ شياطينُ الجن وحدهم، بل وشياطينُ الإنس الذين مردوا على الكفر والشرك، وعلى حبّ الفتنة والغواية، حتى صاروا أشدَّ عتوّاً على المؤمنين، والناس الطيبين، من شياطين الجن، كما وصفهم رسولُ الله ﷺ، وهو ينصحُ أبا ذرٍّ الغفاري بقوله: «يا أبا ذر هل تعوَّذْتَ بالله من شر شياطين الإنس والجن؟» قال: قلت: لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال ﷺ: «نعم هُمْ شرٌّ مِنْ شَياطينِ الجِنّ»[3]؛ وقد بيَّن القرآن الكريم أنواعاً كثيرة من شرور شياطين الإنس، وهو يشير إليهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، الجزء الأول صفحة ٢٥٧.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩ و٤٠.

(٣) هذا الحديث روي متصلاً عن أحمد وابن مردويه بمثله.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤.

﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾[2].

أرأيت أيها الإنسانُ كم أنتَ معرَّضٌ للانزلاق، والسقوط في مهاوي الرذيلة والسوء من أعداءٍ خافين عنك (شياطين الجن)، وأعداءٍ قد يُظهرون لك العداوة ـ فلا تخافهم إنْ كنت واعياً عداوتهم ـ وأعداءٍ يظهرون لك من الصحبة ما يوهمك بأنهم يريدون لك الخير، بينما هم في قرارة أنفسهم لا يبغون لك إلّا الشرَّ. . فاحذر من هؤلاء شياطين الإنس الذين يلبسون ثوبَ الإنسان، ولكنهم يأتمرون بأوامر الشيطان، فلا يجدون سبيلاً للغيّ إلا دفعوك إليه، ولا مجالاً للسوء إلّا أوقعوك به، لأنهم ملأوا أنفسَهم بالحميّة الذميمة، والرغبة في الإضرار بالناس، فكانوا كما قال عنهم أبو عبيدة: «الشيطانُ اسم لكل عاتٍ متمردٍ من الجن والإنس». . بل وسُمِّي كلُّ خُلُقٍ ذميمٍ للإنسان شيطاناً، وقد ورد في الأثر: «**الحَسَدُ شيطانٌ، والغَضَبُ شيطانٌ**»، ولذلك يقالُ: شيطنَ الرجلُ، وتشيطنَ أي فَعَلَ فِعْلَ الشيطان. .

وهكذا باتَ واضحاً أنَّ الإنسان عندما يقدم على مقارفةِ الحرام، أو ارتكاب المعصية، وعندما يؤتي الأذى والضرر لغيره، فإنَّ من يقوده إلى ذلك: إمَّا شيطانُهُ من الجنّ أي قرين السوء القابع في نفسه، وإما شيطانه من الإنس الذي تخفّى بمظاهر الصداقة أو الصحبة أو

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

المعاشرة، فكان شرّاً من الجنيّ، قرين السوء!.. فهؤلاء لديهم وسائل للإغراء متنوعة، وأحابيل للدهاء عديدة، وطرق للإقناع كثيرة!.. وكلها تكون ـ عادةً ـ محببة إلى نفس الإنسان، وتستهويه كثيراً، حتى ليجدَ نفسَهُ أحياناً كثيرةً منقاداً إلى إيحاءات لم تكن لتخطر على باله، وإلى شهواتٍ لم تكن لتروقه، أو أهواء لم يكن ليشعر بها.. والأمثلة التي يمكن أنْ نتلمَّسها في الواقع أكثر من أن تحصى.. فقد تستهويك امرأةٌ بجمالها، أو يغرنَّك أحدٌ بمال يرشوك به في وظيفتك لمخالفة القانون، أو يعدك بمركزٍ لخيانة بلادك، أو قد يحيط بك أهلُ السوء ويجعلونك مثلهم تغتابُ الناسَ، أو تحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، أو يغرّرون بك لتوقع غيرك بالدسّ والخداع، أو يزيّنون لك الكذبَ والاحتيال حتى تتملَّص من مسؤولياتك.. فهذه الأمثلة وغيرها قد تعطيك فكرةً عمَّا يحيط بك، أو عما قد يحيق بك من السوء في حياتك إن استسلمت للغواية، وكلها في الحقيقة مجلبة للضرر في الحياة الدنيا، والعذاب في الحياة الآخرة!... من هنا كان عليك أيها الإنسانُ أن تحذر القرناء الخفيين من الجن، كما تحذر قرناء السوء من الناس حتى لا تقعد في الآخرة ملوماً محسوراً...

ولقد ورد ذكر القرناء في بعض الآيات من القرآن الكريم للدلالة على المنهج الفكري والسلوكي الذي يتّبعونه، وسواء أكان هؤلاء القرناء من الناس أو من الشياطين، والنتائج التي تترتب على عاتقهم من جراء ما يقومون به، تبيِّنها تلك الآيات، على النحو التالي: يقولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ

﴿أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[1].

هذه النصوص الكريمة تقدم نماذج من الناس مألوفة في الحياة.. فمنهم البخلاء الذين انطوت نفوسهم على الشحّ حتى ليبخلوا على أنفسهم وعيالهم بالمأكل الطيب، أو اللباس اللائق؛ ولقد اشتهر في الأدب العالمي من المؤلفات النثرية والشعرية، صورٌ معبّرة عن البخلاء وما يتركون من انطباعات في المحيط الذي يعيشون فيه.. ومن البخلاء من لا يكتفون بالبخل لأنفسهم، بل ويأمرون الناس بالبخل حتى يُشبعوا - بما يأمرونهم به - جوعَ أنفسهم، ونهمَهم للمال، فكأنما نفوسهم تأبى أن يروا الناس يعطون من أموالهم، فيأتونهم تارةً تحت ستار الغيرة عليهم، ونصحهم بعدم تبذير أموالهم هباءً منثوراً، وتارةً يرمونهم بالإسراف، وقلة تقديرهم لأهمية المال، وما إلى ذلك من وجوه المراوغة التي يستعملونها.. وكلّ ذلك لكي يحملوهم على عدم الإنفاق في أي سبيل كان!.. بل وأسوأ من ذلك فإنَّ مثل هؤلاء البخلاء، لشدة حرصهم على ما عندهم من المال والمتاع، يخافون عليه، ربما أكثر من خوفهم على حياتهم.. فتراهم يكتمونَهُ ويخفونَهُ حتى لا يؤدوا منه حقوق الله وحقوق العباد من الزكاة، والصدقة، والضريبة وغيرها.. وفي الحقيقة إنَّما هم يكتمون في ذلك فضل الله تعالى، ونِعمه على عباده التي لا تُعدُّ ولا تحصى، وفي هذا جحود وكفر، يتوعَّدُهُ رب العالمين بالعذاب المهين، وقد يكون هذا العذاب في الدنيا أنْ يسلبه مثلاً كلَّ ما آتاه، أما في الآخرة

---

(1) سورة النساء، الآيتان: ٣٧ و٣٨.

فالعذاب هو نار جهنَّم لا محالة.. فلا تغيبنَّ عن أحدٍ هذه الحقيقة، ولا يغفلنَّ أحدٌ عن أداء نعمة الله حقَّها في ما يرضي ربه عزَّ وجلَّ حتى لا يقع في العذاب المهين!..

ومن الناس مَنْ ينفقون من أموالهم رياءً على أعين الناس، وغالباً من أجل الوجاهة وحبِّ الظهور، لا رحمةً بالمسكين، أو رأفةً بالسائل والمحروم، أو شفقةً على الفقير والمريض، ولا طمعاً بقضاء حاجة المحتاج.. فمثل هذا الإنفاق، الذي لا تكون نيّةُ المنفقِ فيه ابتغاءَ وجْهِ الله تعالى، تبقى آثاره محصورة في الحياة الدنيا، بينما الإنفاق في سبيل الله، ومن أجل عباده، فيه حسناتٌ كثيرة، يحمدها الناس من حوله، ويُؤتَى أجرَها في الآخرة ثواباً جزيلاً.. فهؤلاء الذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناس، ولا يؤمنون بالله تعالى، وينكرون تبعاً لذلك يوم القيامة، ويوم البعث والحساب، هم وغيرهم من البخلاء على أنفسهم، أو الآمرين الناس بالبخل، أو الذين يكتمون ما آتاهم الله من فضله.. فكل تلك الفئات من الناس إنما اتخذها الشيطانُ، وقبيلُهُ من الجن والإنس، مطايا، فصار أولئك الناس قرناء لَهُمْ في كل شيء، وصدق الله العلي العظيم بقوله المبين: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[1].

وفي الإشارة إلى قرناء السوء يعرض القرآنُ المجيد في «سورة فصلت» ما سوف يحلُّ من الخسران بأعداء الله، يوم يحشرون إلى النار في الآخرة، بعد أنْ قيّض لهم سبحانه وتعالى قرناء من الشياطين في الدنيا، يزينون لهم متاع اللهو والعبث وحبَّ الشهوات، ويغرونهم بأنْ

(١) سورة النساء، الآية: ٣٨.

يفعلوا ما يريدون، إذ يوهمونهم بأنه ليس بعد هذه الحياة الدنيا بعثٌ ولا حسابٌ، ولا جنة ولا نار فيقول الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ﴾(١).

.. فالذين تعلّقت نفوسهم بمطامع هذه الدنيا، فراحوا يمارسون الأفعال الإجرامية على أنواعها، في الظاهر وفي الخفاء، غير عابئين بأية قيم معنوية أو إنسانية، كان من عدل الله ـ تعالى ـ أن يقيّض لهم قرناء يزينون لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا، وما خلفهم من أمور الآخرة، وذلك بأن يطرحوا كلَّ المعتقدات أو الأفكار التي تجعل حياتهم وآخرتهم تقومان على الحق، فلا شيء من ذلك أبداً ـ بحسب كفرهم ـ ولذلك يحرّضونهم على تولي مقاليد السلطة، وفرض القوانين والأنظمة الجائرة، والمتاجرة بالمحرّمات، وإنشاء مؤسسات الإعلام والدعاية، والمصانع والمعامل لصناعة المأكولات والمشروبات، الضارة والمحرَّمة والشركات على اختلاف أنواعها.. أي كل ما من شأنه أن يتحكّم بالسياسات الاقتصادية والمالية والاجتماعية، ويجعل بالتالي قرناء السوء قابضين على كل شيء، وقادرين على إدارة الشؤون، والعبث بمقدرات الناس ومصائرهم وفقاً لأهوائهم ومطامعهم!. ولِمَ لا، وهم «أسيادُ» هذه الدنيا، ويجب أن يكون لهم ما يشاؤون فيها؟!.. ولكن ما عاقبة كلِّ هذا الذي يزيّنه لهم أولئك القرناء، إلّا أن يحقَّ عليهم قول العزيز الحكيم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٢)، فيدخلهم في جملة

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٩.

الأمم التي قد خلت من قبلُ، والتي أهلكها تعالى في الدنيا، ثم كانوا في الآخرة من الخاسرين، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، وخسروا نعيمَ الآخرة مقابل ما زيَّن لهم قرناء السوء في الدنيا.

ومن الإرشاد في القرآن المجيد أن ينبّه الإنسان لأنْ تكون صلته بالله تعالى ـ خالقِهِ ومدّبرِهِ ـ صلةً وثيقةً فلا ينقطع عن ذكره، واللجوء إليه في كل أمرٍ وشأنٍ في حياته، بينما يحذِّر القرآنُ ـ بالمقابل ـ بأنَّ من يغفل عن ذكر ربه تعالى فإنَّه يقيّض له شيطاناً، فيكون له قرين يلازمُهُ، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[1].. والرحمن من صفات الله، وأسمائه الحسنى، فهو سبحانه الرحمن الرحيم بهذا الإنسان: إنشاءً، وخلقاً، وتدبيراً ورحمةً، ولكنْ كثيرٌ من الناس يعمون عن هذه الحقيقة، فيقطعون كل صلةٍ بالله ربِّهم، حتى يعرضوا عن ذكره وطاعته في العبادة، وفي الإحسان، والأعمال الصالحة.. ومن يُعرض عن ذكر الله، وينسهُ، فإنَّ من العدل الإلَهي أنْ يقيّض له شيطاناً فهو له قرينٌ، يلازمه في نفسه، وفي تصرفاته!..

أمَّا ما يعمل هؤلاء القرناء فأقلُّ ما فيه أنهم ليصُدُّون من يعرضون عن ذكر الله عن سبيل القويم سبيل الهدى والحق، فلا يدعونهم يتبيّنون أبداً أنهم يسيرون في طريق الضلال والفساد والجريمة، لا بل يجعلونهم يفقدون أيَّ إدراك لمعنى الهدى الحق، ويحسبون، ظناً ووهماً، أنَّهم مهتدون..

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

وتنقضي هذه الحياة الدنيا، ويأتي يوم الحساب، حتى إذا ادّاركوا هنالك مع قرنائهم، وراح كلُّ إنسان يشكو من قرينه، وأنّه هو الذي أضلَّه وأغواه، والشيطانُ لا ينفي ذلك، بل يقول: لقد أغويتُهُ كما غويتُ، وما كان لي عليه من سلطانٍ إلّا أنه كفر بربه وآياته.. في ذلك الموقف بالذات، وعندما يوقن الإنسانُ أنه من أصحاب النار، يقول للشيطانِ قرينِهِ: يا ليت كانَ بيني وبينك في الدنيا بُعْدَ المشرقين ـ أي ما بين طَرَفَيْ الأرض ـ يا ليتَ لم يكن بيننا التقاءٌ، فلا آأتمر لك بأمر، أو أُنخدَعَنَّ منك بخديعة، ولكنْ أيُّ عذرٍ لي وقد أطعتك، فأغويتني حتى أوردتني موارد التهلكة، فبئس القرين السَّيِّءُ الذي كنتَ، وبئس الشقاءُ الذي فيه أرديتني.. وبخلاف أولئك الذين ينقادون لقرناء السوء من شياطين الجن والإنس، يروي لنا القرآن الكريم حكاية المؤمن الذي لم تَغُرَّنَهُ أفكار صاحب له، من الذين ينكرون البعث والحساب، فيقول الله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾(1).

ومفادُ هذه الحكاية، كما يتبيّن من النصوص الكريمة، أنَّ أصحاب الجنة، وفيما هم يرفلون في السعادة حيث النعيم المقيم، وفيما هم يتساءلونَ، ويتذاكرون عمَّا مرَّ معهم في الحياة الدنيا، قال قائل منهم: إنّي كان لي رفيق يلازمني، ولكنه كان يُنكر البعثَ والحسابَ، فكان يقول لي: هل أنت من المصدّقين حقيقةً بذلك؟!

---

(1) سورة الصافات، الآية: ٥١ ـ ٥٧.

أإذا متنا وكنا تراباً، وبقايا من عظام نخرة، أإنا لمبعوثون؟ ومن يعيدنا في النشأةِ الثانية؟ وكيف يمكن أن يُحاسَبَ الناسُ جميعاً ولا يقدر أحدٌ أنْ يحصيهم عدداً؟ وهل فعلاً هنالك بعد الحساب جنةٌ ونارٌ؟! كلَّا! لا أصدّق بذلك أبداً، إنْ هي إلّا هذه الحياة الدنيا نموت فيها ونحيا، وتنتهي مسيرة حياتنا بموتنا . .

وأرادَ المؤمنُ من أهل الجنة أنْ يعرف مصير ذلك القرين الذي كان له في الدنيا، وهل هو من أصحاب النار، لأنَّ الله تعالى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب من يشاء، فقال لإخوانه: هل أنتم مطّلعون معي إنْ كان ذلك القرين في النار؟ . . ولا نعلم ما فعَلَ إخوانُهُ أولئك، لأنَّ النصَّ القرآني يتجاوز هذا الأمر، فيقوم المؤمن ويطّلع من على سُور الأعراف الذي يفصل ما بين الجنة والنار، ولكن يتيح لهم التخاطب في ما بينهم، فرآه في وسط الجحيم، يتقلَّب في نارها المحرقة . . فناداه قائلاً: أقسمُ بالله ربي، إنْ كِدْتَ بذاك المنطق الذي اتَّبعْتَهُ، وبالإنكار الذي اعتقدْتَهُ، وبالأحاديث والأخبار الكاذبة التي رويتها . . إنْ كِدْتَ، لتقنعنَّي، ولتُضلّني، وتودي بي إلى موقع الردى الذي أنت فيه، ولولا نعمةُ ربي عليَّ، بما أشبعَ قلبي من الإِيمان، والتصديق، وبما ألهمني من عمل الخير والصلاح، لكنتُ من المحضرين معك في النار . . فأحْمدُ الله ربي على ما أنعَمَ عليَّ، وما رحمني فجعلني من أهل الجنة، وسبحانَ الله الذي يعلم ما تنطوي عليه نفوسُ عباده، فيقوّي فيها الإِيمان، ويشدُّ أزرها بالملائكة الحافظين؛ وسبحانَ الله الذي قضت حكمتُهُ البالغةُ أنْ يقيّضَ للكافرين قرناءَ السوء الذين يضلُّونهم عن سواء السبيل، ويبعدونهم عن الحق واليقين . .

وتتوالى الآيات القرآنية الكريمة لتخبرَ عمّا يحصل يوم الحشر،

بين الإنسانِ وقرينِهِ، سواء أكان من الملائكة أم من الشياطين؛ أمَّا القَرين من الملائكة، فيقدّم كلَّ ما حفظَهُ عن الإنسان الذي كان موكلاً به في الحياة الدنيا، في كتابٍ مدوَّنٍ فيه كل أقواله وأفعاله.. وأما القرين من الشياطين، فيحاول أنْ يتذرع بالحجج الواهية بأنَّهُ لم يُضلل صاحبَهُ، بل هو الذي كان في ضلالٍ كبير، وهنا يبدأ الخصام بينهما، كما يدلُّنا عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].. ولكنَّ الله تعالى ينهاهما عن الجدال والخصام، إذ لا فائدة من خصام يلقي فيه كلٌّ من الإنسانِ وقرينِهِ الشيطان اللوم على صاحبِهِ، فكلاهما قد وقع في الضلال البعيد، لأنه لم يكن يعبأ بما كانت تنذر به كتبُ الله وأنبياؤه من الوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال.. إذ لا يبدّل القولُ ولا الخصام أو الجدال من العباد في يوم الدين، شيئاً من العذاب، لأنَّه لا حجةَ لمن ضلَّ عن الإِيمان الحقِّ يدفع بها العذابَ الذي كان يوعَدُ به، بل يلاقي الجزاء الذي يستحق، وما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بظلّام للعبيد، فيعذبهم بغير جرم اقترفوه..

ويوم الحساب لا يُحشَرُ الجنُّ وحدهم، بل يحشرُهُمُ الله تعالى مع الخلق جميعاً، كما يبيّنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾[2].. ففي يوم الحشر، يقال للجن: يا معشر الجن لقد أغويتم كثيراً من الناس، فانساقوا

---

(١) سورة ق، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

لغوايتكم!.. قالوا: أغويناهم كما غوينا.. وقال أولياؤهم من الإنس الذين أطاعوهم واتبعوهم في الإغواء: ربَّنا استمتع بعضنا ببعض، فنحن استمتعنا بما زيّنوا لنا من شهوات الدنيا وملذاتها، وهم قد استمتعوا بطاعتنا لهم، والانقياد وراءهم.. وقد بقينا على ذلك حتى بلغنا أجَلَنا الذي كتبتَهُ علينا، وأخَّرت عنَّا العذابَ حتى وصلنا إلى ما نحن فيه هذا اليوم!.. ويتحققُ العدل الإلَهي، فيساق أهلُ الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، ويقول الملائكة لهؤلاء: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾[2].

هذا مجملُ ما يمكن أن نستقيه من سياق الآيات القرآنية التي تتحدث عن القرناء.. فهلاَّ أعادَ الإنسانُ حساباته في ضوء نصوص القرآن المجيد، فانتفَض على قرناء السوء من الجن الذين يوسوسون في الصدور، وعلى قرناء السوء من الإنس الذين يزينون له الباطل غروراً. وهلاَّ أدرك الإنسانُ أنَّ جزاءه في الآخرة سوف يكون رهناً بأقواله وأعماله في هذه الحياة الدنيا؟!..

أجل أيها الإنسانُ، إنَّ هذا القرآن هو الحقُّ من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين، وإنَّه يهدي للتي هي أقوم، ومن جميل ما يهدينا إليه هذا الكتابُ الحقّ أن نكون دعاةً إلى الله ربّنا، وأن نعمل صالحاً، وأنْ نعاشر بعضنا بالمعروف، والقول الحسن الذي من شأنه أن يحوّل العداوة إلى مودةٍ، وألفةٍ وتعاونٍ.. وهو الكتاب الكريم الذي يبيّن لنا أنَّ إبليسَ جاثمٌ على قلوب الذين لا يؤمنون يوسوس لهم، ويغويهم ويضلّهم.. وأنَّ السبيلَ الوحيدَ للخلاص من شره أن يستعينوا عليه

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٣.

(٢) سورة ق، الآية: ٢٦.

بالله العلي العظيم، وهو سبحانه السميع لدعائهم، العليم بما في صدورهم. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

حقيق على الناس ـ جميعاً ـ أنْ يعلموا، وأن يوقنوا أنَّ الدين الذي ارتضاه الله تعالى للناس هو الإسلام، منذ آدم عليه السلام وإلى خاتم النبيين محمد ﷺ. وهذا ما جاءت به الرسالات السماوية كافة، وهذا ما يهدي إليه العقل، إذ لا يمكن، أنْ يجعل ربُّ العالمين لأمةٍ أو شعبٍ، أو جماعةٍ ديناً، ولآخرين ديناً غيره بحيث تتعدّد الأديان، وتختلف الأحكام والمصائر بما لا يتوافق والعدل الإلٓهي. . فالدين واحد، وهو الإسلام الذي يدعو إلى وحدانية الله عزَّ وجلَّ، إلٰهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا شريك له، ولم يتخذ صاحبةً ولا ولداً. والإيمانُ بالإسلام يقتضي من الإنسان أن يكون ومستسلماً بكلتيه لربه، تعبيراً عن العبودية والخضوع والاستسلام لرب العالمين. . .

وقد أنزل سبحانه وتعالى هذا الدين بالشرعة والمنهج اللذين يتناسبان، في كل حقبةٍ زمنية، مع عقلية الإنسان ومدى نضوجه الفكري. وهذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2]، أي ولو شاء الله

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٣ ـ ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

لجعلكم، أيها الناس، على شريعةٍ واحدةٍ، ومنهاجٍ واحدٍ، ولكنَّ ذلك لم يكن ليتوافق وحالة الناس الذهنية في كل زمانٍ ومكانٍ.. حتى إذا حانَ الزمانُ وفقاً لتقدير العلي العظيم، بعث سبحانه محمداً ﷺ وأنزل على قلبه القرآن الذي يحمل الإسلام ديناً كاملاً، ونعمةً تامةً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]؛ وكان على خاتم النبيين أن يبلِّغ الإسلام بكماله وتمامه، امتثالاً لأمره تعالى بقوله المبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

ولأنَّ الإسلام هو الدين القيّم على شؤون الدنيا والآخرة، ولأنه أنزل للناس جميعاً، وفيه الخيرُ كُلُّ الخير، للناس جميعاً، فإننا نجد أنَّه كلما تقدم الزمنُ بالإنسان باتت الدعوةُ الإسلامية ضرورية وملحَّة، ولاسيما في هذا العصر الذي وصلت فيه أحوال الناس، وأوضاعهم إلى ما يعانون من الظلم والفساد، والفسوق.. وكله بسبب الابتعاد عن الله، وعدم الخشية منه تعالى.. فالناسُ، والشبابُ خاصة، ضاعوا في متاهات الإفساد والضلال، والنفوس صارت مثقلة بالأعباء ـ ولا سيما بالاضطراب والقلق ـ والفقراء يموتون من الجوع والمرض ـ وإحصاءات الأمم المتحدة خير شاهد ـ.. أما علماء السوء ـ بله الحكام ـ فلا هموم تؤرقهم أكثر من تطوير الأسلحة الفتاكة، واختراع أسلحة جديدة أشدَّ فاعلية في القتل، والإهلاك والتدمير.. فإلى أين المصير، والعالم كله يتخبط بالمشاكل والأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية؟! وأين الخلاص، إنْ لم يكن في الإسلام، الذي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

لو اطَّلع الناسُ عليه، وعرفوه حق المعرفة، بروحية موضوعية ومنفتحة، لوجدوا أنَّهُ دين السلام، ودين المحبة والتآخي، ودين التكافل الاجتماعي، ودين الحكم بما أنزل الله تعالى. . بل ودينُ الإنسان الذي يناسب فطرة الإنسان، ودين الإنسانية بكل معانيها وآفاقها؟

ولا نغالي إذا ما قلنا بأنَّ هذه الحربَ المعلنة والخفية على الإسلام لا تخدم إلَّا أصحابَ النفوذ والسلطان، في أي بلدٍ وجدوا. . وإلاً فما الفائدة من نشر هذه العداوة بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى؟ إلَّا أن تكون خدمة لمصالح أولئك الناس؟! وأين هي مصلحة الناس في مراعاة خواطر ومصالح الظالمين، وزيادة قهر المظلومين؟! وأينَ هي العدالة عندما يتّهم الغربُ المسلمين بالإرهاب ـ زوراً وبهتاناً ـ ويتغاضى عن كل أنواع الإرهاب التي تمارسها كلٌّ من إسرائيل وأميركا؟! بل وأين البحث عن حقيقة المطامع الصهيونية والأميركية حتى يُزال الإِرهاب فعلاً؟!

أجل، إنها فوضى في كل شيء: فوضى فكرية، وفوضى منهجية، وفوضى عنصرية، وفوضى طائفية، وفوضى اقتصادية، وفوضى اجتماعية وفوضى أمنية، وكلها تجوب العالم تحت ذرائع وشعارات مبرمجة سَلفاً. . لا يا «سادةَ» أهلِ الأرض، ما أرادَ الله تعالى هذا لبني البشر، وما ارتضى سبحانه الظلم لعباده، عودوا إلى ضمائركم!. . عودوا إلى التوراة والإنجيل، وكل الكتب المقدسة التي أنزلت من رب العالمين، وتحققوا من صحة تعاليمها، ونقاوة آياتها، وأزيلوا كلَّ ما لحقها من التحريف والإدخال، وستجدون فيها أنَّ الحقَّ حقٌّ، والباطلَ باطلٌ؛ وأنَّ الخير خيرٌ، والشرَّ شرٌّ. . وأنَّ إلى ربكم الرُّجعى، ولكل إنسان من الجزاء في الآخرة ما سعى في هذه الحياة الدنيا!. .

ونحن، بكل محبة وإخلاص، ومن أجل الإنسانية بمعانيها السامية، نتوجه إلى الدعاة المسلمين بأنْ يحملوا الإسلام رسالة حبٍّ وسلامٍ وأمنٍ ـ كما أنزله الله تعالى، وهو الحقُّ من ربكم ـ وأنْ يقوموا بأعباء هذه الدعوة، مهما لاقوا من المصاعب والمشاقّ. . وفي آيات القرآن المجيد يجدون السبل الواعدة، والأسلوب الأرقى في الدعوة، كما في هذا التوجيه الرباني، بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]. . فالدعوة يجب أن تكون بالقول الحسن والكلمة الطيبة، وأن يرافقها العمل الصالح الذي يصدّق القول، وأنْ تكون هذه الدعوة خالصة لله تعالى، كما أثبتها القرآن الكريم، وهي وحدها السبيل لأمانِ الإنسان وأمنه، وسلامه واطمئنانه. . فحقَّ أنْ لا يكون أحدٌ أحسنَ قولاً ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين، المسالمين، المستسلمين لرب العالمين، العاملين بأوامره ونواهيه، السائرين على الطريق المستقيم، طريق الهدى والحق والخير. . وليس للداعية، أيُّ شأن من دعوته إلَّا التبليغ، ويبقى جهده محسوباً عند ربه، فلا يضيع أجره سدىً، إذ لا يمكن أن يستوي داعيةٌ مجاهدٌ، مع قاعدٍ متخاذلٍ، مثلما لا يمكن أن يستوي المؤمن العابدُ الطائع، مع الكافر المنكر العاصي! . . وقد يُقابَلُ الداعية بالعداء والأذى، والتآمر عليه، وقد يُساءُ إليه جهراً أو خفية. . وما عليه إلَّا الاحتمال، ومتابعة الدعوة بالقول الحسنِ، والعمل الصالح والنية الصادقة في توجهه لله تعالى. وعمله هذا كلُّهُ حسناتٌ إن شاء الله، إذْ في ميزان العدل الإلَهي: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة»، فلكلٍّ منهما حسبانه وجزاؤه؛ وإذا ما تعرَّض

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

الداعية إلى ما يسوؤه، فلا ييأس، ولا يتخاذل، بل يبقى مستمراً على المنهج نفسه الذي يربّيه عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]، فالسيئة التي قد تواجهه، عليه أنْ يدفعها بالكلمة الطيبة، والخلق الحسن، والأدب والكياسة.. وهذه قاعدة أصيلة في السلوك البشري، كي تردع الناس عن الولوغ في العداوة لبعضهم، ولا بدَّ أن تُؤتي هذه القاعدة ثمارها مع كل إنسانٍ يرجّح العقل على الهوى، والتروّي على الانفعال، لأنَّ نفحة الإنسانية موجودة دائماً في نفسه.. وتتأكد هذه القاعدة من وقائع الحياة التي ترينا أنَّ مقابلة الهياجِ والغضب، بالوديعة والسكينة، وخاصة بالكلمة الطيبة، كثيراً ما تعيد المهتاج الغاضبَ إلى صوابه، وتنأى به عن دوافع العداوة والبغضاء.. أما إذا قوبل ببردة الفعل، فسوف تزداد سورة غضبه، وتأخذه العزة بالخطأ والإِثم، بحيث لا يعود ينفع معه قولٌ حسنٌ، ولا عملٌ صالحٌ، ولا دعوةٌ لله تعالى.. ولكي تكون قاعدة «الدفع بالتي هي أحسن» سليمةً، ومجديةً، يجب أنْ يُشعِرَ الداعيةُ الغضبانَ بأنَّ اللين معه، ليس متأتياً عن ضعفٍ أو تخاذلٍ، بل عن تسامحٍ، واحتكام إلى العقل، وتسوية للأمر بالحق والصواب.. على أنَّ الإساءة التي قد يواجهها الداعية يجب أن يعتبرها إساءةً إلى شخصيته، ويمكن أن يتجاوزها بكظم الغيظ والمسامحة، أما إذا تبيّن له أنَّ العقيدةَ الإسلامية هي المستهدفة، من أجل إبعادها عن ساحة الحياة وهموم الناس، فعندها تصبح المواجهة مع عدو هذه العقيدة واجباً شرعياً، لأنّه لا يجوز له السكوت والتخاذل بشأن العقيدة حتى لا يستفحل الباطلُ، ويسود

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

الشر. . أما إذا لم يكن بإمكان الداعية الإقدام على المواجهة، فعليه أن يصبر على الأذى، ويحتسب نفسه ـ بعد أنْ أوفى بواجبه بالقول الحسن والعمل الصالح ـ عند ربّه تعالى، والله لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً. . إذاً فالدعوة الصادقة إلى الله تعالى، هي السبيل للقضاء على العداوة بين الإنسان والإنسان، وتحويل العدو إلى صديق حميم، وأخ كريم. .

ثم يأتي البيانُ القرآني لتحذير الداعية ـ وتحذير كل إنسانٍ ـ من نزغ الشيطان، وتوجيهه إلى السبيل الحق الذي يُنجيه من شر الشيطان الرجيم، بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . . .

وهذا ما يجب على الإنسان أنْ يفعله عندما يحسُّ بالوسوسة التي تُشبه الوخز في القلب، أي أنْ يستعين بالله تعالى لكي يقوّي إرادته، فلا ينصاع لتلك الهواجس التي تحثُّهُ على المعصية، أو تستخفُّهُ بالطيش والهوى. . والاستعانة بالله من الشيطان هي من مقومات الإيمان لدى المؤمن الصادق الذي يسلّم أمرَه لربه، وهو على يقين بأنه سبحانه هو السميع لدعائه ورجائه، العليم بنفسه وحاله. . يسمع ما تتفوَّهُ به الشفاهُ، وما تبوح به الألسن؛ وما تهمُسُ به كلُّ نفسٍ، ويعلم كلَّ نبضة عرق، وكلَّ خفقة قلب، وكلَّ خلجة شعور في الصدور؛ وحسبُ المؤمن أنْ يلجأ إلى خالقه وبارئه، وأنْ يستعين به على كل ضيقٍ أو حرجٍ أو نزعة نحو السوء، وأنْ يطمئنَّ إلى استجابة ربّه تعالى، حتى يُبعدَ عنه كلَّ ما يمكن أنْ ترميه به الوساوس السوداءُ في نفسه، ويخلِّصَهُ من كل مكروهٍ أو ابتلاءٍ. .

والتوجيه القرآنيُّ لا يخاطبُ الداعية المسلمَ وحده، بل عبادَ الله

جميعاً، كما في هذا التوجيه الرباني، الذي يعلّم فيه اللطيفُ الخبيرُ رسولَهُ محمداً ﷺ كيفَ يهدي الناسَ إلى سبل الخلاص من العداوات التي قد يغري بها الشيطان فيما بينهم، فيقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(١).

هذا التوجيهُ من ربّ العالمين فيه تشريف للمؤمنين؛ لأنَّ لفظة «عبادي» تختصُّ بهؤلاء الناس الذين ينسبهم ربُّ العزة والجلال إلى نفسه، من دون عباده الآخرين، ولذلك أوحى إلى رسولِهِ الكريم أنْ يربيّهم على القيم الإسلامية، والسجايا الإنسانية، ومنها أنْ يقولوا الكلمة التي هي أحسن القول، أي الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة أصلُها ثابتٌ، وفرعها في السماء.. ويدخلُ في هذا المضمون كلُّ حديث، أو تعليم، أو تربية، أو نقاش، أو مفاوضة.. فالعلاقات بين الناس كثيرة ومتشعبة، وإنَّ الشيطانَ حاضرٌ أبداً لأنْ يغري بينهم العداوة والبغضاء، أو أنْ يجرهم إلى الجفوة، والكراهية حتى يُذهبَ بكلّ ودٍّ ووفاقٍ جامعٍ على الخير.. إنه يلاحقهم ـ هو وقبيله ـ في كل اتجاه حتى ليفسد بين الولد وأبيه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجته، والصديق، والشريك والحليف، وكل الناس، لأنه عدوّ للناس، وعداوتُهُ واضحة، وظاهرة في كل هذه المساوئ التي تملأ حياتهم.. فليحذر الإنسانُ هذا العدو اللدود، وليستعصِ على وسوسته وإفساده، وليردِّدْ دائماً الاستعانة بالله بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(٢)..

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧ و٩٨.

ولا بدَّ أنْ يكونَ هذا الدعاءُ نابعاً من القلب، حيث يتوجَّهُ الإنسانُ إلى ربّه بصوتٍ خاشعٍ، ونيّةٍ خالصةٍ، وهو يقول: ربِّ أعتصم بك من خَطَرَاتِ الشياطين التي تخطر ببالي وقلبي، وألوذ وأستجيرُ بك ربِّ أن يحضروني في أموري لأنهم لا يحضرون إلّا بسوءٍ، وشرٍّ.. وعندما يتعوذ الإنسانُ بربّه تعالى من همزات الشياطين، فإنَّه لا يتعوذ من الشيطانِ وسلالتِهِ وحدهم، بل ومن هؤلاء البشر الذين يتخلَّقون بالخلقة البشرية في حين قد يكونون شراً من الشياطين، وهم يعيشون في الأرض فساداً.. ولعلَّ من أبشع الجرائم التي يرتكبونها ذلك الظلمَ الذي يلحقونه بالمؤمنين، لأنَّ هؤلاء مندوبون شرعاً للوقوف في وجه الظلم والجور بشتى أشكالهما، والتصدّي للظالمين والجائرين.. ولذلك كان الإنسان، مدعُوّاً لأنْ يستعين بالله العلي القدير من همزات الشياطين من الجن، ومن أفعال ودعوات شياطين الإنس إلى الباطل، والفساد والإفساد بين الناس؛ وأنْ يبدأ الإنسانُ، أولَ ما يبدأ، بالاستعاذة من شرورهم على نفسه، حتى يبعدَ حضورهم عنه، وقد أتاحَ له الله تعالى السبلَ التي تمكّنه من إبعادهم فعلاً عنه، فلا يحضرونه، حقاً، عند تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج إلى بيت الله الحرام، وعند كلِّ عمل خير يقوم به، أو نصرة حق يعمد إليها.. وعلى هذا النهج من العمل الإسلامي، يجب أن يسير المؤمن ـ بل وكل إنسان ـ حتى يتخلّص من براثن الشياطين...

يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(1) ومَن أصدقُ من الله قيلاً،

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

وهو سبحانه يحذّرنا من الشيطان ووعوده الكاذبة الخادعة، ومن نفثاته المضلّلة المفسدة.. فالشيطان يهجم على أصحاب الخير، الذين ينفقون في وجوه البرّ والتقوى لمساعدة ذوي الحاجات، ولأداء الفرائض من الزكاة والصدقات، كي يثنيهم عن ذلك، وهو يصوّر لهم أنَّ ما يدفعونه إنما يؤدّي إلى تفقيرهم، وتحويلهم إلى محتاجين؛ ومن شأن مثل هذا الوعد الشيطاني أنْ يؤثّر في النفوس الضعيفة، لما يثير فيها مِن هواجس العوز، وبالتالي الحرص على المال، والشح في إنفاقه؛ وبمعنى آخر فإنَّ الشيطان يريدُ أنْ ينزع من نفس الإنسان حبَّ الخير، ومن قلبه الرحمة، فيعزفَ عن الإنفاق في سبيل الله، والمحصّلة النهائية للوعود الشيطانية سلب المشاعر الإنسانية من نفوس الناس، وصدِّهم عن السبل التي ترضي الله تعالى..

ولا يكتفي الشيطانُ بتخويف الناس من الفقر ـ إنْ هُمْ أدّوا جزءاً من أموالهم لنشر الخير والمحبة والتضامن ـ بل ويأمرُهم ـ بديلاً من ذلك ـ بالفحشاء؛ ومعنى الفحشاء: المعصية التي تفحش، وتتجاوز الحدَّ في فحشها، وهي تشمل جميع المعاصي من الكبائر.. وعلى هذا فإنَّ الشيطان يزيِّن للناس حبَّ الشهوات الدنيئة من مثل: الزنى، والميسر، والسرقة.. ويجذبهم إلى تعاطي المخدرات والمتاجرة بها، أي إلى أكبر الآفات التي تغزو العالم، ويتعهدها أعداء الإنسان أينما وجدوا.. ويحرّضهم على التسلّح بشتى أنواع الأسلحة، كي لا تتوقف النزاعات والحروب.. ويدفعهم إلى وضع الاستراتيجيات والمخططات التي تحقق المطامع، وتكديس الثروات لقلّةٍ من الناس!.. وكل فاحشة من تلك الفواحش الكبيرة تتطلب الأموال الطائلة أين منها أي مالٍ يُدفع في سبيل الخير!.. هذه هي وعودُ

الشيطان: الفقرُ إنْ عملنا خيراً... واللذائذ والثروات إنْ عملنا الفحشاء!.. أمَّا ما يَعِدُ به الله تعالى عبادَه الذين ينفقون من المال الحلال في وجوه البرّ والتقوى فهو سَتْرُهُ سبحانهُ عليهم عند وقوعهم في الخطيئة، أو ارتكاب الذنب، وأنه سبحانه يكفّر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم، فالحسنات يذهبن السيئات، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

والمغفرةُ والفضلُ من الله تعالى هما من أعظم النعم التي يطمح إليها المؤمن؛ وما على من يريد أنْ يتبين معاني المغفرة والفضل من ربّ العالمين، إلّا أن يطّلع على الآيات القرآنية التي توليهما عنايةً واهتماماً بالغين، بحيث يندفع المؤمن الذي يريد رضوان الله بصورة تلقائية إلى مواطن الأعمال الصالحة التي تؤتي ثمارها الطيبة في الدنيا والآخرة... ولا بدَّ أنْ نشير هنا إلى أنَّ الحقَّ تبارك وتعالى قدَّم في الآية الكريمة ـ ٢٦٨ من سورة البقرة ـ لفظة «المغفرة» على لفظة «الفضل»، لأنَّ الإنسان إذا ما نالَ مغفرةً منه تعالى، فقد نالَ ثواباً عظيماً، فإذا زادَهُ سبحانه فضلاً من عنده، فإنَّهُ يكون من باب زيادة النعمة، وقبول الأعمال الصالحة؛ وهذا ليس بكثير على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنه واسع العطاء، يعطي عن سعةٍ من خزائنه التي لا تنقص، ومن رزقه الذي لا ينفد، ولأنّه عليم بالعبد الذي يستحق العطاء، وعليم لماذا يعطي، وكيف يعطي حتى لمن لا يستحق من الناس، وفقاً لمقتضيات الحكمة الإلهية التي لا ندرك أسرارها وأبعادَها. وأمام

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٧.

هذه الحقائق باتَ على الإنسان أن يختار بين وعد الشيطان فيشقى في نفسٍ فقيرةٍ مهما كان يملك من المال والسلطان، ويتقلّب في اللذة والشهوات!، ووعد الله ـ تعالى ـ فينعم بثواب المغفرة، والفضل العظيم.. فليست هنالك شبهة ولا غشاوة؛ إمَّا طريق الشيطان وإمَّا سبيل الله، ولكل امرىءٍ أن يفاضل ويختار ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(١).

الاستعانة بالله (تعالى)

إنَّ الاستعانة بالله تعالى، هي ضرورة لا غنى عنها للإنسان، إذا ما أرادَ أنْ يلجأ إلى الولي الأقوى، والناصرِ الحقِّ؛ وهي ضرورة للنفس الإنسانية لكل من أرادَ أنْ يتّقي شرور الخلق، أو أنْ يتغلَّب على الوسواس الذي يقبع في أعماق نفسه..

ولذلك سوف نبحث في هذين الوجهين للاستعانة بالله من خلال نصوص السورتين الأخيرتين في كتاب الله المبين، أي: سورة الفلق، وسورة الناس.

الوجه الأول: الاستعانة بالله من شر مخلوقاته

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

ولا بُدَّ من تبيان بعض المعاني اللغوية لعدد من الألفاظ الواردة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

في هذه النصوص الكريمة، حتى يمكننا أنْ نستدلّ على التوجيه الرباني لرسوله محمد ﷺ، وللناس أجمعين، في طلب العون منه ـ عزَّ وعلا ـ عندما يطرأ عليهم، أو يحيق بهم الشرُّ في أي وقت جاءهم وعلى أي شكل أتاهم. . ومن تلك الألفاظ:

- **الفلق**: ومن معانيه: الصبحُ عندما يشقُّهُ الله بالنور، ويكشف عنه الظلام.

والفلق: الخلقُ المتجدّد، فعندما ينزلُ الله تعالى المطر على الأرض فإنَّ التربة تهتز، وتتشقق فيحصل الإنبات، ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ والفلق: كذلك هو بيان الحق بعد إشكال قد يحصل بشأنه. .

- **الغاسق**: ومن معانيه: إبليسُ، والأسود من الحيّات، والليل إذا اشتدت ظلمتُهُ، وقد يعني أيضاً ما يتدفق أو ينصبُّ بقوة. . .

- **الوقْب**: يُقَال وَقَبَتِ الشمس تقب وقباً إذا غابت. ووقب القمر أي دخَلَ في الخسوف، ووقب الظلام على الناس إذا دخَلَ وانتشر. والوَقْب (مصدر): هو الأحمق، وهو النذل الدنيء والوقْب أيضاً: نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، أو كل نقرة في الجسد كنقرة العين والأذن. .

- **النفاثات في العقد**: وهنَّ اللواتي يمارسن الشعوذة والسحر، أي اللواتي يسمّونهنّ «الساحرات». .

- **أما الحسد**، فهو معروف بأنّه انفعال نفسي إزاء نعمة أنعمها الله تعالى على أحدٍ من الناس، وينطوي على ميل الحاسد زوالها عن صاحبها، ومن ثَمَّ حصوله هو ـ أي الحاسد ـ عليها أو مثلها. .

فإنَّ أول ما يطالعنا به النصُّ القرآني، هو هذا التوجيه من العزيز

الحكيم لرسوله محمد ﷺ، بأنْ يكون حاضر الذهن والقلب عند وقت فلق الضياء عن الظلام في الصباح، فتعود دورة الحياة من جديد بعد السكون الذي طرأ عليها، في وجوهٍ عدة من الليل، إلى حركتها الطبيعية، وما ينجم عنها من تفاعلات بين الأحياء والأشياء ترمي إلى شق الصعاب، وفتح آفاق جديدة لاستمرارية الحياة على هذه الأرض.

وكثيراً ما يطرأ خلال تلك التفاعلات من مخاطر قد لا تكون مرتقبة، أو قد تخرج عن طوع الإنسان، فهنا يأتي دور الاستعانة بالله العلي العظيم لدرء تلك المخاطر، وما ينجم عنها من أضرار، ومعالجة ما يمكن معالجته منها.. وهذا يعني أنَّ من شأن حركة الحياة أنْ تواجهَ الناس بطوارئ غير متوقعة، أو بأحداث تكون غامضة ومستورة ثم تأتي بصورة مفاجئة، تبغتهم على غير علمٍ أو استعداد، ففي مثل تلك الحالات كان لزاماً على الإنسان أن يستعيذ بالله سبحانه، وأن يركن إلى رحمته لكي يأمن غوائل الأيام التي قد تنتابه في حياته، وتوقعه في المآزق والمصائب، وليس إلّا ربّاً قادراً كريماً يكشف الضرّ ويعفو عن السيئات ويعين على نوائب الدهر. وكما الاستعانة برب الفلق أمنٌ للإنسان من طوارئ العاديات، فكذلك الاستعانة به تعالى من شر مخلوقاته، فيها الأمل والنجاة ممّا قد يلاقي من شرور هذه المخلوقات، إذْ كثيرٌ من الناس يألفون بطبعهم افتعال الشر، وكثير منهم أيضاً لا يعنيهم إلّا مطامعهم وأهواؤهم فيسعون وراءها دون وازع من ضمير، أو رادع من دين، أو مخافة من قانون، لاعتقادهم بأنّهم قادرون على الإفلات من أحكام القوانين الوضعية!.. أضف إلى ذلك الولوع في الغيبة، والوشاية، والتآمر، والحسد، والبخل... وكلُّ ذلك ممّا يتأتّى عنه الشر.. فإذا رافق تلك السيئات الفقر، والمرض،

والجوع، والحروب، والفتن، والاضطرابات.. وكلها ـ في الحقيقة ـ شرٌّ بشرٍّ... فضلاً عما يحصل من الكوارث الطبيعية من: أعاصير، وفيضانات، وزلازل، وبراكين.. وكلها أيضاً مجلبة للشرور على من تصيبهم.. فإذا أمعن الإنسان النظر بما يحيط به من وجوه الشر، سواء من الناس، أو من الأشياء حوله، أدرك لطف الباري ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو ينبهُهُ في قرآنه المبين، إلى أن يستعيذ بربه من «شر ما خلق»..

ثم على الإنسان ألاَّ ينسى أنه كما ينبعث الشر والضُّرُّ من المخلوقات، فقد ينبعث منها الخير والنفع أيضاً، والاستعاذة بربه تعالى إنما هي لصرفها عنه، واتقاء شرورها، والأمل بالإفادة مما يصدر عنها من خير.

أما الاستعاذة بالله تعالى: من ﴿ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، قيل في تفسيرها: الاستعانة من شر ما يحدث في الليل إذا أظلم فلا يعود باستطاعة الإنسان أن يتبيّن ساكناً أو متحركاً قد يفاجئه بالشر؛ وبهذا المعنى فالغاسق هو كل مستورٍ أو مجهول قد يوجس منه الإنسانُ خيفةً، لئلا يأتي عليه بشرٍّ كثيرٍ.. ولعلَّ المثالَ الحسيَّ عليه يتمثل بأهل الشرّ أو السوء الذين يعملون في الخفاء حيث يحيكون المؤامرات، أو يرسمون الخطط، ويهيئون الوسائل والأدوات اللازمة لتنفيذ ما عزموا عليه، عندما يجدون الظروف مواتية لذلك!.. فكل ما يفعل مثل هؤلاء يبقى مستوراً ومخفياً إلى أن يظهر بالفواحش والجرائم التي يؤتونها!.. وقد يكون هؤلاء أفراداً، أو جماعات، أو منظمات حكومية أو غير حكومية، ولكن فعالهم، تبقى في محصلتها النهائية، شرّاً بشرٍّ.. ثم إذا أخذنا «الغاسق» بمعنى الحيّات السوداء، فإنَّ مثل أهل الشرّ في ذلك كمثل تلك الحيات، أو الوحوش الضارية التي

تتربص بطرائدها، وتستخفي عنها إلى أن تنقضَّ عليها وتقتنصها، وغالباً ما يكون قنصُها بالتخفي في النهار، أو عندما تسرح في ظلام الليل؟! وهو ما يستوجب ألّا يغيب عن بال الإنسان أنَّ أهل الشر كثيرون، وهم ينشطون كالأفاعي والحشرات السّامة، أو الحيوانات القاتلة، ويكون معظم نشاطاتهم على حساب الضعفاء، والمساكين، والأبرياء.. وهم دائماً يتسترون بالمظاهر الخادعة، وينشرون الأباطيل، والوعود الكاذبة، وسلاحهم دائماً القوة والاستكبار، أو الخداع والتضليل، وكل ما تنطوي عليه أعمال الشر التي تمكّنهم من الوصول إلى مآربهم الدنيئة، وتحقيق مطامعهم الخبيثة. وإلّا فلماذا هذا الشرُّ المستطير الذي نجده في كل مكان، ويحاصر الناس حتى وهم نيامٌ في بيوتهم؟!.. فكان حقيقاً على الإنسان أن يخاف من كل مستورٍ أو مغيّبٍ قد يفاجئه بالخطر، أو يصيبه بالضرر، وأن يلجأ إلى الله تعالى، ويستعين به حتى يأمن من غوائل المخلوقات، ودواهي الأيام والليالي...

وكذلك الاستعاذة بالله العلي القدير من شرّ الساحرات، اللواتي يزاولن أنواعاً من الشعوذة، أو السحر، لخداع البسطاء من الناس، وتلفيق الأكاذيب بتلك الحركات المريبة التي يأتينها، ومنها وضع البخور ـ أو غيره من المواد ـ في المجامر أمامهن حيث ينبعث الدخان والروائح، والنفث في العقد التي يحكمن ربطها في أقمشة مخصوصة، ثم يعطينها لمن يذهب إليهنّ، مع تعليمات مشددة بأنْ يتقيدوا بما يأمرنَ به حتى يؤتي عملُهنَّ ثماره!.. ويكفي أن نتخيَّل منظر تلك الساحرات ـ في لباسهن وحركاتهنَّ ـ حتى يتبين مدى الخداع الذي يمارسن، ويضللن به الناس، وليس فيه أي نفع لهم، بل

على العكس هو مجلبة للشر والأذى وإلّا لما حذّرنا منه الخالقُ الذي يعلم السرَّ وأخفى.. وعملُ الساحرات هو مثال لجميع المحتالين والمراوغين، الذين يرمون الناس في شباك حيلهم وأكاذيبهم الملفقة، بل هو تمثيل لكلِّ مَنْ يوهم الناس، بالقول أو الفعل، بأنه قادرٌ على أنْ يساعدهم، بينما هو في الحقيقة أعجز من أن يساعدَ نفسه، فكيف بالآخرين!.. ولذلك يجسّد لنا القرآن الكريم الدهاء والخبث، والزيف والخداع، والرياء والمداهنة ـ وكلَّ المعاني المماثلة ـ بهذه الصورة المعبّرة للساحرات، وهنَّ يمارسْنَ «السحر»، وكأنَّ ما يصدر عنهن في النفث مثل فحيح الأفاعي التي لا تأتي إلّا بالسموم!.. أفلا يجدر بنا أن نستجيب لربنا سبحانه وتعالى، فنستعين به، ونستغيثه على كل بلاءٍ نريد التخلُّص منه، لأنه وحدَه المعين والناصر، بدل أنْ نلجأ إلى أهل الشرِّ من الناس، الذين لا يردّون بلاءً، ولا يدفعون ضرّاً، بل غالباً ما يضلّلون عقولنا، ويسلبوننا أموالنا، وبالتالي فلا نجني من ورائهم إلّا خيبة الآمال؟!..

والاستعاذة بالله السميع العليم من شر الحاسدين، هي وقاية أيضاً للإنسان، سواءٌ انبعث الحسدُ من الانفعال النفسي، لدى الحاسد، بصورة تلقائية، أو من نيةٍ مقصودة بزوال النعمة عن المحسود، ففي الحالتين لا يكون الدافع إلّا الطمع أو الحقد، الذي لا يولد إلّا الشرَّ الذي يصيب الشخصَ المحسودَ!...

ولا يمكن لأحد أن ينفي تأثير الانفعال النفسي المعروف بالحسد.. إذ لم يتوصل العلمُ بعدُ إلى اكتشاف سرّ هذا الانفعال، وكيفية حدوثه، بل وكيفية تأثيره على الغير عندما يصيبه فعلاً بالضرر..

والواقع أنَّ علم الإنسان لا يزال قليلاً عن أسرار النفس البشرية، ومنها الحسد، هذه القوة الفاعلة التي تحدث في النفس، وتؤثر بصورةٍ حسيّةٍ، وبشكلٍ سيّئ على الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الشيء.. إذْ كثيراً ما نسمع عن إصابة الناس بأضرار من جراء تأثير الحاسدين عليهم، أو ربما تصيب عين الحاسد حيواناً فتقتله، أو شجرة فتهترئ ثمارها، أو مزهرية جميلة في البيت فتقع وتنكسر.. وهذه حوادث واقعية، قد يغفل الإنسان عن فهم أسبابها، ولكنه لو راقبَ الظرف الذي وقع فيه الحادث، وكل ما أحاط به من ملابساتٍ، لتبيّن له أنه لم يكن ليحصل الذي حَصَلَ، لو أنَّ فلاناً من الناس لم يكن موجوداً في ذلك الظرف.. المهم أنَّ الحسدَ أمر لا أحد يعرف كنهَهُ، ولا حقيقته، وإنّما يمكن معرفة أثره، بحيث لا يبقى أمام الإنسان إلّا أن يستعين بالله العلي العظيم من شر تلك القوة التي يمتلكها بعض الناس في نفوسهم، وتأثيرها الضارّ على غيرهم.. لأنه سبحانه هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما في الصدور، وما يكمن في النفوس، وهو ـ عزَّ وعلا ـ قادرٌ على أنْ يجعل الشرَّ الذي يمكن أن ينبعث من نفس الحاسد بلا أدنى تأثير أو ضرر...

وهكذا تتجلى سورة «الفلق» في القرآن الكريم، وهي تتلألأ بنور الهداية للإنسان كي يستعين بربه تعالى في كل حينٍ وآنٍ، لاتقاء الشرّ، بشتى أنواعه وصوره قبل حصوله، أو دفع آثاره الضارة عندما يحلُّ به..

الوجه الثاني: الاستعانة بالله من شر الوسواس في النفس

وهنا أيضاً لا بدَّ من أن نشير منذ البدء إلى أن لفظة «وسوس» قد

وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[5].

فما معنى لفظة «وَسْوَسَ»، وما معنى «الوَسْوَاسُ»؟

يقال في اللغة: وَسْوَسَ فلانٌ لفلانٍ: كلَّمه كلاماً خفياً، وَوَسْوَسَ الشيطانُ لَهُ، وإليهِ: حدَّثه بما لا نفع فيه ولا خير. ووسوستْ له نفسُهُ: حدّثته بما لا جدوى به، ولا طائل تحته..

أما الوَسْواسُ فهو مرضٌ يَحدثُ من غلبة السويداء في القلب ويختلط معه الذهن؛ ويقال أيضاً لما يخطر بالقلب من شرٍّ، ولما لا خير فيه؛ والوسواس: الشيطان، والصوت الخفي من الريح.. مما يتبين معه أنَّ الوسوسة هي من عمل الشيطان عندما يتسلّط على الإنسان، فيصيبه في قلبه بمرض الوسوسة، التي تقود إلى الغواية، والضلال، أو يصيبه في نفسه فتأمره بالسوء والفحشاء..

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.
(٣) سورة ق، الآية: ١٦.
(٤) سورة الناس، الآية: ٤.
(٥) سورة الناس، الآيتان: ٥ و٦.

وقد تناول القرآن الكريم، في بعض من الآيات البيّنات، الحالات التي ينفذ فيها الشيطانُ إلى قلب الإنسان ونفسه، ليغويه، ويوقعه في الفتنة والشر، ولعلَّ أبرز تلك الحالات: الوسوسة، والنزغ، والمسّ. . ويمكن توضيحها على النحو التالي:

أولاً: الوسوسة في الصدور

يقول سيد قطب عن وسوسة الشيطان: «وسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم، لأننا لم ندرِ كُنْهَ الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه. ولكننا نعلم ـ بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب ـ أنَّ إغواءَهُ على الشرّ يقع في صورة من الصور، وإيحاءَهُ بارتكاب المحظور يتمُّ في هيئةٍ من الهيئات، وأنَّ هذا الإِيحاء، وذلك الإِغواء يعتمد على نقط الضعف الفطرية في الإنسان، وأنَّ هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإِيمان والذكر، حتى لا يكون للشيطان سلطانٌ على المؤمن الذاكر، ولا يكون لكيده الضعيف حينئذٍ من تأثير»[(١)].

ولا شك في أنَّ محاربة وساوس الشيطان لا تتأتَّى للإنسان إلّا إذا اعتمد على ربه تبارك وتعالى بأنْ يقوي في نفسه الإيمان، وأنْ ينصرهُ على حالات الضعف التي تعتريه أمام مغريات الحياة المادية، وبذلك يُذهب عنه كيدَ الشيطان، وإغواءه، وكلَّ ما يمكن أن يزيّن له من الخطأ والمعصية. وهذا ما يوجّهنا إليه الحق تبارك وتعالى، في خطابه لرسوله ﷺ، وللأمة من بعده، بل وللناس جميعهم، بقوله الكريم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء ٣، تفسير سورة الأعراف.

شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[1].

إنَّهُ عدونا ـ عدو الإنسان ـ ذلك القابع دائماً في نفوسنا، المستخفي عن عيوننا، فهل عرفناه؟ أجل إنه كما وصفه ربُّ العالمين بقوله تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، الشيطان الرجيم، الذي لا يترك سانحةً إلّا ويحاول أن يغوينا، وأن يدسَّ السمَّ لنا حتى نبعد عن الصراط المستقيم، ونقع في المعصية.. فهل نستسلم له، أم نلجأ إلى ربنا، ونستعيذ به لكي ننجوَ من الانحراف عن الحق والإيمان، ونقع في الاندفاع وراء الانفعالات الضارة، التي تؤدي حتماً إلى فسادنا وهلاكنا؟!

أبداً لا يجوز لنا الاستسلام لهذا العدو اللئيم، وأمامنا سبيل الخلاص واضحاً، وهو الاستعانة بخالقنا، واللواذ بحماه لأنه سبحانه هو: ربُّ الناس، ملك الناس، إلَهُ الناس. والربّ هو المربّي، والموجه، والراعي والحامي؛ والملك هو المالك، الحاكم، المتصرف القادر؛ والإلَهُ هو المستعلي، العزيز، المتولي، المحيط بكل شيء؛ فهو سبحانه الحامي للناس من الشر الذي يحوكه الشيطانُ في نفوسهم، ولا يعرفون كيف يدفعونه عنهم، لأنه خفيٌّ ومستورٌ، يأتيهم من حيث لا يحتسبون، فالشيطان هو يأخذهم من حيث لا يشعرون. العدو الغادر، هو الوسواس الخناس. (والوسوسة: الصوت الخفي. والخنوس: الاختباء والرجوع. والخنَّاس هو الذي يكون من طبعه كثرة الخنوس، أي كثرة الاختباء في المكامن التي يأتيها، وكثرة الرجوع والتردد إليها).

(١) سورة الناس، الآيات: ١ ـ ٦.

ومن بلاغة القرآن المجيد أنه أبان لنا الصفة أولاً: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، ثم حدد ثانياً عمل هذا الخناس ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وأخيراً حدّد من هو: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.. وهذا الترتيب يثير في النفوس اليقظة والانتباه حتى تتبيَّن حقيقة هذا ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ بعد معرفة صفته، وإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شرُّه، تأهباً لدفعه ومراقبته. والنفس حين تعرف أنَّ ذاك الوسواس الخناس إنما يعمل في الخفاء والسر، وأنه من الجن (الذين لا نراهم) ومن الناس (الذين يؤثّرون في الأنفس تأثير الجن، ويوسوسون وسوسة الشياطين).. فالنفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد تبيّنتْ عدوها، وطريقة عمله، والأماكن التي يضرب فيها، فلا يعود قادراً على أن يفعل فيها، كما لو بقيت غافلة، جاهلة، لا تعرف الدفاع، ولا تلجأ إلى الناصر والمعين..

وشياطين الإنس والجن هم عدوٌّ للإنسان، بدليل قول رب العالمين ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(1)؛ عن جعفر الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما مِن مُؤْمِنٍ إلا ولقلبِهِ في صدرِهِ أُذُنان: أُذُنٌ يَنْفُثُ فيها المَلَك [وهو أحد ملائكة الله أوكله سبحانه بالإنسان] وأُذُنٌ ينفُثُ فيها الوَسواسُ الخنَّاسُ، فيؤيّدُ الله المؤمِنَ بالمَلَك وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾**»(2).

أما اتّباع ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ فأسبابه عديدة ولاسيما شهوات

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(2) رواه العياشي بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد.

الأنفس ورغباتها، لأنَّ الشهوة هي مظهر من مظاهر غريزة النوع كالميل الجنسي، والرغبة هي مظهر من مظاهر غريزة النوع كالميل الجنسي، والرغبة هي مظهر من مظاهر غريزة البقاء، كالرغبة في الحصول على المال والسلطة وما إلى ذلك..

والجان (أو الجنة) لا ندري كيف تتم وسوستها، وكيف تدخل إلى النفوس وتؤثر فيها. ومع ذلك فإن آثارها تظهر في حياة الناس، وكثير هم من يتصرفون بإيحاء خفي، لا يعرفون مصدره وكيف أتاهم، ولكنهم ينساقون وراء إيحاءاتهم، فتبرز تصرفاتهم على نحوٍ مشين.. وقد أخبرنا القرآنُ الكريم عن العداوة التي افتعلها، والحرب الشعواء التي شنَّها، إبليس على آدم وذريته إلى يوم القيامة.. ولكنَّ العليم الحكيمَ لم يترك الإنسان في هذه المعركة مجرداً من العدّة، فقد جعل له من الإيمان جُنَّة، ومن ذكر الرحمن عوناً، ومن الاستعاذة برب الناس، ملك الناس، إله الناس، سلاحاً أقوى، لأنَّ من يستعين بالله وهو مؤمن، واثق من ربه تعالى، متوكل عليه، كان ربُّهُ عوناً له وناصراً، فإذا أغفل الإنسان جُنَّتَهُ وعونَهُ وسلاحَهُ، فليس له أي عذر إذا وقع في حبائل الشيطان؛ ولا يقع اللوم إلّا على نفسه، وعليه وحده.. قال رسول الله ﷺ: **«الشيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ، فإذا ذَكَرَ الله تَعالى خَنَسْ، وإذا غَفِلَ وسْوَسْ»**[1]..

وأمَّا شياطين الإنس فإنَّ من وسوستهم ما يُعدُّ أدهى من وسوسة الشياطين من الجنّ.. وهذه نماذج عن بني آدم من الفاسدين، المفسدين:

---

(١) صحيح مسلم، باب الإيمان، ص١٣٣.

● رفيق السوء الذي يزين الشرَّ لصاحبه، حتى يدخله إلى عقله وقلبه من حيث لا يحتسب، ومن حيث لا يحترس، لأنه غافل عن حقيقته، ويعتبره الرفيقَ المأمون، يقول الشاعر:

فلا تَصْحَبْ أَخَا السُّوْءِ ... وإيَّاكَ وإيَّاهُ
فكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَوْدَى ... حَكِيْماً حِيْنَ آخاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمَرْءِ ... إذا ما المَرْءُ مَاشَاهُ
وللشّيءِ على الشّيءِ ... مَقَايِيْسٌ وأَشْبَاهُ

● حاشية النفوذ وبطانة الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تجعله طاغيةً، جباراً، مفسداً في الأرض، يسعى ليهلك الحرثَ والنسلَ..

● النَّمّام الواشي الذي يوحي زخرف القول غروراً، حتى ليبدو كأنه حقٌّ لا مرية فيه، بينما لا يعدو في حقيقته أن يكون من القول المنمّق الذي يخفي الخبث، والنفاق والفتنة..

يقول الشاعر:

في زُخْرُفِ القولِ تزيينٌ لباطِلِهِ ... والحقُّ قدْ يَعْتَرِيهِ سوءُ تَغْيِيرِ
تقولُ هذا مِجاجَ النَّحلِ تَمدحُهُ ... وإنْ ذَمَمْتَ فقُلْ قَيءَ الزَّنابيرِ
مَدْحاً وَذَمّاً وما غيَّرتَ مِنْ صِفةٍ ... سِحْرُ البَيانِ يُري الظُّلماءَ كالنُّورِ

● بائع الشهوات الذي يغري المهووسين، وينفذ من منافذ الأهواء، والميول والرغبات الذميمة.

● طالب المناصب وأسير المطامع الذي يُداهن، ويرائي، ويَرشي لينال الرضى والحظوة عند أصحاب القرار..

هؤلاء النماذج، وأمثالهم كثيرون، هم من البشر الذين في

قلوبهم مرض لا يمكن علاجُهُ إلاَّ بيقظة العقل والقلب، وعون الله تعالى ورحمته، فمن شاء أنْ يخلِّص نفسه، فإنَّ الله تعالى سميعٌ عليمٌ، حاضرٌ أبداً لنصرته. والاستعاذةُ به سبحانه هي خيرُ معينٍ وناصرٍ للنفوس البشرية في كل شيء.

إنها إذاً معركة كتبت على الإنسان أن يصارعَ فيها نفسه من غواية الشيطان وقبيله، وهي لا تنتهي أبداً؛ فالخناس قابع خانس، مترقب للضعف والغفلة عند بني آدم. واليقظة قد لا تُغني، في أحيان معينة، عن الغفلات المستمرة.. لأنَّ الحربَ سجال بين الناس والأبالسة إلى يوم القيامة، كما بينه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۞ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۞ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(١).

فهذا العهد من الله تعالى لعباده، بألا يكون للشيطان عليهم تسلّطٌ، يُشعِرُ الإنسان بأنه ليس متروكاً في المعركة وحده، وأنه ليس مغلوباً على أمره فيها.. ولكنْ عليه هو ألاَّ يتخاذلَ في هذه المعركة عن حماية نفسه والدفاع عنها، لا بل عليه أنْ يؤمن بثقة واطمئنان بأنَّ ربَّه تعالى، هو القادر، المقتدر، المهيمن عليه وعلى مخلوقاته جميعاً، فلا يصيبنَّ أيَّ

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٦١ ـ ٦٥.

مخلوق في هذه المعركة أذىً أو شرٌّ إلا بمشيئته تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. وإذا أذِن سبحانه بتلك المعركة التي تدور رحاها على بني آدم، لحكمةٍ أرادها، إلّا أنه ـ جلّت قدرته ـ آخذٌ بناصية إبليس وقبيله، فلا يدع لهم مجالاً للتسلّط إلّا على الذين يغفلون عن ذكر ربّهم، أولئك الذين ينسون الله تعالى فينساهم ويتركهم لأنفسهم. فأمّا من يذكرون الله تعالى، ويسلمون له ـ سبحانه ـ مقاليد أمورهم وشؤونهم، خاضعين طائعين، فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية، سواء أكان هذا الشر من شياطين الجنّ أو من شياطين الإنس.. والخير يستند دائماً إلى القوة التي لا قوة سواها، وإلى الحقّ الذي لا باطلَ معه أبداً.. إنَّه يستند إلى ربّ النّاس، ملكِ النّاس، إلٰهِ النّاس. والشرُّ يستند إلى الوسواس الخنَّاس الذي يضعف عن المواجهة، ويخنُسُ عند اللقاء، وينهزم عند الاستعاذة بالله العلي العظيم.

ومن نوازغ الشيطان أنه يزين للناس الفاحشة، ويحثهم على ارتكاب الحرام في كل شيءٍ حتى في المأكولات، وذلك عندما يأمرهم أنْ يحلّلوا ويحرّموا من عند أنفسهم، ضاربين عرض الحائط بشرع الله تعالى الذي يحرّم عليهم الخبائث، ويحلُّ لهم الطيبات من الرزق، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ولعلَّ من البديهي القول بأنَّ الله تعالى هو الرازق لعباده، وهو سبحانه الذي شرَّع لهم في صحف إبراهيم وموسى، وفي إنجيل عيسى

(١) سورة البقرة، الآيتين: ١٦٨ و١٦٩.

وقرآن محمد (صلوات الله عليهم جميعاً) الحلال والحرام. وقد أباح للناس أن يأكلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ـ إلا الشيء القليل الذي حرَّمه عليهم شرعاً ـ وأمرهم بأن يتّبعوا شرعَهُ في الحل والحرمة، وأنْ لا يتّبعوا ما تُملي عليهم شياطين الإنس والجن، لأنّهم هُمُ العدوُّ، فلا يأمرونهم بخير، وإنّما بالسوء والفحشاء وأنْ يقولوا على الله ما لا يعلمون وهذا الأمر من الله تعالى بالإباحة والحل لما في الأرض ـ إلّا المحظور القليل الذي ينص عليه الشرع نصّاً ـ يمثل طلاقة العقيدة الإسلامية السمحاء وتجاوبها مع فطرة الإنسان. إذ إنَّ الله تعالى خلق ما في الأرض للإنسان، ومن ثمَّ جعله له حلالاً طيباً، إلّا بعضاً قليلاً حرَّمه عليه لما فيه من مضارّ ومساوئ كثيرة على صحته البدنية والنفسية.. والطيّبات دائماً هي الحلال، الذي تطيب به النفس، والخبائث دائماً هي الحرام الذي لا تستسيغه النفس، وتشمئزُّ منه.

ثانياً: فتنة الشيطان

إن لفظة «الشيطان» قد وردت في عددٍ من سور القرآنِ الكريم حتى بلغت ثماني وثمانين مرة، والشيطان مرادف لفعل الشر. فهو الذي يتلبَّسُ الإنسانَ، وينفذ إلى أعماق نفسه، كي يغويَهُ ويحول بينه وبين أعمال الخير والبرّ، وكل ما يمكن أن ينفع هذا الإنسان أو يهديه إلى الحق والصواب.

ويبيِّن لنا القرآن الكريم أنَّ غواية الشيطان متنوعة الوجوه والأساليب، ليستجلب أكبر عدد ممكن من الناس، ويجعلهم ينحرفون وينحدرون إلى مهاوي المعاصي، وارتكاب الذنوب...

هذا باختصار كُلّي ما يريده الشيطان من بني آدم، أي اتّباعُهُ

والعملُ بما يأمرُهُ به! . . . والله سبحانه وتعالى يحذرنا من الوقوع في فتنة الشيطان وذلك بقوله الحق المبين: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[١].

لقد كان من أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ جعلَ لبني آدمَ الأرضَ مستقراً، وأوجد لهم المعايش واللباس، من بينِ مُجمل النعم التي تمكّنهم من العيش الكريم، فلا ينصاعون لغواية الشيطان حتى لا يتحول عيشهم إلى عيش مليء بالمنكرات والشهوات المحرَّمة التي تميل إليها النفس البشرية، لأن النفس أمّارة بالسوء إلّا من رحم ربي. وقد بيّنَ لهُمْ ربُّهم تبارك وتعالى المثل الواضحَ على ذلك بما فعله الشيطان بأبوَيْهم آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ عندما أزلّهما، ودفعهما إلى أن يأكلا من ثمرةِ الشجرة الوحيدة التي نهاهما ربهما عن أنْ يقرباها. . وقد نفذ إلى نفسيهما، بأول عمل عدواني، عن طريق ملامسة الضعف البشري فيهما، عندما زعم لهما أنَّ تلك الشجرة هي شجرة الخلد. وانطلقت الحيلة الخبيثة، ونجحت الكذبة الكبرى، فصدَّقاه، فكان في هذا الإغواء ـ وسببه الكذب والفتنة ـ إخراجهما من الجنة[٢].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٢) (وأما تلك الجنة التي أوجدهما الله تعالى فيها، فلا ندري عنها شيئاً، وقطعاً ليست هي جنة الخلد التي وعَدَ الله تعالى بها عبادَه الصالحين لأنَّ تلك الجنة هي الدار الآخرة، حيث لا ضلال فيها، ولا غواية، ولا فتنة، ولا دافع لأي التواء أو انحراف، ولا لغو فيها ولا تأثيم، كما يحصل في حياتنا هنا على هذه الأرض. . إننا نعلم أنَّ الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه عليهما السلام قبل أنْ يهبطا منها، هي مكان من أماكن الله تعالى، في ناحية من نواحي هذا الكون، ولكنه ذلك المكان الآمن، الظليل، المليء بالخيرات والثمرات. وقد جعلهما الله تعالى يعيشان فيه حتى يحين اختبارهما، وتتحقق مشيئته السنيّة بهبوطهما إلى الأرض، ليكون هذا الوجود الإنساني بكل تفاعلاته الفكرية، والدينامية، والآثار والنتائج المترتبة عليها. .).

أما أنَّ النصَّ القرآني قد نسب الإخراج للشيطان «كما أخرج أبويكم» فمعناه أنه كان بسببه، أي إنه بسبب إغوائه أُخرج أبوانا عليهما السلام من تلك الجنة التي عاشا فيها ردحاً من الزمن لا يعلم مدّته إلّا الله تعالى.

وأما قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾، فهو أيضاً التعبير المجازي الذي يصور الحالة النفسية التي أصبحا عليها عند وقوعهما في الفتنة!.. فقد كانت المشاعر والميول، وكل ما تنزع إليه النفس من الرغبة أو الشهوة في حالة كمونٍ داخلي في نفسيهما؛ حتى إذا وقعت التجربة التي كان لا بد من وقوعها، تفتحت كل تلك الكوامن على مظاهر الحياة الخارجية لتمزّق الغشاء الذي كان يغلّفها، وهو ما «يشبّهه» النص القرآني بـ«اللباس» حتى تكون الصورة الحسية عنه معبّرة ومؤثرة، فثارت عندها النزعة البشرية إلى الجماع، والشعور بالخجل والحياء ـ وهما من آداب النفس الإنسانية ـ وكان اندفاعهما إلى تغطية سوآتهما، (أي أعضاء التناسل)، بحيث لم يعد أحدهما يهتم إلّا بستر السوأة أو العورة، حفاظاً على مكرمته الإنسانية.. ما يعني أنَّ فتنة الشيطان هي دائماً وراء طغيان مشاعر الرغبة والشهوة على المشاعر الصافية الخالصة في النفوس، ما يوحي أيضاً أنَّ أثر الشيطان يتمثل في إبعاد الإنسان عن القيم السامية، والمضامين السلوكية الرفيعة، والتوجهات العالية، لأنَّ همَّه أن يشدَّ الإنسانَ إلى الميول الدونيّة، وأن يثيرَ فيه الدوافع المضلِّلة.. والقرآنُ الكريمُ وهو يبين لنا شَرَكَ تلك الفِتنة فإنّما ليحذِّرنا من الوقوع في كل أنواع الفتن، وبالتالي لندرأ الغواية عنّا من أية جهة أتت؛ ولاسيما أنَّ المخاطر على أنفسنا، وعلى حياتنا، لا تأتي من شياطين الجن وحدهم، بل ومن شياطين

الإنس الذين يتفرقون في كل مناحي الأرض، ويتوزعون بين مختلف فئات الناس. .

وينصبُّ التحذير القرآني ـ بشكلٍ أساسيٍّ ـ على شياطين الجنّ، لأنهم يستخفون على الناس، ويلاحقونهم من كل حدبٍ وصوبٍ، بحيث يقعدون لهم في كل مكانٍ، ويتصدّون لهم في كل وقتٍ. . والناس في غفلةٍ عنهم، لأنهم لا يرونهم، فلا يقدرون على معاينة شرّهم، وكيدهم ومكرهم بصورة حسيّةٍ؛ قال ابن عباس: «إنَّ الله تعالى جعلهم (الشياطين) يجرون من بني آدم مجرى الدم في عروقه، فجعلوا من صدور بني آدم مساكن لهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[1]، فهم يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم»!. . وهذا أخطر على حياتنا، لأننا لو كنا نراهم، لكنّا ربّما حاولنا أنْ ندرأ عنّا أخطارَهم، وذلك كما قال قتادة: «والله إنَّ عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤونة إلّا من عَصَمَ الله». . وهذا صحيح لأننا إذا كنا عاجزين عن رؤية أولئك الأعداء، فإنَّ التصدي لهم يكون صعباً. والعمل على محاربة الفتنة التي يبيّنون لنا، يكون أكثر صعوبة، ولكنَّ أجهزة دفاعنا تبقى موجودة في نفوسنا، وهي قادرة، بعون الله تعالى، على الشياطين الذين جعلهم ربُّ العالمين أولياءَ للذين لا يؤمنون، بحيث ينقادون للوساوس، والأوامر التي يلقونها عليهم، وينفذون الأساليب الإغوائية التي يحشونَ بها أفئدتهم ومشاعرهم، وفقاً لما نفهمه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي إنَّا قضينا، وقضاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ

(١) سورة الناس، الآيتان: ٥ و٦.

عدلٌ وحقٍّ، بأنْ يكون ما بين الشياطين من الجنِّ، أي الذين لا يؤمنون، أي الكافرين، والظالمين، والفاسقين، والفاسدين، والناكرين ـ ومن يماثلهم ـ موالاة ونصرةً، لأنهم يتناصرون، ويتعاونون في ما بينَهم، وكأنهم جميعاً موكولون بالمهمة التي أخذها وليُّهم الأول، إبليسُ اللعين، على نفسه بالإغواء والإفساد!.. وقد خصَّ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، تنبيهاً إلى أنَّ الشياطين مع اجتهادهم في الإغواء، محكومٌ ألاَّ يتمكّنوا من خيار المؤمنين، ومن الذين عصم الله تعالى عن الخطيئة، لأنَّهم عبادُ الله المخلصين.. أمَّا خطورةُ الموالاة ما بين الشياطين والذين لا يؤمنون، فهي أنَّها قابلةٌ لتطال الوجودَ البشري برمته، نظراً لطغيان مفاهيم المادية على النفوس، التي تدفع بالأجيال شيئاً فشيئاً إلى الإلحاد، لقلة الاهتمام بالدين، وهو القيمة السامية التي أرادها ربُّ العالمين أنْ تبقى أقوى رادعٍ للإنسان عن السيئات والرذائل..

ثالثاً: مسُّ الشيطان

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(١). ومعناه أنَّ هؤلاء الناس الذين يخشونَ ربَّهم تعالى، إذا ما أصابَهم مكروهٌ، أو ألَمَّ بهم ضررٌ وأدركوا أنَّه من فعل الشيطان، تذكَّروا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فسارعوا إلى اتّقاء غضبه وسخطه وذلك بتفادي ما قد يوقعهم به الشيطان من الخطيئة والرذيلة، أو بالرجوع عما أوقعهم به، وذلك بالتوبةِ، والإنابة إليه تعالى.. من هنا كانت تقوى الله من أكبر العوامل المؤثّرة في النفس، والتي من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

شأنها أنْ تُوقظ المتقين من الغفلة، وتجعل قلوبهم متصلة بخالقهم وبارئهم، فيتذكرون عفوَهُ ومغفرته، مثلما يتذكرون عقابَهُ وعذابه، فلا يجدون لهم متنفّساً من الضيق والكرب إلّا باللجوء إلى ربِّهم تبارك وتعالى. . ولجوء المتّقين إلى الركن الركين، والحصن المنيع، إلى الله العلي العظيم، هو ما يجعلهم مبصرين للهدى والحق. . وليس أعظم تأثيراً في نفوسهم، فضلاً عن التقوى، من الهدى والحق، لإبعاد مسّ الشيطان عنهم.

وهذه الحقيقة، هي حقيقة إيمانية، لا لبس فيها ولا غموض: إنَّ مسَّ الشيطانِ عمىً للأفئدة، وإنَّ تذكر الله تبصرةٌ للقلوب. . إنَّ طائف الشيطان ظلمة، والخشية من الله نورٌ. . إنَّ مسَّ الطائف من الشيطان كما تجلوه الهداية واتباع الحقّ، تجلوه كذلك تقوى الله تعالى، فما للشيطان على المتقين من سلطان.

الاستمرار في المعصية استسلام للشيطان

أَنَا لا ألوم الذينَ يُذنِبونَ، ولكنّي ألوم الذين يُصرّونَ على ذُنوبهمْ ولا يتوبُونَ إلى بارِئهمْ. ولا ألوم الذينَ يُكرّرونَ الذنْبَ بِدَافع ضَعْفِهِم المُركّب، ولكنّي ألوم الذينَ لا يُحاولون أن يتخلّصوا منْ عوامل الضعف التي تجرُّ إلى الآثام، وقد بيّن لهم القرآنُ السبل التي تمكّنهم من مغالبة ضعفهم، وتصحيح انحرافاتهم. . والسؤال الذي ينبغي أنْ يُسْأَلَ: كَيْفَ تكون المحاولة للتخلص من الضعف بعدَما وَقَعَ الإِنسان في شَرَكِ الشّيطان، وأصبَحَ مسُّهُ، أو وسوستُهُ بمثابة مادةٍ امتزجَتْ بدمه وطغت على حياته اليوميّة؟ والجوابُ: المُنْقِذُ هو الله سُبحانَهُ وتعالى: فعليكَ أيُّها الإنسانُ أنْ تدعوهَ خَوْفاً وتضرّعاً لأنَّهُ هوَ الملجأ الوحيدُ،

وعليكَ أنْ تَستعمِلَ الإِمكانيّات التي وهَبكَ إيّاها، ومكّنكَ مِنْها خالقُك الكريم، وستتغَلَّبُ بعدها بحول الله وقوّته، إلى قَطْع الشّراك التي نَصَبَها لكَ الشيطان ونَسَجها بالمُغريات التي تؤدي إلى الضلال والإِضلال.. وسَيَثْبُت إخْلاصُكَ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في طاعته وعبادته، وسيثبت إخلاصك لنفسك بتهذيبها من الشوائب التي دسَّها فيها الشيطان فاثبت ولا تتراجع!.. وإيّاكَ أنْ تَيْأَس من رَوْحِ الله، أو ترْتَميَ نهائياً في أحضان الشّيطان، حتى يصبح قريناً لك، لأن الرجْعَة تكون صَعْبةً عليك، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٨.

المبحث الثاني

الفتنة والتجربة

أصل الفَتْن: الحرق، يقال: فَتَنَ الشيءَ فَتْناً إذا أَحْرَقَهُ، وفَتَنَ الصائغُ الذهبَ أو الفضة فَتنةً: أذابَهُ بالبوتقة، وأحرقه بالنار ليظهر جيّده من رديئه، وخالصه من شوائبه، وهو أصلُ معنى الفتنة[1]. والفتنة (بالكسر) الابتلاء، والعذاب، والضلال، والكفر، والإِثم، والمحنة، والجنون والاختبار.

ومن مجمل هذه المعاني، جُعلتِ الفتنة كالبلاء في أنّهما يستعملان في ما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من شدّةٍ أو رخاء، وهما في الشدّة أظهر معنىً، وأكثر استعمالاً؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2]، أي أنَّ الله تعالى يبتلي الناسَ بالشرّ، ويبتليهم بالخير، وكلٌّ من الابتلاءَيْن يُعدُّ فتنةً، أي اختباراً من شأنه أنْ يظهر طاقة الإنسان على الاحتمال، ومدى صلته بخالقه؛ فعندما يبتلي سبحانه وتعالى عبداً من عباده بالشرّ، كالفقر، أو المرض، أو الجهل، أو الجور عليه

(١) معجم البستان، المجلد الثاني، ص١٧٧٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

من الأقرباء أو ظلم الناس له... فقد يكون في ذلك حكمةٌ يريدها سبحانه لاختبار عبده ومدى احتماله وصبره على ما أصابه، ومقدار ثقته بربه، ورجائه برحمته.. وكذلك عندما يَمُنُّ عليه الله تعالى بالخير: بالمال، والبنين، والصحة، وإقبال الناس عليه، فقد يكون في ذلك فتنةٌ له، هي، في المفهوم الإسلامي، أشدُّ وطأةً في آثارها من الابتلاء بالشرّ.. فقد نجد من الناس مَنْ يصبرون على الشدة في المصيبة، وعلى الألم من الضرر، وعلى القهر من الجور والعسف.. ولكنَّ أكثرهم لا يصبِّرون أنفسهم على ما آتاهم الله من فضله سعةً في الرزق، وكثرةً في المال، ورفعةً في المنصب... فكل أولئك الناس كثيراً ما يغويهم إقبالُ الدنيا عليهم، فتراهم في فتنةٍ عارمةٍ من الخيلاء، والتكبّر، والتباهي بما عندهم!.. وأولئك الذين حقَّ عليهم قول الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[1]، أما السبب فهو اعتبارهم بأنَّ كل ما يملكون من الغنى والثروة، أو من الجاه والسلطان إنّما هو من علمهم، ومهاراتهم، وحسن تدبيرهم وإدارتهم!. بينما في الحقيقة، إنَّ الله تعالى هو مصدر كلّ نعمة، وكلِّ خير، فهو سبحانَهُ الذي يمنُّ على الناس، وينعم عليهم بالصحة والأمان، وبالمال والبنين، وبالسلطة والنفوذ، وكل ما يؤتي عبادَه من فضله العظيم، فإذا تنكر الإنسان لعطاء ربه، وجحد النعمةَ التي أولاه إياها مولاه الكريم، ونسبَ ذلك إلى نفسه، وإلى جهده وحده، فهذه هي الفتنةُ بعينها، وهذا هو السقوط في الاختبار الذي يمتحن الله عبادَهُ به عندما يبلوهم بالخير.. ومن الطبيعي أنَّ يكونَ مثل هؤلاء الذين يُنكرون فضلَ الله

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

عليهم من الجاحدين، الكافرين.. أما المؤمنون فتجدهم قد أوكلوا أمرَهم إلى الله تعالى في كل حال، فإن أصابتهم النعمةُ شكروا على سرّائها، وأدّوا حقوقها بما يرضي الله تعالى، فلا يستنكفون عن طاعته، ولا يقصرون في الحمد والشكر له، ولا يستكبرون على عباده. وإنْ أصابهم الضيقُ صبروا على ضرّائه، ودعوا الله مخلصين له النيّة في القول والعمل، أنْ ينجيهم ممَّا أصابهم من العسر، أو الضيق أو الشدة أو الحزن، أو الألم.. بل ويتضرّعون إليه تعالى أن يقوي لديهم عزيمة الاحتمال والصبر حتى لا يُخِلّوا بشيء من موجبات طاعته.. ولعلَّ مثل هذا الصبر والتضرّع يعتبر من مقومات الإيمان الصادق، الذي يجعل المؤمن يثق برحمة ربّه، ويطمئنُّ إلى استجابته له، لأنه هو الرحمن الرحيم.. أضف إلى ذلك أنَّ في الابتلاء، والصبر عليه، تطهيراً لنفس المؤمن مما يكون قد ارتكب من ذنبٍ، كما يعلّمنا ذلك الإسلام.. وفي هذا رحمةٌ ربانيةٌ تغسل نفس المؤمن في هذه الدنيا قبل أن يلاقي وجه ربه يوم الحساب.. وقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ أنَّ أمرَ المؤمن يؤول دائماً إلى خيرٍ، فقال ﷺ: **«عَجَباً لأَمْرِ المُؤمِنِ، فإنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خيرٌ، وليسَ ذاك لأَحدٍ إلاَّ للمؤمن: إنْ أصابَتْهُ سرّاءُ شَكَرَ، فكان خَيراً له، وإنْ أصابتْهُ ضرّاءُ صَبَرَ فكان خيراً له»**[(١)].

وإنَّ من أشدّ أنواع الفتن التي يقع فيها الإنسانُ، وأكثرها مقتاً عند الله تعالى، السعي لنشر الضلال والكفر في دنيا الناس، فما هو موقف الشرع من ذلك؟

---

(١) صحيح مسلم، باب الزهد، ص٢٦٤.

١ ـ الفتنة عن الدين

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[١]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[٢].

إنَّ الفتنة عن الدين إنَّما تعني الشرك والكفر، والضلال والإضلال، وهي أعتى وأظلم السبل التي يتخذها أعداء الله لصرف الناس عن عقيدة التوحيد، وصدهم عن السبيل القويم؛ ويشهد التاريخ البشري على ما لاقى أتباعُ الرسالات السماوية من القهر والعذاب والقتل على أيدي الكفار والمشركين، ويكفي أن ندلّل على ذلك بما فعلَ الرومانُ بأتباع النصرانية، وما فعل المشركون بالمسلمين في بداية عهد الدعوة الإسلامية، حتى يتبين لنا أنَّ الفتنة عن الدين أشدُّ من القتل، لأنها اعتداء على أقدس المقدسات، أي على العقيدة الحقّ التي يعتنقها المؤمن، ويربط بها وجوده ومصيره بخالقه؛ فإذا سُلِبتْ هذه العقيدة من الإنسان بالقوة والقهر، فكأنما قُتِلَتْ نفسه، وأُعْدِمَتْ منه الحياة. . . وقد تتخذ هذه الفتنةُ أشكالاً مختلفة من مثل التهديد، أو الأذى الجسدي، أو قطع سبل الأرزاق، أو الملاحقة غير المشروعة، أو فرض عقوبات مغلّفة، وما إلى ذلك. . أمَّا الغاية منها فهي تتمحور حول إبقاء أوضاع فاسدة على حالها، أو إقامة أوضاع جديدة لا تقلُّ عنها فساداً، وأكثر ما يتحقّقُ ذلك بإضلال الناس، أو صدّهم عن دين الله تعالى. . بحيث ينتشرُ، بالمقابل، الكفر والإلحاد؛ والارتماء في أحضان مناهج بشرية ـ لا علاقة لها بمنهج الله تعالى ـ لا تقيم كبيرَ وزنٍ أو اعتبارٍ لقيمة الإنسان، ومكرمة خلقِهِ عند ربّه. . .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

ولعلَّ ما هو شائع الآن في غالبية أقطار الأرض، يُعَدُّ من الأَمارات الدّالة على هذه الفتنة، حيث يُباح كلُّ ما يَضُرُّ الإنسان في نفسه وجسده مثل إباحة السكر والعربدة، وعلاقات الزنى، أو إباحة الشذوذ الجنسي كما في تشريع زواج الذكر من الذكر، ومعاطاة السحاق، فضلاً عن تشجيع الاحتكارات، والمضاربات، وتحريك العصبيات، وتدبير المؤامرات، وحيث تجري الاعتقالات التعسفية بذريعة مستلزمات الأوضاع السياسية والأمنية، وحيث يجري سلب الحريات والحقوق بحجة المحافظة على مصلحة الدولة العليا. فكل هذه الأمور أو القضايا هي قبيحة بحد ذاتها، فضلاً عن أنها مخالفة لمنهج الله تعالى؛ ولذلك كانت من الفتنة! وعندما يذمُّ الله تعالى في قرآنه المجيد الفتنة، ويقول عنها بأنّها أشدُّ من القتل، فإنَّما يريدُ سبحانه وتعالى أنْ يصرف الناس عنها، لكي يعودوا إلى حظيرة الدين، الذي فيه وحده خلاصُ الناس من كل أنواع الشر، ووجوه الباطل... ولذلك نرى الإسلام عدواً للفتنة، على شتى أشكالها، ولاسيما الفتنة عن الدين لأنّه ينطلق من نظرته إلى غاية الوجود الإنساني، الذي يُعدُّ من أهم مقوماته ركنان جوهريان: خلافة الإنسان في الأرض لإعمارها؛ وعبادة الله تعالى.. أما عن الركن الأول، فلم يقصّر الناس في إعمار الأرض، بل وعمروها عبر الأجيال بما أنشأوا من الحضارات، وأقاموا من المدنيات في شتى المجالات، وإنْ كانت أشكال المدنية الحاضرة قد راحت تطغى بقوتها حتى باتت تشكل خطراً، ليس على حياة الناس وحسبُ، بل على البيئة الطبيعية نفسها التي تمدّهم بأسباب الرزق والعيش.. وأما الركن الثاني، وهو عبادة الله تعالى، فإنَّ من مضامينها ـ في المفهوم الإسلامي ـ أنْ يضع الإنسانُ نصب عينيه العمل الصالح

الذي يتوخى منه رضوان الله، ونفع بني البشر، أفراداً وجماعات، ولذلك نجد ربَّنا تعالى عندما يتحدث عن المؤمنين في كتابه المجيد، غالباً ما يقرن بين صفتهم الإيمانية، وقيامهم بالأعمال الصالحة، وذلك بقوله العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهذا أصلُ معنى العبادة في الإسلام، وليس فقط إقامة الشعائر الدينية من صلاة وصيام وزكاةٍ وحج.. فهذه الأركان في الإسلام هي الأعمدة التي تُبنى عليها هياكل الأعمال الصالحة من الخير والبرّ والتقوى؛ فالعبادة في الإسلام هي دينٌ ودنيا؛ فهي دينٌ بما تملأ به قلب الإنسان من الإيمان وبما يفترض هذا الإيمان على العبد من الطاعة لله، وتقديسه، والاستسلام لمشيئته التي لا رادَّ لها. والعبادة دنيا بما يتربّى عليه الإنسان المسلم من أنه أخٌ للمسلم في الدين، ونظيرٌ للإنسان في الخلق؛ وأنَّ إنسانية الإنسان لا تتحقق إلاّ إذا تخلّق بالأخلاق الفاضلة، والآداب الرفيعة، ولذلك قال رسول الإسلام ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخلاقِ»[1]، كما لا تتحقق إنسانية الإنسان إلّا إذا رامَ الإنسانُ العملَ الذي فيه خيرٌ وصلاح وتخلّى عن العمل الذي فيه شر وفساد.. ما يعني أولاً وأخيراً أنْ يراعيَ الإنسانُ الخيرَ لنفسه، ولغيره من بني آدم، وأنْ يراعي المخلوقات جميعاً بما فيها الجماد من حوله، لأنَّ الله تعالى سخَّر ما في الأرض جميعاً للإنسان، فإنْ لم يقدّر الإنسان معنى هذا التسخير، والغاية منه، أدى ذلك إلى إخلال التوازن في الأرض، وهذا ليس في مصلحة الإنسان بشيء!...

ومن هنا كانت العقيدة في نظر الإسلام حقاً مقدساً للإنسان، لا

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، والمعجم الأوسط للطبراني، حديث رقم ١٠٨٧ (بلفظ مختلف).

يجوز أن يُسلب منه بالفتنة، سواء أكانت الفتنة مباشرة أو بواسطة؛ ولذلك قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾(١)، أي وقاتلوا من أجل دين الله، الذي هو عقيدتكم، الذين يقاتلونكم ليفتنوكم عن هذا الدين، ويصدوكم عن سبيل الله.. فقد شرَّع تعالى للمؤمنين أنْ يقاتلوا المشركين والكفار، لمَّا وقفوا صفاً واحداً، يريدون قتل النبي ﷺ، والقضاء على الإسلام، وحرمان المسلمين من ممارسة حقوقهم التي أقرتها، وتكفّلت بها عقيدتُهم..

كما أمرهم بقوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾(٢)، أي واقتلوهم حيثما وجدتموهم يقومون بالفتنة، وأخرجوهم من دياركم وبلادكم حتى لا تبقى أخطارهم محيطةً بكم؛ وقاتلوهم على أي حالةٍ كانوا من القوة التي تهددكم، ولكن تهيّأوا قبل ذلك، أعدّوا لهم ما استطعتم من أسباب القوة، ومن العزم ما يمكّنكم من دحرهم.. إنّما انتبهوا أن تراعوا في قتالهم آداب الإسلام، فلا تغدروا بهم، ولا تقتلوا طفلاً، ولا امرأةً ولا شيخاً، إلّا من كان محارباً منهم، ولا تمثلوا في أجسادهم بعد القتل، لأنكم لستم أمثالهم...

وإذا كان هذا النص القرآني، ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾، قد أنزل في مواجهة المشركين في جزيرة العرب، وهم يخوضون حرباً شعواء ضد المسلمين كي يفتنوهم عن دينهم، وخاصة تلك الحملة التي قادها المشركون في مكة، وآذوا فيها المسلمين أذىً شديداً، حتى اضطروهم إلى الهجرة مخلّفين وراءهم الدور والممتلكات، التي بادر المشركون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

للاستيلاء عليها والتصرف بها كراهيةً بالمسلمين. . وكل ذلك لإبقائهم على الشرك، وحتى لا يكون الدين كله لله تعالى. . أجل، إذا كانت النصوص القرآنية قد واجهت الكفار والمشركين على امتداد سنوات الوحي للنبي ﷺ، فإنَّ تلك النصوص عامة الدلالة، مستمرة التوجيه، بحيث يجب أن يمضي الجهادُ عند المسلمين إلى يوم القيامة، ما دام في كل زمان تقومُ قوّة ظالمةٌ غاشمةٌ تحاول أنْ تفتنهم عن دينهم بكل القوى التي تملك، وبشتى الأساليب والوسائل والأسلحة التي تبتدع. . وما دامت قوى ظاهرة وخفية تدرس وتخطط لتصدَّ الناس عن الإسلام، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة الحق إلى الله العلي القدير، مخافة استجابة الناس لهذه الدعوة، واقتناعهم بأحقيتها. ولعلَّ أبرز دليل على ذلك ما تقوم به قوى الشر والاستكبار، وأهل الكفر والضلال في هذه الحملة الصليبية التي أعلنها رئيس الولايات المتحدة الأميركية (على أثر أحداث ١١ أيلول ـ سبتمبر ـ عام ٢٠٠٣م)، وتابعه عليها كثير من أهل السفاهة والجهل، في حرب خفيةٍ ضاريةٍ على الإسلام وأهله تحت ستار شعار «مكافحة الإرهاب»، التي أسفرت عن حملاتٍ مخططة على المسلمين في كثيرٍ من بلدان الغرب، التي كان من «مآثرها»، ومن «مناقبية» الثقافة الغربية بالذات، تلك الحملةُ المسعورة، التي أطلقتها الأبواقُ الآثمةُ في الدانمارك، على رسول الإسلام محمد ﷺ، لأنَّ ظلام جاهليتها المادية، قد جعلها لا تقيم اعتباراً لله سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله ـ محمداً ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. . ولو كره الكافرون. . ووصل المرض في قلوب أصحاب تلك الحملات إلى حدّ الجهل المطبق لشخصية هذا الرسول الكريم، والإنسان

العظيم، الذي شهد الله تعالى له، من عليائه، بالخلق العظيم لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]. . لا بل ووصَلَ بهم الكفر والإلحاد إلى أنْ يضلّوا عن فهم الإسلام وقداسة رسوله الأكرم، وعن أي سبيلٍ من سبل الهداية والرشاد، كما يصفهم ربُّ العالمين في قرآنه المجيد، بقوله الحق: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2]، وبقوله العزيز: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

ثم انظر إلى قوى الجشع، والاستغلال، والظلم العظيم وهي تبيح لنفسها احتلال بلاد المسلمين، واستلاب خيراتها، وبذر الخلاف والشقاق بين أهل القرآن، حتى يظلوا متفرقين، وعن الضعف الذي هم عليه ساهين!. . أجل إنَّ ذلك كله يفرض على المسلمين الدفاع عن وجودهم، وعن دينهم، ولذلك كانت الجماعة الإسلامية مكلفة في كل حين ـ وهو تكليف شرعي من رب العالمين ـ بأنْ تعمل أولاً على جمع كلمة المسلمين، وإزالة كل أسباب الفرقة في ما بينهم، لكي يمكنها، من ثَمَّ، التصدي للقوى الظالمة، والوقوف في وجه مخططاتها ومطامعها، مما يحول دون نشر الفساد في الأرض، ويجعل الطريق واضحاً أمام الناس، فيختارون نتيجة قناعاتهم، ويهتدون إلى الدين القيّم، الذي يدعو إلى طاعة الله خالقهم، ويحث على أعمال البر والخير، حتى يعمَّ الصلاحُ والفلاحُ في كل بقعةٍ من الأرض يغلبُ فيها أمر المؤمنين، الذين امتثلوا لأوامر ربهم ونواهيه، وأقاموا موازين

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

العدل والحق والصواب في دنيا الناس من حولهم. وإذا لم يوجد من يتصدّون لأهل الكفر والشرك، ولأفعالهم الخبيثة، فإنَّ الفتنة سوف تشتدُّ وتقوى، وسوف يستقوي أكثرُ أهل الظلم والجور والفساد على العباد، وهذا ما يحذّر منه القرآن الكريم، وهو يدعو المؤمنين لاتقاء الفتنة، التي لا تقتصر أضرارها على الظالمين وحدهم، بل وتصيب معهم جميع أبناء المجتمع الذي تظهر فيه الفتنة بشرها المستطير، يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

وهذه الفتنة، أو هذا البلاء الذي ينشره الظالمون والطغاةُ والمفسدون، قد يلحق بآثاره الناس جميعاً، لأنَّ الناس بعضهم من بعض، والجماعة التي تسكت عن الظلم في أي صورة من صوره، ولا تقف في مواجهة هذا الظلم، فإنها تؤخذ، ولا ريب بجريرة الظالمين، وتذوق مرَّ العذاب!.. وهذا ما نراه اليوم في واقع الحياة، فكم من مجتمع يعمُّه الظلمُ والفسادُ، والجماعة فيه خانعة ذليلة، غير عابئة لما يجري من حولها، أو هي منقادةٌ بالقوة ـ المادية والمعنوية ـ للخضوع لأهل السلطان، فتراها تعيش بلا أمان واستقرار في ربوع ديارها، وبلا راحة ولا اطمئنان في نفوس أبنائها!.. لأن الظلم قد حاق بالجميع، ومن غير استثناء لأحدٍ، حتى الفئة الظالمة التي توقد نار الفتنة، فإنها تكوى بحريقها، إنْ في الأنفس والأبدان بما يصيبها من الأمراض، وإن في الأولاد الذين غالباً ما يكونون منحرفين، ضالين ـ مثل آبائهم ـ عن جادّة الصواب... إنها تبتلى بما صنعت أيديها، ومن حيث لا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

تدري أنّها هي سبب البلاء، وأنَّ أحقادها ومطامعها هي المصدر الرئيسي للظلم والفساد! . .

ولذلك جاء الإسلام، وهو يحمل منهجاً تكافلياً إيجابياً، من مقوماته عدم جواز السكوت عن فتنةٍ، يكون ضررها عاماً وشاملاً، ولو اقتصر ضرّها على جماعة قليلة من الناس، أو على فردٍ واحدٍ من أبناء البشر فيجب محاربتها، أو عدم السكوت عنها. . . فالإسلام يحارب كل ما يسيء إلى الإنسان في نفسه، وعرضه، وماله، ومجتمعه، حتى إنه يأنف، ويمنع كلَّ ما يؤذي بيئة الحيوان أو الجماد من حوله، فكان من أولى اهتماماته محاربة الظلم والظالمين، والتصدي للفساد والمفسدين، واتقاء الشرّ قبل أن يستفحل بين الناس، ولذلك يحذرنا ربُّنا العزيز الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾، بل تصيبكم جميعاً أيها الناس إذ حلَّت في دياركم، وجعلت الظلمَ والفسادَ والمنكر يطغى على نفوسكم، وعلى معاملاتكم مع بعضكم . . فاتقوا فتنةً من هذا القبيل، واحذروا أسبابها وشرورها، وتعاونوا على مقاومتها بكل ما أوتيتم من سبل المقاومة، حتى لا تكون عليكم ـ أيها الناس ـ أشدَّ من القتل، على الرغم من كراهيته وبشاعته! . . .

٢ ـ فتنة الأموال والأولاد

والفتنة التي فيها الابتلاء قد لا تأتي من الظالمين وحسب، بل قد تحلُّ بالإنسان من نفسه، ومن ضعفه أو تقصيره؛ وأسباب مثل هذه الفتنة عديدة ومتنوعة، كما في حالة الحرص مثلاً على الأموال

والأولاد التي توقع الإنسان ـ حتى المؤمن ـ في ظل ظروف معينة، بأشد أنواع الابتلاء، كما ينبّهنا إلى ذلك ربُّنا تبارك وتعالى بقوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

هذا الخطاب موجه للمؤمنين: لا تخونوا الله والرسول! لا تخونوا الله بترك فرائض دينه، وعدم الامتثال لأوامره ونواهيه.. ولا تخونوا الرسول ﷺ بالتخلي عنه في حياته، وعن سنّته بعد مماته؛ ويعبّرُ عن هذا الخطاب الربانيّ قولُ الحسنِ بن علي عليه السلام: «مَنْ تَركَ شيئاً مِن الدينِ وضيَّعَهُ فقد خانَ الله ورسولَهُ. ومنْ خانَ الله ورسولَهُ فقد خانَ الأمانةَ، وأنتم تعلمون ما في الخيانةِ من ذمٍّ وعقابٍ». ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

وأمرُ الله تعالى أنْ نعلمَ أنما أموالنا وأولادنا فتنةٌ إنما هو تنبيهٌ منه تعالى، الذي يرزقُ وحدَهُ الأموال والأولاد. لكي نتدارك مواطن الضعف فينا، وذلك بألّا نجعل حبَّ المال والبنين سبباً للبلاء، والشقاء، وربما سبباً للضلال والكفر في حياتنا... والمؤمنون يَعُونَ ـ عادةً ـ أنَّ الأموال والأولاد من النعم التي يمنُّ بها الله تعالى على الناس جميعاً، ولكنْ ما لا يدركه أغلبيةُ الناس أنَّ هذه النعم قد يكون فيها ابتلاءٌ لأنَّ جلَّ اهتمام الإنسان غالباً ما يكون منصبّاً على تكثير الأموال، والاهتمام بالأولاد!.. فينسى من ثَمَّ ذكر الله، أو قد يقصّر

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٢٧ و٢٨.

في طاعته، بل ويغفل عن أداء واجباته تجاه المجتمع! وتختلف هذه المقاييس بين إنسانٍ وآخر، فالفقير غالباً ما يكون قانعاً بما قسمَ له الله من الرزق، وقد يرى في فقره نعمةً تبعده عن البطر، كما يرى في أولاده غنىً يعوّضه عن فقره المادي؛ وقد يكون بين الفقراء، بالمقابل، من ينقم حظه في هذه الحياة الدنيا، ويتمنَّى لو يقدر أن يصيبَ من الغنى مثل أولئك الذين يملكون الثروات، ويتباهون بما هم عليه من البحبوحة والرفاهية، فهنا أيضاً يكون الابتلاء، ما لم يقنع الإنسان، الفقير والغنيُّ، بعطاء ربه، ويوقن أنَّ ما قدَّرَ له الربُّ الكريم من الرزق، إنَّما فيه رحمة، إنْ لم يؤتَها في هذه الدنيا، فقد يمنُّ بها سبحانه عليه في الآخرة، فيكون هذا اليقين سبيلَهُ الحقَّ لعدم الوقوع في الفتنة التي كلها ابتلاء!.. ويهدينا القرآن الكريم إلى أنَّ الله ـ تعالى ـ أعلم بما فيه مصالح عباده، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من عباده، وهو سبحانه وتعالى عندما يحذر من الوقوع في الفتنة التي تصيب الإنسان بسبب أمواله وأولاده، فإنَّما ليحثَّ أولي الألباب ـ الفقراء والأغنياء ـ لأنْ يتفكَّروا بأنَّ كل ما في هذه الحياة الدنيا ـ وليس الأحوال والأولاد فقط ـ قد يجرُّ إلى الخطأ، إنْ لم يحذر الإنسان نتيجة أعماله، لأنَّ هذه الحياة الدنيا محفوفة بالمُضِلّاتْ التي توقع في الفتنة على تنوع أسبابها وأشكالها، وآثارها.. ولذلك كان من فضل الله على المؤمنين، أن يحذّرهم من مضلّات الفتن التي قد تكون الأموالُ من أهم مسبباتها، لا بل وقبل الأموال، الأولاد الذين يمثّلون أوثق العرى وأشدها ارتباطاً بالنفس الإنسانية.. ولعلَّ هذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ عندما قال: «لا يَقولَنَّ أَحدُكم

اللَّهمَّ إنّي أعوذُ بكَ مِنَ الفتنةِ، لأنَّهُ ليس أحدٌ إلا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ على فتنةٍ، ولكنْ مَنِ استعاذَ فَلْيَسْتَعِذْ من مُضلاّتِ الفتنة». . ويجيء تحذير ربّ العالمين من فتنة الأموال، والأهل عموماً، في آيات أخرى بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

والسؤال: كيف يمكن أن يكون من الأزواج الذين يتشاركون الحياة على حلوها ومرها، وشجونها وشؤونها، أو أن يكون من الأولاد، الذين هم فلذات الأكباد، ويضحّي الأهلُ بالغالي والنفيس من أجلهم. . كيف يمكن أن يكون من هؤلاء وهؤلاء أعداءً؟!

إنَّ المشاعر التي يكنّها الأزواج تجاه بعضهم، أو مشاعر الآباء تجاه أولادهم، قد تدفع إلى الانشغال بهم عن موجباتهم الدينية، ولاسيما تحمل تبعات الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومن قبيل ذلك أنْ يواجه المؤمنون، في كثير من الأحيان، المتاعبَ من أزواجهم وأولادهم، إذا ما أرادوا الإنفاق في وجوه البر والخير، أو إذا ما نَوَوا تلبية نداء الجهاد في سبيل الله، أو الانتماء إلى حركة إسلامية لا تتوخى إلّا رضوان الله ـ تعالى ـ وتقديم العون للمسلمين، أو يكون هدفها توحيد كلمة المسلمين لمنع الفرقة والعداوة بين صفوفهم، أي بوجه عام عندما يقوم المؤمنون، أو ينوون القيام بأي عملٍ من شأنه إعلاء كلمة الله وجعلها العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. . مثل هذه الأمور، وتحت تأثير الضغوط التي تمارس نفسياً على المؤمن فقد

---

(١) سورة التغابن، الآيتان: ١٤ و١٥.

يبخل عن الإنفاق بدعوة توفير المال لعياله، وقد يجبن عن الجهاد لنصرة الإسلام، ونصرة قضايا أمته بحجة الخوف عليه من القتل، أو السجن أو التعرض لأي مكروهٍ آخر، وكل ذلك من أجل أنْ يبقى ـ كما يُدخلون في روعه ـ السندَ والمعينَ للأهل، وذوي القربى!..
فذلك وغيره كثيرٌ من الأسباب التي تجعل من الأزواج والأولاد عدواً للمؤمن، عندما يبعدونه عن العمل في سبيل الله، أو توفير سبل العيش الكريم لعباد الله.. وبالتالي حرمانه من المثل الأعلى الذي يتوخاه في حياته ألا وهو نوالُ رضوان الله عزَّ وجلَّ.

وما تجدر الإشارة إليه، هنا، أنَّ مثل تلك التصرفات من الأزواج والأولاد قد لا ترضي المؤمنين لأنهم يرون فيها ما يخالف شرع الله، والمنهج الأخلاقي الصالح!.. وقد يعمدون إلى نصح وإرشاد مَن حولهم، بل والغضب منهم من دون أن يفلحوا في ثَنْي أزواجهم وأولادهم عن مواقفهم، ما يملأ قلوبَ المؤمنين حزناً وألماً، ويحيل حياتهم قلقاً وتعاسةً.. ولذلك يخاطبهم ربُّ العالمين، بصفتهم الإِيمانية ـ يا أيها الذين آمنوا ـ لكي يكونوا حذرين تجاه الضّلال الذي قد يقع فيه أزواجهم أو أولادهم، والذي من شأنه أنْ ينعكس على حياتهم العائلية، حتى ينقلب أهل المؤمن ـ وداخل بيته ـ أعداءً له.. بل ويحذرهم سبحانه وتعالى، من كل عداوةٍ من قد يواجهونها في كل آنٍ، لإثارة اليقظة في قلوبهم، وتحمّل ضغط المؤثرات عليهم، وفي الوقت نفسه يثير فيهم روح العفو والصفح والمغفرة لمن أساءَ إليهم من الأهل والأقرباء، حتى يغلب التفاهم والرضى على البيت الإسلامي، وبالتالي يغلب الإيمان والفضيلة على المجتمع الإسلامي، الذي أرادَ الله ـ تعالى ـ من المؤمنين أن يحافظوا

عليهما، بيتاً ومجتمعاً، خاليَيْن من الشقاق والنزاع، ونظيفين من الرذيلة والفاحشة، ينهَدُ فيهما المسلم إلى بذل جهده المستطاع لئلا يتحوَّلَ مَنْ حولَهُ أعداءً له، بل يعملون جميعاً ، الآباء والأبناء، على توثيق عرى المحبة، والوفاء وترسيخ المفاهيم الإسلامية في نفوسهم وهي كفيلة بأن تمهد لهم السبل القويمة للعمل من أجل خير أنفسهم وخير مجتمهم الإسلامي. .

ولئن كانت حياة المؤمن تحفل بالقلق والتعاسة والخوف لأنَّهُ يجدُ كلَّ ما يحيط به يخالف، في أغلب الأحيان نظرته إلى الحياة، إلّا أن قيام المؤمنين بواجباتهم، وعلى قدر الاستطاعة التي يملكونها لمنع الفتن في شتى أشكالها ودرجاتها، وصبرهم على ما تخلّف تلك الفتن من الآثار السيئة، فإنَّ الله تعالى قد جعل في عملهم لمنع الفتنة، وفي صبرهم على أذاها، أجراً عظيماً لأنَّ عدلَهُ سبحانه، ولطفه بعباده المؤمنين، هما الأمل والرجاء لخلاصهم من هموم هذه الحياة الدنيا، ونيلهم الأجر العظيم الذي أعدَّه لهم في الحياة الآخرة. . وتبقى هموم الأموال والأولاد المحور الرئيسي للمؤمنين، الذين يعلّمهم ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يتعالوا على ما يمكن أن يوقعهم به المالُ والبنونَ من فتنةٍ، حتى ينالوا الأجر العظيم، فلا يقعدَنَّ أحدٌ منهم، بعد توجيه رب العالمين، من الأخذ بأسباب الحيطة والحذر والانتباه، ومعالجة أسباب فتنتهم وآثارها داخلَ بيوتهم، وداخل مجتمعاتهم. . .

٣ ـ فتنة الغرور

ومن ألوان الفتن ما يأتي من نفس الإنسان ـ كما أشرنا سابقاً ـ إذا انحرف عن الهدى، وأضلَّهُ الكبر والاستعلاء، بحيث يردُّ كلَّ أمرٍ،

وكلَّ شيءٍ يقوم به إلى علمه، وقدرته، وهذا بطبيعة الحال ادّعاءٌ فارغٌ، لأنه إنكار للنعمة التي يخوّله إيَّاها ربُّهُ، كما يبيِّنُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

. . . إذ في كل مرة يُصاب الإنسانُ بشدةٍ من مرضٍ أو همٍّ، أو عبءٍ يثقل كاهله، وينغصُ عيشه، فإنَّه لا يجد غير الله ـ تعالى ـ ملاذاً يسلّم أمره إليه، مستغيثاً، متضرّعاً وداعياً أنْ يكشف عنه الضُرَّ الذي أصابَهُ. ومن عجيب أمر الإنسان أنْ يعجِّل في نسيان ـ أو تناسي ـ هذا الضرّ إذا ما استجابَ الحقُّ تبارك وتعالى لدعائه، ثم يقوده هذا النسيان إلى التخلّي عن عبادة وشكر بارئه الذي كشف عنه هذا الضر. وهذا مردُّهُ إلى ضعف الإيمان في قلبه، وغلبة الإنكار والجحود على نفسه!. فالالتجاء إلى الله سبحانه إنما ينبع، في الأصل، من النفس بصورة غريزية وعفوية، لأنَّ فطرة الإنسان هي التي تجعله يلوذ في الشدة بخالقه القادر المقتدر، فإذا أمِنَ من خوف الخطر، عادَ إلى دأبِهِ، وإلى ما اعتادَ عليه من الانشغال بمطالب هذه الدنيا، دونما إيمانٍ أو عبادة. . .

ولعلَّ المثال البارز على أولئك الناس الذين يلجأون إلى ربهم وقت الشدة، ثم ينسون فضلَهُ عليهم ما يبيّنُهُ قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

هذا هو شأن البحارة في الغالب، تراهم عندما يقلعون في سفنهم يُصَلُّون ـ كلٌّ على طريقته ـ بأنْ لا تواجههم الرياح العاصفة، والأمواجِ العاتية، حتى إذا أتمُّوا رحلتهم ونزلوا إلى البر. تجدهم قد نسيَ كلٌّ منهم ربَّهُ الذي صلَّى إليه، وراح يحدّث عما قام به في تلك الرحلة من البطولات، وما جنى من الأرباح، وما إلى ذلك من الغفلة التي توقعه في الشرك!... ولكن أليس في الحياة من هم أكثر من البحارة، أو الذين يركبون في السفن، جحوداً للنعم التي يخولهم إياها ربهم، عندما يعزون إلى أنفسهم أنَّ كلَّ ما أوتوه من مالٍ وجاهٍ وسلطانٍ، إنما كان بفضل ما عندهم من علم، وعمل، ومهارة، واقتدار وما إلى ذلك من الادّعاء الذي يكون مصدره غرورُ الإنسان؟!.. وقد تسيطر على الإنسان مشاعر الغرور حتى ليظنَّ أنه قادر على أن يفعل ما يريد، دونما اعتبار لمشيئة الله تعالى، وتدبيره في شؤون خلقه!... لا، بل قد يقول مَنْ في قلبه ولو شيئاً من الإيمان: إنَّ نيَّتَهُ طيبة، وإنَّهُ مخلص في توجّهاتِهِ، فأعطاهُ الله من النعم ما استحق، لأنَّه تعالى ربُّ نيات، ويعطي للإنسان بحسب نياته!... ألَا، إنَّ مثلَ هذه المقولات، أو تلك الظنون والأوهام لا تأتي إلَّا من مخدوعٍ بعلمٍ أو صنعةٍ، أو حيلةٍ يعلّل بها ما حازَهُ من مالٍ أو سلطان، ومثله كمثل قارون الذي خسف به الله تعالى وبأملاكه وبداره الأرض عندما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]، بحيث لم يقدّر قارون قطّ، أو لم يُقِرَّ بأنَّ كلَّ ما نالَ في حياته، إنَّما كان نعمةً من الله تعالى، خوَّله امتلاكها بمقتضى جليل حكمته. وأمثال قارون كثيرون في كل

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

زمانٍ ومكان، هؤلاء الذين يغفلون عن حقيقة عطاء الله تعالى، وإنَّهُ سبحانه هو مصدر كل نعمة، وواهب كل علم وقدرة، مسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق..

وإنَّه لمن محاسن الإنسان أن تكون لديه ثقة بنفسه، أما أنْ تخدعه هذه الثقة حتى تودي به إلى الغرور، فهذا ما يوقعه في البلاء، ولذلك قال الله تعالى عن هذا البلاء الذي يُوقع به الإنسانُ نفسَهُ ـ بادّعائه أنَّ كل ما أوتيَهُ من نعمة هو من عنده ـ يقول عنه المولى عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].. أجل، إنها محنةٌ يبتلي بها الإنسانُ نفسَهُ من حيث لا يدري، ولا يعلم.. لا يعلم، هذا المغرور ـ وأمثاله ـ أن النعمة قد تكون استدراجاً، وامتحاناً يختبر به الله عباده، ولذلك فهم لا يعلمون أنَّ الفقر كما الغنى، وأنَّ المرض كما العافية، وأنَّ أيَّ ضُرٍّ، كما أية نعمة، إنما كلها بلاء واختبار من الله ـ تعالى ـ لعباده، فإنْ يكن العبد مؤمناً، يكنْ صابراً على الضرّ، شاكراً للنعمة؛ وإنْ يكن جاحداً فسيّان عنده معنى الشكر أو الفكر، لأنه يكون قد ضلَّ عن هدى الله تعالى، فلم يميّز بين طريق الصلاح الذي يقوده إلى النعمة والأمان، أو سبيل الفساد الذي يرديه في النقمة والبلاء.. فكان من حسن تقدير الإنسان أنْ يوقن أنَّ دوره مقصور فقط على السعي والعمل، وقد يحالفه التوفيق من ربه فينال ثمرة أتعابه، وقد لا يُكتبُ له التوفيق فلا يقدر على شيءٍ.. أما لماذا يبسط الله الرزق، أو يضيّقُهُ على أناسٍ دون آخرين، فهذا شأنٌ ربانيٌّ، وهو

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٩.

تعالى أعلم بمصالح العباد، وقد جعل بعضهم لبعض سخرياً حتى يتحقق التوازن الذي تقتضيه الحياة البشرية. .

ومهما يكن من أمر الإنسان، فإنَّ عليه أنْ يؤمنَ ـ صادقاً ـ بأنَّ لله الأمر من قبل ومن بعده، فإنْ شاءَ أعطى وإنْ شاءَ منعَ، وتبقى مشيئته هي المشيئة المطلقة في كل أمر، وفي كل شأن وفي كل حال، فلا يعترض الإنسان على أمر مولاه، بل يقوم بما افترض عليه، وما خوّله القيام به. .

ثم إنَّ من صدق الإيمان لدى العبد الصالح أن يستجير بالله تعالى من فتنة الظالمين، أو من فتنة ماله وأولاده، أو من فتنة نفسه. . وأن يرجو من ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ المغفرة والرحمة عند كل فتنة يقع فيها، أو تحيط به، كما فعل نبيُّ الله موسى عليه السلام وهو يدعو ربَّهُ تضرعاً وخفية أنْ يكشف عن بني قومه غضبه وسخطه، وأنْ يرفع عنهم الابتلاء، فلا يهلكهم بما فعل السفهاء منهم، وهذا ما يبيّنه قوله تعـالـى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾(١).

٤ ـ فتنة المؤمن

مما تقدم يتبيّن أنَّ مسبّبات الفتنة كثيرةٌ في حياة الناس، وهي تأتي من أفعالهم وأعمالهم، ولعلَّ ضعف الإنسان أمام مغريات الحياة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

الدنيا، وسيطرة شهواته عليه هو الذي يسلبُه مناعة النفس، ويخذل فيه الإرادة، فيسير على غير هدى، ويقع في ضلال الفتنة!..

والمؤمنُ، كإنسانٍ فيه عوامل الضعف، معرَّضٌ أيضاً للفتنة مثل الآخرين، ولكنَّ إيمانَهُ يشكّل دائماً رادعاً له عن السوء، فإذا وقع في التجربة فقد نجده يبكي، كما يبكي الطفلُ، من فرط ندمه، على حين أنه في الملمّة الشديدة، قد يكون ثابتاً، مثل الطود الذي لا يتزعزع. أما عدّتُهُ في بكائه المرير فهو الندم الشديد، والتضرع إلى الله ربّه أنْ يغفر له ويرحمه؛ وقد يأخذ العهد على نفسه بألّا يعود إلى ارتكاب الذنب أو الخطيئة التي أوقعته في الفتنة، ثم يستعدُّ، ويهيّئ وسائل الدفاع التي أمره الله تعالى بها، والتي من شأنها أنْ تدعم عزمَهُ وتصميمه على مواجهة الإغراء، وعدم الافتتان ثانيةً.. ولكنْ إذا ما بقي في النفس شيءٌ من مسبّبات الفتنة كما في الشهوة التي غلبت عليه من قبل، أو إذا ما واجهته مغريات جديدة ولم يصمد حيالها، فمعنى ذلك أنَّ وسائل الدفاع في جهازه النفسي قد بدأت بالانهيار، وقد يستمر انهيارها تدريجياً أمام كوامن النفس، ومغريات الحياة.. إلاَّ أنه على الرغم من عوامل الضعف في النفس، فإنَّ على المؤمن ألاَّ ييأس أو يقنط من رحمة الله تعالى، ولا سيما عندما يدرك سبب الفتنة، ويعمل للقضاء عليها، والتخلّص منها بالنية الصادقة، والجهدِ المضني، إذ شتَّان بين ضالّةٍ ينشدها في هذه الدنيا، وعقابٍ ينتظره عليها في الآخرة.. فإذا ما أرادَ المؤمن التغلب على نزعة من نوازع السوء في نفسه، أو إذا ما حاول انتزاع شهوةٍ من شهوات الحرام التي تتخبّط حيالَها نفسُهُ بالحيرة والتردّد، فإنَّ عليه أنْ يوقنَ أنَّ التوفيق لا يمكن أنْ يحالفه، والنجاحَ لا يمكن أنْ يواكبه إلاّ إذا باشر بإبعاد نفسِهِ

عن هذا الشيء المشتهى، أو عن تلك النزعة المغرية، معتمداً على الله ربه، وعلى إيمانهُ، وهما سلاحه الأقوى لكل ما تأمر به نفسُهُ من السوء.. ولعلَّ من الألطاف الربانيّة ما يفتح عقولنا على مصاديق الحكمة الإلهية عندما يشعر المؤمن بأنَّ الشهوة للحرام في نفسه قد ماتت، أو أنَّ المرض أو الابتلاءَ الذي استجدَّ في حياته قد أبعدَهُ عن متابعة الأشرار، ورفقاء السوء، وعن كل أنواع الفتن؛ ثم يوقن أنَّ ما منَّ الله تعالى عليه من العافية، بعد الفتنة، إنما هو الفضل العظيم منه تبارك وتعالى؛ ولذلك أبانَ لنا مولانا الكريم شيئاً من ألطافه بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(١)...

ولا بدَّ في ختام الحديث عن فتنة المؤمن من أنْ نقتدي بحديث رسول الله ﷺ عندما قال: **«أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأَمْثَلُ فالأمثل.. يبتلى الرجل على حسب دينه: فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه خطيئة»(٢)، فالفتنة ـ لغوياً ـ قد تعني الابتلاء، كما أشرنا إلى ذلك في بداية البحث عن الفتنة، ولعلَّ عباد الله المخلصين من المؤمنين الصادقين هم أولى الناس بأن يبتليهم الله تعالى حتى تتطهر نفوسهم في هذه الحياة الدنيا، قبل أنْ ينتقلوا إلى الدار الآخرة،** لأنَّ رضاهم بما كتب الله تعالى عليهم، وصبرهم على ما يصيبهم من البلاء، لا يغيّر شيئاً من الصلة الوثيقة التي تربطهم بخالقهم، بل تزيد الإيمان في قلوبهم، والرجاءَ في خلاصهم.. وفي حياة النبيِّ أيوب عليه السلام، كما ينقلها لنا القرآن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم عن سعد بن أبي وقاص.

الكريم، النموذجُ الأمثلُ على ابتلاء الله تعالى للعبد، والفتنة الأشدّ التي يقع فيها، وقد صَبَرَ أيوب عليه السلام حتى ضُرِبَ المثلُ بصبره، فكانت عاقبته إلى خير، عندما أزال ربُّهُ تعالى عنه الشدَّة، وعوَّضه عن المرض بالصحة، وعن فقد الأولاد، وخسارة الأموال بالمضاعفة المباركة. .

٥ ـ الفتنة من السنن الإلهية

يقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

لعلَّ من المفارقات في الحياة أن يكونَ المؤمنون مستهدفين من أهل الكفر والضلال، بحيث يجعلون من منطلقات هذا الاستهداف الإساءة إليهم، وهم يصفونهم بأنهم «رجعيون» في أفكارهم وأنماط عيشهم، ثم يعمدون إلى تضييق سبلِ العيش عليهم، بشتى الوسائل والأساليب، ولئن استطاعوا قطع أرزاقهم لا يقصرون، بما يشنّون عليهم من حملاتِ الدعاية المغرضة، والتعدّي على ممتلكاتهم، وعلى أنفسهم إلى حد التعرض لهم بالأذى، فضلاً عما يلصقون بهم من التهم الكاذبة التي لا تدل إلا على حقد وعداوة واستكبار. . وهذه النظرة العدائية تجاه المؤمنين ليست جديدةً في حياة الناس، بل رافقتهم عبر الأجيال، وعلى مدى العصور، ولعلَّ الأسباب التي تكمن وراءها تنطلق قبل كل شيء من مناهضة الكفر للإيمان، ومن خوف

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢ و٣.

الكافرين، والمفسدين على مصالحهم، والقضاء على نفوذهم ومكانتهم، باعتبار أنَّ أهل الإِيمان ـ إلى أي دينٍ انتموا ـ إنما يريدون إقامة حاكمية الله تعالى في الأرض، وتغيير الأوضاع الفاسدة من حولهم ـ كما سنرى ذلك بشيء من التفصيل في بحث التغيير ـ وهذا ما يخافُهُ كلُّ من طغى، وتجبَّر، واستكبر! . . فكان لا بدَّ أن تستحكم العدائية في نفوس هؤلاء حيال المؤمنين، وأنْ يشنّوا عليهم أنواعاً من الحروب، خفيةً أو معلنة، حتى يظلّوا مبعدين عن السلطة التي تمكّنهم من اتخاذ القرار، وتغيير الأوضاع. . فكل هذه الأمور التي تحيط بحياة المؤمنين هي من الفتنة، التي شاء الله تعالى أن يبتليَهم بها حتى يظهرَ ظهورَ مشاهدة الذين صدقوا في إيمانهم، وظلّوا ثابتين على عهدهم مع ربّهم، وليعلمنَّ سبحانه، أيضاً، الكاذبين، الذين ضلُّوا عن مصاديق الهدى، فساروا في ركاب أهل الفتنة يأتمرون بأوامرهم، وينقادون لخططهم مقابل منافع دنيوية زائلة! . . فهذا الابتلاء الذي يحيط بالمؤمنين إنما هو بمشيئة الله تعالى، يُختبرون فيه لتظهر حقيقة إيمانهم، وصدقهم مع ربهم.

ونحن في عالمنا الإسلامي، نشاهدُ هؤلاء الذين يقومون بأعمالٍ تخالفُ عقيدتهم الإسلامية، أو أولئك الذين يتناقض سلوكهم مع الشخصية الإسلامية. . وقد يظنُّ البعض أنَّ مثل هؤلاء المسلمين قد خرجوا عن الإسلام، أو عن كونهم شخصيات إسلامية! . . أبداً، ليس الأمر كذلك، كما يحلو للبعض أنْ يتصوَّر. . فقد يغفَلُ المسلمُ، فيُغفِلُ ربط مفاهيمه بالعقيدة الإسلامية التي يعتنقها، بل قد يكون جاهلاً بأنَّ ما لديه من مفاهيم تتناقض وعقيدته، وقد يطغى الشيطانُ على قلبه، فيخطئ، ويعصي، ويرتكب الذنوب، لأنّه ما من إنسانٍ في

الوجود إلاَّ ويقع في الأخطاء والمعاصي إلَّا من عَصَمَ ربي، ومن رحِمَ ربي.. وكثير من المسلمين، ولاسيما في طور الشباب، من يحيدون عن الالتزام الكامل بالأحكام الشرعية، أو التعاليم الإسلامية، ولكنْ لا يلبثون بعدَ الطيش، والجهل، أنْ يعودوا إلى جادة الصواب، ويلتزموا التزاماً واعياً بأحكام دينهم الحنيف.. ثم إنَّ الاستغفار من مقومات العقيدة الإسلامية، كما يهدينا إلى ذلك القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ولو لم يكن الخطأ متماشياً مع عمل الإنسان، لما أَمَرنا ربُّنا تعالى بالاستغفار عن الذنوب التي نرتكبها، ولما بيَّن لنا رسولُنا ﷺ أهمية هذا الاستغفار، والتوبة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالنية الخالصة، والسلوك القويم..

ولذلك يجب أنْ نلتفتَ إلى ضعف الإنسان، وإلى قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1] وإلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]. فهذه النصوص وغيرها كثيرٌ، لا يصحُّ معها أن يُقال: إنَّ ارتكاب الذنوب، واقتراف الأخطاء يخرجان المسلمَ عن أنْ يكونَ مسلماً، أو أن يصبح شخصيةً غيرَ إسلامية.. فما دام يعتنق العقيدة الإسلامية، وما دامت هذه العقيدة هي التي تصونه باعتبارها الأساس لتفكيره وشعوره، فإنها هي التي تعيده إلى الالتزام بأحكام الشرع، تائباً، نادماً، مستغفراً، منيباً إلى ربِّه عزَّ وجلَّ...

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

ولا يخرج المسلمُ عن الإسلام إلّا بترك العقيدة الإسلامية قولاً وعملاً، فإذا طرأ خلَلٌ على عقيدتِهِ ـ وهي ما انعقَدَ عليه قلبُهُ، وصدَّقَهُ عملُهُ ـ خرج الشخص عن الإسلام بهذه الحال فقط، ولو كانت أعمالُهُ ـ في ظاهرها ـ مبنيّةً على أحكام الإسلام، لأنّها لا تكون حينئذٍ مبنيّةً على الاعتقاد، بل على العادة، أو على مجاراة الناس.. فالأساس هو ما في داخل النفس من عوامل الإيمان والتصديق، ولو شابَ السلوكَ أحياناً بعضُ العثرات.. والشيء المهم ـ جداً ـ في حياة المسلم، إلّا يغفل عن القرآن، لأنَّ الرجوع إليه يفتّح له سبلَ الهداية والرشاد. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].. وهذا هو المددُ والعونُ الربانيّ فهل يرومُ المسلمُ خيراً من ذلك؟

وهذا هو الشأنُ في كل فتنة:

أنْ يهديَ الله تعالى بها من يدركون طبيعتها، ويأخذونها على أنها ابتلاءٌ من ربهم، وامتحانٌ أرادَ سبحانَه لعباده المؤمنين أن يجتازوه بصحوةِ العارفين، وصبر المحتسبين..

وأنْ يضلّ بها من لا يدركون حكمة الله تعالى، وتدبيره لعباده، فيمرون بالفتنة ـ أي بالتجربة والابتلاء ـ غافلين منحرفين، أو يخرجون منها ضالّين خاسرين..

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

المبحث الثالث

الإغــواء والإغــراء

١ ـ الإغــواء

الغيُّ هو الشرُّ والضَّلالُ، وهو ناجمٌ عن اعتقادٍ فاسدٍ، باعتبار أنَّ الاعتقاد يكون ـ مبدئياً ـ صالحاً، أي مبنيّاً على الصلاح والإصلاح، فإذا انحرف اعتقاد الإنسان عن فطرته صار غيّاً، وجرَّ إلى الضلال والفساد والشرّ. . . قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[1].

هذا قسمٌ من رب العزّة والجلال بالثريا، أو بأي نجم من النجوم، التي لا يعلم مساراتها، وتراكيبها، وأسرارها، ونهاية أعدادها إلاّ هو سبحانه وتعالى، لأنّه هو خالقها، ومسيّرها وفقاً للسنن الكونية. . وقسم خالق الكون بما فيه من الأجرام والنجوم، لينصُر رسوله ويُوَقِّرَ في أذهان المشركين والكافرين ـ وفي أذهان الناس في كل زمان ـ أنَّ محمد بن عبد الله هو رسولُ الله، وما ضلَّ هذا الرسول

(١) سورة النجم، الآيتان: ١ و٢.

الكريم عن هُدى ربّه كما تتقوَّلون عليه، وما غوى فانحرف إلى الشرّ والضلال، كما تتهمونَهُ عندما تقولون بأنّه «صَبأَ». . فهو عاقلٌ، راشدٌ، ملهمٌ غير ضالّ، مهتدٍ غيرُ غاوٍ، مخلصٌ غيرُ مغرض؛ وأَنَّ ما يتلو على مسامعكم من قرآنٍ مبينٍ، إنَّما هو تنزيلٌ من الله ربّ العالمين، هو الوحي الذي حمله جبرائيل الأمين، ناقل الوحي للأنبياء والمرسلين جميعهم، لا بل إنَّ ما قالَ رسولُ الله من كلام، وما حدَّث من حديث ـ من غير القرآن ناقل الوحي للأنبياء والمرسلين جميعهم، فهو أيضاً إلهامٌ من ربّه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[1]، أي أفتجادلونه، وتكذّبونه أنْ يقولَ لكم بأنه رأى جبرائيل على صورته الملائكية، يُسدُّ بخافقيه ما بين مطلع الشمس ومغربها، ثم قرب منه، على شكل الآدميين، حتى صار على أقل من مسافة قوسين قبالته، لينقل إليه الوحيَ من ربّه تعالى؟! فبئس جسداً لكم، وبئس ما تمارونهُ على ما يرى!. أليس محمدٌ هذا هو صاحبكم، الذي صاحبتموه طوال أربعين سنةً قبل أنْ يُبعثَ، وما كان ضالاً، ولا غويّاً في شيءٍ على مدى تلك السنوات الطوال، كما عرفتموه، وخبرتموه، وبشهادتكم أنتم، فأطلقتُم عليه لقب «الصادق الأمين» من دون أسيادكم، وشيوخكم، وزعاماتكم، وأغنيائكم. . أجلْ، أنتُمْ خبرتُمُوهُ صادقاً أميناً، وأوليتُمُوهُ شَرَفَ الرفعة عليكم ليحلَّ خلافاتكم عند إعادة بناء الكعبة. . وهذه الصفات التي أطلقتموها عليه هي من صميم طبيعته التي خلقهُ ربُّهُ عليها،

---

(١) سورة النجم، الآيات: ٣ ـ ١٢.

وأضفى عليه سبحانه فضلاً عنها، من السجايا والخصال ما يؤهّله ليكون خاتَمَ النبيين، ورسولَ الله للناس أجمعين. . فأين ذهبت أحلامكم حتى تنسبوا إليه تُهَماً باطلةً من الضلال والإغواء!. . ومتى؟!. . ولماذا؟!. في الوقت الذي أعمت الجاهلية الوثنية بصائركم؟!. . وفي الوقت الذي يدعوكم إلى الهدى والرشاد والفلاح؟!

لا، أيها المشركون!. . ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، بل صاحبكم «محمدٌ» عالم بحقيقة النبوة التي بُعث بها، ومؤمن بصدق الرسالة التي انتدب لحملها، ومتوكِّلٌ على ربه بحمل دعوة الإسلام وإبلاغه إلى الناس ديناً قيّماً، تامّاً، كاملاً، ونعمة تامَّة واسعة؛ فمن تابعَهَ وأطاعَ الله ورسولَهُ، هُديَ إلى رُشدٍ، ومن كفر به ضلَّ وغوى. . .

والغيُّ، من حيثُ هو ناجم عن اعتقادٍ فاسدٍ، ممَّا توسوس به الشياطين للناس الذين اتخذوهم إخواناً يمدونهم في الغيّ والضلال، فلا يقصرون في اتباعهم، أو الكفِّ عن هذه التبعية، للتبصّر ومعرفة طريق الرشد من الغي، يقول الله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾(١).

وهنا نجدُ الفارق بين الدين الحق، الذي جاءت به الرسالاتُ السماوية قاطبةً، والعقائد الفاسدة، والدعوات الجاهلية التي يعتنقها ويحملها أهل البدع والضلالات. . فهنالك «فصيلة» كبيرة من البشر الذين تاهوا في غياهب الجهل، والكفر والإلحاد والشرك حتى

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.

أصبحوا إخواناً للشياطين.. فهم يختلفون عنهم خَلْقاً وطبيعةً، ولكنهم يتمازجونَ معهم خُلُقاً وعَمَلاً في كل ما يسيءُ إلى الإنسان، ويضرُّ بالوجود البشري كله.. ولذلك نرى أهلَ الغيِّ يعيثون في الأرض فساداً حتى يهلكوا الحرث والنسل، وينشروا الدَّمارَ والفسادَ في كلِّ مكانٍ.. إنَّهم لا يكلُّونَ، ولا يسأمونَ ممَّا ندبوا أنفسَهم إليه، فلا غرو أنْ يكونَ دأبَهم السعيَ لتجهيل الناس، كي يظلوا غافلين عمَّا هم فيه من الشقاء، والاضطراب الفكري والنفسي، سادرين عمَّا يقودهم إليه شياطين الإنس والجن من الغيِّ والضلال!..

وأما عن التأثير الذي يخلِّفُهُ الغاوون، فيقول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[1].. فهذا القول الحكيم قد وردَ في سورة مريم عليها السلام بعد الآيات التي تتحدَّثُ عن خصال وفضائل الذين أنعمَ الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممَّن حمل نوحٌ معه في السفينة، ومن ذرية إبراهيم، وممن هدى الله واجتبى من عباده الصالحين.. فأولئك جميعهم كانوا من المؤمنين الأخيار الأبرار.. ثم جاء من بعدهم خلفٌ من الناس تركوا الدين، فكان محتوماً أنْ ينقادوا إلى الشهوات والمعاصي، وأنْ يتحركوا في دائرة الغيِّ والضلال.. ولكنْ إلى أينَ، والله تعالى يقول: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.. فسوف يلقون، مقابل كل ذلك الذي قالوه، وعملوه، العذاب في الحياة الدنيا، والعذابَ في الحياة الآخرة، فكان نتيجة غيِّهم في الآخرة وبالاً عليهم أكثر صح من غيِّهم في الدنيا..

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩.

٢ ـ الإغـراء

الإغراء معناه تسليط بعض الناس على بعض؛ ومنه: أغرى فلانٌ بين القوم العداوة، أي ألقاها بينهم كأنه ألصقها في نفوسهم، وأفسد بينهم.. والأصل في الإغراء: اللصوق، ومنه الغراء الذي تُلصق به الأشياءُ..

يـقـول الله تـعـالـى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[1].. وهذا يعني أنَّ الله تعالى أخذ «على الذين قالوا إنَّا نصارى» ميثاقهم، وهو: الإيمان بأنه لا إله إلَّا الله وحدَهُ لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاء، والإيمان برسل الله، ونصرتهم، والإنفاق في سبيل الله ـ وهو الميثاق الذي كان سبحانَهُ وتعالى قد أخذه من قبلُ على بني إسرائيل وفقاً لمنطوق الآيات من ١٢ إلى ١٤ من سورة المائدة في القرآن الكريم ـ ولكنَّ النصارى نسوا هذا الميثاق الذي يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل؛ فجاء القرآنُ يذكّرهم، ويدعوهم إلى العمل به، ولكنَّهم لم يأبهوا لـ«الذكر»، إذْ جاءهم!.. وكان لهم حظٌّ في النجاة لو أنَّهم عادوا إلى ميثاقهم، فبما نقضهم ميثاقهم وقعوا في الخلافات حول العقيدة الحق، التي يجب أن يدينوا بها، ثم أغرتهم المصالح الدنيوية، ولا سيما المصالح السياسية والاقتصادية، على حساب الآخرة، فأغرى بينهم الله (تعالى) العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وهذا ما يشهد به تاريخ النصرانية ،إذْ لمَّا نقضوا ميثاقهم الذي أخذه الله

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٤.

تعالى عليهم، اختلفوا وتفرقوا شيعاً، فقالت اليعقوبية: إنَّ الله هو المسيح بن مريم. وقالت النسطورية: إنَّ عيسى هو ابن الله، وقالت الملكانية: إنَّ الله ثالث ثلاثة. وقالوا: هو أقنوم واحد في ثلاثة: الآب والابن والروح القدس. . .

وبسبب هذا الاختلاف في المبدأ، كانت العداوة والبغضاء التي ظهرت في الحروب الدامية بين سدّة البابوية وملوك أوروبا، وقد ذهب ضحيتها كثيرٌ وكثيرٌ من أتباع السيد المسيح عليه السلام، إلى أنْ ابتدعوا نظرية «فصل الدين عن الدولة»، فكانت هذه النظرية بمثابة «القشَّة التي قصمت ظهر البعير»، بما جرَّت إليه من إبعاد الدين ـ الذي يأمر بالصلاح والإصلاح ـ عن إدارة شؤون الناس، فانصرف الحكام، من خلال المبادئ والمناهج التي اعتمدت، وفقاً لتلك النظرية، إلى تثبيت دعائم سلطانهم، يؤازرهم في ذلك أهلُ المال والاقتصاد والنفوذ الذين اتخذوا من مبدأ «الحرية الفردية» أساساً، ومنطلقاً للعيش، مما أدّى إلى اعتبار الدين شأناً كنسياً بحتاً. . بمعنى أنَّ من أراد التدين فهذا شأنٌ خاص يعود به إلى رجال الأكليروس، دونما علاقة للدولة بذلك، أو أنّه شأنٌ ذاتيٌّ يدخل في مفهوم حرية المعتقد، بحيث يمكن للإنسان أنْ يعتنق الدين الذي يريد، أو أنْ يكون ملحداً، فهذا أمر يخصُّهُ وحدَه، ولا علاقة به للقوانين والأنظمة، بل ولا علاقة به للدساتير التي تقوم عليها مختلف أشكال الحكم والأنظمة. . وهذا ما جرَّ الغرب المسيحي إلى ما يعيش فيه من إقبالٍ على الدنيا، حتى لترى غالبية الشباب قد فقدوا مفهوم الصلة التي تربطهم بخالقهم، لأنَّ هنالك من المفاهيم الحياتية ما يشغلهم عن هذه الصلة، التي قد تكون آخر ما يخطر على بالهم. .

وفي الحقيقة ليست تعاليم السيد المسيح عليه السلام، كما جاء بها الإنجيل الذي حمل العقيدة الصحيحة، هي السبب في ما حصل بين أهل النصرانية من العداوة والبغضاء، وفي ما وَصَلَ إليه الشباب من النصارى في ابتعادهم عن الدين.. لا، لا يظنَّنَّ أحدٌ ذلك أبداً، بل إنَّ ما أُدخِلَ على التعاليم التي أنزلت على السيد المسيح عليه السلام من تبديل، وما طغى عليها من تحريفات وتأويلات كان السبب في ذلك.. وهذا شأن كل دعوة إلى الحق، يتصدَّى لها الذين لا يريدون الحقَّ، فسرعان ما يحولونها عن مسارها، ويستبدلونها بأفكار ومعتقدات تخدم أهواءهم ومطامعهم..

ولم تسلم الدعوةُ الإسلاميةُ ـ كما النصرانية ـ من العداوة، بل كان أعداؤها أيضاً من الذين قالوا بأفواههم إنَّا مسلمون وتأبى نفوسهم.. وأولئك هُمُ المنافقون، الذين لبسوا الثوب الإسلامي ظاهرياً، بينما بقيت قلوبهم على الكفر والشرك.. وقد اتخذ اليهودُ والمشركون هؤلاء المنافقين بمثابة «حصان طروادة» للنيل من الرسول ﷺ، والقضاء على دعوته، بما كانوا يوحون إليهم من التعاليم التي من شأنها أنْ تبذرَ الشكوكَ في نفوس المسلمين، وتؤجِّج الفتنة بين صفوفهم؛ إلاَّ أنَّ الله ـ عزَّ وجلّ ـ قد خذلَ أعداء دينه جميعهم، فأنزل من الآيات البيّنات، ما يفضح المنافقين، وتواطؤهم مع اليهود والمشركين على ضرب الإسلام، عندما أوحى إلى رسوله الكريم ﷺ قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

إذ من المعروف في التاريخ الإسلامي، أنَّ الرسول ﷺ قد أنشأ دولة الإسلام في المدينة المنورة، وقد صارت الدولة، بعد إجلاء بني النضير ـ اليهود ـ قويةً، منيعةً. . ومع ذلك فقد بقي المنافقون على نفاقهم، والذين في قلوبهم مرض ـ من كراهية الدين وحبّ الشهوات ـ على مرضهم، والمرجفون ـ الذين يلفقون الأكاذيب والشائعات المغرضة ـ على إرجافهم، ولذلك جاء التهديدُ من ربِّ العالمين: لئن لم ينتهوا، ويكفّوا عمّا هم فيه، ليسلطَنَّ عليهم سبحانه وتعالى رسولَهُ، فيؤدِّبهم على ما ينفثون من السموم، والأحقاد، والتفرقة بين أهل الإسلام، وينزل بهم القصاص الذي يستأهلون، وذلك بإخراجهم من المدينة، فلا يجاورونه فيها إلّا قليلاً، ثم يُخرجون. .

وعلى الرغم مما شهدَه العهدُ المديني على زمن رسول الله ﷺ، وأيام حكم الخلفاء الراشدين، من استقرارٍ، وعدلٍ، وتسامحٍ وحفاظٍ على الدين الإسلامي الذي جعلَ الأحكام الشرعية أساساً للحكم. . فإنَّ أهل النفاق، وذوي القلوب المريضة، وأصحاب الدسّ والتخاذل والانحراف لم تنقطع أفاعيلهم يوماً، بل كانت هي السبب في إيصال المسلمين إلى ما هم عليه من الضعف، وتفرقة الكلمة، بل والعداوة والبغضاء بين صفوف المسلمين. . وكلُّ ذلك بسبب ابتعادِ كثيرٍ من المسلمين عن دينهم، وترك منهج الله تعالى الذي يحقق حاكمية الله تعالى في الأرض! . . .

الفصل الحادي عشر

الدوافع والبواعث

الدوافع والبواعث

يقال في اللّغة: دَفَعَهُ يدفَعُهُ دَفْعاً: نحّاهُ بقوة وأَزالَهُ؛ ودفع عنه الأذى: حماهُ منه، ودفعَ الشيءَ في آخَرَ: أدخلَهُ فيه؛ ودفعَ فلاناً إلى الشيء: اضطره إليه أو حمله على فعله؛ «والدوافعُ: أسافلُ الأرض السهلة حيث تدفع فيه الأودية أسفل كل أرض؟»[1]؛ وهذا كُلُّهُ يعني أنَّ الدفع يشتمل على الحركة، وأنَّ الدافعَ هو المحرِّك.

وفي «علم النفس» يطلق لفظ الدوافع على القوى الانفعالية التي تحرك نشاط الإنسان وتوجهه نحو هدف معين. والدافع إما أنْ يرجع إلى النفس، وإما أنْ يرجع إلى الجسم. بمعنى أنَّ الدوافع هي ما تنطوي عليه فطرة الإنسان من حاجات عضوية وغرائز وما يختزن عقله من أفكار وتصورات.. فإذا خضع الإنسان لدوافع الحاجات والغرائز كان مسيراً بالأهواء، وإذا خضع لدوافع الأفكار والتصورات كان مسيراً بالعقل. ولذلك يفرق بين الدوافع والبواعث، فإذا رجعت أعمال

(١) معجم البستان، المجلد الأول، ص٧٧٨.

الإنسان لأسباب غريزية أو حاجات عضوية سُمِّيت هذه الأسباب الدوافع أو الحوافز، أما إذا كانت الأسباب عقلية فإنها تسمى البواعث. فالدوافع هي التي تحرك، والبواعث هي التي توجه، ولا يمكن للإنسان أنْ يتجرد منهما أبداً. وبمعنى آخر إنَّ البواعث ما ينشأ عن العقل، والدوافع ما ينشأ عن الفؤاد. وإذا كان بعض المؤلفين يستعملون البواعث والدوافع بمعنى واحد، فمردّ ذلك إلى أنَّ الأفكار لا تُحمل على الفعل في معظم الأحيان، إلا إذا كانت مصحوبة بالانفعالات والعواطف. وهذا ما جعل البعض يستعملون أيضاً الدوافع والغرائز بمعنى واحد، ويعرّف الغرائز بأنها «قوى موروثة لا عقلانية تجبر السلوك على اتجاه معين، وهي تشكل بصورة جوهرية كل شيء يفعله الناس، ويشعرون به أو يفكرون فيه».

ولكن سرعان ما ظهر خطأ هذا الاتجاه الذي يُطلِقُ على «الدافع» أو على الفعل اسم «الغريزة»، بحيث يعتبر كلَّ فعلٍ يأتيه الإنسان صادراً عن غريزة، وهذا خطأ بذاته لأنه يُبعِدُ عن الفهم الحقيقي للسلوك، ولذلك كان هذا الاتجاهُ موضعَ انتقاد واسع.

ومن تلك الانتقادات ما عبّر عنه أحدهم بسخريةٍ، عندما قال: «يقال إنَّ الغرائز تجبر الإنسان على فعلٍ ما. فإذا كان المرء دائم التنقّل مع أقرانه فإنَّ «غريزة التجمع» هي التي تدفعه. وإذا سار بمفرده فإنها «غريزة اللاجتماع». وإذا تشاجر مع شخص آخر فإنها «غريزة المشاكسة». وإذا شعر باختلافه عن الآخرين فإنها «غريزة تحقير الذات». وإذا عبث بأنامله فإنها «غريزة تضييع الوقت».

وهكذا تمّ تفسير كل ما يحدث في حياة الإنسان بسهولةٍ ويسرٍ يدلاّن على ضحالةٍ في التفكير وسطحيةٍ في الفهم.

ويمكن القول إنَّ الدوافع بوجه عام: إما أنْ تكون دوافع ترتبط بحاجات الجسم، وتدفع الإنسان إلى إشباع حاجاته العضوية كالجوع والعطش والنوم، أو إشباع غرائزه من أجل بقائه وحفظ نوعه.. وإما أنْ تكون دوافع نفسية وهي التي تُكْتَسَبُ إجمالاً بالتعلّم، وبتأثير البيئة وعواملها على حياة الإنسان.

الدوافع الفطرية

إن حكمةَ الخالق العظيم قد أودعت في الإنسان ـ بل في كل كائن حي ـ من الخصائص والميزات ما تجعله قادراً على تنمية وجوده وأداء وظيفته. ولعلَّ الدوافع الفيزيولوجية هي من الخصائص الأساسية في تكوين الإنسان نظراً لما هي ضرورية لبقاء الفرد، وبقاء الجنس البشري على حدٍّ سواء. وميزةُ هذه الدوافع أنها تعمل على أداء وظائف بيولوجية هامة جداً؛ فهي التي تساعد على تلبية حاجات الجسم، وسدِّ ما قد يطرأ عليه من نقص كيميائي، ومقاومة ما قد يطرأ عليه من خلل أو اضطراب أو فقدان توازن، ولذلك فهي تؤدي دور المحرك لإنتاج الوظائف التي تعمل على الاحتفاظ للجسم بقدر معين من التوازن الحيوي؛ فإذا قلَّ الغذاء في الدم مثلاً، أو قلَّ الماء في الأنسجة، أو ازدادت حرارة الجسم عن حدّها الطبيعي، واعتراه من جراء ذلك الإرهاق، فإنَّ تلك الدوافع تتحركُ بسرعةٍ، وتوجِّهُ الأعضاء والخلايا المعيَّنة للقيام بالنشاط اللازم لإعادة التوازن إلى الجسم؛ وهذا ما ذهبت إليه الدراسات البيولوجية والفيزيولوجية، أي إنَّ في جسم الكائن البشري ميلاً طبيعياً إلى الاحتفاظ بدرجة معينة من التوازن، فإذا اختلَّ هذا التوازن قامت الدوافع الفطرية أو الطبيعية

بتحريك العناصر التي من شأنها إيجاد نشاط توافقي يعيد إلى الجسم توازنه. وقد يتم هذا النشاط التوافقي إما بصورة لا إرادية، مثل تصبب العرق في حالة ارتفاع درجة الحرارة في الجسم لدى قيامه بنشاط قوي، ويكون من شأنه خفض درجة الحرارة، أو كما يحصل عندما تدمع العين في حال ملامسة جسم غريب لها، فتتحرك خلاياها، وتُنزل الدموعَ لتطرد هذا الجسم الغريب، وإما أنْ يتم هذا النشاط التوافقي بصورةٍ إراديةٍ، كأنْ يقدم الإنسان على تناول الطعام في حالة الجوع، أو على شرب الماء في حالة العطش، أو الإخلاد إلى النوم في حالة النعاس.. وهكذا الحال بالنسبة لمختلف النشاطات العضوية التي تؤمِّن التوازن في الجسم عن طريق الإشباع المعتدل..

وفكرة التوازن الحيوي هذه، التي اكتشفها العلماء حديثاً، يشير إليها القرآن الكريم في آيات كثيرة لا تتناول الإنسان فحسب، بل ومكونات الكون كله. ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[1].

وعن التوازن في خلق الإنسان يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[2]. ومعنى «عدلك» أنَّ الذي خلقك جعلك معتدلاً، متوازناً، سويَّ الخَلْق، وهذا الاعتدال أو السواء يدخل في كامل تكوين الإنسان، سواء في هيئته الخارجية أو في تركيبته النفسانية. وفي أداء سائر أعضائه لوظائفها المختلفة، أي إنه يتضمن مفهوم التوازن الحيوي اللازم لحفظ الإنسان وبقائه.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ١٩.

(٢) سورة الانفطار، الآية: ٧.

ويمكن أن نستدل على الدوافع الفطرية بقول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1]، فهنا نجد أنَّ الشيطان قد وسوس لآدم عليه السلام بفكرة الخلود في حياةٍ دائمة لا موت فيها، ولكنَّ الذي تحرَّك في نفس آدم هو غريزة حب البقاء، وهي التي جعلته يستسلم لإغواء الشيطان، فيأكل هو وزوجُهُ من تلك الشجرة التي نهاهما ربهما عن الاقتراب منها، ويقعان في المعصية. ولعلَّ في تلك التجربة ـ وكانت أول تجربة يقع فيها الإنسان ـ ما يدل على تأثير وأهمية الدوافع في حياة بني آدم.. فإذا كان هذا تأثيرها في آدم نفسه، وهو أبو البشرية، فكيف ببني آدم، هؤلاء البشر الضعاف الذين تؤثر في حياتهم جميع الدوافع والبواعث، وتحرك انفعالات نفوسهم بشكل سريع، فيسعون في الأرض جاهدين، لاهثين، على ما نراه في حياة الناس؟!..

الدوافع النفسية

وكذلك الأمر بالنسبة إلى النفس، أي إنها مثل الجسم تتحرك بالدوافع، بمعنى أنَّ الإنسان غالباً ما يشعر بدوافع مثيرة من شأنها أن تحرّك بعض ميوله ورغباته، فيقدم على أمور لا يرتضيها عقله، فإن عمل بتوجيه هذا العقل، مستبعداً تلك الأمور من حياته، فإنَّ ذلك يؤدي إلى كبت مشاعره حيالها، أو طرد الدوافع المحركة لها، فتكمن في الباطن.

ولكن قد تقوى الدوافع النفسية، في أحيان كثيرة، بحيث لا

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

يقدر الإنسان على ضبطها، أو التحكّم فيها، وعندها لا بد أنْ يظهر تأثير الدوافع بطريقة غير مقصودة تعبيراً عما يجيش في النفس. ومن قبيل ذلك ما يظهر على الوجوه أو في زلاّت اللسان، كما في قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[1]. وقوله تعالى واضح من حيث إنَّه يدلُّ على انفعالات النفس التي تظهر على الوجوه، وفي أقوال الذين تحبل قلوبهم بالضغائن والأحقاد، وذلك بصورة غير إرادية نتيجةً لقوة الدوافع الكامنة في نفوسهم.

قال رسول الله ﷺ: «ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا كَسَاهُ الله جِلْبَابَها: إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ»[2]. وروي عن عثمان بن عفان ؓ أنه قال: «ما أسرَّ أحد سريرةً إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتاتِ لسانِهِ».

وكذلك الأفعال والأقوال المعبِّرة عن الدوافع، فإنها مثل سمات الوجوه، تظهر في حالة انعدام ضبط الدوافع، وتتخذ أشكالاً من مثل الأذى، والسرقة، والقتل، والظلم، والتكبّر، وذرّ الفتنة الخ...

الصراع بين الدوافع

إنَّ الإنسان، في تفاعله مع الآخرين، ومع الحياة ككل، كثيراً ما يشعر بالصراعات داخل نفسه، وعادة ما ينتج الصراع عن تعارض الدوافع لديه، إذ قد يجذبه بعض مشاعره لأمرٍ معين، وتدفعه مشاعر

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٢٩ و٣٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، حديث رقم ١٦٨١.

غيرها عنه، وبهذا التعارض بين الجذب والدفع، يحصل الشعور بالعجز والقلق والحيرة، حتى لا يعود الإنسان قادراً على اتخاذ قرارٍ، أو موقفٍ حاسمٍ حيالَ الأمر الذي يشغله.

وفي حياة الإنسان أمثلة حيَّة عن هذا الصراع: فقد يشتهي أحدهم امرأةً محرَّمةً عليه شرعاً أو قانوناً، فيقف له بالمرصاد الوازعُ الديني، أو الأخلاقي أو الاجتماعي، وهي جميعها دوافع شعورية، تحول بينه وبين ما يشتهي، فيقع في الألم والحسرة.. وقد يرغب في اقتناء أو تملك شيء معين، ولكنَّ إمكاناته المالية لا تتيح له ذلك، فتسوّل له نفسه الحصول على المال بطريقة غير شرعية أو غير قانونية. وينشأ الصراع في داخله بين الحصول على المال الحرام لاقتناء ذاك الشيء الذي يرغب فيه، والعزوف عنه.. أو قد يُدْعى المرء إلى حفلةٍ ساهرةٍ في مكان للّهو والمتعة، فيتردَّد بين الذهاب وعدمه لاعتبارات كثيرة .. وقس على ذلك أموراً كثيرة تواجه الإنسان وتسبب له الصراعات النفسية!...

ويصور القرآن الكريم حالة هامةً من الصراع النفسي لدى كثير من الناس الذين تتجاذبهم دعوات الكفر والإلحاد من ناحية، ودعوات الإيمان والهدى من ناحية ثانية، وكيف يقعون في الحيرة والتردد، يقول الله تعالى: ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

إنها صورة حسيّة، يرسمها القرآن الكريم، للإنسان الحائر المتردد: فالشياطين من الإنس والجنّ تعمل جاهدة كي تفتنَ من يكون خاصةً هَوِيَّ الفؤاد، فتهجمَ عليه، وهي تدعوه لاغتراف اللذائذ، وإشباع الشهوات، لأنَّ عمره فانٍ ـ كما يزينون له ـ وعليه اقتناص الفرص قبل فوات الأوان. . بينما ـ بالمقابل ـ قد يكون لهذا الإنسان أصحاب مؤمنون، يدعونه إلى الهدى، والتخلّي عن كل ما يمكن أن يوقعه في أحابيل الشياطين، لأنَّ ذلك يقوده إلى الضلال، وسخط ربه عليه، وهذا ليس من مصلحته بشيء، لأنَّ أعماله ستكون ويلاً عليه في الآخرة!. . .

وبين إغواء الشياطين، ودعوة المؤمنين يقف مثل هذا الإنسان حيرانَ، متردداً، تتوزعه الأفكار والمشاعر المتضاربة حتى يصيرَ مشتَّتَ الفؤاد، لا يعرف إلى من ينقاد، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، وقد ينعكس ذلك على حياته حتى يشلَّ تفكيره وأعماله، فلا يستطيع أن يتخذ قراراً، أو أن يغلّب موقفاً، وكأنه لا يقدر على شيءٍ في حياته. . فهذا نموذج لما قد يخالج الإنسان من صراعٍ بسبب دوافعه النفسية. ولا تقف أدلَّةُ القرآن الكريم عند حالات الصراع النفسي لدى الأفراد، بل تتعداها إلى حالاتٍ أكبر شمولية، فيما قد تواجه الجماعات من أوضاع مستجدة تجعلها حائرة في اتخاذ القرار بشأنها. يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾[1]. . . وتلك الجماعة

(١) سورة النساء، الآية: ٩٠.

كانت تتمثل ببعض قبائل المشركين، التي عقدت تحالفاتٍ مع المسلمين ـ في طور تأسيس الدولة الإسلامية ـ بألّا يكون قتالٌ بينها وبينهم؛ فكانت تلك القبائل تقفُ حائرة بين حفاظها على مواثيقها مع المسلمين، وقتالهم في كل مرةٍ تدعوها قريش وحلفاؤها لهذا القتال، وخصوصاً أنَّ عدم قتال المسلمين فيه إحراج شديدٌ لتلك القبائل في بيئةٍ تقوم على القبلية والعشائرية. ولذلك كان رؤساء تلك القبائل وشيوخها يجيئون إلى النبي ﷺ، وقد امتلأت صدورهم بالضيق، لما يعانون من الصراع الدائر في تلك الفترة، والذي كان ينعكس سلباً على مشاعرهم وحياتهم. . . وكذلك الأمرُ اليومَ في العلاقات الدولية، إذ من المعلوم أن الخلافات والمنازعات قد تنشب بين الدول المتجاورة أو البعيدة، وقد يكون لبعض رعايا هذه الدولة أو تلك مصالح خاصة من مثل القيام بالتزامات أو تعهدات مشاريع معينة، أو مؤسسات منشأة لدى دولة أخرى، ثم ينشأ النزاع بين دولة هؤلاء الأشخاص، والدولة التي تقوم مشاريعهم ومؤسساتهم على أراضيها، وقد ينعكس ذلك عليهم صراعاً نفسياً مريراً، بين ولائهم لدولتهم، وحرصهم على مصالحهم في حال اتخاذ الدولة المضيفة إجراءات ضد دولتهم، بحيث يتحول الصراع النفسي لدى هؤلاء الناس إلى آلام، دافعها أو محرّكها الضرر الذي قد يحصل لهم أو ربما لدولتهم من جراء النزاع! . .

ويُبرز أيضاً القرآنُ الكريمُ حالةً من الصراع النفسي الحادّ لدى المنافقين، الذين دخلوا ظاهرياً في الإسلام، حرصاً على حياتهم وأموالهم، بينما كانوا يبطنون أشدَّ العداوة للمسلمين، يقول الله

تـعـالـى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[1].

فهل أدلُّ على حدة الصراع النفسي من تلك الأحوال التي كان يعيشها أولئك المنافقون في المدينة المنورة؟ . . لقد رأوا الإسلام يزدادُ عزَّة يوماً بعد يوم، بينما يذوي أهل الشرك من حولهم تباعاً، فدخلوا في الإسلام وهم يوطّنون أنفسهم على التريث والانتظار لمن ستكون الغلبة، فإنْ عادت شوكة المشركين إلى سابق عهدها، ارتدّوا عن الإسلام مطمئنين. . ومن سوء إدراكهم، كان ظنُّهم الواهم أنّهم يخادعون الله عزَّ وجلَّ، بإظهار دخولهم في الإسلام خلافاً لما أبطنوه من الكفر. . وفي هذا منتهى السفاهة لأحلامهم، إذْ لم يفكّروا بأنَّ الله تعالى يعلم أسرارهم، وما يبطنون من الكفر، وأنه قادر على أن يكشف نياتهم. . وإن من الآيات القرآنية ما يُخزي خداع أولئك المنافقين ويزري بهم بين الناس، لأنَّ الخداع والكذب يمقته الأحرارُ والشرفاء إلى أي عقيدة دينية انتموا. . ومن المظاهر الخبيثة التي كان يراوغ بها أولئك المنافقون، أنهم كانوا يأتون إلى الصلاة مع المسلمين متثاقلين، فلا يصلّون، ولا يذكرون الله تعالى إلاَّ رياءً ودجلاً! . فتلك الحالات التي كانوا يعيشونها جعلتهم مترددين بين الكفر والإيمان، لا ينتسبون إلى الكفار، ولا إلى المؤمنين، وفي ذلك أشدُّ المعاناة على النفس من جراء ذلك الصراع الذي ينتابها أو يجعلها في حالة دائمة من القلق وعدم الاستقرار. .

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٤٢ و١٤٣.

إثارة الدوافع

إن الأهداف التي نسعى لتحقيقها، أو الحاجات التي نحتاج لإشباعها، هي التي تكمن وراء الدوافع التي تحرّكنا باتجاهها.. فعندما يحدد الإنسان هدفاً معيناً، فإنَّ هذا الهدف هو الذي يثير في نفسه الدافع، وعندما يحققه فذلك يعني إشباعاً للدافع. وغالباً ما يترافق هذا الإشباع مع مشاعر الرضا والسرور واللذة، بخلاف الفشل في تحقيق الهدف فإنه لا يؤدي إلى عدم إشباع الدافع وحسب، بل يوجد في النفس ألماً وسخطاً؛ والإنسان يميل بطبيعته إلى الأشياء النافعة أو التي تبعث في نفسه مشاعر الطمأنينة والسعادة، ويتجنب الأشياء الضارة أو التي تثير في نفسه مشاعر الاضطراب والتعاسة. ولذلك كان الإنسان ميالاً إلى تعلم الاستجابات أو الأفعال التي تحقق له النجاح أو المكافأة، ومجافياً للاستجابات والأفعال التي تؤدي إلى الفشل أو العقاب، كما تثبت ذلك معظم التجارب الحياتية.

وتتمثل دوافع المكافأة في القرآن الكريم بالترغيب في الثواب مثل ترغيب المؤمنين في نعيم الجنة، بينما تتمثل دوافع العقاب بالترهيب من الجزاء، كما هو الحال بترهيب الكافرين والمشركين من جحيم النار.. فالآيات القرآنية التي ترغِّب في نعيم الجنة تحرّك في نفوس المؤمنين الدوافع للتمسك بالتقوى، والإخلاص في أداء العبادات، والقيام بالأعمال الصالحة، بينما الآياتُ القرآنيةُ التي تخوِّف من جحيم النار تتعمَّد إثارةَ الرهبةِ في النفوس، وما ينتظرها من العذاب الأليم، لكي تردعها عن ارتكاب الذنوب والمعاصي، وهذا ما يثيره القرآن من الدوافع بوجهٍ عام؛ وهذه الدوافع هي التي تجعل المسلم في حالة استعدادٍ تام، وتهيؤٍ كامل للعمل بتعاليم الإسلام وفقاً

لأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفق سلوك إيماني قويم، ومنهاج للحياة أصيل.

وعظمة القرآن الكريم أنه يتناول إثارة دوافع الترغيب والترهيب معاً، لأنَّ استخدام الترهيب وحده قد يؤدي إلى طغيان الرهبة على الأنفس فتعيش في الخوف والقلق واليأس من رحمة ربها، ولأنَّ استخدام الترغيب وحده قد يؤدي إلى سيطرة مشاعر التواكل، والتراخي، والغفلة فتركن الأنفسُ إلى رحمة ربها متمنية على الله ما ليس لها؛ وبهذا المعنى قال رسول الله ﷺ: **«ليسَ الإيمانُ بالتمنّي ولكنْ ما وَقَرَ في القلب وصدَّقَهُ العملُ. إنَّ قوماً ألْهَتْهُمْ أمانيُّ المغفرةِ حتى خَرَجوا مِنَ الدنيا ولا حسنةَ لهم، وقالوا نُحسِنُ الظّنَّ بالله، وكَذَبُوا، لو أَحْسَنُوا الظَنَّ بالله لأَحْسَنُوا العملَ له»**[1].

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي تجمع ما بين الترهيب والترغيب قولُ الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[2]، فالكافرون مهما نالوا من متاع الحياة الدنيا فإنَّ مصيرهم إلى النار، أما المؤمنون فإنَّ تقواهم وصالح عملهم هي سبلهم إلى الجنة..

وكذلك فإنَّ من العوامل التي تساعد على إثارة الدوافع، ما قد يحصل من أحداث هامة تهز ضمائر الناس وتشدُّ اهتماماتهم. وهذا ما

---

(١) رواه البخاري، باب المغازي، ص١٢.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٩٦ ـ ١٩٨.

يشير إليه القرآن الكريم في الآيات التي كانت تتنزّل لتعليم المسلمين وتلقينهم الدروس والعبر المفيدة في التفكير والسلوك، بعد أنْ تثير في أنفسهم دوافعَ الشعور بالمسؤولية، وتحمُّل الأعباء، التي تستلزمها الدعوة، غير متخاذلين، ولا مطمئنين إلى بعض التصورات التي لا تتوافق مع وقائع الحياة، ومشيئة الله تعالى المطلقة. ومن الأمثلة على ذلك، الآيات التي تنزَّلت في أعقاب غزوتي «أُحُدٍ» و«حُنَيْنَ». فالآيات القرآنية التي تناولت معركة «أحد» تتضمن من الدروس البالغة، ما من شأنه أنْ يعلّم المسلمين وجوبَ الامتثال لرسول الله ﷺ، وطاعته، وأنَّ النصر لا يكون إلاَّ بأسباب، كما أنَّ الهزيمة لا تكون إلا بأسباب، فإنْ هيَّأَ المسلمون كلَّ أسباب النصر، فعليهم تركُ النتائج إلى الله تعالى الذي بيده الأمر، وهو ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

أمَّا الآيات الكريمة التي أعقبت غزوة «حنين» فقد توخَّتْ أنْ يَثْبُتَ في الأذهان عدم إعطاء الأولوية لعنصر الكثرة، لأنَّها وحدها لا تُفضي بالضرورة إلى النصر، وأنَّ الركونَ إلى الكثرة وحده قد يكون مدعاة للهزيمة، لأنَّ من شأنه أنْ يؤدي إلى التواكل البعيد عن التوكل الصحيح على الله تعالى الذي بيده وحده النصر، وهذا ما نستدلُّ عليه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

تلك هي أحداث فاصلة في حياة المسلمين، كانت لها آثارها الهامة على حياتهم وفي نفوسهم.. وهي لا تزال بظلالها الندية تلامس قلوبَ المسلمين في كل حين، ليأخذوا منها العبر والعظات، فيستفيدوا منها في حياتهم، ويعملوا على تهيئة الأسباب التي تساعدهم على التخلص من عوامل الضعف التي تطغى على أوضاعهم.

ومن الأسلوب القرآني أنّه يكرّر بعض الأحداث، أو بعض الحقائق في عدة سور منه، ليعطي في كل موضع من السورة آفاقاً جديدة للحدث نفسه، أو صيغة جديدة للحقائق، كما هو الحال في الأمور المتعلقة بالغيب من مثل الإيمان بيوم البعث والحساب، والجنة والنار.. أمّا لماذا هذا التكرار، فلأنَّ من عموم مقاصد القرآن أن يعلّم الناس بالأسلوب البياني والبلاغي الذي من شأنه تثبيت معاني الأحداث، أو الحقائق في الأذهان بما يحيلُها إلى ملكاتٍ تحمل الدوافع لدى الناس، لكي يعملوا بما يرضي الله تعالى ورسوله الكريم، وفق منهج الإسلام وتعاليمه السامية.

ولأهمية هذا التكرار، فطنت إليه دراسات علم النفس الحديثة، فأَوْلَتْهُ عناية زائدة في عملية التعلّم، كما فطنت إليه المؤسسات

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٢٥ و٢٦.

التجارية والصناعية فأقرَّت موازنات خاصة للإعلان عن منتجاتها، تكرره دائماً من أجل التأثير في اتجاهات الجمهور، وجذب انتباهه إلى السلع التي تروّج لها.

انحراف الدوافع

الانحراف هو الميل أو العدول عن الشيء. ويطلق في مجال العلوم على انحراف إحدى الظواهر الكونية عن قانونها العام كانحراف القمر عن مساره وقت الخسوف؛ أما في علم النفس فالانحراف هو تحوّل إحدى الوظائف عن غايتها الطبيعية كالشذوذ الجنسي، أو الاضطراب الذهني الذي يوقع في الخطأ والتناقض أو النسيان. وبصورة عامة إنَّ الانحراف هو الخلل الذي يصيب بعض الوظائف العضوية أو النفسية فيحرفها عن بلوغ غايتها الطبيعية.

والانحراف في الدوافع يحصل عندما تتحكم هذه الدوافع بالإنسان بحيث لا يعود قادراً على السيطرة عليها، ويظهر هذا الانحراف مثلاً في السعي لإشباع حاجة عضوية أو إشباع غريزة من الغرائز بأيّ أسلوب يوصل إلى هذا الإشباع، سواء كان هذا الأسلوب مألوفاً أو غير مألوف، طبيعيّاً أو غير طبيعيّ، كأنما يصبح اتباعه غايةً بحد ذاتها. وبذلك ينحرف الإنسان عن الكسب الحلال مثلاً، فيقوم بأعمال الاختلاس أو الرشوة أو السرقة وما إلى ذلك.. ومن قبيل ذلك أيضاً الإسراف في حب السيطرة والتفوق على الغير في كل شيء: في الإثراء، أو المنصب، أو الجاه، والنفوذ وما إلى ذلك مما يثير الحسد، والكراهية والتنازع بين الأفراد.. أو الإسراف في طلب الراحة، والانصراف إلى الدعة، والخلود إلى السكينة، مما يؤدي إلى

الخمول وعدم الشعور بالمسؤولية لدى الإنسان سواء تجاه نفسه أو تجاه أفراد أسرته أو أبناء مجتمعه. . أو الإسراف في الحذر وعدم الثقة الذي يثير مشاعر العدوان في العلاقات بين الناس. . وما إلى ذلك من الانحرافات التي تنتج من تنوّع السفهات النفسية وتعددها عند الناس.

وهذه الانحرافات في الدوافع من شأنها أنْ تعوق استمرار حياة الفرد، والجنس البشري بشكل طبيعي، لا، بل إنَّها تُبعدُ الناس عن الغايات النبيلة والقيم العالية التي تتألَّقُ بها حياتُهم إيماناً وتقوى، وصلاحاً وإصلاحاً. .

وكما هو الحال في انحرافات الدوافع النفسية فقد يصيب الانحرافُ الدوافع الفيزيولوجية أيضاً، والأمثلة على ذلك كثيرة كالإسراف في تناول الأطعمة والأشربة الذي يؤدي إلى الأمراض، والإسراف في النوم الذي يؤدي إلى الكسل والخمول، والإسراف في تناول المنشطات الجسدية التي تُحدِثُ في ما بعد ردة فعل، وتوقع الجسم في الوهن والضعف.

ولعلَّ من أهم الدوافع الفيزيولوجية، المعرضة للانحراف، الميلَ الجنسي؛ إذ إنَّ الشعور الجنسي يرمي، في الأصل لإشباع مظهر من مظاهر غريزة النوع، وفقاً لفطرة الإنسان أو طبيعته. ولكنَّ الإنسان قد ينحرف في علاقاته الجنسية، عندما يمارسها بطريقة شاذة، كاللواط ما بين الرجل والرجل، وقد ذمَّ القرآن هذا الشذوذ وقبَّح أهلهُ، وهم قومُ لوطٍ الذين شاع فيهم مرض الشذوذ الجنسي، بحيث كانوا يمارسون اللواط علناً حتى صار فاحشةً ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين، كما يدلُّ عليه قول الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾(١). وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾(٢) ولكن ماذا كانت عاقبة قوم لوط؟ لقد أذاقهم الله تعالى أشدَّ العذاب في الدنيا قبل الآخرة، عندما قلب قراهم رأساً على عقب، وأهلكهم عن بكرة أبيهم، فلم يبق أحدٌ منهم إلاَّ لوطٌ عليه السلام وبناتُهُ الأطهار..

ومن عجب أنَّ هذا الشذوذ الجنسي قد تفشى في المجتمعات إلى حدٍّ جعل بعض دول الغرب تصدر القوانين التي تشرّعه، تحت ستار الحفاظ على الحرية الشخصية، مخالفة بذلك سنة الله تعالى في خلقه لبني آدم، الذين شرَّع لهم الزواج ما بين الذكر والأنثى، وحرَّم أية علاقة جنسية ما بين الذكران، أو ما بين الإناث.. فإن خالف الإنسان الناموس الطبيعيَّ لخلقِهِ، فمعنى ذلك أنه أذهب الجمالَ المعنويّ الذي جعل الإنسان أحسنَ مخلوقات الأرض، وأكرمها على خالقها، وسفَّ به إلى مرتبة أدنى من البهائم، التي لم يعرف العلم، قديماً وحديثاً، صوراً عن تزاوج ذكرانها، أو أناثها في ما بينها..

من هنا كانت نظرة الإسلام إلى الدوافع تقوم على التحكم فيها، والسيطرة عليها، وعدم الإسراف في إشباع الحاجات العضوية والغرائز حتى لا تؤدي إلى الانحراف؛ فالمنهج الإسلامي يقرُّ الاعتدالَ في كل شيء، الاعتدال الذي يتوافق مع الطبيعة البشرية ويبتعد بالإنسان عن أي إسراف، يقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٨٠ و٨١.

﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2] فسبحان الله الذي يهدينا إلى ما فيه تأمين مصالحنا الفردية والجماعية والإنسانية بطريقة الاعتدال والمنهج الحق.

وعلى هذا فإنَّ إدراك الإنسان لحقيقة تكوينه، ووعيه لمسؤولياته، وقيامه بواجباته، يُعَدُّ من أهم العوامل لتدارك الانحرافات أياً كان نوعها، فيزيولوجية أو نفسانية. وهذا ما يساعد الإنسان كثيراً على أنْ يكون صحيح البدن والنفس. ولكن إذا انحرف الإنسان في حياته الشخصية وفي أداء واجباته الاجتماعية، فإنَّ ذلك يؤدي إلى الإخلال بموازين الحياة التي تقوم على التوازن والاعتدال في الحقوق والواجبات. من هنا اقتضت الصحة النفسية التزام الإنسان القيام بواجباته، وتعويد نفسه على تحمل أعباء مسؤولياته وفقاً للقواعد والأصول التي تفرضها مصالح الفرد والجماعة على حد سواء...

والانحراف في الدوافع قد يصيب الإنسان في معتقده الديني، عندما يتحوَّل المتديّن ـ إلى أي ديانة انتمى ـ إلى متعصّب، حاقد، همُّهُ أن يكفِّر الآخرين كي يجد ذريعة لقتلهم.. وهذا ما يُعدُّ انحرافاً عن غريزة التديّن أو غريزة التقديس التي خلقها الله في الإنسان، ثم بعث سبحانه وتعالى الأنبياء والمرسلين لتصحيح مظاهر الانحراف الذي قد يصيب الناسَ في معتقدهم الديني، ولذلك كانت أيّ دعوةٍ للحرب أو الامتثال أو التفرقة باسم الدين، انحرافاً عن الحق، ودعوة إلى الظلم والفساد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

وإلزام النفس بالواجبات ـ الدينية والدنيوية ـ عملية نفسية إرادية، من شأنها أنْ تشعر الإنسان بقيمته وكفاءته، وبما أودع الله تعالى فيه من استعدادات للهدى والخير، فيشغل نفسه بالطاعات والمسؤوليات، ويطرد الدوافع إلى العصيان وعدم الالتزام بالموجبات، وإلّا فإن الأفكار والمشاعر قد تنحرف، وتطغى عليه، فينأى عن الحياة الطبيعية السليمة.

ولعلَّ من أهم دوافع الانحراف الفراغ الذي يعتري النفس ويشعرها بعدم أهميتها وقدرتها على التفاعل مع الحياة. فكما أنَّ الطبيعة لا تقبل الفراغ ـ كما يقال في علم الفيزياء ـ كذلك الطبيعة البشرية لا تقبل الفراغ الذي يوهنها ويؤدّي بها إلى الضعف والانحلال. وهذا ما عَنَاهُ الخليفةُ عمرُ بن الخطاب ﷺ عندما كان يوصي أحد الولاة، وهو يقول له: «**إنَّ الله خَلَقَ الأيدي لتعملَ. فأَشْغِلْها بالطاعةِ قبلَ أنْ تَشْغَلَكَ بالمَعْصِية**». وهذا ما يدلُّ على صدق النظرة إلى سلوك الإنسان الطبيعي، الذي لا يكون فيه مجال للانحراف عن أداء الواجبات، والالتزام بالطاعات.

وقد يظن البعض أنَّه يقع على عاتق الإنسان وحدَهُ عبءُ الاختيار بين الالتزام بواجباته أو التخلي عنها، لأنه في النهاية هو المسؤول عن خياراته.. أبداً ليس الأمر كذلك، فالإنسان لا يمتلك حريةً مطلقة في كل شيء، حتى يتوهم أنه قادر على انتهاج السلوك الذي يريد، ووفق ما يريد، أي إنّه يمكن أن يتبع سلوكاً قويماً أو سلوكاً منحرفاً، بل هو يتحرك بمشيئة الله، وبعونٍ منه ومددٍ، بحيث يتمكن من خلال ألطاف خالقه به من تحقيق سلامته البدنية وأمنه النفسي.. ولذلك كان على الإنسان أنْ يعي واجباته نحو خالقه، ونحو نفسه، ونحو أسرته، ونحو

الناس، وعليه أداء هذه الواجبات دون إفراط أو تفريط. قال رسول الله ﷺ : **«إنَّ لنَفسِكَ عليكَ حقّاً، ولربكَ عليك حقّاً، ولضيفِكَ عليك حقّاً، وإن لأهلِكَ عليكَ حقّاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ»**[1].

السيطرة على الدوافع

يتبين لنا مما تقدَّم أنَّ الدوافع الفيزيولوجية، كالدوافع النفسية، إنما هي كائنة في صميم تكوين الإنسان، أي إنَّها تشكّل الدوافع الطبيعية، لتكون عاملاً هاماً يساعده في وجوده. فكان من الضرورة مراعاةُ هذه الدوافع لإشباع الحاجات العضوية والغرائز وفقاً لما تقتضيه الفطرة البشرية بالذات كما يؤكد ذلك القرآن الكريم في مواضع كثيرةٍ منه.

وإذا كانت الدوافع الفيزيولوجية والنفسية لها مثل هذه الأهمية في حياة الجنس البشري، فإنَّ مراعاتها، ومراقبتها والإقرار بتأثيرها، كل ذلك يفرض على الإنسان عدم التنكر لها أو كبتها. ولذلك نجد أنَّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ـ المبيّنة للقرآن ـ يدعوان إلى السيطرة على الدوافع، ولكن ضمن قاعدة الاعتدال التي تقوم على عدم الإفراط أو التفريط ـ كما أشرنا إليها، التي تضبط قدرتها على أداء وظائفها، وضمن المساحة التي تؤمن مصلحة الفرد، ومصلحة الجماعة التي ينتمي إليها، على حد سواء.

وهنالك فارق ما بين القمع والكبت للدوافع، فالقمع قد يعني عدم الاستجابة، بصورة إرادية، لدافع ما، أو لرغبة ما، ومقاومة إشباع

(١) سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٣٧.

هذه الرغبة، أي إنه لا يعني إنكار هذه الرغبة على الإطلاق، بل عدم إشباعها آنياً، وترك هذا الإشباع إلى ظروف أخرى أكثر ملاءمة. أما الكبت فهو إنكار الدافع أو الرغبة، بسبب الشعور بحقارتها، أو الخوف منها، ومحاولة إبعادها عن دائرة الاستجابة الفورية، وهذا ما يؤدي إلى كبت الرغبة وحبسها، وبالتالي إهمالها وطمرها. ولكنَّ وجود هذه الرغبة، ولو مطمورة في أعماق النفس ـ وليس في مَحْبَسَةِ اللاوعي أو اللاشعور كما يدّعي بعض علماء النفس ـ تتحيَّنُ الظروف المؤاتية للظهور، وقد يكون ذلك بطرقٍ وحيلٍ لا إرادية، وهذا ما يسبب نشوء بعض الأعراض، أو حصول اضطرابات في السلوك، نتيجة للإزعاج أو القلق النفسي.

والقرآن الكريم يحذّر الإنسانَ من كبت دوافعه الفيزيولوجية والنفسية، وفي الوقت نفسه يبيّن له السبل التي من شأنها تنظيمَ دوافعِهِ والسيطرة عليها كي يأتي توجيهها توجيهاً سليماً يتوافق مع فطرته، ومع منهجيةٍ للسلوك قويمةٍ.. أي بما يجعل الإنسان قادراً على السيطرة على دوافعه، موجهاً لها، بدل أنْ يترك تلك الدوافع تتحكم فيه، وتصبح هي الموجِّهة له والمسيطرة عليه. ومن قبيل ذلك ما نستوحيه من قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۞ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[١].

فالقرآن يدعو الإنسان إلى عدم التنكّر لدوافعه الفطرية، أو

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٣١ و٣٢.

إنكارها وكبتها، حتى يجنّبه الوقوع في الصراع النفسي، وفي الوقت نفسه يحذّره من ألاّ يُطلقَ العنان لدوافعه، ويتركها على حالها، حتى لا تتحكَّم فيه وتسيطر عليه.. أما السبيل الذي يفتحه القرآنُ أمام الإنسان، للتخلُّص من الصراعات الداخلية، فيظهر في دعوته إلى تنظيم الدوافع، وإشباع الحاجات العضوية والغرائز بطريق الحلال، والمباح شرعاً، وبشرط عدم الإسراف في هذا الإشباع إسرافاً يتنافى مع الفطرة والشرع؛ ومن قبيل ذلك اهتمام النصوص القرآنية بالمظهر الخارجي للإنسان بقدر اهتمامها بالحفاظ على صحة بدنه، وبالتالي على صحته النفسية لما بين البدن والنفس من ترابط وتفاعل.. وهذا ما تدلُّنا عليه نصوص الآيتين الكريمتين التي تحثُّ بني آدم على الكياسة والنظافة في اللباس الذي تسميه «زينة» لكي يكون مظهر الإنسان لائقاً، ولا ينفِّر الآخرين، أو يبعدهم عنه. ومثل هذه الكياسة مطلوبة، وخاصَّة من المؤمن عند القيام بالصلاة، والطاعات لله تعالى، كي يتجمَّل العبدُ بالآدابِ في صلته بخالقه، وتقدير هذا الخالق حقَّ قدره في جلاله، وقدسيته وعظمته.. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الطعام والشراب، فالنصوص القرآنية تدعو الناس لأن يأكلوا ويشربوا ما طاب لهم من المأكولات والمشروبات ـ إلاّ ما حرَّم الله تعالى عليهم، وهو قليل قليل بالنسبة إلى ما أحلَّ وأباح لهم، وهو كثير كثير ـ ولكن باعتدال، ودون إسراف حتى لا يؤدي ذلك إلى الإضرار بصحتهم؛ كما أنَّ هذا الاعتدال ضروري ليكون هنالك توافق وانسجام في تنظيم كافة الدوافع الفيزيولوجية والنفسية. فمثلاً، إنَّ تنظيم دافع الجوع لا يستدعي إشباع الحاجة العضوية بتناول المأكولات والمشروبات أيّاً كانت، بل يجب أن تكون من «الطيبات»، أي من الرزق الحلال، مما

يتلذَّذُ به البدنُ، وتستسيغُهُ النفس، وبالتالي عدم تناول المأكولات، أو تعاطي المشروبات التي حرَّمها الله تعالى، والتي لم يكن تحريمها إلَّا لأنَّها مضرة بالصحة البدنية والنفسية، من مثل الخمر الذي يؤدي تعاطيه إلى أمراض جسدية، وإلى فقدان التوازن العقلي وقت السُّكر.. وكذلك الأمر بالنسبة إلى تنظيم الدافع الجنسي، بحيث يحصل إشباع اللذة الجنسية عن طريق الزواج، وعدم تعاطي الزنا أو السفاح، لما فيه من أضرار صحية واجتماعية وإنسانية.. وهذه المسألة يوليها القرآن الكريم عناية خاصة، لما للزواج الشرعي ـ السليم والحلال ـ من آثار في تكوين العلاقة النفسية والجسدية بين الزوج والزوجة؛ بحيث يكون قوامها المودة والرحمة، والتفاهم والانسجام والسكينة.. وفي تكوين الأسرة التي تكتنفها أجواء المحبة، والعطف والحنان، والتضحية في سبيل الأولاد.. وفي بناء المجتمع الإنساني الذي يقوم على أواصر الفضيلة، والشرف والكرامة، وعلى رابطة العقد الاجتماعي ما بين الناس والسلطات الحاكمة، وأهم مقوماتها مراعاة قواعد العدل، والمساواة، وصون حقوق المواطنين.. وكل ذلك من شأنه أن يشيع مناخاً من الأمن الاجتماعي والصحي والنفسي.. وهذه الآثار الهامّة للزواج الشرعي المقدس هي ما يبينه قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

أمَّا إذا لم تسمح ظروف الإنسان له بالزواج، فعليه أنْ يستعفف وأنْ يسيطر على شهواته حتى تواتيه ظروفٌ أفضل يتمكّن خلالها من

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

الزواج. وقد ثبت «أنَّ المرضى العصابيين الذين كان (سيغموند فرويد) يعالجهم، نشأوا في الأغلب في مجتمعات أوروبا المسيحية التي كانت في ذلك الوقت تنظر إلى الجنس باعتباره دافعاً غير مقبول ويجب كبته. ولذلك لم يكن غريباً على (فرويد) أنْ يلاحظ وجود علاقة بين كبت الدافع الجنسي والأمراض العصابية. وتجدر الإشارة إلى أنَّ بعض تلاميذ (فرويد)، مثل (أدلر)، أو غيره من المحللين النفسيين الآخرين أمثال (كارن هورني) و(إريك فروم) لم يوافقوا (فرويد) «على اهتمامه الزائد بالدافع الجنسي، وبتفسيره للأمراض العصابية على أساس أنَّها جميعها ناشئة عن الكبت». ونحن نعتقد أنَّه حتى إذا كانت النتائج التي وصل إليها (فرويد) صحيحة بالنسبة إلى بعض الحالات في تلك المجتمعات الأوروبية، فليس من الضروري أنْ تكون صحيحة في مجتمعات أخرى، تختلف في ثقافتها عن المجتمع الذي عاش فيه (فرويد).

ولعلَّ من خلال عرضنا لنظرة الإسلام إلى الدافع الجنسي، ما يمكّننا من القول بأنَّها نظرة إنسانية عندما تدعو إلى إقامة التوازن ما بين الدوافع النفسية والدوافع العضوية بحيث لا تتنكَّر لدوافع الحاجة الجنسية، ولا تنظر إلى العلاقة الجنسية على أنَّها شيء معيب أو مستقذر، ما دامت بعيدة عن الشذوذ، وعمَّا حرَّم الله تعالى على عباده، لا بل تعتبر أنَّ العلاقة الجنسية هي من العلاقات الطيّبة التي أحلَّ الله لعباده، مصداقاً لقوله الكريم: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾[1] أي الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٦.

الرجال للطيبات من النساء.. ولا غرو بأنَّ هذا الوصف من ربّ العالمين إنَّما هو خاصٌّ بالناس الذين يتعاشرون بالعلاقات الطيبة، ويأتون الأعمال الطيبة، وفي طليعتها العلاقة الزوجية الطيبة، التي تقوم على الحلال. من هنا كان على المجتمع الإسلامي أنْ يقوم على أواصر التربية الإسلامية السليمة، ومن مآثرها تشجيع شبابه على الزواج المبكر، والدعوة إلى إزالة كافة الأسباب الاجتماعية التي تعوق مثل هذا الزواج.. وحيئنذٍ لا نتوقع أنْ نجد في مجتمع إسلامي كهذا أثراً لكبت الدافع الجنسي.. كما أنَّ من مقوّمات التربية الإسلامية أنْ يعيَ الشبابُ المسلمُ أنَّ منْ شيمتِهِ وفضيلته أنْ يكونَ عفيفاً، وهذا العفاف كافٍ بذاته لأنْ يجعله يتحكم بدوافعه الجنسية بطريقة لا تؤدي إلى الإضرار بصحته النفسية أو الجسدية، إذا ما أقبل الشباب على العبادات بأبعادها القرآنية، وخاصة القيام بالصلاة والصوم لما لهما من تأثير في تقوية الإرادة، وبالتالي السيطرة على انفعالات الطاقة الحيوية التي تتمثل في الغرائز والحاجات العضوية.

وكذلك فإنَّ إقبال شبابنا على تحصيل العلوم والآداب والفنون، وإسهامهم في النشاطات الإنسانية التي يقوم بها عادةً المجتمع الأهلي، من مثل: الجمعيات الخيرية والثقافية، والنوادي الرياضية، وممارسة شتى أنواع النشاطات الأخرى التي تؤمّن علاقات إيمانية صادقة، وعلاقات إنسانية طيبة.. فكل ذلك يُعدُّ من السبل التي تبعد عن الشباب حالات السأم والضجر، وتحميهم من المفاسد على اختلافها، ولاسيما من مخاطر البطالة التي قيل بأنّها «أم العيوب».. إذ من واجبات المسلم أنْ يكون عاملاً في الحياة، لا متواكلاً، كما من واجباته المساهمة، بكل إمكاناته وطاقاته، في بناء وتقدم المجتمع

الذي يعيش فيه، مما يبعد عنه شبح البطالة، وغيرها من عوامل الضعف والتأخّر...

ومن قواعد التربية الإسلامية أيضاً الحؤول دون اختلاء الرجل بالمرأة، إلاَّ وفقاً للأصول المحددة شرعاً، وبحسب التعاليم الإسلامية، التي تؤكد على النساء أن يكنَّ عفيفاتٍ - حتى في نظرات عيونهنَّ - وأنْ يكنَّ حافظات لفروجهنَّ - بالعفة الجسدية والطهارة القلبية - وأنْ يكنَّ ملتزماتٍ - بالمظهر اللائق من اللباس وعدم إبداء زينتهنَّ بما يحفظ حرمة أجسادهنَّ - وكل ذلك حتى لا تتعرض المرأة المسلمة للغواية والإغراء، ولاسيما أنَّها مدعوَّةٌ لمشاركة الرجل في بناء المجتمع، من خلال العمل في أية مؤسسة للدولة، أو مؤسسة خاصة أو في أية مهنة حرة، أو تجارة أو صناعة يمكن أنْ تتعاطاها، بشرط ألَّا يكون ذلك على حساب وظيفتها الأصيلة كزوجة، وأمّ وربة بيت، لأنَّها إذا أهملت هذه الوظيفة، ولم تعرها كامل انتباهها، فقدت المرأةُ فاعليتها الاجتماعية والإنسانية.. وهذه القواعد التربوية هي بعضٌ ممّا نستدلُّهُ من قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ﴾[1].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

الفصل الثاني عشر

- الانفعالات
- العقد النفسيّة
- الحِيَل العقليّة

المبحث الأول

الانفعالات

الإنفعالات هي حالات شعورية طارئة تبعثها في النفس مجريات الأمور والأحداث في حياة الفرد. وهي في الحقيقة لا يمكن التحكم بها فوراً، أو السيطرة عليها وعلى تأثيرها في السلوك، لا بل إنَّ محاولات السيطرة على الانفعالات قد تزيدها إثارة أو تهيجاً. وهي تبرز بأفعال مضطربة، لا واعية وغير منظمة. ويطلق عليها أيضاً تعبير الوجدانيات. وقد عرَّف البعض الانفعالات بأنها «حالات داخلية تتصف بجوانب معرفية خاصة، وإحساسات، وردود أفعال فيزيولوجية، وسلوك تعبيري معين. وهي تنزع للظهور فجأة ويصعب التحكم فيها».

ومن الأمثلة على الإنفعالات: مشاعر القلق، والغضب، والسعادة، والحزن، والخوف، والحسد، والغيرة، والندم.. وتوجد علاقة قوية بين الدوافع والانفعالات، لأنَّ الدوافع غالباً ما تكون مصحوبة بحالة وجدانية انفعالية، فمثلاً قد يشتد الدافع إلى السفر لدى التاجر بسبب نقصان البضاعة أو فقدانها، وهذا ما يجعله يحس بشعور

من التوتر يدل على حالة وجدانية مكدرة، أما إذا سافر، وأمّن البضاعة التي يحتاجها، فإنَّ شدة الدافع تزول، ويشعر التاجر ـ حينئذٍ ـ بحالة وجدانية مريحة. . .

والانفعالات تقوم بتوجيه السلوك مثل الدوافع، فانفعال الخوف يدفع إلى الهرب أو الاضطراب، وانفعال الغضب يدفع إلى العدوان، وانفعال الحب يدفع إلى لقاء الحبيب.

وحكمة الله تعالى التي قضت بإيجاد الدوافع في نفس الإنسان، قضت أيضاً بأن يكون وراء تلك الدوافع الانفعالات التي تحرّكها بصورة تلقائية، في كل مرة قد يواجهه واقع معين أو يؤثر عليه ظرفٌ طارئ.

والانفعالات كثيرة ومتنوعة بحيث لا تقع تحت حصر. وهي تختلف باختلاف الأفراد، وظروف البيئة، والأوضاع التي يعيشها كل واحدٍ منهم؛ فلو أُجري اختبار على انفعالٍ معينٍ لدى بضعة أفراد، لتبين من نتيجته أنَّ ردود الفعل الفيزيولوجية قد جاءت متباينة، ومتنوعة، وما ذلك إلّا لأنَّ الانفعالات إنّما ترتبط بمكونات فيزيولوجية، وإدراكية، ومعرفية وسلوكية خاصة لأنّها تشكل جميعها عناصر يتفاعل بعضها مع بعض في الذات الواحدة.

وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تبيّن ما قد يطرأ على النفس مِنَ الانفعالات، منْ مثلِ: الخوف والقلق والغضب، التي تتبّدى عادةً بمظاهرها المعروفة، والتي لا تعدو كونها مظاهرَ للحاجات العضوية، وللغرائز الثلاث: ـ حب البقاء، وحفظ النوع، وغريزة التدين ـ لدى الإنسان.

والانفعالات غالباً ما تنتج آثاراً هامةً في حياة الإنسان، فالخوف

مثلاً قد يشعرُهُ بالأخطار، ويحثُّه في الوقت نفسه على تداركها، فلا يدعها تهدد وجوده، ما يجعل من الخوف عاملاً مساعداً للحفاظ على حياته، والغضب كذلك من الانفعالات التي تعتري النفس، وقد ينشأ عن أشياء بسيطة مثل التوبيخ أو الإهانة، أو عن أشياء كبيرة كالتهديد أو الاعتداء، وهو قابلٌ لأنْ يتحول إلى شعور عدواني، فإذا لم يجرِ التحكم به، فقد يؤدي إلى نتائج ضارة لا تُحمدُ عقباها.

ويصاحب الانفعالات بعض التغييرات الفيزيولوجية في الجسم، كما يظهر ذلك على ملامح الوجه، وفي تزايد ضربات القلب نتيجةً لزيادة تدفق كمية الدم إليه بسبب الانفعال، وكما يحصل من تقلصٍ للأوعية الدموية في الأمعاء، والأحشاء الأخرى، أو اتساع الأوعية الدموية في الأطراف.

والحالات الانفعالية التي تتحدّث عنها الآيات القرآنية كثيرة، ومنها نماذج فردية أو جماعية لما يكون عليه الناس في هذه الدنيا، ونماذج أخرى عمّا يكون عليه فئات منهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.. ومن تلك النماذج في الحياة الدنيا:

الكافرُ الذي يقلّب كفّيه حسرة

كثيراً ما يُلاحظُ أنَّ التعبير عن الانفعال يكون بحركات اليدين، وقد أشار القرآن الكريمُ إلى هذا الأمر بـ (تقلُّب الكفين) دلالة على الندم. يقول الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[1].

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

فهذه الآية الكريمة قد وردت في سياق المثل الذي ضربه الله تعالى لرجلين:

أحدُهما يحسن الظنَّ بربّه عزَّ وجلَّ، فيرى أنَّ كلَّ ما أوتيه في حياته كان فضلاً منه سبحانه؛ والآخر كان كافراً، يتوهَّمُ أنَّ جهودَه وحدَها هي التي جعلته يملك بستانين عظيمين، تملأهما الأشجار المثمرة، والزروع النضرة.

وتدور حكاية هذين الرجلين وهما يطوفان في أرجاء البستانين اللذين يملكهما الكافر وقد راح بكل إعجابٍ وخُيَلاءٍ، يتشوَّف على صاحبه وهو يغلو في وصفهما، حتى وصَلَ به الوهم لأن يقول لصاحبه: ما أظنُّ أن تبيدَ وتهلك هذه الجنائن، وهي على هذا الزهو والعطاء.

إلَّا أنَّ صاحبَهُ شاءَ أن يحذّره من مغبة ادّعائه، فقال له: أكفرتَ بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفةٍ، ثم سوّاك رجلاً قادراً على أن تعملَ، وتنشئ من الجنائن ما تشاء؟! لا يا صاحبي، لا يغُرَّنَّك كفرُك بالله تعالى، ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله لا قوة إلَّا بالله، فهو الذي شاءَ أن يعطيك فأعطاك، لأنَّهُ وحده القويُّ القدير، الذي يهبُ القدرة والرزق، لمن يشاء، وكيفما شاء، ولو شاءَ لحرمك، فيرسل على هذه الثمار والزروع صواعق فتبيدها، أو يفور ماؤها، فيذهب إلى غير رجعة!

وكما كانَ مقدراً، فقد أرسلَ الله تعالى الصواعق فأحرقت كلَّ ما في الجنّتين نتيجة لكفر صاحبهما بالله تعالى، فلما عادَ في الصباح ورأى ما صار عليه من الاندثار أخذته الحسرة، وأكله الندمُ على ضياع

جهوده، حتى باتت أرضه ملساء كأنها لم تُغْنَ بالأمس، وكان تعبيره عن ذلك بأنْ راح يقلّب كفيه، وهو يتلوَّم على نفسه، ويقول: «يا ليتني لم أشرك بربي أحداً».

زيغان أبصار المؤمنين وانتفاخ قلوبهم من شدة الخوف

لقد شاءت قريش أنْ تغزو المدينة، فأعدَّت لذلك العدة، وخرجت بالقبائل والعشائر وغايتها استئصال شأفة المسلمين، والقضاء على الإسلام وأهله.

ويصوّر القرآن الكريم حالة المؤمنين، في تلك الغزوة التي سميت (غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب) وما اعتراهم من الخوف الشديد حتى زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبُهم الحناجر؛ يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

إذ من الثابت في علم الطب التشريحي أنَّ القلب يقع تحت القصبة الهوائية بحوالى سنتيمتر واحد ونصف سنتيمتر، وأنَّهُ في حالة التأثّر والانفعال يزداد خفقانه، وتتسارع ضرباتُهُ بما يجعل الدم يتدفق بكمية أكبر إليه، حتى يمتلئ، فينتفخ؛ ويكبر حجمه حتى يكادَ يلامِسُ القصبة الهوائية، وقد يدخل فيها قليلاً حتى ليسدَّ مجاري التنفس فلا يعود الهواء يسري ما بين الحلق والرئتين بشكل طبيعي، وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠ و١١.

وبالفعل فقد جاءت أحزاب المشركين تضرب حصاراً على المسلمين بطوقٍ من جيشها، كان يحيط بهم من فوق مواقعهم خلف الخندق، ومن أسفلها، بما لا قبلَ لهم على مواجهته، ومن شدة الخوف على دينهم ومدينتهم أثناء تحرك ذلك الجيش نحوهم، كان ذلك التأثر الشديد الذي جعل أبصارهم تزوغ فكأنها لا تُبصر ولا ترى، وقلوبهم تنتفخ حتى تبلغ الحناجر، فكأنها تكاد تتوقف لعدم إمداد الدماء فيها بالأوكسيجين.. وهذا الابتلاء الذي ابتلي فيه المسلمون في تلك الغزوة، كان بمثابة عاصفة عاتيةٍ من الانفعالات التي هبّت على نفوسهم، حتى جعلتهم في حالةٍ من زلزالٍ شديد..

القشعريرة في الأبدان

ليس أحدٌ منّا، إلّا ويحسُّ في حالة التأثر الشديد بشيء من الرجفة التي تصيب أطرافه، ولا سيما يداه، وركبتاه، أو بالقشعريرة التي تنتاب جسمَهُ كلّهُ كما هي الحال عند سماع خبر محزن، أو رؤية مشهد مؤلم أو كما هي حال المؤمنين عندما يتذكّرون وعيدَ الله (تعالى) الذي يحمل العقاب الشديد، إذ تأخذهم الرّعدةُ، وتقشعرُّ جلودهم من خشية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وذلك لأنَّ الخشية تأتي من الخوف الشديد الذي يشوبُهُ تعظيم؛ وتعظيم المؤمنين لله في عليائه، يتفاعل في نفوسهم بتلك الخشية التي تنعكس على أبدانهم، وبخاصة على جلودهم، باعتبار أنَّ الجلد، فوق أنه يغطي الجسم كله، فإنه أكثر شيء حساسية في تكوين هذا الجسم، لأنه يعكس التأثرات الداخلية والخارجية، بل ولعلَّه يُعَدُّ مركز الإحساس للألم، كما يدلُّ عليه قوله

تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[١]، وتبديل الجلود إنما يعني أن تكون فاعلية الألم مستمرة في العذاب الذي أوقع فيه الكافرون أنفسهم؛ في حين أنَّ المؤمنين يكونون بمنأى عن هذا العذاب، وذلك الألم، لأنَّ جلودهم كانت تقشعر وهم في الحياة الدنيا لمجرد تذكرهم عذاب الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[٢]، لأنَّ حديث ربهم هو أحسن وأصدَق الحديث الذي يأخذون منه العظات البالغة، عندما يستمعون إلى تكرار أخبار الأمم الغابرة التي أهلكت، لأنها لم تصدّق الأنبياء والمرسلين، ولم تكن تخشى الله بسبب إصرارها على الكفر والشرك.. كما تقشعر جلودهم عند الإنصات للقرآن المجيد وهم يستمعون إلى الآيات التي تتحدث عن عظمة الله تعالى، وجبروته، وعزته وكبريائه التي لو أنزلت على جبلٍ لخشع وتصدع من خشية الله، لقوله جلت عظمته: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٣].

هذا عن بعض الانفعالات التي تحصل للناس في الدنيا.. أما في الآخرة فالأمر أشدُّ وأدهى، ومن قبيل ذلك:

شخوص الأبصار يومَ القيامة

يقال: شَخَصَ من بلدِهِ: إذا نفذَ وسارَ في ارتفاع؛ وشَخَصَ بصرُهُ: إذا فَتَحَ عينيه وجَعَلَ لا يطرف.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(١).

... فقد يسرح الظالمون في هذه الدنيا ويمرحون، وقد يتجبَّرون، ويستكبرون، ويتمَلَّكون ويُمَلِّكُونَ!.. وهم في غفلةٍ عمَّا ينتظرهم!.. ولكن هل تَحسبُ الله ـ جلَّ جلالُهُ ـ غافلاً عمَّا يعمل هؤلاء الظالمون؟ أبداً.. وحاشا للَّه سبحانَه أنْ يغفل، إنَّما يؤخّرهم ليوم القيامة، ليوم الفزع الأكبر، حيث يكونون في حالةٍ من الرهبة والهلع ـ كما يصوّرهم التعبير القرآني ـ تجعلهم يسرعون إلى الحشر، وعيونهم مفتوحة، متسعة الحدقات، حتى لا تعود تقوى على الإغماض وهم مسرعون إلى الحشر، رافعي رؤوسهم، وأبصارهم شاخصة نحو الأعلى فلا تطرف، كأنَّما أصابَ جفونَها الجمودُ لما يلازمها من النظر إلى ما تقع عليه من هول المشهد. أما أفئدتهم فهي خواءٌ إلاَّ مما يتأجج فيها من مشاعر الرعب التي تملأُها، كما يملأُ الهواءُ الإناءَ الأجوف!.. وفي موضع آخر من القرآن الكريم، تبرز نفس الصورة لخشوع الأبصار، مع ما يصاحبها من الذل والإرهاق؛ يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(٢).

تغيّر ملامح الوجوه يوم القيامة

يقول الله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾(٣).

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢ و٤٣.
(٢) سورة المعارج، الآيتان: ٤٣ و٤٤.
(٣) سورة عبس، الآيات: ٤٠ ـ ٤٢.

فالغبرة ـ معروفة ـ هي الغبارُ المثار. والقَتَرة هي من الكَدَرَة، أي من الطين الذي يعلوه طحلب ومَدَر؛ والكُدْرَة من الألوان ما يشوبه السواد.

والمعنى أن وجوه الكفار الفاجرين إنَّما يغشاها سوادٌ قاتمٌ يومَ القيامة بسبب ما يشعرون به من الخزي والمذلة والهوان، فكأنَّما طليت وجوههم بطين كدرٍ، تعلوه غبرة داكنة حتى صارت على تلك الحالة من السواد.. وهذا ما يوحي بشدة المعاناة، والقهر، والعسر الذي يصيبهم يومئذٍ، فانعكس ذلك الإرهاقُ الذي لا يطيقونه على وجوههم.. ويُلاحظُ أنَّ البيانَ القرآني قد وصفهم بأنهم «هم الكفرة الفجرة»، أي الذين جمعوا ما بين الكفر والفجور، بمعنى أنَّهم لم يكتفوا بكفرهم في الحياة الدنيا، بل أضافوا إليه الفجور الذي فيه تمزيق الدين، وتسخير كل شيء لأهوائهم ومطامعهم .. ونحن متى علمنا ذلك أدركنا ما للتعاليم التلمودية، والتعاليم التوراتية المبتدعة ـ وليس كما أُنزلت في صحف موسى عليه السلام ـ من تأثير على عقول الذين اتخذوها عقيدة دينية، توحي إليهم أنَّهم هم أسيادُ العالم، وأنَّهم مخوَّلون بأنْ يقدّموا للأمم والشعوب الأفكارَ والمبادئ والنظمَ التي يريدون، وما على العالم ـ بكل أممه وشعوبه ـ إلّا الرضوخ، والقبول بما يقدّمونه، وإلّا كان الذين خرجوا على تلك الطاعة «إرهابيين، وعلى العالم ـ بأسره ـ أن يسحقَهم!!»... وهذا تماماً ما تقوم به الولايات المتحدة الأميركية اليوم، بسبب ما يتحفُ به المحافظون الجدد إدارتها من النظريات، والمبادئ التي تجعلُ الناسَ ـ جميعاً ـ عبيداً للفكر الصهيوني العالمي، الذي يجري تنفيذه على أرض الواقع بسياسة الخداع، والكذب، وإلّا فقوة السلاح، وأقربُ الأمثلة في

حاضرنا: أفغانستان، فلسطين، العراق، لبنان، وما يجرُّه بسببه الصهاينة والأميركيون والإنجليز على شعوب هذه البلدان من النكبات والويلات.

ومن الأمثلة كذلك على الانفعالات التي تصاحب النفس البشرية:

- انفعال الضحك والبكاء.
- انفعال الغضب.
- انفعال الحب.

١ ـ انفعال الضحك والبكاء

الضحك انبساط في الوجه مصحوب بزفير متقطع، وصوت مسموع، ناجم عن سرور في النفس. ومنه: القهقهة، وهي ضَحِكٌ تبدو معه النواجذ، ولذا سميت مقدمات الأسنان الضواحك. ومنه التبسُّمُ: وهو ضحك بلا صوت. ويستعار الضحك للسخرية فيقال: ضحكتُ منه. والضُّحَكة عندما تضحك من الناس بسخرية أو هزء، بينما الضُّحْكة عندما يضحك الناسُ عليه ويسخرون منه. قال تعالى: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[1]. والأضحوكة كل ما يُضحَكُ منه.

والضحك ضده البكاء، فكما ينجم الضحك عن السرور، فالبكاء ينجم عن الحزن، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[2]، أي أوجد سبب الضحك من السرور، وسبب البكاء من الحزن. والله تعالى موجد الأسباب حقاً، ولكن مباشرة الضحك

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٠.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤٣.

والبكاء تكون بفعل إرادي من الإنسان.. كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[1] أو قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾[2] أي إنه ـ سبحانه ـ نسب الضحك إليهم... ويأتي الضحك بتفتح أسارير الوجه عن سرور، وعجب في القلب، فإذا أصاب الإنسانَ منه ما لا يمكنه دفعه، فهو من الله تعالى.

أمَّا البكاء الذي يصحبه عادةً جريانُ الدمع من العيون، فيكون سببُه غمّاً في القلب، وقد يكون عن فرحٍ يمازجه تأثرٌ بأمرٍ معينٍ، فكأنه عن رقّةٍ في القلب.

وهكذا نجد أنَّ الله سبحانه وتعالى أودع في تكوين هذا الإنسان خاصيَّةَ الضحك، وخاصيَّةَ البكاء، وهما من أسرار التكوين البشري، فلا يدري أحد ماهيتهما، ولا كيف يقعان في هذا الجهاز النفساني المعقد، الذي لا يقلّ تركيبه وتعقيده النفسيعن تركيبه وتعقيده العضوي، والذي تتداخل المؤثرات النفسية، والمؤثرات العضوية فيه، وتتفاعل لإحداث الضحك أو إحداث البكاء. وكل ما يتبدَّى من هاتين الخاصيتين هو مظاهر لحالات نفسية وعضوية ناتجة من تفاعل المؤثرات في الكائن البشري.

٢ ـ انفعال الغضب

إنَّ الغضب يُعَدُّ من العاهات النفسية، لأنه يعطّل الفكر، ويفقده القدرة على إصدار الحكم الصحيح، أو تقدير النتائج التي تؤدي إليها ردَّةُ الفعل الغضبية، وهذا ما يورث الشر، في معظم الأحيان.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥٩ و٦٠.

والخطر الناجم عن الغضب يجب تلافيه بالتحكم في انفعالاتنا أثناء الغضب. لأنَّ من شأن هذا التحكم أنْ يعيد إلى الإنسان وعيه، ويجعله قادراً على التفكير السليم، فلا يتورّط في قول أو فعل قد يندم عليه في ما بعد، كما أنَّ من شأنه أنْ يحفظ توازن الجسد، فلا يتابه التوتر الذي ينتج من زيادة الطاقة الحيوية نتيجة لإفرازات الكبد كمية أكبر من السكر. وبالسيطرة على التوتر الناجم عن الغضب لا يندفع الإنسان إلى أعمال عدوانية كالأذى المعنوي والمادي الذي يصيبُ به الغضبانُ غيرَهُ... ثم إنَّ عدم مواجهة الغير بعمل عدواني، بل التصرّف معه بهدوء واتزان قد يذهب بالبغضاء والمشاحنة، ويورث الصداقة والمحبة بين الناس، كما يوجّهنا إلى ذلك قول ربنا تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2].

ولعلَّ أهم السبل التي نقدر بها على التحكم بأنفسنا في حالة الغضب هو كظم الغيظ؛ يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] فالغيظ هو أشدُّ الغضب، ويقال له: «سَوْرة الغضب» التي تأتي من حرارة فوران الدم في القلب. أما كظم الغيظ فهو حبسه؛

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٧.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٣ و١٣٤.

وقد وصف الله تعالى هؤلاء ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ بأنهم من المتقين. كما ورد في الحديث الشريف أنَّه: «إذا أوقف العباد نادى منادٍ: ليقم مَنْ كانَ أجرُهُ على الله وليدخلِ الجنةَ، قيل: من ذا الذي أجرهُ على الله؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوا الجنةَ بغيرِ حساب»[1].

٣ ـ انفعال الحب

قد يكون من حسن التذكير أنَّ الإنسان كلما امتلأ قلبه بالحب غنيت حالاته النفسية، وحياته الاجتماعية، بالراحة والاطمئنان، لأنَّ هذا الحبّ هو الذي يجعله يشيع في ما حولَهُ الأنس، والطيبة، ولذة العيش والسرور.. ويبيّن القرآنُ الكريم أنَّ الإنسان اكثر ما يحب من الناس: الآباء والأبناء، والأخوة، والأزواج، والأقرباء من أبناء العائلة في النسب، والأصدقاء. كما أنَّ أكثر ما يحبُّ من الأشياء: الأموال التي يجنيها، والتجارة التي يديرها، والمساكن التي يشيدها.. وذلك كما نفهم من قول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[2]. ولكنَّ هذه النصوص تحذرنا من الإفراط في حبّنا، إنْ كان للبشر من ذوي القربى، وإنْ كان للأشياء التي نملك، لأنَّ مثل هذا الإفراط قد يجعلها

(١) كنز العمال، حديث رقم ٧٠٠٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

أحبَّ إلينا من الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله، وهذا مدعاةٌ لغضب الله، يأتي الوعيدُ الذي قد يعقبه أمره تعالى بالعذاب الذي ينزله بنا. . بل قد يكون في الحب لتلك الشهوات ما يصرف عن طاعة الله تعالى، أو العمل بما يرضيه. فنقع في المحظور الكبير، الذي يدخلنا في فئة الفاسقين ـ لا سمح الله ـ فلا نهتدي بعدَه أبداً. .

السيطرة على الانفعالات

ولقد بات معروفاً أنَّ الانفعالات، قد تساعد الإنسان في المحافظة على حياته، وحياة الآخرين من بني جنسه؛ إلَّا أنَّ شدة الانفعالات وكثرتها قد تسبب للإنسان أضراراً نفسية وفيزيولوجية متنوعة. . وقد أثبتت الدراسات الحديثة في الطب النفساني أنَّ نشوء كثير من الأعراض الجسدية إنما يكون ناجماً عن اضطرابات نفسية. وقد يتردد كثيرون على العيادات وهم يشكون من بعض الأمراض، فيكتشف الأطباء أنَّ العلاجات الطبية لا تفيدهم، لأنهم يعانون من عوارض نفسية قد تسببها في الغالب المشكلات التي تواجههم في حياتهم.

ويحرص القرآن الكريم على توجيه الناس إلى السيطرة على انفعالاتهم في كل ما قد يقع أو يحصل معهم لما فيه من فوائد جمة لهم؛ وتكون السيطرة على الانفعالات سواء في الفرح أو الحزن، في الجرأة أو الخوف، أو في الحب للأبناء والأموال، وما إلى ذلك. . . حتى يبقى الإنسان في حالة توازن نفسي، فلا يندفع وراء انفعالاته التي قد تقوده إلى التهوّر ويحصل ما لا تحمد عقباه. ولذلك فإن المؤمن

الصادق غالباً ما يسيطر على الانفعالات الضارة التي قد تعتريه، فهو مثلاً يكظم غيظه بحيث لا يصبُّ جام غضبه على من أساء إليه؛ ولكنه يغضب لله تعالى، أي لكلِّ ما يغضب المؤمنين، لأنَّه جلَّ وعلا إنَّما يغضب لغضب أوليائه، وعباده الصالحين، وسبيله إلى ذلك القرآن المجيد والسنة النبوية الشريفة، حيث لا يجد المعالجات اللازمة في حالات الانفعال وحسب، بل لكل ما يثير الاضطرابات ويسبب الأمراض النفسية، وإلّا عاش الإنسان في القلق والضياع.

البحث الثاني

العقد النفسية

لقد درج علماء النفس على تسمية «مصادر ومسببات الانفعالات الشعورية، والتصرفات السلوكية المرضية بالعقد النفسية».

ونحن في مقاربتنا لمعرفة العقد النفسية، نعيد التوكيد والتكرار، أنَّ حياة الإنسان لا تستوي إلّا بالاعتدال في المشاعر والميول والنزعات، لأنَّ هذا الاعتدال يؤدي إلى التوازن في النفس، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجسد، فإنَّ صحته رهنٌ بالاعتدال في إشباع الحاجات العضوية والغرائز، فإنْ فقد الاعتدال الذي هو من مستلزمات السلامة النفسية والجسدية، أدّى ذلك إلى الكبت، والقلق والاضطراب، وربما الشذوذ في التصرف والسلوك، وهو ما يُعَدُّ خللاً يورّث العقد النفسية.

وقد ورد في القرآن المبين بعض الآيات التي تشير إلى كثير من العقد النفسية بكلمات: العقبة، الشهوات، الطاغوت، الأرباب، الأهواء، التي سوف نحاول تلمسها من خلال النصوص القرآنية، ومن قبيل ذلك:

يقول الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1].

والرقبة هي العضو في الجسم ما بين الكتفين والرأس؛ والرقبة ـ في التعارف ـ اسم للعبد، ولكنَّ بُعدَها ـ من حيث اللفظ والمعنى ـ يمتد ليشمل الأسير، والخادم، والسجين، والعامل والمستخدم في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، كما نستدلُّ على ذلك من قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[2]؛ إذْ لفظة ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ تشمل مع العبد المملوك، كلَّ مَنْ ملكتَ أمرَهُ، وكان خاضعاً لك لسبب من الأسباب، لأنَّ هذا الخضوع يجعلك تتحكَّمُ برقبته.

وعلى هذا فالغنيُّ الذي يرى من حوله المجاعة تحيط بالناس، ولا يقدم على إطعام جائع، حتى ولو كان يتيماً من أقاربه، أو لا يلتفت إلى هؤلاء المساكين، والفقراء، أو ذوي الحاجات والمتسوّلين المدقعين، بل ويمتنع عن مساعدة مسافرٍ إذا انقطع في غربةٍ عن بلاده، مثل هذا الغني لا بدَّ أن يكون امتناعه عن تقديم يد العون للآخرين ناشئاً عن بخلٍ، أو عن عدم الرغبة في إقحام نفسه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى من يرى مظلوماً ولا يسعى إلى عتقه من ظلمه وهو قادر على ذلك، أو من لا يفكّ عقدة محتاج وهو قادر على قضاء حاجته.. فالظلم والحاجة والفقر واليتم، والجوع وما يماثل ذلك من المعاني، يعبّر عنها القرآنُ بلفظة «العقبة» التي لا يقتحمها الإنسان القادر على

(١) سورة البلد، الآيات: ١١ ـ ١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

اجتيازها، لعلّةٍ نفسيةٍ لديه، وهذه العلّة هي التي يسمّيها علم النفس «عقدة نفسية».

عقدة حب الشهوة

يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1]. ولقد تحدثنا عن مضامين معاني هذه الآية من قبل، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنَّ الناس الذين زُيِّن لهم حبُّ الشهوات بحيث صار جلُّ اهتمامهم مثلاً اللذة الجنسية، أو تكاثر البنين، أو تكديس الثروات، أو اقتناء الخيول وغيرها من الأنعام، أو تملك العقارات والدور والقصور والمزارع والحدائق.. فإنَّ حبَّ أي شهوةٍ من هذه الشهوات هو بحد ذاته عقدة نفسية، نظراً لتعلق النفس بالشهوة، التي قد تصل لدى البعض إلى حد الهوس، والميل للاستمتاع بها إلى أقصى حدٍّ ممكن.. أضف إلى ذلك أنَّ الخلل الذي قد يطرأ على الشعور بالمتعة، من شأنه أنْ يولّد عقدة نفسية أخرى قد تكون أشدَّ من العقدة الأولى، فمثلاً إذا أصيبت زوجة الرجل أو أحد أبنائه بمرضٍ، وطالت مدة العلاج، فقد يجعله ذلك يكره الأطباءَ والمستشفيات، بحيث تصبح هذه الكراهية عقدةً لديه؛ أو إذا خسر أحدهم مالاً في التجارة فإنَّ هذه الخسارة قد تورث في نفسه الألم، والحزن، والقلق وغيرها من المشاعر التي تتحوَّل مع الوقت إلى عقدة خوف من المتاجرة؛ وقس على ذلك سائر المتع الدنيوية التي تتحكّم في نفس الإنسان، فقد

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

يتحوَّل عدمُ إشباعها وفقاً لما يريد المشتهي، إلى عقدةٍ في نفسه، قد تربكه، وتضنيه. .

عقدة التقديس

يقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(1).

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(2).

ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(3).

قد يكون الضياع بين تيارات المعتقدات المتعددة من أهم العوامل التي تدفع الفكر إلى التخبُّط، والسير على غير هدى أو صراطٍ مستقيم. . وهو ما يجعل وحدة العقيدة أو المبدأ أكثر ضماناً لإبعاد الفكر عن ذلك التخبّط، ومن هنا وجوب اعتناق عقيدة التوحيد التي تقوم على الإيمان بوحدانية الله تعالى، والتصديق الجازم بملائكته، وكتبه ورسله. . ومن هذه العقيدة تنطلق جميع التصورات والأفكار والمشاعر والأحاسيس في نظرة الإنسان إلى صنوه الإنسان، وإلى الحياةِ والكون. . ولكنَّ الناس تاهوا بين عقيدة التوحيد والمعتقدات

---

(1) سورة التوبة، الآية: 31.

(2) سورة النساء، الآية: 60.

(3) سورة النساء، الآية: 76.

الأخرى فعبدوا الكواكب، والنار، والأوثان، وما إلى ذلك من الأرباب المتفرقة من دون الله تعالى، بينما في الحقيقة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

واليوم، وفي خضم هذه الصراعات على مطالب الدنيا ـ ونسيان الآخرة ـ فقد صار ضياع الناس أشدَّ مما كان عليه من قبل، حيث طغت الأهواء، فتحولت الأنفسُ إلى حب المال، والشهرة، والشهوات الحرام؛ فكان لا بدَّ أنْ يؤدي ذلك إلى اعتناق العقائد الفاسدة التي تدعو إلى عبادة الشيطان، من دون عبادة الرحمن، أو غيرها من العبادات المزيفة، ولا سيما تلك التي تُغري الشبابَ غيرَ المتديّن بما يؤمِّن له أصحاب تلك الدعوات من سبل للمتع، والعبث والشهوات. . وكان لا بدَّ أن ينشأ الصراعُ في الأنفس، وأنْ يتولَّد عن هذا الصراع ما يمكن أنْ نسميه «عقدة التقديس» لأنَّ فطرة الإنسان تدفعه، وتقوي ميوله إلى عبادة الله خالقه، ومولاه، ومالك أمره، فإذا خالف هذا الميل الفطري، وانساق وراء أيٍّ من التصورات أو التعاليم أو الأفكار الفاسدة، صارت الأهواء هي «المقدسات» التي تجرُّ الناس إلى الكفر، والإلحاد، والشرك، بل وإلى الفسوق، والمجون، والفجور، والظلم. . وكلُّ ذلك من شأنه أن يؤدي إلى ظهور الفساد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[1]، وهذا الفسادُ هو وراء الشرّ، بكل مظاهره وأشكاله التي تقضي على عوامل التسامح، والمحبة، والتراحم، والتعاون بين الناس وحب الخير واتباع الحق في التعامل.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

أجل، إنَّ الإنسان ـ شاءَ أو أبى، علم أو لم يعلم ـ يعيش في صراعٍ داخليٍّ مريرٍ بسبب انحرافه عن عقيدة التوحيد، لذلك كانت دعوتنا له بأنْ يعيد النظر في كل ما يجري من حوله، ويسأل عن الأسباب التي تكمن وراء ما يرى من الفساد والشرّ في كل أنحاء العالم، ثم ليتفكّر: هل من خالق إلاَّ الله؟ هل من إلهٍ إلَّا الله؟ ثم ليسألْ نفسَهُ من جديد، وليسألْ كلَّ من يثق به من أهل العلم والفكر، ما معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾(١).

ثم نقول له: إنَّ سبيلك للهدى ـ أيُّها الإنسان ـ إنما هو قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

أجل إنَّ الكفر بالشيطان وأتباعه، والإيمان بالله تعالى فيه شفاء للإنسان من العقد النفسية، ومن كافة الأمراض التي قد تعتري نفسه، والتي غالباً ما تحصل من «طغيان الأهواء والمخاوف على العقل وسيطرتها عليه»، ولذلك عرَّف البعض العقدة النفسية بأنَّها: «جملة من التصورات أو الانفعالات المكبوتة الناشئة عن حالات صراعية ذات شحنةٍ وجدانيةٍ كبيرةٍ، وهي تؤثر في تفكير الشخص وتطبع سلوكه

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

بطابع الانحراف والشذوذ». ونعطي مثلاً على العقد النفسية ـ على كثرتها ـ عقدة النقص أو مركب النقص.

وهذه العقدة، أي عقدة النقص «هي حالة انفعالية تسيطر على المرء من جراء شعوره بقصورٍ حقيقي أو وهمي، وهي تحمله في كثير من الأحيان على كبت عواطفه، فتوقعه في عصاب (مرض) تختلف شدته باختلاف الظروف المحيطة به والوسائل المتوافرة لديه. ولذلك هي عبارة عن مجموعة من التصورات والأوهام والوجدانات الشعورية تؤثر في تفكير وسلوك المصابين، وأكثرهم من الأطفال، وتطبعهم بطابع الانحراف والشذوذ».

وقد ذهب كثير من أصحاب مدارس التحليل النفسي، ومن أتباع «فرويد» بالذات، إلى القول بأنَّ العقد النفسية هي «عقد لا شعورية»، أي إنها مجهولة، ومدفونة في أعماق النفس، ولا يدركها المريض لطغيانها عليه، واستبدادها به، وتسيير سلوكه بما لا يقدر على لجمه، أو مخالفته.

والحقيقة أنَّ ما يجب أن ينصبَّ الاهتمام عليه هو معرفة كيفية معالجة المصابين بالعقد النفسية، لا إذا كانوا يعرفون أو يجهلون تلك العقد لديهم، وأول السبل لذلك معرفة الأسباب الكامنة وراء هذه الأمراض النفسية، وفي رأينا أَنَّ عدم معرفة الأصول التربوية الصحيحة، وعدم اتباع الأساليب والمناهج التي تتوافق وتلك الأصول، سواء في البيت، أو في المدرسة، وعدم قيام علاقات مجتمعية وفق القيم الخلقية والمثل النبيلة، وعدم اتباع التعاليم السماوية الحقة، كل ذلك يُعَدّ من أهم مسببات العقد النفسية، كما

سيتضح لنا ذلك عند البحث في أهم العقد النفسية التي تجعل الإنسان قلقاً، مضطرباً!

والنفس تعيش في صراع شبه دائم بين العقد التي تتحكم فيها ومحاولاتها للتخلص منها، فإن نجحت في ذلك، فمعناه أنها استقوت على ما يقلقها، وانتصرت عليه، وإن فشلت فقد تتخفّى العقد النفسية تحت ظواهر وعوارض مرضية، وتتحول عندها العقدة إلى نقيضها من خلال ما يسميه البعض «عملية التعويض»، كتحول عقدة الحرمان المادي إلى عقدة الجشع أو الطمع، أو البخل؛ وعقدة الضعف إلى عقدة الكبرياء؛ وعقدة الحرمان العاطفي إلى عقدة الرغبة في الإيذاء والشراسة.. وقد تتداخل العقد النفسية مع بعضها، فتكون العقدة ونقيضها في النفس الواحدة مما يسمى «ازدواجية الشعور والتصرف» وهذا ما تكون عليه نفوس أغلب الناس المرضى والأصحاء، وإن كان الفرق في درجة المغالاة والشدة والاضطراب التي تكون أقوى عند المريض نفسانياً.

ولقد أثبتت كل الدراسات في علم النفس أنَّ الناس أشقياء، تعساء، قلقون في كل المجتمعات، باستثناء مَنْ يتبّعون تعاليم الرسالات السماوية الحقة، ويلتزمون بطاعة الله تعالى، والعمل بأوامره ونواهيه، وإن «مقياس الصحة النفسية المتعارف عليه عالمياً بين علماء النفس هو درجة سعادة الفرد وطمأنينته وسكينته». وبقدر ما يلتزم الإنسان بتعاليم الله الحقة، بقدر ما يطمئن ويسعد، وبقدر ما يبتعد عنها، يقلق ويشقى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1]، وقوله

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٣.

تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. نعم، إنَّ من اتّبع هدى الله تعالى فهو في أمان من الضلال والشقاء. وهذا يعني أنَّ الشقاء هو ثمرة الضلال، ولو كان الضالُّ عن هدى الله غارقاً في المتع واللذائذ، إذ لا بُدَّ أن تنقلب المتعة أو اللَّذة تعاسةً على نفسه، أو رعشة عذاب، وخاصة إذا كانت المتعة حراماً، لأنه ما من متاع حرام إلا وله غصّة تعقبه.. أما المتاع الحلال فهو مشتهى المؤمن، بما يوفّر له من الطيبات التي تألفُها نفسُهُ فتريحها...

والإنسان عندما يضلُّ عن هدى الله تعالى، فلسوف يتخبط ـ لا محالة ـ في القلق والحيرة، والتعاسة، والاضطراب، والمرض، والاندفاع من حالة إلى حالة لا يستقر فيها على شيء، ولا يتوازن في أي وضع، فالشقاء قرين التخبّط والضياع، حتى ولو كان في المرتع المبهج. وتكون الشقوة الكبرى في الدار الآخرة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

أما من تبع هدى الله تعالى فهو من أتى الله بقلب سليم خالٍ من النفاق، والكفر، والشر، فهو آمنٌ في نفسه، مطمئن إلى ربه تعالى الذي يهديه، فلا يضلُّ ولا يشقى.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ مما قد يطغى على العبد من تصرفاتٍ غير سوية، أو من انفعالات مَرَضِيّة يكون مبعثها العقد النفسية، إذْ رُوي عنه ﷺ أنه قال: «بِئْسَ العبدُ عبدٌ تَخَيَّلَ واخْتَالَ ونَسِيَ الكبيرَ المُتَعالَ. بِئْسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واعْتَدَى ونَسِيَ الجبّارَ الأَعْلَى. بِئْسَ العبدُ عبدٌ سَهَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

وَلَهَا ونَسِيَ المَقَابِرَ والبِلَى. بِئْسَ العبدُ عبدٌ عَتَا ونَسِيَ المُبْتَدأَ والمُنْتَهَى. بِئْسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ[1] الدّينِ بالدُّنْيَا. بِئْسَ العبدُ عبدٌ طَمَعٌ يَقودُهُ. بِئْسَ العبدُ عبدٌ هَوىً يُضِلُّهُ. بِئْسَ العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُزِلُّهُ»[2].

ومن أبرز العقد النفسية التي يعاني منها الناس:

١ ـ عقدة الموت

قد يكون من المسلمات القول بأنّ في نفس كل بني آدم شعوراً بالخوف من الموت، قد يتحوَّل، إذا ما قوي في النفس، إلى عقدةٍ تؤرّق الإنسان.. ولذلك كان الحرص على حياته هو الذي يدفعه للاحتراز من كل ما قد يوقعه في الخطر أو الهلاك الذي يودي به إلى الموت؛ وكثيراً ما يحاول الإنسان الهربَ من هذا الشعور، بل ولعلَّه يجهد لأنْ يحيدَ عن كل ما يذكره بالموت أو مسبّباته حتى لا يفسد عليه حياته، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[3].

وليس الإنسان وحده الذي يجهد لأنْ يحيد عن الموت، بل والحيوان الأعجمي كذلك عنده غريزة البقاء، ولذلك تراه يستميت في الدفاع إذا ما هاجمه حيوانٌ آخر لافتراسه، أو إذا ما شَعَرَ بالخطر من أي مصدر جاء؛ ولكنَّ ذلك الخوف من الموت الذي يلازم الإنسان، إذا لم يجد سبيلاً لتلافيه، فقد تستبدُّ به فكرةُ الفناء حتى تصبح من أصعب وأشد العقد النفسية التي تسيطر على انفعالاته وتصرفاته، بل

---

(١) ختل: خدع.

(٢) رواه الطبراني والترمذي.

(٣) سورة ق، الآية: ١٩.

وقد تشكل المصدر الأول لأكثر العوارض النفسية العصابية والذهنية واضطرابات الشخصية لديه، لأنها ناجمة عن القلق الدائم على الحياة، فكان لا بد من إيمان قوي عند الإنسان للسيطرة على الخوف من الموت، وفقاً لما يهدي إليه القرآن الكريم عندما يبيّن لنا أنَّ هذه الحياة هي فانية، وأنَّ ما فيها من لهو ومتاعٍ هو إلى زوالٍ، بينما الحياة الآخرة هي حياة البقاء والخلود، وأنَّ الموت ليس إلا مرحلة ينتقل فيها الإنسان من دار الفناء إلى دار البقاء؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١). والمؤمنون الصادقون يعلمون أنَّ الموت آتٍ لا محالة لقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(٢)، ويعلمون أيضاً أنَّهُ حقٌّ على رقاب العباد، بل وهو حق يقينيٌّ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾(٣) فلا مفرَّ منه.. وهم كغيرهم من الناس يخافون من الموت، ولكنهم يختلفون عنهم بالأعمال الصالحة، لأنَّهم يرتقبون بعد الموت أنْ يُوفَّوا أجورهم التي وعدوا بها من الباري ـ عزّ وجلّ ـ تصديقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٤).

وتتفرع عن عقدة الموت عدة عقد نفسية أخرى، مثل: عقدة قصر العمر، وعقدة عذاب الموت، وعقدة عذاب القبر.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٩٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

أ ـ عقدة قصر العمر

معلومٌ أَنَّ العمر في هذه الحياة الدنيا محدود بفترة زمنية، طالت أو قصرت، والعاقل يعرف أنه ميّتٌ لا محالة، إنْ لم يكن اليوم، فغداً. ولكنَّ الشعور الذي يغلب على أكثر الناس هو الخوف من أنْ يدركهم الموت ولم يحققوا أمانيهم، ولم يستمتعوا بخَلاَقِهم، ولذلك تجدهم يتهافتون على هذه الدنيا والأطماع تسلب عقولهم، محاولين اجتناء خيرها لأنفسهم، والتمتع بشهواتها قدر ما يستطيعون؛ ومن حكمة القرآنِ أنَّه يصوّب أفكار الناس ومشاعرهم، فيدركون ـ ولاسيما المؤمنون ـ أنَّ الأعمار بيد الله تعالى، وقد قضى لكل واحدٍ من بني آدم أجلاً محدَّداً، لا ينقص ولا يزيد، وذلك منذ تخلّقه جنيناً في رحم أمه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2].

والتعمير يكون بطول الأجلِ وعدّ الأعوام، كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقاً مثمراً، وامتلائه بالمشاعر والأعمال والآثار التي ترضي الله تعالى. ونقص العمر ليس بقلة عدد السنين التي يعيشها الإنسان فقط، بل وأيضاً بنزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث والكسل والفراغ؛ فربَّ ساعة تعدل عمراً، ورُبَّ عام يمر خاوياً فارغاً لا اعتبار له في حساب الحياة، ولا وزن له عند الله تعالى.. فكل فرد من الناس له عمرُهُ وأجلُهُ كما هو مكتوب في اللوح

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

المحفوظ، ويتوهم كثيراً من يظن غير ذلك، أو من يفكر بأنَّ أي شيء يمكن أن يغيِّر في الأجل المحدد إلاَّ أنْ يشاء الله تعالى.

ب ـ عقدة العذاب عند الموت

ومن المفاهيم الشائعة عند الناس أنَّ ساعة الموت تكون مصحوبة بالعذاب، وأنَّ الإنسانَ يلاقي آلاماً حادةً عند خروج الروح من الجسد، فتنشأ في نفسه من جرّاء ذلك عقدة العذاب من الموت التي قد تصل إلى حد الرعب. ومن أجل تخفيف حدة هذه العقدة يفرق القرآن الكريم بين ما يلاقي المؤمنون عند موتهم، وما يلاقيه الظالمون والمجرمون في تلك الساعة، كما تدلنا على ذلك الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1]. إذاً فالعدل الإلٰهي لا يمكن أن يسوّي بين الذين ارتكبوا السيئات، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، بحيث تكون حياتهم ومماتهم سواءً لا اختلاف فيهما، فهذا حكم سيّىءٌ لمن ظن ذلك، لأنَّ لكلٍّ جزاءَه حتى في ساعة الموت، وقبل الدينونة، فأما الذين تداركتهم رحمةُ الله، فقد صدق فيهم قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الْعَظِيمِ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[2]. وإمَّا إنْ كان من المكذّبين الضالّين فقد حذَّره الله تعالى من مغبة أعماله وذلك بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ *

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٨٨ ـ ٩١.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[1]، أي إنَّ وليَّك في هذه الساعة أيها الإنسان الذي كذَّبت بدين الله، وتولّيت عن الإيمان هو ما كنت تكره من العذاب عند طلوع الروح وأنت تفارق هذه الحياة الدنيا، بل وهو أولى بك بعد البعث والحساب لما يحلّ بك في نار جهنم من عذابٍ مقيمٍ أين منه العذاب عند النزع الأخير. أما المؤمن فهو على يقينٍ بأنَّ ربه رؤوف رحيم، يتغمَّد من يشاء برحمته، إن في دنياه، أو ساعة طلوع روحه، أو في آخرته، فلا تحكمه بالتالي عقدة العذاب عند الموت حتى القهر، ولذلك يجد الظالم أو المجرم نفسه دائماً يخاف الموت وقد تتغلغل عقدة الموت في أعماقه حتى تؤرّقه، فلا يأوي إلى فراشه إلاّ ويخاف أنْ يأتي من ينتزع روحه منه، ولا يختلي بنفسه إلاّ وتهجم عليه هواجس الموت تبدّد راحته فلا يدري ماذا يفعل، ولولا انشغاله بالدنيا لأمات نفسَهُ غمّاً وكمداً، بل ولقضى على حياته بيده!..

ولا سبيل للشفاء من عقدة عذاب الموت إلا بالتوبة النصوح والإخلاص لله تعالى في النية والعمل، وهذه فرصة للإنسان حتى يزيح عن كاهله عبء المظالم والجرائم التي يكون قد ارتكبها وهو سادر، ساهٍ عن عدالة الله تعالى، وعن قهره وجبروته، إذ عندما يتوب إلى ربه، يصبح لديه رجاءٌ بالعفو والمغفرة.

جـ ـ عقدة القبر

ومن العقد النفسية التي قد تؤرّق الإنسان أيضاً خوفه من القبر، حتى إننا لنجد بين الناس من يخاف الذهاب إلى المدافن أو المرور

---

(1) سورة القيامة، الآيات: ٢٦ ـ ٣٥.

بقربها ليلاً. ويعزو علماء النفس هذا الخوف إلى رهاب الظلمة، فلا يطيقون الدخول إلى الأماكن المغلقة والدهاليز المظلمة، ولعلَّ هذا ما يفسّرُ خوفَهم الدفين من القبر، ولا سيما عندما يفكرون في أنهم سوف يوضعون في هذه الحفرة تحت التراب، أو في هذه الغرفة المظلمة التي تتكدَّس النعوش فيها؛ ويزداد هذا الخوف عند الذين يؤمنون بفكرة عودة الروح إلى الميت، ساعة يدخلونَهُ في قبره، إذ يبعث الله ملائكة إليه يجرون معه جردة حساب سريعة عمَّا قدَّم في دنياه، ثم تنتقل نفسه بعدها إلى عالم البرزخ، حيث تبقى إلى يوم القيامة، يوم ينشئه الله تعالى النشأة الثانية، ليخرج إلى الحساب.

وقد ذهب أنصار التحليل النفسي إلى القول بإمكانية الوصول إلى نتائج إيجابية في معالجة عصاب الخوف من الأماكن المقفلة، بمواجهة المريض تدريجاً بما يخيفه، علماً بأنَّ «فرويد» نفسه، واضع أسس التحليل النفسي، كان مصاباً بهذا الرهاب ولم يشفِ نفسه منه!.. ما يعني أنَّ المعالجات التي يقومون بها تبقى وقتية، ولا تنتزع من نفس المريض عقدة الخوف من القبر بصورة نهائية. ولا يشفي من هذه العقدة إلاَّ الإِيمان القويّ في النفس بوعد الله تعالى الذي تبرزه الآية المباركة بقوله الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

ويبيِّن هذه الحقيقة القرآنية قولُ رسول الله ﷺ: «إنَّما القبرُ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنةِ أو حُفرةٌ مِنْ حُفَرِ النار»[2].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، المجلد ٢٠، ص٢.

والمعنى أنَّ الإنسانَ الذي آمن بالله تعالى، يكون واثقاً من وعده، لأنَّه سبحانه لا يخلف الميعاد؛ ووعدُهُ الذي يبشّر به عباده المؤمنين بالجنة ـ كما تبيّنه الآية الكريمة ـ سوف يكون محققاً حكماً، إذْ ساعة احتضاره تتنزَّلُ عليه ملائكة الرحمة، فيرى ـ بأمر الله ـ الملائكة أمامَهُ حقيقة يقينية، ماثلة أمام عينيه. وهم يقولون له بألّا يخاف من الموت، لأنَّه انتقال من حياة مليئة بالهموم، والآلام، والمشقات إلى حياة مختلفة تماماً سوف يلقاها في الجنة، وألّا يحزن، إذا ما كان في نفسه شيءٌ من أمور الدنيا على ما خلَّف وراءه من ولدٍ أو أهلٍ، لأنَّ ربَّهُ سوف يتكفّل بهم، ويهديهم إلى سواء السبيل؛ فعندما يأتيه هذا الاطمئنان من القرآن الكريم تزولُ كلُّ مخاوفه من ساعة الاحتضار، أو من الدخول في القبر.. وهذا ما يشير إليه أيضاً قول رسول الله ﷺ من أنَّ القبرَ روضة من رياض الجنّة، بما تبشّر به الملائكة المؤمن الذي أخلصَ الإيمانَ في الحياةَ الدنيا، واستقام على الشريعة، وعلى نهج الله تعالى... أمَّا إذا لم يكن الإنسانُ مؤمناً بالله تعالى، ولم تكن حياتُهُ مستقيمةً على شرع الله ونهجه، فإنَّ العذاب سوف يلاحقُهُ منذ طلوع الروح من جسده، وعند إدخاله إلى قبره، حيث تقدّم له الملائكة جردةً سريعةً عن حياته الدنيا، فيرى فيها المساوئ، والآثام، والمعاصي التي ارتكبها، فيحسّ وهو في قبره، ما ينتظره من عذاب النار، التي سوف يدخلها بما كسب في دنياه!..

٢ ـ عقدة الفقر

وهذه العقدة لها وجهان: الوجه الأول يتمثل في الحرمان الذي يلاقيه الفقير في حياته، وما يجرُّ إليه فقره من القهر والعذاب، حتى

يتحوّل الفقر إلى عقدةٍ في نفسه.. فإذا لم يشبَعْ هو، ولم يُطعم أولادَهُ، ثارت في نفسه هذه العقدة؛ وكذلك إذا مرض هو أو أحدُ عياله، ولم يكن بيده المال للعلاج قويت هذه العقدة لديه، وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر الحاجات التي لا يستطيع تأمينها، أو إشباعها!...

أما الوجه الآخر لعقدة الفقر فيظهر في شدة الحرص على المال، وعدم الإنفاق في وجوه البِرّ والخير.. وقد تستحكم عقدةُ البخل في نفس البخيل حتى تجعله ـ كما رأينا ـ لا يسدُّ جوعَ يتيمٍ ولو كان من أقاربه..

وتتولّد عن عقدة البخل هذه عقدةُ الخوف من الفقر؛ فترى الناس الذين تطغى عليهم مطامع التملك والأثرة والأنانية، يندفعون وراء جمع المال بأية وسيلةٍ كانت، لأنَّ دوافعهم النفسية تنطلق من أمرين: الحب الشديد للمال، والخوف من نفاده أو فقدانه..

وقد يعزو البعض هذا الحرص على المال إلى الحرمان المادي أو العاطفي معاً، فيريد الذين أصابهم هذا الحرمان التعويض عمّا فاتهم، وهنا يتملّكهم الجشع والطمع لكسب المال، حتى إذا امتلكوه، وأصبحوا أغنياءَ، فإنّهم يصيرون مقتّرين، بخلاء، أشحّاء حتى على أنفسهم، لأنَّ ما يؤرقهم هو الخوف من العودة إلى الفقر!.. وهذا ما لا ينطبق على كثيرٍ من الذين اغتنوا بعد الفقر، إذ تجدهم ينفقون مما رزقهم الله تعالى لأنَّ نفوسهم تألفُ حبَّ الخير عادةً، ولكنَّ تقصيرهم كان بسبب القلة، فلمّا آتاهم الله من فضله، لم يبخلوا على أنفسهم، ولا على غيرهم... والإسلام قد عالج عقدة

الخوف من الفقر ـ بوجهيها ـ بل عالج قضية الإنفاق أو جمع المال في حياة الناس، عندما وضع القواعدَ التي تجعل الإنسانَ الذي يعيش في مجتمع إسلامي يطبق الشريعة الإسلامية، مطمئناً إلى غده، بحيث لا يخشى العوز والفقر، ولا يطمع بجمع المال وتكديس الثروات على حساب الآخرين.. وأهم تلك القواعد فرضُ الزكاة التي قرنها الله تعالى بالصلاة، وذلك بأمره الجلل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1]، بل وعَدَ سبحانه وتعالى الذين يؤتون الزكاة بمضاعفة أجرهم وثوابهم، وذلك بقوله الكريم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[2] أي الذين يضاعف لهم الأجر والثواب.. وسوف نبحث في الزكاة بشيء من التفصيل ـ إن شاء الله ـ في الفصل المتعلق بـ «الأمان النفسي»..

وإلى جانب الزكاة فقد عزَّز الإسلام في نفوس المؤمنين حبَّ الحسناتِ أو الصدقات، التي يؤتيها المحسنون إلى ذوي الحاجات مباشرة، أو يبذلونها للمؤسسات الخيرية التي تهتم برعاية العجزة، والمرضى، واليتامى.. والآيات القرآنية التي تمتدح المحسنين كثيرة، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]؛ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4]، وهذا أعظم وسام رباني يتقلّده المحسن؛ أنْ يحبَّ الله تعالى العبدَ فهذا شيء عظيم لا تُدانيه أية مكرمةٍ أخرى؛ بل وتبرز أهمية الإحسان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فالإحسان فوق العدل، إذ إنَّ العدل هو أنْ يعطي الإنسانُ ما يجب عليه، ويأخذ ما يكون له من حق؛ والإحسان أنْ يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقلَّ مما لَهُ؛ فتحرّي العدل واجبٌ، وتحرّي الإحسان ندبٌ وتطوّعٌ، من هنا كان الإحسان محبّباً عند الله تعالى، وبالإحسان شرَّفَ سبحانه المحسنين بحبّه لهم..

أضف إلى ذلك أنَّ الله تعالى وعَدَ الذين يؤتون الزكاة، ويتصدّقون بالحسنات أنْ يعوّض عليهم ما أنفقوه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2]..

تبارك وتعالى قد أمَرَ بالزكاةِ فرضاً وحقاً، وبالإحسان تطوّعاً واختياراً، ولكنه سبحانه أمَرَ الذين ينفقون ألَّا يسرفوا في الإنفاق ولا أنْ يقتّروا، بل أن يكونوا وسطاً في إنفاقهم، وذلك بقوله الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[4].

ومثل هذه الأحكام والتعاليم الإسلامية التي تتناول الزكاة والإحسان، قد أرسى رسولُ الله ﷺ مضامينها في نفوس المسلمين منذ الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث أقبل الأنصارُ بتوجيهه ﷺ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

وإرشاده على إخوانهم المهاجرين بروحية الانفتاح والمحبة، يقدمون لهم المسكن والمأكل واللباس، ومختلف سبل العون التي تدفع عن نفوسهم شبحَ الذل الذي أرادَه لهم المشركون، عندما فرضوا على كل مسلم قبل أنْ يهاجرَ من مكة، أنْ يتخلّى عن جميع ممتلكاته وأرزاقه وأمواله فكان ـ بالمقابل ـ احتضان الأنصار لإخوانهم المهاجرين، على تلك الصورة الرائعة.. حتى إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وذلك من أكبر الشواهد للناس على ما للتربية الإسلامية من آثارٍ في تحرير الإنسان من الأعباء التي تثقل على نفسه، وتحفّزه لأن يكون عنصراً فاعلاً في بناء المجتمع السليم الذي يقوم على قواعد العدل والإحسان، ومفاهيم التضامن والتكافل وما يماثلها من المعاني الإنسانية السامية.

ولو اتَّبع المسلمون اليوم تعاليم دينهم، واقتدوا بسيرة نبيهم الكريم، وبالمسلمين الأوائل، ولاسيما المهاجرون والأنصار، لما كان بينهم فقير أو سائل أو محروم، ولاسيما أنَّ الله تعالى قد مَنَّ على كثير من البلدان الإسلامية بموارد غنيّة لا تلبّي وحسب حاجات جميع المسلمين في أقطار الأرض كافة، بل تؤمّن للعالم بأسره بعضاً من الموارد التي لا غنى له عنها.

ولذلك يمكن القول بأنَّ الإِسلام يمتلك سبلَ المعالجات للمشاكل التي يتخبط بها الإنسانُ، سواء كانت أمراضاً نفسية، أو مشاكل اجتماعية.. ومتى وجدت تلك المعالجات، وجرى تطبيقها بروح إسلامية، أمكن للإنسان أن يطمئن إلى أنه غير متروك بلا عونٍ ولا نصير.. ومما يزيد في اطمئنان المسلم إيمانُهُ بأنَّ الرزقَ من عند

الله تعالى، وهو يرزق من يشاء بغير حساب. ولا ريب بأنَّ المؤمن هو الذي يثق بعطاء ربه، فلا يخاف من الفقر والإملاق، ما دام يسعى، ويعمل في هذه الأرض، ويوفر أسباب العيش، ثم يركن بقلبه إلى عطاء ربه الكريم. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1]. ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2].

٣ ـ عقدة الطغيان

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3]. إنه الإنسان، يحاول أنْ يطغى في كل شيء، عندما يجد في نفسه مقومات هذا الطغيان، فيضيع عندئذٍ عن السلوك القويم، وتتلبَّسه الأهواء والشهوات حتى تمتلئ نفسه بالعقد النفسية. لأنَّ الطغيان من أشد الأمراض التي تجلب الشرور والآثام، إذ به يكون الإنسان: ظلوماً، جهولاً، منوعاً، قتوراً، مغروراً، كفاراً، مفسداً، سفاكاً للدماء.. وما أبشعها من أوصاف لمخلوق هزيل، ضعيف، جزوع، هلوع... ومن كان الطغيان دأبه فلا ريب أنه مريض نفسانياً، وتكثر في نفسه العقد المرَضيّة، والله تعالى، وهو أعلم بذات الصدور، هو الذي يصف، في قرآنه المجيد، أولئك الناس بمثل تلك الأوصاف المذمومة حتى يبيّن لنا سفاهة أحلام الطغاة، فنحذرهم، ونتّقي شرورهم، ومن ثَمَّ نعقد العزم على التخلص منهم رأفةً بالبشرية، ليس بالقتل، كما يفعل أعداء الإسلام، بل بردعهم عن طغيانهم، بالحكمة ومختلف وسائل

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

(٣) سورة العلق، الآيتان: ٦ و٧.

الإقناع والتوجيه.. قال رسول الله ﷺ: **«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»**، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال ﷺ: **«تمنعه من الظلم»**[(١)]..

وهكذا نجد أنَّ الإسلام، بما أنزل الله تعالى في القرآن الكريم، وبما حفلت به السنة النبوية الشريفة، إنما يُقدّمُ خير منهاج يمكن للإنسان أن يسير عليه في هذه الحياة، لأنه وحده الكامل والتام الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الإنسان إلا ويبيّن السبلَ لمعالجتها معالجةً شافيةً وكافيةً.. فهو يخلص الإنسان كفرد من عقده النفسية، وهو يخلص المجتمع من مشاكله المتعددة، ويخلص الإنسانية من العثرات التي سقطت فيها بفعل الظالمين المفسدين، وتسلط المشركين والمتكبرين..

وأي مجتمع يطبق الإسلام تطبيقاً صحيحاً وكاملاً، من المحال أنْ تُوهِنَ نفوس أبنائه الأمراضُ النفسية، أو أنْ تتغلغل فيها العقد النفسية. وأي مجتمع لا يراعي حدودَ الله تعالى في كل شيء ـ حتى ولو كان مجتمعاً إسلامياً في ظاهره أو في بعض مقوماته ـ ولا يطبق المنهج الذي أرادَهُ المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ للبشر، بكل حذافيره، فإنَّ الناس، وإن كانوا فيه مسلمين، هم مثل غيرهم، معرَّضون للعقد النفسية والأمراض النفسية.

---

(١) كشف الخفاء، الجزء (١)، ص ٢٠٩، حديث رقم ٦٣١، ومسند أحمد، وسنن الترمذي.

البحث الثالث

الحِيَل العقليّة

الحيل العقلية هي مشاعر وقائية أو دوافع للسلوك تتحرك في نفس الإنسان لتبرير تصرفاته، أو لوقاية نفسه مما قد يعتريها من اضطرابات، إذا أدرك الدوافع الكامنة وراءها. .

والحيل بصورة عامة هي صناعة المكذبين؛ والفاسقين، والمرائين وكل من كان من مكتسباتهم الخلقية الاحتيال والنفاق والخداع والمراوغة، كما كانت عليه أحوال المنافقين في المدينة المنورة الذين كشف الله تعالى في كتابه المبين، عن فعالهم الشنيعة، وما كان يعتمل في نفوسهم من مشاعر موتورة، وخاصة الشعور بالعداوة والبغضاء للمؤمنين، بحيث كانت حيلُهم العقلية تنضحُ عن مكامن تلك المشاعر وأغراضها. .

وتبدو الحيل العقلية، إجمالاً، على ثلاثة أنواع هي: الإسقاط، التبرير، وتكوين ردة الفعل.

الإسقاط: وهو حيلة عقلية يحاول الفرد أن يلصق بغيره ما يخالج نفسه من دوافع للعيوب والأخطاء. أي إنه يسقط شعوراً لديه

على غيره. ومثاله أَنْ يُضمرَ أحدُهم شعورَ العداء لأحد أقاربه، فيتوهَّمُ أنَّ قريبه هذا هو الذي يستعديه ويعمل في الخفاء لأنْ ينال منه! . .

ومن هذا القبيل إسقاط المنافقين مشاعر الخوف والبطش على المسلمين، فقد كانوا يريدون في قرارة أنفسهم أنْ يقضوا عليهم قضاءً مبرماً، ولكنَّ عدم قدرتهم على ذلك جعلهم يظنون أنَّ المسلمين يسعون للتخلص منهم بأية وسيلةٍ كانت، فإذا صدرت صيحة عن المسلمين، أي أية حركةٍ أو استعدادٍ أو تأهّبٍ، توهموا أنها موجهة ضدهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

. . . فالمنافقون، ومن الأساس، قد دخلوا في الإسلام جُنَّة (أي سترةً) لكي يأمنوا على أنفسهم وأموالهم؛ فمثلاً كانوا يبدون كلَّ استعداد لمناصرة الرسول ﷺ والخروج معه، وفي الوقت نفسه يحوكون له الدسائس مع المشركين، كما كانوا يخذّلون المؤمنين بالتقاعس عن القتال، وتخويفهم من الموت، وبث روح الشقاق والنزاع في صفوفهم. .

وفي هذه الآية الكريمة يصف الله تعالى حالة أولئك المنافقين الجسدية والنفسية، فإذا نظرت إليهم فقد يأخذك العجب مما يبدون عليه من متانةٍ في الأجسام، ومهارةٍ في الحركة، وإذا تحدثوا تصغي لقولهم لما فيه من فصاحة ومداهنة؛ ولكنَّ هذه المظاهر لا يعوَّل عليها

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٤.

كثيراً، لأنها مجرد مظاهر خادعة ليس إلاَّ، بينما نفوسهم تنطوي على الضعف والوهن، من هنا يشبههم النص القرآني بالخُشُب المسنَّدة إلى الحائط، قد نخرها السوس فصارت هشَّةً، متآكلة من داخلها، مهملة لا تنفع لشيء.. فكان لا بدَّ أنْ يمتلك الخوف نفوسَهم، من أية قوة يظهر فيها المسلمون، خاصة وهم يتحسّبون لئلا ينكشف أمرهم وتدور الدائرة عليهم.. وفي هذا أصدقُ تعبيرٍ عن القلق النفسي الذي كانوا يعانون منه، وعن لواذِهم إلى جوار المؤمنين ولو على حنقٍ ومضض.. وقد أنزلَ الله تعالى قوله الحق الذي يحذِّر رسوله الكريم من أنهم هم العدو المستخفي وراء الخداع والاحتيال لشدة ما يكذبون ويؤفكون، وذلك بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

التبرير: وهو حيلة عقلية دفاعية يحاول فيها الإنسان تبرير دوافعه غير المقبولة لجعلها مقبولة. وهذا ما يفعله، عادةً، مرضى القلوب الذين يُفسدون في الأرض، ويحسبون ما يفعلونه صلاحاً، فيلجأون إلى التبريرات التي يخدعون بها أنفسهم لحمل الناس على قبول فسادهم!.. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾(١).

والتبرير غالباً ما يصدر عن الإنسان بصورة تلقائية لا يشعر معها بالخطأ الذي يرتكب، بل قد يقوم بالعمل السيّئ ويظنه حسناً، وقد أعطى القرآن الكريم مثالاً على هذا النموذج من الناس، أولئك الذين يعيثون في الأرض فساداً، فإذا وجدوا من ينصحونهم، ويقولون لهم:

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١ و١٢.

﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يردّون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. وهذا يعني أنهم لا يدركون حقاً فساد أعمالهم، بل يظنون أنهم يفعلون شيئاً من الصلاح، ولكنَّ ربَّ العزة والجلال، يبطل كلَّ ظنونهم وأوهامهم، ويكشف عن فقدانهم الشعور بسوء ما يفعلون، وأنَّ كلَّ ما يدّعون إنما هي مبررات لا أساس لها من الصحة!..

ردُّ الفعل: ردُّ الفعل هو حيلة عقلية دفاعية أيضاً، وتظهر بسلوكٍ مضادٍّ للسلوك الحقيقي الذي يريد الإنسان إخفاءه. والمثال على ذلك أنْ يبدي أحدهم كثيراً من المجاملة واللين والاهتمام في معاملة شخص آخر لإخفاء كرهه له وشعوره العدائي تجاهه. فالمنافقون كانوا يظهرون أحسن القول للمؤمنين، والإعجاب والتقدير لأعمالهم، ولكنْ كان ذلك بقصد إخفاء مشاعرهم العدوانية تجاههم، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1].

وقد روي أن هاتين الآيتين قد نزلتا في الأخنس بن شريق، وتبيّن نصوصهما أنه كان في حقيقته رجلاً منافقاً، يحسن الكلام، فيبدي أمام رسول الله ﷺ بلسانٍ طلقٍ، زلقٍ أنه من المؤمنين، بل ويحلف بالله على ما في قلبه من الإيمان؛ فكان قولُهُ يعجبُ رسول الله ﷺ، لأنّه مكلّف أنْ يأخذ بظاهر الإنسان حتى تستبين دخيلته؛ ولكنَّ ذلك المشرك كان في قرارة نفسه من ألدّ الخصام للإسلام ورسوله؛ فلمّا لم يعد خداعه ينطلي على الرسول ﷺ، ولّى هارباً، فلا يمرُّ

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤ و٢٠٥.

على زروع للمسلمين إلّا ويحرقها، ولا على مواشٍ لهم إلّا ويهلك منها ما يقدر على إهلاكه، حتى لحق بالمشركين، مرتدّاً، حاقداً. .

وهذا ما ينطبق على كل إنسان مثل الأخنس بن شريق، الذي يبطن غير ما يعلن، فينافق، ويخادع ليستر عورات نفسه، أو ليخفي مآربَهُ الفاسدة. .

وهكذا يتضح أنَّ القرآن الكريم قد أشار إلى بعض الحيل العقلية التي كانت تعشّش في نفوس المنافقين، مرضى القلوب، قبل قرون عديدة من اكتشاف علماء النفس الغربيين لتلك الحيل التي تشوّش ـ كما يقولون ـ نفوس المرضى، الذين يأتونهم للمعالجة، وقد اختلطت عليهم الأمور بحيث لا يستطيعون إدراك صحة أو فساد ما يقولون أو يفعلون. .

والمرض، في حقيقته، هو الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وهو نوعان: مرض جسمي وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾(١). ومرض نفسي وهو عبارة عن الرذائل: كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق وغيرها من عورات الخلق السيّئ، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾(٢)؛ ولذلك نجدُ غالبية المرضى نفسانياً يلجأون إلى الحيل العقلية إما لتبرير أفعالهم، وإمَّا للقيام بأفعال تأتي كردة فعل على ما يبطنون في أنفسهم.

---

(١) سورة النور، الآية: ٦١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

تداعي الأفكار أو تجمع الأفكار

إنَّ تداعي الأفكار ليس سوى نمط من أنماط استحضار الأحوال النفسية لبعضها. وهو يتم بصورة تلقائية من دون أنْ يكون للإرادة أي أثر. أي بمعنى آخر إنَّ حدوث أمر حسي يستدعي دائماً تذكُّرَ أمر آخر مرتبط به، وكذلك التفكير في أمرٍ معين قد يثير التفكير في أمر آخر له علاقة به؛ وقد جرى تعريف هذه الظاهرة النفسية التي تسمى تداعي الأفكار «بأنها استحضار الأحوال النفسية بعضها بعضاً بصورة تلقائية، وتسمى الحالة المتقدمة المؤثرة، والحالة التالية المتأثرة». مثال ذلك أن أقرأ كتاباً فأتذكر معرفتي بمؤلّفه، أو بالشخص الذي كان برفقتي عندما اشتريت هذا الكتاب، أو أذهب لزيارة صديق في قريته، فأتذكر ما جرى معي يوم جئت هذه القرية في زيارة قديمة؛ أو أمرَّ أمام المنزل الذي كنت أستأجره فيخطر ببالي كثير من الذكريات التي عشت أحداثها يوم كنت أسكن فيه..

وتداعي الأفكار يحصل: بتجمع عدة أحوال نفسية فردية لتؤلف وحدة متكاملة، فإذا ما بُعثت إحدى هذه الحالات جذبت إليها الحالات الأخرى المتممة لها، وتكون قيمة هذه الحالات الجزئية أو الفردية بما تؤلفه من مجموعات. مثال ذلك: إن تعلُّمَ القراءة يستدعي سماع الأصوات التي تتشكل من الحروف، مضافة إليها الصور السمعية والبصرية وما تحتوي من معان، بحيث يتألف منها كلِّها مجموعات من الكلمات والجمل والأفكار لا يمكن تبيان أجزائها إلّا بالتحليل. وهكذا فإن استحضار أي حالة من الأحوال الجزئية تبعث في الشعور جملةً من الأجزاء الأخرى المتممة لها.

مثال آخر: استدعاء الأحوال النفسية بصورة متتالية، كأن تستدعي حالةٌ نفسيةٌ معينة حالةً أخرى مختلفة عنها، وهذه تستدعي حالةً ثالثة، ورابعة... بحيث يتألف منها جميعاً سلسلة متصلة الحلقات من الأفكار التي تتداعى بعضها إلى بعض، وكأنَّ كل فكرة تدعو أخرى لأن تحضرها.. وكل حالة نفسية سواء كانت إحساساً أو انفعالاً، أو فكرة فإنها قادرة على أنْ تستدعي غيرها. ولكن تختلف قوة الاستدعاء باختلاف قوة الإيحاء. فالحبيب يعلم أنَّ ذكرى حبيبه تثير فيه مشاعر الحب، والأنس، والارتياح والسرور، والمجاورة، وأحياناً الزعاق والمشاكسة، والصراخ، ثم الرضى!..والشاعر توحي له بعض المشاهد انفعالات مؤثرة، فمثلاً قد يجلس في ظل شجرة يتأمل نضارة خضرتها. ثم يلتفت إلى الماء يسيل أمامه في الجدول فيصغي إلى خريره، ثم يرقب الصخور على التلة، ويرتفع بناظريه إلى سحابة بيضاء تركن هادئة فوق تلك التلة التي تعشق أن تنزل عليها لتبردَها.. فيبحث عن الألفاظ التي تصور تلك المشاهد وتهيج النفس بما توحي به من المعاني.

والأفكار المتتالية لا تتوقف عن التداعي إلّا في حالة الركود الذهني، أو في حالة التأمل الشديد، أو الإدراك المسيطر. غير أنَّ التأمل والإدراك لا يوقفان مجرى الصور إلا ليُغيرا اتجاهه، ويسيرا معه. ولعل الأحلام والمنامات خير مثال على ذلك، لأن النفس تكون أثناء النوم بعيدة عن التأثر بالواقع وأحكام العقل.

ويختلف نوع التداعي باختلاف الحالات النفسية، وهذا الاختلاف يحكمه قانون الاهتمام. وخلاصة هذا القانون: أنَّ حالة نفسية معينة لا ترجح على غيرها من الحالات الأخرى إلّا إذا كانت

متناسبة مع الاهتمام الحاضر. ولذلك يؤثر الاهتمام في الحياة العفوية، وفي حياة التفكير والتأمل كما يؤثر الانتباه في التداعي.

وعوامل الاهتمام ثلاثة:

١ ـ شدة التأثير، ومثاله ذكريات الشباب التي تكون أقوى تأثيراً من ذكريات الشيخوخة.

٢ ـ الميول والرغبات، فالطفل مثلاً لا يميل إلا للألعاب التي تجذبه أكثر من غيرها؛ والحديث عن الصحراء يستدعي التفكير بالحر والظمأ، ما يثير الرغبة في الجلوس تحت ظلال الأشجار وبمحاذاة الينابيع الأنهار.

٣ ـ المشاغل الحاضرة، فالإنسان لا يفكر أثناء القراءة إلّا بفهم المعاني، ولا يدرك من معاني الألفاظ إلّا ما يناسب سياق الكلام.

مما تقدم يمكن أن نشير إلى أنَّ الإنسان كثيراً ما يتعرّض للمؤثرات الخارجية التي تثير لديه الانفعالات، وقد يحاول السيطرة عليها، أو قد يجرُّهُ انفعاله إلى التهور، والإضرار بنفسه، أو بغيره.. وقد تُسبب له الانفعالات الحادة الوقوع بأمراضٍ نفسية أخطر، فتتراكم في نفسه التعقيدات التي تتحول إلى ما يسمى «العقد النفسية».. فيحاول أن يتخلص منها بالحيل الفعلية التي يبتدعها، والتي لا وجود لها في الأصل، إنما يلجأ إليها بدافع إلقاء اللوم على الآخرين.. وقد بيّن القرآن الكريم مختلف تلك الحالات التي تتفاعل في النفس، وقدم لها العلاج بما يتناسب وطبيعة الإنسان.

الفصل الثالث عشر

- القناعة والثقة
- الجدّيّة والتغيير

البحث الأول

القناعة والثقة

يقولون: إنَّ الثقة تنجم عن القناعة بصحة الشيء وصدقه.

ويقولون: إنَّ القناعة تأتي من المشاعر، من غير براهين، وتذهب من غير براهين. والثقة ليست شيئاً يمكن الحصول عليه بالحجة والمنطق، بل بإيجاد القناعة التي قد تأتي اعتباطاً وتذهب اعتباطاً.

هذا القول باطل وغير مطابق للواقع.. فالثقة وإنْ كانت تتولَّدُ عن القناعة بصحة الشيء وصدقه، وهذا لا ريب فيه، أي بمطابقته للواقع، أو للفطرة، ولكنها لا تحصل إلاَّ بناء على برهان يثبت صحة الشيء وصدقه. وهذا البرهان إما أن يكون عقلياً مرتبطاً بالمشاعر، وإما أن يكون شعورياً من حيث كونه برهاناً صحيحاً وصادقاً دونَ دليلٍ عقليٍّ عليه، إلّا أنه من تواتر هذا الشعور في النفس تحصل القناعة وتتولد منها الثقة، فإذا تكرر ثبوت عدم صحة الشيء، وعدم صدقيته ـ عقلياً أو شعورياً ـ ذهبت الثقة...

وحتى تترسَّخ الثقة لا بدَّ أن تنتقل من دور إقامة البرهان إلى دور

البداهة، أي ـ كما قلنا ـ بتكرار ثبوت صحة الشيء وصدقه بالبرهان عقلياً أو شعورياً.

وكما أنه يصعب إيجاد الثقة في جو التشكيك، كذلك تصعب زعزعة الثقة في جو الإيمان؛ فعندما أنشئت دولة الإسلام على عهد رسول الله ﷺ، وتابعه الخلفاء الراشدون على حكم القرآن والسنة النبوية، كان ذلك في ظل أجواء الإيمان، التي أقنعت الناس بصحة وصلاحية أحكام الشريعة الإسلامية لمعالجة مشاكلهم النفسية والحياتية، فأقبلوا على الإسلام عن قناعة وثقة...

وعندما بدأ الحكام والولاة المسلمون يحيدون عن المنهج الإسلامي، ويؤثرون مطالب الدنيا ومتاعها، بدأ التشكيك يتسرَّب شيئاً فشيئاً إلى صلاحية حكمهم، وقدرتهم على تطبيق الحكم الإسلامي، فسادت الصراعات الداخلية بين الدويلات والإمارات التي كانت تنشأ وتضمحلُّ في ظل الخلافة الإسلامية؛ وظل الأمر على هذه الحال حتى قوي الغرب، بعد خروجه من عهود الإقطاع والظلام، فبدأت تظهر الأفكار والخطط التي ترمي إلى ضرب الإسلام، وإبعاد الناس عنه، وبدأت الصعوبات تنتصب وتشتدُّ في وجه الدعاة إلى هذا الدين!.. فكانَ لا بدَّ أن ينشأ، من جراء التشكيك المفتعل بالإسلام، الصراع بين أحكام الإسلام ومناهجه من جهة، وأفكار الغرب ومبادئه من جهة ثانية، بين المفاهيم الإسلامية في نظرتها إلى الإنسان والحياة، والمفاهيم الغربية التي تعارضها في نظرتها.. أي نشأ الصراع العقائدي الذي كانَ يفترض أنْ يتبيَّن من خلاله ضوءُ الحقائق للعقول والمشاعر، فينجلي فساد الأفكار والأحكام الجائرة، لظهور فساد وجهات النظر المنبثقة منها؛ بحيث يلمس الإنسان المنصف العادل

بطلان وجهة نظر الكفر، وصحة وجهة نظر الإسلام، ويتجلّى عند ذلك للناس جميعاً فساد الأنظمة القائمة في العالم، وصلاح حكم الإسلام.. ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحصل، بل استقوى الغرب، وظل مستمراً في استقوائه، وضعف المسلمون، وظلوا مستمرين في ضعفهم إلّا في بعض الأحداث التي كانوا يستقوون فيها على أعداء دينهم، كما في الحروب الصليبية التي دحروا فيها الغزاة من أهل الغرب، وأخرجوهم من ديارهم بشرّ هزيمةٍ.. ولذلك نجد مِنَ القادة الفرنسيين والصهيونيين من يقف بعد احتلال فلسطين، على قبر صلاح الدين الأيوبي؛ قائلاً: ها قد عدنا يا صلاحَ الدين!!. وهذا ما يجعلنا نقول بأنَّه كلما وجد الصراع الفكري، واحتدم النقاشُ الموزون، الهادف، كلما تكرَّر ثبوتُ صحة، وصدقيّة مفاهيم وأفكار وأحكام الإسلام، ووجدت القناعة بها، وتولَّدت بالتالي، عن هذه القناعة الثقة بها، دون سائر المفاهيم والأفكار والأحكام الموجودة في العالم، التي تتناقضُ وشرع الله تعالى الذي جاء به الإسلام!...

وإذا عمَّت هذه القناعةُ الناسَ، وتركَّزت الثقة في نفوسهم، ووجد رأيٌ عام منبثقٌ من وعيٍ حقيقي، فإنَّ النهضة الفكرية التي يطمح الإنسان إليها تكون ظروفها قد تهيَّأت، وهي التي تدفع بالقادة لإقامة حكم الله تعالى، مهما ظهرمن العقبات، لأن الأفكار القوية الصائبة تزيل أكبر قوة سياسية، وتُبطل كلَّ فكر غير صائب، وتدمِّر كل حُكمٍ فاسد.

وقد يقول البعض: وإذا كان الإسلام عظيماً إلى هذه الدرجة بأحكامه ومفاهيمه وأفكاره، فلماذا لم تطبقه الأمة الإسلامية والحكام في البلاد الإسلامية؟! ونجيب على الفور بأنّه على الرغم من جميع

الشوائب والعثرات والهنات التي مرَّت على بلاد الإسلام، وعلى الرغم من فساد الحكام وفسوقهم فقد ظلت الخلافة الإسلامية قائمة إلى أن تعاون الغربُ كله على إزالتها من الوجود بإعلان كمال أتاتورك عام ١٩٢٣م إلغاء الخلافة الإسلامية، ليقيم بديلاً منها دولةً علمانية تسير على نهجِ الغرب قلباً وقالباً، فكان ذلك الضابط التركي الجاسوس مثالاً على فساد الحاكم الذي ينتمي إلى أهل الإسلام هويّةً، لا عقيدةً!... والحقيقة أنَّ تلك المنهجية الفكرية الغربية - ووراءها الصهيونية ولا ريب - هي التي جعلت أعداء الإسلام قادرين على أن يحوّلوا عداوتنا لهم من عداوة كفر وإيمان إلى عداوة استعمارٍ واستغلال، ومن عداوة مسلمينَ إلى عداوة مستعمَرين، وحوَّلوا بُغْضَنا لهم من بُغض مسلمين لِكفَّار بالإسلام، إلى بُغض وطنيين لأجانب. وبذلك أنسونا مرارة الهزيمة بوصفنا مسلمين، وازالوا عنها حقيقة كونها هزيمةً للمسلمين على يد الكافرين وذلك حتى يتحوَّلَ كفاحُنا من جهادٍ نطلب فيه رضوان الله تعالى إلى كفاحٍ رخيص كالتظاهرات والاحتجاجات للحصول على الاستقلال، أيْ على انفصال كل بلدٍ إسلامي عن باقي بلاد الإسلام، وفي ظل كل تلك النظم والمناهج والأفكار والمفاهيم التي تجعل المسلمين متفرقين!...

فإلى متى نغفل عن هذه الخطط الجهنَّميَّة الكافرة؟

لا مندوحة لنا عن إعادة الصراع بيننا وبين أعداء الإسلام إلى صعيده الأصلي.. أي إلى الصعيد المبدئي العقائدي، فإنَّ لدينا عقيدة ونظاماً نتحدّى بهما سائر عقائد وأنظمة البشر. ولكن لا بدَّ لنا أولاً أن نعرف عدونا من هو، وأن نتخذه عدوّاً.

وإذا لم نعرف الجهة، أو القوة، التي تعادينا، والسبب الذي

تحمل لنا من أجله العداء، فلا يمكن إنقاذ أنفسنا من براثنها، وبالتالي لا يمكن التغلّب عليها.

وإذا لم نتخذ عدوّنا عدوّاً، فإننا سنجعل أنفسنا، بلا شك، تحت ظلمه.. ولكن علينا أن لا ننسى ما قاله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(1)، وهل يحارب الإسلامَ إلاَّ الشيطان وقبيله، ولا سيما هؤلاء المستكبرون الصهاينة الذين سوف يكونون وقوداً لنار جهنَّم؟!.. ولكن علينا نحن المسلمين ألا ننسى، وألاَّ نتجاهل ما وعدنا به العزيز الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾(2). فقد جاء القرآن بكيفية معاملة الأعداء بآيات صريحة تقرع الآذان، وتوقظ العقول، وتهز النفوس، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾(3). وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾(4). وقال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾(5).

فكان من المحتوم على المسلمين، الكثير من الكفاح المرير في سبيل بثّ أفكار الإسلام، والكثير من الكفاح الشديد للعملاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين! ليكون كفاحهم صادقاً ضدَّ أعداء الله، وأعداء دينه القويم!..

---

(1) سورة فاطر، الآية: ٦.

(2) سورة النساء، الآية: ١٤١.

(3) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(4) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(5) سورة النساء، الآية: ٨٩.

وهنا قد يرد استيضاح:

إذا كانت البلاد الإِسلامية مقسمة إلى دولٍ، وإذا كانت متحررة من الاستعمار ـ ولو ظاهرياً ـ وحُكَّامُها مسلمون، فالكفاح إذاً يجب أنْ ينصبَّ على الأنظمة التي تخالف الإِسلام فقط!..

الواقع أنَّ الأمة منكوبةٌ ببلاءين اثنين:

أحدهما: سببُه بعضُ حُكَّامِها، لكونهم عملاء للمستعمرين.

وثانيهما: سببُه أنَّها تُحْكَمُ في معظمها بغيرِ ما أنزل الله تعالى في قرآنه المبين.

ولذا تملكت بعضَ الحكام في العالم الإِسلامي حالتان اثنتان:

الحالة الأولى: تأثير الأنظمة الغربية على هؤلاء حتى أفقدتهم الإِيمانَ بالإِسلام نظاماً للحكم ونهجاً للحياة، فأصبحوا في صف الأعداء، ولو صلُّوا وصاموا.

والحالة الثانية: إشعارهم من قبل أسيادهم بالعجز الدائم عن الوقوف في وجه الدول الكبرى. وهذا الشعور بالعجز أحالوه على الأمة، فقالوا: لا نقدر على شيء، إلَّا بالاعتماد على دولة كبرى تساندنا في وجه مطامع الدول الأخرى التي تريد استغلالنا.. فكان لا بدَّ أنْ تؤديَ هذه العمالة ـ الظاهر منها والباطن ـ إلى تجسيم الخطر في نفوس الشعوب الإسلامية حتى يبعدوا من أذهانهم إمكانية إعادة الدولة الإِسلامية إلى الوجود، مع العلم أنَّ معظم أبناء الإسلام يؤمنون بالإِسلام على أنه أمثل نظام للحكم، وأفضل منهجٍ للحياة.

وإننا نعتذر إلى الله عزَّ وجلَّ عن أخطائنا الجسيمة كمسلمين،

لأنَّ هذه الأخطاء هي التي جعلتْ أهل الكفر يضعفون الثقة في نفوسنا بالإِسلام مبدأً عالمياً للحياة، وينزعون الثقة بالأمة الإِسلامية كأمة قادرة على أنْ تحتل مكان الصدارة بين الأمم، أضف إلى ذلك الرعب الذي قذفته الدول الكبرى في قلوب المسلمين بما لديها من وسائل الدمار وأساليب المكر والخداع. . فكل تلك العوامل جعلت المسلمين يَنْأَوْن بجانبهم عن الإِسلام، ويجعلون ركيزة بقائهم في الحكم تقوم على الاستعانة بالدول الكبرى، والاستناد إليها، لا الاستعانة بالله العلي القدير والاستناد إلى أمتهم، ما دفع الأنظمة في الدول الإِسلامية للاستسلام كليّاً إلى الحكام الغربيين والشرقيين معاً، فضاعوا وأضاعوا. . .

ولذا، فإنَّ الغربيين، ومَنْ وراءَهم من العُملاء، سيقاومون فكرة إعادة الثقة بالأفكار الإِسلامية، وبأحكام الإِسلام، وسيبذلون قصارى جهدهم ـ كما يفعلون ـ لخنق كل صوت يرتفع بالدعوة إلى الله تعالى، وإلى الدين الإِسلامي.

ومن هنا ندرك الصعوبة لتثبيت صدقية وأحقية الإسلام في أذهان المسلمين. . والسبيل الوحيد لذلك أن يرجع المسلمون إلى دينهم، وإلّا ظلَّ الظلم والجور يحيقان بهم إلى أنْ يشاء الله ويغيّر هذه الأحوال والأوضاع التي يئنّون تحت وطأتها! . . .

الثقة بالنفس

ومن أهم المقومات لصلاح النفوس، أنْ يتحلى الإنسان بالقناعة والثقة بالنفس. ومما يساعد الإنسان على الثقة بنفسه أنْ يعرف قيمته الإنسانية، وما كرَّمه خالقه به؛ وأنْ يكون شعوره بذاته حسناً وراقياً،

لما في ذلك من تأثير كبير في سلوكه. فإذا كانت أفكار الإنسان ومشاعره عن نفسه توحي له أنه جدير بحب الناس وثقتهم، وأنه صالح في مجتمعه، وأنه يتحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الطيبة. . فإنَّ سلوكه يكون في العادة متفقاً مع أفكاره ومشاعره. . وعلى العكس من ذلك، إذا كان تفكير الإنسان يُشعره بأنه فاشل في الحياة، وغير صالح في تعامله مع أبناء مجتمعه، وأنَّ الناس يمقتون تصرفاته، ويكرهون وجوده وعشرته. . فإن من شأن ذلك أنْ يفقده الثقة بنفسه، وأنْ يزعزع علاقاته بالناس، مما يؤثر في سلوكه، ويجعله غير قادر على القيام بأي عمل فيه نجاح له.

وغالباً ما تنشأ الثقة بالنفس عن التربية في البيت، والمدرسة، والمخالطة في المجتمع، ومن خبرات الإنسان وتجاربه في المواقف التي يتعرض فيها للفشل أو النجاح، للنقد أو المديح، للإحباط أو الثقة. . .

والتربية النبوية للمسلمين كانت أكبر مثالٍ على غرس الثقة في نفوسهم، فقد عمل الرسول ﷺ على أنْ يخلّصهم من مشاعر النقص، والضعف، والتفسخ والعصبية الجاهلية، وغير ذلك من النقائص التي كان الناس يعيشون في أجوائها ولا يشعرون بتفاهتها، وعدم صلاحيتها لنفوسهم وعيشهم، ولقد نجح في ذلك إلى أقصى الحدود من خلال عملية التثقيف التي اعتمد فيها على النصوص القرآنية، التي جعلهم الرسول ﷺ يعايشونها في الأعماق، ويطبقونها في حياتهم اليومية؛ وكان هو ﷺ القائد الحكيم، والرسول الكريم، والأسوة الحسنة التي يقتدون بها. .

ومن أهم مزايا تلك التربية الإسلامية تعليم المسلمين القرآن وإفهامهم معانيه، وحثُّهم على التخلّق بأخلاق هذا القرآن المجيد الذي يهدي للتي هي أقوم، ومن ثم الاستسلام لله العلي القدير، والأخذ بالأسباب والمسببات ثم التوكل على الله، والصدق في القول والعمل، والخشية من الله تعالى دون خشية الناس مهما كانت الظروف والأحوال. عن أبي سعيد الخدري أنَّ الرسول ﷺ قال: **«لا يُحَقِّرْ أحدُكُم نفسه»**، فسألوه: وكيف يحقِّر أحدُنا نفسه يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«يَرَى أمراً لله عليه فيه مقالٌ ثُمَّ لا يقولُ فيه. فيقولُ الله عزَّ وجلَّ له يومَ القيامة: ما منَعَكَ أنْ تقولَ فيَّ كذا وكذا؟ فيقول: خشيةُ الناس. فيقول: فإيَّاي كنتَ أحقَّ أنْ تَخْشى»**[(١)].

وعن تربية الأولاد وحث الآباء على تعزيز الثقة بنفوسهم كان الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة في ذلك، فسيرتُهُ في الحنان والعطف، وحبِّ أولاده، وحبِّه لحفيديه الحسن والحسين عليهما السلام، وبالطريقة التي شهدها الصحابة جميعاً، هي دليلنا على ما كان يغرسُ رسولُ الإنسانية في نفوس المسلمين من أصول صحيحة لتربية أولادهم، حتى يشبُّوا وقد استمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، عروة الإسلام الذي يقوِّم النفوس تقوىً وصلاحاً، والتصرفات استواءً وحسناً. وهذا ما أراده النبيُّ الأعظم في ما روي عن أَنس من أنَّ رسول الله ﷺ كان يردّدُ على مسامعنا قوله الكريم: **«أَكرِمُوا أولادَكُمْ وأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ»**[(٢)].

ومن المثال على بديهيات تلك التربية المحمدية السامية، ما أولى الرسول ﷺ اهتماماً بالاسم، لما له من أهمية على شخصية

---

(١) سنن ابن ماجه ج١٢ رقم الحديث ٣٩٩٨، والمسند الجامع ج ١٤ رقم الحديث ٤٦٠٤.

(٢)سنن ابن ماجه، حديث رقم ٣٦٦١.

الإنسان وثقته بنفسه، لأن الاسم الجميل من العوامل التي تكوِّن الشعور الحسن بالذات. ولذلك كان ﷺ يكره الأسماء القبيحة، ويغيّرها بأسماء حسنة، عن ابن عمر قال: إنَّ أُختاً له كان اسمها (عاصية) فسماها رسول الله ﷺ (جميلة). وعن أسامة: أن رجلاً يسمى (أصرم) جاء مع نفر إلى رسول الله ﷺ فلما عرف اسمه قال له: «بل أنت زرعة»[1].

وقد غيّر الرسول ﷺ اسم (شهاب) فسماه هشاماً، وغيّر اسم (حرب) فسماه سَلَماً، كما غيّر أسماء العاص والمضطجع وغراب، وغيرَ ذلك من أمثال هذه الأسماء، واستبدلها بأسماء ذات معانٍ حسنة.

كل ذلك يجعلنا ندرك الأهمية التي أولاها الرسول الأكرم لجعل الثقة بالنفس أحَدَ الأسس التي تبنى عليها الصحة النفسية، باعتبار أنَّ النفس تحتاج إلى علاج كما البدن يحتاج إلى علاج.

ولعلَّ المثالَ على اهتمام الرسول ﷺ بالاسم ما يُنبئُ عن سائر مقومات التربية الإسلامية التي تهدف إلى ترسيخ الثقة في النفوس، ففي أي وجهٍ من وجوه الحياة: في قوله، وفي تصرفه، وفي معاملة أحفاده وزوجاته، وفي توجيه أصحابه، وفي وعظ المسلمين.. كان رسول الهدى محمدُ بن عبد الله ﷺ يتخلّق بأخلاق القرآن، وينهج على نهج الإسلام، فحقَّ أن يكون «الأسوة الحسنة» كما شاءَ له ربُّ العالمين، بقوله الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

(١) زرعة من الزرع، وهو بخلاف أصرم من الصرم أي القطع الذي ينبئ بانقطاع الخير والبركة.

كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1] ولعلَّ من الحكمة البالغة التي يجب أن يقف عندها الناس ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[2]..

فما من مسلم صادق الإِيمان، يتلو هذا القول الكريم، أو يسمعه إلّا ويخرُّ ساجداً وهو يقول: «سبحان ربنا إن كان وعدُ ربنا لمفعولا»؛ وهذا النهج لم يكن نهج المسلمين وحدهم، بل كان نهج السلف الصالح من أهل الكتاب، الذين أوتوا العلم، فقد كانوا يعلمون أنَّ القرآن منزَّلٌ على قلب محمد ﷺ بالحق من ربه، إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان ساجدين، حامدين، شاكرين لله تعالى الذي وهبهم نعمة العلم، بما في هذا القرآن، وما يأمر فيه من الاقتداء برسول الإسلام.. فيا حبذا لو أنصف أهل الكتاب ـ اليوم ـ أنفسهم وساروا على نهج السلف الصالح، لوجدوا في القرآنِ ـ من خلال نظرة موضوعية إيمانية صادقة ـ الحلولَ التي تعالج كلَّ القضايا، بما في ذلك المعالجات النفسية لما يعتور نفوس الناس من المفاسد.. وهذا لا يخرج عن التعاليم التي جاءت بها التوراة ومن بعدها الإنجيل، والتي تحضُّ الناس على الإيمان الحق، والسلوك القويم التي يخلّص النفوس من عثراتها، ويعيد إليها المعافاة والصحة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٧ و١٠٨.

المبحث الثاني

الجدية والتغيير

الواقع أنَّ حياة الناس مليئة بالمشاكل، إذ على مستوى الأفراد ما من إنسان إلّا وتصادفه مشاكل متنوعة في حياته، حتى السؤال الذي يطرحه على نفسه، ولا يجد الإجابة عنه قد يشكل له مشكلة، ومِثْلُهُ كل أمر يريد تحقيقه ولا يعرف السبُلَ التي توصله إليه، ومن الطريف أنَّ ربةَ المنزل عندما تقع في الحيرة لاختيار الطبخ اليومي فقد تجد في ذلك مشكلة.. هذا على الصعيد الفردي، فكيف الأمر على صعيد المجتمع من حيث توفير فرص العمل، وزيادة مستوى الدخل الفردي والدخل العام، والانتباه إلى مؤشر الغلاء، وتكلفة النقليات.. أي كل ما يتطلّب معالجة الأوضاع الاقتصادية والمالية والاجتماعية والسياسية والأمنية وغيرها من المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع! من هنا كان تشعب المشاكل التي تحتاج إلى معالجات، والمسائل التي تحتاج إلى حلول.. ومن هنا كانت ضرورة التفكير لإيجاد تلك المعالجات والحلول..

أما بالنسبة إلى علماء النفس فإنهم يرون أن التفكير لمعالجة

المشكلة، أية مشكلة، لا بد أن يمر بمراحل. وقد قاموا بدراسة وتحليل مراحل التفكير هذه، ووضعوا لها القواعد التالية:

أولاً: التفكير بوجود مشكلة

يقولون: ليس هنالك شيء يمكن اعتباره مشكلة إلّا إذا قرَّر التفكير أنه مشكلة، فإذا فكرنا بأي أمر من الأمور ولم يعطنا التفكير طريقةً للوصول إليه وتحقيقه، عندها يكون فكرنا قد حكم بوجود مشكلة. ثم نشعر بعدها بدافع ملحٌ إلى معالجتها. وتختلف قوة هذا الدافع بحسب نوعية المشكلة ومدى صعوبتها. والمشكلة تختلف بين شخص وآخر، فالمعوز قد تعترضه مشكلة تأمين القوت لعياله، بينما قد تعترض المزارع مشكلة تصريف إنتاجه، في حين يرى الطالب في الدروس والمحاضرات التي لم يدرسها، أو لو يفهمها، مشكلة تعترضه لاجتياز امتحانه.. وهكذا الحال بالنسبة لجميع الناس. ولذلك كان التفكير بالمشكلة أولى المراحل لمعالجتها..

ثانياً: جمع المعلومات عن المشكلة

بعد أنْ يتأكد الإنسان من وجود مشكلة لديه، ويقلّب هذه المشكلة من جميع جوانبها، ويتفحَّص مختلف وجوهها، فإنه يعمد إلى تقصّي المعلومات عنها، وهنا يبدأ بتجميع الأفكار حولها أو أنّ الأفكار ذاتها هي التي تتداعى وتتوالى، فيقارن في ما بينها، ويختار منها ما هو أكثر ملاءمة للمساعدة على توضيح المشكلة، وفهمها، وتحديدها بدقة.

ثالثاً: وضع الفروض

أثناء جمع المعلومات المتعلقة بالمشكلة قد تطرأ على الذهن

بعض المعالجات المحتملة لها، أو بعض الفرضيات التي قد تساعد على معالجتها فينظم هذه الفرضيات ويرتبها، ثم يختار بعضها ممَّا يراه أكثر صلاحية للمعالجة، وبعد ذلك يعمد إلى مناقشة أول الاحتمالات التي اختارها فإذا وجدهُ غير كافٍ استبعده وانتقل إلى الاحتمال التالي في الترتيب. وقد يقوم بمناقشة عدة احتمالاتٍ وتمحيصها في ضوء المعلومات المتوافرة لديه، إلى أن يقع أخيراً على الاحتمال، أو الفرض الذي يراه أكثر ملاءمة وانطباقاً، وأكثر صلاحية لمعالجة المشكلة.

رابعاً: أفكار جديدة ومعلومات طارئة

بعد اختيار الفرض الأخير قد تطرأ على ذهن الإنسان أفكار جديدة أو قد تتوافر لديه معلومات إضافية، فيقوم في ضوئها، بتحليل المشكلة من جديد. وقد يجري الاستشارات ويقوم ببعض التجارب، وكل ذلك للتأكد من صحة الفرض الذي اعتمده، حتى ينتهي أخيراً إلى المعالجة التي توافقه، فيضعها موضع التنفيذ.

تلك هي المراحل التي تمر بها عملية التفكير عادةً في معالجة المشكلات التي تعترض الإنسان، ما لم يكن الإنسان متهوراً فيقدم على عمله من دون أي استعداد أو سابق تفكير، وقد يصطدم في مثل هذه الحالة بصعوبات، ومآزق تحول بينه وبين تحقيق أهدافه، ولذلك كانت الجدية في التفكير والعمل من أهم العوامل التي قد تساعد الإنسان على قلب المعادلات في حياته، وسلوك منهج جديد عنوانه الجديّة في التفكير..

وسوف نبحث معنى الجدية، ثم التغيير..

الجدية

إنَّ التفكير في الأعمال العادية التي نقوم بها في حياتنا اليومية لا ينطبق عليه وصف «التفكير الجدّي»، لأننا نقوم بتلك الأعمال عن طريق العادة وبحكم الاستمرار، بينما جدية التفكير لا بدَّ أن تُقصد قصداً، والقصد هو أساس لها؛ بمعنى أنَّ الجديّة التي نعنيها هي التي تتطلب، للقيام بفعل ما، أو عمل شيءٍ ما، مستوىً معيناً من التفكير، فإنْ كانت درجة الجدية دون هذا المستوى من التفكير فلا تعتبر جديّةً ـ بالمعنى الكامل ـ بل يكون الفعل عبارة عن حركة آلية، تتمُّ بصورة عفوية وتلقائية مثل مضغ الطعام، وإغلاق الجفون من النعاس، وقيادة السيارة في طريق سالك ليس فيه ازدحام، وما إلى ذلك. . .

والجدية في التفكير لا تستلزم قصر المسافة أو طولها بين الفكرة والعمل الذي يتأتّى عنها، فقد يفكر المرء بالسفر إلى الخارج وقد تطول المسافة الزمنية بين هذا التفكير والسفر فعلياً، أو قد يفكر أحدنا بتناول الطعام فيقدم عليه فوراً، أو قد تنقضي بضع ساعات قبل أنْ يأكل؛ وقد يفكر صاحب صناعة في تطوير صناعته، فيعمد إلى تنفيذ مشروع التطوير خلال بضعة أشهر،أو قد تمرُّ سنة، وربما بضع سنين قبل ذلك؛ وقد يفكر النخبة من أبناء الأمة بإنهاضها، ويقصر الزمن أو يطول بين تفكيرهم وقيام النهضة. . فالمسألة ليست بالمسافة، أو المدى الزمني بين التفكير والفعل، فهذا ليس هامّاً، بل المهم أن يوجَدَ العملُ من جرّاء التفكير، سواء قام بالعمل المفكّرُ نفسُهُ، أو قام به سواه من الآخرين، الذين أخذوا أفكاره وترجموها إلى أعمال. . ومثل هذا التفكير الجدي الذي يترجم إلى أعمال، قد يأتي نتاجُهُ كلاماً عاديّاً نتفوه به، أو إنتاجاً أدبياً من الشعر أو النثر، أو نتاجاً في أبحاث الفلسفة،

والفلك، والطب، والعمارة، أو قد يكون أعمالاً تطبيقية مثل التجارب التي يجريها العلماء في المختبرات أو خارجها.. أو قد يكون الإنتاج الفكري نوعاً من الخطط التي يضعها علماء السياسة، والقادة العسكريون، وما إلى ذلك من الأفعال والأعمال التي يقوم بها الأفراد أو الجماعات بشكل عادي، أو استراتيجي، ثمرة للجهود الفكرية التي يبذلها أصحاب الأفكار الجديّة.. من هنا، يمكن القول إنَّ الجدّية مطلوبة، بل وضرورية في التفكير الذي يتوخى تحقيق الأهداف، سواء نجح أو أخفق بذلك؛ وإلّا، أي بدون الجدية، يكن التفكير عبثيّاً، أو تخيّلاً غير قابل للتطبيق، أو رتيباً يسير على وتيرة واحدة بحكم العادة أو التقليد، ومثل هذا التفكير الرتيب قد يؤدي بصاحبه إلى أن يستمرئ الحياة التي يكون عليها، أو يألف ما تكون عليه حياةُ الناس، ما يبعده عن استهداف التغيير، أو بلورة أية فكرة لديه عن التغيير.. أي بتعبير آخر إنَّ التفكير الجديّ هو الذي يؤدي إلى التغيير، كلما وجدناه ضرورياً.

فما هو التغيير، ومتى يكون ضرورياً؟

التغيير

لا بدَّ من التوكيد، مجدداً، على أن التغيير هو نتاج التفكير الجدي، مثل أي عمل أو هدف يرومه الإنسان؛ ولعلَّ التفكير بالتغيير هو من سمات الإنسان الاجتماعية، بمعنى أنه لا بدَّ أن يوجد لدى كل إنسان نوعٌ معين من التفكير بالتغيير بوصفه كائناً اجتماعياً؛ وقد يكون هذا التفكير كامناً في نفس الإنسان بالقوة، ثم يظهر بالفعل، أي بأن يباشر الإنسان عملية التفكير بالتغيير أثناء خوضه معترك الحياة. وهذه المباشرة قد تكون حالة فردية، أو حالة جماعية، لأنَّ التغيير أمر

ضروري في حياة الناس، كلما كانت الأوضاع التي يعيشونها تستدعي التغيير، أي نقلها من حالتها الراهنة إلى حالةٍ أفضل لمصلحتهم، أو كلما كان من شأن التغيير أن يأتي أكثر توافقاً مع قيمة الحياة التي وهبها الله تعالى للبشر؛ فالفرد الذي يعيش في أوضاع سيئة من الفقر، والجهل، والمرض والتعاسة، وغيرها من الأوضاع المزرية، لا بدَّ أن ينشد التغيير في حياته؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى أي شعب ـ أو أية أمةٍ ـ يُعاني المشاكل السياسية أو الاقتصادية أو المالية أو الاجتماعية، أو كانت غالبية أبنائه تتخبط بالأزمات الأخلاقية أو السلوكية، إذ يكون على المعنيين، وهم عادة القادة أو النخبة في المجتمع، أن يباشروا عملية التغيير بوضع القوانين والبرامج والخطط التي تكفل بتخليص الشعب من مشاكله وأزماته، باعتبار أنَّ التغيير لا يكون بالأماني، أو الحسرات، أو التقاعس، أو بالاعتماد على الغير، بل بالأعمال الجديّة التي بنيت على أفكار وتصورات جديّة، تضمن عملية التغيير.

والتغيير لا بدَّ من أنْ يُبنى على الأساس القوي المتين لكي يكتب له النجاح في تحقيق أهدافه؛ وهذا الأساس لا يمكن أن نجده إلّا في العقيدة العقلية التي تنبثق منها جميع المفاهيم، والأفكار، والتصوّرات، والمشاعر، التي تتجاوب مع فطرة الإنسان، فهذه العقيدة هي وحدها التي تكون صالحةً لإيجاد الفكر التغييري في أوضاع الأفراد، وأوضاع المجتمعات، ومتى وُجِدَ الأساس الصالح الصادق كان هو المقياس الأساسي لجميع المقاييس، والمفهوم الأساسي لجميع المفاهيم، والقناعة الأساسية لكل القناعات، وبه تتغيّر القيمُ كلها: قيم الأشياء، وقيم الأفكار، وكل القيم التي ترفع من شأن الإنسان، وتوفر له حياةً أفضل. فعندما يكون الأساس، إذاً، هو

العقيدة العقلية التي تتجاوب مع فطرة الإنسان، فليس ثمّة من حاجة إلى التغيير في الأصل؛ لأنَّ التغيير إنَّما يُفترض حيثما تكون الأوضاع غير مستقرة، والأمور غير مستقيمةٍ، أي حيث يكون الخطأ ماثلاً للعقل، ويمارَسُ بصورة فعلية.. أما إذا كان العقل موقناً يقيناً جازماً بصحة الأوضاع، وصلاحية الأمور والقضايا التي تهمُّ الناسَ، فإنَّ فكرة التغيير تنعدم كلياً، لأنَّ البناء العقائدي القويم، هو الذي يصحح الأخطاء بصورة ذاتية وتلقائية، لا تحتاج معها حركات التغيير الإصلاحية إلى الظهور.

والتفكير بالتغيير، وإنْ كان ينبع من الأنفس، وتدفع إليه وقائع الحياة، فإنَّه لا بدَّ أن يستهدف الروابط المجتمعية التي تقول بضرورة العيش في حياة كريمة، تقوم على قواعد العدل والإنصاف، وعلى اتباع الحق، وعمل الخير.. بحيث لا يبقى نطاق التغيير محصوراً في مجتمع من المجتمعات ولا مقصوراً على تغيير الذهنية لدى شعب معين أو أمة معينة، بل تتعدى المشاعر بالتغيير كل حدود المجتمعات، لتطال الوجود الإنساني برمته، وما ذلك إلَّا لأنَّ الإنسان هو الإنسان، وخاصِّيتُهُ الإنسانية إنما تعني أن الناسَ جميعاً أبناء آدم وحواء، وأنَّ الله تعالى خلقهم من نفس واحدة لتجمع بينهم المشاعر الإنسانية، ولذلك تقع على عاتق الإنسان، الذي يشعر بإنسانيته، مسؤولية التغيير في كل مكان، وفي كل شيءٍ يحتاج إلى التغيير حتى تتناسق أمور الحياة، وتتناغم المسيرة الإنسانية في جميع المجالات، فلا يعود التنافر أو التنابذ أو التخاصم قائماً بين الأفراد، ولا تعود المطامع والمنازعات والهيمنة مسوغة بين الدول، بل تسود بين الناس روح المحبة والتسامح، ويعمّ السلام والأمن والتعاون بين الأفراد،

والجماعات والدول! . . . ولا نقول ذلك بدافع من التفكير المثالي، أو الخيالي، بل لأننا نؤمن بأنَّ الإنسان قادر على أنْ يغلّب مشاعر الإنسانية في نفسه، ولا يتطلب ذلك منه أكثر من التخلي عن بعض الأنانيةِ، والأَثَرَةِ، والطمعِ، وما شاكل ذلك من المشاعر التي تفرّق عادة بين الناس. . فإنْ فعَل ـ وعليه أن يفعل ذلك ـ تحققت إنسانية الإنسان، في مختلف مجالاتها الرحبة. . .

ولكن، من جهة ثانية، قد يصطدم التغيير بأنواع من العقبات التي تحول دون تحقيقه، ويكون وراءها القوى التي تشعر بأنَّ التغيير خطر عليها؛ إلّا أنَّ ذلك لا يكون إلاّ لزمنٍ محدود، باعتبار أنَّ هذه القوى، سوف تنادي هي بالتغيير، ولاسيما عندما يتأكد لديها أنَّ مقاومتها للتغيير لا بدَّ أن تنعكس عليها سلباً. . بل وأكثر من ذلك، فإنَّ تلك القوى بالذات قد تطرح هي، الأفكار والشعارات التي تعبّر عن مظاهر التغيير، لأنَّ الحاجة إلى التغيير حتميّة، وقد تتولَّد عن كون الناس يفكرون بالتغيير إمَّا بالاقتناع أو بالقوة، ولكن متى حصل التغيير بالفعل، وأدرك الناس قيمة هذا التغيير في حياتهم، أصبح لديهم التفكير بالتغيير أسهل وأيسر، لأنه يعيد إليهم مشاعرهم الإنسانية التي تعبِّر عن كل ما فيه خير الإنسان وصلاحه.

التغيير في المفهوم الإسلامي

لو ألقينا نظرةً على الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، لظهر لنا جليّاً أنه واقعٌ سيّئ ـ جداً ـ فقد وصلوا إلى أدنى مستوى، عبر تاريخهم، في توجهاتهم الفكرية، إنْ لم نقل وصلوا إلى الحضيض في الانحطاط الفكري، بل والتخلّف المادي! . . فلا تغرَّنّك هذه المظاهر

من العمران، والتخطيط المدني، وركوب أغلى السيارات ثمناً، أو شراء الملابس الأنيقة والحلى والجواهر، وأدوات الزينة (التي أثبتت الإحصاءات أنَّ البلاد العربية الإسلامية أكثر البلاد استهلاكاً لهذه المواد والأدوات). . فهذه المظاهر، وإنْ كانت تعبِّر عن انفتاحهم على المدنية المعاصرة، إلَّا أنَّها في الوقت نفسه تدلُّ على عدم اهتمامهم بالقيم الحضارية التي توفِّرها العقيدة الإسلامية في نظرتها إلى الحياة والإنسان. . كما أنَّها تدلُّ على عدم أخذهم بالسبل الآيلة إلى التقدّم العلمي، مثل غيرهم من الدول التي تفاخر بالنهضة العلمية والتقنية التي وصلت إليها، وبصرف النظر عن الآثار التي تخلّفها مثل هذه النهضة على نفوس الناس! . . .

أما لماذا وصَلَ المسلمون إلى ما وصلوا إليه، فالأسباب باتت معروفة، ولعلَّ أهمها وأكثرها تأثيراً هذه التبعية السياسية للغرب، التي جعلتهم يَضلُّون عن المسارات التي توفرها لهم عقيدتهم، لا بل جعلتهم يقعون في فخّ العداوة إلى حدّ القطيعة، أو الاقتتال أحياناً! . .ومثل هذا الواقع الأليم يستدعي التحذير من مخاطره الوخيمة التي تفرض عليهم ضرورة العمل على تغييره لاستعادة دورهم الفعّال على الصعيد الإسلامي والعالمي، الذي لا يمكن استعادته إلّا بالتغيير الإسلامي. . بل لا بدَّ أن ننبِّهَ إلى أن القيام بمهمة التغيير هو تكليف شرعي، لا يجوز القعود عنه، أو التهاون فيه، أو التنصّل من مسؤوليته حتى لا نكون مأثومين عند الله تعالى؛ ونحن لا نقول بهذا التكليف جزافاً، بل استناداً إلى ما نبَّهنا إليه ربُّنا تبارك وتعالى، من أنَّ الأمة الإسلامية ـ مثل كل أهل دين ـ مسؤولة أمام الله تعالى عن أعمالها مجتمعة، أي كأمة، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ

أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، ولعلَّ من أبرز الأدلة على الواقع المأساوي للمسلمين هذا التعصّب الطائفي الذي يُعدُّ ضرباً لوحدة المسلمين، جملةً وتفصيلاً، لأنه دخيل على الروحية الإسلامية الإيمانية، وهذه الانقسامات الفكرية التي جعلتهم يتوزعون في ثلاث فئات، وهي:

١ ـ فئة ضلّت عن الإسلام في كل شيءٍ، فلا تقيم اعتباراً أو وزناً لصلاةٍ أو صومٍ أو زكاةٍ أو حجٍّ..

٢ ـ وفئة مسلمة، تؤدي الفرائض والطاعات، ولكن في الشكل دون المضمون، لأنها مشتتة بين يائسٍ، ومشكّكٍ، وتائهٍ عن مقاصد الشريعة، ومهادنٍ أو موالٍ لغير أهل الإسلام، أو محاولٍ للتوفيق بين المفاهيم والأفكار الإسلامية، والمفاهيم والأفكار الغربية..

٣ ـ والفئة التي تنتهج في حياتها نهجاً إسلامياً، بصرف النظر عن نظام الحكم الذي تعيش في ظله. فهذه الفئة هي التي تظهر جادّةً في العمل الإسلامي الذي يرضي الله تعالى، ورسوله الكريم، وهي المؤهلة لحمل الفكر التغييري، وعلى عاتقها يقع عبء التغيير المنشود، الذي يقوم على أساس العقيدة الإسلامية، باعتبارها العقيدة العقلية التي تتجاوب مع فطرة الإنسان ومصلحته..

إذاً فهذا الواقع للمسلمين هو الذي يفرض عليهم النهوض من كبوتهم، أو غفلتهم، ومباشرة عملية التغيير؛ وعندما نقول بضرورة التغيير الإسلامي، فلا يعني ذلك أننا نأتي به من فراغ، بل لأن المنهج

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

الإسلامي هو بطبيعته منهج تغيير يتناول الإنسانَ والحياةَ والكون بنظرة شمولية، متناسقة ومتكاملة، لا مجالَ فيها للترقيع أو الاقتباس عن غيرها؛ إذ إنَّ العقيدة الإسلامية كلٌّ كامل متكاملٌ، لا تحتاج إلى غيرها في شيءٍ، سواء في الأصول والأحكام، أو في المفاهيم والتعاليم، أو في الطريقة والأسلوب والمنهج، التي تتكاثفُ جميعها وتتكفَّل بعملية التغيير، ولذلك وجب أن يكون تطبيقها كاملاً متكاملاً، بحيث تؤخذ كلاًّ بلا أدنى تجزئة، فلا يجري تطبيق الأحكام الإسلامية مثلاً في مجالات دون مجالات، ولا تطبيق المنهج الإسلامي في مسائل دون أخرى، فإمَّا أن تكون العقيدة شرعاً ومنهاجاً هي الإسلام، والإسلام هو العقيدة وكل ما ينبثق منها يكون إسلامياً صرفاً، وإمَّا أن تكون العقيدة غير إسلامية، وكل ما ينبثق منها غير إسلامي، ولا هوادة في ذلك. أما لماذا إيماننا بأنَّ العقيدة الإسلامية هي وحدها سبيل الخلاص، فلأنها عقيدة ربانيّة، أنزلت من لدن الله تعالى ـ خالق الإنسان والحياة والكون ـ وهو أعلم بما يصلح لعباده، فأنزل لهم الإسلام عقيدةً، ومبدأ، ومنهاجاً، ليقيموا حاكمية الله في الأرض؛ فهل يجوز بعد ذلك أن نتبنَّى عقيدة أو عقائد هي من صنع الإنسان، ونرفض أو نتخلَّى عن عقيدة هي من صنع الله تعالى؟!.. شتَّان.. وهيهات.. ولذلك قلنا إنَّ التغيير يجب أن يكون نابعاً من العقيدة الإسلامية ولا خيارَ آخرَ على الإطلاق.

ومن المعلوم أنَّ المسلمين لم يصلوا إلى هذا الواقع المأساوي سواءٌ اليومَ، أو في ما سبقَ من عهود إلاَّ لأنهم اعتمدوا أنصاف الحلول التوفيقية، مقتبسين من الأنظمة والمناهج الوضعية لتطبيقها في مجتمعاتهم الإسلامية، فضاعوا، وتاهوا عن صوابية التفكير، وابتعدوا

عن السبيل السويّ، أي عن منهجهم الأصيل، المنهج الرباني الذي لا يستوي معه منهج آخر من جميع المناهج التي هي من صنع الإنسان..

نعم لقد ابتدع الإنسان أنظمة وتشريعاتٍ، أقل ما يقال فيها أنها لم تراع حاكمية الله تعالى، لأنها لم تحكم بما أنزل الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[3].

هذا قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو يصف الذين لم يحكموا بما أنزل سبحانه من الأحكام والتشريعات بأنهم كافرون، ظالمون، وفاسقون.

وها هو العالم بأسره يشهد على ما وصلت إليه الأنظمة والتشريعات الدنيوية من نتائج، لم تعد تَخفى على كلّ ذي بصيرة: تخبّط في الأزمات السياسية والاقتصادية والمالية، واستغلال للثروات والموارد الطبيعية لمصلحة الشركات والمؤسسات الاحتكارية.. وسيطرة للفساد في أوضاع المجتمعات.. وتزايد في الخلافات الفكرية، وتنكر لقواعد العدل والإنصاف في تطبيق قواعد القانون الدولي.. وهدر لحقوق الإنسان السياسية والمدنية، ما أدّى إلى ضياع الإنسان نفسياً وجسدياً، وتياهِهِ في تيارات المادية والإلحاد، لأنَّ كل ما يحيط به تجاهلٌ للمعاني التي تحافظ على كيانه الإنساني، وعلى صون وجوده البشري.

من هنا كان على المسلمين، وهم يعتنقون الشريعة السمحاء،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

ويدينون بالمبدأ الحق الذي أنزل من الحقّ تبارك وتعالى، أن يدركوا بابتعادهم ـ هم أنفسهم ـ عن دين الله، وانصرافهم ـ هم أنفسهم ـ عن إحقاق حاكمية الله في بلادهم، وأن يلاحظوا ـ في الوقت نفسه ـ إنكار غيرهم بصدقية إقامة الحاكمية الحق في دنيا الأرض.. ومتى أدرك المسلمون ذلك، صار لزاماً عليهم أنْ يوحدوا كامل جهودهم من أجل وحدة المسلمين أولاً، ومن ثم أنْ يبادروا إلى تغيير الأوضاع السائدة في مجتمعاتهم، لينطلقوا إلى استئناف الحياة الإسلامية، وتطبيق منهج الله تعالى في كافة ميادين الحياة، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(2)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(3).

والتغيير الإسلامي ليس مجرد تغيير جانب من جوانب الحياة الإنسانية: الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الأمنية.. بل هو بحكم كونه قائماً على القرآن والسنة، يتناول جوانب الحياة الإنسانية كلها ـ بما في ذلك انسجامها وتناسقها مع سنن الله تعالى في الكون ـ فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلّا ويكون معنياً بشأنها، لأنَّ المصدر الذي يستقي منه لم يترك شاردةً ولا واردةً إلّا أحصاها، وجعل لها حكمها..

والتغيير الإسلامي المنشود، سواء كان تغييراً لما في نفوس

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(2) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(3) سورة الشورى، الآية: ١٠.

الأفراد وأحوالهم، أو تغييراً لأوضاع الشعوب والمجتمعات، فإنه يجب أن ينطلق ـ دائماً ـ من الأساس الذي تقوم عليه مقومات حياة الإنسان، ولاسيما ما يتعلق منها بالحفاظ على حياته من المرض، والفقر، والجهل، والقتل؛ وعلى صون كرامته من أي اعتداءٍ أو افتئات، وعلى حفظ حقوق شعوبه في الاستقلال وعدم التبعية، وتأمين سبل العيش الكريم لهم، وتوثيق عرى الوحدة والتضامن في ما بينهم. . إلى آخر المقومات التي يقوم عليها الحكم الإسلامي سواء في داخل المجتمع أو العلاقات مع الخارج. .

ولذلك كان لزاماً على المسلمين أنْ يُحدثوا التغيير أولاً في نفوسهم، حتى تعود أفكارهم ومشاعرهم متوافقةً مع عقيدتهم، وأن يحدثوا، من ثَمَّ، التغيير في أوضاع مجتمعاتهم، من خلال تطبيق الإسلام شرعة ومنهاجاً، وبهذا التطبيق، يمكنهم أنْ يلقوا الحجة على الناس في دعوتهم للاستجابة إلى التغيير الإسلامي، انطلاقاً من حقيقة إيمانية ثابتة، وهي أنَّ أفكار الناس وشرائعهم لا يمكن أن تستقيم مع الناموس الشامل في الحياة الإنسانية، إلاَّ بالإِيمان بحقيقة وجود الله تعالى وألوهيته المطلقة، وربوبيته المطلقة تصديقاً لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(١). . ولا شيءَ يُغيّر في حياة الناس نحو الأفضل، ويرفع عنهم الغبن والأذى والسوء والظلامة إلَّا إذا أقرّوا بهذه الحقيقة، واعتنقوا الإسلام عقيدةً دينيةً، دنيويةً وأخرويةً، ومن ثَمَّ طبقوا مناهجَهُ في مجتمعاتهم. . وحتى إذا لم يُردِ الناسُ اعتناقَ

(١) سورة الإخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

الإسلام عقيدةً، فليس ما يضيرهم أن يجرّبوا تطبيق أحكام ومفاهيم وتعاليم هذا الدين ـ بعد أن أقاموا الأنظمة السائدة حالياً وثبت فشلها، على مدى عصورٍ، في إصلاح حياة الناس ـ وعندها سوف يجدون واقعاً جديداً، يختلف عن كل ما عرفه الإنسانُ في مجتمعاتهم من قبل.. أما الركائز الذي يقوم عليها التغير الإسلامي، بوصفه تغييراً انقلابياً شاملاً، فهي التالية:

١ ـ معرفة الهدف الذي يجب أن يسعى إليه المسلمُ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى وجعلها هي العليا.. أي إن ترجمة هذا الهدف تكون بإقامة حاكمية الله من خلال الامتثال لأوامره ونواهيه، فإذا كان التغيير لا يتوخى هذه الغاية، فلا حاجة له في الأصل.. إذ إنَّ التغيير الإسلامي ليس غاية بحد ذاته، بل هو السبيل الوحيد للاستخلاف في الأرض، ومن ثمَّ للقيام بالأمانة التي ألقاها الله تعالى على عاتق الإنسان وإلَّا فسيانَ إنْ كان هنالك تغيير أو لم يكن، وسواء سبَّب المسلمون الإساءة إلى أنفسهم، كما يفعلون، أو لم يشعروا بهذه الإساءة، وهذا ما لا يرضاه الله تعالى لهم، لأنهم خير أمة أخرجت للناس، وتقع على عاتقهم مهمة التغيير!..

٢ ـ تغيير طريقة التفكير لدى المسلمين حتى يتغير ما بالأنفس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١)، إذْ من الواضح أنَّ وضْعَ المسلمين باتَ سيِّئاً للغاية... ونعودُ ونكرّرُ مراراً عديدة أنَّ أهم الأسباب التي

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

يمكن أن نعزوها لوصولهم إلى هذا الوضع، أنَّه، منذ زمن طويل، لم يعودوا يطبقون الإسلام في حياتهم تطبيقاً كاملاً، لا بل ترك كثير منهم الإسلام وراء ظهورهم، واتَّبعوا الأنظمة والمناهج الأرضية التي ابتكرها غيرهم، ما أدّى إلى تشتت أفكارهم ومفاهيمهم حول قضاياهم الأساسية، وجرَّهم إلى التفرقة في ما بينهم، وقيام العداوات بين دولهم، في كثير من الأمور . . . فانعكس ذلك سلباً على وحدة الأمة الإسلامية في أفكارها ومشاعرها، وعلى أوضاع بلادها الإسلامية كلها. . إذاً، ليكن هذا التكرار بمثابة اللازمة التي يجب أن يفقهوا أبعادها بصورة مستمرة، ليكون لهم السبيل الحق للتغيير.

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ سبل الخير لا تزال مفتوحة أمامهم، ما داموا يعتنقون عقيدةً واحدةً، وهي كفيلة بأن تأخذ بيدهم إلى ما فيه إصلاح نفوسهم وأوضاعهم. . ولا يكون لهم ذلك إلاَّ بإخلاص النية لله تعالى، والدعوة الصادقة إلى وحدة كلمة المسلمين، والاعتصام بحبل الله المتين امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۞ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۞ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]. هذه دعوة الله تعالى

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٥.

إليكم أيها المسلمون حتى تغيّروا ما بأنفسكم وليس بعد قول الله العزيز الحكيم من قول.. وليس بعد دعوته سبحانه من دعوة.. فإمَّا الامتثال لأمر الله تعالى وفيه التغيير والصلاح والفوز في الدنيا والآخرة، وإمَّا البقاءُ على أوضاعكم الراهنة، والأمر لله!.. إنَّما لا بدَّ من التوكيد والتذكير بأنَّ ربَّكم العزيز، ومولاكم الكريم يقول: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(1)..

ثم لا بدَّ هنا، من أن يطرح المسلمون على أنفسهم جملةً من الأسئلة:

أليس الله تعالى هو المنعم ومن نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى:

- أنْ بعث لكم رسولاً من أنفسكم ليكون قدوةً وأسوةً حسنةً تحتذون خطاه في كل شيء، لأنه بعث رحمةً مهداةً للعالمين..
- أنْ أَنزل إليكم القرآن، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه هدى للمتقين..
- أنْ حمَّلكم الإسلامَ أمانةً في أعناقكم حتى تنشروه في دنيا الناس، فيسري في نفوسهم نورُ الله، وتأمنُ حياتُهم من الضلال، والظلم، والفساد، والفسق والفجور..
- أنْ جعل في بلادكم من الأرزاق والثمرات ما يغنيكم عن العوز والفقر والحاجة، ويوفّر لكم الإمكانات والطاقات للنموّ والتقدم.. بل جعلكم في بلادٍ لها موقع جيو ـ سياسي كفيل بأن يوفّر لكم قوةً قادرة على التحكم بالعالم كله، وتنبَّه إليه أعداؤكم، فجعلوا أحكام

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

بلادكم أداة لقهركم حتى يبعثوكم بعيدين عن التغيير..

وهنا لا بدَّ أنْ نسألَ من جديد: أليس جديراً بالمسلمين أن يتفكَّروا بأنَّ ما أوصلهم إلى الواقع المأساوي الذي يعيشونه إنما هو بمشيئة الله تعالى، لأنَّهم تنكروا لكل تلك النعم؟! وأنَّ سبيل خلاصهم الوحيد هو وحدة الكلمة، بين المسلمين جميعاً حتى ينظر الله تعالى إليهم بالعطف والرأفة؟!

٣ ـ معرفة الواقع الذي يعيشه المسلمون، والعمل على تغييره ما دام هذا الواقع يستدعي التغيير، من خلال إعادة دراسة شاملة للأسباب التي أدت إليه، ولاسيما ما يتعلق بعوامل التاريخ والثقافة، والاقتباس عن الغير.

٤ ـ اعتماد الخطط والوسائل والأساليب السليمة، وصلاحيتها، وموافقتها للمفاهيم الإسلامية لضمان صيانة التغيير الإسلامي من كل انتكاس أو ارتكاس.

٥ ـ بناء المجتمع الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية وفقاً لكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم.

وانطلاقاً من هذه الركائز، وجب أن يكون التغيير الإسلامي إنسانياً في خصائصه، أخلاقياً في طبيعته، عقائدياً في وسائله وأساليبه وغايته، وهي الميزات التي تجعله مختلفاً عن مفاهيم التغيير لدى الآخرين.

تأثير التغيير الإسلامي في العلاج النفسي

إنَّ إحداث أي تغيير في سلوك الإنسان يجب أن يسبقه تغيير في أفكاره واتجاهاته، وذلك لتأثّر السلوك بها إلى درجةٍ عالية.. وهذا ما

يتوخاه العلاج النفسي أساساً، أي تغيير أفكار المريض نفسياً، في ما يخصُّهُ هو عن نفسه، وتغيير أفكاره عمَّن هم من حوله، وعن الحياة، وعن المشكلات التي عجز عن مواجهتها من قبل، وكانت سبباً في مرضه، حتى نصل به إلى تغيير نظرته إلى الحياة برمتها، من حيث أهميتها، وضرورة الحفاظ عليها، ومن حيث جمالها، وضرورة إسهامه في بنائها الحقّ. .

وحين تتغير أفكار المريض نفسياً، وتظهر له بوضوح الأسباب الكامنة وراء ما يحصل له، فقد يرى الأمور بصورة مختلفة، ويجد أنه لم يكن هنالك مبررات كبيرة، تستدعي ما ينتابه من الأعراض! . . .

والعلاج النفسي هو في أساسه عملية تعليم جديدة يتم فيها تبدّل أو تغيير الأفكار والمشاعر والعادات والسلوك التي يكون المريض قد تعلمها أو اكتسبها بطرق خاطئة، أو وهمية عن نفسه، وعن غيره، وعن المجتمع، وعن كل الأمور التي كانت تواجهه وتسبب له القلق والتعاسة. . وتكون مهمة المعالج النفسي تصحيح أفكار المريض لكي ينظر إلى كافة الأمور نظرةً واقعيةً صحيحةً، تمكّنه من مواجهة مشكلاته بدلاً من الهرب منها، والعمل على محاولة معالجتها، بدلاً من البقاء في حالة الصراع النفسي الناشئ عن العجز السابق. ويصاحب ذلك، بطبيعة الحال، شعور المريض بالنشاط والحيوية، وبتغيير فعلي في حالاته النفسية، بما يجعله قادراً على أنْ يعاود ممارسة حياته بصورة طبيعية بعيدة عن الاضطراب أو الاكتئاب، أو القلق، بل فيها اطمئنان وسعادة ورضىً.

ولقد كانت مهمة القرآن الأساسية مواجهة الناس في الصميم، أي بما يعتمل في أعماق نفوسهم، ومدَّهم بأفكار ومشاعر جديدة

يستطيعون بواسطتها تغيير معتقداتهم السابقة، وأنماط عيشهم المادية، وعاداتهم الجاهلية، ومن ثم إعدادهم لحمل الرسالة بقوة الإيمان، وبدافع شعور القناعة والثقة. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] لأنَّ تغيير ما في الأنفس يعني تغيير الأفكار، والمشاعر، والاتجاهات، والسلوك.

وقد أحدث القرآن الكريم ذلك التغيير الرائع منذ بداية العهد بتنزيله، نظراً للأسلوب التعليمي، والتثقيفي الذي اعتمده رسول الله ﷺ من خلال تحفيظ القرآن، وتبيين معاني آياته للذين أقبلوا على هذا الدين بروح الجدية والتغيير، وبذلك استطاع أنْ يبدِّل الجهل والضلال بالعلم والهدى، والكفر والشرك بالإسلام والإيمان، والانغماس في الشهوات والأطماع بالفضائل ومكارم الأخلاق، فاستطاع المسلمون حمل أعباء الدعوة الإسلامية، والسير على منهج الله تعالى.. وقد نجح القرآن الكريم والرسول البشير النذير نجاحاً عظيماً في ذلك كله، بحيث تغيرت حياة الناس تغييراً جذرياً، وانقلبت رأساً على عقب، وخاصة بعد إرساء دعائم النظام الإسلامي في المدينة المنورة والانطلاق منها إلى أنحاء الجزيرة كافة، لتتخطاها بعد أعوام عديدة، فتطرقَ أبواب العالم كله في مشارق الأرض ومغاربها؛ ما جعل المفاهيم الإنسانية تنتشر لأول مرة بين الناس بحقٍّ وصدقٍ، فيقيمون علاقاتهم على أساس الإيمان والتقوى، واحترام الكائن البشري لخصائصه الإنسانية.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

من هنا كان مفهوم الرجوع دائماً إلى الأصالة، إلى أصالة النفس الزكية التي تعرف الخير من الشر، والصواب من الخطأ. والأصالة، في علم الأخلاق، تعني الصدق والإِخلاص.. ويطلق لفظ الأصالة على كلّ فكرٍ أو شعورٍ أو عملٍ صادرٍ حقاً عن صاحبه. ويقابله المنحول، فتقول الوثيقة الأصلية أو الأصيلة أي الوثيقة التي كتبها صاحبها أو وقعها بيده، وصدَّقها القاضي، أو صدَّق عليها الموظف الرسمي المختص. ويطلق هذا اللفظ على صدق مضمون الوثيقة، كما على مصداقيته للواقع.

والأصالة في الإنسان إبداعه، وفي الرأي جودته، وفي الأسلوب ابتكاره، وفي النسب عراقته. ولذلك تكون الأصالة ضد السخف، والإسفاف، والابتذال.

الفصل الرابع عشر

- الظروف والملابسات
- الأحداث والوقائع
- الأجواء والمناخات

المبحث الأول

الظروف والملابسات

إنَّ من أهمِّ المقوّماتِ، لصِحّةِ النّفْس أو مَرَضِها، ما تعيشُ فيه من المناخاتِ والأجواءِ، بما فيها الظروفُ والملابساتُ، والأحداثُ والوقائع. وهذه لمحةٌ موجزةٌ عن كلٍّ منها وفقاً للمفاهيمِ الإسلامية.

الظـرف

الظرف في اللغة: الوعاء، وكل ما يستقر غيره فيه؛ ومنه ظرف الزمان وظرف المكان عند النحاة. والظرف: الحال (جمعه ظروف). والظرفية هي حلول الشيء في غيره حقيقةً، مثل حلول الشراب في الكأس، ومجازاً، مثل النجاة في الصدق.

والظرف في الاصطلاح: هو الفرصة المناسبة لحدوث الشيء. ويمكن للإنسان أن يوجد ظرفاً، أي وضعاً مناسباً له، ويمكن أن يقع عليه ظرف مناسب فيستفيد من أوضاعه، أو ظرف غير مناسب فيتضرر منه.

والقرآن الكريم من بين أهدافه السامية معالجة الأوضاع التي

تحيط بالإنسان أو تقع عليه. فمثلاً لو ساءت أحوال المرء الصحية وخاف على حاضره وغده، فإنَّه يفقد الطمأنينة، ويستبدّ به القلق، ولكنَّ إيمانَهُ القوي بربه سبحانه وتعالى يجعله يستيقن أنَّ له مصيراً محتوماً لا يمكنه تبديله أو تغييره بإرادته، بل بما يشاء الله تعالى. أي إنَّ هذا الاطمئنان لدى المؤمن هو الذي جعله يعتبر أنَّ تغيّر ظروفه الصحية لن يغيّر شيئاً من مصيره، أو من الأجل المكتوب له، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الظروف من حوله، بحيث لا يجعل القلق خلالها هو الذي يغلب عليه، ولا يجعل للأمراض سبيلاً للنيل منه حتى تذهب برجائه وأمله أن يكون من الصابرين، المهتدين ومن الذين آمنوا بما نُزّل على محمد ﷺ، وهو الحق من ربهم، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[1].

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾... لأنَّ إصلاح البال هبة ربانيّةٌ لا يعلم قيمة قدرها إلاَّ من ربط على قلبه بالإيمان، وعلى حياته بالعمل الصالح. وإذا صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والأمان.

الملابسات

اللَّبس هو ستر الشيء. يقال لبَسْتُ عليه أمره، أي خلطت عليه الأمر حتى لا يعرف جهته. وألبست القوم لبْساً، إذا جعلت الأمر يُشْكِلُ عليهم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢.

ومعنى اللبس، في حياة الإنسان الداخلية: منع النفس من إدراك الشيء بما هو على حقيقته، كالستر له. والالتباس هو الإبهام والاشتباه والخلط بين الأشياء. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(١). والمعنى: أنَّ المؤمنين، الصادقين في إيمانهم، الذين لم يخلطوا إيمانَهم بظلمٍ على شتى أشكاله، أولئك لهم الأمان النفسي، وهم مهتدون من ربهم.

وعندما نزلت هذه الآية الكريمة قال الصحابة: «يا رسول الله أيّنا لا يظلم نفسه؟ قال ﷺ: إنه ليس الذي تعنون. ألم تسمعوا ما قال العبد الصالحُ لقمانُ لابنه وهو يعظه، بقول الحق: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢)، إنه الشرك».

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٣)، والمقصود في هذه الآية الكريمة إظهارُ ما كانَ المشركون يلحّون فيه على رسول الله ﷺ، وهو أن يُنزلَ الله عليه مَلَكاً يصدّقه بالنبوة ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾(٤).. وكان رسول الله ﷺ يجهَرُ لأن يثنيَ أولئك المشركين عن تفكيرهم، وهو يبيّن لهم أنَّ الملائكة خلقٌ آخرُ غيرُ بني آدم، جُبلوا على طبيعةٍ معيّنة لا يعلمها إلّا الله خالقهم، وقد أشار القرآنُ الكريم إلى بعضٍ من خصائص طبيعية خلقهم بأنهم ذوو أجنحة، وأنهم يمكن أن يتحوَّلوا إلى هيئة الآدميين، كالملك جبرائيل عليه السلام أمين الوحي إلى الأنبياء والمرسلين،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨.

وكالملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى، ثم ذهبوا إلى لوطٍ عليه السلام ، فأخرجوه وبناته الطاهرات من قرى قوم لوط، ثم جعلوا أعاليها أسافلها وأهلكوا القوم المفسدين. . أما ما عدا تلك الحالات التي كانوا يتحوّلون فيها إلى هيئة البشر، لتنفيذ مهامٍّ موكولةٍ إليهم من ربهم، فإنَّ القرآن الكريم يبيّن في أكثر من آيةٍ أنَّ الملائكة يعيشون في السماء، وأنهم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. . ولو شاء الله عزَّ وجلَّ أنْ يرسل مَلَكاً يصدق رسوله محمداً ﷺ في دعوته لظهَرَ ذلك الملك للناس على صورة رجل ـ لا على صورته الملائكية ـ ولالتبس الأمر عليهم، إذ كيف يكون هذا مَلَكٌ من الملائكة وهو إنسانٌ مثلهم؟! أضف إلى ذلك أنه لا قدرة للبشر على رؤية الملائكة، إلّا الأنبياء والمرسلين، وفي حالاتٍ خاصةٍ، كما أشرنا إلى ذلك، ومن هنا كان الاشتباهُ الذي سوف يحصل للمشركين من جديد، لأنهم لو أرادوا الحقيقة لذاتها، فقد بيّنها لهم محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة بصدقه، وهو يقول لهم: لقد أرسلني الله ربي وربُّكم، وربُّ آبائكم الأولين، بشيراً ونذيراً، بل ورحمةً مهداة للعالمين، فإذا كنتم لا تصدقونني، وقد اشتبه الأمر عليكم من بعثي نبياً ورسولاً، فكيف يكون اللبس إذا جاءكم ملك ـ في صورة رجل ـ لا تعرفونه ثم يقول لكم: أنا ملاك أرسلني الله تعالى لأصدّق رسوله؟!

أجل، لن يصدقوه وهم يرونه رجلاً كأيّ منهم!. فإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة البسيطة، وهي التصديق ببعث محمد ﷺ ، فكيف الأمرُ إذا ما أرسل الله تعالى مَلَكاً رجلاً، فحينئذٍ سوف تلتبس عليهم الحقيقة الكبيرة، وهي أنْ لا يهتدوا أبداً إلى إيمانٍ أو يقينٍ.

وهكذا يكشف الله تعالى ـ في الآية المبينة ـ جهل الذين اختلط عليهم الأمر ـ أي التبس ـ بطبيعة خلق الله العلي العظيم، كما يكشف جهلهم في معرفة سنته تعالى في خلقه، وهي أنَّ الأنبياء والمرسلين لا يكونون إلّا من البشر، من أنفسهم حتى لا تختلط عليهم الأمور، وتضيع الدعواتُ التي يحملها المبعوثون في الشبهات، فالذين يؤمنون بما نُزِّل على محمد ﷺ وهو الحق من ربهم، فأولئك هم المهتدون؛ بينما الذين يسيطر عليهم تعنّتهم وعنادهم بلا مبرر، ولا برهان، ولا دليل معرفة، فلا يهتدون، فأولئك هم الكفرة الفجرة..

الأحداث والوقائع

الحادث هو ما يكون مسبوقاً بالعدم. والحادث هو الواقع، وحَدَثَ الأمرُ أي وقع. والفرق بين الحادث والشيء، أنَّ الشيء حقيقة ثابتة مؤلفة من الصفات الموجودة في المكان، في حين أنَّ الحادث حقيقة متحركة منسوبة إلى الزمان. ومثال ذلك أنَّ صخرة الجبل شيء، أما سقوطها في الوادي فهو حادث. والحادث أعمُّ من الظاهرة، لأنَّ الظاهرة تدل على ما يمكنك رؤيته أو ملاحظته، في حين أنَّ الحادث يدل على ما يُرى وما لا يُرى، وله نسبة إلى الزمان كالحادث النفسي، أو إلى الزمان والمكان كالحادث المادي.

أما الواقعة فهي الحادث الذي يكون وجوده الزماني أكثر خطورة من وجوده المكاني: كالواقعة التاريخية.

ومن هذه المفاهيم يمكن أن نستشفَّ أنَّ الإنسان يمكن أنْ يعيش في ظل ظروف وأوضاع قد تكون واضحةً في أحداثها ووقائعها، وقد تلتبس عليه الأمور فلا يعرف ما يدور حوله وفي أي ظروف أو أوضاع

يعيش؛ وكذلك الأمر فقد تكون حياته هادئةً رتيبةً، وقد تعصف بها الأحداث التي تضغط عليه، وكلها ترتبط بالمناخات أو الأجواء العامة القريبة والبعيدة التي تؤثر على حياة الأفراد، وعلى حياة الناس بما تكون معبَّأة به أو مرسومة له. وقد كان المسلمون الأوائل عندما يشعرون بأنَّ الأماكن التي يقطنونها لا توفّر لهم المناخ أو الجوَّ الإيمانيَّ يسارعون بالانتقال إلى أمكنةٍ أكثر إيماناً، وأكثر ملاءمةً لنفوسهم، ولتنشئة أبنائهم في أجواء إيمانية. وكانوا عندما يسألون عن سبب تركهم الديار يجيبون: إنّا مهاجرون إلى ربنا.

وقد يقع الإنسان فريسةً لما قد يطرأ على حياته، أو على محيطه من أحداث في ظل ظروف وأوضاع ومناخات معيّنة، فتجتاحه من جراء ذلك الأمراض النفسية والبدنية. وقد يستطيع التأقلم مع تلك المناخات الجديدة، ويتجاوز مصاعبَ الظروف ومتاعبها، فينجو من آثارها السيئة. ومن هنا نشأت أبحاث علماء النفس في الصحة البدنية والنفسية، أي توافق الفرد مع نفسه ومع محيطه، بل ومع العالم كله، وقدرته على تحمل أعباء الحياة ومواجهتها، ومدى تقبّله للوقائع والأحداث الخارجة عن إرادته. أي بمعنىً آخر إنَّ الصحة النفسية تتعلق بالنضج النفسي، وبالمؤثرات الحسية أو المادية التي تتقلّب فيها حياة الإنسان.

وقد وضع علماء النفس المحدثون تعريفات كثيرة للصحة النفسية، نستقي منها التعريف الذي وضعته هيئة الصحة العالمية حيث قالت عن الصحة النفسية بأنها: «تكيّف الأفراد مع أنفسهم ومع العالم عموماً، مع حدٍّ أقصى من النجاح والرضا والانشراح والسلوك الاجتماعي السليم، والقدرة على مواجهة حقائق الحياة وقبولها».

وإن مختلف التعريفات، للصحة النفسيّة، التي وضعها علماء النفس المحدثون، سواء كانوا من الغرب، والشرق، أو من المسلمين، تدور كلها حول «تكيّف الفرد وتوافقه مع نفسه ومع المجتمع، ومدى قدرته وفاعليته في القيام بشؤون حياته الواقعية، وإشباع حاجاته المادية الدنيوية». على أنَّ ذلك كله رهنٌ بالأحداث والوقائع التي تمرُّ على حياة الإنسان، وما يطغى عليها من الظروف التي قد تساعد على توفير عوامل الاستقرار، أو عوامل الاضطراب التي تؤثر في سلامة الإنسان النفسية والبدنية على حد سواءٍ.

البحث الثاني

الأجواء والمناخات[*]

لا شكَّ في أنَّ الحالات النفسية التي يعيشها الإنسان، ومهما كانت الدوافع والانفعالات الكامنة وراءها، هي حالات تظهر وتتحرك في ظل الأجواء والمناخات التي تحيط به، والتي يكون لها تأثير مباشر عليه، فهو يضحك مثلاً في أجواء السرور واللهو، وهو يبكي في أجواء الحزن والتعاسة، بمعنى أنَّ الإنسان يعيش دائماً في ظل أجواءٍ ومناخاتٍ نابعة من واقع الحياة، وهو بقدر ما تتأثر نفسه بالأجواء والمناخات الموجودة، بقدر ما تظهر لديه الانفعالات التي تتبدَّى في سلوكياته وتصرفاته، ومن هنا نرى هذه المتضادات في حياة الناس مثل الضحك والبكاء، اللهو والخشوع، البطر والقناعة، الاستهزاء والجد، الفسوق والعبادة، الفساد والصلاح وما إلى ذلك من المظاهر السلوكية التي تحتاج إلى مصنفّاتٍ لمعرفة آثارها ودوافعها في النفس البشرية . .

وقد رأينا عند البحث في الانفعالات ما يحدثه الضحك أو البكاء في النفس من تأثير يظهر على وجه الإنسان أو في تصرفاته. فما مدى

تأثير الانفعالات الأخرى في ظل أجواء ومناخات معينة؟! هذا ما يوجّهنا إليه القرآن الكريم في آياته الكريمة، ومن ذلك:

اللهو والمزاح

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]. وفي تفسيره ذهب كثيرون، ومنهم ابن عباس وابن مسعود ﷺ، إلى أنَّ «لهو الحديث هو الغناء، وما يتبعه من آلات اللهو»، إذ كثيرٌ من الناس قد ينفعلون عندما يكونون في مناخات الغناء والطرب، ما يبعدهم عن التفكير الرصين، فيظهرون على حالة من الطيش التي لا تليق بكرامة الإنسان، وخصوصاً إذا رافق اللهوَ والعبث تعاطي المسكرات والمخدرات، بحيث يصبح الجوُّ مشبعاً بكل ما يثير المظاهر الشهوانية، وهذا بطبيعة الحال، ما يبعد الإنسان عن سبيل الله وطاعته.

بل ومن الناس من يكفر بالدين ويعدّه ضرباً من التعاليم الخرافية التي تصرف الناس عن مسايرة الحياة، ومماشاة التقدم والتمدّن!.. فلا يترك مناسبة إلّا ويتناول الدين، وما أنزل الله تعالى من آياته مادةً للاستهزاء حتى يضلَّ الناس عن التمسك بإيمانهم الديني، ولكن من غير علم بما في الكتب السماوية من هدى ونور، بحيث يكون الجهل والضلالُ بحقيقة الدين هما الدافع وراء ذلك كله، فكان من عدل الله ـ جلَّ جلالُهُ ـ أن يتوعَّدَ هذا الكافر وأمثاله الذين يضلون الناس عن سبيله القويم بأنْ يكون لهم عذابٌ مهينٌ..

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٦.

وعن المزاح الذي حاول بعض الصحابة أن يتلهَّوا به يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ۞ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

فقد نزل هذا الذكر الحكيم، كما يقول أكثر المفسّرين، لمّا أكثرَ بعض الصحابة المزاح في أوقات الاسترخاء من أعباء الدعوة وعلى الرغم من أنه كان له بعض مبرّر، إلّا أنه ممّا لا يرضاه الله تعالى لعباده المؤمنين فأنزل من الآيات ما يحمل العتاب على هذه الغفلة التي لا تليق بهم، وما يستدعي هذا العتابُ من إثارة للشعور بعظمة الله والخشوع لذكره، تعالى، وما أُنزل عليهم من القرآن، بدلاً من التلهّي بأمورٍ هزيلةٍ من المزاح أو غيره، لأنَّ الأولى بهم أن تبقى قلوبهم مرتبطة بواجبهم المقدس في صون هذا الدين، والعمل على نصرته، إذ لا يترتب عليه مصيرهم وحدهم، بل مصير الناس كافة، لأنه الدين الذي أراده الله هدى للعالمين. وقد جاءهم هذا العتاب بصيغة الغائب ـ وليس بالخطاب المباشر ـ حتى يكون تأثيره في نفوسهم أقوى، وتكون مباشرة أفعاله نابعة من إرادتهم، فيبادروا إلى تغيير مثل هذا السلوك عن قناعة، وبدون أي تباطؤ في الاستجابة للعتاب. وهذا ما نستفيده من الذكر الحكيم في الآيتين المذكورتين آنفاً، أي ما معناه: ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله وما نَزل عليهم من القرآن فيجعلوا ذلك جلَّ اهتمامهم، ومقياس إيمانهم، حتى لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل هذا

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ١٦ و١٧.

القرآن، من اليهود والنصارى، الذين جرفتهم تيارات الحياة بعدما طال عليهم الزمن الذي جاءتهم فيه رسلهم بالبينات، فلم تعد قلوبهم تلين لذكر الله حتى صار كثير منهم فاسقين؟!

ثم يخاطب الله تعالى المؤمنين مباشرة بعد ذلك العتاب، بموعظةٍ دالّةٍ، وعبرةٍ عظيمةٍ بما يفيد: اعلموا أيها، المؤمنون أنَّ الأمر ليس بيدكم، وأنَّ نفوسكم ليست من صنعكم، فالله تعالى هو الذي خلقكم، وزوّدكم بهذه الجوارح التي تدفعونها إلى المزاح، وقد عرفتم حلاوة الإيمان ونعماءَه، فاعلموا أنَّ الله سبحانه كما يحيي الأرضَ بعد موتها، بإنزال الماء وإنبات النبات، هو قادر على أنْ يفعل بقلوبكم كذلك، فيصرفها عن اللهو، وغيره من متاع الدنيا، ويردُّها إلى الخشوع والطاعة، ولكن يشاء سبحانه أنْ تأتي المبادرة منكم ليكون لكم الأجر على إيمانكم وخشوعكم، وقد جعل سبحانه لكم هذا الإحياءَ للأرض دليلاً في معرض تبيانه الآياتِ الدالةِ على قدرته، لعلكم تعقلون ذلك ـ ويجب أنْ تعقلوه ـ فتردعوا أنفسكم عن كل ما قد يلهي أو يبعد عن مناخات العبادة وأجواء الإيمان! . . .

ويقول عبد الله بن مسعود ﷺ في ذلك: «لمَّا أكثر المسلمون المزاح ما كان بين إسلامنا وبين أنْ عاتبنا الله تعالى بهذه الآيات إلَّا أربع سنين». وهو تحذير متجدّد للمسلمين من الركون إلى أجواء اللهو والمزاح، ومن الاسترخاء في مناخات المتع الزائلة، ونسيان حياة الجد والانضباط، التي يريدها الإسلام صوناً لصلاح الدنيا، وضماناً للفوز في الآخرة.

ووفقاً للمفاهيم الإسلامية لا يعني أنَّ الملاطفة أو الفكاهة ـ

وهما أفضل من تعبير المزاح ـ كلُّها مباح، فإنه إنْ كانت خاليةً من حرامٍ أو غيبةٍ أو لَمْزٍ أو هَمْزٍ، أو غير مبالغ فيها، وكان مما يستدعيها الجو المناسب، فلا بأس عندئذٍ ممّا يلطف الجوَّ ويجعله مؤنساً. وكذلك الأمر بالنسبة للضحك القليل، فإن الرسول ﷺ كان يضحك تجمُّلاً. ولكنه ﷺ نهى عن كثرة الضحك لأنها تميت القلب. قال الصحابة: يا رسول الله إنك تداعبنا؟ ـ أي تلاطفنا ـ قال ﷺ: **«إنّي لا أقولُ إلاّ حقاً»**. وروي عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كان النبي ﷺ يخالطنا ـ بالملاطفة ـ حتى يقول لأخ لنا صغير: يا أبا عمير ما فعل النُغير؟»[1]. وطلب رجل من النبي ﷺ أن يحمله على دابة فقال له: «إنا حاملوك على ولد ناقة». فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة؟[2]، فقال له ﷺ: **«وهل تَلِدُ الإبلُ إلاّ النوق؟»**[3].

أما المزاح بالكذب فهو حرام. قال ﷺ: **«ويلٌ للذي يحدّثُ بالحديثِ ليُضحِكَ به القومَ، فيكذِبُ، ويلٌ له، ويلٌ له»**[4].

وهنالك عادة في بعض البلاد العربية تأتي في هذا السياق وهو ما يعرف «بكذبة نيسان» إذ يعتبرها كثير من الناس «كذبة بيضاء» في حين أنها قد تكون أشنعَ أنواع المزاح، إذ فوق أنها قد تؤذي أحياناً، فهي كذب. والكذب مذموم مهما كان نوعه أو الغاية منه.

البطر والطرب

يقال في اللغة: بَطَرَ الشيء يبطِرُهُ ويَبْطُرُهُ بَطْراً: إذا شقَّه. وأصل

(١) النغير: طائر البلبل.
(٢) وكان يقصد أنه صغير، ولا يصلح بعدُ للركوب.
(٣) مسند أحمد، الحديث رقم ١٣٣١٥.
(٤) الترمذي، باب الزهد ص١٠.

البطر الشق، ومنه البَيْطار، لأنه يشق نِعال الدابّة بالمبضع ويسمّرها. وبَطِرَ الرجلُ يبطَرُ بَطـراً: إذا دَهِشَ وتَحَيَّرَ في الحق، فلا يراه حقاً. وبطِرَ الشيءَ أي كرِهَهُ، وهو لا يستحق الكراهة. والبَطَرُ: النشاط، والتبختر وشـدة المـرح، وقلة احتمال النعمة، بل والطغيان في النعمة.

والبطر ـ في علم النفس ـ حالة نفسية من الدهش تعتري الإنسان بحيث يقوم بالتصرف بالنعمة التي أنعمها الله عليه دونما اعتدال او اتّزان، والتهرب من القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجوهها، كما في قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾[(١)]. أي كفرت بالنعمة وأسرفت في معيشتها، ولم تشكر الله تعالى على ما آتاها من فضل وبركة، فكان جحودها سبباً في هلاكها. وكثيرة هي القرى التي أنزل الله تعالى بها الهلاك بسبب هذا البطر والإسراف.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[(٢)].

إنه توجيه وإرشاد للمؤمنين بألّا تأخذهم حالة البطر أبداً في حياتهم، لأنها تؤدي بهم إلى ما لا يرضاه الله تعالى، وإلى ما لا يريده سبحانه لعباده المؤمنين. ويعطي الدليل على ذلك ما أصاب قريشاً يوم خرجت إلى بدر ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي خرجت، وقد أخذَ زعماءَها البطرُ بادّعائهم أنهم لن يرجعوا إلى مكة إلّا بعدَ أنْ يجزروا

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٧.

المسلمين جزراً، كما كانوا يعلنون به ويتشدَّقون.. ولذلك حملوا معهم القيانَ، وآلات الطرب، والخمورَ حتى ينصرفوا، بعد انتصارهم على المسلمين، إلى نحر الجزور، والسكر والعربدة، والطرب على ضرب القيان والغناء، وما إلى ذلك من اللهو والمتع، وفي وهمهم أن العرب تتسامع بذلك فترهبهم، وتظل على اعترافها بسيادتهم في الجزيرة، فلا تتّبعُ محمداً ﷺ أو تدخل في دينه.

ومن هنا فإن الطرب يقارب البطر، لأنَّه خفة في العقل. وهي حالة أكثر ما تعتري النفس في الفرح، فيقال طَرِبَ الرجلُ يطرَبُ طَرَباً أي فرح، وضدها حَزِن. واستطرَبَ القومُ: اشتدّ طربُهم. والمطرب الذي يَطرَبُ سامعُهُ بحسن صوته وغنائه.

والناس الذين يأخذهم الطرب، يعتبرون ذلك من مباهج الحياة التي تسرّي عن نفوسهم، وتجعلهم يستمتعون بالأصوات الجميلة، والحفلات الموسيقية الرنانة. وحجتهم أنَّ الإنسان لا يجوز أنْ يعيش في أجواء كلها كمد، وجدية، ومصانعة وأنَّ إخلادهم إلى الطرب إنما هو طلب للراحة فوق أنه تعبير عن ذوقٍ وإحساسٍ ينمّان عن حب الموسيقى والاستمتاع بها، أي إنهم يخلطون بين عدة أمورٍ، ولكنَّ ميلهم الحقيقي هو الحفلات الصاخبة.. وهذا يقتضي توضيح مفاهيم الإيقاع والذوق ليصار من ثمَّ إلى تفنيد تلك الادعاءات وإظهار بطلانها..

الإيقاع

يقال للإيقاع في اللغة: اتفاق الأصوات وتوقيعها في الغناء. وفي الاصطلاح: اتصاف الحركات والعمليات بالنظام الدوري. أما

من حيث الموسيقى فيطلق الإيقاع على نظم حركات الألحان وأزمنتها الصوتية في طرائق موزونة تسمّى أدوار الإيقاع. ويكون الإيقاع عادة مصحوباً بنقرات مختلفة الكم والكيف تدل على بداية اللحن أو نهايته، أو على أماكن الضغط واللين في أجزائه. وهو يختلف باختلاف مراحل اللحن. وما يقال عن الإيقاع الموسيقي، يقال كذلك عن إيقاعات الألفاظ في الشعر والنثر.

الـذوق

حاسة تدرك بها خصائص الطعوم والمشارب من حلوٍ ومالح، ومرٍّ، وحامضٍ، وساخنٍ وباردٍ، وخفيفٍ وحادٍّ ورطبٍ ويابسٍ.. وآلة الذوق الأعصاب الحسية الموجودة في اللسان، وعملها يقالُ له التذّوق؛ والذوق أيضاً قوة إدراكية في النفس: إنْ بإدراكها لطائفَ الكلام ومحاسنه، أو ميلها إلى بعض الأشياء التي تريحها: كتذوق المطالعة، أو الشعر، أو النثر أو الموسيقى.. وإنْ من حيث تقدير القيم الخلقية والفنية والإنسانية...

وللذوق تأثير في نفس الإنسان حتى إنّ البعض يعدّه نوعاً من الطبع، كما لو تقول: فلانٌ من الناس مرهف الذوق، أي رقيق الطبع. والذوق السليم يعبَّر به في القدرة بالحكم على الأشياء حكماً صادقاً ودقيقاً.

هذا من حيث المفاهيم العامة التي تعتبر صحيحة في تفسيرها لحقيقة الفنون مثل الموسيقى، أو تقديرها لبعض الحواس كالذوق..

ولا يعترض أحدٌ على أنَّ للفنون، عامةً، أهميتها في تربية الإنسان وصقل مشاعره، وتهذيب أحاسيسه. كما لا يعترض أحدٌ على

أنَّ الله تعالى قد أودع في الإنسان من حسن الصنع وبديع التكوين والتقويم ما يؤهله للاستفادة من خَلْقِهِ، والتنعم بجمال الحياة وآثار الوجود، شرط أنْ يكون ذلك بلا مبالغة ولا إسراف حتى لا يخلَّ بسلامة النفس وصحة الجسد، وإلّا أدّى هذا الإخلال إلى الاضطرابات النفسية والأمراض الجسدية.

ولذلك يجب أن يكون واضحاً أن مختلف المناخات والأجواء التي يعيشها الإنسان إنما تؤثر في النفس البشرية تأثيراً كبيراً. فمثلاً إنْ أراد الإنسانُ أن يُمضيَ بعض الوقت في مناخٍ فيه غناءٌ رصينٌ ومباحٌ، فقد يكون في ذلك ترويحٌ عن النفس، لأنه يبعده عن صخب الحياة وكثرة مشاغلها التي تؤدّي أحياناً كثيرة إلى التعب والإرهاق، فيكون الترويح عن النفس مفيداً للإنسان كي يعاود نشاطه بهمةٍ أقوى وأشدّ. ولكنْ إذا انقلبت أجواء الغناء والطرب إلى مثل هذا الضجيج والرقص الإباحي، ومظاهر الخلع والخلاعة التي نشاهدها على شاشات التلفزة، أو في بعض الحفلات، وصاحَبَ ذلك تعاطي المنكرات، فإنَّ من شأن ذلك أنْ يثير في الناس الانفعالات التي تجرّ إلى الرذائل، وتدفعهم إلى الشهوات المحرّمة،.. من هنا كان القول بأنَّ أجواء الغناء أو الطرب ـ في غالبها ـ إنما توفر المناخات الكافية لإثارة الأحاسيس التي تنتج من المؤثرات الخارجية كالشهوة الجنسية، التي أكثر ما تأتي أسباب إثارتها من الخارج، وأبسط دليل عليه احتضان الرجل للنساء في أجواء تلك الحفلات والسهرات التي أشرنا إليها.. وهذا ما يجعل للجو أو المناخ الذي نتكيف به، تأثيراً كبيراً على سلوكنا في الحياة. أي كما تتأثر أجسادنا بالأجواء والمناخات التي تعيش فيها من حيث الرطوبة والحرارة، أو البرودة والتدفئة، فكذلك

تتأثر نفوسنا بأجواء الميوعة أو الجدّية، أو بأجواء الرعب أو الأمان.. وكل ذلك له تأثيراته على تصرفاتنا..

فحريٌّ بنا نحن المسلمين، أنْ نتحرّى ما تحدثه أماكن اللهو والعبث، وحلبات الرقص والغناء الصاخب من ميوعة في نفوس أبنائنا وبناتنا، حتى ندرك الآثار السيئة عليهم، التي تظهر بمثل هذا الفساد والانفلات من قيمنا الإسلامية ـ والعياذ بالله ـ وقد لا نشعر نحن الآباء، أننا نساهم بانتشارها، بطريقة أو أخرى، غير واعين، وربما غير آبهين، لما قد تجره علينا من عواقب وخيمة. ولو أنَّ الدعاة والمروّجين لمثل الوسائل والأساليب التي تشيع الأجواء الصاخبة، وتنشر الأفكار والمفاهيم التي تجعل مناخات المتع والللذائذ تخيّم فوق رؤوس الناس.. أجل لو أنَّ هؤلاء يفكرون، ويمنعون التفكير بذلك، لظهر لهم جلياً ما جنوه على أولادهم، وعلى غيرهم من الناس في مثل تلك الأجواء والمناخات الانفلاتية!.. فليتهم يعلمون أنَّ استغراق «المهووس» في «هوسه» يشل نشاطه الجسدي والذهني، ويقضي على همته واندفاعه إلى العمل النافع، ويغرق عقله وقلبه في الغفلة!...

وإذا كان الإنسان في الشرق أو الغرب لا يعي ذلك، أو هو يعيه، ولكن أُفْلِتَ الزمام من يده، بعدما ترك لأبنائه «الحرية الشخصية المطلقة» في اختيار السلوك الذي يريدون، فإنما لأنه أراد ألّا يعمل بالروادع والزواجر الدينية والخلقية التي جاء بها الإسلام والتي فيها الحكم الصحيح على الحياة باتساقها، وتناغمها، واستقامتها، بحيث تتوافق مع طبيعة الكون بأسره في نظامه واتساقه. فنحن المسلمين لدينا القرآن الكريم، وفيه الآيات البيّنات التي تفتح أبصارنا وبصائرنا على بديع خلق الله في اختلاف الليل والنهار، وتعاقب الفصول والأزمان،

وتعاقب حالات النمو والانحلال.. أليس كل ذلك مما يبعث في النفس الإنسانية عوامل النشاط والحركة، واليقظة والسكون، والإقدام والإحجام؟.. ألا يدلّ ذلك دلالة قاطعة على أنَّ هذه النفس مرتبطة بنظام الكون كله، ومتصادقة ـ لا متصادمة معه ـ في تسييره إلى غاياته؟! وهل يجوز أنْ نخالف نظام وجودنا، وأنْ نقضي على عوامل نمونا وتكاملنا بإشاعة أجواء ومناخات تغاير معايير فطرتنا، وخصائص تكويننا النفسي والعضوي؟!..

ثم إننا نسأل ونتساءل: هل نريد لأجيالنا الإسلامية أنْ تعيش في أجواء ومناخاتٍ غير إسلامية، أم أنْ تعيش الأجواء والمناخات الإسلامية التي توفر لها العلاج النفسي بالتقوى وأداء العبادات، التي تحقق للإنسان المسلم أمانَهُ النفسي؟

أسئلة تطرحُ على الحركات الإسلامية، التي تدّعي ـ اليوم ـ العمل للصحوة الإسلامية:

هل لديها البرامج ووسائل الثقافة التي من شأنها أن تربي أبناء المسلمين تربية إسلامية وفقاً للكتاب والسنة؟

هل أدركت أسباب الضعف لدى المسلمين، وأعدّت الوسائل والسبل للقضاء على تلك الأسباب؟

هل فكَّرت بأن كثرة المحاور الحركية التي تنتمي إليها هي عوامل ضعف لا عوامل قوة؟

هل فتحت أعينَها ـ وقبل أي عمل آخر ـ على توحيد كلمة المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، على قضاياهم المصيرية؟

هل تعلم بأن أعداء الإسلام والمسلمين يجنّدون الجيوش

الخفيّة، في مختلف الميادين الفكرية والعملانية، ويخصّصون الأموال الطائلة في سبيل غرضٍ واحدٍ، هو بذر الفتنة بين السنة والشيعة ـ بشكل خاص ـ لأنهم وجدوا في هذه الفتنة ـ وما تجرُّ إليه ـ «السبيلَ الأمثل» لضرب الإسلام والمسلمين؟! ولا نقول ذلك جزافاً، بل الواقع يصدّق هذه الفتنة، والمسلمون سنةً وشيعةً ـ يسيرون في بعض البلاد الإسلامية، في ركاب هذه الفتنة القاتلة، خلافاً لأوامر الله تعالى، ورسوله الكريم، وخلافاً لهذا الدين الذي يؤدون فرائضه وأحكامه، ثم يجعلونها وراءَ ظهورهم ساعة يقبلون بأنْ يفتنهم أعداؤهم عن دينهم، وساعة ينفّذون هذه الفتنة بأيديهم؟!!! . .

إننا نتضرع إلى الله تعالى أن يهدي الحركات الإسلامية كافة، ومن بعدها حكامنا وولاة أمورنا، أن يغلّبوا ـ جميعاً ـ رضى الله عزَّ وجلَّ على أي شيءٍ آخر، وبذلك تكون الصحوة الإسلامية قد ولجت البابَ إلى العمل لإنهاض الأمة الإسلامية من غفلتها، لأنَّ في نهضتها تتحقَّق العودة إلى إسلامنا الحق، فنربح أنفسنا، وقد يتأتّى لنا أنْ نجعل الآخرين يربحون أنفسهم! . .

الفصل الخامس عشر

- مجاهدة النفس

مجاهدة النفس هي التي تكسب الإنسان قوة الإرادة ومناعة النفس، وتجعل من هذا الإنسان مخلوقاً جديداً: صادقاً لا يكذب، مستيقناً لا يظنّ، عفوّاً لا ينتقم، صابراً لا يجزع، مخلصاً لله مجانباً للرياء، حسن الحديث إذا حدّث، حسن الإصغاء إذا استمع.

وهي، لعمري، بعض صفات الإنسان المؤمن.

وسوف نتكلم أولاً على مجاهدة النفس، ثم على المناعة النفسية، ومِنْ ثَمَّ على الصفات المثلى التي يجب أنْ يتحلّى بها من يعمل على مجاهدة نفسه، وأبرزها:

- تحرّي الصدق والإقلاع عن الكذب.
- اعتماد اليقين والابتعاد عن الكثير من الظن.
- التحلّي بالعفو والتخلّي عن الانتقام.
- الاستعانة بالصبر وترك الجزع.
- مجانبة الرياء والإخلاص لله تعالى في النية والعمل.
- حسن الحديث.
- حسن الاستماع والإصغاء.

مجاهدة النفس

محاسبة النفس أو مجاهدتها هو كالجهاد في سبيل الله تعالى سواء بسواء. بل هو الجهاد الأكبر. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]. ويقول الرسول ﷺ لأصحابه في عودةٍ لهم من إحدى الغزوات: «انتهيتم من الجِهادِ الأصغرِ، وبقيَ عليكُمُ الجهادُ الأكبر» فقالوا: وما الجهادُ الأكبرُ يا رسولَ الله؟! قال ﷺ: «هُوَ جِهادُ النفس»[2].

والجهاد والمجاهدة: معناهما استفراغ الوُسْع في مدافعة العَدُوِّ.

والجهاد ثلاثة أنواع: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾[3]. وقولِ الرسول ﷺ: «جاهِدوا

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) كنز العمال، ج٤، رقم ١١٧٩، عن جابر.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

أهواءَكُمْ كَمَا تُجاهِدُونَ أعداءَكُم»[1] وما يعنينا هنا هو جهاد النفس.

إنَّ مجاهدة النفس عامل هام في تربية الإنسان، وتحسين سلوكه وعلاقاته. قال الإمام الغزالي: «اعلم أنَّ النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أنَّ البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية والتغذية المناسبة، فكذلك النفس تخلق ناقصة، قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية، والتزكية، وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم». وقال ابن القيِّم: «. . . رياضة النفس لا تكون إلّا بالتعليم والتأديب والتعويد على الفرح والسرور، والصبر والشكر، والإقدام والشجاعة، والعفو والإحسان، وفعل الخيرات. . فلا تزال النفس ترتاض بذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير هذه الصفاتُ عاداتٍ راسخةً وملكاتٍ ثابتةً».

ولئن كان مطلوباً من الإنسان تعويدُ نفسه وتدريبها على تلك القيم، وهذا ما يقتضي له الصبر والمجالدة والمجاهدة في كل شيء، إلّا أنه تبقى لعوامل الوراثة، وظروف الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان، تأثيرها على تمكين الإنسان من مجاهدة نفسه.

وأيّاً تكن العوامل أو المسببات التي تضغط على الإنسان، فإنَّ الدوافع الذاتية هي المعوّل عليه في مجاهدة النفس، ومدّها بالمناعة التي تقيها الوقوع في الأمراض، والهواجس المضرَّة والخطرة على الصحة النفسية. ولذلك نجد القرآن الكريمَ يولي أهميةً بالغةً للجهد الذي يقوم به الإنسان، انطلاقاً من الاستعدادات التي أودعَها خالقُهُ الكريمُ في نفسه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

(١) كنز العمال، ج٤، رقم ١١٧٨٠، عن ابن النجار.

فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2] فإذا غلّب الإنسانُ استعدادات الخير في نفسه، أتاه العون من ربه من حيث لا يحتسب، وأمدَّه بالطاقة أو الإمكانية التي تساعده وتقوده في طريق الحق والصواب.

وعلى الإنسان أنْ يعرف نفسه، ليقومَ، بإرادته واختياره، على مجاهدة ما يعتورها من السوء، وإلزامها بتحمل المسؤوليات، والابتعاد عن الانحرافات، بحيث يصبح قادراً على تنمية الأفكار الصحيحة، وتهذيب المشاعرالنبيلة، والسيطرة على الانفعالات والميول والرغبات، وتوجيهها توجيهاً سليماً يتوافق مع منهج الله تعالى، وتكامل الإنسان في حياته. وليس معنى ذلك أن يقهر الإنسان كل شعور أو رغبة أو ميل لديه، بل عليه أنْ يعمل على إشباع غرائزه وحاجاته العضوية باعتدال حتى يكون معافىً في نفسه، سليماً في جسده، سويّاً في سلوكه.

المناعة النفسية

لقد تبيّن من خلال الأبحاث في «علم النفس» أنَّ نظرية «المناعة النفسية»، هي نظرية قائمة على الفرض، وقابلة للاحتمال بين الصح والخطأ. ويقصد بالمناعة النفسية: «قدرة الإنسان على مواجهة الأزمات والكروب، وتحمل الصعوبات والمصائب، ومقاومة ما ينتج منها من أفكار ومشاعر الغضب والسخط والعداوة والانتقام، أو مشاعر اليأس والعجز، والانهزامية والتشاؤم».

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ٢ و٣.

(٢) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

وأبحاث علم النفس تشبّه المناعة النفسية بالمناعة الجسدية، فكما أنَّ المناعة في الجسم تنشّطه وتقوّيه، وتجعله أكثر قدرة على مقاومة الأمراض واحتمال آلامها، فكذلك المناعة النفسية تحصِّنُ النفس بالعوامل الفكرية والشعورية التي تجعلها ترفض الشرَّ، وتقبل الخير..

وقد قسَّمَ بعض الباحثين المناعة النفسية إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ مناعة نفسية طبيعية: وتكون في الأصل موجودة في تكوين الإنسان النفسي، وما يحمل من عوامل الوراثة وهي التي تمنح المرء، عادةً، مناعة شديدة ضد كل الأفكار والمشاعر التي من شأنها إضعاف النفس وإحباط قواها.

٢ ـ مناعة نفسية مكتسبة: وتأتي من تجارب الإنسان وخبراته ومعارفه، التي تكون بمثابة مقوّيات نفسية من شأنها تنشيط جهاز المناعة النفسي وتقويته. وكلما تعرض الإنسان للمشاكل والعوائق فإنها تكون أكثر فائدة في تنمية قدرته على التحمّل أو مجاهدة النفس، واكتساب خبرات وتجارب جديدة تزيد في متانة المناعة النفسية لديه.

٣ ـ مناعة نفسية مكتسبة صناعياً: وذلك بأنْ يعرّض الإنسانُ نفسَه، بإرادته وطواعيته، لمواقف تثير فيه الاضطرابات أو تبعث لديه الشقاء والقلق، بغيةَ التمكن من السيطرة على انفعالاته النفسية المؤذية أو الجنوحة، واستبدالها بأفكار ومشاعر مفيدة وهادئة.

ومع أنَّ الدوافع والانفعالات غالباً ما تكون خارجة عن فعل الإرادة، إلّا أنَّ تغيير الأعمال الإرادية أو تبديلها يمكن أن يؤدي إلى

تحسين الأفكار والمشاعر التي لا تقع تحت سيطرة الإرادة. ولذلك يعتبر بعض الباحثين أنَّ عملية «إكساب مناعة نفسية» تعتمد اعتماداً كبيراً على فعل الإرادة، وعلى عزم الإنسان تصحيح طريقته في التفكير، وبذل أقصى ما يستطيعه من جهد لتنمية أفكار السعادة، ومقاومة أفكار الشقاء لديه. لأنَّ غاية الإنسان في هذه الحياة نيل السعادة، والابتعاد عن الشقاء.

وهذه بعض المقوّمات التي تساعد على مجاهدة النفس لاكتساب المناعة النفسية:

١ ـ تحري الصدق والإقلاع عن الكذب

الصدق والكذب يكونان في القول الذي يتفوَّهُ به الإنسان متى أخبر عن شيء، أو التزم بوعد، أو أدّى شهادةً أو أمانةً، أو كتب مقالاً، أو ألَّف كتاباً، أو لفق شائعة على الإنترنت، أو نشرها بين الناس، فكل ذلك يحتمل الصدق والكذب، ولكنهما أعمّ في الخبر أو الإخبار عن غيره من أصناف الكلام؛ والصدق في الوعد توكيد لصدقية الواعد، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[1]. أي وعدهم الله تعالى ذلك، وحقَّهُ حقاً مقدساً ثابتاً؛ ومَنْ أصدق من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قولاً في وعده لعباده المؤمنين، بما أنزل في قرآنه المجيد من الوعد الحق المبين... وكما أنَّ الصدقَ في الوعد توكيد لصدقية الواعد، فالصدق في التقرير إثبات لحصول الأمر الذي جرى إقراره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[١]، أي إنَّ الله الواحدَ الأحدَ، قد جعلَ البعثَ أمراً كائناً، ليجمَعَ الناس، من شتى الأماكن التي ماتوا فيها، إلى يوم القيامة، الذي لا ريبَ أنه يومٌ آتٍ حقاً يقينياً، وعندما شاءَ سبحانه هذا الأمر، وأخبرَ عنه في قرآنه فهو الله الذي إن شاءَ كان، وإن لم يشأ لم يكن، ومن أصدق من الله حديثاً في إخباره عن جمعكم أيها البشر إلى يوم القيامة؟! لا أحد أصدق من الله حديثاً لقوم يعقلون..

والصدق في الاصطلاح هو مطابقة العمل والنيّة والمحكي عنه معاً. ومتى فقد أحد هذه الشروط لم يعد صدقاً تاماً، كما لو قال المنافق: «محمدٌ رسولُ الله»، فإنَّ قوله يصحُّ أنْ يكون صدقاً لكون المخبر عنه كذلك، ويصح أن يكون كذباً لمخالفته ما يضمر المنافق في نفسه، وهو عدم الاعتقاد برسالة محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[٢].

وقد يستعمل الصدق والكذب في ما يختص بالاعتقاد كقولك: صدق ظني، كذب ظني..

والصدق يظهر في القول وفي العمل معاً. قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾[٣] أي ليسألَ الله تعالى يوم الحساب مَنْ صَدَقَ بلسانه عن صدق عمله، تنبيهاً أنه لا يكفي الاعتراف بالحقّ، من دون اقترانه بالعمل. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ

(١) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ١.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٨.

بِهِۦٓ﴾[1] أي حقَّقَ ما أورده قولاً بما قام به فعلاً؛ قيل: الذي جاء بالصدق، أي بالقرآن، هو محمد ﷺ، وصدَّق به المؤمنون، فهو حجتهم في الدنيا والآخرة، وعن ابن عباس: «الذي جاء بالصدق، وهو قول: «لا إله إلا الله»، هو محمد ﷺ، وصدَّق به وأبلغه للناس هو محمد ﷺ أيضاً، ولو كان المصدّق به غيره لقال: والذي جاء بالصدق، والذي صدَّق به؛ وقد تابعه المؤمنون على صدقه فكانوا من الصادقين. وأما قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[2]، أي ليس أشدَّ ظلماً على نفسه، ممن كَذَبَ على الله ونَسَبَ إليه الشريكَ والولد ـ تعالى الله عمّا يصفون علوّاً كبيراً ـ وكذَّب بالصدق أي بالتوحيد والقرآن، الذي جاءَهُ ببلاغ محمد ﷺ، فكل الذين ينسبون الشرك إلى الله تعالى، والذين كذَّبوا محمداً فأولئك المكذبون هم الكافرون، وإنَّ في جهنَّم مثوىً للكافرين.

ويعبَّر عن كل فعل فاضل، ظاهراً كان أو باطناً، بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به، نحو قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3]. ولنلتفت إلى توجيه المولى تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ، ولأبناء أمته من بعده، لأنْ يدعوا بهذا الدعاء اللطيف الذي يحمل كل معاني الصدق، بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[4]؛ وإلى دعاء أبي الأنبياء إبراهيم

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٢.
(٣) سورة القمر، الآية: ٥٥.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

عليه السلام الذي يبيّنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[1]، إذ في هذا الدعاء نتحرّى صدق إبراهيم عليه السلام أنْ يهبَهُ ربُّهُ تعالى علماً ينتفع به، وأن يجعله صالحاً، ويلحقه في الدار الآخرة بالصالحين، وأن يجعل له من يُثني عليه وعلى صلاحه ثناءً حسناً في هذه الدنيا ممن يأتون بعده إلى يوم القيامة، بحيث إذا أثنى أحدٌ عليه من بعده لم يكن ذلك الثناء كذباً، بل يكون ثناءً صالحاً، كما قال الشاعر:

إذا نحنُ أَثْنَيْنَا عليكَ بِصَالحٍ فأنتَ الذي نُثْني وفوقَ الذي نُثْني

وصِدْقُ القولِ هو الإخبار، أو الحديث بالحقيقة، ويسمى صدق اللسان. وصدق الفعل هو الإخلاص في العمل بحيث لا يكون أي تناقض بين الظاهر والباطن.

والصِّدِّيق هو من صَدَقَ بقوله واعتقاده، وحقَّقَ صدقَهُ بعمله، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[2].

والصداقة هي صِدْقُ الاعتقاد في المودّة، قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[3].

والشاعر يعرّف الصديق بقوله:

صديقي مَنْ يَرُدُّ الشَّرَّ عنّي ويَرْمي بالعَدَاوةِ مَنْ رَمَاني
ويحفَظُني إذا ما غِبْتُ عَنْهُ وأَرْجُوْهُ لِنَائِبَةِ الزَّمانِ

وتحرّي الصدق على هذا النحو هو في صميم التعاليم

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٣ و٨٤.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤١.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٠ و١٠١.

الإسلامية، بل هو من الفضائل التي دعت إليها جميع الأديان السماوية. . وهو من الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة التي تبعث الاطمئنان في النفس، وتمنح الإنسانَ الكرامةَ في عيشه، والمكانة الرفيعة بين أفراد مجتمعه، ولذلك يهتم المربّون والأهلون، بتعويد أطفالهم الصدق منذ نعومة أظفارهم، حتى يشبُّوا وقد اكتسبوا هذه العادة الفاضلة، بينما الكاذب يزدريه الناس، ويكون ممقوتاً حتى من أقاربه. ولنستمع إلى وصيَّة والد لولده وهو يقول له: «يا بنيَّ إياكَ والكذب، فإنَّ الكذّاب إذا قالَ حقاً لم يُصدَّق، وإذا عمل خيراً لم يوفَّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدالُّ على فضيحته بمقاله، فما صحَّ من صِدْقِهِ نُسِبَ إلى غيره، وما صحَّ من كَذِبِ غيره نُسِبَ إليه».

أما في علم النفس، فإنّ المعالجين والأطباء النفسانيين يدعون إلى الصدق في القول والعمل، لأنهم يعتبرونه وسيلة ناجعةً في العلاج النفسي، وفي حال وجوده دليلاً على الصحة النفسية السليمة لدى الصادقين؛ بخلاف الكذب الذي يعتبرونه عاملاً على الوهن النفسي. وهم يعزون الصدق والكذب إلى عمل الإرادة التي تشجع على هذا أو ذاك، بحسب الدوافع والانفعالات والغايات التي يراد تحقيقها.

وقد أثبتت الدراسات المتعلقة بالسلوك أنَّ الصدق يؤدي إلى تخفيف القلق والتوتر، ويزيل الكآبة، بينما يؤدي عدم الصدق، في التعبير عن الانفعالات النفسية، إلى ظهور السِّلِّ والسَّرطان. وتستعمل آلات كشف الكذب لأغراض كثيرة، ومنها معرفة تأثير التغيرات الفيزيولوجية التي يحدثها الكذب على الجسم، وما قد تورث هذه التغيرات من اضطرابات عصبية، وانفعالات نفسية متعددة.

والله تعالى يأمرُ عبادَهُ المؤمنين بأنْ يتقوا غضبَهُ، ويقولوا قولاً سديداً، أي قولاً صواباً ملؤه اليقين والثقة، لأنَّ في ذلك صلاحاً لأعمالهم وغفراناً لذنوبهم. يقولُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1].

والنبراس في الصادقين هؤلاء الرجال من المؤمنين الذين أوفَوْا بعهد الله تعالى، وصدقوا بما عاهدوه عليه لقوله الجليل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۞ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2]، فالمؤمنون الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ على الدين والإيمان، وجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده، هم الذين صدقوا بما عاهدوا الله عليه، فمنهم من كتب الله له الشهادة، ومنهم من ينتظر الشهادة، وما بدَّلوا شيئاً من العهد الذي أخذوه على أنفسهم لربهم الكريم، ليجزيهم الله على صدقهم بأحسن الجزاء، وهو الفوز بالجنة؛ وليعذّب ـ بخلافهم ـ المنافقين الذي تحرَّوا الكذب والخداع في حياتهم، أو يتوبَ عليهم، وقد غلَّب سبحانه غفرانه ورحمته بعباده، لأنَّه هو الغفور الرحيم. والرسول ﷺ يحدِّثُ عن تأثير الصدق والكذب في النفس، فيقول: «الصدقُ طمأنينةٌ والكذبُ رِيبَةٌ»[3]. ويحثُّ على الصدق إلى ما يهدي إليه من الخير، فيقول ﷺ: «عليكُمْ بِالصّدقِ، فإنَّ الصّدقَ يَهدِي إلى البرّ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنّة، وما يزالُ الرجلُ يَصدُقُ، ويَتَحرّى الصِدقَ حتى

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠ و٧١.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

(٣) الترمذي، باب القيامة، ص٦٠.

يُكتَبَ عِند الله صدِّيقاً»[1] وقال ﷺ: «تحرَّوا الصدقَ وإنْ رأيتُم الهَلَكَة فيه، فإنَّ فيه النَّجاةَ»[2].

والقاعدة: على الإنسان أنْ يتحرَّى الصدقَ، ويُقلعَ عن الكَذِبِ.

٢ ـ الظن واليقين

أ ـ الظـنُّ

«الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ويستعمل في اليقين والشك»[3]. فهو اسم لما يحصل عن علم أو أَمارة، ومتى قويت هذه الأَمارة أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً، لم يتجاوز ما تدلُّ عليه حدَّ التوهُّم.

ويلاحظ أنَّ القرآن الكريم كان اهتمامه منصبّاً على حث الإنسان على الملاحظة والاستقراء، وتحرّي العلم والمعرفة. وقد كانَ أول الوحي الذي تلقَّاهُ رسولُ الله ﷺ من الملك جبريل عليه السلام الآياتِ التي تدلُّ على أهمية العلم والمعرفة في حياة الإنسان، إذ ابتدأت الرسالة الإلهية الخاتمة إلى أهل الأرض بالحث على العلم والتعلّم، وذلك بقوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[4]. وقد جاءَ في القرآن الكريم التكرارُ الذي يحثّ على التعقل والتدبر، والعلم وما إلى ذلك، من مثل: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾،

---

(١) صحيح مسلم، باب البر، ص١٠٥.

(٢) أحمد بن حنبل، ج١، ص٢٩٣.

(٣) معجم البستان، ج٢، ١٤٩٩.

(٤) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، . . .

وهذا الحث القرآني هو الذي دفع المفكرين المسلمين إلى الإقبال على تحصيل العلوم بعقول نيّرة منفتحة، فأوجدوا من الاجتهادات ما سهّل سبل العيش المتوافق مع الإسلام، وما أوجد من العلوم أنفعَها وأعمَّها. إلاَّ أنه ويا للأسف، لم تستمر هذه النهضة الفكرية الإسلامية، بل راحت عوامل التقهقر تفعل فعلها في عقول المسلمين ونفوسهم، حتى وصل المسلمون إلى العهد الذي فقدوا فيه فكرَهم النافع، أي الفكرَ الذي يستنير بتعاليم ومفاهيم الإسلام التي أشارت إلى بعضها، إشارةً مبدئيةً، آياتُ «سورة العلق». . وذلك الفكر المستنير كان يمكن أن يوصلهم ـ لو استداموا عليه ـ إلى اكتشاف الحقائق التي تزخر بها الحياة والكون معاً، أي الحقائق التي تعلي من شأن الإنسان، ورفعة كرامته، وتهديه إلى سبيل العيش الكريم، والطمأنينة النفسية! . . وبمقدار ما ابتعد المسلمون عن الفكر النابع من دينهم، ونهضتهم الفكرية، بمقدار ما أخذَ الغرب علومَهم وسار عليها، أو طوّر العلوم الحياتية المادية، ما جعله ينتقل من ظلمات الجهل التي كان يعيش فيها، إلى نور المعرفة، ويستخدم ما توصل إليه من علوم لإقامة العمران ومظاهر التمدّن. . كما استطاع أن يعدَّ كلَّ أسباب القوة للحفاظ على ما يعتقد أنّه من مكتسباته، حتى باتت علومه هي التي تسيطر على العالم، وتوجّه الناس إلى ما يخدم مطامعه وأهدافه.

وبالعودة إلى البحث في الظن، نجد أنَّ القرآن الكريم قد اهتمَّ

بهذا النوع من الاعتقاد لأجل تفنيده وبيان مؤثراته، فورد الظنُّ في كتاب الله بمعانٍ ثلاثة:

المعنى الأول: هو العلم بغير يقين، والذي لا يُرجَّح صدقُهُ. ومن قبيل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾(٢).

المعنى الثاني: هو العلم بغير يقين، الذي يحتمل الخطأ والصواب. فهو إذاً افتراض يحتاج إلى أدلة لتأييده أو تفنيده. ويكون الظن بهذا المعنى مماثلاً للفرض العلمي الذي يقتضي التمحيص والتحرّي والتجربة حتى يصبح نظرية علمية، تكون بذاتها قابلة للتعديل أو التغيير. ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾(٣) فقد قيل: الأَوْلى أن يكون ظنُّ النبي يونس عليه السلام من نوع التوهّم، أي ظنَّ أنَّ الله تعالى لن يُضيّق عليه عندما خرج غاضباً من بني قومه، لأنهم لم يستجيبوا لدعوته.

والمعنى الثالث: هو العلم الذي يُرجَّح صدقُهُ، أو العلم مع اليقين بصدقه. ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

﴿إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1]. أي الذين يعلمون يقيناً أنهم سوف يموتون، ويلاقون ربهم بالبعث، وأنهم إليه يرجعون للحساب. وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾[2] أي أيقن مَنْ هو في ساعة الاحتضار أنه مفارق فراقاً أبدياً للدنيا. وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3]، أي قال الذين يوقنون أنَّ الموت حتميٌّ وفيه يلاقون ربهم (وهم طالوت وجنوده) قالوا: كم من جماعةٍ قليلة قد تغلب جماعةً كثيرة إذا شاء الله ذلك، فصبرت على القتال صبرَ المؤمنين الذين يعلمون بأنهم سوف يلاقون النصر لحسن ظنهم بالله، وصدق عزيمتهم على مواجهة أعدائهم، أو سوف ينالون الشهادة، وفيها الفوز في الآخرة.

والظنّ في كثير من الأمور، مذموم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[4]، أي وما يتّبع أكثر الناس الذين يعبدون الأصنام إلّا وهماً قائماً على اعتقادهم الظنّيّ بصدق عبادة آبائهم، وهذا اعتقادٌ مذمومٌ لأنَّ العقل لا يقبله، إذ كيف يَعبدُ مَنْ يعقلون من الناس هياكلَ جامدةً لا تنفع ولا تضرُّ بشيء!. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[5]. أي واستكبر فرعون وجنودُهُ في أرض مصر بغير حق يقوم عليه هذا الاستكبار، الذي كان فيه التعالي على بني إسرائيل واستعبادهم؛ بل وتوهَّم فرعون وجنودُهُ أنْ لا بعثَ ولا نشور، ولا حساب يرجعون فيه إلى الله، علماً

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥ و٤٦.

(٢) سورة القيامة، الآية: ٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣٦.

(٥) سورة القصص، الآية: ٣٩.

بأنَّ عقيدة الفراعنة كانت تقوم على أنَّ هنالك حياة بعد الموت، فكانوا يضعون الحلى والأدوات بجانب الميت، ليستعملها بعد فواقِهِ من مماته، أي كان اعتقادهم يقينياً، وإن لم يكن متيقناً. .

الشـك

الشك خلاف اليقين، أي هو مبدأ الريب، كما أنَّ العلم مبدأ اليقين، ويعتبر الشك بأنَّهُ اعتدال النقيضين أو تساويهما بحيث لا يرجح العقل أحدهما على الآخر، نظراً لوجود علامات متساوية عند النقيضين، أو لعدم وجود أية علامة أو دلالة فيهما.

والشك ربما كان في الشيء، هل هو موجود أو غير موجود؟ وربما كان في جنس الشيء أي من أي جنس هو هذا الشيء؛ وربما كان في بعض صفات الشيء، وربما كان في الغرض الذي لأجله أُوجِدَ هذا الشيء.

واشتقاق الشك قد يكون من: شككت الشيء أي خرقته، كقول الشاعر:

وشَكَكْتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَهُ   ليس الكريمُ على القَنَا بمُحَرَّمِ

والشك نوع من الجهل، وهو أخصُّ منه، لأنَّ الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأساً، ولذلك قيل: إن كل شك جهل، وليس كل جهل شكاً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[1]، وهذا دليل على التردّد بين التصديق والتكذيب بالتوراة من أنها أنزلت

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٥.

على موسى عليه السلام؛ فوقعوا في شك منه مريب، أي لا يقوم على علم ولا هدى، بل على توهم فيه تهمة ومكر. . وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾(١) أي الكافرون في شك من البعث، جعلهم يلهون في متاع الدنيا، فلا يعدُّون العِدَّة لحسابٍ ينتظرهم بعد البعث. .

والفرق بين الشك والريب، أن الشك هو ما استوى فيه اعتقادان، أو لم يستويا، ولكن لم ينتهِ أحدهما إلى درجة الظهور، أي غلبة أحدهما على الآخر؛ في حين أن الريب هو ما لم يبلغ درجة اليقين، وإن ظهر (غلب)؛ ولذلك يقال: شكٌّ مريب، ولا يقال: ريبٌ مشكوك. فالشك إذاً بداية الريب، كما أن العلم بداية اليقين.

الحدس

الحدس في اللغة: الظن والتخمين، والتوهم في معاني الكلام والأمور، والنظر الخفي، والضرب في الأرض على غير هداية، والمضي على غير استقامة، أو على غير طريقة مستمرة. .

والحدس، في الاصطلاح، هو سرعة انتقال الذهن، دفعةً واحدةً، للقواعد المرتبة في النفس، من غير قصدٍ واختيار، فيحصل المطلوب.

ب ـ اليقين:

اليقين هو التصديق الجازم الذي لا يعتريه شكٌّ ولا ريبٌ. فيقال: استيقن وأيقن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا

(١) سورة الدخان، الآية: ٩.

رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1]، أي وإذا قيل لكم أيها المستكبرون إنَّ وعد الله بالبعث والقيامة أمر مؤكد ويقيني، لا يعتريه أي ريب أو شك، تجاهلتم وأنكرتم معرفتكم بذلك، وقلتم إنَّ الأمرَ عندنا مجرد ظنٌّ، قد يحصل وقد لا يحصل، لأننا لسنا على يقينٍ أنه كائنٌ..

وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[2] أي وفي الأرض مخلوقات كثيرة، متعددة الأنواع والأجناس ومختلفة الأشكال والألوان، ومتنوعة الخصائص والمسارات، وهي أدلةٌ وبراهينُ للمؤمنين على وحدانية الله تعالى، وأنّه هو الخالق العظيم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[3]، أي وما قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام قتلاً تيقَّنوه، بل إنهم حكموا بذلك تخميناً ووهماً.

واليقين فوق المعرفة والدراية، أي العلم الحاصل عن نظرٍ واستدلالٍ، ولذلك لا يُسمَّى علم الله تعالى يقيناً، بل يُسمَّى «علم اليقين، وعلماً يقينياً».

والعلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب. ولذلك فإنه ينبغي للعالم إذا أراد الوصول إلى اليقين أنْ ينتقد علمه، أو أنْ يفنّده، وأنْ يحرر نفسه من الأفكار السابقة، وأنْ لا يَقبل أمراً على أنه حق، ما لم يعرف أنه حق فعلاً ببداهة العقل. أي إنَّ على العالم أنْ يتجنّب التسرع، والظن، والفرض عند إعطائه الحكم، وألّا

---

(1) سورة الجاثية، الآية: ٣٢.
(2) سورة الذاريات، الآية: ٢٠.
(3) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

يُدخِلَ في أحكامه إلا ما يبدو لعقله واضحاً ومتميزاً إلى درجة تمنعه من وضعه موضع الشك أو الريب.

والقاعدة: على الإنسانِ أَنْ يعتمِدَ اليقينَ في اعتقادِهِ، ويَتَجَنَّبَ كثيراً مِنَ الظَّنِّ في تصوّره.

٣ ـ العفو والانتقام

يقال في اللغة: عفا عن ذنبه يعفو عفواً، أي أعرض عن عقوبته وهو يستحقها. وعفا الله تعالى عن فلان: أي محا ذنوبَهُ، فالعَفْوُ ـ إذاً ـ هو التجافي عن الذنب، أو الإعراض عن العقوبة التي يستحقها المذنب. والعفوُّ هو الكثير العَفْو.

وقد يستعمل «عفا الله عنكم» في ما لم يسبق به ذنب، كما تقول لمن تُجِلُّهُ وتعظّمه: «عفا الله عنك ما صنعت في أمري» أي أصلحك الله وأعزَّك.

والعفو هو المعروف، أو الفضل. أو خيار الشيء وأجوده، أو أحلُّ المال وأطيبه. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾(١)، فالعفو هنا، الفاضل عن الحاجة، والمعنى: أنفقوا ما تيسر إنفاقه لحاجاتكم، وما فضل عنها فأنفقوه صدقاتٍ وحسناتٍ، في وجوه البر والخير والتقوى.

والانتقام هو عكس العفو. تقول: انتقم الله منه أي عاقبهُ. والمنتقم من أسماء الله الحسنى، ويعني: البالغ في العقوبة.

والعفو والانتقام كلاهما: من المشاعر التي تعبّر عن الحالات

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

التي يواجهها الإنسان في علاقاته مع الآخرين. فقد يتعرض الإنسان للضرب، للإيذاء الماديّ أو للإكراه المعنوي كالإهانة، وما إلى ذلك.. فتتولد لديه مشاعر الكراهية والانتقام، أو مشاعر العفو مع القدرة على الانتقام، أو قد يجد نفسه عاجزاً عن الدفاع أو اتخاذ موقف مواجهة، فتتولد لديه مشاعر القلق أو الإحباط أو القنوط...

والإنسان عندما يحاول الانتقام ممن أساء إليه، فإنَّ النزعة العدوانية، تكون قد غلبت عليه، وانفعال الغضب قد أخذ منه كل مأخذ، فيسلك طريق العدوانية، ويعمد إلى الردّ على الفعل السيئ بمثله، أو ربما بأشدَّ منه، كما يحصل في المجتمعات التي لا تزال عادة الثأر تسيطر على نفوس أبنائها، أو كما هو الحال مع كل إنسان يحسُّ بالضعف أو المهانة، أو الغبن أو المنافسة، وينتظر الفرصة المؤاتية كي ينقضَّ على من يعتبره مسبباً له الضرر أو الأذى. وهذا الانتقام، كما يكون من الأفراد، يكون من الجماعات والدول، ومثاله الفاضح اليوم الحرب الوحشية برّاً وبحراً وجوّاً، وبأثقل الأسلحة الفتاكة وأحدثها، التي شنّتها دولة إسرائيل على دولة لبنان انتقاماً لهزيمتها وإخراجها من لبنان ذليلة عام ٢٠٠٠م.

والانتقام لا يولد مع الإنسان، ولكن الظروف والأحداث الفردية هي التي تغرسه في الأنفس، كما أنَّ للتربية والعادات أثرها أيضاً في توليد الانتقام وإشاعته، ما يجعل آثاره السيئة تطال المجتمع والأفراد على حد سواء.

والإنسان المدرك لا يجعل مشاعر الانتقام تسيطر عليه، وتضعف إرادته، وتذهب برجاحة عقله، بل يحاول، عندما يتعرض

لأية إساءة أو أذى، أنْ يكبح جماح غضبه ويمارس كظم غيظه. وهذا لا يتم إلا بعملية إرادية تحوِّل مشاعر الكراهية والانتقام إلى مشاعر الصبر والعفو.

وقد يجد الإنسان في نفسه، عندما يعفو عمَّن أساء إليه، شعوراً بالارتياح أكثر بكثير مما لو استجاب لردّة الفعل العدوانية. وهذا الشعور يقوّي التسامح في نفسه، ويؤمن له مناعة وقدرة على التحكم بهيجان أعصابه. ومن هنا كانت فائدة العفو والتسامح لا تدانيها فائدة، فهي تريح نفس الإنسان، وترفع من مقامه بين أترابه، ويكون عزيزاً محترماً في مجتمعه. قال رسول الله ﷺ: **«ما زادَ اللّهُ عبداً يَعْفُو إلَّا عِزّاً»**[1].

وما من انتقام في الواقع إلاَّ وكان فيه أذىً لصاحبه بمثل ما يكون فيه أذى لغيره، وما من عَفْوٍ إلّا وملأ النفس اطمئناناً وأماناً، وكان ناتجاً من تقدير وحكمة بالغين، لأن الحكمة حالة في النفس يتأتّى معها وضع الأمور في نصابها، وإدراك الصواب واتباعه، فهي بذلك خيرٌ كثيرٌ لأنها تنمُّ عن صواب الرأي وسداده وصحة الأمر وصلاحه. قال رسول الله ﷺ: **«ليسَ القويُّ بالصُّرَعَة، ولكنَّ القويَّ مَنْ مَلَكَ نفسَهُ عندَ الغضَب»**[2]. ولا يكون للإنسان ذلك إلا إذا كانت لديه القدرة على كبح جماح غضبه، وإسكات صوت الانتقام في داخله، والامتناع عن إلحاق الأذى بالمعتدي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ويمكن أن يظهر العفو بحالات ثلاث:

---

(١) أحمد بن حنبل، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) البخاري، باب الأدب، ص١٠٣.

أ ـ كظم الغيظ

الغيظ يتأتى عن الغضب، بل قلنا ـ عند البحث في انفعال الغضب ـ إنَّ الغيظ هو أشدُّ الغضب الذي ينتج من فوران الدم في القلب لقوة الانفعال من الإساءة التي تولد غضباً وحنقاً وغيظاً، وهنا يأتي تدخل الإرادة لكبت هذه الانفعالات النفسية بما يسميه القرآن الكريم «كظم الغيظ». قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾. أي الذين يحبسون مشاعر الغضب في نفوسهم ويحوّلونها إلى مشاعر تحمُّلٍ وتقبُّلٍ للأمر، لأنَّ كظم الغيظ ليس حبساً للغضب في النفس وحسب، بل هو أيضاً منع هذا الغضب من الظهور بطريقة عدوانية، أي إنَّ الإنسان يحسّ بالغيظ والحنق، ولكنه يمنع نفسه من الاستجابة لهما، حتى يهدأ هيجانه، وتذهب عنه سَوْرَةُ غضبه.

ب ـ الصفح عن الإساءة

كثيرٌ من الناس يدرك الإساءة، ولكنه يحتملها، لأنَّهُ تكون لديه القدرة على ألّا يجعلها تؤثر في مشاعره وتثير انفعالاته وتدفعه إلى رد الإساءة بمثلها. لا بل ونجده يسيطر على انفعالاته حتى يهدّىءَ ردَّة الفعل لديه، وكأنّما يريدُ أن يذيبَ معنى الإساءة التي وُجّهت إليه، ويستبدلَهُ بشعور الهدوء، والعفو، والعزوف عن الانتقام، ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّ الإنسان يجب أنْ يتخلّى عن كرامته، وأنْ يُشعِرَ المسيء بأنه يذلُّ نفسَهُ تجاهه، فهذا غير جائز لقول رسول الله ﷺ: «لا يُحْقِرَنَّ أحدُكُم نفسَهُ»(١)، بل يتصرَّف بالسلوك الذي يُفهم هذا المسيء أنَّ العفو عنه ليس عن ضعف، بل عن قوةٍ، وحسن خلق، ونصحاً له

(١) ابن ماجه، باب الفتن، ص٣٠.

بعدم العودة إلى الإساءة، لأنّه قد لا يجد دائماً من يعفو عنه، فيقع في المشاكل!..

ومن الناحية النفسية يعتبر الصفح (وهو ترك التثريب، الذي يعدُّ أبلغ من الصفح) أفضل من كظم الغيظ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[1]، فجعل العفو أولاً، ثم الصفح ثانياً، حتى يزيل الأثَرَ الفوري للشعور بالإساءة فلا يصاحبه هيجان أو اضطراب نفسي، باعتباره نوعاً من القبول بالأمر منذ حدوثه، والشعور بضرورة تجاوزه، والتخلص من آثاره.

ج ـ الإحسان إلى المسيء

وهنا لا يقف الشعور عند حد تجاوز الإساءة وقبولها وحسب، بل والعمل على التودُّدِ إلى المسيء، وإشعاره بالمحبة، والتقرب إليه. وهذا منتهى العفو، وأعلى المشاعر الإنسانية. ولا يبلغ هذه الدرجة الرفيعة من الإحسان إلّا الإنسان المؤمن، عندما تكون نفسه صافية، وقلبه سليماً، وفكره ثاقباً، ما يجعل عوامل الرحمة هي الأساس في المعاملة ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وهذا من علاجات النفس التي يدعو إليها الإسلام، لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2]. هذا هو فضل الإسلام في نشر علاقات المحبة والأمان بين الناس، فلا يقبل بردّ السيئة بالسيئة، بل يربّي الإنسان على أنْ يبادر السيئةَ بالحسنة، والشر بالخير، والانتقامَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

بالعفو، لأنَّ في ذلك إزالةً للعداوة بين الناس، وتأليفاً للقلوب، توخيّاً لعلاقات المودة، والتعاون على البرّ والتقوى، بدلاً من التعاون على الإثم والعدوان. والرسول ﷺ يسألُ الصحابةَ قائلاً: «ألَا أنبّئُكُمْ بما يُشرفُ البنيانَ، ويرفعُ الدرجات؟» قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**تَحْلَمُ عمَّنْ جَهِلَ عليكَ، وتَعْفُو عمَّن ظَلَمَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ**»[1].

إنَّها والله نواميس للناس في التعامل، تقرّرها آياتُ القرآن المبين، وأقوال الرسول الكريم، ولو اتُّبعت لشاعَ الأمن والأمان في الربوع، وفي النفوس، ولانتشر التحابُّ والسلام، وسادَ الخيرُ والوفاق دنيا الناس جميعاً.

والقاعدة: على الإنسان أن يتحلّى بالعفو، ويتخلّى عن الانتقام.

٤ ـ الصبر والجزع

أ ـ الصبر

هو الإمساك في ضيق أو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنها. وقد عرَّفه ابن قيم الجوزية على أنه: «حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش».

والصبر لفظٌ عامٌ قد تختلف معانيه بحسب استعماله، فإنْ كان حبس النفس لمصيبة، سُمِّي صبراً لا غير، ويضادُّه الجزع؛ وإنْ كان

---

(١) أحمد بن حنبل، ج٤، ص١٤٨.

قتالاً في معركة حربية سمي ثباتاً أو شجاعة ويضادُّهُ الجُبن؛ وإنْ كان في نائبةٍ مضنية سمي رحابة صدر وضدّهُ الضجر؛ وإنْ كان في إمساك الكلام سمي كتماناً وضدُّهُ البَذْلُ أو الإفشاءُ.

وقد وردت هذه المعاني للصبر في آيات كثيرةٍ من القرآن الكريم؛ ومنها ما بشَّر الله تعالى الصابرين، وأمثالهم من عباده المخلصين بأنَّ لهم أجراً عظيماً، وذلك بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

كما وصف الله تعالى أعمال الصابرين في أوقات الشدّة (البأساء والضرّاء وحين القتال) بأنها من البِرّ (أي الأعمال المبرورة)، وجعلهم في عداد الصادقين والمتقين، وذلك بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2].

والبِرُّ إنَّما هو التوسع في فعل الخير، ويُنسب ذلك إلى الله تعالى كما في قوله الكريم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، كما يُنسب إلى العبد، فيقالُ بَرَّ العبدُ ربَّهُ، أي توسَّع في طاعته، فالبِرُّ من الله تعالى

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٤ و٣٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) سورة الطور، الآية: ٢٨.

الثواب، ومن العبد الطاعة، وذلك ضربان: ضربٌ في الاعتقاد، وضرب في الأعمال، كما تدلُّ عليهما معاني الآية المباركة، إذْ رُوي أنَّه لما سُئِلَ رسول الله ﷺ عن «البرّ» تلا قولَ الله تعالى في الآية ١٧٧ من سورة البقرة المتقدمة، وهو قولٌ كريم، رحب الآفاق يتضمَّنُ الاعتقاد، وحسنَ الأعمال، والقيام بالفرائض والنوافِلَ.

هذا ويوجِّهُ الحقُّ تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنْ يستعينوا على المصائب والأزمات بالصبر والصلاة، لأنه سبحانَهُ يكون معهم في مثل هذه الشدائد، لقوله الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(١)، وهذا التوجيهُ الربانيُّ تكونُ ثمرةُ العمل به البشارة بالجنة، لقوله العزيز: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾(٢)، أي وبشّر يا «محمَّدُ» الصابرين الذين إذا أصابهم بلاءٌ، ولم يغيّروا ولم يبدّلوا بشيءٍ من إيمانهم، بل احتسبوا أنفسهم عند الله ربهم، لأنهم على يقين بأنَّهم إلى الله راجعون فيجازيهم بالجنة؛ وفي الحديث: «مَنْ استرجَعَ عندَ المصيبة آجَرَهُ الله فيها وأخلَفَ الله عليه خَيْراً». وفيه أنَّ مصباح النبي ﷺ طُفِئ، فاسترجع، أي قال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»، فقالت السيدة عائشة: إنّما هذا مصباح، فقال ﷺ: «**كلُّ ما أساءَ المؤمِنَ فهو مصيبة**»(٣)، وقد أثنى العزيز الحكيم على الصابرين الذين يسترجعون في كل بلاء، بقوله الكريم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥ و١٥٦.

(٣) رواه أبو داود في مراسيله.

﴿ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1]، أي أولئك المهتدون إلى الحق، والصواب، والخير والفلاح.

أمَّا كيف يوفّى الصابرون أجورَهُم في الآخرة، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[2]، والمعنى أنَّ الصابرين على الطاعات، وعلى الشدائد والبلاءات في الدنيا، يوفَّون أجرَهم «بغير حساب»، بحيث لا يوزن هذا الأجر بميزان الحساب يوم الدين، كما يبيّنه قولُ رسول الله ﷺ الذي رواه العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام الذي قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«إذا نُشِرَتِ الدواوينُ ونُصِبَتِ الموازينُ لم يُنْصَبْ لأهلِ البَلاءِ ميزانٌ، ولم يُنْشَرْ لهم ديوانٌ، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾**.

وهذه الآيات القرآنية الكريمة، وغيرها تبيِّن جملةً من معاني الصبر، وتأثيره في نفس الإنسان ولاسيما في ما يرفدُها من قوةٍ على تحمّل المشاق والمصاعب، ومواجهة المشاكل والبلاءات؛ كما تبيّن مزايا الصابرين، وأوصافهم الحميدة، وما يلاقون من الأجر والثواب في آخرتهم.

وبما أنَّ من معاني الصبر «حبس النفس عن الجزع»، فإنه يقتضي معرفة ما هو الجزع؟

ب ـ الجزع

أصلُ الجزع قطع الحبل من نصفه، أو انقطاع اللون بتغيّره،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.

ولذلك قيل للخرز المتلوّن: جزعٌ؛ ولتصوّر الانقطاع منه قيل: الجزع هو حُزْنٌ يؤدّي إلى تحوّلٍ في نفس الإنسان ليصرفَهُ عما هو بصدده ويقطعه عنه، ولكنه أبلغ من الحزن. وهذا ما يحسُّ به المستكبرون يومَ الحساب، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾(١) وتلك خلاصة المشاعر التي ينتهي إليها أولئك الذين استكبروا في الأرض مع أتباعهم الضعفاء، الذين وقعوا في إغوائهم وفتنتهم فساروا في ركابهم، إذ يقول لهم المستكبرون: سواء علينا أأمسكنا أنفسنا عن الألم والحزن والتعاسة في هذا البلاء العظيم، أم صبرنا وضجرنا فما لنا من مهربٍ أو ملجأ من العذاب. . .

وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾(٢) فمعناه أنَّ الإنسان متقلِّب المشاعر في كل الأحوال، فإنْ أصابه فقرٌ كان ضجوراً قليلَ الصبر، وإنْ أصابه غنىً بَخُلَ، وانقطَعَ عن الإنفاق في سبيل الله، وعن العطاءِ والبِرّ للمحتاجين، من شدة خوفه على فقدان المال الذي حازَهُ. وهكذا يتبين لنا أنَّ الصبر هو بخلاف الجزع، ففي الصبر رضا واحتمال وثقة، بينما في الجزع سخط وتذمر وقلق.

وقد أثبتت بعض الدراسات في علم النفس أنَّ ما يصيب الإنسان من انهيار عصبي، أو مرض فيزيولوجي وقت البلاء أو المصيبة لا يكون انهياره أو مرضه من الشدّة التي وقع فيها، بقدر ما هو ناجمٌ عن عدم الصبر عليها، وعدم القدرة على استيعاب آثارها، فيقع في الجزع من شدة ما أصابَهُ.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

(٢) سورة المعارج، الآيتان: ١٩ و٢٠.

والمصائب التي قد تحلُّ بالإنسان كثيرة، ومنها على سبيل المثال: فَقْد عزيز، خَسارَة مال كثير، الإصابة بمرضٍ عضال، الفشل في إنجاز عملٍ هامٍ، الإِحباط من ضياع هدف كبير، إلخ. . .

والإنسان أمام المصيبة إِمَّا قد يجزع ويهلك، وإِما قد يصبر وينجو. فالصبر إذاً عملية نفسية إرادية يتم فيها تحول الأفكار والمشاعر من اليأس والعجز إلى الرضا والتحمل، فتتحول ردة الفعل لديه من اليأس إلى التفاؤل، ومن الخيبة إلى الأمل. وهذا حال المؤمن دائماً الذي أوصاه الله تعالى بالصبر على الشدة لأنها ابتلاء واختبار، مثلما هو الرخاء ابتلاء واختبار له، فالإنسان مبتلى في السرّاء والضرّاء، فعندما يُؤتي الله تعالى عبداً من نعمه، عليه أنْ يعرف حق هذه النعمة ويصبر عليها، فمن أوتي نعمة الصحة فعليه ألّا يهدرها بتعريض نفسه للاضطراب، وجسمه للأمراض، ومن نال نعمة الغنى فعليه ألّا يبطرَ ويبخل، ومن حاز المنصب والسلطان فعليه ألّا يستكبر ويظلم، ولذلك فإنَّ مَنْ يصبر على الشدة، ولم يبطرْ في النعماء، فهو الإنسانُ المؤمن الصابر. عن أنس أنَّ الرسول ﷺ قال: «**إذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً عَجَّلَ له العقوبةَ في الدنيا، وإذا أرادَ بعبدٍ شرّاً أمسَكَ عنه بذنبِهِ حتى يُوافَى به يوم القيامة**»(١). وعنه أيضاً أن الرسول ﷺ قال: «**إنَّ عِظَمَ الجَزاءِ مع عِظَمِ البَلاء. وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضِيَ فله الرضا، ومن سَخَط فله السَّخَط**»(٢). وعنه أيضاً أنَّ الرسول ﷺ قال: «**قال الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي لا أُخرِجُ أحداً**

---

(١) الترمذي، باب الزهد، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق.

من الدنيا أريدُ أنْ أغفِرَ له حتى أستوفي كلَّ خطيئةٍ في عنقه، بسَقَمٍ في بدنه، وإقتارٍ في رزقِه»[1].

ومثل هذه التعاليم الإسلامية حَرِيَّةٌ بتعليم المسلمين الثبات والصبر في البلاء والشدة. وما أكثر النوائب والمتاعب والأعباء في هذه الدنيا، ولكن نفس المؤمن تتقبلها برضا، لأنَّ تصبير النفس على ما تكره، امتثالاً لأمر الله تعالى، فيه استسلام لقضاء الله تعالى وقدره، وشعور بتحمّل البلاء تكفيراً عن الذنوب في الدنيا قبل نيل الثواب في الآخرة. وحال المؤمن دائماً الثقة بربه العزيز، والصبر على ما يحلُّ به سواء أكان خيراً أم ضراً. قال رسول الله ﷺ: **«عَجَباً لأمرِ المُؤمِنِ إنَّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ، وليسَ ذلك لأحدٍ إلّا للمؤمنِ: إنْ أصابَتْهُ سرّاءُ شَكَرَ فكانَ خيراً له، وإنْ أصابَتْهُ ضرّاءُ صَبَرَ فكانَ خيراً له»**[2].

والله سبحانه وتعالى عندما طلب من عباده الصبر والمصابرة، فلكي يدرك الإنسانُ ما وهبه خالقه من طاقات وقوى كامنة فيه. فهو يملك قوة مادية في جسده تختزل جميع وظائفه العضوية، كما يملك قوة نفسية تتمثل بطاقاته الفكرية والشعورية، أما القوة الأهم فهي القوة الروحية التي تتمثل بصدق إيمانه واعتقاده.. وقد حرص الإسلام على جعل القوة الدافعة للإنسان المسلم أكثر من غيرها، قوته الروحية، التي تستجيب لها عادةً قواه المادية والنفسية، ولذلك طلب منه أنْ يصبر ويصابر إزاء المحن والشدائد بحيث لا تُقعده المصيبة، وخاصة إذا كان عمله في سبيل الله تعالى، عن متابعة مسيرته، مثل القرح الذي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيح مسلم، باب الزهد، ص٦٤.

قد يصيبه في الجهاد؛ كما لا تبطره النعمة، فينسى حقوق الله والعباد فلا يؤدي زكاةً، ولا يتصدقُ بصَدَقة! . .

والقاعدة: على الإنسان أن يستعين بالصبر على الشدة، والمصابرة في الجزع.

٥ ـ مجانبة الرياء والإخلاص في النية والعمل

أ ـ الريـاء

الرياء تظاهر المرء بغير ما يبطن، أي هو إظهار الجميل ليُرى، مع إبطان القبيح. . فهو، إذاً، نوع من المراوغة أو الكذب المبطَّنِ الذي يُظهِرُ فيه المرءُ غيرَ ما يُخفي، ولذلك قيل عن المرائي إنه الذي يموِّه الحقيقة، وقيل: الرياء ترك الإخلاص لله عزَّ وجلَّ. . .

يقـول الله تـعـالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾(١). إنه الخطاب الذي ينبِّهُ فيه الله تعالى المؤمنين بألّا يبطلوا صدقاتهم الطيبة، بالمنّ والأذى، فالمنّ في نفس الإنسان يعني الاستعلاء الكاذب، والرغبة في إذلال الآخذ، أو الرغبة في لفت أنظار الناس. والمَنُّ على هذا النحو يحوِّل الصدقة أذىً للواهب والآخذ على السواء: أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، وبما يملأ قلبه من النفاق والرياء، والبعد عن الله. . . وأذىً للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والمقت. . . وعليه، فإن الذي ينفق ماله رياءً، يكون إنفاقه باطلاً، وهو يبطله بيده، بسبب ريائه، وحبه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

للظهور، والادعاء، مما يبعد عن الإنفاق غايته التي يجب أن تكون مساعدة الإنسان، ومرضاة الله تعالى. والذي ينفق ماله رياءً، وكذباً وادّعاءً، «لا يؤمن بالله واليوم الآخر» فلو كان مؤمناً بالله، لكان أنفق ماله بالنية الخالصة التي يتقرّب فيها إليه سبحانه وتعالى.

والرياءُ لا يبطل الصدقات وحدها، بل وكلَّ وجهٍ من وجوه الإنفاق، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[1]. وأهمية هذه الآية الكريمة أنّها تُظهرُ شدَّةَ تسلُّطِ الشيطان على الذين ينفقون أموالهم رياءً وحباً بالادعاء أمام الناس، وكذلك تسلّطه على الذين لا يؤمنون بالله ولا بالبعث والحساب، فهم جميعاً أولياء الشيطان، يصاحبهم في معتقدهم، وفي أعمالهم، حتى يصيروا مطيّةً له في كل شيء، ومن كان الشيطان صاحباً له كهؤلاء، فيا لسوء الصحبة التي تودي إلى الهلاك.. ويستنكر الله سبحانه وتعالى على أولئك المرائين والكافرين بالله وبيوم القيامة ما هم عليه، ليجذب انتباههم إلى أنّه لا ضرر عليهم فيما لو غيَّروا، وذلك بقوله العزيز: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾[2].

أما الصورة الحسيّة التي يبرزها القرآن الكريم للبطر والرياء فهي تتجسَّد في خروج المشركين من مكة لقتال المسلمين في ما عرف بواقعة «بدر»، وقد أتينا على ذكرها من قبل، وإنَّما تكتمل الصورة هنا عندما يستوقفنا نهيُ الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين، بألَّا يكونوا مثل أولئك

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٩.

المشركين الذين وصفهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[1]. وذلك أنّه جاءَ المشركين، لمَّا خرجوا من مكة عن قافلتهم التجارية، رجل من قِبَلِ زعيمهم أبي سفيان، يخبرهم بأنَ العيرَ التي تحمل تجارتهم قد عادَ بها سالمةً، فليرجعوا.. ولكنَّ أحد قادتهم، وكان عمرو بن هشام (أبو جهل)، رفض الرجوع، وهو يقول لهم: «لا والله لا نرجعُ حتى نَرِدَ بدراً، فنقيمَ ثلاثاً، ننحرُ الجزور، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا حتى لا تزال العرب تهابنا أبداً»، واستجاب له غالبية الزعماء في قريش، بعدما كانوا قد أعلنوا عن خروجهم بالقيان والعزف على الدفوف، وكل مظاهر البطر، والادعاء والغرور، وبأنهم قادرون على جزر المسلمين، والقضاء على دعوتهم! ولكنَّ الله تعالى كان محيطاً بهم وبما يقولون ويعملون، فلا يفوت من علمه بهم شيءٌ، ولا يعبأ لقوتهم بشيءٍ، فألحق بهم هزيمة الذل والانكسار جزاءَ بطرهم وكبريائهم. ولذلك كان تحذير الله تعالى ألّا يكونوا مثل أولئك المشركين في خروجهم بطراً وصنعاً حتى يوهموا الناس بأنهم أقوياء!..

ومن قبيل الرياء المداهنة. يقال: دهن المطرُ الأرض أي بلّها بللاً يسيراً. ومنه الدُّهن الذي يدهن به الرأس لتليين الشعر وتصفيفه. والإدهان عبارة عن المداراة والملاينة وترك الجدِّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٨١.

ومعناه: أفأنتم متهاونون إلى هذا الحدِّ بهذا القرآن الذي يحدثكم عن أمور الدين والدنيا، وتكذّبون بما ينقله لكم عن البعث، والحساب؟ أم أنكم تكذّبون بهذا الحديث من الله تعالى تارةً، وتُلَيِّنُونَ مواقفكم تارة أخرى، وأنتم تتداورون، وتتمارون فلا تصدّقونه تصديقاً جازماً؟!.. بئس ما أنتم عليه من الرياء والمداهنة..

وتظهر المداهنة أحياناً باللين، وضدُّهُ الخشونة ويستعمل اللين في الأجسام، ثم يستعار للخُلُق وغيره من المعاني. فيقال: فلان ليّنٌ، وفلان خَشِنٌ. وكل واحد منهما يُمدَح به تارة، ويُذَمُّ به طوراً، بحسب اختلاف الواقع والمواقع. فهو ليّنُ الخلق أي سمحُ الأخلاق، كريمُها، وهو ليّنٌ أي ضعيف، ففيه مدح وذم. وكذلك الحال بالنسبة للخشونة.

ولقد أتينا على ما يفيد ذمَّ المداهنة، أي الملاينة في التهاون بأمرٍ من أمور الدين وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

أما اللينُ الممدوح فيبينُهُ قولُ الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾(١).

أجل، على هذا النحو خاطب ربُّ العزة والجلال رسوله محمداً ﷺ، أي إنها رحمة الله تعالى التي حفَّت بك يا «محمد» ونالتِ المسلمين، وبهذه الرحمة ترحَّمْتَ، ولنْتَ لهم بخلقك السمح الكريم، حتى ولو خالفوك في بعض الأمر، فقد كنت تبدي لهم اللطف والإيناس، حتى يتبين الحقُّ الذي تدعوهم إليه..

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

وبالفعل فقد كانت حياة رسول الله ﷺ مثالاً حيّاً في الرحمة واللين مع الناس: ما غضب قط لنفسه، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري. وما من أحد عاشره إلّا وامتلأ قلبه بحبه، لما كان يتمتع به من خُلُق عظيم، ولما أفاض الله تعالى عليه من مزايا سامية. وهذا كله رحمة من الله تعالى به وبأمته. إذ لو كان فظّاً غليظ القلب ما تألّفت القلوبُ، ولا تجمَّعت المشاعر، حوله، بل ظلوا على الفرقة الجاهلية؛ ولذلك جاءت الآية الكريمة تحمل التوكيد على أنَّ الرسول ﷺ لم يكن فظاً، غليظ القلب، بل كان رحوماً، رؤوفاً بما أسبغ الله تعالى عليه من رحمته الواسعة. وفي الحديث: «**لن يُدخِلَ الجنةَ أحداً عملُهُ**». **قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال** ﷺ: «**ولا أنا إلّا أنْ يتغمَّدَنِيَ الله برحمتِهِ**»(١).

وعن الذين يرتجون وعْدَ الله بالجنة، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢). ويعني بذلك المؤمنين، وما يحصلُ لهم من راحةٍ في الأبدان، واطمئنان في القلوب عند قراءة القرآن، وما جاء به من وعد الله الحق لهم بالفوز في الجنة، نتيجة قبولهم بالحق وإذعانهم له، فاللّين في الجلود والقلوب دليلٌ على الخشية، والخشوع وغيرهما من المشاعر التي يثيرها ذكر الله تعالى في نفوسهم، فيرتاحون، ويأنسون، ويأملون بالفوز العظيم.

ب ـ الإخلاص في النية والعمل

الإخلاص، لغة، ترك الرياء. أو تخليص القلب من الشوائب المكدرة لصفائه، كأن تقول: أخلص له الحُبَّ.

---

(١) ابن ماجه، باب الزهد، ص٣٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

وقيل: الإخلاص أن لا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى (لأنه السميع الشهيد)، وأن تصفِّي عملك من الرياء والمداهنة.

والفرق بين الرياء والإخلاص في أداء العمل يكمن في الدافع لإتقان العمل.. فالمرائي لا يقوم بعمله أو يتقنه إلَّا لأحد أمرين: إما رغبة في التفاخر، والثناء عليه من غيره، وأما خوفاً من العقاب والذم. فإذا أُعطيَ اجتهد، وإذا مُنِعَ تقاعس. وإذا خاف العقاب نشط، وإن أمن منه تراخى. فيكون الرياء عملية نفسية تتضمن أفكار الكذب ومشاعر النفاق، وعدم الثقة بنفسه وبالناس. ولذلك يحتاج المرائي دائماً إلى مراقبة من الغير حتى لا يشتط كثيراً ويؤدي شططه إلى الضرر.

أما المخلص فإنه يقوم بعمله، ويؤدي واجبه من تلقاء نفسه، ومن غير أنْ تكون لديه أفكار مسبقة عن الثواب والعقاب، أو مشاعر من الخوف والأمن: فهو يقوم بعمله لأنه يعطي لأجل العطاء، سواء أكان وحيداً أم كانت عيون الرقباء عليه، لأن غايته الإخلاص. وهذا ما يجعل الإخلاصَ روحَ العمل ومحرِّكَهُ، وسبيل القائم به إلى التفوق والابتكار.

وإنه لمن الشائع في المهن جميعاً، أنْ تكون هنالك رقابة مادية، أو أنْ يعطى العاملون الثقة، وأن يكون ضميرهم المهني وازعاً أخلاقياً في أداء الواجب؛ بل في بعض المهن أو الوظائف، ولاسيما في القضاء، والطب، وكتابة العدل، وتولي بعض المناصب العليا، قد يفرض النظام أن يُقْسِمَ الشخصُ قسماً معيَّناً قبل أن يتسلم مهامه توكيداً لحرصه على أداء مهام منصبه بإخلاص.. وقد يفيد ذلك مع البعض،

ولا يفيد مع البعض الآخر، وهو الأكثر بين الناس. ومن هنا كانت تلك المساوئ التي تنتج من التخاذل في العمل، والتي تضر الأفراد والجماعات على حد سواء، حيث لا يوجد الإخلاص التام في الأداء.

وعندما يكون في الإخلاص في النية والعمل ـ كما في الطاعات ـ فهذا يعني إلهام النفس الزكية في توافقها مع الفطرة، فلا يحتاج الإنسانُ معها إلى رقابة، لأنَّه يشعر بمراقبة الله تعالى له في كل حين، في السر والعلانية، فيخلص في أداء واجباته، من دون أن يرائي أو يجامل أحداً على حساب دينه ويقينه.. ومتى أخلص الإنسان لله، لخالقه وربّه تعالى، سرى إخلاصُهُ تلقائياً لعائلته، وأمته، ووطنه، بل وللإنسانية.. وهذا الإخلاص هو نفسه الذي يقرّب الفرد من الجماعة، ويقرّب الجماعة إليه، فتنعكس آثاره في التعامل بين الناس؛ بما يرقّي الإنسان، والحياة من حوله.

والقاعدة: على الإنسان أن ينأى عن الرياء، ويخلص لله تعالى في النية والعمل.

٦ ـ حسنُ الحديث والنهي عن كلام السوء

أ ـ حسن الحديث

يقال في اللغة: تحدَّث عن الشيء، وتحدَّث بالشيء، أي تكلَّمَ وأخبرَ؛ وحادثَه محادثةً: كالمَهُ؛ وتحادثوا بالأمر: حدَّث به بعضهم بعضاً. وعلى هذا فكلُّ كلام يبلغُ الإنسانَ من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له حديث.

ويأتي الحديث إمَّا تعبيراً عما يجول في النفس، أو ما يُرادُ به الإخبارُ عن أمرٍ وقع، أو عن تشوّفٍ بحصول أمرٍ معين بالاستناد إلى

القرائن والأدلة؛ ويحتمل الحديث أنْ يكون صدقاً، أو كذباً، كما يحتمل أن يكون مجرد رأيٍ لما يراه الإنسان.

وأهمية الحديث أنه لغة التخاطب والتفاهم بين الناس، إذْ به تقوم مختلف العلاقات، والاتفاقات، وبه تجري المداولات والمعاملات.. ومن هنا كانت آثاره الحسنة أو السيئة على الإنسان نفسه، وعلى غيره ممَّن يتأثرون به، وما قد ينجم عن ذلك من صلاح وإصلاحٍ، أو ما قد يشيع من شرٍّ وفسادٍ.. وقد سمَّى الله تعالى كتابَهُ القرآن حديثاً، فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾[1]، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[2]، أي فبأي حديثٍ بعد حديث الله تعالى، وآياته الدالّة عليه يؤمنون، لا حديث إلّا حديث الحقّ تبارك وتعالى لأنه الصدق الذي يعلو كلَّ صدق؛ وصدق الله العلي العظيم بقوله الحقّ المبين: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[3]. ولمَّا كان هذا القرآن فقد وصفَهُ الله تعالى بأنّه «أحسن الحديث» وذلك بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[4].

ومن المواثيق التي أخذها الله تعالى في التوراة على بني إسرائيل، وأثبتها القرآن الكريم أمرُهُ الجلل، بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[5]...

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

وكذلك فإنَّ من المواثيق التي اختصَّ بها أمةَ محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(٣).

بل ويأمرنا ربُّ العالمين بإفشاء السلام، وأول سبله بدء التخاطب بتحية الإسلام والسلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾(٤)، فهو سبحانه يحاسب على كل شيءٍ، ومنه التحيّة لما لها من شأنٍ هامٍّ في التواصل الحسن، ونشر رياحين الود والمحبة؛ وفي حديث الحسن عليه السلام أنه قال: «حادِثُوا هذه القلوبَ بذكر الله، فإنَّها سريعةُ الدُّثُور»(٥)، أي اجلوا قلوبكم بذكر الله تعالى، الذي فيه المواعظُ الحسنة، واغسلوا الدرن عنها بالكلام الطيب.

ب ـ النهي عن كلام السوء

لعلَّ من المفيد أنْ نذكر هنا أنَّ للحواسّ ـ ولا سيما الأذن التي نسمع بها، والعين التي نبصر بها، واللسان الذي نتحدث به ـ أثراً بالغاً

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة النساء: الآية: ٨٦.
(٥) معجم البستان، م١، ص٤٧٠.

في إنتاج الأفكار والأحاسيس والمشاعر، التي غالباً ما تترجم بالأقوال والأفعال، وتعكِسُ الحالات التي يكون عليها الإنسان من الحركة والسكون، والقوة والضعف.

وما يعنينا ههنا هذا «اللسان» الذي نتحدث به، إذ كثيراً ما نغفل عن أهمية دوره في حياتنا، فهو قبل كل شيء أداة «النطق»، الخاصيّة التي يتفرَّدُ بها الإنسان عن سائر مخلوقات الأرض من الطير، والحيوان والجماد. صحيح أنَّ الخالق العظيم قد جعل لكل نوع أو جنس من الكائنات الحية لغةً يتحاكى بها مع أبناء نوعه وحدهم، أو مع أبناء جنسه وحدهم، فلا تفهمها الأنواع والأجناس الأخرى، إلّا أنه ميّز الإنسان بقدرته على أنْ يتعلّم، قولاً وكتابةً، لغاتٍ عديدة من لغات الشعوب الأخرى، أو الأجناس الأخرى من بني البشر بما ينعكس إيجاباً على الحياة الإنسانية (كما سنرى بعد قليل). . .

ولكي ندرك أهمية «النطق» الذي هو من سماتنا البشرية يكفي أن نستدلَّ على ذلك من القرآن الكريم بثلاثة شواهدَ حيّةٍ:

الأول: أنَّ الخالقَ العظيم عندما خلق الإنسان، كان من مقتضى حكمته السنية تعليمه «النطق» لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1]، أي الكلام، وكذلك فقد أودع فيه خاصية علم ما في الوجود كله، ولكن ضمن الحدود التي يشاءُ سبحانه وتعالى أنْ يبلغها الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[2]، وأول السبل لهذا العلم هو «النطق». . وسوف نتحدث ـ

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٣ و٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

إنْ شاء الله ـ عن أهمية النطق في حياتنا، في الفصل الأخير من هذا الكتاب، أي الفصل بعنوان: خيارات ومواقف.

والثاني: أنَّ الله ـ جلَّ وعَلاَ ـ يقسم بذاته القدسية إنَّ ما توعدون به يا بني آدم من البعث والثواب والعقاب هو حقيقة ثابتة ومؤكَّدة، مثلما أنكم تنطقون، أي مثلَ هذا النطق الذي تتميزون به، والذي هو حقيقة راهنة في حياتكم كما تعلمونه، يقول تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1].

والثالث: أنَّ الله تعالى جعلَ من آياتِهِ العظام التي تدلُّ على قدرته في خلقنا، نحن بني البشر، كثرة هذه اللغات التي تتحدث بها مختلف شعوب الأرض، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[2]، إذْ في هذا التعدد والتنوع في اللغات التي تبلغ حوالى (٦٧) لغةً، يتحدَّث بها الناسُ، شواهد حسيّة على قدرته تعالى لذوي العقول وأهل العلم، حيث إنَّ تعلم هذه اللغات هو ما يقرّب الشعوب، ويجعلهم يتعارفون، فيقيمون العلاقات التي من شأنها إغناء العلوم والمعارف، وبالتالي إعمار الأرض، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾[3]. من هنا كانت قيمة «النطق» في حياة الناس، ليتعارفوا، ويتفاهموا على مختلف شؤونهم وأمورهم وقضاياهم الفردية والمجتمعية والإنسانية.

ونظراً لاختلاف طبائع الناس، فإننا نجد الكلام الذي يصدر عنهم

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

يتّخذ ألواناً مختلفة، منها ما هو إيجابي مثل الصدق، وقول الحق والصواب، وذكر الله تعالى، والشهادة الصادقة، والكلام الذي يمتلئ بالحب، والملاطفة، والإيناس، والأماني الطيبة. . ومنها ما هو سلبي مثل الكذب، والرياء، والنفاق، والمداهنة، وقول الزور، والشتيمة، والاستهزاء، والنميمة، واللغو. . وقد جمع القرآن الكريم كل النعوت للكلام تحت مدلولين اثنين: الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة.

وقد ضرب الله تعالى المثل عن الكلام الطيب بقوله الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]؛ كما ضرب سبحانه وتعالى المثل عن الكلام الخبيث بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[2].

ومن البديهي القول: إنَّ الإنسان المؤمن يتحرّى دائماً الكلمة الطيبة، ولذلك جعل رسول الله ﷺ استقامة الإيمان: من استقامة القلب، واستقامة اللسان، والعمل بأركان الدين، لقوله ﷺ: **«الإيمانُ معرفةٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان»**[3].

والكلمة الطيبة نبراسها شهادة أنْ «لا إلهَ إلَّا الله»، ومن ثَمَّ ذكر الله تعالى، كما في هذا الخطاب السنيّ للمؤمنين، الذي يدعوهم فيه ربُّهُم تعالى إلى الإكثار من ذكرِهِ جلَّ جلاله، وتقديسِهِ، وتمجيدِهِ في كل حين، وذلك بقوله الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤ و٢٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.
(٣) ابن ماجه، المقدمة، ص٩.

* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[1] . . يا أيها الذين آمنوا، اذكروا الله ربّكم، وأكثروا من ذكره تعالى، بالحمد والثناء والتسبيح الذي هو أهل له، لأنه هو الذي يرحمكم، ويأمر ملائكته بأنْ يستغفروا لكم، ولماذا؟ لأجل أنْ يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكان بكم، أيها المؤمنون رحيماً، لا تنقطع رحمته حتى في حال الغفلة عن ذكره، أو الغفلة عن طلب مرضاته. . أما ما ينال الذاكرين ـ من ذكر وأنثى ـ من الثواب فهو مغفرة لمعاصيهم، وأجر عظيم على طاعاتهم، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَٱلذَّـٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّـٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[2] .

. . . وكلُّ وجوه الكلام الطيب الأخرى نجد في القرآن الكريم ما يدلُّ عليها تبعاً لسياق الحديث الذي ترد فيه، وقد قدمنا بعضاً منها في الفقرة السابقة تحت عنوان: «حسن الحديث» لنعود ونبيّن الآن بعضاً من كلام السوء الذي ينضح دائماً بالخبث، ويُحذّر القرآن من عواقبه الوخيمة، ومن قبيل ذلك:

الكـذب

وهذا النوع من الكلام أتينا على آثاره الضّارة في حياة الناس من قبل، ونشير هنا فقط إلى أنَّ الكذب إنَّما هو افتراءٌ بالقول والفعل، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٤١ ـ ٤٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٥.

لِتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

النفـاق

المنافق، في الشرع، هو من سَتَرَ كفره في قلبه، وأظْهَر إيمانَهُ بلسانه؛ بحيث يبتغي المنافقون أنْ يخادعوا الله والمؤمنين، بينما هم في الحقيقة لا يخدعون إلّا أنفسهم، ولكنَّ مرض النِّفاق في قلوبهم يجعلهم لا يشعرون بخداع أنفسهم، كما يقول الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[2]. ويخاطب الله عزَّ وعلا رسولَهُ محمداً ﷺ بأنْ يخبر المنافقين أنَّ مصيرهم إلى عذاب أليم، بقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[3]، إنّه قول الله الحق، الذي يمسك بناصية هؤلاء المنافقين ـ ممّن يظهرون الإسلام زيفاً وخداعاً ـ ليصفع وجوههم، ويحذرهم من اللهث وراء الكافرين ليتخذوهم عوناً لهم من دون المؤمنين! . . . ثم ليسألهم: أتريدون العزّة عند أولئك الكافرين؟ لا، فإنَّ العزّة لله تعالى، فمن ابتغى عزَّةً، فليسأل ربَّهُ الكريم أنْ يمنحها له، وهو سبحانه لا يمنحها إلّا لأوليائه المؤمنين الصادقين! . . والصورة الحسية التي تجسّد

(١) سورة النحل، الآيتان: ١١٦ و١١٧.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٨ ـ ١٠.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٣٨ و١٣٩.

المنافق، هي الصورة التي تظهره على أنه مثل ذئبٍ كاسرٍ ولكن في ثوب حملٍ وديع، لا غاية له إلّا خدمة مآربه ونزواته وأغراضه، وقد ينافق لمجرد إيقاع الأذى بغيره، أو لمجرد مسرّة في نفسه لرؤية ضحايا نفاقه يألمون! ويحذر رسولنا الكريم أمته الإسلامية من أصحاب الألسنة الشيطانية التي تذرُّ بنفاقها الفتن بين الناس، فيقول ﷺ: **«إني لا أتخوَّفُ على أمّتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيحجزُهُ إيمانُهُ، وأماَّ المشرِكُ فيقمَعُهُ كفرُهُ، ولكنّي أتخوَّفُ عليكم مُنافِقاً عالِمَ اللسان يقولُ ما تَعرفونَ، ويَعملُ ما تُنكرون»**[1]، ويقول ﷺ: **«أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومَنْ كانتْ فيه خِصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَعَها: إذا أؤتمِنَ خانَ، وإذا حدَّثَ كذَبَ، وإذا عاهَدَ غدَرَ، وإذا خاصَمَ فجَرَ»**[2].

الاستهزاء والسخرية

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].. فالاستهزاء والسخرية ينمّان دائماً عن الازدراء والاحتقار، واللّمز هوالعيب الذي يفتري به أحدهم على غيره افتراءً، من غير أنْ يكون له أساسٌ من الصحة، أما التنابز بالألقاب فهو تبادلُ الألقاب المكروهة كأن يقول لغيره: يا خبيث، أو يا فاجرُ، أو يا فاسق.. فهذه كلها من السخرية أو الاستهزاء أو الاحتقار الذي ينهى

---

(١) متفق عليه، رياض الصالحين، رقم ٢/ ٣٤٥١.
(٢) متفق عليه، رياض الصالحين، رقم ٢/ ٣٤٥١.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١١.

الله تعالى المؤمنين عنه، لأنه لا يجوز أنْ تطلق تلك الألقاب أو الأسماء على أناسٍ مؤمنين، باعتبارها فسقاً، والمؤمن محالٌ أن يكون فاسقاً. فالذين يعتدون على المؤمنين بشيء من ذلك، ولم يتوبوا بعد هذا النهي من ربهم فأولئك هم الظالمون لأنفسهم، ولغيرهم، وعاقبة الظلم العقاب الشديد!...

بل وينهى الله تعالى المؤمنين عن مجالسة المنافقين والكافرين، الذين يكفرون بآيات القرآن الكريم ويستهزئون بها، حتى لا يكونوا مثلهم، ويكون مصيرهم معهم في جهنم، يقول تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1]. ويقول رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليوم الآخرِ فلا يجلسْ على مائدةٍ يُدارُ عليها الخمرُ - وإنَّ مجالسةَ الفُسَّاقِ والمنافقينَ تجعلُك مِثْلَهُمْ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾».

السباب والشتائم

وهي أيضاً من المظاهر القبيحة والآفات المجتمعية عند كثيرٍ من الناس، إذ يعتادون على سبّ الآخرين وشتمهم لأقل زلةٍ أو خطأ؛ وأحياناً يشتمون بعضهم، وهم يتضاحكون، ويعتبرون هذا مزاحاً،

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

أما المقصود بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾، فهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٤و٥]؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] - وآيات أخرى متعددة.

وأحياناً يسبّون معتقدات الآخرين، فيتجرأ الآخرون على سبّ معتقداتهم. . أليس في ذلك كله منتهى الرعونة، بل ومنتهى القصور العقلي؟ ولإبعاد المسلمين عن مثل هذا الجهل والضلال، فقد نهاهم ربُّهم عن سبِّ الأصنام، وكل معتقدات الشرك والكفر حتى لا يتخذ المشركون والكافرون سبابهم ذريعةً فيسبّوا الله ـ والعياذ بالله ـ اعتداءً وظلماً، جهلاً منهم بعظمة الله وعزّته، وجبروته ـ جلَّ ذكره ـ، يقول ربنا تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]. ويعلّمنا رسولنا الكريم أنْ نبتعد عن السباب حتى لا نستجلبه لأنفسنا، وذلك بقوله ﷺ: «ملعونٌ من سبَّ والدَيْهُ»، قالوا: يا رسول الله، كيف يَسُبُّ الرجلُ والَدْيهُ؟ قال ﷺ: «يَسُبُّ أبا الرجل فَيَسُبُّ أباه، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أمّهُ». وعن أبي سفيان بن عبد الله قال: قلت يا رسول الله، حدثني بأمرٍ أعتصِمُ به. . فقال ﷺ: «قُلْ ربّيَ الله ثُمَّ اسْتَقِمْ»؛ قلت: يا رسول الله، ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأشار إلى لسانِهِ وقال: «هذا»[2].

والسباب والشتائم قد تكون مجلبة للكفر والنفاق، لأنَّ اللسانَ عندما ينزلقُ فقد ينعكس ذلك على الأعضاء كلها، فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبَحَ ابنُ آدم فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكفِّرُ اللسانَ، تقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّا نحنُ بِكَ، فإنِ اسْتَقَمْتَ استَقَمنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

(٢) رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح، رياض الصالحين رقم ٧/ ١٧١٥.

(٣) رواه الترمذي، رياض الصالحين رقم ١١/ ١٥٢١.

التجسس والغيبة

التجسس المقصود هنا هو مراقبة الناس، وملاحقتهم بكشف أخطائهم وعيوبهم بحيث يقوم الجاسوس بإفشاء تلك الأخطاء والعيوب للآخرين، وقد يزيد عليها أو ينقص، تبعاً لأهوائه، وليس من يردعه، ولاسيما أنَّ الذين يغتابهم يكونون غائبين بحيث لا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم، وهذا يُعدُّ من أقبح الذنوب التي يرتكبها الإنسان، وقد وصف الله عزَّ وجلَّ المغتابَ بقوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[1]، فالهمز هو الاغتياب، وهمزة الشيطان للإنسان دفعه بالإغواء إلى المعاصي، وهمزة الإنسان للإنسان افتضاح أمره. والنميمة هي الوشاية، التي يسعى فيها الهمّاز (المغتاب) لإيقاع الضرر بغيره، ومثل هذه الوشاية قد تأخذ أبعاداً خطيرة، لأنَّ الغاية منها الإفساد في حياة الناس، ولذلك يتوعَّدُ الحقُّ سبحانه وتعالى الذي يسعى بالغيبة والنميمة بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[2]. وهذا الصنف من الناس الذي يمشي بالنميمة حرَّم ربُّهُ عليه دخول الجنة لقول رسول الله ﷺ: «**لا يدخُلُ الجنةَ نمَّامٌ**»، وروى مسلم عن ابن مسعودٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ألا أُنبِئُكُمْ ما العَضْه؟ هي النَّميمةُ، القَالَةُ بينَ النَّاس**»[3].

أما كراهية الغيبة، فيُبرز النصُّ القرآني صورةً حسيّةً لها، عندما يشبّه المغتاب مثلَ الذي يأكلُ لحمَ أخيه ميتاً، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) سورة القلم، الآية: ١١.

(٢) سورة الهمزة، الآية: ١.

(٣) رياض الصالحين وقسم ٣/ ١٥٣٨.

﴿تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١) .

وقد نقل أبو داود أنَّهُ قيل لابن مسعود: هذا فلانٌ تقطرُ لحيتُهُ خمراً.. فقال: «إنَّا نُهينا عن التجسس، ولكنْ إنْ يظهرْ لنا شيءٌ نأخذْ به»، وعن مجاهد: «لا تجسَّسُوا، خذوا بما ظهرَ لكم، ودعوا ما سَتَرَ الله تعالى»؛ وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن دجين كاتب عقبة أنَّهُ أخبره بأمرِ جيران يشربون الخمر، فأمره عقبةُ أنْ يعظهم وينهاهم، فلمَّا لم يسمعوا النصحَ، ولم يرعووا، أراد الكاتب أنْ يؤدِّبهَم، فقال له عقبةُ: «ويْحَكَ لا تفعلْ! إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ عَورةَ مُؤمِنٍ فكأنَّما استَحْيَا مَوْءودةً مِنْ قبرِها»(٢) .

ويروى أنَّهُ لمَّا اعترف ماعزُ بالزنا هو والغامدية، طلبا إلى رسول الله ﷺ أنْ يطهِّرهما بالرجم، فأوقَعَ الحدَّ بهما، وقد كان إصرارهما على الرجم سعياً وراء الآخرة، لعلمهما أنَّ إيقاع الحدود ـ أي العقوبات ـ تُطهِّر العاصي من جريرة فعله، كما عهد بذلك رسول الله ﷺ لأمته امتثالاً لأوامر ربِّه جلَّ وعلا.. وسمعَ النبيُّ ﷺ (أثناء الرجم) رجلين يقول أحدهما للآخر: ألم تَرَ إلى هذا ـ يعني ماعزَ ـ الذي سَتَرَ الله عليه، فلم تَدَعْهُ نفسُهُ حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب؟ وأسرَّها النبي ﷺ في نفسه، وسارَ بالناس، فإذا بجيفةِ حمارٍ ملقاةٍ جانباً، فوقف ﷺ وقال: «أينَ فلانُ وفلانُ، انزلا فكلَا من جيفة هذا الحمار، قالا: غفرَ الله لك يا رسولَ الله، وهلْ يُؤكَلُ هذا؟ قال ﷺ:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) رواه أبو داود، والنسائي من حديث الليث ابن مسعود.

«فلما قُلتُما من أخيكما آنفاً أشدُّ أكلاً منه، والذي نفسي بيده إنَّه الآنَ لفي أنهار طُهر ينغمِسُ فيها»(١)، وهذا الموقف من رسول الله ﷺ للرجلين اللذين اغتابا ماعزَ فيه تبيانٌ واضحٌ لكراهية الغيبة التي قال عنها الله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ والتي نهى عنها رسول الله ﷺ بقوله: «إيّاكُم والغِيْبَةَ فإنَّ الغيبة أشدُّ من الزِّنَى» ثم قال ﷺ: «إنَّ الرجلَ يَزْني ثم يتوبُ فيتوب الله عليه، وإنَّ صاحبَ الغِيبَةِ لا يُغْفَرُ له حتى يَغْفِرَ له صاحِبُه»(٢)، أي الذي وقعت عليه الغيبة.

اللَّغــو

اللَّغو، لغةً، هو الإثم في الحَلَفِ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾(٣)، وهو ما يسبقُ إليه اللسانُ من غير قصد الحَلَف، كما لو قال: بلى والله، لا والله.. وهذا اللغو لا إثمَ عليه ولا كفَّارة. واللغو في المفهوم الإسلامي هو من الكلام المنهي عنه؛ بل والقرآنُ الكريم يمدحُ المؤمنين في إعراضهم عن اللغو، وذلك بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(٦)،

---

(١) رواه ابن كثير في التفسير، وقال: إسناده صحيح.
(٢) سنن الدارمي. رقم ٣٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ٣.
(٥) سورة القصص، الآية: ٥٥.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

فاللغو هو نوع من التشدّق بالكلام الذي لا طائل منه إلّا التباهي والحذلقة؛ ومن الغريب أنْ تغلبَ على مجالس كثيرٍ في مجتمعاتنا الإسلامية هذه العادة ومن إكثار اللغو للمزاح أو المداعبة، والذي قد ينقلب إلى سوء فهم، وتلاعُنٍ وذمٍّ!... لذلك كان على من ينشدون الإيمان ـ بل والتهذيب الاجتماعي ـ أنْ يُعرضوا عن اللغو لأنه منهيٌّ عنه، فإذا صار اللغو عندهم عادةً عليهم أنْ يتخلّصوا من هذه العادة السيئة حفاظاً على دينهم، وكرامتهم، وعدم ازعاج ومضايقة غيرهم.

تلك بعض الوجوه للكلام السيّئ.. لذلك ينهى الله تعالى عن الجهر بالسوء من القول، بقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾(١)، فالجهر بالسوء من القول في أية صورةٍ من صوره، قد يكون سهلاً على اللسان، ولكن عندما تشيع مقالة السوء، فإنها تؤدي إلى نوع من الانحلال الخلقي، والفساد المجتمعي.. إضافة إلى أنَّ من يجهر بالكلام السيّئ، كأنّما يتعمّدُ الابتعادَ عن حبّ الله عزَّ وجلَّ له، فويلٌ له من سوء مقالته التي قد تجرّه إلى العذاب الأليم.

ولكن لننظر إلى العدل الإلهي، عندما يقول الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾، فهذه رخصة من ربنا تعالى للمظلوم حتى يفضحَ الظالمَ بظلمه، لعلَّ في ذلك دفعاً لعدوانه عليه، وتنبيهاً لغيره ممن قد يتعرض ذلك الظالمُ لهم، بل وفي هذا تحذير للجماعة الإسلامية حتى تضربَ على يد الظالم، وتريح المجتمع من شروره...

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٨.

ثم إنَّ الجهر بالكلام السيّئ هو من نزغ الشيطان، الذي يسعى لإشعال الفتنة والعداوة بين الناس.. ولكي لا يستجيب الناسُ لوساوس الشيطان، هذا العدوّ اللعين الذي يلاحقهم، حتى وهم يحدّثون الحديث، أو يتلفَّظون بالكلم، كان توجيهُ رب العالمين لرسوله الكريم بأنْ يدعو عبادَ الله المؤمنين لأنْ يقولوا أحسن الكلام الذي يبعد عنهم نزغ الشيطان.. يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

هذه نفحاتٌ من خُلُقية القرآن التي تأخذ بيد الإنسان لتربيَهُ تربيةً إيمانيةً من شأنِها أنْ تطهِّرَ نفسه وتخلّصها من الشوائب والمثالب ـ وهي كثيرة في هذه الحياة الدنيا ـ فالآيات القرآنية لا تحيط بكل أعمال الإنسان وتجعله مسؤولاً عنها وحسب، بل وتحيط بكل أقواله وتجعله مسؤولاً عنها ايضاً.. فأيُّ كلمة أنتَ قائلها أيُّها الإنسان، وأيُّ لفظةٍ تتفوَّهُ بها، أو كلام يصدر عنك.. كل ذلك أنتَ مسؤولٌ عنه في الدنيا والآخرة.. وإذا أردت أنْ تعلم مقدار هذه المسؤولية، نورد لك الأدلة التالية: يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2] فالمتلقّيان هما المَلَكان الموكلان بالإنسان يرافقانه في كل شيء، وهما قاعدان على كتفه اليمين وكتفه الشمال، يحصيان عليه أفعاله وأقواله، فلا يقوم بعمل صغير أو كبير، ولا يتلفّظ بقولٍ حسنٍ أو سيّئ إلّا ويحفظان له ما يفعل، وما يقول...

ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٢) سورة ق، الآيتان: ١٧ و١٨.

يَعْمَلُونَ﴾[1]، فالألسنة تشهد علىٰ ما يقول الناس، والأيدي والأرجل تشهد على ما يعملون، يوم القيامة.

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2]، فالعزَّةُ لله تعالى وحده، ومَنْ أرادَ من العباد عزَّةً في الدنيا والآخرة فلا ينالُها إلَّا بطاعة الله عزَّ وعَلاَ، وهو سبحانَهُ يعلَمُ الكلام الطيب فيقبله، ويقبل معه العمل الصالح الذي يقترن به. تلك بعض من الأدلة القرآنية التي تنهى الإنسان عن كلام السوء وتحثه على أحسن القول.

أما السيرة النبوية الشريفة فهي أيضاً حافلةٌ بالأحاديث عن أهمية الكلام واللسان في حياة الإنسان، فعن أبي عبد الرحمن بلال بن الحارث المزني أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من رضوان الله تعالى ما كانَ يظنُّ أنْ تبلُغَ ما بَلَغَتْ يكتبُ الله له بها رضوانَهُ إلى يوم القيامة. وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من سَخَطِ الله ما كان يظنُّ أنْ تبلُغَ ما بلغَتْ يكتبُ الله له بها سَخَطَهُ إلى يوم يَلقاهُ»[3].

وقال أيضاً الرسول الأكرمُ: «العينان تزنيانِ واللّسانُ يَزني»[4].

أجل يا أخي المسلم، إنَّ هذا اللسان قد يقودك إلى النار.. فحذارِ أي كلام تتفوّهُ به قد يؤذي غيرك من الناس، ويجلب لك سخط ربك تعالى.. فأنت محاسبٌ على الجهر بالسوء من القول، على أي

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣) رواه مالك في الموطأ، والترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، رياض الصالحين رقم ٦/ ١٥١٦.

(٤) أحمد بن حنبل، ج٢، ص٣٧٢.

شكل صدر عنك، إن لغواً، أو شتيمةً، أو سباباً، أو غيبةً، أو وشايةً، وحتى لو كان مزاحاً، فاحذر!.

واستمع يا أخي المسلم إلى الرسول الأعظم ﷺ يبيّن لك مقومات إسلامية لسلامة وجودك الدنيوي، والرجاء بفلاحك في الآخرة:

فعن معاذ بن جبل قال: قلتُ يا رسولَ الله أخبرني بعملٍ يُدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال ﷺ: «**لقد سألتَ عَنْ عظيم، وإنَّهُ ليَسِيرٌ على مَنْ يَسَّرَهُ الله تعالى عليه: تعبُدُ الله لا تشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيت**»، ثم قال ﷺ: «**ألَا أدُلُّكَ على أبوابِ الخير؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصَدَقَةُ تُطفئ الخطيئةَ كما يُطفئ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ من جوفِ الليلِ ثم تلا: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾**[1]؛ ثم قال ﷺ: «**ألاَ أُخبرُكَ برأسِ الأمرِ وعَمودِهِ، وسَنامِهِ؟** قلتُ: بلى يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُهُ الصلاةُ، وذُروةُ سَنامِهِ الجهادُ**»؛ ثم قال ﷺ: «**ألَا أُخبرُكَ بملاكِ ذلك كلِّهِ؟**» قلتُ: بلى يا رسول الله. فأخذَ بلسانِهِ، ثم قال ﷺ: «**كُفَّ عليكَ هذا**»؛ قلتُ يا رسول الله: وإنّا مؤاخذون بما نتكلَّمُ به؟! فقال ﷺ: «**ثكلتْكَ أمُّكَ، وهَلْ يَكُبّن الناسَ في النارِ على وجوهِهِم إلَّا حصائِدُ ألسنتِهِم؟**»[2]. وعن عقبة بن عامر قال: قلتُ يا رسول الله، ما النجاةُ؟ قال ﷺ: «**أمسِكْ عليكَ لسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتِكَ**»[3].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، رياض الصالحين رقم١٢/ ١٥٢٢.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، رياض الصالحين، رقم ١٠/١٥١٨.

وهكذا يتبين لنا ما للقول السيئ من آثار على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، وكذلك ما للحديث الحسن والكلام الطيب من مزايا إيمانية وخلقية وإنسانية تجعل الإنسان محموداً في دنياه، وراجياً رضوانَ ربه في آخرته.. وأساليب حسن الحديث كثيرة ومتنوعة، نأخذ مثالاً عنها: الإطراء والمجاملة في الحديث، وتأثيره على النفس.

الإطراء والمجاملة

يقال في اللغة: أطرى فلان فلاناً إطراءً أي أحسنَ الثناءَ عليه، وبالَغَ في مدحه؛ وعندما نقولُ: جَامَلَهُ يعني أنه أحسن معامَلتَهُ وعِشْرتَهُ، أي عامَلَهُ بالجميل.. ومن هذه المعاني اللغوية يمكن أنْ نتبيّنَ ما ينشأ عن حسن القول وصدق المعاملة، من علاقات طيبة، يكون لها تأثيرها على نفوسنا. فالحياة التي نعيشُها تطالعنا كل يوم بوجوهٍ كثيرة من الناس، منهم من هو مألوف لدينا، ومعروف نَمَطُهُ وأسلوبه في الحديث أو التعامل، ومنهم من نتعرّف إليه بحكم العمل أو بحكم الحاجة، أو نلتقيه بالصُّدْفة، أو بحكم أي ظرف أو مناسبة دونما معرفة مسبقة، فنسمع حديثَهُ ونعاين حركاته وتصرفاته التي توحي أو تدلُّ على طريقة تعامله مع الآخرين.

وغالباً ما تقوم الحياة اليومية على المجاملة التي يمكن أن تعتبر فناً قائماً بذاته، لا يستطيع كل إنسان ممارسته بصورة عفوية، بل كثيراً ما يتطلب التفكير مع سرعة البداهة، أو التأنّي والتروي، لكي تأتي المجاملة دقيقةً، مقبولةً، وفاعلةً من حيث تأثيرها المقصود.

وقد يكون الإنسان مخلصاً، وفيّاً، فيدْفعُهُ وفاؤه للتنويه والإشادة بالإنسان الذي قدّم له الصنيعَ الحسن؛ والألسنة تتداول عادةً بالأعمال أو الأفعال التي يقوم بها الناس، حسنةً كانت أو سيئة، سواء أكانت تختص بالأقربين أو الأبعدين، وذلك لإظهار شدّةِ تأثيرها على الذين قاموا بها، أو لآثارها على غيرهم. يقول الإمام علي كرم الله وجهه: «قولوا للمُحْسِنِ أحْسَنْتَ حتى يزدادَ إحسانُهُ، وقولوا للمُسيءِ أسَأْتَ حتى يَكُفَّ عن سيّئاتِهِ».

وقد يحاول الإنسان أنْ يجامل غيره، إلاَّ أنَّهُ قد يُسيءُ التصرُّف، أو قد يقع في الخطأ من حيث لا يدري، فيندم على كلمة قالها، أو ضحكة صدرت عنه، أو إشارة لاحت من يده أو طرف عينه. من هنا كانت أهمية الانتباه في المجاملة حتى تحقق الغاية المرجوة منها.

ولعل أفضل مجاملة هي تلك التي تبرز محاسن شخصية الإنسان ومزاياه الفاضلة، سواء جاءت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فالمجاملة المباشرة يكون وقعها في النفس، بما تُريح المعنيَّ بها، إلّا أنَّ المجاملة غير المباشرة قد تكون ذات تأثير أقوى.. فبدلاً من أنْ نقول مثلاً لفلان: أنتَ إنسانٌ مخلص في عملك، فإننا ننوِّهُ بالأعمال التي قام بها والتي تدل على إخلاصه، وصدقه، ولاسيما عندما تكون هذه الأعمال ناتجة من تحمل مسؤوليات هامة. فهنا تأتي المجاملة وكأنها أقوى من الثناء وأشد من المديح؛ أو مثلاً عندما نحاول أنْ نبرز خصلةً جميلةً لدى شخصٍ معينٍ من دون أنْ نتحدث عنه بالذات، كأنْ نتحدث عن صدق المؤمن من دون أنْ نقولَ له مباشرة إنّك صادق.

وللمجاملة آداب يجب مراعاتها، من مثل أنْ يتّصف المجاملُ

بالأدب الرفيع، والتهذيب الجمّ، وحسن استعمال الكلام في مواضعه. . .

ويروى في هذا الصدد أنَّ أحداً من صحابة رسول الله ﷺ سأل حمزةَ عم الرسول: أنتَ أكبرُ أم رسولُ الله ﷺ؟ فأجاب حمزةُ (رضي الله عنه): «إنَّ محمداً ﷺ أكبرُ مني، وأنا وُلِدْتُ قبلَهُ».

وآداب المجاملة مطلوبة في رجال حاشية السلطان ولاسيما الملوك، والأمراء، ورؤساء البلاد وقادة المناصب. . فحاشيةُ هؤلاء أو مساعدوهم ومستشاروهم يجب أنْ يتحلَّوا بكثيرٍ من المزايا الحسنة كاللطف، ورحابة الصدر، ورقة الكلمة، وحسن الإجابةِ، أي بما يجعل الناسَ من خلال مجاملاتهم يحمدون أهل السلطة. . ففي مجلس عبد الملك بن مروان، قيل لأحد المقربين منه: أنتَ أطولُ من الأمير! فأجاب على الفور: «لا! الأميرُ أطولُ، وأنا أبسطُ قامةً».

وواضح أنَّ عبارة «أنتَ أطولُ» جاءت من الطُّول أي امتداد القامة، وهو ضد القِصر أما عبارة «الأمير أطول» فجاءت من الطَّوْلَ في القدرة والفضل، وأما قوله «وأنا أبسط» فهي من البسطة، أي إنَّ مزاياه ناتجة من خدمة أميره، وليس مدحاً لنفسه. وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم عندما يتحدث عن مواصفات طالوت الذي بعثهُ الله تعالى ملكاً على بني إسرائيل، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾(١).

والأمثال على ذوي البديهة السريعة والجواب المهذب كثيرة. . يُروى أنه كان لأحد وزراء المعتصم ولد ذكي الفؤاد، مهذب اللسان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

سأله المعتصم مرة: أرأيت أحسن من هذا الخاتم؟ ومدّ إصبعه ليريه الخاتم في إصبعه، وكان دقيقَ الصنع ثميناً، على عادة ما يتختّم به السلاطين. . فأجابه ابنُ الوزير، على الفور: نعم، الإصبع التي هو فيها.

وتُروى كذلك عن هذا الولد رواياتٌ غيرُها تدل على سرعة الخاطر، وحسن الأدب في المجالسة. . طاف المعتصم يوماً مع وزيره على دارٍ بُنيت له حديثاً، وهي آية في الفن الرفيع والتكاليف الباهظة. وكان الولد برفقتهما. ثم ذهبوا جميعاً إلى دارةِ الوزير، وهناك سأل المعتصمُ ابنَ وزيره قائلاً: ماذا رأيتَ، دارُنا أحسنُ أم دارُ أبيك؟ فأجاب: ما دام أميرُ المؤمنين هنا، فدارُ أبي أحسنُ.

وهذا ما يثبت أنَّ كل ما يثير الانتباه، ويدلُّ على ميزةٍ أو خصلةٍ في شخصيتنا، أو في شخصية محبَّبة لنا، يصبح مقرباً كثيراً إلى نفوسنا، ويحظى بتقديرنا، وربما بصداقتنا الدائمة.

وتختلف مجاملة الرجل عن مجاملة المرأة، لاختلاف الطباع بينهما. ففي حين يُسرُّ الرجلُ بالحديث عن نجاحه في عمله، أو قوة شخصيته، أو ثباته في مواقفه، فإنَّ المرأة يسرها الحديث عن ذوقها الرفيع في انتقاء ملابسها وحليّها، واختيار الكتب التي تطالعها، أو الأفلام التي تشاهدها، وتصفيفة الشعر التي تناسبها. . .

والمجاملة الناجحة لا تتناول المألوف، والأسلوب المتعارف عليه، بل تأتي دائماً بالجديد يُطلق على مسامع الشخص الذي نمدح أو نعاشر. فقد يُسرّ هذا الشخص مِمَّنْ يقول له إنه بدا محطَّ الأنظار في ذاك الاحتفال، أو مِمَّن يسأله: لماذا لا تترشح إلى الانتخابات

النيابية وعندك هذه الطلاقة في اللسان. . . وغير ذلك من الملاحظات التي تُشعر بالإطراء أو المجاملة غير المألوفة.

وإذا كانت المجاملة تقرب الناس بعضهم من بعض، وتقوّي العلاقات في ما بينهم، وتوفر أجواءً من اللطف والكياسة، إلّا أَنها عندما تصبحُ روتينية أو مبالغاً فيها، فغالباً ما يمجّها الذوق، وتبعث الاشمئزاز في النفس، ولاسيما عندما تنم عن التصنّع، أو عندما تتحول إلى نوع من الخداع أو المداهنة لتحقيق أغراض شخصية. وهذا ما يتقنه عديدون في هذا العصر، أو ما يتخذه أفراد كثيرون للوصول إلى غايات معينة، حتى ولو كان في المجاملة إذلال لكرامتهم.

وتنطبق هذه الحالة على الجماعات، كما تنطبق على الأفراد. فلو تأملنا تلك الفئات التي تداهن الطغاة، أو تجامل الظالمين، أو تطري الكاذبين، لوجدنا أنَّ عددها كثير، وأنَّها تعيش في خداع مع نفسها إرضاءً للآخرين. . هذه الفئات قد تستفيد من مداهنتها التي تجاوز حدَّ الخداع، ولكنها مداهنات تسبِّب الأذى للصادقين والأوفياء. ولعلَّ في مداهنة المتحكمين أو النافذين خير دليل على ذلك. فقد يداهن أعضاء الحكومة في بلدٍ ما، حكاماً في بلد آخر ولو كان ذلك مضراً بمصالح شعب تلك الحكومة، وهذا ما يجعل أصحاب النفوس الزكية يمتلئون غيظاً وينفرون من تصرفات تلك الحكومة التي تجامل وتداهن حكام دولٍ آخرين، ولو على حساب بلادهم، لنيل الحظوة عندهم، حتى ولو كان ذلك أيضاً على حساب العقيدة، أو ضدّ مصالح الأمة.

والحياة ملأى بأمثال هؤلاء المداهنين ـ كما أشرنا ـ إذ نجدهم

حول الحاكم، أو الوزير، وحول مدير المؤسسة، أو رئيس الشركة، أو صاحب الجاه والثراء إلخ. . . وغيرهم مما نشاهد في واقع الحياة، حيث باتت الروابط قائمة على المصالح المادية، والعلاقاتُ على الممالأة الكاذبة، والمجاملة الزائفة، وعلى الإطراء الأجوف أكثرَ بكثيرٍ مما تقوم على الروابط الفكرية، والأخوة المخلصة، أو العلاقات الاجتماعية الصادقة، وغيرها من العلاقات الإنسانية.

والقرآن الكريم ينهى عن المداهنة أو عن الإدهان الذي يعني المداراة، والملاينة وترك الجد. يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1]، أي ودَّ الكفارُ والمشركون لو تلينُ فيلينونَ. . وقد نزل هذا النهي بمثابة تحذيرٍ للرسول الكريم - تأديباً وتربيةً لأمته من بعده - بألا يستمعَ لأقوال المكذبين، وألاّ يُطيعَهم بشيءٍ مما يطرحون عليه!. . فقد كانوا يحاولون ممالأته، لعلَّه يميلُ عن جزءٍ من دينه، فيتَّبعوه. . ومن قبيله أنْ يطردَ الفقراء والمساكين من حوله، حتى يأتوه، ويجالسوه، ويستمعوا إليه. . وغايتهم من وراء ذلك أنْ يحيدوا به عن الدعوة، وعن خط مسارها الصحيح. ومعاذَ الله أنْ يفعل الرسول الأكرم ﷺ شيئاً من ذلك. . ولكنْ هذا، في الحقيقة، ما كان يريده المنافقون والمكذبون في قرارة نفوسهم، إذ كانوا يبتغونَ أنْ يعقدوا صفقات مساومة معه على حساب دينه، كما كانوا يفعلون في الصفقات التجارية وغيرها من صفقات الدنيا؛ دون أنْ يدركوا الفرق الشاسع بين الاعتقاد والصفقة، بين تجارةٍ يبيعُ فيها الإنسانُ نفسَهُ مرضاة لله تعالى، وصفقاتٍ دنيويةٍ لا سعيَ فيها

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ٨ و٩.

للآخرة!.. فصاحب العقيدة، المؤمنُ بصدق عقيدته، لا يسعُهُ إيمانُهُ أنْ يتخلّى عن شيء منها، لأنَّ التخلي عن القليل من العقيدة كالتخلي عنها بكاملها. فالعقيدة واحدة، متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحداً، ولا يتخلى عن اليسير منها أبداً، فكيف إذا كانت العقيدة هي الإسلام، وكان الداعية هو رسول الله ﷺ؟ ومع ذلك نزل النهيُ الإلّهي ليكون قاعدة إسلامية ثابتة، تتعاطى مع الإنسان في كل الأزمان والأجيال، وفي كل الأمصار والأقطار، وهي تحذّر المسلم من الانصياع للمداهنة، وتدعوه لاتباع الشدّة في أمور دينه، حتى تستقيم حياته، ويكون له الموقف الصادق، والروابط المخلصة في كل شيء، سواء تعلق ذلك بأمر الدين أو بأمر الدنيا.

والقاعدة: على الإنسان أنْ يكون حسنَ الحديث والموعظة، صادقاً غيرَ مداهنٍ.

٧ ـ الإصغاء والاستماع

الصغو هو الميل. يقال: صَغَتِ الشمسُ صَغْواً، أي مالت للغروب. وأصغيتُ إليه: ملتُ بسمعي نحوَه.

وللإصغاء أهميته في حياة الإنسان، وتأثيره القوي في نفسه؛ قال الشاعر:

وتَراهُ يُصْغي للحديثِ بِسَمْعِهِ وبِقَلْبِهِ ولَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

ويبين لنا الله تعالى في قرآنه الحكيم، وتحديداً في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: كيف أنَّ شياطين الإنس والجنّ يوسوس بعضهم إلى بعض زخرف القول من الباطل والكذب، والرياء، ليغترّوا بأفعالهم.. وكيف أنَّ هذا الزخرف من القول تصغي إليه قلوب الذين

لا يؤمنون بالآخرة، فيقول تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[1]. فهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ينجذبون بأفئدتهم إلى ما يغرّنهم به أبالسة الإنس والجن، حتى يصيروا من الذين مردوا على الكفر والشرك، وتاهوا في غياهب الجهل والضلال. وليس همهم إلاَّ نصبَ العداء لأولياء الله المؤمنين!.. وبعد هذا البيان يأتي وعيدُ الله القوي المتعال، لأولئك الذين تصغي أفئدتهم إلى زخرف القول وغروره، والذين ارتضوه ليكتسبوا ما يكتسبون من الآثام... فكل ذلك بحسبانٍ، وله عقابه!.

وإلى جانب الإصغاء هناك السكوت والإنصات: فالسكوت هو ترك الكلام مع القدرة عليه. ومثله الإنصات، ولكن يفترق عنه بأنَّ الإنصات هو سكوت مع استماع. ومن ضمَّ شفتيه يكون ساكتاً، ولا يكون صامتاً إلّا إذا طالت مدة الضَّم.

ومن حيث المعاني الفكرية يعتبر السكوت إمساكاً عن التكلّم، وقول الحق أو الباطل، بينما الصمت هو إمساك عن قول الباطل دون الحق.

وعن الاستماع والإنصات يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]. إذ إنَّ الاستماع إلى قرآن الله المبين، والإنصات له قد يجذب حلْوُ كلامه، وطلاوتُهُ ذوي النفوس الصافية للبحث عن معاني الكلام الذي أنصتوا له، وأول ما يحصل من الوقوف على تلك المعاني التمييز بين الحق والباطل، تمهيداً لاتباع

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

الحق وترك الباطل، قولاً وعملاً.. ثم إنه أمرٌ من الله تعالى موجّه إلى الناس، ربهم وخالقهم، يدعوهم إلى الاستماع والإنصات لهذا القرآن عند سماع تلاوته، والميل إليه بأفئدتهم، ومِنْ ثَمَّ تدبُّرِ آياتِهِ البيّناتِ، لأنَّ فيها شفاءً ورحمةً للمؤمنين. أجل، إنَّ الجوارحَ إذا ما استمعت لهذا القرآن، وأنصتت القلوبُ إلى معانيه، فلا بدَّ أنْ تتفتَّحَ مداركُها لأنْ تعيَ وتتأثر وتستجيب، فكان ذلك أرجى أنْ يُرحَم الإنسانُ. وإنَّ الآية الواحدة في القرآن لتجعلُ النفسَ ـ أحياناً كثيرة ـ تتفاعل مع ألفاظها ومعانيها، بحيث تشعُرُ بالراحة والطمأنينة، وتستجيبُ لدواعي الوعي والمعرفة...

ووفقاً لمنطوق الآية الكريمة فإنَّ أمر الله تعالى لنا بالاستماع إلى القرآن والإنصات إليه لا تقف مدلولاته عند حد الاستماع للتلاوة، بل الانتباه إلى ما في الآيات التي تتلى ـ وما في هذا القرآن في مجمله وتفصيله، في خصوصه وعمومه ـ من الحكمة، والموعظة والأحكام، والأدلة والشواهد التي يجب التأنّي حتى يمكن فهمها ومقاصدها ومصاديقها. وأول المقومات لذلك الاستماع إلى القرآن والإنصات إليه لأنه حديث الله تعالى.. فأنت عندما تقرأ القرآن، أو تستمع لتلاوته فأنت تصغي إلى حديث الله جلَّ وعلا، بعقلك وقلبك، وكامل جوارحك حتى تحصل على النفع الذي تتوخاه، والرحمة التي ترجوها.. وإلّا ما الفائدة من تلاوة القرآن إذا لم تُصغِ إليه النفوس والأفئدة كما يحصل في كثير من المناسبات عند المسلمين، إذ تجد جمعاً كثيراً في المجلس، وهم يتحادثون، ويتناقشون في ما بينهم، بينما القارئ يتلو آيات الله تعالى، ولا يستمع أو يصغي إلّا من يشاءُ أن يكسب رحمة الله ـ تعالى ـ وهم قليلٌ!!.. وأعجب من ذلك أنَّ كثيراً

من المسلمين يفتحون جهاز التلفزيون أو المذياع ساعة تلاوة القرآن في الصباح، وهم يحرصون على هذا الأمر، ولكن تراهم ـ في أغلب الأحيان ـ ينصرفون إلى تدبير شؤونهم الخاصة، دونما استماع أو إنصات. إنها لعادةٌ سليمةٌ ومستحبةٌ أنْ يفتتحَ المسلم نهاره بتلاوة القرآن، بعد أداء فريضة الصلاة وأن يقوم بالتلاوة بنفسه، وإلَّا فالاستماع إلى تلاوته عبر جهاز التلفزيون أو المذياع، لأنَّ البيت الذي لا يذكر فيه الله تعالى يكون مسرحاً للشياطين.

وينصحنا رسول الله ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، وتفهم معانيه، فيقول ﷺ: «**اقْرَأوا القُرآنَ فإنه يأتي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه**»[1]، ويقول ﷺ: «**من قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كتابِ الله فَلَهُ حسنةٌ، والحسنَةُ بعَشْرِ أمثالِها، لا أقول (ألم) حرف، لكن ألف حرفٌ، ولام حرف، وميم حرف**»[2]، ويقول ﷺ: «**عليكَ بذكرِ الله وتلاوةِ كتابِ الله، فإنه نورٌ في الأرض، وذكرٌ لَكَ في السَّماء**»[3]، ويقول ﷺ: «**خيرُ الدواءِ القرآن**»[4]. . هذا ما يريدهُ الله تعالى ورسوله الكريم، أنْ تَحفَّنا الرحمة الربانية التي نرتجيها عندما نستمع إلى القرآن الكريم، سماع تدبّر، وعندما نقرأه قراءة فهم واتعاظ.

وقد يظن البعض أنَّ الإنصات أو الإصغاء أمر سهل، لا، ليس الأمر بهذه البساطة التي نتصورها، فقد أثبتت دراسة استغرقت شهرين، جرت في أميركا، تناولت الاتصالات الشخصية لثمانية

---

(١) أحمد بن حنبل، ج٤، ص١٨٣.
(٢) البخاري، باب الإيمان، ص٣١.
(٣) أحمد بن حنبل، ج٣، ص٨٣.
(٤) ابن ماجه، باب الطب، ص٣٨.

وستين شخصاً في مختلف الأعمال، أنَّ ٧٥ بالمائة من مواضيع النهار تتم بالاتصال الشفهي، بمعدل ٣٠ بالمئة للحديث، و٤٥ بالمئة للإصغاء والاستماع. . وقد قام أستاذان في إحدى جامعات أميركا طوال سنتين بدراسة وقياس القدرة على الإصغاء لدى الآلاف من التلامذة، كما قاما بدراسة تلك القدرة لدى العشرات من العاملين في حقل التجارة والمهن الحرة، فكان الشخص المتوسط هو «نصف مصغٍ»، حتى عندما يحاول، فإنه لا يحفظ إلا حوالى ٥٠ بالمئة مما يسمعه مباشرة بعد سماعه». ولذلك يقول مدير التدريب في أحد المخازن الأميركية الكبرى: «هذه إحدى الصعوبات الكبيرة التي تعترضنا عندما يتولى البيع موظفون لا خبرة لديهم. . يدخل الشاري فيطلب سترة قياسها ٣٨ بكِمَّيْنِ قصيرَين كتلك التي أبصرها في الواجهة. فيهرع البائع إلى الرف المعين ويتناول سترة قياسها ٣٨، ولكن بكمين طويلين. فيكرر الشاري طلبه مشدداً على الأكمام القصيرة. ويعود البائع ليلبي الطلب. . ومثل هذا التصرّف يكلف مالاً لأنه يهدر الوقت بلا فائدة: وقت الشاري ووقت البائع، عدا ما يسببه من فوضى في رفوف السلع، ومن تكدير الشاري». ويمضي مدير التدريب قائلاً: لذا فنحن في الدروس التي نقدمها نشدد على العبارة التالية: «أصغِ قبل أنْ تتصرفَ».

من هنا تبرز أهمية الإصغاء، من حيث كونه مهارة عقلية، وليس مجرد إنصات أو استماع عابر، من دون أي تفكّر أو جهد عقلي. ولنأخذ مثالاً على ذلك الأستاذ الذي يلقي محاضرته في قاعة الكلية، فقد نجد الطلابَ أمامه مستمعين، ولكن كم عدد من يستوعب منهم ويدرك كل ما يلقيه؟! أجل، كثير من الطلاب، كما أثبتت الدراسات،

الذين لا يحسنون الإصغاء، سرعان ما ينفد صبرهم، وتتحول أفكارهم إلى شيء آخر، فإذا حاولوا العودة بانتباه إلى المحاضر فإنَّ معلوماتٍ كثيرةً من الموضوع تكون قد فاتت عليهم، ولذلك يصبح من الصعب عليهم المتابعة. أو قد يصل الحال بهؤلاء، نظراً لانشغال أفكارهم بأشياء أخرى بعيدة كل البعد عن موضوع المحاضرة، أنْ يكونوا حاضرين بأجسامهم في القاعة، بينما أفكارهم في عالم آخر. بل قد يَعتبرُ - عادةً - الذين لا يحسنون الإصغاء أنْ الموضوع جافٌّ، ويكون اهتمامهم به سلبياً، على عكس من يجيدون الإصغاء فإنهم يحاولون أنْ يجدوا في أي موضوع يطرح على مسامعهم شيئاً جديداً يمكن الانتفاع به. ولذلك فإنَّ الذين ينمّون قدرتهم على الإصغاء، يتعلمون كيف يركّزون اهتمامهم على الأفكار الهامة والرئيسية، ومن خلال فهمها واستيعابها تصبح لديهم المقدرة على تذكر التفاصيل ووضعها في أطرها الصحيحة.

والإصغاء قد يبرز بمثابة حاجة ملحَّة في عصر السرعة، عصر الأقمار الصناعية، والإنترنت والتلفزيون، والهاتف، بحيث قد نحتاج عبر وسائل الاتصالات، إلى الاستماع والإِصغاء أكثرَ من حاجتنا إلى التكلم والحديث. وهو ما أشار إليه حكيمٌ: «يا بنيَّ تعلَّمْ حُسْنَ الاستماع، كما تتعلَّمُ حُسْنَ الحديث».

والقاعدة: على الإنسان أن يكون حسنَ الاستماع كثيرَ الإنصات.

الفصل السادس عشر

- الأمراض العصابيّة
- العلاج النّفسي في الإسلام

المبحث الأول

الأمراض العصابيّة

يطلق علماء النفس على الاضطرابات التي تحدث في النفس تسمية «الأمراض العصابية»، وهي مثل أمراض الجسد تستدعي المعالجة.. وقد اعتبروا أنَّ «العصاب» هو نوع من الخللِ العقلي الناشئ عن الاضطرابات النفسية الوظيفية، كالأفكار الثابتة أو المتسلطة، والمخاوف، والشكوك، والوساوس، وفقدان الذاكرة، والحذر، واضطراب الكلام. وإضافةً إلى ما يصاحب العصاب من خللٍ في التوازن الشعوري والفكري، فقد يصاحبه، في الغالب، آلام في الجسد، إلّا أنه لا يغيِّر شخصية صاحبه، ولا يفقده ذاتيته.. ويُعرّف العصاب بأنه «اضطراب وظيفي، دينامي ـ انفعالي، وهو نفسي في المنشأ، ويتصف بأعراض عامة تؤدي إلى اضطراب في العلاقات الشخصية وحالة عدم كفاية وعدم سعادة».

وليس للأمراض العصابية، عند علماء النفس المعاصرين، سبب عضوي محدد، إلّا أنّها تتصل بحياة المريض النفسية.

أما الأعراض العامة للشخص العصابي فيمكن أنْ يستدلّوا عليها من عدة مظاهر:

١ ـ شعور المريض بانقباض داخلي شديد، وضيق مستمر، قد يعرف من خلالهما أسباب عصابه، إلّا أنه لا يجد لها حلاً، ومن هنا يظهر عليه التوتر العصبي، ولكن يبقى في حالة الشعور، والإحساس بالواقع.

٢ ـ معاناة المريض من قلق ظاهري أو خفي، وشعور بعدم الأمان النفسي، والهياج، والمبالغة في ردود الفعل السلوكية، ومحاولة جذب انتباه الآخرين، والاعتماد عليهم. ويخيم عليه الحزن والاكتئاب.

٣ ـ قد يمكن للعصابي أنْ يساعد نفسه أحياناً، ولكنه في الغالب يطلب المساعدة من الآخرين.

٤ ـ يعاني العصابي من اضطرابٍ في تفكيره، وبطءٍ في الفهم، وتردّدٍ في الإقدام على ما يريد القيام به.

٥ ـ يصاحب نوباتِ القلق، والتوترَ لدى العصابي أحياناً، اضطرابٌ في الجهاز الهضمي، مع ضغط شديد على الأعصاب.

٦ ـ يظهر سلوك العصابي بالجمود، والتكرار عملياً وذهنياً. وقد يتصف، في بعض الأحيان، بالطيش والتسرّع.

٧ ـ يعاني العصابي من الضجر، وسرعة الملل من معظم الأشياء حوله، ومن قصر مدة الانتباه والتركيز.

٨ ـ العصابي أناني الذات، وعلاقاته مع الآخرين تكون مضطربة.

٩ ـ يعاني العصابي من تصورات وهمية ومخاوف لا أساس لها في عالم الواقع.

١٠ـ العصابي سريع الغضب لأقل الأسباب، ضعيفُ الإرادة.

وعلى الرغم من كل تلك المظاهر المرضية، إلّا أنه يمكن معالجة العصابي نفسانياً، ويكون قابلاً للشفاء، ولكن يختلف العلماء حول تصنيف الأمراض النفسية، حيث يبدأ البعض من منطلق معين، ويرتكز على أمراض معينة، في حين يعتبرها البعض الآخر أمراضاً ثانوية من حيث الأهمية. إلّا أنهم جميعاً متفقون على أن (العصاب) بشتى أنواعه وفروعه هو رأس الأمراض النفسية.

ويذكر الدكتور مصطفى فهمي أن هنالك سبعة أنواع رئيسية من الأمراض النفسية، وهي:

١ ـ القلق المرضي العصابي أو (العصاب).

٢ ـ الهستيريا أو العصاب التحوّلي.

٣ ـ الشعور بالضعف والإجهاد بشكل مَرَضي (النورستانيا).

٤ ـ الأعمال القسرية والوساوس.

٥ ـ اللجلجة في الكلام.

٦ ـ السلوك السيكوباتي (مضطرب الشخصية).

٧ ـ الانحرافات الجنسية.

ويعترف كثير من علماء النفس، أو الباحثين في مجال علم النفس، بأنَّ الأسباب الرئيسية للأمراض العصابية ما زالت غير واضحة، وهي تفسر بنظريات مختلفة، ومدارس متضادة. كما أنَّ

البرهان العلمي، لأيٍّ من هذه النظريات، لم يثبت بعد، وهي تتلخص في نظريتين:

١ ـ «النظرية التكوينية التي تعتمد على العوامل البيولوجية الوراثية والفيزيولوجية».

٢ ـ «النظرية البيئية».

وأياً تكن النظريات حول أسباب تلك الأمراض أو طرائق علاجها، فإننا نرى أنْ لا شيء يجدي إلّا المعالجة النفسية القائمة على حقيقة الإيمان بالله تعالى، واتباع المنهاج الإسلامي من خلال الكتاب والسنة، بحيث تُعتمد طرائق العلاج التي قدَّمها القرآن الكريم، وبيّنها الرسولُ الأمين.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الأمراض النفسية هي غير الأمراض العقلية أو الذّهنية، فهذه الأمراض كالذُّهان الدوري، والهلوسة الحادة والمزمنة، وانفصام الشخصية، والتخلف العقلي: الخَلْقي أو الاكتسابي (الذي يتولّد بفعل ضغوطات)، هي أمراض عضوية ناتجة من خلل في وظيفة الخلايا الدماغية، وإنْ كانت عوارضها فكرية، شعورية أو سلوكية. لذلك وجب فصلها عن الأمراض النفسية، ومعالجتها تتم بطريق الطب المعروفة، ومن الأطباء المختصين في هذا المجال.. في حين أنَّ علاجات أكثر حالات العُصاب (كعصاب القلق، وعصاب الخوف، وعصاب الوسوسة، والقلق النفسي) بمختلف مظاهره النفسية أو العضوية إنما تتم بالعلاج النفسي الإيماني، ولا سبيل إلى غيره من العلاجات الأخرى لمن أراد الشفاء.

وتأتي الأمراض النفسية نتيجة للضغوط ـ المادية والمعنوية ـ التي

قد يتعرّض لها الإنسان، وتولّد في داخله صراعاً يؤدي، في الغالب، إلى اعتلالٍ في نفسه. وهذا الاعتلال هو المرض النفسي، فالشخص الذي يصبح مريضاً نفسياً، يصبح إدراكه لنفسه وللواقع إدراكاً مختلاً مشوهاً، وسلوكُه غيرَ مألوف، وربما شاذاً في نظر الآخرين. ومن هنا كان شعوره بالاضطرابات النفسية، والآلام الجسدية، فتخيم على حياته ـ بسبب هذا الشعور ـ أجواء القلق والتعاسة، وتضعف قدرتُهُ على إصدار الأحكام الصحيحة، وأداء واجباته بفاعلية، وإقامة علاقات سليمة مع الواقع، ومع الناس. وكل ذلك نتيجة للصراعات النفسية التي تتفاعل في كيانه الداخلي، وتؤدي إلى معاناته.

وأشد مظاهر هذه المعاناة الكآبةُ التي تخيم على حياته، وتكون باديةً على وجهه، وفي تصرفاته. وهذه الكآبة يكون مصدرها، في أكثر الأحيان، القلق الذي تسببه، عادة، الأوضاع السيئة.. إذ إن الأوضاع التي تحيط بنا غالباً ما تكون عرضة للتغيرات، فإذا كان التغيير في الأوضاع نحو الحسن أو الأحسن غلب على الإنسان الشعور بالاطمئنان، والارتياح إلى حاضره وغده، بما ينعكس سكينةً على نفسه.

أما إذا كان هذا التغيير يتجه من سيئ إلى أسوأ، فإنَّ أجواء القلق الناجمة عنه لا بدَّ وأنْ يكون لها آثارها على النفوس، التي تظهر في الخلل الذي يطرأ على تصرفاتهم.. فمثل هذا القلق هو الذي يولّد الكآبة، ومع الوقت تحدث الأمراض النفسية، وتتبعها الأمراض البدنية.

ولعلَّ من أهمّ المشاعر التي تقضّ مضاجع الإنسان: الغمُّ والهمُّ والقلق.

١ ـ الغـمّ

هو ستر الشيء، ومنه الغمام لأنه يستر ضوء الشمس. والغم في النفس هو ما يستتر في باطنها، ويختبئ في ثناياها بما يؤدي إلى إزعاجها واضطرابها. وهو من المشاعر المؤذية لأنها تكون دفينة، فإن خرجت زال الغمّ، وتخلصت النفس من أثقاله، ففي مخاطبة نوح عليه السلام لقومه قال الله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾[1] أي اعزموا في معارضتكم لدعوتي، على أمر تفعلونه ثم لا يكن أمركم مستتراً، تخفونه، بل أظهروه وجاهروني به، وليكن الموقف الذي تعتزمونه تجاهي نابعاً من نفوسكم، وموافقاً لتصرفاتكم، بلا لبس ولا غموض، ولا تردد فيه ولا رجعة.

٢ ـ الهـمّ

هو الحزن الذي يؤثر في الإنسان تأثيراً شديداً حتى لكأنه يذيبه. يقال: رجلٌ همٌّ أي رجل كبيرٌ قد همَّه العمرُ فأذابه. والهمُّ أيضاً ما همَّت به النفس ورغبت القيام به. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾[2]، حكايةً عن امرأة عزيز مصر ويوسف عليه السلام.. أي وعزمت على الفاحشة به، وهي تراوده عن نفسه، بينما هو عزمَ على دفعها عنه، بمعنى أنها طلبت منه الفعل الذي يسبب لها الهمّ في نفسها، وطلب هو إقلاعها عنه لأنَّهُ يورث الهمَّ في نفسه، باعتباره معصوماً ـ ذاتياً ـ من ربه تعالى عن ارتكاب الفاحشة... وقال تعالى:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾[1] أي وعزموا على إخراج رسول الله ﷺ من مكة، إذْ كان أكبر هموم المشركين صدّه عن سبيل الله، والقضاء على دعوته في مهدها، فكان من جملة ما تشاوروا به إخراجُهُ من بلده، أو قتله! . . ويقال: أهمَّني كذا، إذا حملني على أن أهمَّ به. قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[2]، أي وجماعة قد شغلتهم أنفسهم وحملتهم على الهمّ، وهم جماعة المنافقين الذين غلبَهم الخوفُ من الهزيمة في «أحد»، فلم يعد همُّهم إلّا الهرب والنجاة بأنفسهم.

٣ ـ القلق

يقال: قَلِقَ الشيءُ أي لم يستقرَّ في مكان أو على حال، فهو قَلِقٌ كريشة في مهب الريح، وقَلِقَ: اضطرب وانزعج.

ويعدُّ القلقُ أكبرَ عدوٍّ للنفس البشرية، ومعنى القلق النفساني: «الشعور بالضيق أو الانزعاج الذي يسبق الفعل الإرادي». ويكون، حسب ما ذهب إليه بعض الباحثين، على درجتين: درجة الانزعاج وعدم الرضا، ودرجة الجزع والكرب. ويعرَّف القلق في «علم النفس» على أنه «استعداد تلقائي للنفس يجعلها غير راضية بالواقع». فإذا تطلع الإنسان إلى تحسين أوضاعه مثلاً، ووجَدَ أنَّ ظروف حياته مليئةٌ بالأتعاب والمخاطر، وتكادُ تبعده عما يصبو إليه من نيل الراحة أو السعادة، فإنّ ذلك يؤدّي به إلى القلق والغمّ. ومَثَلُ هذا الإنسان في واقعه الصعب كمثل راكبٍ في سفينة مشرفة على الغرق، تتقاذفها

(١) سورة التوبة، الآية: ١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

الرياح والأمواج في بحرٍ هائج، لا يظهر له شاطئٌ يمكن أن يصل إليه، فتعتريه مشاعر كثيرة أقواها القلق الذي يستبد به، جرّاءَ الهلاك الذي يتراءى له.

وقس على ذلك مختلف الأحوال التي يمرّ بها الإنسان، عندما تحيط به المشاكل والمتاعب من كل جانب.. فالتبعات الملقاة، عادةً، على عاتق الإنسان، والمسؤوليات المتعددة التي يحملها على أكتافه، والمستجدات الطارئة التي تعترضه، من غير أن يكون متوقعاً حدوثها.. كل ذلك قد يجعل الواحد منا مشتت البال، موزع الذهن، متحسراً على الماضي، متوجساً من المستقبل. وهذا هو القلق - بمعناه الحقيقي - الذي يبعدنا عن راحة البال، وعن الاستمتاع بمباهج الحياة. ولذلك فإنَّ الملايين من الناس يعتبرون أنَّ ألدَّ عدوٍّ لهم هو القلق، الذي تفرضه عليهم ظروف الحياة القاسية، كما هو الحال في هذا الزمن، الذي تطغى فيه «الماديَّةُ» على كلِّ شيءٍ وتشكّل مصدر إرهاق للناس، باتوا معها يخافون على غدهم، ويخشون مما يخبئه لهم المجهول.

ومن هنا فإنَّ غالبية المصابين بأمراض نفسية يكونون من الذين يعانون إرهاقاً عصبياً أو عقلياً يأتي - في معظم الأحيان - من شدة القلق، لما يورث في نفوسهم من انزعاج دائمٍ، واضطرابٍ مستمرٍ، مهما كانت مسبباتُهُ، نظراً لخوفهم من الأمراضِ التي قد تصيبهم، أو من عادية الزمان على الزوجة والأبناء، أو من حمل الهموم يعانيها الأقارب، أو الهواجس مما قد يتهدد الوطن من مخاطر. إلى ما هنالك من مسببات للقلق تُفرض على الإنسان فرضاً، من دون أنْ

يكون له حيلة في دفعها عنه، فتؤثر في نفسه حتى توقعه فعلاً بالاضطراب أو المرض، الذي إذا ما اشتدَّ على صاحبه، فإنَّه يُصاب بوسواس السويداء، أو باستحواذ تصوراتٍ معينة عليه، تجعله يحسُّ بالآلام، والأوجاع المبرّحة. ولذلك صار من الثابت، لدى علماء النفس، أنَّ تأثير القلق غالباً ما يتعدى كوامن النفس إلى الجسد، فيصاب الإنسان من جرّائه بأمراضٍ بيولوجية أو عضوية. وهناك شواهد كثيرة في حياة الناس على أنَّ كثيرين قد أدّت بهم الهموم إلى أنْ يصابوا بأمراض جسدية لشدّةِ تأثرهم بالحوادث التي تقع لهم، أو يصادفونها في حياتهم. وهذا هو سببُ الاعتقاد القائل بأنَّ القلق هو أهم أسباب الضعف والفشل.. ولكنَّ هذا الاعتقاد يعارضُهُ كثيرون، بل ويقولون بعكسه تماماً، بمعنى أنَّ القلق، بدلَ أنْ يكون مجلبةً للضعف، قد يكون ـ في أحيان كثيرة ـ مصدرَ قوة، وخاصة عندما يكون للإنسان هدف معين يريد تحقيقه.. كما هو حال أولئك الرجال العظام الذين أدَّوْا للبشرية خدماتٍ جُلَّى، على الرغم ممَّا كانوا يعانون في حياتهم من قلقٍ واضطراب، إلّا أنَّ ميزتهم كانت في وعيهم لما يعانونه، وعزمهم على التخلّص منه، وقد كان لهم ذلك، إذ استطاعوا تخليص أنفسهم من القلق، والانعتاق من إرهاقه، فاستمروا في جهودهم، وكان لهم شرف خدمة الإنسانية.

وقد بيَّنت الإحصاءات التي قام بها بعض الباحثين مقدار النسبة في الأمور التي تقلق أغلب الناس، وجاءت النتائج على الشكل التالي:

• ٤٠ بالمائة: أشياء لا تحدث مطلقاً.

«٢٠ بالمائة: أشياء حصلت في الماضي ولا يمكن تغييرها مهما كان نوع القلق الذي ينشأ من جرائها.

«١٢ بالمائة: قلق لا مبرر له بشأن الصحة.

«١٠ بالمائة: مخاوف متفرقة.

«صفر بالمائة: مخاوف حقيقية مشروعة».

وإذا كنا نعتبر أنَّ الإحصاءات والأرقام لا يمكن أنْ تدلَّ، في كثير من الأحيان، على حقيقة الواقع التي تريد إظهاره، فكيف الحال بالنسبة لكوامن النفس البشرية، التي لا يمكن ضبطها أو تحديدها بدقة، لاختلاف النفوس وكوامنها، ولاختلاف الظروف التي يعيشها الأفراد ويتأثرون بها إلى درجة كبيرة.

وإذا كانت الظروف المادية القاسية، أو أسباب العيش الصعبة هي أكبر الدوافع للقلق، فإنَّ بالإمكان معالجة مثل هذه الأمور عن طريق القناعة، والاكتفاء بالحاجات التي تؤمن العيش الكريم.. وبهذا الصدد يقول رسول الله ﷺ: **«مَنْ أصبَحَ آمِناً في سِرْبِهِ، مُعَافًى في جسدِهِ، عِنْدَهُ قوتُ يومِهِ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بحذافيرها»**[(1)]؛ إلَّا أنَّ ما نراه عكس ذلك من تدافع الناس الذين يعملون، ويكدُّون في العمل من أجل الحصول على حاجاتهم الضرورية، سواء من المأكل أو الملبس أو المسكن، أو ما يلحُّون في الوصول إليه من الثراء، والنفوذ، والجاه.. فكلُّ ذلك من شأنه أنْ يرهق نفوسهم، ويسبِّب لهم القلق.. في حين لو وجدت القناعة الذاتية، لأمكن الناس أنْ يوفِّروا

---

(١) الترمذي، باب الزهد، ص٣٤.

على أنفسهم كثيراً من المعاناة، ومسببات القلق.. ولا تعني هذه القناعة أنْ يقعد الإنسان بلا عمل، أو أنْ يتخاذل، أو أنْ لا يكون لديه طموحات، ولكنْ هنالك فارق كبير بين الطموح المشروع، أو الذي يتناسب مع جهد كل منا، والإرهاق الذي نُعرّض له أنفسنا من أجل طموحنا البعيد، والذي قد يصيبنا بالملل والسأم، أو قد يُقعدنا عن تحقيق ما نصبو إليه. لذلك يجب أن يُفهم أنَّ العمل ضرورة لا غنى عنها للإنسان، وهو سنةٌ في الوجود البشري لعمارة الأرض، بل ولعلَّ أفضل علاج للقلق وأنجعه هو العمل، أو تشغيل الفكر بأشياء تبعد القلق عن النفس. وعلى الإنسان أنْ يجرب هذا الدواء الناجع، ثم يقارن بعد ذلك بين أيامه التي كان يقضيها بالبطالة والفراغ، وأيامه التي يصرفها في العمل، ليتحقق من أنَّ انهماكه بعمله كان من أهم العوامل للقضاء على القلق لديه، ولاسيما إذا كانت لهذا العمل نتائج مفيدة.

ويبقى، بعد ذلك كله، أنْ يعلَمَ الإنسانُ المؤمن الصادق، يقيناً، بأنَّ معظم ما يصيبه في حياته ليس من أمره، وإنما هو من أمر ربه، وما كتب له في اللوح المحفوظ، ولا يمكن الفرار من حكم الله سبحانه وتعالى، وعندما يثق الإنسان المؤمن بأنَّ ربَّهُ هو الحكم العدل، وهو اللطيف الخبير يرتاح كثيراً، ويطمئن إلى عدله تعالى ورحمته وهداه. وعندها تستقر مشاعره، ويتوكل على ربه حق التوكل، ويعتمد عليه ـ سبحانه ـ في كل شأن من شؤون دنياه، مهما عظم، وفي كل حاجة مهما كانت ماسّةٍ. يقول رسول الله ﷺ: **«لو أنّكم توكّلتُمْ على الله حقَّ توكُلِهِ، لرزقكُم كما يرزُقُ الطيرَ تَغْدُو خِمَاصاً وتَرُوحُ بطاناً»**[1]، وهذا

(١) الترمذي، باب الزهد، ص٣٣.

الشعور الوجداني كفيلٌ وحده بأنْ ينأى بالنفس عن الغمّ، والهمّ والقلق، أو أن يقلبها من نفسٍ قلقةٍ إلى نفسٍ مطمئنةٍ، تتفاءل دائماً بالخير، وترتجي الأمان. . والرسول الأكرم يقول: **«تفاؤلوا بالخير تجدوه»**[1]؛ ويقول ﷺ: **«لا طيرةَ، وخيرُها الفألُ»**[2].

وخلاصة القول أنَّ المرض النفسي يأتي نتيجة تفاعلٍ خاطئ، قد يحدث تحت وطأة ضغوط معينة وظروف مؤلمة، قد يتعرَّض لها الشخصُ، ما يؤدي إلى اختلال إدراكه لنفسه ولمحيطه، وإلى اتباعه طرقاً معينة من السلوك ليست قويمة أو مقبولةً من الناس. ولو أتيحت لهذا الشخص أجواء ومناخات أكثر ملاءمة، وأكثر توافقاً لما كان قد وقع تحت وطأة الظروف والملابسات والوقائع والأحداث التي تؤدي إلى إصابته بالمرض.

(١) أحمد بن حنبل، ج٢، ص٢٧٠

(٢) البخاري، باب الطب، ص١٩.

المبحث الثاني

العلاج النفسي في الإسلام

إن العلاج النفسي، وفقاً للمفاهيم الإسلامية، يقوم على البناء العقائدي للإنسان، بمعنى أنَّه لا يمكن أن يفيده هذا العلاج إن لم يؤمن المسلم إيماناً يقينياً جازماً بأن الإسلام، إنما يعني الاستسلام لله: في مبدئه ومعاشه ومعاده، أي الإيمان الذي تنبثق منه كل الأفكار، والتصورات والقيم في الوجود البشري؛ وعلى هذا الأساس فإنَّ أولَ ما يجب على المسلم، أنْ يربط وجوده ومصيره كله بالله تعالى، وأنْ يجعل الصلة قائمة ومتجددة في ما بينه وبين خالقه، دون واسطة من أحد، لأنَّ صلاح النفوس، وطهارة القلوب، وصفاء العقول كلها متوقفة على العمل بكل إخلاص، ونيةٍ صادقة في طاعة الله ورسوله؛ والالتجاء إلى ربه في السرّاء والضرّاء، والتوكل عليه في كل شيء، بعد إعداد العدة، وتهيئة الأسباب اللازمة.

وهذا هو الفرق الأساسي بين علاج النفوس في الإسلام، وعلاجات النفس القائمة على نظرياتٍ وافتراضاتٍ قلَّ أنْ تصل إلى معرفة نفس الإنسان معرفةً حقيقيةً، فالإسلام يؤكدُ أنَّ علاج نفوسنا

نجده في القرآن الذي فيه شفاء، كما يهدينا إليه قول الله تعالى خالق الإنسان بكامل تكوينه من جسد ونفس وروح.. بينما تلك النظريات هي من صنع الإنسان التي مهما تطاول علمه يبقى جزءاً يسيراً من علم الله تعالى الواسع.. ولذلك قلَّما تنفع وسائل التعليم ومختلف الأساليب التي يبتكرها البشر، لأنَّها غير قادرة على الغوص في أعماق النفس لانتشال الأمراض منها.

وأول ما تبدأ علاجات النفس بمعرفة الإنسان لنفسه، وبعد معرفته لنفســه عليه أن يعمل لكي يوجههـا إلى الطريق القويم، الذي هو طريق الإيمان والعمل الصالح، كما يذهب إليه ـ بحقٍّ ـ غالبية علماء المسلمين. والإنسان الذي يريد أنْ ينمّي معرفته بنفسه، عليه قبل كل شيء محاسبتها في ضوء ما هو مطلوب منها من واجباتٍ ومندوباتٍ، وما نهيت عنه من محرَّماتٍ ومحظورات، على أن محاسبة النفس يجب أن يكون برقة ولين، وبفهم وحكمة، أي أن لا يكون الإنسان قاسياً ومتشدداً، ولا ليّناً أو متساهلاً في إصدار أحكامه على نفسه.

ومحاسبة النفس تكون على كل صغيرة وكبيرة، وعملاً يومياً مستمراً؛ إذ كما يمسك التاجر محاسبةً يومية، فيدون كل ما يبيع ويشتري ليكون على بيّنة من موقعه التجاري، وعارفاً بمسار تجارته، فلا يفاجأ يوماً بوقوعه في خسارة لا يمكنه تعويضها، كذلك تكون محاسبة النفس بالوقوف على ما فيها من جوانب القوة والضعف، ومقدار تجاوبها مع التوجيه والتكييف، حتى يمكن للإنسان أن يصوّب أخطاءه وينتهي عن معاصيه، من قبل أن يحاسبه الناس في الدنيا، ومن قبل أنْ يأتي حسابُ الله تعالى في الآخرة، وهو حسابٌ لا محيدَ عنه.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: **«حاسبوا أنفسكم قبل أنْ تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبلَ أنْ توزَنَ عليكم»**.

وإنَّ تخبُّطَ الناس بالأزمات والمشاكل سببه الرئيسي عدم وجود المناهج التي تصلح من شأن الإنسان، وتجعله في أوضاع يمكن أنْ تساعده على تحقيق توازنِهِ الذهنيّ والنفسيّ.. ويقيناً أنَّ البشر لن يجدوا الطريق المستقيم ولا المنهج القويم لذلك إلّا بالإسلام.. فها هي العلوم الحديثة على تنوعها، وها هي وسائل التكنولوجيا والتقنيّات على تشعبها وتقدّمها، وها هي صروح التربية والتعليم، وصروح الجامعات، والمستشفيات، ودور المؤسسات والأعمال.. وكل مظاهر التمدّن التي يعيشها الناس، هل أفلحت أو ساعدت في القضاء على الأمراض، والجوع والفقر والأميَّة؟!.. وهل قضت على الانحرافات السلوكية؟!.. وهل نجحت في إعادة الاعتبار النفسي إلى المجرمين في السجون؟!.. وهل ضيقت الهوة بين الطبقات الاجتماعية، فسنَّت التشريعات التي تساعد على توزيع الثروة توزيعاً عادلاً؟!.. وهل وضعت حداً للحروب والغزوات المفتعلة؟!. وهل منعت ضرب قواعد القانون الدولي، أم حالت بين الدول القوية وفرض هيمنتها على منظمة الأمم المتحدة؟ وهل منعت هذه الدول المستكبرة من تنفيذ مخططاتها العدوانية على الشعوب المستضعفة؟!... وأين الأمن الداخلي، والجرائم تزداد يوماً بعد يوم؟! وأين الأمن الدولي ومجلس الأمن الدولي عاجز عن أن يتخذ أي قرار إلّا بإملاءٍ من الولايات المتحدة، بحيث ينظر بمنظارين، ويكيل بمكيالين بلا ظلمٍ في السوية، ولا عدلٍ في رعاية المصالح الدولية؟!!

وفي ميدان العلاج النفسي، وعلى الرغم من تنوع النظريات،

وتعدد المناهج والطرق المستعملة لمعالجة الأمراض النفسية فإنَّ ذلك كله لم يؤدِّ إلى شيءٍ يذكر للوقاية من الوقوع في هذه الأمراض، أو الشفاء منها، لا بل أثبتت دراسات كثيرة أنَّ الذين يتماثلون للشفاء من أعراضهم النفسية من دون علاجات، لا تقلّ نسبتهم عن الذين يمضون مدةً طويلة في العلاج بدون طائل، في حين أنَّ بعض المرضى كانت تؤدّي معالجتهم إلى تفاقم الحالات المرضية لديهم.. ولعلَّ السبب في ذلك، إنَّما يعود برأينا إلى عاملٍ هام جداً وهو عدم الأخذ بعين الاعتبار أنَّ داخلية الإنسان هي سرُّهُ الخاص، وموضع مشاعره وأفكاره الذاتية، وصلته بخالقه، وهذا ما يفرض أنْ يكون لذاتية هذا الإنسان احترام وقدسية، لا يجيزان التعامل معه وكأنّه سلعةٌ، يجب أنْ تمرَّ قبل تسويقها، بالاختبارات والتجارب، والتعديل والتبديل.. لا ليس الإنسانُ عبارةً عن شيء ليكون خاضعاً للمعاينة والاختبار والتخمين، فهو كتلة من لحمٍ ودمٍ، وكتلة من المشاعر والأحاسيس والعواطف، والنوازع والميولِ التي يقتضي الوقوف على بواعثها ودوافعها من محيط الإنسان الذي يعيش فيه..أو من استعداد المريض عن رضىً وقناعة لعرض مشكلته على المعالج.. لا أنْ نقتحم على الإنسانِ دخيلته ونحاول أنْ نضعها تحت مبضع النظريات والآراء!.. إذْ من الثابت أنَّ من يذهبون إلى عيادات المعالجات النفسانية، لا يذهبون طوعاً، وعن قناعة، بل يدفعهم إلى ذلك أقاربهم، أو المسؤولون عنهم في المؤسسات التي يعملون فيها، ثم إنَّهم مضطرون لأن يكشفوا لمن يعالجونهم عمّا في دواخلهم، وأنْ يطلعوهم على أسرارهم، التي قد لا يريدون البوح بها؛ ولا سيما الأسرار المتعلقة بالعلاقات الحميمة التي قد تسبب في حال كشفها للغير، أضراراً كثيرة

للمريض نفسه، ولغيره ممن تربطه بهم تلك العلاقات. . وهذه واحدة من المساوئ التي قد تنجم عن المعالجات النفسية التي باتت كأنها الخبز اليومي للناس، لشدة ما يحيق بأنفسهم من القلق، والاضطراب، والشقاء، والحزن والتعاسة.

ولقد ظهرت اتجاهات لدى بعض الباحثين تقول بالوقاية من الأمراض النفسية قبل الوقوع فيها، من خلال معرفة الأزمات التي تنشأ عن العلاقات في بعض البيئات، ومحاولة إيجاد حلول لتلك الأزمات، قبل أنْ تطغى وتظهر بأعراض السلوك المنحرف، ولا سيما عند من تصيبهم بأضرارها. . .

ولقد ثبت أنَّ تلك المعالجات الوقائية لم تعطِ النتائج المرجوة، إنْ لم نقلْ إنها كانت عديمة الجدوى. . ومثالها تدخل رجال الشرطة، في دول الغرب عموماً، في العلاقات العائلية، حيث يمكن لأحد الزوجين، ولا سيما الزوجة، في حال التنافر بينهما، أو في حال ساءت العلاقة بين الأب وابنته، أو ابنه، اللجوء إلى الشرطة. . ويبدو أنَّ مثل تلك التدخلات تنتهي عادةً إما بالتنبيه والتأنيب، أو اللجوء إلى المحكمة لطلب تعويض، أو إبعاد الزوج عن البيت العائلي، أو عدم رؤية الأولاد إلَّا في أوقات معينة. . وما إلى ذلك من المعالجات التي تخلّف أثاراً نفسية سيئة، ولا سيما على الأطفال، ومن شأنها أن تتفاعل وتؤدي إلى الاضطرابات النفسية، والأمراض العصابية لديهم. . من هنا يمكن اعتبار تلك المحاولات الوقائية قد تضرُّ أكثر مما قد تفيد بسبب افتضاح الأسرار العائلية قبل أي اعتبارٍ آخر، خصوصاً عندما تعرض الخلافات العائلية على المحاكم، وتتحدث بها وسائل الإعلام، ما ينعكسُ في أغلب الأحيان، سلباً على العائلة

كلها. . أما مفهوم الوقاية في الإسلام فيختلف اختلافاً كلياً عن كل المناهج المتَّبعة، لأنها مرتبطة بعوامل وجدانية، وأهمها التقوى. .

الوقاية والتقوى في المفهوم الإسلامي

يقال في اللغة: وَقَى وِقايةً، والوقاية هي حفظ الشيء مما يؤذيه أو يضرُّهُ.

والتقوى: جعل النفس في وقاية ممّا تخاف، وفي تعريف الشرع: التقوى حفظ النفس مما يوقع في الإِثم، وذلك بترك المحظور والمحرَّم، أي إنَّها تقي الإنسانَ من الوقوع في المعصية، ومن غضب الله تعالى وعذابه.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(١).

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٠ ـ ١٣٨.

في هذه الآيات الكريمة خطاب مباشرٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للمؤمنين يأمرهم فيه:

أولاً: الانتهاء عن الربا، بل والتعامل فيه أضعافاً مضاعفة، إذ كلما ازدادت نسبة الربا ازداد العقاب عليه، وقد عبَّر عن أخذ المال الربوي بالأكل، لمَّا كان الأكل أعظم حاجات الإنسان التي يحتاج فيها الى المال، والنهي عن الربا لأنه يرهق الناس بأعباء مضافة إلى أعبائهم التي اضطرتهم للجوء إلى المرابي، أو المؤسسات الربوية، ولما فيه من مضاعفة أموال المرابين على حساب المحتاجين إليهم.. لذلك كان في النهي عن الربا، اتقاء لغضب الله تعالى.. ولشدة آثار الربا السيئة نبَّه تعالى بقوله الحكيم: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[1] بحيث ينقص الله تعالى المال الربويَّ، ويُذهب بركته ولو اعتقد المرابي أنَّ ماله يزداد بل، ويمحقهُ الله تعالى محقاً لأنه حرام في شرعه تعالى..

ثانياً: التخلي عن كل معصية أو خطيئة مهما كان نوعها، حفظاً لأنفسهم من النار التي أعدَّت للكافرين، فلا يزجُّ المؤمنون أنفسَهم بالمعاصي التي تقودهم إلى نار الله المحرقة..

ثالثاً: العمل بطاعة الله ورسوله، لأنَّ فيه الرجاء بنيل رحمة الله؛ وطاعة الله تكون بالامتثال لأوامره تعالى ونواهيه، وطاعة الرسول تكون بما أمرنا به ربُّنا، بقوله المبين: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

﴿نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، فعندما يجعل المؤمنون رسولَ الله ﷺ الأسوة الحسنة لهم في كل ما يقولون أو يعملون، فإنَّ ذلك يجعلهم يتقون غضب الله عزَّ وجلَّ، وعقابه الشديد.

رابعاً: المسارعة إلى مغفرةٍ من الله تقودهم إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدّها تعالى للمتقين.

ومن صفات هؤلاء المتقين، التي تبيِّنُها الآيات الكريمة، أنَّهم:

١ ـ الذين ينفقون في السرّاء والضراء.

٢ ـ الذين يكظمون الغيظ.

٣ ـ الذين يعفون عن الناس.

٤ ـ والذين إذا فعلوا فاحشة، أي معصية كبيرةً مثل الزنا أو الربا أو القتل.. أو ظلموا أنفسهم بفعل قبيح دون الفاحشة.. ففي أيٍّ من ذلك تَذَكَّروا وعيدَ الله ـ القادر المقتدر ـ بالعذاب، فاستغفروا لذنوبهم كي يُذهب سبحانه وتعالى بالاستغفار عظيم تلك الذنوب، ويخلّصهم من الضعف الذي إنْ اعتراهم وقعوا في المعاصي من جديد..

٥ ـ والذين إذا كرَّروا المعاصي ـ بسبب ضعفهم، ووقوعهم في الفتنة والتجربة ـ لم يصرّوا على الاستدامة على ما فعلوا، بل يقلعون عنه، ويلجأون إلى ربهم يمدّهم بأسباب القوة على الضعف، رأفةً منه تعالى ورحمةً، لأنه هو الرؤوف الرحيم.

٦ ـ والذين يعلمون عن يقين أنْ لا ملجأ من الله إلّا إليه تعالى،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

وأنَّ الاستمرار في المعصية إنَّما هو استسلام للشيطان، عدو الإنسان المبين، لأنه يلاحقُ الناسَ، والمؤمنين خاصة، هو وعملاؤه حتى يوقعوهم في الغواية والفاحشة. .

وبعد أنْ تبيّن النصوصُ القرآنية الكريمة تلك الصفات للمؤمنين، حتى يستمسكوا بها، ويعضّوا بها على النواجذ، تستوقفهم للتفكّر بما مضى من السنن الإلهية التي أهلك بها الله تعالى الذين كذّبوا الأنبياء والرسل والذين كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا بالحساب، فهؤلاء كان يمهلهم ربُّ العزة والجلال، ويملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يَذرُ منهم ديّاراً. . وكلُّ ذلك ممَّا قدَّمتِ الآيات المبينة، إنما هو هدى وموعظة للمتقين، وقد خصَّهم المولى الكريم ومدهم بالذكر لعلمه سبحانَهُ أنهم العاملون على حفظ أنفسهم من الانزلاق في المعاصي، وارتكاب الذنوب، فإذا وقعوا في البلاء الذي يَمتحن به ربُّهم إيمانَهم، أو أسرفوا على أنفسهم في الوقوع في غوايات الدنيا، فإنهم سرعان ما يعودون إلى أنفسهم، ويتخلَّونَ عن اللذائذ والشهوات الفانية، التي لا تقابل بالقليل القليل من سخط العزيز الجبّار، ولا تغني الكثير الكثير من رضا الودود الغفّار. .

ولأنَّ هذه الآيات الكريمة تحمل كثيراً من المعاني الجليلة، ونظراً لأهميتها في حياة الناس فلا بأس من تدبُّرِ بعضٍ من معانيها الأخرى علّنا نتوخّى منها نفعاً زائداً إن شاءَ الله تعالى. .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ .

إنَّ وجوهَ الإنفاق في طاعة الله تعالى في اليُسْرِ والعُسْرِ، واضحةُ المعالم في الإسلام، إنْ بالنسبة إلى الزكاة أو الصدقة، أو من أجل

الجهاد في سبيل الله، حتى تستقرَّ كلمة الله في الأرض، وتعلو على كلمة الكفر والضلال.. فمن أنفق على عياله، وعلى الفقراء والمساكين وابن السبيل، ومن قضى حاجةً لمؤمن، ومن جهّز مقاتلاً في سبيل الله، ومن أنفق على أهل شهيد في سبيل الله، ومن قال كلمة الحق، شفاهةً أو كتابةً، عند حاكم ظالم، وبذلَ من نفسه وماله للدفاع عن المظلومين، كلُّ ذلك هو من وجوه الإنفاق، وهو محمود عند رب العالمين...

والإنفاق من ذوي النفوس الطيبة يرتقي إلى درجة السخّاء. وبحقّ الأسخياء قال علي عليه السلام: **«الجنةُ دارُ الأسخياء»**، وقال عليه السلام: **«السخيُ قريبٌ مِنَ الله، قريبٌ مِنَ الجنةِ، قريبٌ مِنَ الناسِ، بعيدٌ عَنِ النار»**..

والذين ينفقون في سبيل الله، ابتغاءَ مرضاته، على أي وجهٍ كان إنفاقُهم، وعلى أي مقدارٍ كان، قليلاً أو كثيراً ـ بحسب الاستطاعة ـ وفي أي الأحوال جرى، إنْ في السرّاء، أي في وقت الرخاء، وإنْ في الضرّاء، أي في حالة الإِعسار، وشحِّ الموارد.. فكل هؤلاء الذين يظلون مثابرين على إنفاقهم، هم من المتقين المحسنين. والله تعالى يحب المحسنين.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هنالك من يدفعون الأموال إلى جمعيات خيرية، أو إلى منظمات أو حركاتٍ أو دول تحت ستار «مساعدة الآخرين»، فعندما يكون ذلك بدافع سياسي، أو بتوجيه إعلامي، أو من منطلق عقائد فاسدة، أو لتحقيق أغراض ومآرب شتى.. فلا شيء من ذلك يدخل في مفهوم «الإنفاق في سبيل الله»، وليس له أجرٌ أو

ثوابٌ عند الله تعالى، لا، بل على العكس، إذا كان الدفع أو المساعدات لدعم قضايا عنصرية، أو دعم دول ظالمة ومعتدية، أو دعم حركات إلحادية. . فالذين ينفقون أموالهم في مثل هذه الاتجاهات سوف تكوي الأموال التي يدفعونها جباههم في نار جهنم المحرقة، لأنهم كانوا أنصار الظالمين، والمعتدين، والمفسدين، بدلاً من أن يكونوا مساعدين للفقراء، والمحتاجين واليتامى، والمساكين، والمرضى، والعجزة المسنين! . .

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ . .

وقد جرى البحث في «كظم الغيظ» سابقاً في الفصل السابق المتعلق بمجاهدة النفس.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ . . .

الفاحشةُ من الكبائر، وظلمُ النفس قد يكون من الكبائر، وقد يكون من الصغائر؛ وفي الكبائر والصغائر من الخطايا يكونُ الإنسانُ آثماً، فماذا عليه أنْ يعمل، ليبرّئ ذمتَهُ من سوء فعله، إلاَّ أنْ يلتجئ إلى ربِّه تعالى، نادماً مستغفراً، داعياً إياه سبحانه، بحرقة القلب، وصفاء الضمير، والتوجّه الصادق أن يعفو عنه ويغفر له ذنوبه؟ وقد يجد أصحابُ الذنوب صيغاً كثيرة للأدعية التي يتوجهون فيها إلى ربهم، وفي آثار النبي ﷺ وأهل بيته يجدون زاداً وفيراً من الأدعية الصالحة، كما أنْ قرائح المؤمنين الصادقين من الصحابة الكرام، بكثيرٍ من الأدعية الطيبة، وكلها مفيد، ولكنَّ أحبَّها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما كان صادراً عن القلب بصورة عفوية، وشعور صادق، ونيّة خالصة،

بحيث يناجي الإنسانُ ربَّهُ مناجاة العبد الذليل الحقير، المسكين المستكين، المحتاج إلى سيّده ومولاه بالغوث والمغفرة والرحمة.. ففي هذه الحال، وفي أي صيغةٍ نطق بها الإنسان فعسى أنْ يستجيب الله تعالى دعاءَه..

ومن أدعية الاستغفار:

«اللّهمَّ صلِّ على محمدٍ وآل محمد، أستغفرُ الله الذي لا إلهَ إلّا هو الحيُّ القيوم، الرحمن الرحيم، ذو الجلال والإكرام، وأسأله أن يتوبَ عليَّ توبةَ عبدٍ ذليلٍ خاضعٍ، فقيرٍ بائسٍ، مسكينٍ مستكينٍ، مستجيرٍ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، اللَّهُمَّ إنّي أسألك العفوَ قَبْلَ العقوبة، والعافية قبلَ البلاء.

اللّهُمَّ اغفرْ لي ما لا يَسَعُهُ إلاَّ مغفرتُك، ولا يكفِّرُهُ إلاَّ تجاوُزُكَ وفضلُكَ، وبلِّغني دارَ الكرامةِ والرضوانِ بجودِكَ ومنِّكَ يا حنَّانُ يا منَّانُ. وصلِّ اللّهُمَّ على محمدٍ وآلِهِ الطاهرين وأصحابه الأبرارِ الميامين»..

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾.

لأنَّهُ لا ينفعُ استغفارٌ مع الإصرار على المعصية!.. أما الذين آمنوا واتقَّوْا، فالمعصية عندهم زلَّةٌ عن ضعف، ولذلك تجدهم يبادرون فوراً إلى الاستغفار، وعقد النية والعزم على عدم العودة إلى ما فعلوا من معصية، بل ويكرهونها كرهاً شديداً حتى تعافَها أنفسهم..

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله تعالى هو وحده الذي يعلم بأحوالهم، والأسباب الكامنة وراءَ فعالهم السيئة، ولكنْ فضلهم كان في مجاهدة

نفوسهم، وعدم إصرارهم على ما فعلوا، وعدم العودة هو الذي يدفعهم إلى طلب المغفرة من الله تعالى، الذي وحدَه يملك العفو والمغفرة. . بل وعلمهم بأن سبحانه هو وحده العفو الغفار هو بذاته من الحكمة التي يؤتيها تعالى لعباده الصالحين. . وكل ذلك نوع من العبادة الصادقة التي تجعلهم يكرهون الشهوات المحرَّمة، إذ بسبب ضعفهم غلبت الشهوات في نفوسهم، فابتلاهم بها ابتلاءً، ثم انتشلهم من سيّئات أعمالهم، ليدركوا محجَّة الطريق قبل فوات الأوان، فيسارعوا إلى طلب المغفرة لذنوبهم. . وكان لهم، في ما أخلصوا لربهم الكبير المتعال ـ بعلمهم وعملهم ـ الأجرُ والثوابُ.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾، أي العاملين بالطاعات والعبادات، وجزاء أجرهم المغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض. . فالمغفرة في الأصل تكون من الله تعالى لعباده بستر ذنوبهم، ومحوها كأنّها لم ترتكب، وذلك بستر العار الذي كان يمكن أن يلحقهم في الدنيا، ودفع العقوبة التي تترتَّب على تلك الذنوب في الآخرة، وذلك هو الفضل العظيم؛ ثم إنَّ استحقاق الثواب بالمغفرة واجب عقلاً، لأنه لو لم يكن مستحقاً بالمغفرة ـ والتوبة ـ لكان التكليفُ بها غيرَ واردٍ أصلاً لما فيها من المشقّة. . وأهمُّ من ذلك أنَّ المغفرة وعدٌ من الله تعالى، فهو وعْدٌ قدسيٌّ محققُ الغاية، لأنه سبحانه وتعالى لا يخلفُ وعدَهُ، وقد وَعَدَ عباده المستغفرين بالعفو عنهم، وإنابتهم بأحسن الأجر والثواب، فنعم أجرُ العاملين. .

﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُـدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والفرق بين البيان والهدى، أنَّ البيان إظهارُ المعنى للغير كائناً

من كانَ، والهدى بيانٌ لطريق الرشد من طريق الغيّ. فالبيانُ لما في القرآن (أي كل ما ورد فيه) هو لجميع الناس، أما الهدى والموعظة فهما ـ هنا ـ للمتقين خصوصاً، دون سائر الناس، لأنَّهم هُم، بالتأكيد، الذين يكونون أكثر الناس إقبالاً على القرآن، وعملاً ببيانه، والاهتداء بهداه، والاتعاظ بمواعظه، ولو كان جميع الناس عاملين كما يعمل «المتَّقون» لما كان هنالك من حاجةٍ لتوكيد تخصيصهم بخصوصية الهدى والموعظة.

والتقوى تقضي بأنْ يكون الإنسان دائمَ التوجُّهِ إلى الله تعالى وهذا ما يحدوه، عن وعيٍ وإدراكٍ، لأنْ يبذل قصارى جهده من أجل تنمية قدراته ومعلوماته على أفضل ما يقدر، وأداء واجباته على أحسن ما يستطيع، لأنَّ في ذلك ما يقوّي عوامل تزكية في نفسه.. وبهذا المعنى فإنَّ التقوى تصبح طاقةً موجِّهةً للإنسان تجعل مشاعره الوجدانية في تناسق مع تصرفاته السلوكية، حيث ينتهج سبل الصلاح والإصلاح، وينأى عن سبل الفساد والإفساد..

ولذلك نجد الإسلام يشدِّد على التقوى بوصفها وسيلة ناجحة لوقاية النفس، فهو علاجٌ قرآنيٌّ ونبويٌّ يحصّن الأنفس قبل أن ترتمي بين أيدي المعالجين النفسانيين، وقبل أن توضع على أسرّة العيادات، أو تحت مجاهر المختبرات والتجارب.. كما يقي هذا العلاج الإسلاميُّ الأنفس من اللجوء إلى المشعوذين الذين يوهمون الناس بأنهم قادرون على «قراءة الطالع»، أي على معرفة المغيّب من أسباب أمراضهم، ومعرفة طرق معالجتها!.. في حين أنَّهم، في الحقيقة، ينفثون في العقد، ويبتدعون وسائل النار والدخان، وروائح المواد التي يستعملونها هرباً من واقعهم المأساوي الذي يعيشونه في قرارة

أنفسهم، فيكذبون على غيرهم بالشعوذة والأباطيل التي لا أساس لها من الصحة إلاّ في تخيّلاتهم وأحلامهم!..

وقد وصف الإمام علي عليه السلام المتّقين، فقال:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى ـ خَلَقَ الْخَلْقَ، حِينَ خَلَقَهُمْ، غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ؛ فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي البَلاَءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ الله عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ: شَوْقاً إِلَىٰ الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ العِقَابِ. عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ فيها وَالجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً[1]. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ القُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً. يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ

---

(١) أي أعقبتهم الأيامُ القصيرة في الدنيا راحةً طويلةً في الآخرة.

رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الخَوْفُ بَرْيَ القِدَاحِ[1] يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا[2]!.

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ القَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ. إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلاَلٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً. حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا

---

(١) السهام.

(٢) مازجهم خلل في العقول.

سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى. يَمْزُجُ الحِلْمَ بِالعِلْمِ، وَالقَوْلَ بِالعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً[1] أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ[2]، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ. الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحْشُهُ[3]، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي المَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لاَ يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي البَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»[4].

(١) قليلاً.

(٢) حصيناً.

(٣) القبيح من القول.

(٤) نهج البلاغة.

ولو أمعنَّا النظر بما قاله أميرُ المؤمنين عليٌّ ﷺ لتبيّن لنا أنَّ التقوى هي المظلَّةُ التي يعيش المسلم المؤمن في سترها كي يقيَ نفسه العثرات، ويحميَها من السيئات، ويدفعَها إلى التطهّر والتزكية، وذلك خيرُ وسيلة للوقاية من الأمراض النفسية، أو من الاضطرابات العصبية التي قد يتعرض لها الإنسان في حياته. .

والإسلام يحضُّ العبدَ على أنْ يتدارك نفسَهُ قبل فوات الأوان، فيلجأ إلى طلب الغفران من ربِّه تعالى، رجاءَ أنْ يتوبَ توبةً خالصة، ويقلع عما اقترف من المعاصي التي أورثته الذنوب العظام كما سنرى في البحث التالي. . .

طلب غفران الذنوب

إنَّ الشعور بالذنب، واللجوء إلى طلب العفو والمغفرة عنه، من أهم العوامل التي قد تريح نفس الإنسان، ولعلَّ الأفكار التي تمدُّنا بها العقيدة الدينية حول هذا الأمر، أو التجارب التي نستقيها من واقع الحياة، ما يؤكّد هذه الحقيقة التي تجعل الإقرار بالفعل السيّئ، والسعي إلى التكفير عنه عاملاً جوهرياً وفعّالاً للمساعدة على التخلص من الآلام النفسية الناتجة من الذنوب، وإعادة الرجاء والطمأنينة إلى نفس المذنب أو الخاطئ. . ففي خضم هذه الحياة قد يصادف الإنسان كثيراً من المشاكل، وقد تتعقَّدُ إحداها أو بعضها إلى درجةٍ تثير في نفسه المرارةَ والقلقَ، والخوف، وتصاحبها الهموم والآلام، ولكنْ ما أنْ يُفضي هذا الإنسان بسرِّهِ إلى شخص يثق به حتى يحسَّ بنوع من الارتياح الذي يُذهب عنه ـ ولو بعض الشيء ـ ذلك التوتر الذي يسيطر عليه. وهذا ما أخذ به علم النفس في نظرية التحليل النفسي،

في ما يدعى «التداعي الحر» الذي يُتَّبع كوسيلة علاجية تجعل المريض يسرح مع تصوراته وتخيّلاته، فينساق إلى البوح بمكنونات نفسه، ممّا قد يساعد على معالجته من المرض الذي يشكو منه..

ولقد سبقت النصرانيةُ علماء النفس باتّباع هذه الوسيلة من خلال ما يعرف بـ«الاعتراف»، حيث يُسِرُّ الشخصُ لرجل الدين بالخطيئة التي ارتكبها، أو الذنب الذي اقترفه.. وهذا يعني أنَّ الخاطئ قد نقل جزءاً من التبعة التي يحسُّ بها، ووضعها على عاتق رجل الدين كي يصلّي ويطلب الغفران له من خالقِهِ، على أنْ يتوبَ هو فلا يعود إلى الخطيئة ثانيةً..

وهذا ما نجده أحياناً لدى من يرتكبون الجرائم، إذْ قد يلجأ الشخص، بعد جريمته، إلى تسليم نفسه للسلطات القضائية أو الأمنية، وذلك بدافعٍ داخليٍّ، وهو الشعور بعدم قدرته على الاحتمال في إخفاء سرّه، لما يُعاني من وخز الضمير، والقلق، والخوف، وما إلى ذلك من الانفعالات النفسية التي تدفعه للاستسلام، والاعتراف بجريمته[1]...

والإسلام يأخذ بيد الإنسان في حالات قوته وضعفه، لأنَّهُ ينظر إليه كمخلوقٍ بشريّ يجترح السيئة كما يفعل الحسنة، إلاّ أنه يدلّه على أفضل السبل التي تمكّنه من الإقلاع عن الأخطاء والمعاصي التي تلقي على عاتقه الذنوبَ والآثام، إذْ بدلاً من أن يعترف المؤمن بجرمه إلى أناس مثله، فإنه يَضَعُ اعترافَهُ بين يدي خالقِهِ، وذلك بالإقرار بالذنب

(١) هنالك نظرية في علم القانون تعتبر أنَّ الاعتراف، في القضايا الجنائية، لا يشكل الدليل القاطع على ارتكاب الفعل الجرمي، بل يستدعي لذلك القرائن والأدلة الثبوتية، أما في الإسلام فيعتبر الاعتراف من البيّنات.

ومن ثَمَّ اللجوء إلى التوبة، والاستغفار، والاستقامة على العمل الصالح، وغيرها من مقوّمات الإيمان الصادق الذي يرتجي فيه العبدُ رضا ربّه تعالى، وثقته برحمته، ويزيده ذلك اطمئناناً وهو يستمع إلى ما يعدُ سبحانه به عبادَه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].. يا عبادَ الله!.. أرأيتم أنَّ الله العلي العظيم، لا يعفو وحسب عن سيئاتكم ويمحوها، بل ويجزيكم على أعمالكم الصالحة بأحسنها..

إنه قول الله الحق، الذي ينفتح على آفاق رحمته تعالى لتدارك ضعف الإنسان وعجزه وتقصيره، إذ ليس من أحدٍ إلاَّ ويخطئ، وليس من إنسانٍ في قلبه ذرةٌ من الإيمان إلاَّ ويريد أنْ يعفو عنه ربُّهُ تعالى ويغفر له. ولعلَّ من مزايا الإسلام أنه يراعي مشاعِرَ الإنسان، ويتعاطف مع حالات الضعف التي تعتري نفسه، عندما يفتح له السبلَ مشرَّعةً إلى خالقه، ويحثُّهُ على ولوج باب التوبة من ربه، قبل أنْ ينقضي العمر، ولا زادَ يحملُ معه لآخرته إلاَّ إيمانهُ الصادق، وعملَهُ الصالح، وتوبتهُ عن ذنوبه...

والسؤال: هل تأتي التوبة عفواً، أم يجب أنْ تسبقها يقظة؟ وبأيِّ شيء تتمثل هذه اليقظة؟

إن مغريات هذه الدنيا كثيراً ما تدفع بالإنسان إلى الوقوع في ما هو محرَّم عليه شرعاً أو قانوناً؛ وفي صحوةٍ من الضمير، وبعد فترة الغفلة ـ طالت أو قصرت ـ قد يجد الإنسانُ نفسه في حالة من الندم والحسرة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٧.

التي تسبب له التعاسة، فيتساءل عمَّا يُنْجيه من تعاسته، فلا يجد إلّا الرجوع إلى ربِّه تائباً، منيباً، لأنه هو خالقُهُ، وهو أعلم بحاله. .

من هنا كان علينا توضيح المفاهيم التي تتعلق بالندم والحسرة، ومن ثمَّ البحث في التوبة وتأثيرها على الإنسان الذي يرنو إلى تخليص نفسه من القلق، أو الحزن أو التعاسة، وغيرها من المشاعر التي ترمي على النفس بأثقالها، حتى لتكاد تسوؤها! . .

١ ـ الندم والحسرة

أ ـ الندم أو الندامة

الندمُ هو التحسُّر من تغيّر الرأي في أمرٍ فاتَ وانقضى؛ وأصلُ الندم من منادمة الحزن للنادم، أي ملازمة الحزن له. وقيل الشريبان نديمان (أي شاربا الخمر) لما يعقب أحوالهما من الندامة على فعليهما بعد الصحو من السكر، وخاصة إذا أدّى ذلك السكر إلى الضرر بشارب الخمر أو بغيره! . .

وقد رأينا أنَّ أول نَدَم صدر عن الإنسان كان من أبويْنا آدمَ وحوَّاءَ عليهما السلام عندما أزلَّهما الشيطانُ، وأكلا من الشجرة التي نهاهما ربُّهما عن الاقتراب منها؛ فلمّا عاتبهما الله تعالى على عصيان أمره، وقع الندمُ في نفسيهما، فتوجها إليه تعالى بالضراعة، وطلب المغفرة والرحمة، كما يتبيّن في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

ثم ها هو ولدهما قابيلُ يقتلُ أخاه هابيل، فتكون كذلك أول

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

جريمة قتل يرتكبها الإنسانُ بعد خَلْقه؛ ولم يدر ماذا يفعل بأخيه الميت، فحمله وراح يدور في البراري حتى بعثَ الله تعالى غراباً يبحث في الأرض ليريَهُ كيف يواري سوءة أخيه، فعندها حفرَ له قبراً، والندم يأكله على فعله، ليس بسبب تقبل الله لقربان أخيه ورفض قربانه، بل بما أجهدَ نفسه في حمله من الوزر، كما أخبرَ عن ذلك القرآنُ بقوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[1].

وسارت الحياة بالإنسان، وكثرت أخطاؤه، وكثر تلوّمه لنفسه، وندمه على فعله وعمله، ولا يزال هذا اللوم والندم قائمين في نفوس الناس، ما داموا يعملون ويخطئون!..

ولأنَّ الندم يجعل الحزنَ ملازماً للإنسان، كان لا بدَّ له أنْ يقي نفسه من الوقوع في الأخطاءالتي تجرّه إلى الندم، ومن ثَمَّ الحزن.

ويحذّر الله عزَّ وعلا المؤمنين من مغبّة التسرّع والحكم على الأمور قبل الاستيقان من صحتها حتى لا يصبحوا على ما فعلوا نادمين، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[2].

ب ـ الحسرة

هي الغمُّ على ما فاتَ الإنسانَ، والندمُ عليه، كأنَّما انحسَرَ عنه الجهلُ الذي حمله على ما ارتكب؛ قال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾[3]. هذا ما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣١.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

يقوله الكافرُ يوم الحساب، إذْ يقول: يا لجهلي، وندامتي على ما قصَّرت في طاعة الله تعالى، يوم أنْ كنت في دنياي من الساخرين بدين الله وقرآنه، وها أنا انحسر عني جهلي للحقّ لما عُرِضَ عليَّ، بل وانحسرت كلُّ قواي، فلا سبيل لي إلاَّ الغمّ والتحسّر . .

ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، أي إنَّ القرآنَ ليكون حسرةً على الكافرين إذا رأوا، يومَ القيامة، ثوابَ المصدّقين به، والعقاب الذي ينزل بهم على تكذيبه . .

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾[2]، فالذين يريهم الله عزَّ وجلَّ أعمالهم حسراتٍ عليهم هم أولئك الناس الذين كفروا، أو أشركوا بالله، فجعلوا له تعالى أنداداً . . ومن يكفر أو يشرك بالله فقد ظلم نفسَهُ، لأنَّ الشرك ظلم عظيم، والحسرةُ تكون أشدَّ وأعمقَ أثراً على هؤلاء عندما يقادون إلى سعير جهنم، وما هم بخارجين منها إلاَّ ما شاءَ الرحمن الرحيم . .

وإذا كانت السيئاتُ تورث الحسرةَ في الآخرة، فعلى الإنسان قبل أنْ يصل إلى تلك الحالة، أنْ يتدارك نفسَهُ وهو في هذه الحياة الدنيا، وأول سبيل لذلك هو الندم، لأنَّه يعبّر عن حالة انفعالية تنشأ عن الشعور بالتقصير، أو الذنب، أو الحزن بسبب الفعل الذي أوقعَ النفس في الندم . . ولعلَّ مهمة الندم تكمن في إدراك الإنسان للسوء الذي ارتكب، وعزمه على تجنّبه أو الإفلات منه مستقبلاً . . وفي هذا نوع من تقويم النفس حتى لا يبقى الإنسانُ سادراً في غيّه، مرتكباً

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

المعاصي . . إذْ عندما تتفاعل في النفس مشاعر التحسّر والحزن على ما اقترف الإنسانُ من السوء، وتتلاقى مع مشاعر الخشية من الله تعالى، فمعنى ذلك أنها وصلت إلى حالة من اللوم الذي يمسكها عن اتباع الأهواء، التي لو ظلَّت طاغيةً عليها لقادتها إلى التهلكة . .

٢ ـ التوبـة

لقد بات من الشائع في علم النفس أنَّ الأطباء النفسانيين، غالباً ما يلجأون، إلى تبصير مرضاهم بالأخطاء التي ارتكبوها، ولكن بطريقة موضوعية، سلسةٍ ومقنعة، حتى لا تحصل عندهم ردَّةُ فعل عكسية، وكي يولّدوا لديهم القناعة بالتخلّي عن لوم أنفسهم، الذي من شأنه أنْ يبقيهم في المرض، وكذلك عدم المبالغة في تحقير أفعالهم، والاشمئزاز من ماضيهم، لئلا تموتَ في نفوسهم بذور التفاؤل، والأمل بالعودة إلى حياةٍ طبيعية، خاليةٍ من مشاعر الدونيّة، إذْ إنَّ أخطاءَهم يمكن تركها وراءَ ظهورهم، واتباع منهجٍ سلوكي جديدٍ من شأنه أنْ يريحهم، ويريح من يحبونهم، ويحيطونهم بالرعاية والحنان . .

من هنا يؤكد علماء النفس أنَّ ما يسوء الإنسان غالباً ما يُحدث في نفسه مشاعر القلق، والكآبة، والندم والحسرة، التي تؤدّي إلى الأعراض النفسية؛ كما يقولون بأنَّ علاج المصابين بتلك الأعراض لا ينجح إلّا إذا عزم المصاب على ترك كلّ ما يؤرّقه، وعدم العودة إليه ثانية، ولو رافق ذلك مشاعر الضيق، التي يمكن أن تبقى في نفسه إلى مدةٍ، ثم تذهب بفعل إرادته وتصميمه على التخلص منها . .

وهذا ما ذهب إليه الإسلام وشدَّد عليه عندما جعل التوبة فرضاً على كل مسلم ـ كما هي الصلاة فرض عليه ـ بل ورغَّب في التوبة

كثيراً، وذمَّ من يستكثر سيئات أعماله بدلاً من الإقلاع عنها، والالتجاء إلى ربه بالاستغفار والتوبة.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١).

أول ما يأخذُ المؤمن في هذه الآية الكريمة عبارة «على الله»، فقد جعل ـ جلَّت عظمته ـ التوبة حقاً حقَّهُ على نفسه القدسية، لعباده التوابين؛ فالعبدُ الذي يتوب إلى ربه توبةً نصوحاً يجد أبوابَ التوبة مشرَّعةً له، لأنَّ خالقه هو الذي دعاه إلى التوبة.. فإذا التجأ إليه، ووقف على بابه مستغفراً، نادماً، عازماً على عدم الرجوع إلى ما اقترف من ذنب، فسوف يجد ربَّهُ رحيماً، يغفر الذنب ويقبل التوبة، كما وصف سبحانه نفسه بقوله الحقّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾(٢)، ذلك بأنَّ الله ـ عزَّ وعلا ـ وهو العزيز في ملكه، العليم بخلْقِهِ، فلا يترك عبادَه لأنفسهم إذا جهلوا، بل يهديهم إلى سبل التوبة، بحيث تتلقَّاهم ـ بأمره تعالى ـ ملائكةُ الرحمة، مستبشرين بتوبتهم، ورجوعهم إلى مولاهم العزيز الحكيم...

قال رسولُ الله ﷺ: «**لو أَخطأَ أحدُكم حتَّى ملأَ ما بينَ السماءِ والأرضِ، ثُمَّ تابَ، تابَ الله عليه**»(٣)...

ومن هذه المعاني يمكنُ أن نتبيّن أنَّ التوبة الخالصة، التوبة النصوح هي رادعُنا عن كل أعمالنا السيئة، لأنَّها العهدُ الذي يأخذه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٢ و٣.
(٣) صحيح مسلم، باب التوبة، ص٥٦.

الإنسانُ على نفسه أمام ربّه بألاّ يعود إلى معصيته، وعهدُه له ـ جلّ وعلا ـ أنْ يسلك طريق طاعته ورضاه؛ ومتى التزم الإنسانُ المؤمن هذا العهد، ارتاحت نفسه من التوتر والقلق، ومن الشعور الدائم بالذنب، وانصرفت مشاعره إلى العبادة، وعمل الخير والصلاح، وهو ما يجعل التوبة أحد السبل القويمة للنجاة من الأمراض النفسية. . إذ إنَّ الشعور الدائم بالذنب، إذا ما تفاقم، يمكن أنْ يجرَّ الإنسانَ إلى الهلاك؛ فالشعور بالذنب، في حال استمراره، قد يدفع بعض أصحاب النفوس الضعيفة إلى الانحدار أكثرَ في حمأة الخطيئة، بذريعة أنَّهم لا يقدرون على التخلّي عمَّا اعتادوا عليه، فيوغلون في سوء أعمالهم؛ أو قد يتفاعل الصراع، وتحتدم المشاعر في نفوسهم إلى حد الانتحار، وفي ذلك هلاكٌ في الدنيا والآخرة، لأنَّ أكبر معصية يرتكبها الإنسانُ هي قتل نفسه، وقد حرَّم الله تعالى قتل النفس إلاَّ بالحق، لأنَّ القتل هو التعدّي على حق الحياة التي وهبَها الخالق لعباده، ولذلك كان الانتحار، بأية وسيلة يستخدمها المنتحر، خطيئة غير قابلة للغفران، إلاَّ أنْ يشاءَ الله تعالى. . والتوبة لا تقف عند حدّ الكلمات، أو أداء الحركات، بل إنَّها إخلاصٌ في النيّة على ترك أعمال السوء التي ترتكب فيها الذنوبُ؛ ومن يغفر الذنوبَ إلاَّ الله سبحانه وتعالى؟

والتوبة النصوح تحمل الإنسانَ على أنْ يلتمس العذر والمسامحة ممن أساءَ إليه، وأنْ يعوّضه عن خسارة سبَّبها له، أو أنْ يزيل عنه الضرر الذي ألحقَهُ به، فمعرفة المذنب ما ارتكبَ، وسعيه لإصلاحه أو التعويض عنه قد يشعره بالرضا، وراحة القلب، ويدفع عنه الهمَّ والقلق، هذا ما بين الإنسان وآخر. . وأما إذا كان الذنب في المعصية، أي في حق الله تعالى، فيكفي فيه عدم الإصرار على فعله مرةً أخرى،

أي تركه نهائياً، ومن ثَمَّ الندم عليه، والعمل بما يذهب سخط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويُحلُّ مكانه رضاه ومرضاته؛ فهو سبحانه الذي يبدِّل سيئات المحسن التائب حسناتٍ، ويتوب على عباده ويغفر لهم ويرحمهم، لأنه هو الغفور الرحيم. وعندما نقول بأنَّ ربَّنا ـ عزَّ وعلا ـ يبدل السيئات حسناتٍ، أو يمحو السيئات فكأنها لم تكن، فذلك من منطلق وحيه الكريم بقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١).. من هنا جعلَ ربُّنا تبارك وتعالى بابَ التوبة مفتوحاً أمام التائب، مهما تكررت ذنوبه، إذْ في كل مرةٍ يتوب المذنبُ إلى الله، فذلك إقرارٌ من العبد بأنَّ الله على كل شيء قدير، وأنه وحدَهُ قادرٌ على أن يغفر له ذنوبَهُ، ويقبل توبتَهُ.. وهذا من دواعي التربية في الإسلام بما تتوخاه من إدخال الطمأنينة إلى نفس المؤمن، عندما يثق بالله، ويسلّم زمام أمره إليه جلَّ شأنُهُ. قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ عبداً أذنبَ ذَنْباً فقال: ربِّ أذنَبْتُ ذنباً فاغفِرْ لي، فقال ربُّهُ: أَعلِمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفِرُ الذنب ويأخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لعبدي؛ ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ الله ثم أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ آخرَ فاغفِرْهُ، فقال ربُّهُ: أعلم عبدي أنَّ له رباً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به؟ فغفرتُ لعبدي. ثُمَ مكثَ ما شاءَ الله ثُمَّ أذنبَ ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ آخرَ فاغفرهُ لي. فقال ربُّهُ: أعلَمُ عبدي أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنوبَ ويأخذَ بها؟ فغفرتُ لعبدي ثلاثاً، فليعمَلْ ما شاءَ ما دامتْ توبتُهُ توبةً نصوحاً**»(٢)..

وهنا يجب انْ تستوقفنا مسألةٌ هامة، وهي أن نزغ الشيطان، أي وساوسه، يُعدُّ وراء كل عمل سوءٍ قد يصدر عن الإنسانْ، لأنه غالباً ما

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) البخاري باب التوحيد، ص٣٥.

يستجيب لغواية الشيطان فينزلق في الموبقات، التي تصل إلى حد الإسراف عند كثيرٍ من الناس. .

ولكنَّ لطف الباري يبقى أجلَّ وأعظَمَ، عندما يدعو عبادَهُ الذين أسرفوا على أنفسهم بالذنوب، ألاَّ ييأسوا، وألا يقنطوا من رحمة الله، لأنَّه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون؛ أما عبادُ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهؤلاء إن ارتكبوا ذنوباً كثيرةً، فإنَّ مولاهم الكريم يدعوهم إلى الثقة به، والرجاء برحمته الواسعة لأنه يغفر الذنوب جميعاً، ولو بلغت عنان السماء، وهذا من لطف الله تعالى وبالغ كرمه وإنعامه على عباده المذنبين، لأنه هو الغفور الرحيم. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]. إنَّه خطاب للرسول ﷺ لكي يبشر الناس، وبخاصة الذين تمادَوْا منهم في ارتكاب السيئات، أن يثقوا، قبل كل شيء، بالله تعالى الذي يغفر الذنوب جميعاً، وأن يحسنوا الظنَّ بأنفسهم، فلا يهدروا أصالتها نهائياً، بالانصياع لنوازغ الشيطان الذي يصرفهم عن الالتجاء إلى ربهم بالتوبة وطلب الغفران. . إذْ عندما يوقنُ الإنسانُ أنَّ أَبواب رحمة الله مفتوحة له، عليه أن يبادر فوراً إلى الندم، والتوبة والاستغفار؛ وهذه الفرصةُ الذهبية التي يدعو الإسلامُ الإنسانَ إلى اغتنامها من شأنها أنْ تعطي الأمل للمجرم كي لا يظل منغمساً في حمأة الجريمة وظلامها، وللعاصي كي لا يصرَّ على ما فعل، وللمذنب كي يرتاح من آثام ذنوبه. .

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

ولقد أشرنا إلى أنَّ المسيءَ قد يذهبُ إلى مَنْ أساء إليه طلباً لمسامحته والصفح عنه، فيعفو هذا إذا كان من الأفاضل، وذوي المكارم في الأخلاق، الذين يكون العفو، عادةً، من شيمهم.. بل وكثيراً ما يلجأ الضعيفُ إلى الاعتذار والتذلل رجاءَ أنْ يقبلَ القويُّ عذره، ويعفو عنه.. ولكنْ أينَ عفو الإنسان ـ الذي يبقى زهيداً ـ تجاه عفو الرحمن؟ إنَّه سبحانَهُ وتعالى يقبل القليل، ويعفو عن كثير من أعمال عباده، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً، وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويقولون عن يقين: ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك، فأعِنَّا على أنفسنا، وعلى جوارحنا، وألهمنا رجاء عفوك ومغفرتك، وقِنا عذاب النار، إنك أنتَ التواب الرحيم.. فهؤلاء الذين أخلصوا النية لله تعالى في القول والعمل، يعلّمهم الإسلامُ أنَّ الله سميعٌ لأقوالهم مجيبٌ لدعواتهم، وأنَّ رحمته تعالى لا تسَعُ توبتَهم واستغفارهم وحسب، بل ويتفضَّلُ عليهم ربُّهم الكريمُ بالأجر العظيم والثواب الجزيل: جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً، ونعم أجر العاملين..

هذا ما يوجّهنا إليه الإسلام عندما يستحثُّ الإنسانَ على التوبة، بأنْ يجعل في نفسه إلى جانب الضعف قوةً.. وفي مقابل النزوة والشهوة والرغبة، والطمع وعياً، وخوفاً وخشية من الله تعالى.. وأنْ يكون على يقين بأنَّه سبحانه وتعالى يعطف عليه في ساعة الضعف ليأخذ بيده إلى التغلب على ضعفه، ويحنو عليه في عثرته ليرفعه منها إلى موضع الخلاص، ويوجّهه إلى الطريق السوي.. وقوام ذلك نورُ الإيمان في قلبه، وصلته بربه التي لا تنقطع عن الذكر والاستغفار

وطلب العفو والرحمة. . وسوف يجد ربَّه غفوراً رحيماً، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

ولكن هنالك مقابل رحمة الله تعالى، وعفوه ومغفرته لعباده، العقاب الشديد! . فلا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ الأمور هينة، سهلة إلى حد الغفلة أو التغافل، وأنَّ مجرد الاستغفار قد ينيل العاصي المغفرة، لا! . . إنَّ الاستغفار، وطلب المغفرة سبيلهما التوبةُ وعدم الإصرار على عمل السوء، وأن تتوجه النيّةُ إلى عدم الرجوع إلى المعصية بقلب مؤمنٍ، خائفٍ منيب، وإلَّا فإنَّ الله شديدُ العقاب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢)

وإنَّهُ لواضِحٌ كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى يقدمُ في الآية الكريمة «المغفرة» للناس على «العقاب الشديد». . ولكنَّ هذا العقابَ الشديد قد جعله الله تعالى للمصرّين على المعاصي، كما يتبين من قول رسول الله ﷺ: «لا صَغِيرَةَ مَعَ الإِصْرار، ولا كَبيرَةَ مَعَ الاستغفار»(٣). . .

أوليس ما يدعو للتعجب أنْ يُصرَّ الإنسان على المعصية، وأنْ يستكبر عن التوبة والاستغفار، وهو يملك القدرة على الإدراك والتمييز؟! أجل إنَّ ما يستدعي العجب كيف أنَّ القرآنَ يبيّن للناس ما يريد بهم الله ربُّهم خيراً، وما يريدون بأنفسهم شرّاً! . . ولكنْ يبدو أنَّ عمى البصيرة هو الذي يطغى، فلا يتَّعظون بالقرآن، ولا يعملون بوحي

(١) سورة النساء، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٦.
(٣) كشف الخفاء، حديث رقم ٣٠٧١.

الرحمن، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[1]، وفي المعاصي يأثمون، وعلى أكتافهم من الذنوب يحملون، فهل يرتقبون إلّا العقابَ الشديد الذي يستحقون؟!.

وقد رفعَ الإسلامُ من شأن التوابين، وجعل توبتهم الخالصة عملاً تعبُّدياً يحبُّهُ الله تعالى، فشرَّع لهم من أبواب رحمته ما يسعُ ذنوبهم واستغفارهم، ولكن ألزمهم بالمقابل التقوى، التي من شأنها أن تسلَّ من نفوسهم نزغ الشيطان، ووساوسه..

من هنا يمكن اعتبار التوبة عملية نفسية صحية، يمكن من خلالها التخلّص من الشعور الدائم بالذنب، وتحويل أفكار العجز والتشاؤم والحطّ من شأن الذات.. إلى أفكار ومشاعر كفاءة، وتفاؤل، وإقبال على الحياة بروحٍ من التقوى والاستقامة..

ولعلَّ الإنسان عندما يعود إلى نفسه، في مكاشفتها ومصارحتها حول كلِّ شيءٍ يتعلّق بمشاعره وأقواله وأفعاله، وحول تعامله مع الناس، وبصورة خاصة حول صلته بربه تعالى، ثم يضعُ مساوئها وعوراتها على مشرحة منهجه الديني، فسوف يجد أنَّ ذلك كفيل بمعالجتها وشفائها.

وهذا ما أخذت بعض الاتجاهات الحديثة لدى علماء النفس تهتمُّ به، بتوكيدها على أهمية الدين في الصحة النفسية، وفي علاج الامراض النفسية، بعدما ظهرت أهمية الدين، وما يمدّ به الإنسان من طاقة روحية، تعينه على مواجهة مشاق الحياة، وتجنّبه كثيراً من الصراعات النفسية، وما ينجم عنها من قلقٍ واكتئابٍ وشقاء.

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٩.

ومن علماء النفس المحدثين الذين نادوا بأهمية الدين في العلاج النفسي عالم النفس الأميركي (وليم جيمس)، فقد قال: «إنَّ أعظم علاج للقلق، ولا شك، هو الإيمان... والإيمان يعتبر من القوى التي لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش. وفقدُهُ نذيرٌ بالعجز عن معاناة الحياة.. إنَّ بيننا وبين الله ـ تعالى ـ رابطةً لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه ـ تعالى ـ تحققت كل أمنياتنا وآمالنا»..

ويحاول (جيمس) أن يعطي مثالاً حسياً على أهمية الإيمان وتأثيره في أعماق النفس الإنسانية فيقول: «إنَّ أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكّر قطُّ هدوءَ القاع العميق ولا تقلق أمنه، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله ـ تعالى ـ خليق بألَّا تعكر طمأنينتَه التقلُّباتُ السطحيةُ المؤقتة. فالرجل المتدين حقاً عصيٌّ على القلق، محتفظ أبداً باتزانه، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف».

وعن أهمية الدين في مواجهة مشاكل الحياة، يقول المحلل النفسي (كارل يولج): «استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجتُ مئاتٍ كثيرةً من المرضى... فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في النصف الثاني من عمرهم ـ أي جاوزوا الخامسة والثلاثين ـ من لم تكن مشكلته في أساسها هي افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة. وأستطيع أنْ أقول: إنَّ كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض، لأنه فقد ذلك الشيء الذي تمنحه الأديان القائمة في كل عصر لأتباعها، ولم يتمَّ شفاءُ أحد منهم حقيقة إلَّا بعد أنْ استعاد نظرتَهُ الدينية في الحياة».

وهنالك كثير أيضاً من المحللين النفسيين، ومن المفكرين في الغرب الذين يُرجعون أزمةَ الإنسان المعاصر، ولاسيما الإنسان الأوروبي والأميركي، إلى افتقاره للقيم الدينية والغذاء الروحي الذي يمدّه به الدين، ويعتبرون أنَّ العلاج الوحيد لتخليص الإنسان من هذه الأزمة القاتلة لا يكون إلّا بالرجوع إلى الدين.

والدين الإسلامي، كما يبيّنه القرآنُ الكريم، والسنّة النبوية الشريفة، يفيض ببيان العلاجات للنفس الإنسانية. وهو يملي على الإنسان أنْ يعيش في مناخات وأجواء دينية. ويطلب من الإنسان المسلم أنْ يضع نفسه دائماً في المناخات والأجواء الإسلامية إنْ أرادَ صونَ نفسه، وحفظَ عائلته ومجتمعه، وانفتاحَهُ على مختلف القيم الإنسانية.

العلاج النفسي عند ابن القيّم

لقد قدَّم بعض العلماء المسلمين أبحاثاً عديدة في علاجات النفس البشرية، وكان لابن القيم نظرة ثاقبة في هذا المجال، من خلال الأبحاث القيّمة التي وضعها، معتمداً في معالجة النفس على الصلة بين العبد وربه، هذه الصلة التي تعتبر الدعامة الأولى لكل علاج من علاجات أمراض النفس. ومن أبرز ما ذهب إليه ابن القيِّم في هذا المجال النقاط التالية:

١ ـ تخفيف الآلام بالكلام الطيب: فهو يرى أنَّ بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، كما هي الحال في فاتحة الكتاب مثلاً[(١)]. ومن

---

(١) وذلك بأن يقرأ الإنسان سورة الفاتحة في القرآن الكريم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

هدى رسول الله ﷺ: «إذا دَخلتُمْ على المريضِ فَنفِّسُوا لَهُ في الأَجَل، فإنَّ ذلكَ لا يَرُدُّ شيئاً، وهو يطيِّبُ نفسَ الإنسان»[1]. ومن هذا الهدي لرسول الله ﷺ، يستنتج ابنُ القيم أنَّ «تفريح نفس المريض وتطييب قلبه بإدخال السرور عليه، له تأثير عجيب في شفاء علته.. ومن واقع التجربة الحية يَثبُتُ أنَّ الناس شاهدوا كثيراً من المرضى تنتعش قواهم، عندما يزورهم من يحبونهم أو يقدّرونهم، ولا سيما عندما يقبل الزائرُ على المريض بوداعةٍ ولطف، ويكلمهُ عمَّا به هو من أمراض، فيرتاح المريض ويندفع يحدّث زائره عمَّا يشكو من الألم.. وهذه إحدى فوائد عيادة المرضى التي تريحهم...

٢ ـ عيادة المريض: يستشهد ابن القيِّم بما كان يفعل رسولُ الله ﷺ في عيادته للمريض، فيقول: «ويروى أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يسألُ المريض عن شكواه وكيف يجده؟ ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها على صدره، ويدعو له الرقية، ويصف له ما ينفعه في علته.. وربما كان يقول للمريض: لا بأس عليك: طهور إن شاء الله تعالى». ثم يعلق ابن القيم قائلاً: «وقد تضمنت العيادة في هذا الحديث عناصر الكلام والدعاء واللمس فضلاً عن وصفة العلاج الخاصة»

٣ ـ أثر شخصية المعالج: ويعتبر ابن القيِّم أنَّ نجاح العلاج النفسي يتوقف بدرجة كبيرة على شخصية المُعَالِج، وقدرته على إيجاد علاقة حميمة بينه وبين المريض، بحيث يستشعر معه الطمأنينة، ويمنحه الثقة، فيحصل نوع من التفاعل المتبادل بينهما، ويجعل

---

(١) الترمذي، باب الطب. ص٣٥.

للمعالج تأثيراً لتغيير بعض الجوانب الشعورية في نفس المريض. وهو يضرب مثالاً على ذلك بتأثير الرُّقْيَةِ على الملدوغ[1]، حيث يقول: «لو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرُّقْية ولم تقوَ نفسُ الرَّاقي على التأثير لم يحصل البُرْء.. وإنَّ نفس الرّاقي لتفعل في نفس المُرْقَى، فيقع بين نفسيهما فِعْلٌ وانفعالٌ ـ كما بين الداء والدواء ـ فتقوى نفس المُرْقَى بالرُّقْية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله تعالى».

٤ ـ إزالة الألم بالضدّ: ومن قبيل ذلك اتباع هوى النفس فإنه يؤدي بصاحبه إلى إيذاء نفسه والإضرار بها، «فيتولد ـ من بين إيثارها للداء واجتنابها للدواء ـ أنواع من الأسقام والعلل التي تعيي الأطباء ويتعذَّر معها الشفاء».

والإضرار الذي يحصل هنا يتتج من غفلة قلب الشخص فلا يدرك ما يفعل.. ولذلك يرى ابنُ القيّم أنَّ اقتراف المعاصي والفساد قد يكون عقاباً للذات، وتأنيباً لها للتخفيف من مشاعر الإثم.. أو كما يقول: «إنَّ أهل المعاصي والفساد إذا قضوا منها أوطارَهم، وسئمتها نفوسُهم، ارتكبوها وفقاً لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم». كما يحدث مثلاً لمدمني الخمر حينما يتحول الداء عندهم إلى دواء، ومن ثَمَّ فلا دواء إلّا باتباع الهوى ـ كما يتوهمون ـ طبقاً لقاعدة أنَّ «المرض يُزال بالضد».

٥ ـ الإنابة: الإنابة هي الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والإخلاص

---

(١) وذلك أنَّ سرية من المسلمين قد نزلت على قوم تريد الزاد والماء، فأشاروا إلى أنَّ أحدَ شيوخهم يكاد يشرف على الموت في لدغة عقربٍ سام، فما كان من أحد رجال السرية إلاّ أن تقدّم يرقيه بتلاوةٍ من القرآن الكريم، فكان شفاؤه ـ بإذن الله ـ من تلك الرقية. وهذا ما يشير إليه ابن القيم..

في النية والعمل، وجعل الأمور كلها بيده سبحانه، إذ فيها إقرار من العبد بضعفه، وعجزه عن الصمود أمام الشدائد، ما لم تتداركه رحمةُ الله تعالى ورأفته. وهذا الإيمان من العبد بأنَّ الله على كل شيءٍ قدير، وبأنَّهُ سبحانه يدبّر الأمر، من السماء إلى الأرض من شأنه أنْ يخفف عن المصاب حدة التوتّر والغضب، أو التحسُّر والألم، ويجلو عن نفسه ما يمكن أنْ يتولد لديه من شعور بالخيبة أو الندم أو الإثم، وما ذلك إلّا لأنه أوكلَ أمرَه إلى الله ربه.

٦ ـ إعطاء المرض دلالة: فكل مصيبة تحل بالإنسان، أو شدة تطاله يجب أنْ تكون ذات دلالة ومعنى في حياة المؤمن، فما يصيبه إلّا ما كتب الله له فالمرض ابتلاء، والمحنة امتحان للصبر، والقبول بقضاء الله تعالى وقدره في مصلحته، فإنْ صَبَرَ ظَفَرَ، وإنْ قبِلَ نالَ الرضا والمغفرة. وبالنسبة له: «ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أبطأه لم يكن ليصيبه».

٧ ـ التماس العوض: وهو يعني أنَّ فقدان الشيء أو امتناعه أو فواته يمكن تعويضه بمشاعر إيجابية تقوم مقامه. مثل: الثواب مقابل الصبر على البليّة، ورجاء نيل حلاوة الآخرة تعويضاً عن تحمل مرارة الدنيا، يقول ابن القيِّم: «على الإنسان أن يروّح قلبه بروح رجاء الخلف من الله» أو كما قال الشاعر:

مِنْ كلِّ شيءٍ إذا ضيَّعْتَهُ عَوَضٌ ... وما مِنَ الله إنْ ضيَّعْتَهُ عَوَضُ

٨ ـ العلاج بالتخييل: يلاحظ ابنُ القيِّم أنَّ للوهم قوةً فعليةً في الإصابة بالمرض، أو التوقِّي منه.

وهذا صحيح، لأنَّ الوهم قد يؤثر في النفس إلى درجةٍ قد

تجعل الإنسان يقع في المرض، فإذا توَهَّمَ أنه مصابٌ بالسرطان مثلاً، وظلَّ هذا الوهم يخيّم عليه على الرغم من تأكيد الأطباء غير ذلك، فإنَّ شدة ذلك التوهم من شأنها التسبب له بهذا المرض بصورة فعلية، وقد ثبت ذلك في حالاتِ أشخاصٍ عديدين. على أنَّ الثقة بالنفس ـ بالمقابل ـ قد تساعد المريض كثيراً على البرء من سقمه حتى بعد الإصابة بالسقم. ويعوِّل الأطباء النفسانيون كثيراً على زوال الأعراض النفسية والعقلية من خلال إعادة الثقة إلى نفوس المرضى، واطمئنانهم إلى قواهم الذاتية في الشفاء.

٩ ـ الإثارة الانفعالية: يقول ابنُ القيِّم: «إن القلب يحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم. وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ويقوِّي نفسه، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي. فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى».

وهذه الإثارة اعتمدها بعض الأطباء المسلمين ـ كما يروي ابن أبي أصيبعة ـ في نفوس مرضاهم لشفاء بعض الأمراض النفسية المستعصية، بحيث يكون لها وقع الصدمة المفاجئة التي تدفع الداء عن الأنفس.

ويمكن أن نلاحظ أنَّ ما ذهب إليه ابن القيِّم لا يعدو كونه وجهات نظر معينة تقوم على انفعالات النفس وتأثرها: إما بصورة ذاتية عن طريق الإيمان الذي يجعل العبد مرتبطاً بخالقه تعالى برابطة الإخلاص القلبي، والتوجه الوجداني، وإيكال الأمور جميعها إليه سبحانه بحيث لا يأتيه خير إلَّا وحمده، ولا تأتيه شدة إلَّا وصبر

عليها. . وإما بصورة التأثر بالغير عن طريق الإيحاءات التي يولدها في نفسه، مثل تأثير المعالج، أو المتأسَّى به. . فيكون ابن القيِّم قد اعتمد «القلب» أساساً للداء والدواء، بما يضفي على نظرياته طابعاً إيجابياً هاماً في شفاء النفس من بعض عللها وعاهاتها.

ومن البديهي القول إنَّه لم يكن لابن القيِّم أنْ يحصّل تلك الآراء عن العلاج النفسي إلَّا من خلال فهمه لمعاني القلب في القرآن المبين، ما يجعلنا نؤمن ـ وباطمئنانٍ إنْ شاء الله ـ بأنَّ من يعملُ بهدي القرآن الكريم، ويقتفي أثر سيد المرسلين محمد ﷺ، يجد من الزاد ما يغنيه ويُسعده في الدارين. وهذا القرآن المجيد يحتضن بين دفتيه سبيلاً قيماً لا عوج فيه من أجل معالجة الإنسان، نظراً لتأثيره الروحاني على النفس، ومن يقف على مضامينه يجد ما يهزُّ وجدانه، ويرهفُ أحاسيسه، ويوقظ تفكيره، ويجلو بصره وينير بصيرته، فإذا بالإنسان الذي فعل في نفسه القرآنُ فعلَهُ يصبح إنساناً آخر، لأنه كتاب الله تعالى، الذي ترنو إليه القلوب، وتحنو له الهامات، وتعمل برأيه الأطباء، وتطمئن إلى علاجه النفوس.

الفصل السابع عشر

الأمانُ النفسي

الأمانُ النفسي

ماذا يُقصد بالأمان النفسي؟

هنالك فرق بين الأمن والأمان:

أمّا الأمن فتحققه الدولة القوية الحازمة، سواء الأمن الداخلي أو الأمن الخارجي، وسواء اعتمدت لذلك نظاماً طابعه الانضباط والعدل، أو اعتمدت نظاماً يقوم على الشدّة والظلم، فكل ذلك قد يحقق الأمن، ولكنْ يبقى الفرق شاسعاً بين معياري العدل والظلم، وما ينطوي عليه أحدهما من الحسنات، والآخر من السيئات. .

وأما الأمان فلا يحققه إلاّ الإيمان، الذي يبعث في النفس الاطمئنان والرجاء، لأنَّ الإيمان الحق، القائم على عقيدة التوحيد، عندما يثبت في نفس الإنسان منذ الصغر، فإنَّه يُكسبه مناعة ووقاية من الإصابة بالأمراض النفسية، فشعور المؤمن بسكينة النفس هو الباعث الأكبر على الصحة النفسية، ولا يتوافر هذا الشعور إلّا بالإيمان الصادق، الذي يجعل المؤمنَ يتوجَّهُ إلى خالقه، وربِّه بالتسليم، والانقياد لمشيئته، وطلب العون كي يمدَّه بثوب الصحة والعافية،

ويقوّي جوارحه على الطاعة، ويسدّد خطاه لكي يعمل صالحاً يرضاه.

ويقيناً أنَّ ربَّهُ تعالى سوف يرعاه ويحفظه بما يحقق له الأمانَ النفسي، يقول تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1].. ومن الغريب، بل والعجيب أنْ يصل الإنسان إلى هذا النضوج الفكري، وهذه العلوم والمعارف على غزارتها وتشعب مجالاتها، فيصعد إلى الفضاء، ويحيط بأهمِّ خصائص الإنسان، وخصائص المخلوقات من حوله، فيرى مثلاً في هذه الطيور والأسماك والحيوانات في تدبّرها لحاجاتها، وحفظ حياتها ما يذهل العقول.. ثم، بعد ذلك، يبقى هنالك الملايين من البشر الذين لا يدينون بدين الله، ولا يتعبَّدون لله، ولا يبنون معتقداتهم على حقائق الرسالات السماوية!...

ولعلَّ من أهم الأسباب لذلك ما يرى هؤلاء البشر من عدم التزام اليهود، والنصارى، والمسلمين، بصورة عامة، بتعاليم ومناهج الأديان التي يعتنقونها!... ولكنَّ ذلك لا يكفي مبرّراً لمن أرادَ أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، فأبواب الهداية الحق، تبقى مشرّعة لكل فردٍ، ولكلّ الناس، لأنْ لا شيءَ يمنع الإنسانَ من أنْ يطّلع على الأديان السماوية، ويقرأ تعاليمها، وأنْ يسألَ رجالَ الدين، والمؤمنين عن مضامينها، ثم يقرّر في ضوء ذلك ما يختار منها عقيدةً دينية.. وإنَّ من يسعى لذلك، سوف تتفتَّح بصيرتُه على نور الله تعالى، فيكون أشدَّ الناس إيماناً، وأكثرهم هدايةً، وأقومَهم سبيلاً.. وهنيئاً لمن هداه عقله، ودفعه قلبه إلى الإيمان الصادق، ليكون في عليّين، ممن أنعمَ الله تعالى عليهم بالهداية، لأنَّ النفس عندما تطمئن إلى هداية ربها،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٤.

تصبح في انعتاق كليّ من كل سوء قد يشوبها، ومن كل شعور قد يؤذيها، فينصرف الإنسان، بخلقٍ حسنٍ، إلى صالح العمل، حتى يصير مثالاً يحتذى به. . وانعتاق النفس من أسرها، وانطلاقها بمشاعر الإيمان لا يقف عند حدود الاطمئنان الذاتي، والسيرة الحسنة، بل ويجعل المؤمن يرنو إلى لقاء ربه، بحيث يرى في الموتِ نفسهِ، عتبةَ الولوج إلى الحياة الآخرة، التي ترجع فيها النفس المطمئّنة إلى ربها راضية مرضية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1]؛ وبهذا الصدد، فقد رُويَ عن أنس، أنَّ الرسول ﷺ قال: «مَنْ كانتْ الآخرةُ همَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ في قلبِهِ، وجَمَعَ عليه شملَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهِيَ راغِمَةٌ. ومَنْ كانتِ الدُّنيا همَّهُ جَعَلَ الله فقرَهُ بينَ عينَيْهِ، وفرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولم يأتِهِ مِنَ الدُّنيا إلاَّ ما قُدِرَ لَهُ»[2].

وقد نُقِلَ عن عبيد الله بن مُحصَّن الخِطْمي، أنَّ الرسول ﷺ قال: «مَنْ أصبَحَ آمِناً في سِرْبِهِ، مُعافًى في جَسَدِهِ، عندَهُ قوتُ يومِهِ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بحذافِيرِها»[3]. . ونجد في هذا الحديث الشريف ثلاثةَ أمورٍ هامةٍ: شعور الإنسان بالأمانَ في جماعته (أهله، عائلته، مجتمعه)، والعافيةُ في جسده (بخلوّه من الأمراض) وقناعته بالاكتفاء (بقدر ما يؤمن الإشباع لحاجاته العضوية وغرائزه الفطرية باعتدال). وهي مقومات أساسية للصحة النفسية لأنها من أهم العوامل على بعث السعادة والاطمئنان.

---

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.
(٢) أحمد بن حنبل، ج٥، ص١٨٣.
(٣) الترمذي، باب الزهد، ص٣٤.

والأمان النفسي في الحقيقة هو منتهى غاية الإنسان، ولا يحصل له هذا الأمانُ إلّا باتباع منهج الله تعالى، وما ينبثق منه من أنظمة، ومنها على سبيل المثال في الإسلام، نظام الشورى.

نظام الشورى في الإسلام: الشُّورى هي الأمر الذي يُتَشاوَرُ فيه، ولذلك كان التشاور والمشاورة والمشورة بمعنى واحد، أي استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض. وهو مأخوذ من قولهم: شِرْتُ العَسَلَ إذا اتخذتُهُ من موضعه واستخرجته منه، لأنَّ معنى الشَوْر: العسل المشور، أي الطيب، الذي أُعين على جَنْيِهِ، والمَشُورةُ هي استخراجُ الرأي من المستشار لأنها تُجتنى منه..

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ رَجُلٍ شاوَرَ أحداً إلّا هُدِيَ إلى رُشْدِهِ»[١].

وقديماً قيل: المشورة فيها بركة.

وقد نصح أحدُهم بقوله: إيَّاكَ ومشُورةَ رجلين: رجلٍ أكلَ الدهر من جسمهِ كما أكلَ من عقله، وشابٍّ مغرورٍ بنفسهِ، قليلِ التجاربِ في غيره.

وقال الشاعر:

شاوِرْ سِواكَ إذا نابَتْكَ نائِبَةٌ يوماً وإنْ كُنتَ مِنْ أَهلِ المَشُوراتِ

فالشورى، إذاً، مهمة في حياة الأفراد، لما فيها من نُصح وإرشاد، ولما تقوم عليه من تبادل في الرأي، وانفتاح في الأفكار،

(١) الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج٣، ص٣٣.

وتحديدٍ في الاتجاه، بعد سبر المسالك، واجتياز النتوءات، وملء الثغرات. . .

فالشورى، إذاً، مهمة في حياة الأمم أهم بكثير مما هي في حياة الأفراد لأنها ترسم طريق الأمة في العيش، والعمل، والحكم، ومختلف الشؤون العامة.

والأنظمة السياسية الحديثة، تدَّعي قيامها على «الشورى»، أي على ما يسمونه «الديموقراطية التمثيلية»، التي تزعم أنها تأخذ بآراء الشعوب لتحديد الاتجاهات، واتخاذ القرارات المصيرية الهامة بالوسائل المعروفة، وأساليب الحكم المتبعة، ولا سيما الانتخاب والاستفتاء. . . ولكن هنالك شك في أنْ تكون هذه «الديموقراطيات» قد حققت أهدافها، أو أنها تقوم فعلاً على الاستجابة لآراء الشعوب وآمالها، كما يدّعي المنظِّرون والحكام، وأصحابُ الشأن، في حين نرى كلَّ هذه المشاكل والأزمات التي يتخبط فيها الناس على مستوى المعمورة!. .

أما الإسلام، كنظامٍ للحياة، فإنَّ من دعائمِ الحكم فيه أنْ يقوم على الشُّورى. .

وقد اعتمد رسول الله ﷺ الشورى في تقرير كثير من الأمور الهامة في حياة الجماعة الإسلامية، وفي ترسيخ قواعد الحكم الإسلامي، وذلك امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(١)؛ فهذا الأمرُ الربّانيُّ قد أُنزل بمناسبة معركة «أُحُد»، التي شاءَ الله تعالى أنْ يجعلها، في ظروفها وأحداثها حافلةً بالدروس والعظات والتعاليم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الهامة في حياة المسلمين، ولاسيما إرساء قاعدة الشورى، كما يتبيّن من الآيات القرآنية التي تتحدَّث عن الأجواء التي سبقت، ورافقت تلك الواقعة، والنتائج التي ترتبت عليها.. فمنذ أنْ وصل جيش المشركين ـ الذي أتى لغزو المدينة المنورة وقلب نظام الحكم الإسلامي فيها ـ إلى جبل «أحد»، على مسافة أميالٍ قليلة من أطرافها، ظهر بين المسلمين اتجاهان في الرأي: فالشيوخ والعقلاء ـ وهُمُ القلّة ـ كانوا يريدون البقاء داخل المدينة، لأنه أجدى للدفاع، وأقلُّ خطراً إذا ما تصدّوا لأعدائهم على أبواب مدينتهم... بينما الشبّان المتحمّسون ـ وهُمُ الكثرة ـ كانوا يريدون الخروج وملاقاة العدو في مواقعه.. وتفكَّر رسول الله ﷺ مليّاً، ثم عزم على الخروج نزولاً عند رأي الأكثرية، فكان ذلك أول وأهمّ الدروس لتعليم المسلمين، وإرشادهم إلى الطريق الصحيح الذي يجب أنْ يسلكوه في كل مرةٍ يعترضهم أمرٌ جلَلٌ، أو تواجههم مشكلةٌ كبيرة، إذْ عليهم العمل بالشورى، أي برأي الأكثرية.. ولكنْ لمَّا كان الرأيُ لم يؤخذ بالإجماع، فقد استغلَّ المنافقون ذلك التباينَ في الرأي، بعد الخروج، فعاد عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول، وكانَ رأس النفاق في المدينة، بثلث الجيش من منتصف الطريق؛ فهذا الحادث كان كافياً وحدَه لأنْ يؤدي إلى زعزعة الثقة في نفوس الجيش الإسلامي، وأن تنهارَ معنوياته فيعود أدراجه، ولكنَّ الله تعالى سلّم، فتابع مسيره للقتال.. وكان في ذلك عبرة أخرى للمسلمين بأن يحذروا أعداء الداخل، فلا يشركوهم باتخاذ مقرراتهم المصيرية، لأنَّ مواقف هؤلاء الأعداء من شأنها أنْ تؤدي إلى تفتيت وحدة الكلمة، الذي يجرُّ بدوره إلى إضعاف وحدة صفوفهم، بينما يريدهم الله تعالى أنْ يكونوا كالبنيان المرصوص!...

وجرت المعركة، وهزم المشركون في الصباح، إلّا أنَّ مغادرة الرماة لمواقعهم، خلافاً لأمر رسول الله ﷺ جعل المشركين يرتدُّون وينزلون بالمسلمين الهزيمة.. وبذلك انتهت معركة «أحد»، وجاءت نتائجها المادية وبالاً على المسلمين، إلّا أنَّ عظاها كانت بليغة للغاية، ولاسيما في ما يتعلق بقاعدة الشورى، إذْ كان من حق رسول الله ﷺ، وهو رأس الدولة، وحاكمها العادل، والقائد الأعلى لقواتها، أنْ يعيدَ النظر بمفهوم «رأي الأكثرية» التي قررت الخروج إلى «أحد»، ولاسيما أنَّ أمر الله تعالى واضح الدلالة بالنسبة إليه، فعندما يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فمعناه: وشاورهم في الشؤون العامة للوقوف على مختلف الاتجاهات والآراء في الأزمات للوصول إلى الرأي الأصوب في مواجهتها، فإذا عزمتَ على رأيٍ معينٍ بعد المشاورة، فتوكل على الله في إمضائه، وثق بالرأي الذي عزمتَ عليه في التوكل على الله ربك، كي تأتي النتائج موافقةً للصالح العام.. ومن هذا المنطلق أمضى رسولُ الله ﷺ قاعدة الشورى سُنَّةً قائمةً، يعمل بها الحكام المسلمون من بعده، على أنْ يتبنَّوا العمل برأي الأكثرية، لأنَّ في ذلك أكثر صلاحاً لمسار أمتِهِ من بعده، ولمسار البشرية كلها، عندما ينطلق الحكام من هموم وتطلعات الناس التي تعبّر عنها الأكثرية، باعتبار أنَّ الأكثرية يجب أنْ تكون صوتَ حاجات الناس، وضمير آمالهم ومصالحهم، لا مجرَّد اصطفافات حزبية أو فئوية تقودها المطامع والأهواء.. إذاً فالشورى تعتبر من أهم دعائم الحكم الإسلامي، أما الشكل الذي يتم فيه التشاور والتحاور، والوسيلة التي تستخدم لذلك، فهذه أمور قابلة للتعديل والتطوير وفقاً لأوضاع الأمة، وظروف حياة شعوبها، إذ أي

شكل أو وسيلة يمكن اعتمادهما، لا يخالفان الشريعة الإسلامية في تحقيق الغاية المرجوة من الشورى، يعتبر ذلك من الإسلام. . . ومن فوائد الشورى أنها تبعث الارتياح في نفوس الأفراد، والثقة لدى الجماعة، ولو جاءت النتائج بخلاف ما كان متوقَّعاً. . المهم أن يكون القرار الذي اتُخذ بنتيجة الشورى صادراً عن الشعور بالمسؤولية العامة، وأنَّ المتشاورين قد أبدوا آراءهم بحرية واقتناع، والنيات منصرفة لخدمة الجماعة. . من هنا كان نظام الشورى، أكثرَ خيراً للأمة وصالحها العام؛ وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين يجعلون أمرهم يقوم على التشاور بينهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(١)]، و﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[(٢)]. .

فالآيتان الكريمتان تضعان قواعد أساسية هامة لبناء الحياة الإسلامية، يمكنْ تلخيصها على النحو التالي:

- اليقين بأنَّ ما يدخر الله تعالى من الثواب خيرٌ وأبقى للمؤمنين من كل متاع الدنيا.
- توكل المؤمنين على ربهم الذي يقدر النتائج لأعمالهم.
- الاستجابة لربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة.
- إقامة الصلاة التي تصل ما بين المؤمنين وربهم بصورة يومية مستديمة لا انقطاع فيها.
- جعل أمرهم يقوم على الشورى في ما بينهم.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

وهذه القواعد، إذا ما أضيفت إلى الأحكام الشرعية، وإلى غيرها ممّا في القرآن من بيانٍ لمختلف الشؤون العامة، تكون بمثابة روح متحرّك يكيّف الأفكار والمفاهيم والمشاعر والأحاسيس ليجعل النمط الإسلامي في العيش متجدداً بصورة دائمة في أصالته ونهجه.

وتتميز «الشورى» في المفاهيم الإسلامية بأنها لا تقف عند حدود مصلحة الجماعة، بل وتتوخى أيضاً مصلحة الفرد، كما يبيّن لنا الحكيم العليم ذلك في أثر المشورة حتى على تربية الطفل الصغير، وفي أيام رضاعته بالذات، فيقول الله تَبارَكَ وتعَالَى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ﴾(1).

هنا تتجلى رعاية ربنا الكريم للإنسان منذ نعومة أظفاره بما وضع على عاتق الوالدين من مسؤولية تجاهه، فجعل سبحانه التراضي بين الوالد والوالدة بمساواة التشاور. فقال تعالى: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾، أي من الأب والأم ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾، يعني عن اتفاق منهما ومشاورة، وإنما شرط تشاورهما تأمين مصلحة ولدهما، لأنَّ على الوالدة المطلقة واجباً تجاه طفلها، واجباً يفرضه الله تعالى عليها وهو إرضاعه، لئلاَّ يتركها لفطرتها وعاطفتها التي قد تفسدها المشكلات العائلية، فيقع الغرم على الصغير. فالله تعالى أولى بالناس وأبرُّ بهم حتى من والديهم، بل ومن أنفسهم. ولذلك كان التوجيه الرباني أنْ تكون

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الرضاعة لمدة حولين كاملين هي الواجب الأول الملقى على عاتق الأم تجاه رضيعها. وها هي البحوث الصحية والنفسية تثبت أنَّ فترة الرضاعة من الأم لمدة عامين، ضرورية لنمو الطفل نمواً سليماً من الوجهتين الصحية والنفسية. .

أما من حيث العلاقة بين الأم والأب في فترة الرضاعة، فكلاهما شريك في التبعة، وإنْ كانا مطلقين، وكلاهما مسؤول تجاه هذا الصغير الرضيع: هي تمدّه بالحليب والحضانة والرعاية، وأبوه يمدّها بالغذاء والكساء وكلّ حاجاتها الضرورية التي تؤمن لها نوعاً من الاستقرار في حياتها، كي تحافظ على هذا الطفل؛ أي إنَّ كلّاً منهما يؤدي واجبه، ولكنْ في حدود طاقته: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾، بحيث لا ينبغي أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل سبباً لمضارة الآخر ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾، فلا يستغلُّ الأبُ عاطفة الأم وحنانها ليُرغمها على أنْ تقبل إرضاعه بلا مقابل، ولا تستغلُّ هي عطفَ الأب على ابنه، وحبَّه له لتثقل كاهله بمطالبها.

كما أنَّ الواجبات الملقاة على عاتق الوالد تنتقل إلى وارثه في حال الوفاة ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ﴾. فهو مكلف تجاه الأم بالمسؤولية نفسها التي كانت تُلزِمَ الأبَ قبل وفاته، وذلك توكيداً للتكافل العائلي الذي يتحقق جانبه الأول بالإرث، ويتحقق جانبه الآخر باحتمال تبعة المورِّث. وهكذا لا يضيع الطفل أو يضارّ إنْ مات والده، فحقه مكفول، وحق أمه كذلك، في جميع الحالات.

وإذا رأى الأب والأم ـ أو الأم والوارث ـ فطامَ الطفل قبل انتهاء العامين، لأنَّ في هذا الفطام مصلحةً له، كأنْ يستدعي مثلاً سببٌ

صحيٌّ لدى الأم هذا الأمر، فلا جناح عليهما ـ أي فلا إثم عليهما ـ إنْ فعلاه عن تراضٍ منهما وتشاور تكون فيه حياة الطفل مؤمنة، لأنَّ الله تعالى، وهو الرؤوف الرحيم، قد فرض عليهما رعايته وحمايته، وهذا من شأنه أنْ يوفر للطفل الأمانَ النفسي، الذي إذا ما استقرّ في نفسه منذ الصغر ساعده كثيراً في مختلف مراحل عمره اللاحقة.. فهذه واحدة من أصول التشاور الذي تتبيَّن أهميته في حياة المسلمين.

وإذا كان بحثنا عن الأمان النفسي قد تناول منهجاً واحداً من المناهج الإسلامية، ونعني به الشورى، فما هو تأثير النهج التعبّدي ـ أي الحفاظ على القيام بالعبادات ـ على تحقيق الأمان النفسي...

العبـادات

الكل يعرف أن علاقات الناس تقوم على الحركة، التي تعني في حقيقتها شتى أنواع النشاطات، ومختلف أنماط السلوك الذي لا يعدو كونه مجرد ممارسة للأفكار والمشاعر، بصرف النظر عن حسنها أو قبحها...

والإسلام قد اتبع الطريقة العملية، والممارسة الفعلية للأحكام والتعاليم والمفاهيم التي يعتنقها أتباعه، كي يأتي سلوكهم منسجماً مع عقيدتهم، ولذلك نجد في الإسلام عبادات عديدة، ولكل منها خصائصه في تربية الإنسان المسلم وتكوين شخصيته.

والعبادات منها فرائض من الله تعالى، وهي من أركان الدين: كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ومنها ما لا يدخل في الأركان، ولكنه لا يقل عنها فائدةً وخيراً للإنسان من مثل ذكر الله تعالى،

والصبر، والتوبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ الفروج، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانة، والقيام بالشهادة الصادقة، وغيرها من القيم الإنسانية السامية التي يقتضي على المسلمين الالتزام بها، كالتزامهم بالفرائض، حتى يجعلوا الحياة من حولهم غيرَ مشوبةٍ بالخبائث والمفاسد. وسوف نبحث في الفرائض، ومن ثَمَّ في بعض تلك القيم الإسلامية والإنسانية...

الصلاة

ألا ترى يا أخي المسلم أنَّ في نداء الأذان «حيَّ على الصلاة»، وهو يكرّره المؤذن، ما يوقظك من الغفلة، ومن مشاغل الحياة لتقبل على عبادة ربك في فريضةٍ جعلها الله تعالى قواماً لإصلاح حياتك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]؟.. وأنك عندما تقيم الصلاة في أوقاتها، وتوفّيها حقها فإنك تشعر بالأمان، لأنَّ الصلاة هي الصلة بين العبد وربه، صلة الطاعة والاستسلام والخشوع والتضرع، ورابطة الثقة والاطمئنان والشفاء؟! إنها الصلة المتينة المباشرة بين المخلوق والخالق، الصلة التي يبرهن بها المخلوق عن عبوديته للخالق العظيم. فهي إذاً صلة قدسية، يقف فيها العبد بين يدي ربه العزيز، وهو على أهبة الاستعداد، بكامل لياقته الجسدية، وفكره المدرك وشعوره الواعي، غير غافل عمّا يقول، عالِماً بما يصدرُ عنه في خضوعه لذي العزة والجلال، وفي خشوعه في حضرة الغفور المتعال.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

ولو أردنا أنْ نعبّر عن جلال هيبة الموقف في الصلاة، فما علينا إلّا أنْ ننطلق من واقع حياتنا البشرية، فنرى كم نستعدّ ونتهيأ هنداماً، ولياقة عندما نذهب إلى صاحب سلطانٍ أو منصب أو ذي شأنٍ. . وكم نكون في حالةٍ من الانتباه والحذر في حضوره، إذ نتدارك كل نبرة تصدر عنا، وكل إشارة تبدر منا في جلوسنا، ووقوفنا، وكلامنا، أي في كل ما ينمّ عن التهيّب، والتأدّب، والاحترام. . فإنْ كان هذا شأننا مع أُناسٍ من أمثالنا، ولكونهم فقط من أصحاب النفوذ والسلطان الأرضي، فكيف يجب أنْ يكون حالُنا وشأننا ونحن بين يدي الله العزيز الجبار: خالقنا وخالق كل شيء، مالك الملك، الذي هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيءٍ عليم، وهو العلي العظيم؟! . .

لا مجال، أصلاً، للمقارنة بين مخلوق وخالق، وحاشا لله تعالى أن نقارن وقوفنا بين يديه طائعين، ووقوفنا في مجالس هؤلاء البشر، ولو كانوا مسؤولين؛ ولا سبيل للموازنة بين التوجّه إلى الله عزَّ وجلَّ، والتوجه إلى إنسانٍ ضعيف مسكين، مهما كان له من الحول والطول. . لا مقارنة ولا موازنة أبداً. . ولكنه تذكير فقط، وعودة بالنفس إلى واقعها الذي تعايش، فلعلَّ في ذلك ما يفيد اقتناعاً واهتداءً إلى الإيمان بالله، وعبادته، كما في الصلاة، التي هي الصلة الأوثق والأمتن بين العبد وربه، حيث على هذا العبد أنْ يكون مكتملاً مظهراً في طهارة ثيابه وبدنه ورونقه، وجوهراً في وعيه لعظمة خالقه وشعوره لقدسية بارئه، وفي خشوعه لرازقه، وإنابته لمدبره، وفي توجُّهِ روحه لباعثها، ونفسه لمسوِّيها. . وكم في هذه الصلاة، وهي بهذه المعاني، من انعتاق كلي، وطلاقٍ ـ ولو ظرفياً ـ لهموم الحياة ومشكلاتها،

وانصراف تام إلى نورانية تبعث في النفس هدوءاً، وفي العقل طلاقة، وفي البدن استرخاءً.. فأي علاج أعظم من هذه الصلاة للخلاص من كل هموم القلب، وأتعاب النفس.. وعندما تكرر الصلاة على فترات، في الليل وفي النهار، فإنَّ أوقات الاسترخاء والراحة والاطمئنان تزداد، وهذا أقصى ما يتمناه الإنسان، أي أن يجد في حياته فسحةً من الوقت يزيح فيها عن كاهله أثقال هذه الحياة وأعباءها، ويعيش في حالة من الانعتاق التام ممّا يكدّره ويؤرّقه، فمثلُهُ هنا كمثل السجين الذي أفرجَ عنه فانطلق إلى عالم الحرية والنور، وهو يعاهد نفسه ألَّا يعود أبداً إلى الجريمة والسجن.. والمؤمن، بصلاته، لا يؤدي فريضةً عليه وحسب، بل ويرجو منها الخير، والبركة وعون ربه الكريم، وخاصة وهو يسمَعُ ربَّ العالمين يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]. والرسول الأعظم نفسه كان يلجأ إلى الصلاة كلما حَزَبَهُ أمرٌ أو اعترضته مشكلة أهمّته؛ فقد قال حذيفة: «كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى». وكان ﷺ يقول لبلال عندما يحين وقت الصلاة: «**يا بلال أرِحنا بالصلاة**»[2]. وعن أبي قتادة أنَّ النبي ﷺ كانَ يعهد إلينا دائماً بالحديث القدسي، فيقول: «**قال اللّهُ عزَّ وجلَّ: إنّي افْتَرَضْتُ على أُمتِكَ خمسَ صلواتٍ، وعَهِدتُ عندي عَهْداً أنه مَنْ جاءَ يُحافِظُ عليهِنَّ لوقتِهِنَّ أدخلتُهُ الجنَّة، ومَنْ لم يُحافِظ عليهِنَّ فَلَا عَهْدَ لَهُ عِندِي**»[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) مسند أحمد، حديث رقم ٢٢٠٠٩.

(٣) ابن ماجه، الإقامة، ص١٩٤.

وقد وردت أحاديث كثيرة حول أوقات معينة يثاب المرء على الصلاة فيها بمغفرة الذنوب، وبدخول الجنة. ومن هذه الأوقات: الفجر، العصر، الضحى، الجمعة، ليلة القدر، ليالي رمضان (قيام رمضان) وليلة النصف من شعبان.

وعلى الجملة، فإنَّ للصلاة فوائد كثيرة: فهي تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر اللذين يعتبران المصدر الرئيسي للقلق والخوف، فعندما نقضي على مسبباتهما، فإنَّ ذلك يبعث في نفوسنا الطمأنينة، والراحة لقلوبنا؛ فضلاً عما تزوّدنا به الصلاة من النشاط والحيوية، وما تعوّدنا عليه من القيام بواجباتنا ومسؤولياتنا بأمانة، وإخلاص، فكأنَّما هي طاقة روحية لتمدَّ الإنسان بالعوامل التي تساعد على سلامة صحته البدنية والنفسية..

قال ابن القيم الجوزية في فوائد الصلاة: «وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحه وابتهاجِه ولذتِه، أكبر شأن. وفيها من اتصال القلب والروح بالله وقربه، والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظَّه منها، واشتغاله عن التعلق بالمخلوقات وملابستهم ومجاورتهم، ما صارت به من أكثر الأدوية والمفرِّحات، والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة. وأما القلوب العليلة، فهي كالأبدان العليلة لا تناسبها الأغذية الفاضلة؛ فالصلاة من أكبر المعونات على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلب، ومَطْرَدة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة

لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة».

الصيام

الصوم في الأصل الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو مشرباً، أو كلاماً أو مشياً. ولذلك قيل للفرس الممسك عن العلف أو السير: صائم.

قال الشاعر:

خَيْلٌ صِيامٌ وأُخْرَى غيرُ صائِمَةٍ

والصوم بمعنى الإمساك عن الكلام هو ما جاء على لسان مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1].

وأما الصوم الوارد في الآية ١٨٥ من سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فهذا الصوم في شهر رمضان لا يعني فقط الإمساك عن تناول الطعام والشراب، منذ الفجر وإلى الليل، وإنما أيضاً الإمساك أو الامتناع عن كل فعل حرام، وعن كل قول مكروه، وعن كل نيّة سوء.. فهو صوم جامع لصون الناس في أنفسهم وحقوقهم، بل هو دافع لكل خير وصلاح لبني آدم. وهذا ما هو مطلوب من المسلمين ممارسته خلال شهر رمضان المبارك من كل سنة، علَّ في مجاهدة أنفسهم خلال هذا الشهر ما يسوّيها

(١) سورة مريم، الآية: ٢٦.

ويجعلها أقرب للاستجابة إلى الله تعالى ـ نيّةً وعملاً وقولاً ـ طوال أشهر السنة الأخرى، بحيث تصوم الأنفس عن الشهوات والنزوات، وتقلع عن الشوائب والزلاّت، فيعمر الإيمان في القلوب، وتطيب الأنفس وترتاح الأبدان.

والصوم، في الأصل، فريضةٌ فرضَها الله تعالى على كل بني آدم، في أي بيئةٍ أو زمانٍ عاشوا، يقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(1)، فهذه أولى بشائر الصيام ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، أي لعلَّ في صيامكم ما يعينكم على التقوى، العنصر الأهم والأفعل في اتقاء المعاصي والسيطرة على الدوافع والانفعالات، وتقوية الإرادة في مغالبة أهواء النفس..

والامتناع عن الطعام والشراب في الصيام، يؤدي حتماً إلى الإحساس بالجوع والعطش، بما يحمل على مشاركة الجائعين والمساكين ويدفع إلى إطعامهم ومساعدتهم، فيقوى لديهم حسُّ المسؤولية الجماعية.

وللصيام فوائد بدنية ونفسية أخرى كثيرة: فالامتناع عن الطعام والشراب ينقي الدم ويريح المعدة، وينشّط مختلف أعضاء البدن كي تتخلص من رواسب كثيرة قد تسبِّب بعض الأمراض، ثم إنَّ الصبر على الجوع والعطش يعوّد الإنسان على احتمال المشقات، ومتاعب الحياة، وتحمل الآلام، فتقوى لديه العزيمة، والثقة بالنفس، وصلابة الإرادة. كما أنَّ الامتناع عن المحرمات، وعن الأذى والسوء بكل

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

الأشكال، يبعد النفس عن مسببات القلق والاضطراب، ويغمرها بالأمان الذي يجعلها مطمئنة لعدم اقتراف الأخطاء والسيئات التي تجلب، عادةً، كراهية الناس، ومقت الله تعالى..

وأهم فوائد الصيام شعور المؤمن بأدائه طاعة من طاعات الله تعالى، وأنه موعود بجزاء عظيم على هذه الطاعة. ففي الحديث الشريف كما في صحيح مسلم: **«الصيامُ جُنَّةٌ (مانع من المعاصي)، فإذا كانَ أحدُكُمْ صائِماً فلا يَرفُثْ، ولا يَجْهَلْ، فإنْ قاتلَهُ امرؤٌ أو شاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إنّي صائِمٌ، مرَّتَيْنِ. والذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ لَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطيبُ عندَ الله مِنْ ريحِ المِسْكِ»**[1]. وعن الرسول ﷺ أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في الحديث القدسي: **«كلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إلاَّ الصومُ فإنهُ لي وأنا أَجْزي به، والحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثالِها»**[2].

وفي فضائل شهر رمضان المبارك ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ خطب هذه الخطبة المباركة، فقال:

«أيُّها الناسُ، لقد أقبَلَ إليكُمْ شهرُ رمضانَ بالبركةِ والرحمةِ والمغفرة، شهرُهُ أبْركُ الشهور، وأيامُه أفضلُ الأيام، ولياليه أفضلُ الليالي، وساعاتُهُ أفضلُ الساعات. وقد دُعيتُمْ فيه إلى ضيافةِ الله، وجُعِلتُم فيه من أهلِ كرامتِهِ، أنفاسُكُمْ فيه تسبيحٌ، ونومُكُم فيه عِبادَةٌ، وعملُكُم فيه مقبولٌ، وَدعاؤكُمْ فيه مُستَجَابٌ، فاسْألوا الله ربَّكُمْ بِنيّاتٍ صادقةٍ وقلوبٍ طاهرةٍ أنْ يوفّقَكُمْ لصيامِهِ وتلاوةِ كتابِهِ، فالشقيُّ من حُرِمَ غُفرانَ الله فيه، فاذكروا بجوعِكُم وعطشِكُم جوعَ يومِ القيامةِ

---

(١) صحيح مسلم، باب الصيام، ص١٦٠.

(٢) صحيح البخاري، باب الصوم، ص٥٥.

وعَطَشِهِ، وتصدّقوا على فقرائِكُمْ ومساكينِكُمْ، وَوقِّرُوا كِبارَكُمْ وارحَمُوا صِغارَكُم وصِلُوا أرحامَكُمْ؛ وغُضّوا عمَّا لا يَحِلُّ النظرُ إليه أبصارَكُمْ، وعمَّا لا يَحلُّ الاستماعُ إليه أسماعَكُمْ؛ وتحنّنُوا على أيتام النّاس يَتَحَنَّنُ الله على أيتامِكُمْ. وتُوبُوا إلى الله من ذنوبِكُمْ، وارْفَعُوا إليه أيدِيَكُمْ بالدُّعاءِ في أوقاتِ صلواتِكم، فإنها أفضلُ الساعاتِ يَنظُرُ الله عبادَهُ فيها بالرحمة، ويجيبُهُمْ إذا ناجَوْهُ، ويُلبيّهِمْ إذا نادَوْهُ، ويستجيبُ لهم إذا دعَوْهُ.

أيُّها الناسُ، مَنْ حَسُنَ في هذا الشهر خُلُقُهُ كان له جَوازٌ على الصِّراطِ يومَ تزِلُّ فيه الأقدامُ، ومَنْ خفَّفَ فيه عمَّا مَلَكَتْ يمينُهُ خَفَّفَ اللَّهُ حسابَهُ. ومن كَفَّ فيه شَرَّهُ كفَّ الله عنه غَضَبَهُ يومَ يَلقاهُ؛ مَنْ وَصَلَ فيه رَحِمَهُ وَصَلَهُ اللَّهُ برحمتِهِ يومَ يلقاهُ؛ ومَنْ تَطَوَّعَ فيه بصلاةٍ كُتِبَ له براءَةٌ مِنَ النّارِ؛ وَمَنْ أدَّى فيه فَرْضاً كانَ له ثوابُ مَنْ أدَّى سبعينَ فريضةً فيما سِواهُ مِنَ الشُّهور؛ ومن كَثَّرَ فيه مِنَ الصلاةِ ثَقَّلَ اللَّهُ مِيزانَهُ يومَ تَخِفُّ الموازينُ؛ ومَنْ تَلَا فيه آيَةً مِنَ القُرآنِ كانَ له أجرُ مَنْ خَتَمَ القُرآنَ في غيرِهِ.

أَلَا إنَّ أبوابَ الجنَّةِ مُفتَّحَةٌ فِيه، فاسْأَلُوا ربّكم أنْ لا يَغْلِقَها عنكُم، وأبوابَ النّارِ مُغَلَّقَةٌ فاسْأَلُوا رَبّكُمْ أَنْ لا يَفْتَحَها عليكُم، والشياطينَ مغلولةٌ فاسْأَلُوا ربّكُمْ أنْ لا يُسَلِّطَها عليكُمْ».

الـزكاة

أصل الزكاة النمو الحاصل من بركة الله تعالى. ويعتبر ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية. .

يقال: زكا الزرع يزكو، إذا حصل منه نموٌّ ففاض في الخير والبركة؛ وقد ورد في القرآن الكريم الزكو بمعنى الحلال، وذلك أنَّ أهلَ الكهف بعد أنْ بعثهم الله تعالى من مرقدهم رأوا أنْ يبعثوا بأحدهم إلى المدينة ليأتيهم بالزاد من الغذاء، على أنْ يتفحص أيُّها أزكى طعاماً، كما بيّنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[1]، أي فليأت منها بالحلال الطيّب لأنَّ الحلالَ لا يُستوخَمُ عقباه كما الخبيث من الطعام وغيره..

والزكاة في الإسلام، هي طاعة لله تعالى بما يخرجُ المسلم من ماله ليطهِّرَهُ به؛ وقد فُرضت الزكاة لتوزَّعَ على أصحاب الحق فيها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[3].

ومن هذه الآيات أو غيرها التي وردت فيها «الزكاة» نستدلُّ على أنها أداء الحق المعلوم من المال على القدر الذي فرضَهُ الله تعالى ـ وبيّنه رسول الله ﷺ ـ على الموسرين حقاً لأصحابها. وقد سميت الزكاة أيضاً «صدقة» لأنها تدلُّ على صدق العبد في طاعة ربه، وعبادة خالقه ورازقه.

إذاً فالزكاة قدرٌ من المال، يؤخذ من قدر مخصوص، ويعطى لقوم مخصوصين. وقد حدَّدهم الذكر الحكيم بأنهم الأصناف الثمانية الذين أوردتهم الآية ٦٠ من سورة التوبة وزادت عليهم الآية ٢٥ من

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤ و٢٥.

سورة المعارج «السائل والمحروم» أما السائل فهو الذي يسأل عن حقه ويطالب به، بينما المحروم هو الذي حرم نفسه حق المطالبة بترك السؤال.. والسائل والمحروم يمكن أنْ يُكَنَّى بهما عن جميع الناس الذين وقعوا في العسر، وغلبتهم ظروف الحياة، فجعلتهم فقراء محتاجين لا يقدرون على كسب عيشهم، فجاء الإسلام ليخلّصهم من العوز والحاجة بما فرضَ في أموال الأغنياء من حقٍّ لهم، بقدر محدّد، وهذا ما يقرّب الناس بعضهم إلى بعض، ويحافظ على كرامتهم، ويؤلف بين قلوبهم.

والزكاة جعلها الله تعالى ركناً من أركان الإسلام، نظراً لأهمية مفاعيلها النفسية والمادية على الفرد وللمجتمع على حدٍ سواء، بحيث يشعر المسلمُ الغنيُّ بأنَّ عليه لأخيه المسلم الفقير حقاً، يدفعه إلى بيت مال المسلمين أو إلى الحاكم الإسلامي الذي يتولى توزيعه على المستحقين؛ وفي حال عدم وجود بيت مال المسلمين، كما هو حاصل اليوم، في البلاد الإسلامية، فلا بدَّ أن يتلمَّس دافعُ الزكاة الوجْهَ الشرعي الذي يخوّله أن يؤتي فريضة الزكاة بحقها.. المهم أنَّ على المسلم ألَّا يهمل أو يتغافل عن هذه الفريضة، لأنها السبيل الأمثل لروابط التكافل والتضامن بين أبناء المجتمع الإسلامي، فلا يعيش الفقير في ذلٍّ، ولا الغنيُّ في بطر.. على أن تطبيق نظام التكافل الاجتماعي لا يعني أن يكتفي النظام بتوزيع موارد الزكاة على مستحقيها؛ بل يتعين على الحاكم الإسلامي توفير فرص العمل لكل القادرين عليه لأن الإسلام يرفض التواكل ويحثُّ على العمل البنّاء الذي فيه خير الإنسان.. ومن مزايا الزكاة أنَّها لا تطهّرُ المالَ المأخوذة منه وحسب، بل وتطهر أيضاً نفس المزكّي، فهي إذاً وسيلة مادية

شعورية من شأنها أنْ تكبح مشاعر الطمع والبخل والشحّ لدى الغني في حرصه على المال، وأن تثير لدى المحتاج مشاعر التآلف والانتماء إلى الجماعة، من خلال الحدب عليه، والتعاطف معه، ومدِّ يدِ العون له في ضيقه وإعساره. . والزكاةُ فرضاً، كما الصدقة إحساناً، تجعل المزكي، والمتصدّق محموداً لدى الناس، أما أجره في الآخرة فهو على الله تعالى، لأنّه سبحانه لا يضيع أجرَ من أحسنَ عملاً. . وهذا كله يعني أنَّ الزكاة إنَّما ترمي إلى أنْ يتحرَّى الإنسانُ ما فيه تطهيرُهُ، وينسب ذلك تارةً إلى العبد لكونه مكتسباً للطهر كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1] أي من طهَّر نفسه، وتارة إلى النبي ﷺ لكونه واسطة في إيصال الطهر إلى نفوس الناس، باعتبار أنَّه هو المبلِّغُ أمرَ الله تعالى، والداعيةُ لتنفيذ هذا الأمر، وذلك بأنْ يأخذ من أموالهم النصيبَ المفروضَ الذي فيه التطهير والتزكية، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾[2]، وتارة تنسب لله تعالى، لكونه ـ عزَّ وعلا ـ هو الذي يطهِّر الإنسانَ بالإيمان، لقوله الكريم: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[3]. أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[4] ففيه نهيٌ وتأديبٌ عن مدح الإنسان نفسه، لأنه مذموم عقلاً وشرعاً، ولهذا قيل لحكيمٍ: ما الذي لا يحسُنُ وإنْ كان حقاً؟ فقال: مدحُ الرجلِ نفسَهُ. .

والزكاة تولّد البركة في عيش الإنسان، لأنَّ البركة هي ثبوت وملازمة الخير الإلّهي، في الشيء. .

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٩.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٢.

والخيرُ بكل أنواعه وأشكاله وغاياته مصدره الله تعالى، من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحصى ولا يُحصر، ولذلك قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة بأنّه مبارك، وبأنَّ فيه بركة.

والاعتقاد الشائع عن البركة، بأنها محض خيرٍ إلّهيٍ، هو تصور سليم من شأنه أنْ يشيع في النفس مشاعر التفاؤل والرجاء، ولعلَّ أبسط الأدلة على هذه المشاعر التحية عند المسلمين: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ، فهذه التحية تبعث في النفس السلام والطمأنينة المتأتّيين عن رحمة الله تعالى، كما تبعث فيها الرجاء بالخير الكبير لأنها تنطوي على الطلب بأنْ يمدَّ المولى الكريمُ الذين ألقيت التحيةُ عليهم ببركاته، أي نعمِهِ التي يفيض بها على عباده..

والبركة ذاتُ مدلولٍ حياتيٍّ عند الذين يعتبرونها من الخير الذي يغدقه الله عليهم، فإذا أصابَ أحدُهم تجارةً رابحةً اعتبرَ أنَّ المال الذي استثمره في تجارته كان مباركاً، أو إذا زادت غلالُ بستانه، في هذا العام، حَمَدَ الله على ما أفاضَ فيها من البركة، وإذا أثنى الناسُ على ولده علماً وتهذيباً قالوا عنه: إنَّه ولدٌ مبارك، وهكذا الأمر في كل شيءٍ من حياة الناس الذين يُعزون كل خيرٍ زائدٍ إلى بركات الله تعالى وعلى خلاف ذلك فقد لا يكفي راتب الموظف أو المستخدم لتأمين احتياجاته، فيقول: إنَّ هذا المال ليس فيه بركة، ويكون اعتقاده في قرارة نفسه أنَّ الله تعالى لم يطرح فيه البركة لأنه أنفقه بسرعةٍ غير متوقعة، وكذلك الأمر في التجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها ممَّا لا يجد فيها الناس وفرةً في الموارد، فإنَّهم يعتقدون أنَّ الله لم يحلَّ فيها البركة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم: بـ«المحق» أي النقصان، لأنَّ معنى: محقَ الله الشيءَ أي أنقصَهَ وذهب ببركته، ومنه قول الله

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(1). فالربا هو الزيادة على رأس المال؛ فعندما تضع مالاً في أحد المصارف، فإنه يستثمره مقابل فائدةٍ تُعطاها، ومن منطلق هذا الاستثمار أقبل أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة على إنشاء المصارف لاستجلاب أموال الناس وإيداعها في مصارفهم بحيث يتولون توظيفها وفقاً للطرق والأساليب المعروفة في البنوك الربوية، التي تؤمن أرباحاً طائلة، يعطون جزءاً يسيراً منها إلى المودعين نسبةً إلى المال الذي أودعه كلٌّ منهم في المصرف.. وقد نجح هذا النظام المصرفي في العالم نجاحاً منقطع النظير حتى باتَ أسيادُهُ ـ مع أرباب كبريات المشاريع الاقتصادية والمالية الأخرى ـ هم المسيطرين على كل مقدرات الناس، من هنا يمكن أنْ تتبدّى لنا حكمة الله عزَّ وجلَّ عندما حرَّم الربا في قرآنه المبين، بل وتوعَّد الذين لا يأتمرون بهذا التحريم بأنهم من أصحاب النار هم فيها خالدون..

واليوم، وأكثر من أي وقت مضى، يدل واقع الحياة على أنَّ النشاط البشري يقع في معظمه تحت مظلة النظام المصرفي الربوي ولا ريب، فالنشاطات الاقتصادية والمهنية المألوفة في حياة الناس، والنشاطات غير المألوفة ولاسيما الإجرامية منها التي تقوم على تجارة الأسلحة والمخدرات، والمراهنات، والقمار، وتجارة الرقيق الأبيض

(1) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٥ و٢٧٦.

ـ بل والمتاجرة بالأطفال ـ وتبييض الأموال وما إلى ذلك. . كل تلك النشاطات عمادها المصارف في العالم، أما الآثار المترتبة على ذلك فظاهرةٌ للعيان كظهور الشمس في كبد النهار: فالأغنياء مشغولون بزيادة ثرواتهم، وتقوية نفوذهم، والمحتاجون والفقراء وأبناء الطبقات الوسطى يلهثون وراء لقمة العيش، ولا يحصلون عليها إلّا باستغلال جهودهم واستنفاد طاقاتهم!. . ولذلك كان التحكّم بثروات المجتمع في أيدي أولئك الأغنياء وأصحاب النفوذ!. فلا عجب إنْ كان الأغنياء والفقراء يتقاربون في المعاناة من الانهماك، والقلق، والأمراض العصبية والعقد النفسية. . فالفئة الأولى تعاني من تكثير المال، والفئات الأخرى تعاني من قلّته، وكلُّ واحدٍ من الناس يلهثُ وراء اهتماماته الشخصية، وهي كثيرة ومتنوعة، بما جعل النفوسَ خاويةً ـ إلى حدٍّ بعيد ـ من القيم المعنوية بسبب طغيان المادة. . ولعلّنا نستشفُّ من ذلك بعضاً من معاني ما ورد في النص القرآني المذكور آنفاً، عندما يشبّه الذين يشتغلون بالأموال الربوية في تصرّفهم وتحرّكهم التي تنم دائماً عن الانهماك والعصبية، وكأنَّ المرابي قد مسَّهُ المال بعقله، فصار يتصرَّف مثل الذي أصابه الشيطان بمسٍّ من الجنون في رأسه، فتراه يترنَّح ويتقلَّب. . بحيث لا يهدأ له بال!. . أليس هذا هو تماماً مشهد أصحاب الأموال الربوية في حركتهم التي لا تنقطع؟!.

أما تلك الأموال الربوية التي يريدون الحصول عليها، فالله تعالى يمحقها بالنقصان من حيث لا يدرون. .

ولو سألَ سائلٌ: ولكن كيف يمحق الله الربا، في حين أنَّ المرابي، فرداً أو مصرفاً، يحصل دائماً على زيادة في رأسماله؟ هذا صحيح وفقاً للمنطق الربوي، ولكنْ لو تبصّرنا بحياة الذين يشتغلون

بالربا، لوجدنا ـ في الغالب ـ أنَّ المحق الذي عناه القرآنُ الكريمُ لا يقتصر على النقود، أو العقارات، فهم يعملون في البورصات وأموالهم عرضة للخسارة مثل الربح، أمَّا الأهم، فهذا المحق الذي يطال المرابي في صحته، أو في تسليط من هو أقوى منه على مقدراته، كما قد يكون المحق في انصراف أولاده إلى الجريمة أو المخدرات، أو الشذوذ الجنسي، أو التبذير، وغيرها من الأمور التي تؤدي غالباً إلى نقصانٍ في المناعة النفسية والجسدية. .

ثم إنَّ القرآن الكريم يؤكد من ناحية أخرى أنَّ الربا الذي يريدون منه زيادة أموالهم، ليس له أية قيمة أو اعتبار عند الله تعالى، وخاصة أنَّه لا يجزي صاحبه أي ثواب في الآخرة، بل يزيده عذاباً على مقدار الزيادة التي تحصّلت لديه من الربا في الدنيا. .

من هنا يمكن القول إنَّ الزيادة المعقولة المعبَّر عنها بالبركة مرتفعة عن الربا، أي لا تأتي من الربا بتاتاً، ولذلك كان اعتقاد أهل الإيمان بأهمية البركة في حياتهم اعتقاداً صحيحاً، إذ في نظرهم ليست البركة في الكسب الحلال وحسب، ولا في كثرة الإنتاج ووفرة الموارد التي قد ينعم الله تعالى بها على بلدٍ دون آخر، أو على شعب دون شعبٍ، بل البركةُ أيضاً في دفع الاضطرابات النفسية، والأمراض العصبية وغيرها من الشدائد التي قد تحتاج إلى الأمان النفسي عند الناس. . وهذا ما يعوّل عليه أصحاب البركة، لأنهم يعتبرون أنَّ الله تعالى عندما يبارك شعباً من الشعوب، أو أمَّةً من الأمم فإنما يجعلها تتمتع بالمال من خلال التعاطف والتضامن والتكافل بين أبنائها، على ما فيه خيرهم ونفعهم. فعندما يحصل الإنتاج ويجري الإنفاق بما يرضي ربَّ العالمين، فإنَّه سبحانه وتعالى هو الذي يفيض البركات في

الإنتاج، ويوفر الطمأنينة في النفوس بالإنفاق.. ولذلك أودع ربُّ العالمين في قرآنه الكريم أوامرَه السنية التي تفرض الزكاة، والصدقة على ذوي المال حتى تتوزَّع حواصلها على مستحقّيها، فلا يبيت جائعٌ من شَبَع غنيٍّ، ولا يُحرم سائلٌ من رأفة متصّدقٍ أو مُحسنٍ..

ويشير القرآن الكريم إلى معاني البركة في ٣٢ موضعاً منه، وكلُّها تتجمَّلُ بالثناء على الله تعالى في تمجيده وتعظيمه وتقديسه، وبالإشارة إلى ثبوت الخير الإلهي في الإنسان المبارك، أو الشيء المبارك الذي فيه ذلك الخير، ومن قبيل ذلك:

- تنزيه الله تعالى في ملكه وسلطانه وقدرته، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)].

- وصف القرآن بأنه كتاب مبارك، تنبيهاً إلى ما يفيضُ فيه من الخيرات الإلهية، قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(٣)]، فهذا القول الكريم يحمل بالإضافة إلى كون القرآن مباركاً، دعوةً صريحةً للناس باتّباع نصوصه والعمل بأحكامه، واتّقاء محارمه من مثل الكفر والشرك والربا، رجاءَ رحمة الله تعالى...

- بشارة الوحي إلى نوح عليه السلام بأنْ يهبط هو ومن معه من أصحاب السفينة، بسلامٍ من الطوفان العارم الذي غطَّى

(١) سورة الملك، الآية: ١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٥.

الأرضَ، وببركات من الله تعالى تتنزَّل عليه، وعلى أمم من المخلوقات التي حملها معه في الفلك، قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[1].

ـ وصف المسجد الأقصى بأنه مبارك من ربّ العالمين، وأنَّ المناسبة لهذا الوصف هي مباركة أيضاً، عندما أسرى الله تعالى بالنبي محمد ﷺ ليلاً من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي باركه سبحانه، وبارك حولَهُ بالأرض الطيبة وما فيها من الخير، قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[2].

ـ تشريف السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بأنْ جعله ربُّهُ تعالى مباركاً أينما كانَ، وكيفما كان، في قيامه وقعوده، في صلاته وزكاته ما دام حيّاً على هذه الأرض، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[3].

ـ مباركة الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام ببعثه نبيّاً رسولاً، في وسط النار المقدسة، ومباركة من حولها من الملائكة الذين يسبحون الله ربَّ العالمين، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣١.

(٤) سورة النمل، الآية: ٨.

- مباركة الأرض التي نحيا عليها بالخيرات الوفيرة التي تمدّنا بكل أسباب الحياة، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾[1].

- الوصية للمسلمين بأنَّ عليهم أن يتجمَّلوا من أدب الحياة بالتحية المباركة الطيبة التي تحمل معاني السلام، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾[2]. فإذا دخلتم أيها المسلمون بيوتاً لكم لا أهل فيها فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنَّ الملائكة ترد عليكم بهذه التحية المباركة الطيبة قائلة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا كان بها أهلٌ فسلموا عليهم بالقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

كل تلك المعاني الجميلة تبيّن ما للشعور بالبركة أو التبرّك من تأثير على نفس الإنسان تجعله يطمئن إلى عناية الله عزَّ وجلَّ، ولطفه بعباده وهو يشيع سبحانه في كل شيءٍ من حولهم الأمن والسلام، ويفيض على كل شيءٍ من حولهم بالخير والبركة.. وتتلاقى المشاعرُ على معاني البركة والزكاة لترفد النفس بمقومات تطهيرها، وحبّها الخير، والالتزام بالطاعة.. ومن هنا كان حرص الإسلام على تلك القيم، ولاسيما الزكاة باعتبار أنها واجبة بضرورة الدين، ولذا قرنَها الله تعالى بالصلاة في آي من الذكر الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا

(١) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٦١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[2].

والرسول الأكرم ﷺ يقول: «**لا يَقبَلُ اللَّهُ تعالى صلاةَ رجلٍ لا يُؤدّي الزكاةَ حتى يجمَعَهما، فإنَّ اللَّهَ تعالى قد جمعَهُما فلا تفرِّقوا بينهما**»[3]، وعن أنسٍ ﷺ أنَّ رجلاً من تميم سألَ رسولَ الله ﷺ كيف ينفقُ مالَهُ، فقال ﷺ له: «**تُخرِجُ الزكاةَ مِنْ مالِكَ فإنَّها طُهرَةٌ تُطهِّرُكَ، وتَصِلُ أقرباءَك، وتعرفُ حقَّ المسكينِ والجارِ والسائل**»[4]. وروى الطبريُّ، وأبو نعيم، والخطيبُ عن ابن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**حصِّنُوا أموالَكُمْ بالزَّكَاةِ، وداوُوا مَرْضَاكُمْ بالصَّدَقةِ، وأعِدُّوا للبَلاءِ الدُّعاءَ**»[5]؛ كما أنَّه ورد في كتاب (وسائل الشيعة) أنَّ أميرَ المؤمنين علياً ﷺ قال: «**سُوسُوا إيمانَكُمْ بالصَّدَقَةِ، وحَصِّنُوا أموالَكُمْ بالزَّكاةِ، وادْفَعُوا أَمْواجَ البَلاءِ بالدُّعاء**».

... فكل تلك القيم التي يحث الإسلام على تدبّرها، واتّباعها: من الشعور بالبركة والخير، وتطهير النفس والمال بالزكاة، والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء.. كل هذه القيم جديرة بأنْ تجعل الإنسانَ يرتقي في حياته. سواء بالتخلّق بالخُلُق الرفيع، أو القيام بالعمل الصالح، ونشر الخير، فيُثني الناسُ عليه، ويحبُّونه ويقدّرونه، ما يُشيع في نفسه الرضا والاطمئنان، ويقوّي فيها مشاعر الأمل والرجاء.

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) كنز العمال رقم ٢٥٧٨٨.

(٤) أحمد بن حنبل، ج٣. ص١٣٦.

(٥) المعجم الكبير للطبراني، حديث رقم ١٠٠٤٤.

ولا بدَّ، أخيراً، من الإشارة إلى التحذير الذي أطلقهُ رسولُ الله ﷺ في وجْه الأغنياء الذين ظلموا الفقراء، فقد رُويَ عن عليٍّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياءِ مِنَ الفقراءِ يومَ القيامة. يقولون: ربَّنا ظلمونا حُقوقَنا التي فَرَضْتَ لنا عليهم، فيقول عزَّ وعَلا: وعِزَّتي وجَلالي لأُدنينَّكُمْ ولأُباعِدَنَّهُمْ، ثم تَلَا ﷺ قولَ الحقِّ تبارَكَ وتَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾(١).

الحـجّ

الحجُّ ـ في اللغة ـ هو القصد بصورة مطلقة؛ أو كثرة القصد لشخصٍ أو شيءٍ تعظّمه. وأصل الحج: القصد للزيارة. والحجُّ في تعارف الشرع: قصد المسجد الحرام إقامةً للشعائر والنسك التي فرضها الله تعالى على المسلمين في شهر ذي الحجة من كل عام.

والحجُّ هو أحد الأركان في الإسلام، فقد جعل الله تعالى الكعبة الشريفة أول بيتٍ لعبادتِهِ في الأرض، إذْ ترجع في عهدها الأول إلى أبي البشرية آدم عليه السلام . . حتى إذا انقضت الأزمنة، وتهدَّم ذلك البيت العتيق بفعل العوامل الطبيعية من الزلازل والأعاصير والسيول، وحتى إذا بَعثَ الله إبراهيم عليه السلام نبيّاً في الدين الحنيف، نزل إليه الأمرُ الجللُ من ربه بأنْ يعيد بناء البيت، فيرجعَ إلى سابق عهده، مكاناً يقصده الناس للعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ

---

(١) الطبراني، المعجم الأوسط، ج١١، ص٢٧، حديث رقم ٤٩٦٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

وكانَ أيضاً أمرُ الله ـ عزَّ وعلا ـ لإبراهيم عليه السلام أنْ يُنادي في الناس بالحج إلى بيت الله الحرام بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾(٢).

وكان لا بُدَّ أنْ يتغلغلَ نداء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في أعماق الزمان، فيظلَّ دعوةً قائمةً للناس، ليقصدوا بيت الله الحرام حاجّين، طائفين، معظّمين حرمات الله عزَّ وجلَّ لأنَّ ذلك خيرٌ لهم عند ربهم.. وهذا ما أبقى الكعبة الشريفة حرمةً في النفوس، فكانوا يقصدونها، حتى في أيام الجاهلية، وهم على الوثنية والشرك، من سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليحجّوا إليها آمنين من القتال والنزاع، موفين نذورهم، مطوّفين حولها، معظمين حرمات الله تعالى (لأنهم كانوا يقرون بحقيقة وجود الله ولكنّهم كانوا يعبدون الأصنام لتقرّبهم إلى الله زلفى).

ونزل القرآن الكريم على قلب محمد ﷺ ليزيد الكعبة تشريفاً وتعظيماً لأنّها أولُ بيت وضع للناس بمكة مباركاً وهدى للعالمين، وقد فرضَ سبحانه على المسلمين حجَّ هذا البيت من استطاع إليه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٧ ـ ٣٠.

سبيلاً، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾[2]. وبذلك كان الحجُّ أحد الأركان في الإسلام، وفريضةً على كل مسلم، ومسلمة لأداء المناسك والشعائرَ، كما علَّمها رسولُ الله ﷺ للمسلمين منسكاً منسكاً، وشعيرةً شعيرة..

ولكنْ ما يلفت الانتباه في النصوص القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الحج أنَّها لا تخاطب المسلمين وحدهم، بل تتوجه إلى جميع الناس: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾.. فهذه الآيات من جملة النصوص الأخرى في القرآن المجيد التي تجعل الإسلام دعوةً عامة لجميع الناس، بل وديناً للعالمين، لأنَّ الدين عند الله الإسلام، فمن ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه.. وهذا القرآنُ، كتابُ الله تعالى، مفتوح على مصراعيه لمن شاءَ أنْ يعلم ما أنزل ربُّ العالمين فيه من هدى وخير، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، وما الله بظلاَّمٍ للعبيد..

أمَّا قدسية الكعبة الشريفة في نفوس المسلمين، فليس كونها بيتاً من حجر ومدر ـ كما يحلو للبعض أنْ يتوهم ـ بل لأنَّ الله تعالى

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦ و٩٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

شرَّفها، وزادها تشريفاً وتكريماً، وباركها في قرآنه المجيد، فكان عبادةً، وشرفاً للمسلمين، أنْ يزوروها حاجّين ومعتمريْن كما أمرهم ربُّ العالمين. . على أنّه لا بدَّ أن نشير إلى تلك القدسية لكعبة الله عزَّ وجلَّ، ومن خلال النصوص القرآنية بالذات:

- فهي قبلة المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾[1]، ولذلك فهم يتوجهون إليها خمس مراتٍ في اليوم لإقامة فريضة الصلاة المكتوبة، وفي كل نافلةٍ أو عبادةٍ يتوخَّون فيها وجْهَ الله ربهم طائعين مختارين. .
- وهي مثابة للناس يأتون إليها من كل فجٍّ عميقٍ، من جميع الأمصار والبلدان تجمعهم الأخوة الإسلامية، فلا يفرق بينهم جنس، أو عرق، أو لونٌ أو لغة، ويحدوهم نفس الأمل في قبول أعمالهم وغفران ذنوبهم.
- وهي أمنٌ للناس، ليس بتحريم القتال عندها أو في جوارها وحده، بل ـ ولعلَّه أهمُّ من القتال بكثير ـ وذلك بجعلها أمناً للنفوس من غوائل الذنوب التي يكون المسلم قد ارتكبها في غفلةٍ، فجاء يتضرّع إلى ربه بالتوبة والمغفرة حتى يأمن على نفسه من عذاب الآخرة؛ فالحجُّ، أو العمرة أمانٌ وأمنٌ للناس في الدنيا والآخرة، فسبحان مَنْ قضى للبيت العتيق بهذه العزّة والمكانة. .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.

- وهي البيت الحرام، الطاهر، والمطهَّر من رجس المشركين والكافرين، فمن قصدَهُ فإنما جاءَ ليطهِّرَ نفسَهُ وجوارحَهُ طوافاً، وركوعاً وسجوداً، في عبادةٍ خالصة لرب العالمين.

- ولعلَّ أجلّ ميزة للكعبة الشريفة أنّها البيتُ الحرامُ الذي نسبَهُ الله عزَّ وجلَّ لنفسه القدسية، بقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢)، وقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾(٣).. وبالفعل فهذه الأفئدة المؤمنة تتدفق إلى بيت الله الحرام في موسم الحج، وعلى مدار العام للعمرة، وفي نفس كل مؤمن شوق لرؤيته البيت، وشعور بالعبودية لله، واللجوء إلى كنف بيته الطاهر بنيّةِ التعبُّد والطاعة، بعيداً عن كل مشاغل الحياة، وهمومها، وأثقالها وأَعراضها، علَّ ربَّهُ الكريم يغفر له ذنوبه، ويكفر عنه سيئاته..

ومن منطلق هذه المفاهيم الإيمانية والتعبّدية، فإنَّ من مقاصد الحجِّ أنْ يحاسِبَ كلُّ حاجٍّ نفسَهُ محاسبةً دقيقةً على ما آتاه من ماضي أيامه من خيرٍ أو شرٍ، من نفع أو ضررٍ، ومن طاعةٍ أو معصيةٍ، ثم يتعهد بين يدَيْ سيِّده ومولاه، وفي رحاب بيته الحرام، وفي وقفة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

عرفة، وفي رمي الجمرات، وأثناء كل شعيرة يقوم بها. . أجل يتعهد لخالقِهِ وبارئه، بنيّةٍ خالصةٍ واستسلامٍ تامٍّ بالإقلاع عن المعصية، والاستقامة على الطاعة. ومثل هذا التعهّد لله العلي العظيم من شأنه أنْ يريحَ النفس من أثقالها، وأنْ يسموَ بها إلى معارج الطهر والاطمئنان، ويفسح للمؤمن، بعد حجة الإسلام التي قام بها، في حياةٍ هادئةٍ، بعيدةٍ عن الاضطراب النفسي، والقلق، والتعاسة. .

عن الحسن بن عليٍّ عليه السلام أنَّ رجلاً جاءَ إلى رسول ﷺ يشكو حاله، وعدم احتمالِهِ المشاركةَ في قتالِ الأعداء، فقال له الرسول الأكرم: «**هَلُمَّ إلى جهادٍ لا شوكةَ فيه: إلى الحجّ**»[1]، ومن موجبات الحاجّ الالتزام قولاً وفعلاً بأدب الحديث أثناء حجّه، وعدم التفكير، أو الإتيانِ بأي خطأ مهما كان نوعه لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾[2]. ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾، فهذا النهيُ يكفي ما فيه من قهرٍ للنفس والجوارح عن الانفعالات، وكبحٍ عن الشهوات، حتى يُبعد الحاجّ من نفسه كلّ خبثٍ يكون قد علق بها من قبل، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تَابِعُوا بينَ الحَجِّ والعُمرةِ، فإنَّهما يَنْفِيانِ الفقرَ والذنوبَ كما يَنفي الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضة. وليسَ للحِجَّةِ المبرورةِ ثوابٌ إلاَّ الجنّة**»[3].

(١) كنز العمال، حديث رقم ١١٧٩٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٣) أحمد بن حنبل، ج٣، المناسك، ص٤٤٦.

هذا فضلاً عن أنَّ الحجَّ في أيامٍ معلوماتٍ يشعر الحجيج بالمساواة التامة، وهم في ثوب الإِحرامِ الذي لا نظيرَ له في دنيا الناس، بحيث يرى فيه الفقيرُ نفسه بجانب الغني، والمحكومُ رفيقَ حجٍّ مع الحاكم، والمَسودُ كتفاً إلى كتفٍ مع السيد، فلا فرقَ بين شخصٍ وآخر إلّا بمقدار ما في نفسه وجوارحه من شعور بالإجلال، والإخلاص لله تعالى. ولعلَّ في ذلك ما يذهب كثيراً من غلّ النفوس، ويجعل المسلم يشعر بإنسانيته، ومكرمته.. وليس ما يحول دون تلك المشاعر من أنْ تشكل عواملَ تقويةٍ للنفس، للتخلص من رواسب العقد التي تكون قد استحكمت فيها، وعواملَ استعدادٍ لمواجهة أعباء الحياة من جديد، بالجدّية، والصبر، والأناة، والتسامح، والمحبة..

وقد يلاقي الحجيج، من الناحية البدنية، بعض التعب والمشقة في القيام بالشعائر، والانتقال بين مواضع المناسك، وخاصة من شدة الازدحام، والتسابق على أداء الطاعات، ما يستدعي التروّي والصبر، وعدم التدافع الذي يزيد في الإِرهاق.. ومع ذلك فإنَّ تلك الصعوبات سرعان ما تتبدَّدُ أتعابها، وتزول آثارها بما يولِّد لدى الحاجّ عزماً على اتباع نمطٍ جديدٍ في حياته، وتوجُّهٍ مختلف نحو الأفضل والأحسن، حتى ليشعر الحاجُّ بعد عودته إلى دياره بنوعٍ من الانقلاب على ماضيه، وكأنَّ كلَّ شيءٍ قد تبدَّل لديه، بحيث تغدو مشاعره مفعمةً بالأملِ لمتابعة حياته على طريق الطاعة والاستقامة، وبذل كل جهدٍ لطمأنةِ الآخرين من حوله، بل والعمل على إسعادهم ما أمكنه.. وداعيه الأوحد، في كل ذلك، قبول أعمالهِ من ربّه عزَّ وعلا...

ولا ريب بأنَّ المعاني التي يخلّفها الحجُّ في نفس المسلم،

ولاسيما الرجاءُ بغفران ذنوبه، من شأنها أنْ تحصِّنَهُ من الضلال، والانحراف وللآخرين، فيعيشَ آمناً مطمئناً. . .

هذا عن العبادات: الصلاة، الصيام، الزكاة والحجّ.

أمّا بالنسبة إلى القيم الإسلامية الأخرى، وهي في أبعادها الإنسانية، لا تقلُّ أهميةً عن العبادات، فإنَّها كثيرة جداً، وقد جَعَلَ القرآنُ الكريم اتّباعها بمثابة غذاءٍ معنوي لنفوس المؤمنين لما تحملُ لهم من الشفاء والرحمة، وسوف نتبين معالم بعضٍ من تلك القيم، ولا سيما: ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، والدعاء. .

ذكر الله تعالى

يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[1].

ويتبدّى هذا الضعف في حياة الإنسان، أكثر شيء، عند قصوره وعجزه عن أداء موجباته الدينية والدنيوية، بحيث يحتاج الإنسان إلى رحمة الله تعالى للتغلب على ضعفه، ومدّه بالأسباب والمقومات التي تمكنه من مواجهة أعباء الحياة الدنيا، والسعي لنيل الآخرة. . ولذلك كان خليقاً به أنْ يعظّم الله تعالى في كل شاردةٍ وواردة، الذي وحده سبحانه قادرٌ على أنْ يجعله يتجمَّلُ بالصحة النفسية والبدنية، ويجعل حياتهُ تزدان بالمال والبنين، وتزخر بالطيبات من الرزق الوفير؟!. . على أن يقوم هذا الإنسان من جانبه بالعبادة والإنابة، والحمد والشكر، وطلب العفو والمغفرة. . وكلها ذكرٌ لله تعالى على ما هو أهله، لأنه سبحانه أهل الكبرياء والعظمة، وأهل الجود والجبروت، وأهل التقوى

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.

والمغفرة، وأهل العفو والرحمة.. فإذا جحدَ «الإنسانُ»، ولم ينصف خالقَهُ ـ والعياذ بالله ـ بما يستحق من التمجيد والتقديس، فهذا شأنه!..

أما المؤمن فإنَّ من أولى موجباته الدينية والأدبية أنْ لا يتوانى لحظة عن ذكر سيده ومولاه، لأنَّ من شأن هذا الذكر العظيم، أنْ يقوّي كلَّ نبضةٍ من نبضات قلبه على الطاعة، ويشدَّ كلَّ عزيمة من عزائم جوارحه على فعل الخير والصلاح، يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]..

وذكر الله تعالى، فوق أنه يفرض على المؤمن وجوب القيام بالعبادات والطاعات، فإنَّهُ يُعتبر من أهم عوامل الاستقرار النفسي إذا ما أنار الملك القدُّوسُ قلب الإنسان بنور الإسلام، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]، ومعنى شرح صدره للإسلام: وسَّع قلبه لقبول هذا الدين والثبات عليه؛ وشرح الصدر يكون بثلاثة أشياء: أحدها بقوة الأدلة التي نصبَها الله تعالى في كل شيءٍ، وهذا يختص بالعلماء، والثاني بالألطاف التي تتجدد للإنسان حالاً بعد حال، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[3]، والثالث بتوكيد الأدلة وحلِّ الشبهات وإلقاء الخواطر، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾، أي على دلالةٍ، وهدىً، وعونٍ من ربّه تعالى؛ فقد شبَّه الأدلة بالنور لأنَّ بها يُعرف الحقُّ، كما بالنور تُعرف حقائق الأشياء.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

وبهذا النور الرّباني يمتلئُ قلبُ الإنسان بالإِيمان الصادق، فيُقبل على طاعة ربه وعبادته، في حين أنَّ الذين ألفوا الكفر، وتعصبوا له حتى تصلبت قلوبهم فلا يعود ينفع معها وعظٌ، ولا حكمةٌ، ولا ترغيبٌ ولا ترهيب، فأولئك الذين قست قلوبهم فلا تتحرَّك عند ذكر الله عزَّ وعلا، أو عند سماع تلاوة القرآن، لا بل وكثيراً ما تشتدُّ قساوة قلوبهم من ذكر المؤمنين لله تعالى، فكأنما يجدون في هذا الذكر ما يحبط أهواءهم في مطامع الدنيا، دون أنْ يدركوا بأنَّ الله هو الذي يقلّب القلوب كيف يشاء، ولو شاءَ أنْ يؤمنوا لآمنوا رغماً عن أنوفهم وأهوائهم، ولكنَّه سبحانه وتعالى يؤجلهم إلى يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم..

وذكرُ الله تعالى من العبادات التي لا يعدلها كلُّ ما في الدنيا من مالٍ وبنين وزينةٍ، ثواباً، وخيراً يأملُهُ الذاكرُ عند ربّه الكريم، يقول تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(١) وفسّرت «الباقيات الصالحات» بأنّها الصلوات الخمس؛ أو أنّها كلُّ عبادة يُقصد بها وجه الله تعالى، لأنَّ صالح الأعمال يقوم في الأساس على العبادات..

والرسول الأكرم ﷺ كان يحثُّ المسلمين على الإكثار من «الباقيات الصالحات»، إذ كان لديه ﷺ استشفافٌ بإلهامٍ من ربه لأمورٍ كثيرةٍ من الغيب، ومن ذلك تحذيره من حكم الظالمين الذين يجورون على الناس في مقبل الأيام، ونصحه بعدم تصديقهم أو ممالأتهم، بل العمل بتقوى الله عزَّ وجلَّ لأنها زاد المؤمن في الدنيا والآخرة، كما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

يتبيّن من حديث الرسول ﷺ بأن: **سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلّه إلّا اللّهُ واللّهُ أكبرُ، هُنَّ الباقياتُ الصالحات»**[1]، وكذلك قوله ﷺ: **«استَكثِروا من الباقياتِ الصالحات. قيل وما هن يا رسول الله؟ قال: «الملة» قيل وما هي؟ قال: التكبيرُ، والتهليلُ، والتسبيحُ، والتحميد، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا باللّه»**[2]؛ ولمّا سألوه عن ثواب «الباقيات الصالحات» شبهها ﷺ على أنها غرسات لهم في الجنة تنمو بالطاعة، فلا يحرقوها بنار الذنوب..

إنّها كلمات قليلة علّمها رسول الله ﷺ للمسلمين، وهي أنْ يقدّسوا الله تعالى ويمجّدوه بقولهم: **«سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلّا الله والله أكبر»** أو بقولهم: **«لا حولَ ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم»** أو بقولهم: **«إنّا لله وإنّا إليه راجعون»**.. أجل، هي كلمات قليلة ولكنّها في مضامينها وحقيقتها، أعمدةُ الحقّ الذي يقوم عليها الوجودُ كلُّهُ..

ومن تعاليم رسول الله ﷺ لأهل بيته أنَّ يسبّحوا الله تعالى ويحمدوه، فيقولوا: **«سبحانَ الله وبحمدِهِ عدَدَ خلْقِهِ ورِضا نفسِهِ وزِنَةَ عرشِهِ ومِدَاد كلماتِهِ»**...

وإذا كانَ من حق الله علينا أنْ لا نغفلَ عن ذكره لأنّه خالقُنا، وبارئُنا ومدبّرنا، فإنَّ هذا الإنسانَ وهو مجبولٌ على النسيان، غالباً ما ينهمك بمشاغل الدنيا، وقد يتوانى عن ذكر ربه.. وهنا تتجلّى ألطافه تعالى بعبده، فلا يترك مَن ينساهُ أو يغفل عن طاعته لنفسه، بل يوقظه

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة.

(٢) المستدرك على الصحيحين، حديث رقم ١٨٤٣.

من غفلته، ويوجهه بالأمر الجازم لأن يذكر ربَّهُ، ولاسيما في الأوقات التي لا يكون مأخوذاً فيها كليّاً بمطالب الدنيا، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1].

واذكر ربَّكَ، أيُّها الإنسان، بينك وبين نفسك، بابتهالٍ وتذلّلٍ لأنه الكبير المتعال، واذكره في نفسك خوفاً وخشيةً من عقابه لأنّه شديدُ العقاب.. فأنت عندما ترتكب معصية أو جرماً، وتخافُ من أنْ ينزلَ بك العقابُ على ما اقترفت يداك، فإنك تلجأ إلى مولاك الكريم، مبتهلاً خاشعاً متذللاً أنْ يقبلَ عذرك، ويغفر لك زلَّتك، فضلاً عن خوفك من أنْ يكشف سوء عملك الذي يَجرُّ عليك الخزيَ والعار.. ففي هذه الحالات التي تخشى فيها سخط الله تعالى، وتخاف من أنْ يطّلع الناسُ على قبيح عملك، لا يكون أمامك من ملاذٍ إلّا التضرّع بالسرِّ إلى ربك مسكيناً، ذليلاً مستكيناً، وسوف تجد ربك رؤوفاً رحيماً لأنه غافر الذنب وقابل التوب..

وكما يكون ذكر الله خفوتاً وهمساً فلا يسمعُهُ إلّا هو تعالى، فكذلك يمكن أن يكون دُعاءً بصوتٍ خاشعٍ فيه مناجاة العارف، المحزون، الطامع، لأنَّ المناجاة لا تكون بصوتٍ جهوري، قد يجعل الدعاءَ أقرب إلى الرياء منه إلى طلب الحاجة من المحتاج إليه، كما أنَّ ذكر الله عزَّ وعلا ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان، بل وبالقلب والوجدان، فأنت عندما تتذكَّرُ جبّاراً من جبابرة الأرض، أو ظالماً من هؤلاء الطغاة الذين يستبدون بمصائر الناس، فإنك تخشى أنْ تذكره

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

بسوءٍ على لسانك، لئلاّ يصل خبرُك إلى مسامعه فيطغى عليك!..
ولكن عندما تتذكّر الله تعالى فليكن قلبك مملوءاً بالرهبة من وعيده، لأنه جبار السماوات والأرض، وقد حذَّرك كتابه المبين وتوعَّدك في كثير من آياته كي لا تكون من الغافلين، أو الفاسدين، أو المجرمين أو المنافقين لئلا تقعد ملوماً محسوراً!..وفي مقابل الوعيد، جاء قرآنُهُ الكريم يعدك، أيها الإنسان، إنْ كنت من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، من هؤلاء الطائعين، العابدين، المحسنين والمتقين بالثواب والأجر العظيم.. والمجالات لوعد الغفور الرحيم واسعة وآفاقها رحبةٌ، فكان جديراً بك أيها الإنسان أنْ تكون مثابراً على ذكر ربك تعالى، وقد وجَّهكَ إلى السبل التي تأخذ بيدك إلى الخلاص، ودلَّك على الأوقات التي يكون فيها الذكر والدعاء أقرب إلى الاستجابة، فاذكر ربك ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ وعلى أي حالٍ تكون فيه، من اليسر أو العسر، اذكره في مطالع النهار وأواخره ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وإنْ كان ذكر الله لا ينبغي أَنْ يقتصر على هذين الوقتين، بل يجب أنْ يبقى في القلب وعلى اللسان في كل آنٍ، إلّا أنَّ الإقبال على الذكر، والإكثار منه في بدء حركة السعي بالغدوّ، ووقت الرواح بعد الفراغ من الأعباء في الآصال، يكون له تأثير أقوى على نفسك وأنتَ تطالع التغيُّرَ الواضح في صفحة الكون من ليلٍ إلى نهارٍ، ومن نهارٍ إلى ليلٍ، لأنَّ القلب أقرب ما يكون حينئذٍ إلى التأثر والتلقّي، وإلى التأمّل والاتّعاظ، وهذا ما يجعل ذكر الله تعالى، الذي بيده تعاقب الليل والنهار، ألصق في القلب وأقوى في الوجدان..

بل إنَّ في دعوة الله تعالى لعباده أنْ يذكروه في الغدوّ والآصال ما يتميَّز به المؤمنون عن الكافرين.. فالمؤمنون الذين استجابوا

لربهم، يقبلون على طاعته في الليل والنهار، وخصوصاً في مطالع الصباح، وآصال الغروب.. أما الكافرون الذين نسوا خالقهم ومدبِّرهم فلا يعرفون طاعة، ولا يعترفون بعبادة إلاَّ عبادة المال والسلطان، لقد نسوا الله، فنسيهم، وسوف يلقون جزاء هذا النسيان في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، أي فذوقوا العذاب خالدين فيه بسبب ما تعمّدتم من الكفر، وكذلك قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

والنسيانُ ليس من شرطه أنْ يؤديَ إلى الذمّ، لأنَّه من مكوّنات نفس الإنسان، ولذلك يرشدنا ربُّنا الكريم إلى أنْ نعود ونذكره إذا نسينا، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[3]، ومن بين ما ورد في التفسير ما قاله عكرمة: «معنى نسيتَ: ارتكبتَ ذنباً، أي اذكر الله تعالى إذا أردتَ، وقصدتَ ارتكابَ ذنبٍ، يكن ذلك دافعاً لك لنسيانِهِ»، لأنَّ ذكرَ المؤمن لربه يحول بينه وبين ارتكاب الذنب، فيتركه وكأنَّهُ نسيَهُ. ولذلك جاء التعقيب في الآية الكريمة ٢٠٥ من سورة الأعراف، التي تدعو إلى ذكر الله تعالى، وبخاصةٍ في الغدو والآصال، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾..

ولا تكنْ أيها الإنسان من الغافلين عن ذكر الله، لأن الغفلة من

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٤.

الشيطان، والنسيان من الإهمال، فانزع من نفسك وسوسة الشيطان التي لا تجعلك تغفل عن ذكر ربك وحسب، بل عن الحقائق كلها، فتكونَ من الذين نهى الله تعالى عن طاعتهم، أو التخلُّقِ بأخلاقهم، لقوله المبين: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1]، أو تكونَ من الذين أعرضوا عن ذكر الله فأوقعهم في البلاء الشديد، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2]..

والضَّنْكُ ـ لغةً ـ الضعيف من كل شيءٍ، وضَنَكَ الرجلُ ضَنَاكةً: ضعف في جسمه ونفسه وعقله ورأيه، فهو ضنيكٌ، وعلى هذا فالذي يُعرض عن ذكر ربّه يجعل هو ـ بيده ـ حياتَهُ كلَّها ضعفاً وضيقاً بما يعتور نفسَهُ من الحيرة والقلق، والشك في الحقائق، والقضايا الجوهرية، ويملأها بالتعب والشقاء، ولاسيما لناحية حرصه على ما بيده، وجريه وراء المطامع والأهواء، ولناحية حذره من أنْ يفوته ما يرغب، وتحسّره على هذا الفوت.. وهذا بخلاف المؤمن الذي يتعلق قلبه بذكر الله تعالى، فينجلي عنه هذا الضنك، وترتاح نفسه من أثقال هذا الضيق القاتل، لا بل ويعيش الاطمئنان والأمان النفسي في هدى الله ربه، لأنَّ قلبه مطمئن بذكر الله، لقوله الكريم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾؛ وقد جاء في الأثر عن النبي الأكرم (ﷺ) قوله: **«لا تُكثِروا الكلامَ بغيرِ ذكرِ الله، فَتَقْسو قلوبُكُمْ، وإنَّ القلبَ القاسي بعيدٌ من الله»**[3].

---

(1) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(2) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(3) موطأ مالك، ج٦، حديث رقم ١٥٦٤.

وينضوي تحت ذكر الله تعالى: تلاوة القرآن، والدعاء لله عزّ وجلّ. .

١ ـ تلاوة القرآن

إنَّ أفضل الذكر، ولا ريب، تلاوة القرآن. .

لأنَّ القرآن كتابُ الله المجيدُ، وقولُهُ الحقُّ المبينُ، فمن ينعم بشرف هداية هذا الذكر الحكيم: قراءةً، وحفظاً، وفهماً وعظةً، فقد فاز ـ والله ـ فوزاً عظيماً؛ فهو كتابٌ كريم منزلٌ من لدن عزيز حكيم؛ فيه الهدى والصلاح والفلاح، وفيه سبلُ الخلاص من الكفر والضلال، ومن الفساد والفتن التي تظهرُ وتعمُّ حياة الناس؛ قال رسولُ الله ﷺ: «ستكونُ فتنةٌ»، فسأله عليٌّ ﷺ: «فما المخرجُ منها يا رسول الله؟»، فقال ﷺ: «**كتابُ الله، فيه نبأُ ما قبلَكُم، وخبرُ ما بعدَكُم، وحُكْمُ ما بينَكُمْ؛ هو الفصلُ ليسَ بالهَزْل، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جبَّارٍ قَصَمَهُ الله، ومن ابْتَغَى الهدى في غيرِهِ أضَلَّهُ الله. وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ. وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تَلْتَبِسُ به الألْسُنُ. ولا تَنْقَضِي عجائبُهُ. ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ. ولا تَشْبَعُ منه العلماءُ. وهو الذي لم تنتهِ الجنُّ إذْ سَمِعَتْهُ أنْ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾. . مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ، ومَنْ عمِلَ بهِ أُجِرَ، ومَنْ حكَمَ بِهِ عَدَلَ، ومن دَعَا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم**»[1].

والحقيقة أنَّ القرآن الكريمَ إعجاز بذاته للإنس والجن ومن أرادَ أنْ يقفَ على مصاديق هذا الكتاب المبين، فما عليه إلَّا أن يعود إلى

---

(١) سنن الترمذي ج١٠، حديث رقم ٢٨٣١.

تلك المطولات في تفسيره.. ونحن نلفت هنا فقط إلى بعض ممّا جاءَ في القرآن الكريم من المقومات الأساسية لشفاء النفس من الأمراض التي توشك أنْ تدهم أبناء البشر جميعاً، أو على وشك أنْ تستحكم في نفوسهم؛ ومَنْ أصدقُ من الله تعالى وهو يقول بأنَّ في القرآن شفاءً لما في النفوس، وهدى ورحمة للمؤمنين، بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[٣] فهذه الآيات القرآنية واضحة الدلالة وهي تخاطب أولاً الناس جميعاً. أجل تخاطب الناس، جميعَ الناس، لتقول لهم بأنه قد جاءتكم في هذا القرآن ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

تحمل التذكير بالخير، والنصح، والحثّ، والإنذار، أو كما قيل: هي كلام الوعظ، أي الكلام الذي فيه الدعاء إلى الحسن، والزجر عن القبيح، على وجه الترغيب والترهيب، ولذلك قالوا في المثل: «السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره، والشقيُّ من اتَّعَظَ به غيرُهُ».

وأما الشفاء لما في الصدور فهو دواء النفوس من الشك والحيرة، والقلق.. وهو هداية النفوس إلى الحق، والصواب، والصلاح، وأهمها على الإطلاق هداية النفوس إلى معرفة خالقها وبارئها ومعرفة معاني الإيمان، والاستقامة، وتحقيق الأمان النفسي من تلك العاهات التي تضل فيها النفوس وتشقى...

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

أما تخصيص المؤمنين ـ بالإضافة إلى الموعظة ـ بالشفاء والرحمة، فدليله واضحٌ لأنّهم أكثر الناس مواظبةً على تلاوة القرآن، فكان من حق هؤلاء المؤمنين أنْ تغشاهم رحمة الله تعالى، وأن تحفَّ بهم ملائكة الرحمة، فتستكينَ نفوسُهم بمشاعر الإيناس والاطمئنان، وتستجيب لدواعي الإِيمان، وبخاصة ساعة يقرأون القرآن، ويتدبَّرونَ معانيه وأحكامه وعظاته، ما ينعكس رَوْحاً وريحاناً عليهم في جميع حالاتهم وأوقاتهم. . يقول ابن تيمية في أثر القرآن لشفاء النفس من أمراضها: «والقرآنُ شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البيناتِ ما يميّز الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوّر والإدراك، بحيث ترى الأشياء على ما هي عليه. . وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والقصص التي فيها عبرة، ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب في ما ينفعه، ويعزف عما يضرّه، فيبقى القلب محبّاً للرشاد، مبغضاً للغيّ، بعد أنْ كان مريداً للغي، ومبغضاً للرشاد. . فالقرآنُ مزيلٌ للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدنُ إلى الحال الطبيعي. . ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكّيه ويؤيّده، كما يغتذي البدن مما ينمّيه ويقوّيه، فإنَّ زكاة القلب مثل نماء البدن».

ولعلَّ ابن تيمية وهو يتحدّث عن القلب إنّما كان يقصد «النفس»، ليبيّن الترابط الوثيق ما بين سلامة النفس وسلامة البدن، فالصحة النفسية تنعكس حكماً على الصحة البدنية، مثلما أنَّ شفاء البدن من الأمراض العضوية ينعكس إيجاباً على شفاء النفس من

مشاعر الألم، والأرق، والخوف التي كانت تهزّها وقت المرض.

وروى ابن ماجه في سننه من حديث علي (كرَّم الله وجهه) أنَّ رسول الله ﷺ قال: «خيرُ الدواءِ القرآنُ»[1]. . أما عن أثر القرآن في الآخرة، فقد نقل عن أبي أمامة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اقرأوا القُرآنَ فإنه يَأْتِي يومَ القيامة شفيعاً لأصحابه**»[2]، وعن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كتابِ الله فَلَهُ حَسَنَةٌ، والحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها. لا أقولُ «ألم» حرف، ولكن «ألف» حرف، و«لام» حرف، و«ميم» حرف**»[3].

وعلى هذا، فقد بات من مصاديق الإِيمان أنْ نوقِن بأنَّ الله تعالى، وهو اللطيف الخبير، لم يترك نفوس الناس حيارى بلا دليل أو هداية. . بل بيّن لهم، في قرآنه المجيد، الطريق المستقيم، الذي يمكن أنْ يسلكوه إلى ربهم، وهم على بصيرة من أمرهم، ولكلٍّ أنْ يختارَ هذا الطريق فيفوز، أو أنْ يسلك غيره فيردى. . لأنَّ تبعة كل نفس لذاتها، وعلى ذاتها، وهي مجزيَّةٌ بما تكسبه من صالح الأعمال، ومرهونة بما تكتسب من الأوزار، وكل ذلك باختيار الإنسان. . . أجل لقد نزّل الله تعالى من القرآن ما فيه شفاء للنفوس من الأمراض والعاهات التي تعاني منها: لأن فيه الشفاء من الوساوس والقلق والحيرة التي تصيب الإنسان في معترك حياته، وفي تعامله مع الآخرين. فالوسوسة داء، والقلق مرض، والحيرة نصب. . فإذا أوكَلَ الإنسانُ أمره إلى ربه، وتوكل عليه ـ بعد أن يعمل بما يُرضيه ـ فإن

---

(١) ابن ماجه، طب، ص٣٨.

(٢) أحمد بن حنبل، ج٤، ص١٨٣.

(٣) البخاري، باب الإيمان، ص٣١.

قلبه يطمئن بالإيمان. والقلب المؤمن حين يتصل بربه تعالى، يسكن ويطمئن، ويستشعر الحماية والأمن، فيرضى ويستروح هذا الرضا من الله تعالى، فكان القرآن بذلك رحمةً للمؤمنين.

وفي القرآن شفاء من الهوى، والدنس، والطمع، والحسد ونزغات الشيطان. وهي آفات تصيب النفس البشرية بالسقم والضعف، والتعب، وتدفع بالإنسان إلى الانهيار ما لم يتمسك بالقرآن، فيحسّ منه الرحمة التي تصيب المؤمنين وتهديهم إلى الحق المبين.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلّة في الشعور والتفكير. فهو يعصم النفسَ من الانحراف، والعقلَ من الشطط، فلا ينفق الإنسان طاقته الشعورية والفكرية في ما لا يجدي، بل يسير على منهج سليم وبنّاءٍ، كما ينفق طاقته الجسدية باعتدال: بلا كبت ولا إسراف، فيحفَظ جسده سليماً معافىً. ومن ثم كان القرآن الكريم دواءً شافياً لنفوس العالمين أجمعين.

والشدائد التي تصيب الناس، دواؤها الاحتمال والصبر، لما فيه من حبس للنفس على ما يقتضيه العقل والشرع. فإن حُبست النفسُ وقت المصيبة، وصبرت على البلاء أعانها الله تعالى، وإلّا وقعت فريسة الجزع والهلع. وحتى عند وقوعها فريسةً للمشاعر المحزنة المضنية، فإنَّ شفاءها لا يكون إلاَّ بالصبر. وقد بشَّرَ الله تعالى في كتابه المبين المطيعين، العابدين الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على البلايا، والمحافظين على صلواتهم في أوقاتها، والمتصدقين ممَّا رزقهم الله.. هؤلاء جميعاً أمرَ الله عزَّ وجلَّ رسوله محمداً ﷺ بأن يبشرهم برحمة ربهم، والجنة، وذلك بقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[٢]. فكان في القرآن دواءٌ للصابرين المؤمنين.

وفي القرآن شفاء من علل المجتمع التي تؤدي إلى تخلخل وتفكك علاقات أبنائه، وتذهب بتعاونهم، وأمنهم وطمأنينتهم. لأنَّ في تطبيق مناهج الإسلام على حياة الناس قضاءً على المشاكل والأزمات والأوضاع الفاسدة، فيعيش المجتمع في ظل العدالة والإنصاف، والأمن والأمان، والمساواة في الحقوق والواجبات، وكل ذلك بفضل الإيمان، فيكون في القرآن الذي يهدي إلى منهاج الله تعالى شفاءً ورحمةٌ للناس أجمعين..

وفي القرآن من البيان والعظة والمعرفة ما يزيل عمى الجهل وحيرة الشك، ومن النَّظم والفصاحة والبلاغة ما هو معجزة للإشارة إلى أنه من عند الله تعالى، وإلى أنَّ النبيَّ محمداً ﷺ صادقٌ في إبلاغه للناس هذا القرآنَ المنزَّل على قلبه من رب العالمين، فالذين يصدّقونه، ويقبلون على الإسلام طائعين مهتدين تتحاتُّ عنهم أثقال الكفر والضلال، وأحمال الظلم والفساد كما يتحاتُّ الورق عن الشجرة، ولذلك كان القرآنُ رحمةً للمؤمنين.

هذا وقد أوضحنا غالبية تلك العناوين في الأبحاث التي سبقت في هذا الكتاب، فعسى أنْ ينتفع بها الناس الذين يريدون أنْ يقوا

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣٤ و٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

أنفسهم من الاضطرابات والعلل التي قد يتعرضون لها، ولاسيما أنَّ مسبباتها تحيط بهم من كل جانب..

٢ ـ الدعاء لله تعالى

لا بدَّ، قبل معرفة مزايا وفضائل الدعاء لله تعالى وآثاره في النفس، من التمييز بين السؤال والدعاء..

السؤال

السؤالُ ـ في اللغة ـ استدعاءُ معرفةٍ أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مالٍ أو ما يؤدي إلى المال.. والسؤال عن طلب المعرفة جوابه على اللسان، وقد تنوبُ اليدُ عن اللسان إشارةً أو كتابةً. والسؤال للمعرفة تارة يكون للاستعلام عن شيءٍ غير معروف لدى المستعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾(١)، أو قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾(٣). وتارةً يكون للتقريع والتبكيت كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾(٤).

والسؤال بمعنى استدعاء مالٍ يكون جوابه على اللسان واليد، كأن تطلب مبلغَ كذا من المال، فيقول: قد أُجبتَ إلى سؤلك ثم يناولك المال؛ وقد يكون الجواب بوعد كأن يقول: سأعطيك المبلغَ بعد كذا إذا شاءَ الله، وقد يكون بردٍّ، كأن يقول: آسفٌ لا أقدر على

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٤) سورة التكوير، الآيتان: ٨ و٩.

إعطائك ما طلبتَ. . وعن السؤال بمعنى استدعاء المال قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾(1)، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾(2)، أي واسألوا الله تعالى من فضله رزقاً لقضاء حاجاتكم فيعطِيَكُمْ؛ ويعبِّر عن الفقير الذي يتوسَّلُ طلب المال بالسائل كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(3)؛ والسؤال الذي يعبِّر عن الحاجة الشديدة التي تحرص النفس على نيلها مثاله في طلب موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى﴾(4)، فقد كان يحتاج إلى تقوية قلبه ولسانه، وإلى مؤازرة أخيه هارون، وذلك لعلمه ما للرسالة التي انتدبه ربُّهُ تعالى لحملها من أعباء قد لا يكون له طاقة عليها إنْ لم يؤتِهِ ربُّهُ من العون والمدد ما يجعله قادراً على تحمّل تلك الأعباء، فاستجابَ ربُّ العالمين لسؤله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾(5)، أي قد آتيناك ما سألت، وبه تستعين وتقوى، ولقد مننّا عليك بذلك، وألقيت عليك محبّةً مني، واصطنعتُكَ لنفسي. .

وقد يتبادر إلى الذهن كيف يعقل أنْ يسألَ الله الكبير المتعال عباده عن شيءٍ كأنما يريد معرفته، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(6)، فالله جلَّ جلاله كان يعلم ما يجري بين السيد المسيح عليه السلام وبني قومه، لأنه

---

(1) سورة الممتحنة، الآية: 10.

(2) سورة النساء، الآية: 32.

(3) سورة الضحى الآية: 10.

(4) سورة طه، الآيات: 25 ـ 30.

(5) سورة طه، الآية: 36.

(6) سورة المائدة، الآيات: 116.

علاَّمُ الغيوب، بل ويعلم الجهر وما يخفى، وهو قد أحاط بكل شيءٍ علماً، لكنَّه أورد خطابَهُ لعبده عيسى عليه السلام بطريقة السؤال، ليكون فيه حجَّةٌ أقوى على الناس الذين كانوا يزوّرون ما يقول السيد المسيح، ويفترون عليه كذباً وخداعاً، ولذلك كان جواب سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام كما يبينه قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾[(١)].

والسؤال غير التسويل..

لأنَّ التسويل هو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن، كما قال يعقوب عليه السلام لأبنائه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾[(٢)]، وذلك لمَّا عادوا بقميص أخيهم يوسف عليه السلام بدم كذبٍ زاعمين أنَّه أكله الذئب، فألهمَهُ ربُّهُ أنَّ ذلك أمرٌ دبَّرُوه في ما بينهم، ولذلك قال لهم: بل زيَّنت لكم أنفسكم أمراً سوءاً فعلتموه بأخيكم، ولكنْ: صبرٌ جميلٌ، والله المستعان على ما تصفون..

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾[(٣)] وهذا إخبار عن المنافقين الذين ارتدّوا عن الحق من بعد ما تبين لهم الهدى بالإسلام، وكان ارتدادهم إلى النفاق والتآمر بما زيَّن لهم الشيطان من الأعمال التي كانت نفوسهم تستسيغها، حتى شاعت في حياتهم، إلى أن جاء الإسلام وحرّمها عليهم كالزنا، والربا والغيبة وما إلى ذلك من الأعمال القبيحة

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ١١٦ و١١٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٥.

التي كان يدفعهم إليها الشيطان، ويغري بها نفوسهم، حتى كان منهم ذلك النفاق والارتداد! . .

الدعـــاء

يقال: دعاهُ يَدعُوهُ دُعاءً ودَعْوى: نَاداهُ، وصاحَ به؛ ودَعَا لَهُ: رَجَا له الخير، ودَعَا عليه: طَلَبَ له الشرَّ. ودواعي الدهر: خطوبه؛ ودواعي الصدر: همومه؛ وداعي الفلاح: هو المؤذِّن، لأنه يقول: حيَّ على الفلاح. والداعي: هو الذي يدعو الناس إلى دينه. والدعاء كالسؤال، إلاَّ أنّه سؤال فيه إلحاحٌ أكثر، وتمنٍّ صادقٌ أقوى، لأنه ينطوي على طلب الاستغاثة، مع الأمل والرجاء بتحقيقه؛ كما في الإخبار عن بني إسرائيل، إذْ قُتِلَ منهم قتيلٌ، ولم يعرفوا المجرم، فسألوا نبيَّهم موسى عليه السلام أنْ يدعو ربَّهُ كي يبيّنه لهم، فجاءَهُ الجوابُ أنْ يذبحوا بقرةً، كما يحدّث القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١). وبعد أنْ سالوه أنْ يبيّن لهم سنَّ تلك البقرة، ولونها، وكافة أوصافها، واستجابَ له ربُّهُ تعالى، أمَرَهم الله عزَّ وجلَّ أنْ يذبحوا تلك البقرة ويضربوا القتيل ببعض منها، فلما فعلوا أحيا الله القتيلَ، ودلَّ على من قتلوه.. فكان في ذلك أمران: الاستجابة لدعاء النبي موسى عليه السلام، والتوكيد على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى يومَ البعث، ولذلك جاء التعقيب القرآني: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

و«الدعاء هو العبادة» كما قال رسول الله ﷺ، لأنّه ما من مسلم

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٣.

صادق الإيمان، إلاَّ ويعبد الله ربَّه ويدعوه تضرعاً وخيفة، ودون الجهر من القول، ويسأله العفو والرحمة، ويرجو منه الأمن والأمان. . لا بل إنَّ الصلاةَ، وسائر العبادات الأخرى عند المسلمين، إنَّما تنطوي في حقيقتها على الدعاء إلى ربهم العلي العظيم، ليهديهم الصراط المستقيم، صراط الهدى والحق، والصواب والفلاح حتى تستوي أعمالهم وأقوالهم في الدنيا، وينالوا الجزاء الأوفى في الآخرة. .

والله سبحانه وتعالى يحثُّ عبادَه على دعائه، وقد ضمِن لهم الاستجابة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

أمَّا الذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى، فلا يتوجّهون إليه سبحانه بسؤال أو دعاء، فأولئك لهم شأنٌ آخر لقوله العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]، أي صاغرين، أذلاَّء لأنه لا قيمة لاستكبارهم في هذه الدنيا، يوم يقفون بين يدي العزيز الجبار للحساب، إذ في ذلك اليوم ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۞ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ۞ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[4]. . فهل من يفتدي أو ينجي المجرم يومئذٍ، وجهنَّمُ تتلظَّى شوقاً إليه؟!. .

وفي حياة الناس ما لا يعد ولا يحصى من الشواهد والأدلة على

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) سورة المعارج، الآيات: ١١ ـ ١٤.

لجوء الإنسان إلى ربه بالدعاء، والإنابة كلما حزبَهُ أمرٌ أو مسَّهُ ضرٌّ، فهو لا يجد الأملَ والخلاص إلّا عند مولاه الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[2].

وقد يكون هذا حال الإنسان مؤمناً كان أو غيرَ مؤمن، فالمؤمن يدفعه إيمانُهُ إلى الالتجاء لربّه وقت الضرّ، أما غير المؤمن فتدفعه فطرته، وغريزة البقاء بالتوجّه أيضاً إلى ربّه، لأنّه يعلم في قرارة نفسه أنّه هو القادر المقتدر، ولكنَّ أهواءَه هي التي تدفعه إلى الاعتداد بنفسه، ما يدفعه إلى الإعراض عن ربه بعد أنْ يزول عنه الضرُّ وأسبابُهُ، ولذلك نجد الآية الكريمة تكمل بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

لا! يا أيها الإنسان، ما خلقت لتكون من المسرفين.. بل خلقت لتعبدَ الله الحكيم العليم.. وهو سبحانه يدعوك في قرآنه الكريم لتقوم على عبادته، وطاعته، ودعائه، وقد ضمن لك الإجابة إذا كنت مخلصاً في الطاعة والدعاء، يقول الرسول الأكرم ﷺ: **«إنَّ الله تعالى ليستحي أنْ يبسِطَ العبدُ إليه يَدَيْهِ يسألُهُ فيهما خيراً فيردّهما خائبتين»**[4]، وفي الدعاء المأثور: **«اللَّهُمَّ إنّي دعوتُكَ كما أَمَرْتَ فاستجِبْ لي كما وعَدْتَ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعاد»**.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٢.

(٤) مسند أحمد، ج٤٨، حديث رقم ٢٢٦٠٠.

فما أعظم ما يرشدنا إليه رسولنا الكريم، ممَّا يدخل البِشْرَ إلى وجوهنا، والطمأنينة إلى نفوسنا، ويزيل عنها ما أصابها من الكرب والبلاء.. فأية حاجة ـ ومهما عظمت ـ وأيُّ سؤال ـ ومهما صعب ـ إذا كان الدعاء إلى خير، إلَّا ويكون ربُّنا جلَّ شأنه قريباً، مجيباً دعوة الداعي إذا دعاه.. على أنَّ الدعاء المجدي، والنافع ليس مجرد كلامٍ يصدر عن اللسان، بل لا بدَّ له من توافر شروط عديدة له..

ذلك لأنَّ الدعاء يجب أنْ يكون نابعاً عن الشعور، والإدراك بعبودية الإنسان لله عزَّ وجلَّ، من منطلق أنَّ الدعاءَ علاقةٌ وطيدة صادقة ما بين العبد ومولاه، وهي العلاقة التي تؤهل العبد لأن يقف بين يدي ربه تعالى في أيّ مكان، وفي أيِّ حينٍ، وعلى أيّ حالٍ كان.. يخاطبه، ويناجيه بخلجات قلبه وجوارحه، وهو على ثقةٍ ويقين بأنَّ سيده الذي خلَقَهُ وأحياهُ، يستمع إليه، ويستجيب له، فيتلطّف عليه بما يسرّه ويرضيه، قال رسول الله ﷺ: **«أفضلُ العبادةِ الدعاءُ، وإذا أذِنَ الله تعالى لعبدٍ بالدُّعاءِ فَتَحَ لَهُ أبوابَ الرَّحْمَةِ»**(١).

ومن خصائص الدعاء الذي يؤثر في علاج النفس:

ـ أنَّ المؤمن غالباً ما يتملّكه الخوف والألم عند اقتراف معصيةٍ، أو ارتكاب ذنب، فيأتي الدعاء ليهبَ له الأملَ في التوبة النصوح، والعفو والمغفرة من الغفور الرحيم، والدعاء في هذا المجال من شأنه أن يحيي القلب، وينعشه ويعيد إلى الداعي الثقة بنفسه لكي يقلع عن المعصية، ويستديم على الطاعة.

(١) عدة الداعي.

ـ أنَّ المؤمن ـ والإنسان إجمالاً ـ عندما تحيط به المكاره، وتُظلم الدنيا في وجهه يلوذ إلى ربه بالدعاء، ليقينه بأنه وحده العزيز الحكيم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء، لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[1]، فهذه الثقة بالله تعالى، والتوجّه إليه يمنح الإنسان الأملَ، فتنتعش نفسه لمواجهة المكاره، وبذل كل جهد مستطاعٍ للتغلّب عليها..

ـ أنَّ المؤمن ـ والإنسان عموماً ـ وهو يعيش صراعاً نفسياً وحياتياً في مواجهة أعباء الحياة ومشاكلها بحاجةٍ إلى وقفاتٍ دائمةٍ ومتواصلة تذكّره بأنَّ هذه الدنيا ـ مهما طال فيها العمر ـ إلى فناء، وهذا ما يستدعي منه أنْ يستعين بالله تعالى لأن يجعله يعبر هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الدائمة الأبدية بنفس مطمئنةٍ، راضيةٍ مرضية.. وكم يحتاج الحكام والمسؤولون عن رعاية شؤون الناس إلى هذه الوقفات حتى لا ينجرُّوا وراء الأمجاد الشخصية التي تحبط نتائج الأعمال، وتذهب بالأجر يوم يلقون الله تعالى..

ـ أنَّ الدعاء ـ في حقيقته وواقعه ـ هو لطفٌ ربَّانيٌ تفضل به الله تعالى على عباده لتربيتهم على الإيمان والتقوى، وقضاء حوائجهم في الدنيا، ونيل الثواب في الآخرة، لقول رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ مسلم يدعو بدعوةٍ ليسَ فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رَحمٍ، إلَّا أعطاهُ الله تعالى بها إحدى ثلاث: إمّا أنْ تُعجَّلَ له**

(١) سورة النمل، الآية: ٦٢.

دَعوتَه، وإمَّا أن يدّخرها له في الآخرة، وإمَّا أن يَصرف عَنْهُ مِنَ السّوء مِثْلَها»[1].

والدعاء الذي نأمل به الإجابة، لا بدَّ له من شروط حتى يكون صادقاً وهادفاً. وأهم تلك الشروط:

١ ـ الشروط التي تتعلّق بالداعي

أ ـ أنْ لا يكون له رجاءٌ إلَّا من الله تعالى، فعن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: **«أَوْحَى الله إلى بعضِ أنبيائِهِ في بعضِ وحيِهِ: وعِزّتي وجَلالي لأقطَعنَّ أملَ كلِّ آمِلٍ أمَّلَ غيري باليأس، ولأكسُوَنَّهُ ثوبَ المذلَّة في الناس. ولأبعِدَنَّهُ عن فَرَجي وفَضْلي؛ أيأمَلُ عبدي في الشدائدِ غيري والشدائدُ بيدي؟ ويرجو سوايَ وأنا الغنيُّ الجوادُ؟ بيدي مفاتيحُ الأبوابِ وهي مغلّقة، وبابي مفتوحٌ لمن دعاني، ألم يعلمْ أنَّ مَنْ دَهَاهُ نائبةٌ لم يملكْ كشفَها عنه غيري؟ فمالي أراهُ بعملِهِ مُعرِضاً عنّي وقد أعطيتُهُ بجودي وكرمي ما لم يسألني، فأعرَضَ عني ولم يَسألْني وسأَل في نائبتِهِ غيري، وأنا الله أبتدئُ بالعطيّة قبلَ المسألةِ، أَفَأُسْألُ فلا أجودُ؟ كلّا، أليس الجودُ والكرمُ لي؟ أليس الدنيا والآخرةُ بيدي؟ فلو أنَّ أهلَ سبعَ سماواتٍ وأرَضِينَ سَألوني جميعاً، وأعطيتُ كلَّ واحدٍ منهم مسألتَهُ، ما نقَصَ ذلك من ملكي مثلَ جَناحِ بعوضةٍ، وكيف ينقُصُ ملكٌ أنا قيّمُهُ، فيا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني»**..

---

(١) مسند أحمد، ج٢٢، حديث رقم ١٠٧٠٩.

ب ـ اليقينُ بأثر الدعاء، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ادْعُوا الله وأَنتُمْ موقِنُونَ بالإِجَابة».

ج ـ إقبالُ القلب، فعنَ الصادق عليه السلام أَنَّهُ قال: «إنَّ الله لا يستجيبُ دُعاءً بظَهْرِ قلبٍ ساهٍ، فإذا دعوتَ فأَقْبِلْ بِقلبِكَ، ثم استيقِنِ الإِجابة».

د ـ خشوعُ القلب والتذلل والبكاء من خشية الله عند الدعاء. عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «بكاءُ العيون وخشيةُ القلب من رحمة الله تعالى، فإذا وجدتموها فاغتنموا الدعاء، ولو أنَّ عبداً بكى في أمّة، لرحمَ الله تعالى تلك الأمةَ لبكاء ذلك العبد».

هـ ـ تركُ الداعي للذنوب، إذْ أول ما يتوجب على الداعي، أن يُقرَّ بذنبه، وأنْ يعترف بتقصيره في ما فرَّط من سوء فعله، ثم يعاهِد الله تعالى ألّا يعود إلى المعصية، إذْ لا نفعَ من دعاء، ولا استجابة لطلب، إنْ أصرَّ العبدُ على ارتكاب الذنوب، إذ إن الإنسان قد تسوّل له نفسُهُ أنْ يرتكبَ المعصيةَ بعد التوبة، إلّا أنَّ عليه أنْ يبادر فوراً إلى الاستغفار الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «بأنه حِصْنٌ حَصِينٌ من العذاب»، والذي أرشدنا إليه الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١)، مما يفرض على العبد أنْ يوطّد العزم على عدم العودة إلى المعصية ثم يُقبل على الاستغفار، فهذا العزم، والإحساس بالحاجة إلى طلب المغفرة، من شأنهما أنْ يقوّيا الإرادةَ لإِبعاد النفس عن السوء، وتبقى رحمة الله

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

الواسعة هي رجاء المؤمن في مدّه بالعونِ لئلاّ يُبتلى بالمعصية، أو يُقبل استغفاره.

٢ ـ الشروط التي تتعلق بالدعاء

أ ـ تمجيد الله تعالى والثناء عليه

وهذه سنةٌ نبويَّةٌ شريفةٌ، فقد كان الرسول الأكرم ﷺ يستهلُّ خُطَبَهُ وأحاديثَهُ بالحمد لله والثناء عليه؛ ثم إنَّ المسلم عندما يبدأ صلاته، أول ما يستهلها بعد تكبيرة الإحرام،بالحمد لله، فيقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين».

ويدخل في تمجيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جميع الأدعية التي فيها الحمد، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، والتعظيم، والإجلال، والتوسّل بأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا. . عن أمير المؤمنين عليٍّ ﵇ قال: «**التسبيحُ نصفُ الميزان، والحمدُ لله يملأُ الميزانَ، والله أكبرُ يملأُ ما بين السماءِ والأرضِ**».

ورويَ أنَّ رجلاً جاءَ إلى أبي عبد الله ﵇ فقال: جُعلتُ فداك، إنّي شيخٌ كبيرٌ فعلِّمني دُعاءً جامعاً!. فقال له الإمام: «احمد الله تعالى، فإنك إذا حَمَدْتَ الله لم يبقَ مصلٍّ إلّا دَعا لَك، وهذا معنى قولنا في الركوع: سمعَ الله لمن حَمِدَهُ».

ب ـ أنْ لا يكون في الدعاء إثمٌ أو قطيعةُ رحمٍ

فقد يدعو المرءُ على غيره أنْ يُصابَ بمكروه، فهذا فيه إثمٌ: إلّا المظلوم إذا دعا على ظالمِهِ فلا يرتكب إثماً، لأنَّ دُعاءَهُ ينطلق من رفع المظلومية عنه؛ وأمَّا قطيعة الرحم فتكون بالهجران، وقطع البرّ عن

الأقارب، وهذا ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه في كتابه المجيد، بقوله الكريم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ ذنبٍ أجدر أنْ يعجّلَ الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدّخِرُ لصاحبِهِ في الآخرة من البَغْي وقطيعةِ الرَّحم»[2]. وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ لي ذوي أرحامٍ أصِلُ ويقطعوني، وأعفو ويظلمون، وأُحسِنُ ويُسيئونَ، أفأكافِئهُمْ؟ ـ أي فهل أعملُ بما يعملون؟ ـ قال ﷺ: «لا، إذاً تُتركونَ جميعاً، ولكنْ خُذْ بالفضلِ وصِلْهُمْ، فإنه لا يزالُ معَكَ ظَهيرٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ ما كُنتَ على ذلك»[3]، أي ما كنت على ذلك من وصل ذوي أرحامكَ، والعفو عن ظلمهم إليك، والإحسان إليهم على الرغم من إساءتهم..

ج ـ عدم الدعاء بخلاف السنن الإلهية

أي بما ليس كائناً في الوجود، أو بما لا يمكن أنْ يكون، لأنَّ كل شيء في الوجود كائن بمشيئةِ الله سبحانه وتعالى، وقد جعل عزَّ وعلا لكل موجود كله سنناً لا تتحول، فكان محتوماً أنْ يضلَّ مَنْ يخرج بدعائه عمَّا ليس موجوداً، أو عمَّا يخالف السننَ الإِلَهية.

د ـ الدعاء بالخير والبرّ الذي ينسجم مع روح الشريعة السمحاء

.. ففي كتاب الله تعالى كثير من الأدعية التي جعلَها المولى

(١) سورة محمد، الآية: ٢٢.

(٢) سنن الترمذي وأبي داوود ومسند أحمد وابن ماجه.

(٣) مسند أحمد، حديث رقم ٦٤١٣.

تبارك وتعالى بمثابة مناهج تأتلف وروح الإسلام، ومنها استعاذةُ النبي نوح عليه السلام بربِّه تعالى أنْ يسأله شيئاً ليس له به علم، ورجاؤه أن يغفر له، ويرحمه حتى لا يكون من الخاسرين، قوله عزَّ وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]، واستعاذة النبيِّ موسى عليه السلام بالله تعالى أن يكون من المستهزئين، الذين يجهلون على الناس باستهزائهم قولُهُ تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]، وأيضاً دعاءُ النبي زكريا عليه السلام بأنْ يهبَ الله تعالى له ربُّهُ ابناً، قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[3]، أو دعاء النبي سليمان عليه السلام بأنْ يغفر له ربُّهُ ويهبه ملكاً فريداً من نوعه، قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[4]. . إلى غير ذلك من تلك الأدعية النبوية التي يسترشد بها العبادُ، فيرجون من ربهم الكريم أنْ يحققَ لهم أمانيّهم الخيرة، التي تتوافق وصدق الإيمان، ومناهج الشرائع الإلهية . .

وأمَّا الأدعية السلبية فهي كل ما يضمر فيها الإنسان السوء لغيره، ومنها على سبيل المثال أنْ يدعو التلميذُ على معلمه الذي أعطاه علامة رسوبٍ، بينما رسوبُهُ كان نتيجة الكسل، أو أنْ يدعوَ ولدٌ على والده ـ والعياذ بالله ـ لأنّه لم يشترِ له السيارة التي يريد. أمّا المثال البارز على هذا النوع من الأدعية فهو ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «رجلٌ

(١) سورة هود، الآية: ٤٧ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٧ .

(٣) سورة مريم، الآية: ٥ .

(٤) سورة ص، الآية: ٣٥.

قاعدٌ في بيته وهو يدعو الله أنْ يرزقَهُ ولا يخرجُ طلباً للرزق، وابتغاءَ فضلِ الله، كما أمرَهُ سبحانَهُ بذلك، فهذا الرجلُ يقول عزَّ وعلا له: عبدي إنّي لم أُحظِّرْ عليكَ الدُّنيا، ولم أزمِكَ في جوارِحِكَ، أفَلا تخرجُ وتطلبُ الرزقَ، فإنْ حَرَمْتُكَ عَذَرْتُكَ، وإنْ رَزَقْتُكَ فهو الذي تريد».

هـ ـ التوسل بالنبي ﷺ وأهل بيته

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1]، أي اطلبوا إلى الله تعالى القربة بالطاعات؛ فالوسيلةُ هي التوصل إلى الشيء برغبة، وحقيقة الوسيلة إلى الله: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرّي مكارم الشريعة، وتحرّي مكارم الأخلاق. فقد روي أنَّ النبي ﷺ قال: «سَلُوا الله لِيَ الوسيلةَ فإنَّها منزلة في الجنة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله وأرجو أنْ أكونَ أنا هُوَ»[2]. ولذا نرى المسلمين يدعون، بعد سماع الأذان، وقبل المباشرة بالصلاة، بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ ربَّ هذه الدعوة التّامةِ، والصلاةِ القائِمةِ، آتِ سيّدَنا محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، والدرجةَ الرفيعةَ من الجنة، وابعَثْهُ اللَّهُمَّ مقاماً محموداً الذي وعدتَهُ إنك لا تُخلِفُ الميعاد».

والتوسّل بالنبي ﷺ وأهل بيته لما لهم من مكرماتٍ عند ربِّهم، والأحاديث الشريفة التي تظهر حبَّ النبي ﷺ لأهل بيته معروفة عند المسلمين، ويكفي أنْ ندلّ على ذلك بما أمرَهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يسألَ المسلمين حبَّ ذوي قرابته بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٥٧٧.

ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١). . ثم إنَّ المسلمين جميعاً يصلُّون على النبي ﷺ في الطاعات، وفي الأدعية وفي كل المناسبات التي يُستحبُّ فيها ذكرُ رسول الله ﷺ، وكثير منهم يُتْبعون الصلاة على النبي ﷺ بالصلاة على آل محمدٍ بالقول: اللَّهُم صلِّ وسلِّم، وزدْ، وبارِكْ، وأحسِنْ وتحنَّنْ على سيدنا محمدٍ وآلِ سيدنا محمدٍ، كما صَلَّيتَ وسَلَّمتَ، وزِدْتَ، وبَارَكْتَ، وأَحْسَنْتَ وَتَحَنَّنْتَ على سيدنا إبراهيمَ وآلِ سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيدٌ»، بل وغالبية المسلمين يضيفونَ إلى الصلاة على محمد ﷺ وآله الطاهرين، السلام على أصحابِهِ الأخيار، ومن اتَّبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. .

الـدعـوة

ولا بدَّ في معرض البحث في «الدعاء» من الإشارة إلى أنَّ الدعاء إنَّما يعني، أيضاً، من حيث اللغة: الدعوة . مثل الدعوة أو الدعاء إلى الوليمة، ولذلك قلنا إنَّ من معاني الداعي: المؤذِّن، لأنه ينادي في الناس، أي يدعوهم إلى الصلاة؛ أو الذي يدعو الناس إلى دينه؛ و«داعي الله» عند المسلمين هو لقب للنبي ﷺ. . بل وجميع الأنبياء والمرسلين كانوا دعاةً إلى الله تعالى، لأنهم كانوا يحملون الدعوات إلى نبذ الكفر والشرك واعتناق عقيدة التوحيد.

هكذا كانت دعوات أولئك الصالحين الذين اختارهم الله تعالى لحمل الدعوات الصالحة هدايةً للناس، وحبّاً بالعباد، فأين تلك الدعوات التي تحمل الخير، كلَّ الخير، من الدعوات التي لا ينبعث

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

منها إلّا الويل، وهي أشدُّ جاهليةً ورعونةً من أيام عهود الظلام في أوروبا وأيام الجاهلية عند العرب، ولاسيما وهي تحمل سرّاً وجهراً التحريضَ على الحروب، والعداوة بين أتباع الأديان السماوية، أو زرع الفتن والشقاق والبغضاء بين أبناء الدين الواحد، أو التي تدعو إلى تجهيل الناس وحملهم على الضلال، أو التي تستهدف قهرهم واستغلالهم. ومن قبيل ذلك دعوات التميز العنصري التي عانت منها القارة الأفريقية ردحاً طويلاً من الزمن وهي تحت الاستعمار الغربي، أو التي عانت منها القارة الأميركية، أولاً بإقدام المستوطنين البيض على القضاء على الهنود الحمر ـ سكان البلاد الأصليين ـ ثم داخل ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة الأميركية التي طحنت فيها الحرب الأهلية، بسبب التمييز العنصري، ضد السود، مئات الآلاف من الناس ممّن كانوا يأتون بهم عبيداً للجنس الأبيض، هذا الجيش الذي لا يزال في أنظار المحرّضين والمغرضين، هو الأكثر امتيازاً على سائر أبناء مجتمعه الأميركي!!..

ومن دعوات الضلال أيضاً، الدعوة إلى عبادة الشيطان، أو اعتناق أفكار بعض الأشخاص الذين هم في الحقيقة من شياطين الإنس، الذين يغرون أتباعهم بأفعال الرذيلة، والمعصية واستباحة الحرمات!.. أو تلك الدعوات التي تحمل ظاهرياً محاربة «الإِرهاب»، بينما دعاتُها يمارسون أبشع ألوان الإرهاب الفعلي، إنْ كان بالتشريعات التي يصدرونها أو باحتلال الدول التي يريدون استغلال ثرواتها ومواردها الطبيعية، أو جعلها مناطقَ نفوذ لفرض مبادئهم وأفكارهم على الناس!.. ففي كل بلدٍ لا يخضع لسيطرتهم وهيمنتهم يثيرون المشاكل والفتن والاضطرابات وغيرها من الأساليب

التي من شأنها إرهاب نفوس المواطنين حتى يستسلموا للغزو الفكري المنظم، وإلّا ظلّوا يعيشون في كل تلك الأوضاع القلقة التي يفرضونها عليهم..

هذا هو الطابع العام ـ ويا للأسف ـ الذي يسود غالبية بلدان العالم، وخاصة البلدان التي جعلها المستكبرون بزعامة الولايات المتحدة الأميركية مسرحاً لدعواتهم الضالّة المضلّلة، والتي لا تفتأ بسبب تلك الدعوات، تعاني من الجهل، والمرض، والفقر، والجوع، والتنازع الطائفي والمذهبي، والعرقي! حتى البلاد الاسكندينافية، التي كانت تعتبر من البلاد الراقية المحايدة، فقد ظهرت فيها قبل سنوات (من تاريخ صدور هذا الكتاب) دعوة جاهلية عنصرية لا مثيل لها من قبل، وذلك بما نشرت صحف الدانمرك آنذاك، من الصور المسيئة إلى محمد رسول الله ﷺ الذي بعثَهُ الله تعالى رحمةً للعالمين.. فمثل هذه الدعوة التي تسيءُ إلى قدسية الرسول الأعظم ﷺ، وأشدُّ ما فيها كفراً أنها لم تراعِ حرمةً لله تعالى ـ القادر المقتدر ـ الذي بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.. ولو كره الكافرون.. كما لم تراعِ مشاعر المسلمين الذين يشكلون ربع سكان الكرة الأرضية.. وإذا كانت الدانمرك، ومن تابعها من الدول التي تبنَّت الصحف فيها تلك الدعوة الحاقدة على الإسلام وعلى نبيّه الأعظم ﷺ لم ترجع عن دعوة الضلال والكفر تلك، فإننا نقول لها: هيهاتَ أنْ تصلوا إلى مآربكم الخبيثة، وأذان المسلمين يرتفع خمس مرات كلَّ يوم بشهادة «أن لا إلّه إلّا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله».. وهيهاتَ أنْ تحققوا أهدافكم، وأهداف الصهيونية العالمية التي تدعو لتطبيق مبدأ «فصل

الدين عن الدولة» في العالم الإسلامي، وأنَّ تشيع بين المسلمين الفواحش والمنكرات كما تخططون له.. فانزعوا يا دعاة الكفر والإلحاد والفساد هذه الأوهام من رؤوسكم، لأنَّ الدين عند الله الإسلام، ولأن من ابتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، ويكون مصيره إلى جهنَّم وبئس المصير!..

وإنه لمن أشدّ دعوات الضلال والفتنة أن تظهر جماعة تدّعي أنها تنتسب إلى الإسلامِ وتطلق على نفسها اسم «جماعة الهجرة والتكفير»، ثُمَّ تستحلُّ دماءَ المسلمين من الأطفال والنساء والشيوخ كما فعلت في الجزائر، وفي العراق مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي حتى وصَلَ بها الحالُ لأنْ تفجّر السيارات المفخخة لقتل المصلّين في المساجد، وقتل المؤمنين في الأسواق والنوادي الحسينية، أو في أي مكانٍ يجتمعون فيه لإقامة شعائرهم الدينية أو تدارس أوضاعهم الحياتية!!..

فأين مثل هذه الدعوات الجاهلية من أمر الله تعالى بوجوب اجتماع المسلمين، ونبذ التفرقة بين جماعاتهم بقوله عزَّ وعلا: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(١)، بل ويأمرهم سبحانه وتعالى أنْ يكونوا هداةً للناس إلى الحق والخير والصلاح بقوله الكريم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).. وهذا تكليف شرعي من ربّ العالمين للأمة الإسلامية، أجل هو فرض كفاية لحثّ هذه الأمة على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

أنْ يكون منها دعاةٌ صالحون من أهل العلم والورع والتقوى، يأخذون على عاتقهم العمل على نبذ روح الفرقة، ونزعة التشتت والكراهية بين المسلمين، بل والدعوة الصريحة إلى مقاتلة الباغين، الفاسقين، المفسدين مثل «جماعة التكفير» أو أية جماعة أخرى تعمل على هدم الإسلام، وقتل المسلمين، سواء كان ذلك عن علم، أو عن جهل، أو عن عمالة خفيّةٍ، باتَ دعاتُها معروفين؟! . . .

بل ومناط التكليف بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينحصر بالمسلمين وحدهم، بل يتعداهم إلى جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها حتى ينزاح عن قلوب الناس هذا القلق، وعن نفوسهم هذا الاضطراب، وتسقط عن كواهلهم هذه الأعباء من المشاكل والأوضاع الفاسدة التي تستقوي شرورها يوماً بعد يومٍ في دنيا الأرض. . ولكنَّ الله تعالى اختار الأمةَ الإسلامية، لتكون منها جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهل تستجيب الأمة لأمر الله عزَّ وجلَّ؟!، أم تبقى جماعات التكفير، ومن دعمها وماشاها على ضلالها وإضلالها؟!! . .

أيها المسلمون!

اسمعوا ما يقول لكم ربُّكم تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] . . ثم تفكروا جيداً بمقاصد الذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۞ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

أمَّا الدعاة الصالحون الذين أخلصوا الدعوة لله تعالى، فنذكّرهم بما يوليهم ربُّهم عزَّ وجلَّ من رفعةٍ، ومن شرفٍ وعزّةٍ في ما يدعون إليه بقوله الكريم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

والدعوة الأعظم إلى الحق، إلى الإيمان، إلى الخير، إلى الصلاح.. إلى السلامة في جنّةٍ عرضها السماوات والأرض.. هي دعوة ربّ العالمين للعالمين أجمعين بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

أجل الدعاء في رحاب الله عزَّ وعلا عبادةٌ وطهرٌ، والدعاءُ في قلب الإنسان وعلى اللسان سفينة النجاة للعبور من تلاطم أمواج هذه الدنيا إلى رحاب جنات النعيم في دار الآخرة الخالدة..

ويبقى دعاؤنا لله ربّنا أنْ يهديَ الناس أجمعين إلى الحق والصواب، وإلى العدل والإنصاف، وإلى المحبة والتعاون، وإلى وأد الفتن والنزاعات، والقضاء على الكراهية والبغضاء، ونبذ التعصب والاستكبار.. آمين ربَّ العالمين.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٩ و١١٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٥.

الفصل الثامن عشر

السعادة النفسية

السَّعادة النفسيّة

إنَّ علم النفس الحديث لم يُعر كبيرَ اهتمام في أبحاثه ونظرياته لمفهوم السعادة، بل انصبَّتْ جهوده على المناخات أو الطرق التي قد تجعل الإنسانَ سعيداً، فوضع كثيراً من المناهج والبرامج التي من شأنها تنمية مشاعر السعادة، وتخفيف مشاعر القلق، والتوتّر والاضطراب في نفس الإنسان. ومن الدوافع التي يستعملها علم النفس في هذا المجال تحفيز الفرد وحثه على حب الآخرين والانشغال بأمورهم، بغية إدخال السعادة على حياتهم. . ويفترض هذا الحب للناس، أن نشعرهم، قبل أي شيء آخر، بأنَّ لهم مكانةً في الحياة، لأنه ما من إنسانٍ إلاّ ويجب أنْ يكون له دورٌ يقوم به؛ وأنْ نعمل، مِن ثَمَّ، على ما فيه خيرهم ونفعهم، حتى نجعلهم يحبوننا، ويصبح الحبُّ متبادلاً في ما بيننا وبينهم، ولذلك قيل: «حبُّ الناس إكسيرُ السعادة في الحياة».

والسعادة، بمفهومها الحقيقي، هي معاونة أمر الله للإنسان على نيل الخير، وعندما نقول «معاونة أمر الله»، لأنَّه سبحانه بيده الخير،

وهو الذي يهبه للإنسان الذي يقتصر دوره على تهيئة الأسباب للحصول على الخير، ويضادّ السعادة الشقاوةُ، فما دام الإنسان يحب الخير لنفسه، فإن هدفه يكون منصباً على نوال هذا الخير، الذي يحقق له السعادة. . .

ولكنَّ معنى السعادة يختلف بين إنسانٍ وآخر، فقد يرى كثيرون أنَّ سعادتهم في اللذة والمتعة كيفما جاءت، وأنّى جاءت، في حين يرى غيرهم أنَّ سعادتهم هي في تحصيل العلم، أو اكتشاف دواء جديد، أو إغاثة الملهوف والمحتاج، وما إلى ذلك من القيم الإنسانية التي من شأنها أنْ ترضي نفس الإنسان، وتريح ضميره بأنْ أدّى خدمةً للإنسانية. .

واللذائذ والشهوات لا تحقّق السعادة، عادةً، إلّا بصورةٍ آنيّةٍ، إلّا أنّها كثيراً ما تخلّف في النفس اللوّامة الإرهاق والمرارة، ولاسيما عندما يتعاطاها الإنسان بطرقٍ لا يألفُها الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، أو عندما يستحلُّ بها الحرمات، أو يرتكب المخالفات والأخطاء التي ينهى عنها الشرع، أو القانون. .

وإذا كانت السعادة، في عرف الإنسانيين، هي الشعور بالرضا عن الجهود التي يبذلونها لتحقيق إنسانية الإنسان، وهذا صحيح، فإنَّ هناك قواسم مشتركة، يُجمع كل الناس ـ مهما كانت معتقداتهم وأفكارهم وأهواؤهم ـ على أنّها تحقق لهم السعادة، ومنها ما يبيّنُهُ القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ . . فهذه الزينة تعني الزينة النفسية والزينة الدنيوية معاً، لما للمال والبنين من تأثير على نفس الإنسان، وفي حياته من حيث كونهما إمّا مجلبة

لقدرٍ كبير من سعادته، وإمَّا مجلبة لقدرٍ كبير من شقائه، إلَّا أنَّهما يعتبران ـ في الأصل ـ مصدر سعادة، لأنَّ طبيعة الإنسان مجبولة على حبّهما، والتعلّق بهما.. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن تحصيل المال الحلال بالطرق المشروعة، وإنفاقه في سبيل البرّ والتقوى ـ أي بما ينفع نفسه وغيره ـ قد يكون من شأنه أنْ يوفر للإنسان عاملاً هاماً لسعادته؛ وكذلك تربية الإنسان لأبنائه تربية صالحة، تُعِدُّهم لأنْ يكونوا عناصرَ فاعلةً في خدمة مجتمعهم، وخدمة الإنسانية قد تؤمن للإنسان سعادةً كبيرة لأنَّه قد يقال لأحدهم: فلانٌ أفضلُ منك، فيغضب سراً أو جهراً، أما إذا قيل له: ولدُكَ أفضلُ منك، فإنه يُدخلُ على نفسه السرور؛ فحبُّ الأبناء سنةٌ إلّهية في الحياة البشرية، وهي نابعة من الفطرة للحفاظ على النوع، وعلى البقاء لأنَّ الإنسان يرى استمرارية وجوده في هذه الحياة من خلال أبنائه، لأنهم خلفتُهُ من بعده..

أمَّا من جانب الأبناء، فنجد أنَّه قلَّما تكون مشاعرهم بنفس المستوى من حبِّ الوالدين لهم، ولذلك يوصي الخالقُ العظيم الأولاد بالبرّ بالأبوين في كل شيء، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[1]، بل وقرنَ الله تعالى عبادته بمعاملة الوالدين معاملة حسنة حتى بالقول الكريم، وذلك بقوله الكريم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[2]، ولو استجابَ الأبناء لأمر الله تعالى،

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

الذي قضى بطاعة الوالدين والإحسان بهما لكانوا من الصالحين، ومصدر سعادة للآباء في هذه الحياة، كما يكونون ذكراً حسناً لهم بعد الممات، كما يدلُّ عليه قول رسول الله ﷺ: **«إذا مات العبد انقطع عمله إلّا من ثلاثٍ: صدقةٌ جاريةٌ، أو علمٌ يُنتفَعُ به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له»**[١]. بل وأبعد من ذلك، فإنَّ الابنَ الصالح عَرْفٌ طيّبٌ لأبوَيْهِ في الجنة، كما بَشَّر رسولُ الله ﷺ فقال: **«الولدُ الصالح ريحانةٌ مِنْ رياحينِ الجَنّة»**[٢] والسعادة، بعد ذلك، تكون بكل ما يبعث الاطمئنانَ في النفس، والقناعةَ في العيش، فلا يصرف الإنسانُ عمره في اللهث وراء متاعِ الدنيا الغَرور، وفي التعب والشقاء من غير أنْ يترك لبدنه ونفسه قسطاً من الراحة، ولو لفترةٍ، حيناً بعد حين، لتوثّب بعدها للعمل من جديد، بهمة أقوى، ونشاط أوفر؛ بل كيف يمكن للإنسان أنْ يذوق طعم الراحة إنْ لم يقنع بما آتاهُ الله من فضله، فلا يطمع أن يزيد، كما يفعل غالبية رجال الأعمال - على ما نسمع ونرى - من هؤلاء الطامعين في كل شيءٍ.. ولكم تؤدي مثل هذه المطامع إلى المشاكل، ولاسيما شكوى الزوجات والأولاد من غياب الزوج والأب لانهماكه في اجتماعاته وأعماله، وكم جرَّت مثل تلك المشاكل إلى ضرب العلاقات العائلية في الصميم، وذهبت بسعادتها المرجوة!. ولذلك قيل: «القناعة كنز لا يفنى» كما عبَّر عن ذلك رسولُ الهدى، وهو يدعو الله تعالى بقوله الكريم: **«اللّهُمّ إني أسألُك نَفساً مُطْمَئِنّةً تُؤمِنُ بلقائِكَ، وتَرضى بِقَضَائِكَ، وتَقْنَعُ بِعطائِكَ»**[٣]؛ وكفى بهذا القول

---

(١) البخاري، الأدب المفرد، ج١، ص٥٩، حديث رقم ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة، باب استحباب الولد الصالح، حديث رقم ٢٧٢٩٤ ج ٢١..

(٣) كنز العمال، ج٢، ص٦٨٧، حديث رقم ٥٠٨٢..

الشريف لرسول الله ﷺ تعريفاً بالسعادة، ومقياساً لها. .

والحقيقة أنَّ أولَّ العوامل التي تساعد على الشعور بالسعادة هو الإيمان الصادق، النابع من الإدراك العقلي والوجداني بأنَّ الله تعالى هو الخالق العظيم، وأنَّهُ لا إلَهَ إلّا هو، ربُّ السماوات والأرض، فلا شيءَ في الكون كلّه إلاَّ ويسير وفق ما يشاءُ ويقدّر، وبمقتضى الحكمة التي يشاءُ ويقدّر. . فعندما يركن الإنسان إلى هذه الحقيقة المطلقة، فلا بدَّ أنْ يوقن بأنَّ الله ربَّهُ لن يتخلَّى عنه، بل تحيطه رعايته، وحبُّهُ لعباده ـ وبخاصة المؤمنين ـ بكل أسباب التسديد والتوفيق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[1]، ودفاعُ الله ـ عزَّ وعلا ـ عن المؤمنين لا يكون بما ينجّيهم من غوائل الكفر والشرك فحسب، بل ومن عاديات الأيام التي تقهر عادةً العبادَ بما لا يطيقون. . وهذا الاطمئنان إلى عناية الله بعباده المؤمنين هو العروة الوثقى التي تربطهم بربهم: حبّاً، وطاعةً وعملاً. . فهم مع خالقهم العظيم، ومدبرّهم الحكيم على أيِّ حالٍ كانوا، ومَنْ يَكُنْ مع الله خليقاً به ألّا يُبالي بأعباء هذه الحياة مهما كانت جسيمةً. . وإنَّ في هذا التوجُّهِ الصادق راحةً للأبدان، وأماناً للأنفس. . صحيح أننا نرى في الحياة كثيراً من المؤمنين يعانون من الفقر، أو المرض، أو من هموم العمل، أو غير ذلك، ولكننا نجدهم يحتسبون أنفسهم عند ربهم، لأنّهم يعلمون أنَّ ما هم فيه، إنَّما هو ابتلاءٌ منه تعالى لامتحان إيمانهم وصبرهم، إلّا أنَّ عاقبتَه ـ وهذا رجاؤهم وأملهم ـ ثوابٌ من الله ورحمة في آخرتهم. .

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٨.

وبالمقابل فإننا نرى أحياناً الغلبةَ للكافرين والمشركين في أكثر ميادين الحياة، حيث ينعمون بالسلطة، والغنى، والنفوذ، والسيطرة، وفرض القوانين والأنظمة! . . أي الهيمنة السياسية والاقتصادية والمالية والعسكرية والدبلوماسية، وكل ما يخطر على البال من مفاهيم التسلّط، والتحكّم، وفرض الإملاءات! . . . ولكن إلى أينَ، والله تعالى بالمرصاد، وقد بيّن لنا في قرآنه الحكيم أنَّ كلَّ ذلك ليس في صالحهم، فلا يحسبوه خيراً لأنفسهم، بل وبالاً عليهم، ومن أصدق من رب العالمين بقوله الحقّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1] . . فالكلُّ يرون أولئك المتحكمين برقاب الناس، وأرزاقهم ومصائرهم كيف يلقون تلك الخطب الرنّانة عن إنجازاتهم و«مآثرهم»، وهم يبدون فرحين بما يعملون، وكل همِّهم إقناع الناس بأنَّ أهدافهم «السامية» خدمة مصالح بلادهم ـ لا خدمة شركاتهم ومطامعهم ـ بل ويريدون منهم أنْ يحمدوهم على مظالمهم، وعلى بعدهم عن الحق والعدل! . . فتلك أراجيفهم وأباطيلهم في هذه الحياة الدنيا، أما في الآخرة فإنَّ القادرَ المقتدرَ يتوعَّدُهم بالعذاب الأليم بقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] .

وقد يعتقد أولئك الظالمون أنّهم يحققون بما يفعلون السعادة المنشودة!! . . وهذا وهمٌ بوهم، لأنهم تعساءُ في قرارة نفوسهم، وهم يعلمون ذلك، بكل تأكيدٍ، لأنَّ السعادة لا يمكن أن تتأتى من

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨ .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٨ .

ظلم الآخرين، وقهرهم. بل في الحقيقة إنَّ أهم المسببات للسعادة تكمن في تكاتف جهود البشر جميعاً، وتعاونهم على البرّ والتقوى، وليس على الإِثم والعدوان، وهذا أقرب ما يقوّي مشاعر السعادة لدى الناس؛ ولذلك يدعو المؤمن، دائماً، بهذا الدعاء الخيّر الطيب: «اللّهُمَّ لا تَجعلْ في قلبي غِلاًّ للذين آمنوا، اللّهُمَّ ارزُقْني رِضَاكَ والجَنَّةَ»...

وما من إنسانٍ مدرك لمعنى وجوده.. وغاية وجوده إلاّ ويجهد ليكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسعى للجنة سعيها، حيث السعادة الحقيقية الدائمة، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾[1].

ويقابل السعادةَ الشقاوةُ أو الشقاء، الذي يكون أيضاً في الدنيا والآخرة.. والشقاء في الدنيا معروف لكثرة ما يحيط بالإنسان، وما يطغى عليه من أحمالها وأثقالها، أما الشقاء في الآخرة، فلا يمكن أنْ يَستوعِبَ عظيمَ عذابه، إلّا كمن رأى النار فعمل ليُزَحْزَحَ عنها، باعتبار أنّه أشدُّ مقتاً بكثير من شقاء الدنيا. وما من أحدٍ من بني البشر إلَّا ويكون إمّا شقياً أو سعيداً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾[2]، والإنسان هو الذي يجعل بيده مقودَ الشقاء الدائم في الجحيم، أو مناطَ السعادة للفوز بالجنة..

والمشاعر التي يمكن أنْ تُحقِّقَ في نفس الإنسان قسطاً من السعادة كثيرةٌ، ومنها على سبيل المثال:

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٥.

١ ـ الرجاء أو الأمل

الرجاء هو الأمل، لأنَّ معنى رجا الشيءَ: أمَّلَ به، يقال: «ما أتيتك إلاً رجاوة الخير»؛ والرجاء ـ في التعارف ـ هو ظنٌّ يقتضي ما فيه مسرَّةٌ للنفس، أو تعلّقُ القلب بحصول أمر في المستقبل يكون محبَّباً إلى النفس، إلّا أنَّ هنالك فارقاً دقيقاً جداً بين الرجاء والأمل، بمعنى أنَّ الرجاء هو وعْدٌ في النفس لتحقيق رغبةٍ ملحّة، أو مقصدٍ معينٍ يسمى الأمل، فالرغبة في النجاح بالامتحان هي رجاءٌ، أما الفوز بالنجاح فهو الأمل المرتجى أو المنشود.. والمشاعر التي يرتجي فيها الإنسان الخيرَ لنفسه ـ أو لغيره ـ كثيرة جداً، تبعاً لاهتماماته في هذه الدنيا، ولذلك نجد أنَّه كلما حقَّق أملاً من الآمال التي كان يرجوها، شعر بنوعٍ من السعادة التي تَسرُّ نفسه. إلاَّ أنه يقتضي الانتباه إلى عدم الانسياق وراء الآمال الوهمية، التي يجب على الإنسان أنْ يعرف أنها غير قابلة للتحقيق، أو أنَّه بحسب وضعه، وطاقاته غير قادر على نيلها، حتى لا يكون رجاؤه فراغاً...

والقرآن الكريم يوجّه عناية الإنسان إلى ما فيه خيره وفلاحه في الدنيا والآخرة، بحيث لا يجعل جلَّ اهتماماته مقصوراً على الدنيا، بل يتوخَّى أنْ يجعل رجاءَه الأخير بلقاء ربه تعالى، وقد دلَّنا كتاب الله تعالى على السبيل القويم لذلك، بقوله الكريم: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1]؛ فالعمل الصالح هو ما يمتاز به الإنسانُ على سائر مخلوقات الأرض، حتى عن بني جنسه من البشر، وهو الأساس المتين لإعمار الأرض.. أما عدم الشرك بعبادة

---

(١) الكهف، الآية: ١١٠.

الله ـ جلَّ جلاله ـ فهو ما يبرز قيمة الإنسان العقلية، لأنَّ العقل هو الذي يهديه إلى عبادة خالق الكون والحياة والإنسان، وربّ السماوات والأرض وما فيهنَّ، وما بينهن، فوجب على الإنسان، صاحب العقل المميّز والمدرك أنْ: «لا يشرك بعبادة ربه أحداً»، لأنَّ الشرك بالله تعالى معناه اتباع الهوى والضلال، ويقود حتماً إلى ظلم الإنسان لنفسه وللآخرين، وهذا ما يعظ به لقمان الحكيم ابنَه، كما يبينه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]؛ وما أجمل أنْ نأخذ عن لقمان بعضاً آخر مما يعظ به ابنه، لأنه يشكل قواعد إيمانية وأخلاقية لا تقوّي في نفس الإنسان حبَّ الخير والعملَ الصالح وحسب، بل وتقوّي فيه عزيمة الصبر على المصائب، والتحلي بالتواضع الذي يحبّبه إلى الناس، وهذا ما يُثبتُهُ القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[2].

والإنسان المؤمن يكون رجاؤه الأسمى والأعلى رحمة الله، وهو الرجاء الذي كان يملأ نفوسَ المؤمنين في صبرهم وجهادهم مع رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. وهذا

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٢) سورة لقمان، الآيات: ١٨ ـ ١٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

الرجاء هو ما يحدو أمة محمد ﷺ لأنْ تسير على نهج أولئك الأبرار من المسلمين الأوائل، الذين ضحّوا بكل شيء: بالأموال والثروات والأنفس، لينالوا رضوان الله تعالى، ورحمته الواسعة..

ولعلَّ المسلمين اليوم أشدُّ ما يكونون حاجةً إلى الإصغاء لخطاب الله تعالى، وهو يدعو المؤمنين إلى عدم الاستكانة والضعف، بل المثابرة على طلب أعدائهم والتصدّي لهؤلاء الأعداء، وإنْ كان في ذلك تضحيات وآلام، لأنَّ ما قد يصيبهم من جرّاء دفع ظلم أعدائهم عنهم، لا يقل عمَّا يصيبُ أعداءَهم، إلاَّ أن الفارق عظيم بين ما يرتجي المؤمنون من النصر والثواب من الله عزَّ وعلا، وما لا يرجون هم شيئاً من ذلك أبداً، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(1)، فالمؤمنون يرتجون من الله الجنة، بينما القوم غيرهم غيّبوا بجهلهم، هذ الرجاء العظيم عن أنفسهم.. وقد ضرب القرآن الكريم المثل على أولئك الذين أفرغوا نفوسهم من أي أملٍ أو رجاءٍ بالله تعالى، بقوم نوح عليه السلام؛ فقد لبث فيهم هذا النبيُّ الكريم ألف سنة إلّا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، والاستغفار على ما سلف من أعمالهم، لأنَّ في قبولهم لدعوته، والاستدامة على الاستغفار ما من شأنه أن يستجلب عفو الله تعالى عنهم، وأن يمدَّهم بالمال والبنين، ويغدق عليهم من الخيرات والبركات ما لا يتوقعون، ولكن لم يفلحْ معهم شيء من ذلك، إذ خاطبهم بالبرهان العقلي والدليل الحسّي، وهو يقول لهم، كما يثبته

(1) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

القرآن الكريم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[1]، ووقارُ الله معناه، هنا، خيراتُهُ وبركاتُهُ، وغفرانُهُ ورحمتُهُ.. وهذا ما كان نبيُّ الله يستهجنُهُ منهم، وهو يخاطبهم بنوعٍ من التوبيخ: ما بالكم، أيُّها القوم، لا تأملون، ولا ترجون كلَّ ذلك الخير إنْ آمنتم لي، وصدَّقتموني في دعوتي، التي تحمل لكم الهدى، والرغد في العيش، والأمانَ في الدنيا والآخرة!..

ولكن يبدو أنَّ قوم نوح عليه السلام كانوا جاهلين، وأبعدَ ما يكون عن أيِّ تصور لحقيقة الأمور، بحيث استوت لديهم معاني الثواب والعقاب، فلم يميِّزوا بين رجاءٍ لعطاء الله تعالى، وخوف من عقابه، لأنَّ الرجاء ـ كما قلنا ـ هو توقّع شيءٍ تحبّه النفس عن أَمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، والخوف هو توقع شيءٍ تكرهه النفس، عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ؛ وقد كان أولئك الملأ من قوم نوحٍ عليه السلام من الأصناف الذين لم يميزوا بين رجاء محقَّقٍ، لأنه وعدُ الله على لسانِ النبيّ الذي بُعث لهم، وبين خوفٍ مما يتوعَّدهم به هذا النبيُّ من العقاب.. وماذا كانت النتيجة؟ الطوفان الذي غطّى الأرضَ وأهلك قوم نوح جميعاً، إلّا من حمل معه في السفينة من الذين آمنوا به واتّبعوه.. وعلى دأب قوم نوح عليه السلام كلُّ جماعة، أو شعب أو أمة، لا يرجون لله ـ تعالى ـ عطاءً، ولا مِداداً، ولا رحمةً ولا غفراناً.. لا بل ولا يخيفهم العذاب الذي تتوعَّدهم به الكتب السماوية، كما في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2]، وهذا يعني أنَّ الرسول

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٣.

الأكرم محمد ﷺ كان حريصاً على هداية بني قومه، إلّا أنّهم أبَوْا ذلك طوال سنوات عديدة، فأنزل الله تعالى على قلبه الشريف الذكر الحكيم بأنْ يدَعَ هؤلاءِ القوم في ما هم فيه من متاع الحياة الدنيا في مآكلها ومشاربها، وملذاتها، وفي ما يُلهيهم من التكاثر بالنسل، والأمل بطول العمر، عن قبول الإيمان، فسوف يعلمون أنَّ ذلك كله من الآمال الكاذبة التي يمنّون بها نفوسهم، وأنَّ عاقبته سوف تكون وخيمةً يوم يقفون بين يدي العزيز الجبار، ليسألهم عمّا كانوا يعملون..

٢ ـ التمنّي والأمنية

التمنّي «طلبٌ لحصول الشيء على سبيل المحبة وعلى الكلام الدالّ على هذا الطلب»، والمُتَمنّيَاتُ: ما يتمّناهُ الإنسان من الأمور، أي المرغوبات.. والتمنّي ـ في العرف ـ تقدير شيءٍ في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمينٍ وظنٍّ، وقد يكون عن رويّةٍ، وبناءً على أصل، لكنْ لمَّا كان أكثرهُ عن تخمين، صار الكذبُ أقرب إلى معناه، فأكثر التمنّي تصوّر ما لا حقيقة له. قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾(١)، أي هل كل ما يتصوّرَ الإنسان في نفسه عن تخمينٍ أو ظنٍّ يقدرُ أنْ يحصل عليه؟ لا، ليس الأمر كذلك.. وقد عبَّر المتنبي عن ذلك فقال:

ما كلُّ ما يَتَمَنَّى المرءُ يُدْرِكُهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفُنُ

والأمنية: هي الصورة الحاصلة في النفس من تمنّي الشيء، وجمعها: الأمانيّ.. ولما كان الكذب تصورَ ما لا حقيقة له وإيراده

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٤.

باللفظ صار التمنّي كالمبدأ للكذب، فصحَّ أنْ يُعبَّر عن الكذب بالتمنّي، وصحَّ أنْ يقال عن الأحاديث المختلقة بأنَّها لا تعدو كونها أمانيَّ وهمية، لأنها مجرد تصورات لا تستند إلى الحقيقة والواقع، فإذا رأيت من يختلق الكذبَ، فإنَّما يكون وراء ذلك دوافعُ نفسية لأَن يحقق أمنيةً معينة. .

والتمنّي، بهذا المعنى، لا يوصل ـ مبدئياً ـ إلى نتائج مرجوة، أو محسوسة، فإذا تمنَّى الإنسانُ أن يمتلك الثروة والغنى، وقبع في بيته بلا سعي أو عمل، ولا بحث عن السبل والوسائل التي تمكّنهُ من ذلك. . فأيُّ مالٍ يجني، أو غنىً يأملُ؟!. . إنْ هو إلّا مجرد تصوّر يخادع به نفسه، ولذلك يبقى ملوماً محسوراً. .

هذا من حيث المجرى الطبيعي للأمور، ومن حيث ربط النتائج بالأسباب. . .

ولكنْ، أليس في الحياة من يكون لديهم تصوراتهم، فيكذبوا، ويداهنوا وهم يُمنّونَ أنفسهم بالحصول على المكاسب والمطامع التي يريدون؟! بلى، فهؤلاء لا تكون تصوراتهم آتيةً من فراغ، ولا من خداعٍ لأنفسهم، بل عن دوافع إرادية، وإنَّما يستعملون، لتحقيق أمانيهم، الغشَّ، والخداع والتضليل، وغالباً ما ينجحون لأنهم يجدون من يماشيهم في خططهم، ممّن هم أمثالهم، ولأنهم يستطيعون أنْ يستغفلوا كثيراً من الحكام والمسؤولين الذين يتخذونهم مطايا لمآربهم!. . فهذا واقع قائم، وخاصة في هذه الأيام، ومثاله أولئك الذين يملكون أكبر الشركات ورؤوس الأموال في العالم، ويسخّرون كل شيءٍ لخدمة مصالحهم!.

أما المؤمن فلا تأخذه الأمانيُّ الوهمية، ولا ينساق وراء الرغبات الخيالية، كما أنه يربأ بنفسه أنْ يكون من الكاذبين والاستغلاليين الذين يخادعون أنفسهم، ويخدعون الناس.. ولذلك فهو ينطلق من واقع حياته، ومن معرفة قدرته وإمكاناته، ومن صِدْقِ سريرته، ونظافة سلوكه ليبني عليها تطلعاته، وآماله وأمانيه، وهذا يعني أنَّه بعقيدته وإسلامه قد نزع من نفسه كلَّ التصورات الوهمية، وكلَّ الأمانيّ الباطلة التي تحمل الظنَّ والكذبَ، والتي لا تعبّر، في الأصل، عن شخصيته الإسلامية، فانبرى في الحياة يسعى ويجدُّ على بصيرةٍ من ربّه تعالى، وعلى أصلٍ ثابتٍ من دينه القويم.. وفي هذا المجال فقد رُويَ عن عثمان بن عفان ﷺ أنه قال: «ما تغنَّيْتُ وما تمنَّيْتُ منذُ أسلمتُ»؛ فقد كان عثمان ﷺ من أصحاب الجاه والثروة في قريش، فلمَّا اعتنق الإسلام لم يعدْ يغُرُّهُ شيءٌ من متاع الدنيا، أو من الخُيَلاء والتكبّر، والتغنّي بما هو عليه وما يملك، بل أشاحَ بناظريْهِ عن ذلك واقتلع من نفسه مشاعر الغرور والاعتزاز، ليكون مؤمناً، مطيعاً لله ورسوله ويكفي للتدليل على صدق ما قال، وإخلاصِهِ لدينه، ما قدَّم من الأموال الطائلة لتجهيز الجيش الإسلامي إلى غزوة تبوك، الذي عرف بجيش العسرة؛ فقد ورد في السيرة النبوية الشريفة أُنَّ عثمان ﷺ ساهم بتجهيز ذلك الجيش بألف دينارٍ من النقود، وثلاثمئة بعير، وخمسين فرساً؛ ـ وتلك أرقام كبيرة في ذلك الوقت ـ ولكنها زهيدة بمقياس صدق الإِيمان..

ومن مآثر التربية الإسلامية في القرآن الكريم النهيُ عن التمنّي الذي قد يؤدي إلى التحاسد والتباغض بين الناس، كما يهدي إليه قول

الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١]..
ويضربُ القرآنُ المثلَ على ذلك بأولئك الجماعة من بني إسرائيل الذين كانوا يتمنّون أنْ يكونَ لهم ما لقارون من الثروات والقصور والأملاك. فقد كان قارون من قوم موسى عليه السلام، وآتاه الله من الكنوز ما يثقل على جماعة من أولي القوة حمل مفاتيحه، فلمَّا خرج موكبه، كعادته، على بني قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياةَ الدنيا ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢]، ولكنَّ الذين أوتوا العلم حذّروهم من ذلك التمنّي بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[٣] أجل، ثواب الله تعالى خيرٌ من كل ما أوتيَ قارون، وأمثالُهُ في هذه الدنيا.. ويشاءُ الله القادر المقتدر أنْ يظهر حكمتَهُ للناس، فخسف الأرض بقارون ودوره وكل ممتلكاته، فهلك، ولم يبقَ له أثرٌ بعد عين؛ وهنا تجلَّت مشيئة الله تعالى، لكي يتَّعظ الناسُ الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مكانَ قارونَ، وهم يرونَهُ بالأمس على تلك المظاهر، فيعودوا إلى وعيهم، وهم يردُّون العطاءَ، والغنى والجاه إلى الله عزَّ وعلا، يقول تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٤].

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٠.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٢.

والعظات التي يقدمها هذا النصُّ القرآنيُّ كثيرة، وعظيمةٌ بمدلولاتها.. ولكنْ أهمُّها الإيمانُ بأنَّ الله تعالى هو الذي يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيّق على من يشاء، للأمانيّ الكاذبة التي يوهم بها الناسُ أنفسهم، فهو سبحانه يُؤْتي الملكَ من يشاءَ، وينزعُ الملك ممن يشاءُ، ويعزُّ من يشاءُ، بيده الخيرُ، وهو على كل شيء قدير.

وقد فسَّر كثيرون التمنّي بمعنى: التلاوة أو القراءة، ولذلك يقال في اللغة: تمنَّى فلانٌ الكتابَ، أي قرأَهُ، وأنشد شاعر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت:

تـمـنَّـى كـتـابَ الله أولَّ لـيـلِـهِ وآخِـرَهُ لاَقَـى حِـمـامَ الـمـقـاديـرِ

أي: إنَّهُ قرأَ القرآنَ أول الليل، وآخرَهُ توفَّاهُ الله، فلاقَى قدرَه الذي ينتظره..

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١). وقد فسَّر مجاهد ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ فقال: إلَّا كذباً. وقال ابن جرير: إلَّا تلاوةً..

فهذا إخبارٌ عن اليهود من حيث إنَّه كان منهم ﴿أُمِّيُّونَ﴾ يجهلون أحكام التوراة، فلا يعلمون من هذا الكتاب إلَّا ما كان يلقنهم إيَّاه أحبارُهم وعلماؤهم، بعد أنْ أدخلوا على نصوصه كثيراً من التحريف والتبديل بما يتوافق ومصالحهم وأهواءهم، وقد أثبت القرآن ذلك في الآية ٧٩ من سورة البقرة، التي تلي مباشرةً الآية ٧٨ المذكورة آنفاً؛ بما يتوعَّدهم به ربُّ العزة والجلال على التزوير الذي يدخلونه على التوراة، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وهذا ما يبيّن أنَّ عامةَ اليهود كانوا من الأميين، الذين لا يعلمون من كتابهم التوراة إلاَّ مجرد التلاوة السطحية، من دون فهم المعاني والأحكام والمقاصد التي تبيّن لهم أمور دينهم ودنياهم، ما جعلهم يعتمدون في ذلك على أحبارهم وعلمائهم الذين كانوا يكتبون لهم الصحائف المزورة، ويقولون هي من عند الله!.. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فقد يكون في تفسير مجاهد لفظة «الأماني» بمعنى الكذب، ما كان بنو إسرائيل يعتقدونه ويُمنُّونَ به أنفسهم الفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النار، وكان ذلك اعتقاداً راسخاً في أذهانهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).. فتلك هي أمانيُّ اليهود حول الآخرة، وهي أنَّهم لن يدخلوا نار جهنَّم إلَّا لأيام قلائل معدودة.. ولكنْ من غير أنْ يستندوا في تلك الأماني إلى أي أساس لا بوعد من الله تعالى، أو بوعدٍ من أنبيائهم، ومن دون أن يلتفتوا في كذبهم إلى عدل الله العليم الحكيم، الذي يجعل مصيرهم ـ بل ومصير كل واحدٍ من الناس ـ مرتبطاً بتقوى الله تعالى، والعمل الصالح، وهذا ما يجعل كلَّ أمانيّهم لا تستقيم مع العدل الإلهي، ولا تتوافق مع التصور الصحيح لمعنى الثواب والعقاب.. وأفعال اليهود يحصيها عليهم القرآن المبين، وأبرزها

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٠.

وأعظمها خطراً: تطاولهم على العزّة الإلهية ـ والعياذ بالله ـ وقتلهم الأنبياء بغير حق، واعتقادهم بأنهم شعب الله المختار. أمَّا الكيد اليهودي، وصانعته منذ قرون، الصهيونية العالمية، بما تُحوك من المؤمرات، وما تدبّر من الفتن، فإنَّه يقع تحت سمع العالم وبصره.. ومن لم يعلم ذلك، ومن لم يصدق، فما عليه إلَّا الاطلاع على مؤلفاتهم، ولاسيما كتاب التلمود، وكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون»، وعلى تاريخهم في أوروبا قديماً، ونفوذهم في الولايات المتحدة الأميركية حديثاً، والإرهاب الذي يمارسونه على الشعب الفلسطيني يومياً في أرضه التي اغتصبوها بالقوة والمجازر!.. وما أضافوا على سجلهم الإجرامي في الحرب المدمرة على لبنان، وله أنْ يحكم بعد ذلك على ما يوهمون به الناس من التعاليم التلمودية التي تقدم للناس «الشخصية اليهودية» على أنها النموذج لشعب الله المختار، أما سائر الناس غيرها، فهم دونها مستوىً في كل شيء!!.. والغريب في هذا الأمر أنْ يرضخ عالم الغرب، الذي يعتبر حاله متقدماً، لهذه المقولة، ثم يتهمنا، نحن المسلمين الذين نرفض المقولات الباطلة، بأننا متخلفون!.. في كل شيء!!..

وعن التمنّي بمعنى: التلاوة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[1].

وهنا لا بدَّ من التذكير بالعهد الذي أخذه الشيطانُ على نفسه بأنْ يُغويَ بني آدم ويضلَّهم، بحيث يستهدف بإغوائه، قبل الناس جميعاً، كلَّ رسولٍ أو نبيٍّ يبعثه الله تعالى لهداية بني آدم، ومن ذلك أنْ يمَنيَهُ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.

الأمانيَّ التي تبعده عن مقاصد الدعوة التي يحمل.. ولكنَّ الله تعالى غالبٌ على أمره، وهو سبحانه عاصمٌ رسله وأنبياءه، وهذه العصمة هي التي تحول دون أنْ يكون للشيطان عليهم سلطانٌ أو غلبة، أو غواية.. ولم يختلف الحالُ مع خاتم النبيين محمد ﷺ، إذْ وقف المشركون في مكة، وبمناصرةِ أحبار اليهود لهم في يثرب، يتصدّون للدعوة الإسلامية بكل الأباطيل المضلّلة.. حتى إذا لم يُفلحوا انقلبوا على المسلمين بالأذى والعذاب حتى يفتنوهم عن دينهم، ما جعل النبيَّ ﷺ يأمرهم بالهجرة[1] إلى يثرب (المدينة المنورة) هرباً من أذاهم وعداوتهم..

ولعل من الأمثلة التي تدل على تلك العداوة الشديدة التي كان يكنّها المشركون واليهود للنبي ﷺ حادثة الغرانيق التي استغلّها أحبار اليهود، ورؤساء المشركين في بداية عهد الدعوة الإسلامية ثم توالت فصولاً من أعداء الإسلام منذ ذلك التاريخ بما شابَها من روايات ملفقة ومصطنعة كان أبطالها المستشرقون الذين يؤيّدون الصهيونية العالمية، ومن تابعهم من أصحاب دعوات الضلال، وجميعهم من الذين دأبوا على نفث سموم خبثهم ودهائهم على الإسلام، فألَّفوا حول «الغرانيق» في معرض المصنفات والمؤلفات والأبحاث التي تناصب العداء لهذا الدين وأهله، ما جعل هذه العداوة لا تشكل ثقافةً لأبناء اليهود وحدهم، بل ولأبناء الغرب بأسره، فصار الطفل يرضعها من حليب أمه كراهيةً للإسلام والمسلمين.. ونحن لا نقول ذلك جزافاً، بل نعطي مثالاً صارخاً على ذلك قد يكون أكثر شيءٍ عجباً في هذه الدنيا،

---

(١) ولقد كانت للمسلمين هجرتان: هجرة أمانٍ إلى الحبشة، وهجرة إيمانٍ إلى يثرب (المدينة المنورة).

فاستمعوا إلى ثقافة إسرائيل لأطفالها الصغار وهي تعلّمهم أنْ يغنّوا، في الطريق إلى المدرسة، الأغنية التي تقول: عدوي، عدوي الفلسطيني.. يأكل ثمرة شجرتي.. يشرب حليب بقرتي!.. يلبس ثوبي!. يسكن بيتي!. يعيش في أرضي التي اغتصبها منيّ.. أقتلُ، أقتلُ عدوّي، فأنام ملء جفوني!.. أرأيت إلى هذه الثقافة التلمودية؟؟!!.. ثم عودوا إلى شاشات التلفزيون على كثير من القنوات الفضائية كيف جاء حكام دولة إسرائيل بأطفالهم، ليكتبوا على الصواريخ والقذائف التي تقذفها طائراتهم ومدافعهم حمماً على رؤوس المدنيين في لبنان صيف ٢٠٠٦ م، العبارة التي لا يمكن أن يتصورها أحد، وهي: «هدية من ناتالي، ودايڤيد ورابين.. إلى أطفال لبنان»..

وأمّا حادثة الغرانيق فهي تتلخَّصُ بأنَّ النبيَّ ﷺ كان يتلو بجوار الكعبة الشريفة، وعلى مسامع حشدٍ كبيرٍ من المسلمين والمشركين «سورة النجم» التي أنزل الله تعالى في مطالعها الآيات البيّنات التي تصدّق النبي ﷺ في إسرائه ومعراجه، وتؤكد حقيقتهما الكونية.. فلمَّا بلغَ من السورة الآيتين ١٩ و٢٠، وتلا قولَ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، إذا بأحد المشركين ينتفض صارخاً وهو يقول: وإنهنَّ الغرانيقُ[1] العلى، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى.. أما دافعه إلى ذلك فكان خوفه أن يعيبَ «محمدٌ» ﷺ أمام ذلك الجمع الغفير تلك الأصنام الثلاثة التي يعبدونها، جرياً على عادته ﷺ كلما ذُكرت أصنامُهم، ولذلك وقف يمتدحها ببلاهةٍ منه ما بعدها بلاهةٌ، ولو انتظر قليلاً لسمع ذمَّها من ربّ العالمين، كما يتبين من

---

(١) الغرانيق: جمع الغرانِق، والغرانق هو الشاب الأبيض الجميل، أو الشاب النامي، والمرأة الغرانق أو الغرانقة هي الشابة الممتلئة..

الآيات التي تابع النبيُّ ﷺ تلاوتها، من غير أنْ يعبأ لصراخ ذلك المشرك؛ ما جعله ينكفئ، ويقعد ملوماً، مخذولاً، لا ينبس ببنت شفة بدليل أنْ لا أحد من المشركين الحاضرين، قام وسانده..

وهنا تبدأ جديّة القضية، لوضعها في إطارها الحقيقي، وهو أنَّ المشرك لما قام يصرخ بمقولته تلك، فإنما كانت بما وسوس له الشيطانُ من زخرف القول ليلقي في تلاوة النبي ﷺ ما في أذهان المشركين بعض الشأن لأصنامهم، التي لا شأن لها، ولا اعتبار إلاَّ في عبادتهم الوثنية.. فتلك كانت أمنية الشيطان التي وسوس بها للمشرك!.. ولكنْ أينَ أمانيُّهُ والله تعالى يخزيه وأتباعَهُ في محكم كتابه المجيد بما أنزل من آياتٍ محكماتٍ تبيّن وساوس الشيطان وأمانيه وما يترتب عليها من محنةٍ لأتباعه من الكفار والمشركين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(1).

إنَّ معاني هذه النصوص القرآنية الكريمة واضحة الدلالة بذاتها: أي وما أرسلنا من قبلك يا محمدُ من رسولٍ ولا نبيّ إلّا إذا تلا آياتنا ألقى الشيطانُ في تلاوته ما يمنّي به نفسه من إدخالٍ على تلك الآيات، ولكنَّ الله ـ تعالى ـ يبطل ما يُلقي الشيطانُ، ثم يثبتُ، ويحكم آياتِهِ

---

(1) سورة الحج، الآيات: ٥٢ ـ ٥٤.

بالألفاظ والمعاني والمقاصد التي يعجز الشيطان عنها، لأنَّهُ أحقرُ من أنْ يقدر على ذلك، لأنَّ آيات الله إعجازٌ بذاتها للعالمين، من الناس والجن أجمعين، فلا يمكنُ أنْ يشوبها أَيُّ تحريفٍ، أو تبديلٍ، أو تزويرٍ، ولا يطالها أيُّ إدخالٍ لأنَّها الذكر الحكيم وقد حفظه العليُّ القدير إلى قيام الساعة بقوله العزيز﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

والقضية ليست فقط في إبطال أمانيّ الشيطان، بل بما يترتبُ على ما يلقي الشيطانُ ـ على ألسنة وأقلام أتباعه ـ من التبعة، إذْ تتبدَّى حكمةُ ربِّنا سبحانه وتعالى بأنْ يجعل ما يلقي الشيطان محنةً للذين في قلوبهم مرضٌ من النفاق والخداع، ومحنةً للقاسية قلوبهم عن قبول الحق، بحيث يكون الظالمون الذين يتّبعون الشيطان، من الكفار والمشركين، في نزاعٍ وخلافٍ ليس بينهم وبين المؤمنين وحسب، بل في ما بينهم هم أنفسهم على المصالح الدنيوية!... وبالمقابل فإنَّ المؤمنين ، ولا سيما أهل العلم منهم، ليعلمون أنَّ ما أنزل الله تعالى من الآيات القرآنية إنَّما هو الحقُّ من ربك يا «محمدُ»، فيؤمنون به وتطمئن له قلوبهم، فيسيرون على هدى من ربهم الذين يهديهم إلى صراطٍ مستقيم.. وليست تلك الرواية التي عرفت بـ«الغرانيق» إلَّا حادثاً عابراً، يبيّن مقدار العداوة للنبي محمد ﷺ، أمّا المدلولات القرآنية العظيمة فتتبدى بما سبقها من معجزة الإسراء والمعراج، إذ لمَّا شعر النبيُّ ﷺ كأنَّ هنالك نوعاً من العناد والإصرار على صدّ الناس عن الدين الذي يدعو إليه، هنا، وفي هذا الوقت بالذات وقعت أعظم

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

معجزة عرفها الإنسانُ عندما أسرى الله تعالى بالنبي محمد ﷺ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات العلى ليريَهُ من آياته الكبرى. . . وسواء ركن المشركون حينئذٍ، أو ركن الناس إلى حدوث هذه المعجزة، فإنَّها حقيقةٌ لا يجوز لأحدٍ أن يخالفَ فيها ما دام أثبتَها ربُّ العالمين في القرآن الحكيم بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

. . . ووقعت معجزةُ الإسراء والمعراج، وعادَ النبيُّ ﷺ في الليلة نفسها إلى مكة، ومن الطبيعي أنْ يصبحَ ويخبرَ الناسَ بما جرى معه، فصدقَه المسلمون، وأبى المشركون أنْ يصدّقوه، فقدَّم لهُمُ البراهينَ الحسية، عندما وصف لهم بيت المقدس بأدق التوصيف، وإشهاد التجار الذين كانوا يذهبون إليه على صدقية وصفه، فوافقوه. . ثم أخبرهم عن عيرٍ لقريشٍ مرَّ عليها في مكان يدعى «الروحاء»، وهو في طريق العودة من بيت المقدس، فلما وصلت إلى مكة تأكَّدَ لهم أيضاً صحةُ ما أخبرَ محمد ﷺ عن تلك العير. . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل أهلُ الضَّلال على ضلالهم. . بل سعى رجال منهم إلى أبي بكر ﷺ، فأخبروه بما حصل مع النبي ﷺ فصدق الخبر لتوِّه، فسماه النبي ﷺ مذ ذاك «الصِّدِّيق». وليس هذا المهم، بل الأهم أنَّ الله سبحانه وتعالى أثبت معجزة الإسراء والمعراج مرةً أخرى في سورة النجم. . وإنَّ في فهم الآيات التي وردت في مطلع سورة النجم، ما

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

يُمكنُ لكل منصفٍ عاقلٍ أنْ يضع حادثة «الغرانيق» في إطارها الواقعي الذي لا يتعدَّى صرخة مشرك وسوس له الشيطان بها، ثم تلاشت هباءً في الهواء، ثم ليعتبر الإنسان المنصف أن ما ذهب إليه أعداء الإسلام حول تلك الحادثة لا يتعدى التأويلات والأباطيل التي يدحضُها كتابُ الله جملةً وتفصيلاً. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[1].

من مجمل معاني هذه الآيات المباركة يمكن أنْ نفهم:

أنَّ الله تعالى، وهو ربُّ السماوات والأرض، يقسم بحادثةٍ كونيةٍ، وهي أنَّ سقوط هذه النجوم، أو إحدى هذه النجوم التي ترونها في السماء الدنيا من فوقكم.. والتي وضَعَ لها السننَ التي تسير عليها، إنَّما يكون بمشيئة الله وحده، لأنه قادر على أنْ يحرقَ أي نجم منها، فيغيب إلى غير رجعة، أو أنْ يُدخل أي نجم منها، في أحد الثقوب السوداء، فيهوي إلى أعماقٍ لا يعلمها غيرُهُ ـ جلَّت قدرته ـ.

ولكنْ لماذا هذا القسم العظيم من ربِّ العزة والجلال؟

لكي توقنوا أيُّها المشركون ـ ويوقن الناسُ من بعدكم إلى يوم الساعة ـ أنَّ صاحبكم محمداً ـ ومدلوله تعبير «صاحبكم» إنما يعني معرفتهم له حق المعرفة ـ ما بَعُدَ عن طريق الهدى، وما لابَسَ

---

(١) سورة النجم، الآيات: ١ ـ ١٢.

الغيَّ[1]، وما ينطق عن هوىً في نفسه، بل إن ما يتلو عليكم من الآيات إنْ هو إلّا وحيٌ يُوحى إليه من ربه، علَّمهُ إيَّاهُ جبرائيلُ الأمين، الذي قد رآه لأول مرةٍ على صورته الملائكية، عندما كان معتكفاً في غار حراء، قابعاً في زاويةِ صخرةٍ من ذلك الجبل في مكة، علَّهُ يهتدي إلى حقائق ملكوت السماوات والأرض التي كانت نفسه تتحرّى البحث عنها. . ففي هذا الوقت بالذات، وهو على تلك الحالة من الاتصال الروحي بملكوت الله تعالى، رأى جبريل عليه السلام بالأفق الأعلى، على صورته التي خَلَقَهُ الله عليها، وهو يسدُّ ما بين المشرق والمغرب، ثم يناديه: يا محمَّدُ! أنتَ نبيُّ هذه الأمة، وأنت خاتم النبيين، ورسول رب العالمين للناس أجمعين. يا محمَّدُ! . . أنا الملك جبرائيل، أنقل إليك الوحي من الله ربك، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ . . ووعى النبي صلى الله عليه وآله بقلبه، وتلا بلسانه ما أقرأه إيَّاه رسولُ الوحي، ثم نزل جبرائيل من سافح الأفق الأعلى وتحوَّل، بأمر الله تعالى، من هيئته الملائكية إلى هيئة بشرٍ، ثم دنا من النبي صلى الله عليه وآله حتى كان على قاب قوسين أو أدنى منه، فعاد يلقّنه أول الوحي الذي ينقله إليه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

ومنذ ذلك الحين ربط الله تعالى على قلبيهما بالألفة والمحبة، والأخوة، التي لا يضاهيها إلّا حبّهما لله العلي العظيم؛ وعلى مدار ثلاثٍ وعشرين سنة من الوحي، كان جبرائيل عليه السلام يأتي النبيَّ صلى الله عليه وآله

(١) الغيُّ: جهل عن اعتقادٍ فاسدٍ.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

وهو على هيئة بشرٍ؛ ولذلك يأتي التوبيخُ من الله تعالى لكل من لا يصدّق محمداً بأنَّهُ رأى جبرائيل الأمين لأول مرةٍ على صورته الملائكية، تلك التي كان يسدُّ بها الخافقين؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾. . . لا، ما كذب فؤاد محمد ﷺ ولا عقله ولا بصرُهُ وهو يتلقى الوحي من جبرائيل وهو على تلك الصورة، أفتحاجُّونَهُ أنتم على ما يرى بعينه، وما يدرك بكامل حواسه، ووعيه؟؟!! إنَّه الصادق، وأنتم الكاذبون. . وهذا بذاته دفاع من الله ـ جلت عظمته ـ عن النبي ﷺ، فهو مصون ومسدّد من ربه منذ نعومة أظفاره، فكان حقاً وصدقاً أنَّ صاحبكم «محمداً» ما ضلَّ عن طريق الهدى، الذي هو جزء من كيانه قبل بعثه، فهل يضلُّ بعد أنْ ندبَهُ ربُّهُ العزيز الحكيم لأجلِّ مهمةٍ وأقدسِها، وهي إبلاغ الإسلام للناس كافة؟! أبداً. . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى عن طريق هداية الله وما آتاه من الرشد. . ودفاع الله عن عباده المؤمنين يثبتُهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1]، إذنْ ليس لأحدٍ مجادلة النبي ﷺ على ما يقول، أو ما يقرأ من قرآنٍ، لأنه لا ينطق عن هوىً، بل هو وحيٌ يوحى إليه من الله، علَّمه إياه ملك شديد القوى، وذو قوةٍ خارقة، تمكّنه من أن يخترق آفاق السماوات، وهذا الملك، وهو جبرائيل الأمين إنّما ينقل إلى النبي ﷺ ما يوحي به تعالى إليه. .

وكلُّ ذلك كان مسبوقاً بقسم الله تعالى على ظاهرة كونية، ليأتي ضمن مفاعيل، ومصاديق هذا القسم الإلهي، بيانٌ لظاهرة كونية أخرى وهي المعراج الذي نقل النبي محمداً ﷺ من الأرض، وبالتحديد من

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٨.

عند المسجد الأقصى في بيت المقدس إلى السماوات العلى، وقد حمله جبرائيل عليه السلام بين أطباق السماوات حتى وَصَلَ به إلى عند سدرة المنتهى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[1]، أي لقد رأى محمد ﷺ أخاه وحبيبه جبرائيل الأمين عليه السلام مرةً أخرى على هيئته الملائكية، ولكنْ أين هذه المرة.. عند سدرة المنتهى، التي ينتهي إليها الملائكة المقرَّبون، عند أحد أطراف العرش العظيم، وعند تلك السدرة، الجنة التي يرتادها هؤلاء الملائكة، وتأوي إليها أرواح ونفوس الشهداء، الذين اختارَهم العليُّ الكبير لشرف الشهادة.. وعندما يخبرُ محمد ﷺ عن ذلك فهو صادق، وعن كامل وعي وإدراك، لا بظنٍّ، ولا وهمٍ، ولا حُلُم، لأنه كان في يقظة تامةٍ، وحاضراً بجسده ونفسه وروحه في ذلك العروج المبارك الذي لم يبلغه أحدٌ من العالمين، لا قبلَهُ ولا بعدَهُ، وقد رأى في ذلك العروج من ملكوت السماوات، ومن آيات الله الكبرى ما لم يرَهُ إلَّا الملائكة المقربون وجبرائيل الأمين..

تلك هي الأحداث التي أنزل الله تعالى فيها آياتٍ بيّناتٍ لمن يتذكَّرُ أو يخشى.. وأثناء تلاوتها وقعت حادثة «الغرانيق»، التي لم تكن إلَّا مجرد موقف عابر من مشرك، انتهى في ساعته.. إلَّا أن أحبار اليهود في يثرب، وما إنْ علموا بتلك الحادثة العابرة، حتى اتخذوا من «الغرانيق» سلاحاً يمتشقونه هم، والمشركون في مكة، دعايةً إعلامية، بعد أن قلبوا الحقيقة رأساً على عقبٍ، حتى يوهموا

---

(1) سورة النجم، الآيات: ١٣ ـ ١٨.

الناس بأنَّ محمداً يمتدح الأصنام.. ولكنَّ تلك الدعاية لم تنفع بشيءٍ، لأنَّ المسلمين كانوا حاضرين، وسمعوا ورأوا ما حصل بأنفسهم، فلم تؤثر عليهم، لا من قريب ولا من بعيد، لأنهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا شاهدين، فهم يعرفون الفصحى جيداً، ويفهمون تماماً ما تعنيه الآيتان ١٩ و٢٠ من سورة النجم، التي تحمل التهكُّمَ والتوبيخ للمشركين في عبادة تلك الأصنام من الحجارة التي لا تنفع ولا تضرّ بشيء..

ويمكن أن نستدلّ من معاني الآيتين المباركتين بعض الأمور، وأهمها:

أفرأيتم هذه الأصنام، هذه الحجارة الجامدة، هل يمكن أنْ تفعل شيئاً ممَّا هو من قدرة الله تعالى ومشيئته؟ فهل تجعلُ نجماً يهوي أو يغيب؟ وهل تخترق قوانين الجاذبية، وتطيعها السُّنَنُ الكونية فتنقُلَ بشراً بين أطباق السماوات السبع؟ وهل تعلمون أنتم أيها البشر شيئاً عن سدرة المنتهى، التي عندها جنة المأوى، إلّا ما يتلوه هذا النبيُّ الأمينُ على مسامعكم من آياتٍ حولها؟

... فأي إنسان عاقلٍ، لا بدَّ وأنْ يتبيّن له أنَّ ذكر تلك الأصنام، بعد الذي سبقها من الآيات البيّنات، إنَّما كان لإيقاظ المشركين من غفلتهم، وتسفيه أحلامهم باتخاذ أوثانٍ، آلهةً يتعبدون إليها، بل وهي تخزي الشيطان وأمانيَّهُ، في كل محاولةٍ يجنِّد نفسَهُ، وقبيلَهُ من الإِنس والجن من أجل تكذيب آيات الله عزَّ وجلَّ، والصدِّ عن سبيله القويم، ليُبقي الناسَ على الضلال والشرك، أو يدفعهم إليهما!...

ذلك هو الإطار لما عرف بـ«الغرانيق»، والتي لا تتعدَّى مجرد

صرخة مشرك! . . إلَّا أنَّ أعداء محمدٍ ﷺ أرادوا أنْ يجعلوا منها حادثةً «تاريخية» تصبُّ في خدمة أحقادهم على هذا الرسول الكريم، فنسبوا إليه ما قاله ذلك المشرك من قريش، دونَ أنْ يدركوا أنَّ ذلك من شأنه أنْ يخزيهم هُم، ما دام القرآنُ حاضراً أبداً، ليبيّن الحقيقة الناصعة، ويجعل رواياتهم رخيصةً لأسبابٍ كثيرةٍ، وكثيرةٍ جداً، وتدحضُ كل مزاعمهم، ومن قبيل ذلك:

ـ أنَّ محمداً ﷺ بُعث برسالة التوحيد التي تنقض الشرك بكافة وجوهه وأشكاله . .

ـ أنَّه نبيٌّ ورسولٌ معصوم (مثل سائر الأنبياء والمرسلين) فلا يمكن أنْ يقع في غفلةٍ أو سهوٍ أو خطأ، لا في قولٍ أو عمل أو تلاوة . . أما إذا تمنَّى الشيطانُ، وألقى في تلاوة الأنبياء والرسل على ألسنة المشركين والكافرين والمنافقين، شيئاً من أمانيه، فإنَّ الله تعالى، الذي يملك ناصية الشيطان هو القادر المقتدر، فينسخ كلَّ أمنية أو تلاوةٍ يلقيها الشيطان، كما يؤكده القرآنُ الكريم في الآية ٥٢ من سورة الحج (التي أوردنا نصَّها قبل قليل) . . وقد خصَّ الله العزيز الجبار سيّدنا محمداً ﷺ بالحماية والحفظ والصون من الناس ومن أماني الشيطان ووساوسه. وعناية الله تعالى وصونه لكرامة خاتم النبيين شواهدها كثيرة في القرآن المبين، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١)، فإنْ تآمروا عليك ليقتلوك فتآمرهم فاشل، وإن مكروا بك،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

فمكرهم يرتدُّ عليهم، «وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال»، وإنْ آذوكَ بأيِّ شيءٍ من السباب والشتائم، والتقوّل عليك بالباطل، قولاً وكتابة، والتصوير بما ليس فيك، فإنَّ كرامتك مصونة عند الله تعالى، لأنهم قوم كافرون و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.. وإنْ أغواهم كفرهم لأن يستهزئوا بك فـ«إنَّا» لهم بالمرصاد، قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فسوف يعلمون عاقبة استهزائهم، بما نذيقهم من العذاب في الدنيا والآخرة..

- إنَّ الله تعالى قد أنزل القرآن على قلب محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

- إنَّ ربَّ العالمين قد أرسل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين، لقوله الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3]..

وكان أحرى بأعداء محمدٍ ﷺ، خاتم النبيين وسيّد المرسلين، وحبيب ربّ العالمين، أنْ يكونوا صادقين في تحرّي الحقيقة، ولاسيما في أبحاثهم لمطالع سورة النجم من القرآن المجيد التي كان من أولى مقاصدها التوكيد على قدرة الله تعالى، بحيث إنَّ أمرَهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ له: كنْ، فيكون، والتوكيد على صدق محمد ﷺ في ما

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٩٥ و٩٦.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

يبلِّغ من الوحي عن ربِّه عزَّ وعلا.. ولكنهم أرادوا أنْ يجعلوا من مقولة «الغرانيق» حادثةً «هامة»، فانقلب السحرُ على الساحر، لأنّه كان لها مدلولات إيجابية في التاريخ الإسلامي، وفي حياة المسلمين، على عكس ما تمنَّى أعداءُ دينهم، الذين كانوا يهدفون من وراء تلك المقولة ضرب المفاهيم الإسلامية..

أجل، إنَّها كانت في إطارها الضيّقِ مجردَ أمانيّ شيطانيةٍ على لسان أحد المشركين كي يشوّهَ تلاوةَ محمدٍ ﷺ. ولكن أنّى للشيطانِ وأعوانه أن يفلحوا في ذلك، ورسولُ الله ﷺ عاصمُهُ ربُّهُ من الخطأ، والله عزَّ وجلَّ هو مُنزِلُ القرآن، وهو حافظه من أيِّ دسٍّ أو تحريف، حتى وإنْ كانت أفاعيلُ الشيطانِ، وتأثيرهُ على النفسِ البشريةِ متعددةَ الأشكالِ والألوان كما يدلنا عليه قولُ الله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾[1]: يضلُّهم عن الحق، ويمنّيهم طولَ البقاء في هذه الدنيا.. وقوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[2].

يعدهم الشيطان كثيراً، ويمنّيهم كثيراً.. يعدُهم باللذائذِ، والمتع، ويمنّيهم بالثروة، والجاه، وتحقيق أهدافهم بمختلف الوسائلِ والأساليبِ، حيث لا يعودُ أتباعُ الشيطانِ يميّزون بين حلالٍ وحرامٍ، وبين طاعةٍ ومعصيةٍ، وبين حقٍّ وباطلٍ، وبين صوابٍ وخطأ.. ويصبح متاعُ هذه الدنيا همَّهم الوحيدَ، فلا يعودون يذكرون بعثاً ولا حساباً، ولا ثواباً ولا عقاباً.. وينسَوْن في انشغالاتهم الدنيوية أنّ ما يعدهم الشيطانُ ويمنّيهم به ليس إلا «غروراً»، أي باطلاً لا حقيقة له ولا

(١) سورة النساء، الآية: ١١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٠.

أصل. وهم إنْ وجدوا بعضَ آثاره في هذه الدنيا، فإنَّ نتائجَهُ الوخيمة سوف تكونُ في الآخرة ويلاً، وناراً محرقة، إذ لا مجالَ لأتباع الشيطان إلاَّ أنْ يكون مصيرُهم، مثيل مصيره، جهنّمَ وبئس المصير.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعَمِلَ إلى ما بعدِ الموت، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نفسَهُ هَواها وتَمَنَّى على الله الأمانيّ**»[1]، أيْ اختلق ما يشاء إرضاءً لشهواته، وتحقيقاً لرغباته غير المشروعة..

وفي ختام هذا البحث لا بدَّ أنْ نشير إلى أنَّ الأماني ليست رغبات تخمينية دائماً، لأنَّ الأمنية قد تأتي، في مناسباتٍ كثيرةٍ، تعبيراً عن شعور أصيل في ما تحبُّهُ النفس، فالألفة والمحبة وحسن الجوار، بل ومشاعر الإنسانية تشكل دوافع للأماني الطيبة، فأنتَ عندما تزور مريضاً في المستشفى فإنك تتمنَّى له الشفاء العاجل، وعندما تدخل على قريبك أو جارك أو صديقك، أو عندما ترسل لأحدٍ بطاقة معايدة، وتتمنَّى له عيداً سعيداً مجيداً، وعندما تأمل النجاح لولد في الامتحان، أو تتمنى له السعادة في زواجه، أو عندما ترغب في رضا الوالديْنِ.. فإنك، في أيّ شيءٍ من ذلك، قد تعبّر عن صدق شعورك، ورجاءٍ بتحقيق أمانيك.. فهذه الأمنيات، وأمثالها كثير، لا بدَّ وأن تُدخل شيئاً من السعادة إلى نفسك، ونفوس الآخرين..

ولكنْ قد تكون الأماني مجاملةً، وليست نابعةً من شعورٍ صادق، ومع ذلك فإنَّ طابعها يكون التودد إلى الغير، وربما كسب رضاه لغرض معين، كما لو يتمنَّى أحدهم الفوز لمرشح في الانتخابات، أو عندما يتمنَّى المستخدم رجوع مديره بالسلامة من

(١) سنن الترمذي، حديث رقم ٢٣٨٣.

سفره، أو عندما يستأجر أحدهم بيتاً جديداً فيتمنى له جاره التوفيق في إجارته الجديدة.. فمثل هذه الأماني، وغيرها مما يشابهها، قد يغلب عليها طابع المجاملة، أكثر من مشاعر المحبة، وهي تشكل الحدّ الأدنى من الأماني الإيجابية..

ويجب ألّا ننسى أنه قد يحدث في حياة الإنسان ما يبدّل مشاعرَهُ بحيث تتحوَّل من الكراهية إلى المحبة، ومن التعصب إلى التسامح، ومن الظن إلى اليقين، وبالعكس.. وكل ذلك تبعاً للظروف والأوضاع التي يعيشها الإنسان، وتؤثر، في محصّلتها، على حياته النفسية..

وأخيراً لا بدّ أن نوجّه هذه الدعوة الصادقة للناس، وهي ألّا تغرَّنهم الأماني، ولا يغرَّنهم الشيطان، لأنه لا يمنّي إلاَّ وفي أمنيَّته السوء، حتى لا يكونوا من الذين ينطبق عليهم في الآخرة قولُ الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1]، الغرور، هنا، الشيطان..

٣ ـ التفاؤل وعدم التشاؤم

التفاؤل: الشعور الذي يرتجي الخير، أو التمنّي الذي ينزع إلى الخير، من مثل الربح في التجارة، أو الترقية في الوظيفة، أو توقع النجاح في الامتحان، أو الفوز في الانتخاب، فهو إذاً شعورٌ حسنٌ يميل إلى حدوث شيءٍ في المستقبل، يَسُرُّ النفس.

والتفاؤل، في اللغة هو ضد الطِيَرَة، كأنْ يلتقي أحدهم بشخص، أو يرى شيئاً فيحسّ بالارتياح لرؤيته، أو أنْ يسمع كلاماً

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٤.

فيستبشر به بركة أو أملاً، فإذا سمع المريض قولاً طيباً مثل: يا شافي، يا سالم، أدخل ذلك الشعورَ في نفسه بتوقّع الشفاء والسلامة، أو سمع من يقول: يا واجد، إذا كان يكدّ في طلب شيء، فيتوقع الحصول عليه.. وكل واحد يقول: تفاءلت بكذا.. وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ الفألَ الحسن، وقد قال: «تَفَاءَلُوا بالخير تجدوه»[1].

والتفاؤل يصاحبه الرجاء، وهو الطمع في ما يمكن حصوله، أو ما يُراد منه تحقيق الأمل، أي توقع الخير ممن بيده الخير، وفي المشاعر يقال عن الرجاء بأنه تعلق القلب بحصول أمر محبوب في المستقبل.

وتتلاقى هذه المعاني: التفاؤل، الرجاء، الأمل، على أمر جامع وهو حب الخير وتوقع حصوله. وكل ما يفيد الإنسان، في نزوعه نحو الصلاح، هو خير له، ولذلك تقول: خيرية العمل وتعني صالح العمل، وتقول خيرية النفس وتعني تزكيتها، وتقول خيرية العلم، وتعني منفعته..

وضدُّ التفاؤل: التشاؤم. وهو من الشُّؤم أو الشُوْم الذي هو الشر، والشؤم ضد اليُمن، أي ضدّ السعة والبركة واليسار.

وتشأَّمَ وتشاءَمَ: تَطيَّر، وترقَّب الشَّرَ. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[2] أي أصحاب الشؤم والشر. وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[3]، أي وإنْ يُصِبْهُم جدبٌ أو بلاء يتشاءَموا بالنبي موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وفي اللغة يقال: تطيَّر فلانٌ واطَّيَّرَ: أصله التفاؤل بالطير،

---

(١) أحمد بن حنبل، ج٢، ص٢٧٠.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

وتطيَّر بالشيء ومن الشيء: تشاءَم، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾[1]، وهي مقولة أهل انطاكية، في تهديد الرسل الذين أرسلوا لهدايتهم، أي قالوا لهم: إنّا تشاءَمْنا بإرسالكم إلينا.. والتطيّرُ عادةٌ جاهليةٌ، إذ كانوا يتطيّرون بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها، (فالسانح هو ما والاك ميامنةً بأن يمرَّ عن يسارك إلى يمينك؛ والبارح ما يمرّ عن يمينك إلى يسارك)؛ فكانوا ينفّرون الظباءَ (الغزلان) والطيرَ، فإنْ أخذت طريقها ذات اليمين (من اليُمن) تبرّكوا بها، ومضوا في قضاء حاجاتهم، وإنْ أخذت ذات الشمال رجعوا عن ذلك وتشاءموا بها. فلما جاء الإسلام نفى أن يكون لتلك العادة أي نفع أو ضرر، فأبطلها..

وقد جاء النهي عاماً عن التشاؤم بأي شيء. عن عروة بن عامر ﷺ قال: ذُكرتِ الطِيَرَةُ عند رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنُها الفألُ ولا تَرُدُّ مُسْلِماً، فإذا رأى أحدُكم ما يكرَهُ، فليقُلْ: اللَّهُمَّ لا يَأْتي بالحسناتِ إلّا أنتَ، ولا يَدفَعُ السيئاتِ إلاّ أنتَ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ بك**»[2]، وقول رسول الله ﷺ: «**ولا تَرُدّن مسلماً**» معناه أن الإنسان المسلم إذا عزم على أمر، توكَّل على الله تعالى فيه، وحينئذٍ لا تردُّهُ طيرةٌ ولا غيرها، لأنه يعلم علم اليقين، أنَّ الأمر كله بيد الله تعالى.

وقد فسَّر النبي ﷺ «الفأل» بأنه «كلمة صالحة»، فقال ﷺ: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**»[3] قيل يا رسول الله: وما الفأل؟ قال ﷺ: «**الكلمةُ الصالحةُ يسمَعُها أحدُكم**».

(١) سورة يس، الآية: ١٨.

(٢) أحمد بن حنبل، ج٢، ص٢٦٩.

(٣) البخاري، باب الطب، ص١٩.

وهكذا يتبين أنَّ التفاؤل والتشاؤم يتأتيَّان، عادةً، عن أفكارٍ شائعة في المجتمع، تتسرَّبُ إلى نفس الإنسان منذ بداية علاقاته مع الآخرين، فتحصل عنده أفكار قد تراودُهُ بالخير أو الشر، أو تبعث في نفسه المشاعرَ التي يتوسَّمُ فيها البركة، أو يتوقع منها السوء. .

ومما لا شك فيه أنَّ الإنسان يجب أنْ ينزع من نفسه كل ما يتعلق بالشؤم أو الشر. ويكون ذلك بفعل الإرادة التي يجعلها تقوى على بواعث الشؤم، وتستبدل بها بواعث الأمل والرجاء، أو أماني الرضا والسعادة.

والشعور بالتفاؤل قد يولّد لدى الإنسان مناعةً نفسيةً ضد الأمراض أو الاضطرابات النفسية، وذلك بما يحصّن به نفسه من أفكار ومشاعر خيّرة. وعلماء النفس يتفقون على أنَّ الإنسان ـ على الرغم مما قد يعترضه من مشاكل الحياة ـ مدفوع بألاَّ يدع الشعور بالقلق، أو الاضطراب، واليأس يسيطر عليه، وهم يدعونه للتفاؤل بصورة مستمرة، وفي أي موقف صعب قد يعترضه.

وقد اعتمد الأميركيون لطرد التشاؤم من النفس على ما يسمونه «قانون الاحتمالات» وهو يعني أنْ يضع الشخص لكل مشكلة عدة احتمالات لمعالجتها، وأنْ يتوقع حدوث أسوأ هذه الاحتمالات، ثم يكون مستعداً لمواجهته بثقة وعقلانية.

ولكن هنالك مشاكل عديدة تتخبط فيها المجتمعات، ولا تدخل تحت مفهوم التشاؤم أو التفاؤل، لأنَّها غالباً ما تنجم عن المساوئ والمفاسد التي تنتشر بين الناس، ومن ثَمَّ تظهر آثارُها السيئة، وأحياناً القاتلة، على الصحة البدنية والنفسية. ولعلَّ أبرز الأمثلة على ذلك آفة المخدرات التي تغزو العالم كله، حتى طالت الأولاد في المدارس. . أو

مرض «الإيدز» الذي هو آخذ بالانتشار في كل المجتمعات تقريباً، ولا سيما في بلاد أفريقيا والغرب، بصورة مطّردة، حيث بات يصيب مئات الآلاف، ويهدد الملايين من البشر، بانتقال عدواه السريعة، نتيجة هذا الاختلاط المشين في العلاقات الجنسية، والتي كانت من «مآثر» الحرية الشخصية التي يتغنَّى بها الغرب، ويريد أنْ يصدِّرها إلى سائر الشعوب بتلك المساوئ التي تضرب كرامة الإنسان، وتطيح حياته الصحية!.. فلا بدَّ، إذاً، من معالجات، إنْ للأفراد، أو المجتمعات!..

ولو أخذنا الإسلام نظاماً للحياة، لوجدنا فيه من المقومات والمناهج ما يصلح الحياة في الأرض. فهو يعالج مختلف الأوضاع الاجتماعية، والتربوية، والصحية، والاقتصادية والسياسية وغيرها في ضوء كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، حيث نجد المعالجات الكافية لكل المشاكل التي تعترض حياة الناس، وإنْ تعقدت وتشابكت.. ويأتي في رأس العلاجات التي يقدمها الإسلام الإيمان الديني باعتباره العروة الوثقى التي تربط الإنسان بخالقِهِ، وتجعله يقيم علاقاته مع الناس بما يرضي ربَّه تعالى؛ فالمسلم يعلم أنَّ دينهُ يحرّم مثلاً الزنى بين الرجل والمرأة، واللواط بين الذكر والذكر، والسحاق بين الأنثى والأنثى، ويمقتضى هذا التحريم فإنَّه يمتنع عن تلك المفاسد، مما يحول ـ ولا ريب ـ دون أن تنتشر في المجتمع المسلم الأمراض الناجمة عن العلاقات الجنسية غير المشروعة، وغير الطبيعية، ومنها مرض الزهري، ومرض «الإيدز» أو غيرهما.. وتحريم الزنى، والعلاقات الجنسية الشاذّة لا يدّعيه الإسلام وحده، بل تحرّمه جميع الرسالات السماوية، ولكنَّ الفارق أنَّ الإسلام لا يزال يمسك بزمام الأمور في نفوس غالبية أبنائه، لأنَّ قواعد الحلال والحرام هي ما يقيم

عليها المسلمون كلَّ معاملاتهم وعلاقاتهم، وإنْ كان منهم من يخرج على تلك القواعد، ولاسيما في عهد الرعونة والشباب، إلّا أنَّهم لا يلبثون أنْ يعودوا ـ بعد انتهاء فترة الطيش ـ إلى الشرع الحنيف الذي ينتشلهم من موبقات حياتهم السابقة، في حين أنَّ الغرب قد أبعَد عن أذهانِ أبنائه القوانينَ الكنسية، وتعاليم النصرانية واليهودية، عندما أرسى مبدأ «فصل الدين عن الدولة»، واعتمد القوانين الوضعية، ومنها على سبيل المثال، القوانين التي تُبيح زواجَ الذكرَيْن خلافاً لطبيعة خلق الإنسان. . وقس على ذلك سائر التشريعات المتعلقة بالمال والاقتصاد والاجتماع والسياسة، بل وتشريعات وسائل الترفيه والمتعة، التي جعلت الحياة المادية تطغى على الحياة الدينية، فصارت النفوسُ خواءً من القيم الروحية، وصار همُّ الناس تأمين المال بأية وسيلةٍ كانت، ليعيش كلٌ على طريقته وهواه؛ بينما السيد المسيح عليه السلام قال كما ورد في أناجيلهم: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» لأنَّ للقيم الروحية شأناً، لا يقل أهميةً عن الخبز، في تربية الإنسان وطمأنينة قلبه، وسعادة نفسه. .

أما منهج الإسلام فالأساس فيه إقامة التوازن بين الحياة الروحية والحياة المادية، الذي يعبّر عنه القول المشهور:

اعمل لدنياكَ كأنَّك تَعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخِرتِكَ كأنَّكَ تموتُ غداً

وهذا ما يجعل الإسلامَ، بهذه المعادلة من التوازن بين متطلبات الجسد ومتطلبات النفس، أو بين متطلبات الحياة الدنيا ومتطلبات الحياة الآخرة، قادراً على مواجهة المشاكل، وإيجاد المعالجات السليمة لها، ويكفي أنَّه دين الله، دين رب العالمين، الدين الكامل،

التام والشامل الذي يجد الناسُ فيه المناهجَ التي أرسى أسسها القرآنُ الكريم، ودعا الناسَ إلى اعتمادها وتطبيقها حتى يعمَّ العدلُ والسلامُ في دنيا الأرض، وتستوي حياة الإنسان كما يشاءُ العليُّ العظيم. . ونحن لا نقول ذلك جزافاً، بل ندعو العالم كلَّهُ لأنْ يطَّلع على مناهج الإسلام الصحيحة، ولا سيما تلك المنبثقة من الأحكام الشرعية حتى يستيقن من صحة المنهج الرباني، ويقتنع بجعله منهجاً للحياة الإنسانية. .

إنَّ الحياة اليومَ، بكل تعقيداتها تبعث في النفوس التشاؤم، وزيادة انفعالات التوتر، والاضطرابات النفسية، لذلك عندما نركّز في أبحاث هذا الكتاب، بصورة دائمة، على الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وعلى الاعتقاد اليقيني بأنَّ هنالك بعثاً وحساباً، وجنةً وناراً، فإنَّ تركيزنا هذا عن عمدٍ وقصد، لأنَّ من شأن هذين العاملين إصلاحَ المناهجِ الأرضيةِ، لتكون مبنيَّةً على منهاج الله تعالى. . فعندما يثقُ الإنسان بخالقه ومدبّره الحكيم يسلك سبيل الحق والصواب والفضيلة، وعندها فإنَّ احتمال ارتكابه للحرام، أو الجريمة أو الفساد يصبح أقلَّ بكثير من احتمال إنسانٍ غير مؤمن، لايقيم أي وزنٍ أو اعتبار للخشية من ربه، وإيقاع العقاب به. . أي إنَّ الإنسانَ وهو يقوم بكل ما من شأنه أن يزكّي نفسه، ويعامل الآخرين بما يحبُّ أنْ يعاملوه به، ثم يؤدّي حقوق الله تعالى، فلا يبقى من مجال لأنْ يدعَ أفكار ومشاعرَ التشاؤم تسيطر عليه، لا بل على العكس، فإنَّ ذلك يبعث في نفسه الرجاء والأمل برحمة الله تعالى، ومحبته لعباده.

ثم إنَّ التفاؤل إذا ما أرادَ الإنسانُ الأخذ به، يجب أن يكون مقروناً دائماً بالعمل الصالح، الذي هو ـ في الاصطلاح ـ استقامة الحال على ما يدعو إليه الشرع والعقل، لذلك نجد خطابَ ربّ

العالمين، للرسل الذين بعثهم لهداية الناس، يأمرهم بالعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(١).

وفي خطابه عزَّ وعَلا للمؤمنين يبيّن لهم أنَّ من مقومات الإيمان تقوى الله، والقولَ السديد الذي يصلح أعمالهم، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٢).

بل وربُّ العزّة والجلال يعدُ المؤمنين الذين يعملون صالحاً بأنْ يحييهم حياةً طيبةً لقوله الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣)، وهذه الحياة الطيبة هي التي تطول فيها الأعمارُ وتعمُّها البركاتُ والخيراتُ، وتمتلئُ رحابُها بالأمن والسلام..

ولا بدَّ من التذكير بأنَّ هذه الحياة الدنيا إلى زوال، وأنَّ مصيرَ الإنسان الموتُ في نهاية المطاف، فمن كان يرجو رحمة ربّه، وثوابَهُ يوم الحساب، فعليه أنْ يعمل صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، كما يبيّنُهُ هَدْيُ محمد ﷺ وهو يبلّغُ وحيَ الله إلى العباد، بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٤).

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠ و٧١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١١١.

وجزاءُ المؤمن الذي يعمل الصالحات دخولُ الجنة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(١).. ويبشر القرآنُ الكريم المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنَّ لهم أجراً كبيراً، بقول الحق المبين: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٢)، وهذا الأجر الكبير هو ـ بلا ريب ـ الجنة...

ولا يحسبنَّ الإنسانُ أنْ يترك سُدىً في هذه الحياة الدنيا، بل ينتظره يومُ الدينونة حيث ينتصبُ ميزان العدل الإلَهي لينالَ كلٌّ جزاءه، فمن أجرم فعليه جرمه، ومن آمن وعمل صالحاً فأجره على الله ربه، كما يؤكده قولُ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾(٣) ـ في الجنة ـ.

وهذا العمل الصالح هو ما يحثُّ عليه علم النفس من أجل تقوية مشاعر التفاؤل على مشاعر التشاؤم؛ لأنَّ التفاؤلَ قد يساعد فكرَ الإنسان وجوارحه على تحمل المسؤولية، والإخلاص في العمل، ويجعله يتمسك بالجلَد والمثابرة على تهيئة الأسباب لمواجهة المصاعب في الحياة، بخلاف التشاؤم الذي غالباً ما يدفعه إلى الضعف، والتخاذل واليأس عندما تعترضه الشدائد، بحيث يذوي فكرياً وجسدياً، وتضيع حياته خيبةً وفشلاً..

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٧٤ و٧٥.

٤ ـ ترك الكبر والتواضع

ومن العوامل التي تساعد أيضاً على صفاء النفس، وخلودها إلى الراحة ترك الكبر والتواضع. .

أ ـ تركُ الكبر

الكبر هو الحالة التي يظهر فيها إنسانٌ من إعجابه بنفسه، كأن يرى المتكبّر نفسه أعلى شأناً، وأكثر قيمةً، وأرفع مقاماً من غيره، إمَّا بسبب منصبه، أو وجاهته أو ماله، وما إلى ذلك مما يدعوه إلى الاغترار. وأعظم الكِبَر: التكبّر على أوامر الله تعالى، من خلال التكذيب بآياته، والاستكبار عن اتّباعها، بحيث ينصرف المستكبرون عن قبول الحق الذي جاءت به الرسالات السماوية، والإذعان لله ربّهم بالعبادة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

والتكبر يكون على نوعين:

أحدهما: أنْ يتحرّى الإنسان، ويطلب أنْ يصير كبيراً، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، وهو محمود؛ ولعلَّ المثال على ذلك ما يفرضه البروتوكول من احترامٍ لرؤساء الدول، ومعاملتهم بما يليق بأعلى سلطة في دولة سيّدةٍ، فإذا لم تحفل مثلاً زيارة رئيسٍ لدولة أخرى بمظاهر البروتوكول المتعارف عليه، فإنَّ ذلك يدعو الرئيس الزائر لأنْ يتحرَّى عن الأسباب، ويتَّخذ الموقف المناسب، ليبقى كبيراً في نظر رعاياه، بل وفي نظر الدول الأخرى. . .

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

والثاني: أنْ يكون الإنسان متكلّفاً، متشبّعاً، فيظهر من نفسه ما ليس فيه، وهذا مذموم، قوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1]، ولذلك كان الكبر المذموم، صفةً خُلُقية ذميمة، فإنْ أدّى هذا الكبر إلى التعالي على الناس واحتقارهم، أو إلى إذلالهم واستضعافهم، صار عملاً محرّماً شرعاً ومنفّراً عقلاً..

ويُعَدُّ الكبرُ من أمراض القلب الخطيرة، ومن الحالات الانفعالية المكروهة، لأنه يشتطُّ بصاحبه عن الحق، ويجعله يعصي أوامر ربه عزَّ وجلَّ، فيكون مثله كمثل إبليس إذ عصى أمر ربّه أن يسجدَ لآدم عليه السلام، سجودَ انحناءٍ، تحيةً لخلقِهِ الكريم على ربه، فأبى واستكبر، وكان من الكافرين، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]؛ وسأله ربُّ العزّة والجلال عمَّا منعَهُ من السجود، إذ أمره بذلك، فأبدى كبره على أنَّهُ أعظم شأناً من هذا المخلوق الضعيف الذي هو من طين، بينما هو مخلوقٌ من نار، كما يبيّنه القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3].

وقضية الاستكبار هذه لا تزال قائمةً بآثارها المهلكة، وستظلُّ كذلك إلى يوم القيامة، إلّا أنَّ لها مدلولاتها من نواحٍ عديدةٍ، ومنها:

- أنَّ الاستكبارَ مرضٌ يصيبُ قلوب الكافرين، فكان مذموماً بصورة مطلقة..

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

ـ أنَّ المستكبرين هم من قبيل إبليس، الذين يستعلون على الناس، ويسلبونهم حقوقهم. .

ـ أنَّ الاستكبار نابعٌ من الأنفس، بادّعاء أصحابه امتلاك القوة والعنف، والسلطان والمواجهة، وكلّ ما يجعلهم، بحسب ظنّهم، أنهم «فوق البشر»!. . .

ـ أنَّ لعنة الله ـ عزَّ وعلا ـ تلحق هؤلاء الكافرين المستكبرين إلى يوم القيامة. .

وهذه المدلولات يمكن استخلاصها من الآيات الكريمة في سورة «ص» من القرآن الكريم(١).

وقد ظهر الاستكبار لدى بني إسرائيل بصورة سافرة، وعلى مدى تاريخهم، ومارسوه، ليس على الناس فقط، بل وعلى الرسل الذين كانوا يُبعثون لهدايتهم، ولذلك يسألهم العليُّ العظيم سؤال توبيخ وإنكارٍ بقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾(٢)، أي: في كل مرةٍ جاءكم رسولٌ من رسلي بغير الذي تهواه أنفسكم، تعاظمتُم وأنِفتم عن قبول دعوته التي يهديكم بها إلى الحق، وتكبّرتم عن اتباعه؟! وهذا ما يجعلنا نستشعر بأنَّ محاولة إخضاع رسل الله وشرائعه للهوى الطارئ، والنزوة المتقلّبة، هي ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانعدمت لدى الناس عدالة المنطق

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة ص، الآيات: ٧١ ـ ٧٨].

(٢) سورة، البقرة الآية: ٨٧.

الإنساني؛ وليت هوى بني إسرائيل ونزواتهم وقفت عند حدّ الاستكبار على الرسل، بل ودفعهم ذلك إلى قتل بعضهم، ولذلك تكمل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1].

ويصف الله تعالى المستكبرين بالمجرمين، كما كان عليه حال فرعون والملأ من أهله وبطانته، فلم يؤمنوا للنبي موسى عليه السلام، ولم يتّعظوا بما أخذهم به الله تعالى من الجدب والقحط والفيضان، ونقص الغلال وبما سلَّط عليهم من الرّعاف والقمل، والضفادع.. بل ظلوا على دأبهم من العناد، والإجرام بما كانوا يفعلون ببني إسرائيل، إذ فوق تسخيرهم واستعبادهم كانوا يقتلون أبناءَهم ويستحيون نساءَهم.. ولم تنفع معهم تلك الشدائد والمصائب والبلايا، بل استكبروا، وزادوا في الإجرام، يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[2].. فقد نبَّه سبحانَهُ بقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على تكبّرهم، وإعجابهم بأنفسهم، وصرفها عن الإصغاء لنداء الإيمان، وعدم تصديق موسى وأخيه هارون عليهما السلام؛ كما نبَّه سبحانه بقوله: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ على أنَّ الذي حملهم على الاستكبار، والتعالي على الناس، هو ما تقدم من جرمهم، فلم يكن شيئاً محدَثاً عندما جاءهم رسولٌ من الله، بل كان ذلك دأبَهم، ووتيرةَ حياتهم..

وأعظم من ذلك أنّه لما حلَّت بهم تلك المصائب، سألوا موسى عليه السلام أنْ يدعو ربَّهُ ليكشف عنهم العذاب، ولئن كشفَهُ ليؤمِنُنَّ له، ويرسلوا معه بني إسرائيل.. وهنا يتبدّى فعلاً إجرامهم، حتى بحقّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.

أنفسهم، إذ لما كشفَ الله عزَّ وعلا عنهم العذاب، نكثوا عهدهم، وعادوا إلى ما ألفوه من الاستكبار والإجرام، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[1].. ولكن ماذا حلَّ بفرعون وجنوده في الأجل الذي أجلَّهم إليه العزيز الجبّار؟ يقول تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

وعن الذين يتخذون من دون الله أنداداً، ولا يؤمنون بيوم القيامة، وهم مستكبرون، يقول تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[3]..

فيا أيها الناس، إلَهكم هو الله الذي لا إله إلَّا هو، إلهٌ واحدٌ في السماوات والأرض، وقد تفرَّدَ سبحانه بالعزّةِ والبقاء، وقهرَ عبادَه بالموت والفناء؛ فالذين لا يؤمنون بيوم القيامة والحساب، وقلوبهم منكرة لوحدانية الله، وهم مستكبرون بغياً بغير علم، لا ريبَ بأنَّ الله تعالى يعلم ما يسرّون في أنفسهم، وما يجهرون به على الملأ من حولهم، وفي نواديهم ومحافلهم استعلاءً واستكباراً.. أجل، هو عالمٌ بكل أحوالهم، واستكبارهم، ولكنَّه سبحانه وتعالى هو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[4]، لا يحبُّ المستكبرين.. فماذا ينتظرون إلَّا عقابَه الشديد؟!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ٢٢ و٢٣.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

والكبرياء: هي الترفع عن الانقياد، أي عن الطَّوْع أو الطاعة، ويضادُّها الإِكراه وهذا ما كان فرعون وقومه يأنفونَهُ، ولا يطيقون أنْ يدعوهم موسى وأخوه هارون عليهما السلام إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو، ظناً منهم أنَّ ما جاء به موسى ليس له دعوة إلَّا ليصرفهم ـ كرهاً عنهم ـ عما ألفوا عليه آباءهم ولتكون له ولأخيه الكبرياءُ عليهم، ولذلك قالوا لهما، بقول الحق تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١)، أي وتكون لكما الطاعة والانقياد في الأرض.

ويبين القرآن الكريم أنَّ الله سبحانه وتعالى عندما خلق السماء والأرض أمرهما أن ينقادا لأمره ومشيئته، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٢)، ولذلك لا تكون الكبرياءُ إلاَّ لله وحده، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣) والرسول الأكرم ينقل عن الحديث القدسي قول الله عزَّ وجلَّ: «الكبرياءُ رِدائي، والعظمةُ إِزاري، فَمَنْ نَازَعَني في واحدٍ منهما قَصَمْتُهُ ولا أُبالي»(٤).

ـ ولقد عرَّف رسول الله ﷺ الكِبْرَ بأنه: «بَطَرُ الحقِّ وغمطُ الناس»(٥).

ومعنى: بَطَرُ الحق: أي ردُّهُ، وعدمُ القبول به.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٨.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٣٧.
(٤) ابن ماجة، باب الزهد، ص١٦.
(٥) صحيح مسلم، الحديث رقم ١٣١.

ومعنى: غمص الناس، أو غمط الناس: أي احتقارهم..

بحيث يكون تعريف رسول الله ﷺ للكبر على أنه: رفضُ الحقّ واحتقارُ الناس.

وقد حذَّر ﷺ من الكبر لأنه يودي بصاحبه إلى نار جهنم فقال: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، ولا يدخلُ النارَ من كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من إيمان**»[(١)]، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنَّ الرجلَ يحبُّ أنْ يكون ثوبُهُ حسناً، فقال ﷺ: «**إنَّ الله تَعالى جميلٌ يُحبُّ الجمال**»[(٢)]، وقد عنى رسولُ الله ﷺ أنَّ لله سبحانَهُ وتعالى الكمال المطلق في كل شيءٍ: في ذاته، ومشيئته، وأمره، وفي هذا الخلق العظيم الذي يعبّر عن جميل صنع الخالق.. بل وعن جميع ما تدلُّ عليه أسماء الله الحسنى من الصفات الجليلة، الحميدة المجيدة..

والكبر هو الذي يجرُّ إلى العجب بالنفس، ومن ثم الاختيال، والتفاخر، ولذلك كانت وصية لقمان لابنه وهو يعظه، كما يبرزها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[(٣)].

وكذلك ذمَّ رسول الله ﷺ الزهوَ والعجبَ بالنفسَ، فقد رويَ عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ جرَّ ثوبَهُ خُيَلاءَ، لم يَنْظُرِ الله تَعالَى إليه يومَ القيامة**»[(٤)]، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَبْعَثُ الله**

---

(١) البخاري باب التوحيد، ص٣٦.

(٢) صحيح مسلم، باب الإيمان، ص٨٤٧.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٨.

(٤) البخاري، باب اللباس، ص١ و٣ و٥.

يومَ القيامةِ ناساً في صَورِ الذرّ[1]، يطؤُهُمُ الناسُ بأقدامِهِم، فيقال: ما بالُ هؤلاء في صُوَرِ الذَّرّ؟ فيقال: هؤلاء المتكبّرونَ في الدنيا».

ومثل التكبّر الغرور، وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شُبهةٍ وخِدْعةٍ، ومنه الغُرَّةُ أي الغفلة في اليقظة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[2]، أي كيف اجترأت على ربك الكريم، الذي تكرَّم عليك فخلقك فسوّاك، فعدلك وأفاضَ عليك من كل هذه النِّعم والخيرات؟!

وعن وعود الظالمين لبعضهم يقول الله تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[3]، أي لا تكون وعود بعضهم لبعض إلاَّ باطلاً، لأنَّ ظلمهم يدفعهم إلى الانقلاب على بعضهم، وعلى الوعود التي تبادلوها، وذلك أكثر ما يكون عند تضارب مصالحهم، فلا يبقى للمواثيق والاتفاقات التي يعقدونها أيُّ اعتبار إلاَّ ما يؤمن المصالح التي يختلفون عليها...

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[4] فمعناه: ولا يأخذكم الغرور بالله تعالى في حلمِهِ وإمهاله، فالغرور هو كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وبنينَ، وجاهٍ وشهرةٍ وشهوةٍ؛ وقد فُسِّر «الغَرورُ» بأنَّهُ الشيطان، إذ هو أخبث الغارّين، ومعظم غروره لبني آدم يكون بالأمور التي تزين لهم الحياة الدنيا بأنها متاع، ولذلك قيل عن الدنيا أيضاً بأنَّها الغَرور، لأنها: تغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ..

(١) الذرّ: النمل الصغير.

(٢) سورة الانفطار، الآية: ٦.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٠.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٥.

والآيات القرآنية التي تتحدث عن الغرور هي بمثابة الهزّة التي تمسك بتلابيب المغرورين أو المستكبرين ليعيدوا النظرَ بأفكارهم وتصوّراتهم، إذ كثيراً ما يأخذهم الغرورُ بأنفسهم، أو ما تجرُّهم إليه الوساوس الشيطانية، فيعتقدون أنَّ ما هم عليه من النعم هو من صنعهم، وهذا هو الغُرورُ بعينه، ولو آمنوا واتَّقوا، لأدركوا أنَّ كل ما بهم هو من عطاء الله تعالى، ولو شاءَ سبحانه أنْ يؤاخذهم أو يلومهم، على معاصيهم، وعلى تكبّرهم وغرورهم التي هي ظلمٌ بظلمٍ، لأهلكهم، وما ترك على ظهر الأرض من دابّة تدبُّ. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١).

فهل بلَّغَ القرآنُ العبرةَ، والعظةَ فآمَنَ الظالمون، المتكبّرون، المغترون بأنفسهم أنَّ أجلَهم آتٍ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً، ولا يستقدمون ساعةً من زمنٍ؟!.

ب ـ التواضع

التواضع ـ في اللغة ـ التذلّل والتخشّع، لا عن انكسارٍ أو خضوع، بل عن إيناس وإيلاف ناجِمَيْنِ عن معرفة المتواضع للعيوب التي تعتورُ نفسه، فالفضائل ومكارم الأخلاق موزعة بين البشر بدرجات متفاوتة، بحيث إنَّ الإنسان لا يظهر بفضائله إلاَّ قياساً على فضائل غيره. . وهذا ما يجعل التواضع نقيضاً للافتخار، وللعجب أو الإعجاب بالنفس، الذي يُعدُّ ظناً كاذباً يزيّن للإنسان من الصفات ما

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.

ليس فيه، وكذلك الافتخار الذي يجعل الإنسان مختالاً، مزهوّاً بنفسه، يتباهى بالمزايا التي يراها عند غيره، فيريد أن ينسبها إلى نفسه، ومن تباهى بما ليس فيه، فإنّما يتباهى بما لا يملك و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(1).

وإذا كان التواضع محموداً، فإنَّ التملّق ـ وهو التواضع الكاذب ـ يعد مذموماً، وغالباً ما يتملَّق الإنسانُ إما ليمتدحَهُ الناس، وإمّا للحصول على مآربَ شخصيةٍ ممَّن يتملّق إليهم..

من هنا كان التواضع فضيلةً كريمةً، تجعل المتواضعَ يتصرف بطريقة طبيعية، بعيدةٍ عن التكلّف أو التفاخر، أو التملق أو الغرور، ومن أهم صفاته هدوء الطبع، ودماثة الخلق، ولطف المعاشرة، وأدب الحديث، والتقرّب من الآخرين، فلا يستنكف عن احترام الفقير والمسكين، ولا عن مسايرة الحدث، وحبّ الصغير، بحيث تغلب عليه دائماً مشاعر التودّد والملاطفة..

وإنَّ من مزايا المسلم أنْ يكون متواضعاً، ودوداً، طيّب المعشر، فهو عندما يعلم أنَّ ربَّه عَزَّ وعَلاَ لا يحب التطاول على الناس لما فيه من اعتداءٍ على كرامتهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(2)، وأنه سبحانه لا يحب المفسدين، الذين من دأبهم النميمة التي تفسد الودَّ بين الناس، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(3)، وكذلك لا يحب عزّ وجلَّ المستكبرين، لقوله

(1) سورة لقمان، الآية: ١٨.
(2) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.
(3) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[1]، ولا المختال الفخور لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[2].. فكل تلك الصفات الذميمة التي يأنفها المسلم، بل ويحرّمها على نفسه، تفترض فيه أنْ يسلك سلوكاً مغايراً لها، وهذا ما يجعله أقربَ إلى التواضع، ولاسيما عندما يعلم بأنَّ هذه السمة الأخلاقية الرفيعة قد أمرَ بها الله ـ جَلَّ شأنُهُ ـ من عليائه، لما رُوي عن عياض النجاشعي من أنَّ رسول الله ﷺ في إحدى خطبه، قال: «إنَّ الله تَعالَى أَوْحَى إليَّ أنْ تَوَاضَعُوا حتَّى لا يَفْخَرَ أحدٌ على أحدٍ»[3].. وهذا الشاعرُ العربيُّ يدعو من يفاخر بماله وسلطانه أنْ يتواضع، عندما يقول:

تواضَعْ تَكُنْ كالنَّجمِ لاَحَ لناظِرٍ على صَفَحاتِ الماءِ وهُوَ رَفِيْعُ
ولا تكُ كالدُّخانِ يَعلو بنفسِهِ إلى طَبقاتِ الجوِّ وَهُوَ وَضِيْعُ

وعن الذي يزهو بعلمه القليل، قال الشاعر أيضاً:

إذا زادَ علمُ المرءِ قلَّ ادّعاؤُهُ وإنْ قلَّ علمُ المرءِ أُعْجِبَ وادَّعَى
ألم ترَ أنَّ الغُصْنَ يشمَخُ فارِغاً وإنْ ثَمراً أَعْطَى انْحَنَى مُتَواضِعاً

ومن كان مؤمناً متواضعاً كانت الرحمةُ والرأفةُ من بعضِ صفاته.

٥ ـ الرحمة والرأفة

الرحمة ـ في اللغة ـ هي رقة القلب وتقتضي الإحسان إلى المرحوم. أو هي الرّقة مجرَّدةً من الإحسان، أو الإحسان مجرداً عن

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٣) صحيح مسلم، ج١٤، حديث رقم ٥١٠٩.

الرقة. نحو رحم الله تعالى فلاناً، أي أحسن الله إليه، باعتبار أنَّ الرحمة الربانية هي إحسان مجرد من أية رقة، بل وهي إنعام منه ـ سبحانه ـ وإفضال. أما من جانب الناس لبعضهم فهي الرقة والتعطّف.

وجاء عن النبي ﷺ ذاكراً عن ربه: «**أنه لما خَلَقَ الرَّحِمَ قالَ له: أنا الرحمنُ وأنتَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ اسمَكَ مِنْ اسمي، فَمَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكَ بتَتُّهُ**»[1]. وذلك إشارة إلى أن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ركّز في الطباع الرقة، وتفرَّد ـ عزَّ وجلَّ ـ بالإحسان. والرحمن: من أسماء الله الحسنى، ولا يطلق إلا على العزّةِ الإلهية، من حيث إنَّ معناه لا يصلح أنْ يكون إلاَّ لمن رحمته وسعت كل شيء، فإذا أرادَ مسلم أنْ يضفيَ على اسم ولده هذه الصفة المباركة سماه «عبدَ الرحمن». والرحيم: هو الذي كثرت رحمته، وهو في الأصل اسم لله تعالى، ويمكن أن يطلق صفة على غيره سبحانه. ومن ذلك قوله تعالى في صفة الرسول محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ويمتاز القرآن الكريم ببيان ما للرحمة الربانية من آثار على حياة الناس، سواء في هذه الحياة الدنيا، أو في الآخرة يوم الحساب، ولذلك لا نجد سورة من سور هذا الكتاب المبين إلّا وتحفل بذكر الرحمن الرحيم بعباده من حيث إنه سبحانه وتعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. . ولقد بيّنا من قبلُ مدلولَ الآية الكريمة بقوله تعالى:

---

(١) البخاري، باب الأدب، ص١٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1]، وذلك من حيث إنَّ الرحمة الربانية الواسعة هي في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين.

ومن الآيات القرآنية المجيدة التي تبيّن بعضاً من معاني «الرحمن» قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[5]، وكذلك الآيات القرآنية الكريمة التي تدلُّ على معاني «الرحيم» قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[8] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[9]،.. وليس من قبيل المصادفة أن تفتتح سور القرآن الكريم بالقول الحق: «بسم الله الرحمن الرحيم» للدلالة على أنَّ كل ما في هذا القرآن تغلُبُ عليه رحمةُ الله التي يستبشر بها المؤمنون إنْ في تلاوته،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٥ و٦.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٥) سورة مريم، الآية: ٩٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

(٨) سورة الحجر، الآية: ٤٩.

(٩) سورة الطور، الآية: ٢٨.

وإنْ في الالتزام بأوامره ونواهيه.. ولذلك تجدُ المسلمَ يفتح أيضاً صلواته، بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، أي إنه يتعبَّدُ لله تعالى وهو يدرك، تمام الإدراك، أنّه ـ جلَّ ذكرُهُ ـ هو «الرحمن»، البالغُ في رحمته غايتَها، التي يقصر عنها كل من سواه، والعاطف على جميع خلقه بالرزق: المؤمن منهم والكافر. وهو «الرحيم» الرفيق بالمؤمنين خاصة، يستر عليهم ذنوبهم في العاجل، ويرحمهم في الآجل.

وقد فرَّق بعض العلماء بين الرحمة والرأفة، فقالوا: «إنَّ الرحمة إيصال المسرّة إلى المرء، والرأفة دفع المضرَّة عنه». وقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1] يُفَسَّر بأن رأفته ـ سبحانه ـ دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد.

ويختلف الشعور بالرحمة باختلاف المثل العليا التي يتصورها الإنسان، فإذا كانت تلك المثل مبنية على القوى المادية بين الناس، كانت الرحمة منقطعة، وإذا كانت مبنية على القيم المعنوية والإيمانية، كانت الرحمة أثبت وأوسع. ولا تنقلب الرحمة إلى محبة حقيقية، إلّا حينما يعدّ المؤمنُ نفسه أخاً لكل مؤمن، وهذا دليل على أن النفس الإنسانية إنما تنعم بفضل زائد من الله تعالى عليها وهو يهبها الرحمة والرأفة. وحريٌّ بالإنسان أن يهيّئ نفسه لكي يكون رحوماً، رؤوفاً، فيجد في مشاعر الرحمة والرأفة مجالات رحبة من المحبة لآخرين، والعطف عليهم، ولا سيما المحتاجون والفقراء، وذوو المصائب والعاهات، ما يولِّد في نفسه مشاعر الرضى والراحة وحب الخير والتفاني.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

ومن نعم الله تعالى علينا أنْ أودع فينا هذه القلوب حتى نملأها بالمشاعر الإنسانية الطيبة من المحبة، والرأفة، والرحمة، فنصونها ونبقيها سليمةً معافاة، بدل أنْ نعبّئها بالبغضاء والكراهية، والحسد والطمع، وكل ما يضر بالأنفس ويوقعها في العلل والأمراض النفسية والجسدية.

٦ ـ العمل بصحة التوكُّل على الله تعالى

التوكل هو ثقة الإنسان بالله تعالى، والمتوكِّلُ هو الواثق بمَا عند الله ـ جلَّ شأنه ـ والمعتمد عليه وحده سبحانه. لأنه هو صاحب الأمر من قبلُ ومن بعدُ، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.. يقول تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٢).

والتوكُّلُ لا يعني أبداً عدم العمل.. فالقعود عن السعي في الرزق والكسب مثلاً، وترك الأسباب وعدم الإعداد والتهيؤ للقيام بكل ما هو مطلوب في كل أمرٍ يرومه الإنسان.. فهذا كله ليس من التوكل في شيء كما يتوهم كثيرون، بل هو بالأحرى «تواكل» أو تقاعس وتخاذل، واعتماد على الله ـ سبحانه ـ في غير محله، وفي غير ما يريده تعالى منا نحن بني آدم، فالله لا يحب التواكل، لأنه ما خلقنا لنقعد بلا سعي ولا عمل، ولا لنترك الحياة تسير بنا ونحن لاهون، سادرون عن غاياتها ومطالبها.

ثم إنَّ وجودنا لا يتوافق إطلاقاً، جوهراً وغايةً، بأن نعتمد على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

غيرنا في جلب رزقنا أو منافعنا، ومدّنا بكل متطلباتنا، لأنَّ من شأن هذا الاعتماد، أو التوكّل على الغير، أنْ يعطّل دورنا في البناء المجتمعي، والتواصل الإنساني. . وبما أنَّ طلب القوت والرزق من أَولى مستلزماته السعي والجدّ، فلا يجوز أنْ نتصوَّر، أو أنْ ننتظر أنْ يأتينا رزقنا من السماء ونحن قاعدون، ساكنون، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا نقوداً لكي نغذّي أولادنا، ونداويهم، وندخلهم المدارس، ولا لنبني منزلاً، أو ننشئ مصنعاً أو متجراً. . ولئن كانت آثار رحمة الله تعالى هي التي تحيي الأرض بالماء بعد موتها، وما علينا نحن إلا أن نغرس، ونبذل العرق والجهد حتى تعمَّ الخيرات والبركات من حولنا. . فكل ذلك يجعل العملَ قوام الحياة، وربنا العزيز ذو الرحمة يأمر من عليائه رسوله الكريم بأن يدعو للعمل، بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. ولكنَّ هذا العمل الذي يشرِّف الإنسان، لا تستقيم معانيه الخيرة في نفس المؤمن، بل ولا يتوخَّى أي توفيق في عمله، ما لم يصاحبه التوكل على الله تعالى. وصحة هذا التوكل تكون بربط الأسباب بالمسببات، ومن ثم ترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى. . وصحة التوكل تكون مبنيَّةً دائماً على الإيمان، كما يدلُّ على ذلك توجُّهُ «يوشع» و«كالب» من النقباء الذين بعثهم النبيّ موسى ﷺ لاستكشاف أمر الجبابرة في الأرض المقدسّة، وهو ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. .

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

وتبرز صحة التوكل بصورتها الشمولية على لسان رسل الله، الذين كان أقوامهم يكذبونهم، ويطلبون منهم المعجزات لإثبات صدقهم، وهو ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(١). وتلك كانت شيمة الرسل في توكلهم على الله تعالى الذي بعثهم لهداية الناس، وفي دعوتهم المؤمنين إلى التوكل على الله.. والجدير بالانتباه أنَّ توكلهم لم يكن تواكلاً قطّ، بل كانوا يبلغون رسالات ربهم على الرغم من المواجهات الشديدة التي يلقونها في التكذيب، والاستهزاء، والأذى ـ والقتل أحياناً ـ وهم صابرون على ذلك كله.. وهذا ما يجب على الناس أنْ يعرفوه، ويعتمدوه في حياتهم.. فالتاجر الناجح مثلاً هو من يلمُّ بأسرار التجارة التي يتعاطاها، ويعرف ما يرضي زبائنه، وما يرافق تجارته من تقلبات في سوق العرض والطلب، أي إنه بعد أن يقوم بواجبات مهنته وأداء حقها كامل الأداء، فإنَّ عليه أن يترك الأمر لله تعالى، لاعتقاده بأنَّ التوفيق في نهاية الأمر هو دائماً وأبداً من ربه سبحانه وتعالى. وكذلك الصانع فهو يفتح المصنع ويجهّزه بالآلات والمعدات اللازمة، ويؤمن المواد الأولية لصناعته، ويأتي بالأيدي العاملة، ويستخدم الإدارة الرشيدة، وبعدها يتوكل على الله تعالى ويرجوه أنْ يوفّقه في عمله، ويكتب له النجاح في صناعته.. ومثل ذلك الفلاح فإنَّهُ يحرث الأرض، ويغرس

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١١ و١٢.

البذور والشتول، ويوفر كل الإمكانات لنماء غرسه، ثم يترك النتائج لتدبير الله تعالى الذي يحيي الزرع، ويبعث النماء، وينشر الخير ويحلّ البركة؛ وهكذا الأمر بالنسبة لأصحاب المهن الحرة كالأطباء والمهندسين والصيادلة، أو لأصحاب الشركات والمؤسسات على اختلاف أنواعها، أو لأصحاب الوظائف العامة في الدولة، أو للأمهات في تربية أولادهن، أو للأساتذة في الجامعات، ولكل عضوٍ عاملٍ في مجتمع من المجتمعات البشرية، فإنَّ عليه أنْ يبني مرتكز حياته على أمرين جوهريين: الأول هو أنَّ العمل موكول إلى الإنسان نفسه، والثاني أنَّ التوفيق في العمل والحصول على النتائج بيد الله تعالى. فهو سبحانه يسوق لكل إنسان ما قسمه له من رزق، وما كتب له من شأن..

إذاً أساس التوكل وعماده: أنْ نكلَ الأمور بنتائجها إلى الله العلي القدير، على أنْ نهيِّئ نحن جميع الأسباب التي تُوصلنا إلى النتائج التي نرجوها ونعمل لأجلها، ولكن مع اعتقادنا المطلق بأن الأسباب كلها، وأياً كان نوعها أو شأنها، ليست هي التي تعطي أو تمنع، بل الذي يعطي ويمنع هو الله سبحانه وتعالى وحده.

روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنَّكُمْ تَوَكَّلتُمْ على الله حقَّ توكُّلِهِ لرَزَقَكُمْ كما يَرزُقُ الطيرَ تَغدُو خِمَاصاً وتَروحُ بِطَاناً**»[1]. ومعنى هذا القول أن الله تعالى قد خلق في الطيور غريزة الاهتداء إلى معايشها، فيدفعها جوعها إلى الطيران منذ الصباح الباكر من أوكارها وهي ضامرة البطون، للبحث عمّا يشبع

(١) الترمذي، باب الزهد، حديث رقم ٣٤٨.

جوعها، ثم تفيء للراحة في آخر النهار وهي ممتلئة شبعاً. . وما يشدُّ الانتباه في قول رسول الله ﷺ تعبيره «تغدو» و«تروح»، أي إنَّ هذا هو دأبها المتواصل كلَّ يوم، تغدو منذ الصباح للبحث بلا كللٍ ولا ملل عن طعامها وتبقى كذلك حتى المساء، ولو لم تفعل الطيور ذلك، وبقيت بلا غدوٍّ، لما كان لها رواحٌ، أي شبعٌ وراحةٌ، ولماتت في أماكنها، ولكنها سعت إلى تحصيل قوتها فهداها الله خالقها إلى مواطنه.

وهذا ما يجب أن يكونَهُ نهجُ الإنسان الذي لا تسيّره غرائزه وحسب، بل وعقله المدرك الواعي الذي يمتاز به عن تلك الطيور، ثم يتوكل بعد ذلك على الله تعالى حتى يوفقه على ما بذل، وما وسعه من جهدٍ. . وهنا لا يجوز لإنسان أنْ يقول: أنا أعمل أكثر من فلان، ورزقه أكثر من رزقي، ووضعه أحسن من وضعي، ومقامه أعلى من مقامي. . أو أنْ يقول: أنا أعمل أقلَّ من فلانٍ وأكسب أكثر منه بكثير! . . لا يقول إنسانٌ ذلك إذا كان معتقداً بأن الرازق هو الله تعالى، وأنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب. أما لماذا؟ وكيف؟ فهذا ما لا شأن لنا به، إنها حكمة الله عزَّ وجلَّ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وقد وجَّهنا القرآن الكريم إلى أن نعيَ أنَّ الله تعالى عندما يوسِّع الرزق لمن يشاء، فذلك امتحان، وعندما يضيق الرزق لمن يشاء فذلك ابتلاء، وفي ذلك كله آيات واعظة لقوم يؤمنون، يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)، ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٢.

لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾[1] . . وليس لعبدٍ، بعد هذا البيان القرآني، أن يعترض على ما يشاء ربه ، لأن المطلوب منه العمل أولاً والتوكل ثانياً، وليس الكسل والتواكل. وليكن لكل عبد ثقة صادقة بربه تعالى، فهو كريم، حكيم، خلق كل شيء بمقدار، وقسَّم بين الناس الأرزاق والأقدار وفقاً لعلمه الواسع، وحكمته البالغة. وإذا ربط المؤمن بين الأسباب والمسببات وترك النتائج لتدبير الله تعالى، يكون قد حقق شيئاً من السعادة في حياته، وعند وفاته، على رجاء أن يلقى السعادة الكبرى بلقاء ربه .

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٧.

الفصل التاسع عشر

خيارات ومواقف

يقال في اللغة:

تخيَّر الشيء: انتقاه واصطفاه.

والاختيار: طلب ما هو خير أو فعله، أو أخذ ما يراه خيراً. وقد يقال لما يراه الإنسان خيراً، وإن لم يكن خيراً.

ويقال:

وقف فلان على الشيء: عاينَهُ، ووقَفَ فلانٌ على ما عندَ فلانٍ: فَهِمَهُ وتبيَّنَهُ.

والموقف: الموضع الذي يقف فيه الإنسان حيث كان.

وأوقف عن الأمر الذي كان فيه: أقلَعَ عنه.

وتواقَفَ القوم في الكفاح: وقف بعضهم مع بعض. والمواقَفَة: أن يقف كلُّ واحدٍ أمرَهُ على ما يقفُهُ عليه صاحبُهُ.

بناءً على هذه المعاني، وبعد أن توضح لنا بعض من معالم النفس البشرية في ضوء الكتاب والسنة، وبقدر ما وفقنا الله ـ سبحانه ـ

لأن نستقي من هذين المصدرين الرئيسين، وفيهما معين متدفق لا ينضب ولا ينفد لكل المعارف الإنسانية.. وبقدر ما مكّننا مولانا الكريم من الوقوف على التجارب والخبرات الإنسانية في أبحاثها لمعرفة النفس.. بعد ذلك كله نرى لزاماً علينا أن نضعك أيها الإنسان أمام الحقيقة التي يجب ألاّ تغرب عنك، ألا وهي: أي اختيار ترتضيه لنفسك، وأي موقف تقفه في هذه الحياة الدنيا؟

أنت أيها الإنسان ماذا تريد؟

أتريد الدنيا مكتفياً بزخرفها، صارفاً نظرك عن الآخرة ونعيمها؟

أم تريد نصيبك من هذه الدنيا، بقيمها المادية والمعنوية، وأنتَ تبتغي، في آنٍ معاً، الدار الآخرة امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[1].

أيُّ خيارٍ أقربُ إلى نفسك؟ وأي موقفٍ أضمنُ لآخرتك التي هي أولى بعنايتك لأنَّ فيها الحياة الأبدية؟

إن الخيارات والمواقف هي التي تُظهر حقاً معدن الرجال العظام والنساء العظيمات.. وهل يبرز الإنسان إلا بما يختار، وبما يكون له من مواقف، سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أم امرأة؟.. فإذا استعرضنا سير الأنبياء في القرآن الكريم، وجدنا أن الله تعالى لم يأتِ إلا على ذكر مواقفهم وخياراتهم. إننا نجد موسى عليه السلام وهو الذي قد تربّى في قصر فرعون، يحدد موقفه منه، ومن طغيانه، باختياره هدى الله تعالى على مغريات القصور والملوك، لأنه لا يمكن لنبي الله أنْ يقبل

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

بالطغيان لأجل مآرب دنيوية زائلة، ولذلك وقف لنصرة الحق على الباطل، والعدلِ على الظلم، غير آبهٍ لتعيير فرعون، وهو يقول له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾(١).. وكذلك امرأة فرعون نفسه ،السيدة آسيا ابنة مزاحم، فقد حدَّدت موقفها عندما جابهت زوجَها الكافر بإيمانها غير آبهةٍ مما قد ينزل بها من العذاب الشديد، مختارةً طاعةَ الله تعالى، راجيةً منه ـ سبحانه ـ أن ينجِّيها من فرعون وعمله وقومه الظالمين. يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٢).

وكذلك موقف يحيى عليه السلام من هيرودوس، حاكم فلسطين في زمن الاحتلال الروماني، إذ أرادَ أن يتزوَّج من ابنة أخيه هيروديا، التي شغفته حبّاً، فأعلن النبيُّ يحيى عليه السلام على خاصة اليهود وعامّتهم، أنه سيكون زواجاً باطلاً لا تقرُّه شريعةُ الله، ولا كتبُهُ التي تحرّم زواج العمّ من ابنة أخيه.. ولم يُفلح ذلك الحاكم الزّاني، وبطانتُهُ اللعينة أنْ يثنوا نبيَّ الله عن رأيه، فأمَرَ جنودَه بأنْ يقتلوا يحيى عليه السلام، ويأتوه برأسه الشريف ليقدِّمَهُ إلى عشيقته الزانية عربون حبٍّ على الإثم والفاحشة!.. وليكتب بيده وبإرادته، موقفه الذي أضحى وصمةَ عارٍ وخزيٍ في تاريخ بني إسرائيل لقتلهم الأنبياء بغير حق.. بينما يُكتَبُ موقفُ يحيى عليه السلام، على جبين الدهر، في محاربة المفسدين والفاسقين الذين لا يراعون إلاً ولا ذمةً في دين الله... وها هو خاتم النبيين محمد (صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه) يأتيه عتبةُ ابنُ

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١١.

ربيعة سفيراً من قريش ليعرض عليه مطلبَها الوحيدَ، وهو أن يتخلّى عن دعوته مقابلِ المالَ والسيادةَ والملك عليهم، فيقول عتبة:

«يا بن أخي، إنْ كنت تريدُ بما جئت من هذا الأمر[1] مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإنْ كنت تريد به شرفاً سوَّدناكَ علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإنْ كنتَ تريدُ به مُلْكاً ملَّكناك علينا. وإنْ كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه ولا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه من أموالنا حتى تبرأ منه».

وماذا كان موقفُ محمد ﷺ حيالَ تلك العروض كلها؟.. لقد كان يعلم ما عليه عتبة بن ربيعة من فصاحةٍ وبلاغة وطولِ باعٍ في اللغة العربية الفصحى.. فلما طلب منه أنْ يُسمعَهُ بعضاً من الذكر الحكيم، تلا عليه آياتٍ بيّناتٍ من سورة السجدة.. ثم سأله إنْ كان قد وعى معاني تلك الآيات وآثارها على حياة الناس، لتكون جوابَهُ ﷺ إلى قريش، وهو: أنْ لا شيء في الدنيا بأسرها يعدلُ دين الله تعالى، الذي أنزله ربُّ العالمين هدىً للناس، وبيّناتٍ من الهدى والفرقان، ومثاله ما أسمعه من آيات القرآن الكريم..

وتكرَّر الموقف، ولكن هذه المرة من زعامةِ قريش جميعها، عندما أتوا أبا طالب، عمَّ النبي ﷺ قائلين: «يا أبا طالب! إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا. ولقد عرضنا على ابن أخيك مالاً إنْ كان يريدُ المالَ، وجاهاً إنْ كان يسعى وراء الجاه، وملكاً إنْ كان يبتغي الملك، وإنّنا، والله، ما زلنا عند عروضنا. وقد جئناك حتى تتدبَّر الأمرَ، فلا يعيبُ محمدٌ آلهتنا، ولا يذكرها بسوء»..

---

(١) أي من دعوتك في إبلاغ الإسلام ديناً وعقيدةً للتوحيد

وجلسَ العمُّ الحكيمُ إلى الرسول الكريم ﷺ يتباحثان في أمر قريش، وما تريده من النبي ﷺ، وكان في نهاية اللقاء الوقفة التاريخية التي تشرِّف الإنسانَ في تطلّعِهِ إلى القيم السامية، والمثل العليا، والتي لا يرجو منها إلّا الثبات على الصدق، والعدل والحق، عندما قال رسول الهدى ﷺ: «يا عمُّ! واللهِ لو وَضَعُوا الشَّمسَ في يمِيني، والقمرَ في يَساري، على أنْ أترُكَ هذا الأمرَ ما تركتُهُ حتى يُظهِرَهُ الله، أو أهلكَ دونَهُ». .

. . . أبداً، لم يقف فكرُ النبيّ الأعظم ﷺ عند حدود ما يرومُهُ الإنسان من متاع هذه الدنيا وزخرفها، بل ارتقى ببصيرته إلى الأعلى، إلى سماء هذه الأرض، ليُعلِنَ على مسامع أهل السماوات والأرض، أنّهُ لو قدِّر أنْ يكون له شيءٌ في ملكوت السماء، وما في الأرض جميعاً، لما ترك الدين الذي بعثهُ الله تعالى به، حتى ولو كان في إبلاغ هذا الدين ونصرتِهِ هلاكُهُ! . .

تلك هي مواقف العظام في تاريخ البشرية. . ولا يقولنَّ أحدٌ أنّها مواقف أنبياء ورسل. . فامرأة فرعون لم تبعث بنبوةٍ أو رسالةٍ، بل هي خيارُ أصحاب عقيدة الحق، الذين لا يرتضون على عقيدتهم شيئاً مهما عظمَ. . وليست تلك المواقف إلاّ شذراتٍ من المنهاج الربّاني ليكون على كل إنسانٍ أنْ يقتدي بها. . ويبقى على كل إنسان أن يختار بين هذه الدنيا فيكتفي بمتاعها، وبين الدنيا والآخرة معاً. ولكل إنسانٍ حظّه من خياره! . . .

خيار من يريد الدنيا

إن الذين اختاروا الحياة الدنيا، ولم يلتفتوا إلى الآخرة، نزل

فيهم قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[١].

.. فمن الناس من تبهره هذه الحياة الدنيا، فيطلب من ربه أنْ يؤتِيَهُ ممّا فيها من المتاع واللهو والزينة، ومن المال والجاه والسلطة!.. ويبدو أنَّ طلّاب الدنيا هؤلاء لا يفكرون بأنَّ عمر الإنسان محدود، وأنَّ أجلَهُ آتٍ لا محالة.. وقد لا يتذكّرون، أو لا يؤمنون، بأنَّ هنالك بعد الموتِ بعثاً وحساباً في الآخرة، فينساقونَ وراء المطامع والرغبات والأهواء، ويعيشون لهذه الدنيا، حتى إذا كان يوم الدينونة، لا يكون لهم أي نصيب في النعيم الكبير في حياةٍ خالدة، لا فناءَ بعدها...

والله سبحانه وتعالى يعطي من يريد الحياة الدنيا، بل وقد يوفي له أعماله فيها، بحيث لا يبخسه شيئاً مما قدَّر له.. ولكن ماذا وراء ذلك كله؟! يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

هذا ما نراه في هذه الدنيا: أناس ملأوا وجودهم أعمالاً، وأمجاداً، ومُدّت لهم أسباب القوة، حتى لكأنَّ كلَّ ما يرغبون فيه متاحٌ لهم! ولكن مهما اتسعت أعمالهم وتشعّبت، ومهما كثر ما صنعوا وتعاظم، فليس لهم في الحياة الآخرة إلّا النار يصلونها، «وحَبِطَ ما صنعوا»[٣] في الحياة الدنيا. وهذا بيان حسّي، وصورة معبِّرة عن أعمال طلاب الدنيا التي تُعدُّ ـ في حقيقتها ـ بمثابة أمراض مؤدية إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥ و١٦.

(٣) حبط: من حبطت الناقة، إذا انتفخ بطنها من المرض. وحبط: بطل.

هلاكهم في الآخرة، لأنَّ ما كانوا يعملون باطل، والباطلُ نقيض الحق في حسبانِ الناس، فكيف في حسبان خالق الناس، يوم لا يربو حسابٌ إلّا حسابُ الحقِّ، ومن الحقِّ تبارك وتعالى. . وقد يأخذ المؤمنَ العجبُ مما يُؤتاه أولئك الناس الذين يريدون الدنيا، ولكنَّ الرسول ﷺ يُزيلُ هذا العجبَ من النفوس عندما يوضِّحُ لنا مصير الأعمال، سواءً في الدنيا أو في الآخرة، فيقول ﷺ: **«إنَّ الله لا يَظلِمُ مؤمِناً حَسَنَةً يُعطَى بها في الدُّنيا ويُجزَى بها في الآخِرَة. أما الكافرُ فيُطْعَمُ بحسنات ما عَمِلَ به للهِ تعالى في الدنيا، حتَّى إذا مَضَى إلى الآخِرَةِ لم تَكُنْ لَهُ حسنةٌ يُجْزَى بِها»**(١).

نعم، فالمؤمنُ أعمالُهُ الحسنة محسوبة له في الدنيا، وهو أيضاً يُجزى بها في الآخرة ثواباً عظيماً. أما الكافر وإن أُعطي في هذه الدنيا، فهذا مردُّهُ إلى حكمة الله تعالى، ولكنَّ آثارَ ما يُعطاهُ تبقى في هذه الدنيا، ولا حسنة يجزى بها، أو يكافأ عليها في الآخرة. .

وقد بيّن القرآن الكريم أنَّ الذين يحبون العاجلة ويصرفون كل اهتماماتهم لها، لا يعني لهم شيء اسمه يوم القيامة، على الرغم من تحذير الرسالات السماوية للناس من هول ذلك اليوم. ولذلك يحذّرهم ربُّ العالمين من حبّهم لدار الدنيا، ونسيانهم لذلك اليوم الثقيل بأحماله؛ بل ويتوعّدهم بأنه قادر على إهلاكهم ـ إذا شاء سبحانه ـ وتبديلهم بأناس يعبدونه ويطيعونه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۞ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾(٢).

---

(١) صحيح مسلم، المنافقون، ص٥٧.

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٢٧ و٢٨.

هذا هو موقف من يريدون الدنيا، ويعملون لها؛ لقد ألهاهُمُ التكاثر، وجمع الثروات، وغرَّتهم الأمانيُّ حتى دهمهم الموتُ، فوجدوا ما عملوا في الدنيا حاضراً يومَ الحساب، وما ربك بظلّام للعبيد. لقد ضَلُّوا عن الحقيقة فلم يروْا أنَّ للدنيا وجهاً آخر، أي أنّها دار ممرٍّ إلى دار مقرّ، وأن إتيانهم العمل الصالح فيها هو ما يقربهم من الله تعالى في الآخرة. نسوا ذلك كله حتى غفلوا عن الآخرة كما يبيّنه قول الحق تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(١).

خيار من يريد الدنيا والآخرة معاً

.. ومن الناس من يطلب الحسنة في الدارين: الدنيا والآخرة، أي عرف الدنيا على حقيقتها فعمل لها، وعرف الآخرة على حقيقتها فسعى لها؛ ولكنَّ غايته ورجاءَه كانا بأنْ يتقبَّل ربُّهُ تعالى عملَهُ، ودعاءَه بأنْ يقيهُ عذابَ النار.. فالذين يعملون للدنيا والآخرة يبيِّن القرآن الكريم توجهاتهم بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٢).

هؤلاء الناس يَزِنُونَ الأمور بموازينها الحق، ويعملون وفق المنهج الذي يوفِّق ما بين الدنيا والآخرة، فلا يتركون واحدة على حساب الأخرى، ولا يصرفون أنظارهم واهتماماتهم لواحدة دون الأخرى، ولذلك يكون نصيبهم وفق ما يعملون وما يسعون له. والله

---

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠١ و٢٠٢.

سبحانه وتعالى، يترك المجالَ واسعاً أمام الإنسان وخياراته، فمن كان همُّه الدنيا يؤته سبحانه بقدر ما قَسَمَ له، ومن أراد أن يوفّقَ ما بين الدنيا والآخرة بحيث لا يحرم نفسه طيبات دنياه، ولا يعصي الله تعالى في ما أمرَه لأنه يتطلّع إلى مصيرٍ حسنٍ في الآخرة ـ مع رجائه أنْ يقيَهُ ربُّهُ الكريم عذاب النار ـ يجعل الله تعالى نصيبه بقدر ما كسب من الحسناتِ والسيئات؛ ولكنَّ كثيراً من الناس، ولاسيما المؤمنون الصادقون إنَّما يتوخَّون في كل ما يعملون في الدنيا ثوابَ الآخرة، فهؤلاء يؤتيهم مولاهم الكريم من هذا الثواب ما يستحقون، بل ويزيدهم فضلاً وإحساناً من لدنه بما كتب على نفسه الرحمةَ لعباده، يقول تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1].

هذا هو العدل الإلهي، فلكلٍّ جزاءُ عمله في الآخرة.. ولكنّ الله سبحانه وتعالى، وهو يعلي من شأن هذا الإنسان فيطلق له الإرادة وحرية الاختيار، إنّما ليكون هذا الاختيار متوافقاً مع صدق الإنسان وإقراره بأنَّ كل ما آتاه الله تعالى إنما هو فضلٌ وإحسانٌ يفيضان كثيراً عما يستأهل على طاعاته وأعماله الصالحة، ويستوجبان منه الحمدَ والشكرَ؛ وبقدر ما يكون الإنسان حامداً شكوراً بقدر ما يزيدُهُ ربُّه الكريم مثوبةً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]، ولذلك تجد المؤمن دائم التوجه بالحمد والشكر لله تعالى، لأنه يعلم أنَّ كل ما في الوجود بأسره إنما هو إنعامٌ وإحسان من رب العالمين على مخلوقاته، فكان حقيقاً عليه أن يكون دائماً وأبداً من الشاكرين،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

والله ـ جلَّ شأنه ـ يجزي الشاكرين. . من هنا نجد في القرآن الكريم بياناً واضحاً عن مصائر الناس في الآخرة، وذلك على أساس خياراتهم، يوم يُنصب ميزان العدل الإلّهي لتُجازى كل نفس على ما كسبت، بحيث لا يكون هنالك أيُّ مجالٍ للاعتذار، ولا للجدال، أو التلاوم، أو حتى للافتداء، بل لكلٍّ من الجزاء على ما كان له من خياراتٍ ومواقف في دنياه. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1]. . فواضحٌ من هذه النصوص القرآنية الكريمة التوكيد على خيارات الناس في طلب العاجلة أو الآجلة، ولكن مع تبيان أمرين: الأول حال المؤمن الذي سعى للآخرة سعيها، فجعل الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله هو هاديَهُ، ومرشده. . وهذا حال المؤمن دائماً في كل ما يعمل أو يقوم به، لأنه يعلم بأنَّ الإيمان ليس كلمة تُقال باللسان، وتتحرك بها الشفتان، بل هو ما وقر في القلب وصدقه العمل. ولذلك كان سعيه للآخرة مبنيّاً على هذا الأساس المتين: على صدق إيمانه، وحسن أعماله. . ولعلّ أهم ما يبني عليه المؤمن خياراته ومواقفه هو حكم الله تعالى، وحكم رسوله الكريم في ما يبيّن من حكم لرب العالمين، إذ يحرّم المسلم على نفسه أن يختار ما يخالف أمرَ رَبه، وأمر رسوله ﷺ، بل يجعل خياراته ومواقفه متوافقةً دائماً مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ١٨ ـ ٢٠.

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

أما الأمر الثاني الذي تبيِّنه النصوص القرآنية فهو مشيئة الله تعالى، بحيث يعجل لمن يريدون الدنيا نصيبهم فيها، بقدر ما يشاء، ولمن يشاء منهم. إذ ليس كل من يطلبون العاجلة (الدنيا) ينالون ما يريدون؛ فمنهم من يمدّهم الله من فضله، ومنهم من لا يعطيهم إلّا بمقدار محدود؛ وهذا ما ينطبق على المؤمنين والكافرين، فلكلٍّ قسمةٌ ورزقٌ معلوم، والله تعالى يمدُّ كلاً من هؤلاء وهؤلاء من عطائه وفضله، وليس لأحد الاعتراض، لأنَّ عطاء الله تعالى ليس محظوراً.. ولكن هيهات بين إنسانٍ يجزلُ لهُ ربُّهُ في عطائه، فتبقى آثار أعماله محصورة في هذه الدنيا، مهما توهم أن تلك الآثار كبيرة وعظيمة، بينما يكون مصيره إلى جهنّم، لأنه أراد العاجلة، وعمل لها فقط، دونما أيّ تفكير، أو سعي للآخرة!.. وبين إنسانٍ أعطاه ربُّهُ من فضله، فجعل هذا العطاءَ يملأ قلبه إيماناً، وشكراً وعرفاناً، ليعود ويفيض من عطاء ربّه بالخير والبركة والرأفة على حياته كلها، فيكون سعيه مشكوراً في الآخرة.. هنا إذاً التفاوت؛ ففي الأرض تفاوت في الأرزاق، والمراكز.. ولكنه يبقى تفاوتاً ضيقاً، وتبقى معه الأرض كلها لا تزن جناح بعوضة عند نعيم الجنة. فالتفاوت الأعظم والأكرم، هو الذي يرقى به الإنسان إلى درجة عالية في الحياة الآخرة، كما يوجهنا إليه رب العالمين بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[2].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(2) سورة الإسراء، الآية: ٢١.

إنه توجيه رباني للرسول محمد ﷺ: انظر يا «محمد» كيف فضَّلنا بعض الناس على بعض في الحياة الدنيا: منهم أغنياء وفقراء، ومنهم أصحَّاءُ ومرضى، وبعضهم قادة ومعظمهم جنود، وقليل منهم حكام وأكثرهم محكومون. ولكنَّ هذا التفاضل، وهو صادرٌ عن حكمةٍ وتدبير، ـ حتى يمكن الناس أن يعمروا الأرض ـ، لا يُقاس، ولا يُقارن بالتفاضل في الآخرة، لأن درجات الآخرة أعلى، ومراتبها أفضل، ولكلٍّ أن يبلغ درجةً في الجنة على قدر إيمانه وعمله في الدنيا. ولو تفكَّر الإنسان بهذه الحقيقة لجعل سعيَهُ للآخرة أكثر بكثير، من السعي للدنيا، إذ قد روي أنَّ ما بين أعلى درجات الجنة وأسفلها مثل ما بين السماء والأرض.

إذاً هذه هي الحقيقة، وهي أنَّ مصائر الناس في الآخرة تحدّدها خياراتهم وأعمالهم في هذه الحياة الدنيا، كما يبيّنه لنا بكل وضوح القرآن الكريم، بقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١).

والرسول الكريم ﷺ يبين أنَّ أحسن الاختيار هو العمل للدنيا والآخرة معاً. يقول ﷺ: «ليسَ خيرُكم مَنْ عَمِلَ لدُنياهُ دُونَ آخِرَتِهِ، ولا مَنْ عَمِلَ لآخِرَتِهِ وَتَرَكَ دُنياهُ، وإنَّما خيرُكُمْ مَنْ عَمِلَ لهذِهِ وهذِهِ»(٢).

وأمَّا الذين يخافون مقام ربهم، وينهون النفس عن الهوى كما تشير إليهم الآية الكريمة، فإنَّ أقرب وصف ينطبق عليهم أنهم هُمُ

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٤١.

(٢) أحمد بن حنبل، الجزء الثاني، حديث رقم ١٨٨٥.

المؤمنون المتَّقون، فهم أخلص الناس عبادةً، وطاعةً، وشكراً، وهم أكثر الناس عطاءً وتراحماً في الدنيا، وثواباً وفضلاً في الآخرة. وقد عرَّف أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام حقيقة مقام المتقين، لكي يعظ الناس بهم، فقالَ: «إعلموا عبادَ الله أنَّ المتّقين رَضُوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سَكَنُوا الدنيا بأفضلَ ما سُكِنَتْ، وأَكَلُوها بأفضَلَ ما أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنيا بِمَا حَظِيَ به المُتْرَفونَ، وأَخَذُوا منها ما أَخَذَهُ الجبابرةُ المتكبّرون، ثُمَّ انقلَبُوا عنها بالزادِ المبلِّغِ، والمَتْجَرِ الرابح».

ومن الثابت أنَّ سلوك الإنسان ونهجه يتحددان وفقاً لأفكاره ومشاعره في خياراته ومواقفه، ولكنْ ما يلفت أنَّ الذين اختاروا الآخرة، لا يلتقون مع الذين اختاروا الحياة الدنيا فكراً ولا شعوراً، وحتى إن التقت مواقفهم حول مسألة معينة، فإنه يكون التقاءً ظاهرياً لا يلبث أن يتبدّد ويحصل التباعد بينهم.

من هنا كانت علاقات الناس مرتبطة إلى حدٍّ بعيدٍ بالخيارات والمواقف التي يتخذونها؛ فالذين توحَّدت لديهم الرؤية والقضية والمصلحة، لا بدَّ أن تجمعهم وحدة الموقف، التي تجعل العلاقات بينهم وثيقة، والروابط متينة، لقد جمعتهم الأفكار والمشاعر، فتوحد لديهم المنهج والهدف.. فالذين جمعتهم عقيدة التوحيد، فعملوا بإخلاص لله ورسوله تجدهم يؤثرون منهاج الله تعالى: فكراً وعملاً وسلوكاً، ولو تباعدت بينهم المسافات في مشارق الأرض ومغاربها.. ولئن لم يوفقوا في تطبيق منهج الله تعالى، فلأنَّ أعداءهم أكثر منهم عدداً، وعدَّةً، ويملكون أكثر أسباب التفوق، ولذلك نجدهم، في أغلب الأحيان، ظاهرين على أهل الإسلام.. أمَّا الذين تكون

العلاقات بينهم محكومةً بالمطامع والأهواء والغايات المتباعدة، فإنَّ الروابط بينهم تكون روابط مصلحية، حتى بين أقرب المقربين.. ويضرب لنا القرآن الكريم الأمثال الدالة على ذلك التفسّخ والتضارب في المواقف والاتجاهات؛ فامرأة نوح عليه السلام، وامرأةُ لوط عليه السلام اختلف خيارهما عن خيار زوجيهما، فكل واحدة منهما آثرت الكفر على الإيمان، واتخذت موقفاً في الحياة مغايراً لموقف زوجها. وكذلك كان موقف كنعان بن نوح، إذ كان مغايراً للحق الذي يدعو إليه أبوه، ودليله أنَّهُ رفض أن يركب معه في السفينة لعدم إيمانه بقدرة الله تعالى في بعث الطوفان لتطهير الأرض من الكفر والرجس، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ نوحاً عليه السلام سأل ربَّهُ تعالى أن يجعل ابنَهُ من الناجين، فجاءَه الخطابُ بأنَّ ابنه ليس من الصالحين، وأنَّ الدعاءَ له ـ لكي ينجو من الهلاك ـ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾.. وكذلك موقف آزر من ابنه إبراهيم عليه السلام، إذ لم يكن إلى جانب إبراهيم عليه السلام عندما أسلمه قومه الكافرون إلى النار.. ومثله موقف أبي لهب اللعين من ابن أخيه محمد صلى الله عليه وآله، فقد كان أكثر الحاقدين عليه من أبناء عشيرته الأقربين وأشدهم حرباً على دعوته.

ولا يقتصر انطباق هذه الأمور على حياة الأفراد من البشر، بل يتعدّاه إلى حياة الشعوب والجماعات. فلا عجب أنْ نرى، منذ أواخر القرن الماضي، الاهتراءَ والتفسُّخَ والتآكلَ، تصيب الأنظمة الشيوعية والأنظمة المسمّاة «اشتراكية»، فإذا بها تتهاوى واحداً بعد الآخر. وما بقي منها ممسكاً بزمام السلطة، فإنما بفعل أنظمة التسلُّط، واللجوء إلى القهر والشدة ليحمي مواقعه ويلهي شعبه عنه. وهو اليوم آخذ في التخبّط، ولاحِقٌ بغيره لا محالة، طال الزمن، أو قَصُر.

وليست الرأسمالية بأفضل من الشيوعية أو الاشتراكية، فالمبادئ التي نادى بها فلاسفة الغرب لم يكتب لها النجاح كما كانوا يظنون، وقد جاءت التطبيقات تثبت عقم المبدأ الرأسمالي الذي أورثَ التنافسَ، والاحتكارَ، والاستئثار والجاه والثروة لطبقة الحكام وأصحاب رؤوس الأموال، بينما تلهث باقي الطبقات في المجتمع وراء لقمة العيش، في ظل «مادية» رعناء كانت «أمثل نتاج للرأسمالية»!.. لقد توهمت الشعوب التي كانت تئنُّ تحت وطأة الملكية المطلقة والإقطاع في الغرب أنَّ خلاصَها في الرأسمالية، فلَّما خاب ظنُّها التجأت ـ في غالبيتها ـ إلى الاشتراكية، فإذا هذه الاشتراكية تظهر عند التطبيق، رأسماليةً بوجهٍ آخرَ، ما جعل المبدأَ الرأسماليَّ يعُمّ غالبية بلدان العالم، بل وصار ظلاً لاستعمار الشعوب المستضعفة، وتقييد حركتها فكرياً ومادياً، فكان من المحتوم ألّا تجد الجماعات والشعوبُ في ظلِّ الرأسمالية، ولا في ظلِّ الاشتراكية أي نوع من الطمأنينة والرفاهية في العيش، بل وجدت نفسها غارقة في لجج الظلم.. تعاني كثيراً من الفقر، والتعاسة، والقلق الدائم، والهمّ المقيم!..

فهل يمكن أنْ يكون الخلاص في نظام متكامل، يعيش الإنسان في ظلّه آمناً مطمئناً، ترعاه دولة قوية وعادلة، تعرف قدر الإنسان، وتقدم له كلَّ مقومات الحياة الكريمة وسبلها؟

بل، وأين يكون مثل هذا الخلاص؟

نظام الإسلام وحده فيه الخلاص

إنَّ العقل البشري مهما ذهب بعيداً في البحث والتنقيب وإعمال

الفكر، فلن يجد علاجاتٍ لمشكلات البشر، إلّا إذا طبق نظام الإسلام، لأن هذا النظام هو وحده الذي يعيد لهذا الإنسان اعتباره، ويبدِّله من بعد خوفه وقلقه أمناً وطمأنينة، ومن بعد فقره المدقع غنىً في المال والنفس، ومن بعد الظلم والجور اللذين نزلا به عدلاً ومساواة.

لقد غُيِّب الإسلام عن تسلم زمام مقاليد الحكم، فترةً من الزمن، وهذا وفقاً لمقتضى الحكمة الإلهية، قد يكون امتحاناً للمؤمنين، كي يغيروا ما بأنفسهم حتى يغيّر الله سبحانه ما بهم. . .

وها نحن نرى أنَّهُ ما إنْ لاحت بوادر الصحوة الإسلامية، حتى راحت النظم الدُنْيَوية من رأسمالية واشتراكية، تتهاوى بأصحابها والقيِّمين عليها، كما تتهاوى مفاهيمها في عقول الناس وقلوبهم. . ولن يكون هنالك ملاذٌ للشعوب المنهكة إلاَّ بالإسلام، لأنه الدين الحقّ الذي يأخذ بيدها كي تتمكّن من تغيير أحوالها، واستبدال أوضاعها بأفضل مما هي عليه بكثيرٍ، وقد بيّنا كيف يكون هذا التغيير وسبله، في فصل سابقٍ. . .

أجل! ما من نظام يصلح لبني الإنسان إلاَّ نظام الإسلام. إنّه النور الربّاني الهادي، يضيء لهم شعاب هذه الحياة، ويملأ قلوبهم بالإيمان والرّاحة، ويسهّل أمامهم سبل العيش الكريم. . .

هو الدِّين القيِّم الذي ارتضاه سبحانه لعباده، وبعث به نبيَّه المصطفى شاهداً ومبشّراً ونذيراً؛ وهو سبحانه الذي عهد في كتابه الكريم أنْ يظهره على الدين كله ولو كره المشركون. . ولو كره

الكافرون. . والله بالغُ أمره، لقد قضى بذلك ولا رادّ لقضائه. ولن تُطفئ نورهَ الغامرَ أفواهُ المشركين والكافرين. . .

هذا عهد من الله سبحانه على نفسه. . . ومَنْ أوفى بعهده من الله جلّت عظمته؟

يقول تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

وهذا من عجيب بيان القرآن الكريم في تصغير شأن من يريدون أن يطفئوا نور الله، وإضعاف كيدهم. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾. . ويأبى الله تعالى إلاَّ أنْ يظهِر أمر الإسلام، وأحقيَّتَهُ في دنيا الناس. . .

قال المقداد بن الأسود:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَبْقَى على ظَهرِ الأرض بيتُ مَدَرٍ[2] ولا وَبَرٍ[3] إلاَّ أدخلَهُ الله كلمةَ الإسلام، إمَّا بعزِّ عزيزٍ، وإما بذلِّ ذليلٍ، فهو إمَّا يُعِزُّهُمْ فيجعَلَهُمْ مِنْ أهلِهِ فَيَعِزُّوا به، وإمَّا يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُوا له»[4].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ غلبةَ هذا الدين، فإن الله تعالى لا بدَّ أنْ يظهره رغماً عنهم. .

لقد حسب أولئك الذين حكموا الناس بالظلم، وتحكَّموا فيهم بالجَور، أنّهم قد استولوا على العقول، فأقنعوها بعدالة أنظمتهم،

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢ و٣٣.

(٢) المدر: الطين المتماسك. وأهل المدر: سكان البيوت المبنيّة.

(٣) الوبر: جلد الإبل ونحوها. وأهل الوبر: أهل البادية.

(٤) أحمد بن حنبل، ج٦، ص٦٥.

وأنهم قد سيطروا على المصائر فلا خلاص للرعيَّة من حكمهم. . .

أجل! لقد اعتقدوا بأبدية أنظمتهم!. . . ولكن الله سبحانه رؤوف بعباده، حافظ لدينه الذي ينظِّم حياتهم ومعادهم. ويبعث الفرج بأمره تعالى من قلب الضيق، وينشر نوره السنيَّ فيعمَّ الكونَ، ويكون دينُهُ الحقُّ هو الخلاص لبني البشر في دنياهم، وفوزاً للذين اتّبعوه بحقٍّ في آخرتهم.

وتثبيتاً لقضائه سبحانه بغلبة هذا الدين الحنيف، وظهورِهِ على كل ما يريدُهُ المشركون والكفار لإطفاء نوره، وما يجهدون في تخطيطهم لطمس هداه، وإحقاقاً لمصداق آياتِ كتابِهِ البيِّنات واحتوائها كلَّ شاردة وواردة في شأن هذا الخلق، وإظهاراً لسحر البيان والبلاغة في كل كلمة مفردة، أو كل تركيب في القرآن الكريم. . . أجل، توكيداً لذلك كله جاءت النصوص في سورة الصف مطابقة في ظاهرها للنصوص في سورة التوبة (الآيتين ٣٢ و٣٣ اللتين أوردناهما) وذلك في قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

إنَّ تكرار الألفاظ، في النصوص الكريمة، والتنوع في استعمال الفعل أو المصدر، والاختلاف في التوكيد وأدواته. . كله يبعث الثقة في نفوس المؤمنين، ويقوّي من عقيدتهم، ويشد من عزائمهم، فيوقنون أنَّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنَّ دينه سوف يظهر ويسودُ العالَمَ، والله سبحانه بالغُ أَمْرِهِ، والعاقبةُ للمتّقين. . .

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٨ و٩.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الإنسان إذا ما اختلى بنفسه، واستعرض ما مضى من حياته، فإنّ نتائج كده وكدحه، بل وعصارة عمره كله تتبدّى في الخيارات والمواقف التي اتخذها، فإذا شعر براحةٍ في نفسه إلى مجريات الأحداث التي مرّت عليه،فإنّ ذلك ينعكس ارتياحاً إلى ما ينتظره في مستقبل أيامه، أما إذا شعر بانزعاج وانتابه القلق، فمعنى ذلك أنّ حياته لم تكن سويّةً بالشكل الكافي، الذي كان يرغبه في أعماق نفسه، ما يستدعي منه تدارك أموره والعمل بالخيارات والمواقف التي تجعله يعوّل عليها في نيل الثواب الذي يأمله، بدلاً من العقاب الذي يحيد عنه.

وتصبح هذه الوقفة أكثر إلحاحاً كلما طال العمر بالإنسان، وأصبح على وشك الرحيل عن هذه الحياة الدنيا، إذ لا يبقى له من شيء يتذكره في الحقيقة إلا خياراته ومواقفه التي كان يحسم منها أمره، ويعزم على القيام بها. أما عندما يحين الأجل، الذي لا مفرّ منه، وعندما يكون الإنسان في آخر ساعة من دنياه هذه وأول ساعة من أخراه، فإنّ خياراته ومواقفه تنعكس على صفحة وجهه، فإذا كانت في مجملها صالحةً سُرّ واطمأن دليلاً على الرضى، وإذا كانت سيئة اغتمَّ وعبس، دليلاً على الندم، أي إنه حتى في اللحظات الأخيرة، وعندما تتأهب النفس لمفارقة هذا الجسد الفاني، والصعود إلى بارئها في حياةٍ أبدية لا موت فيها، فإنّ خيارات الإنسان ومواقفه هي التي تجعله في حالة من الحبور، أو في حالة من الحزن التي تختصر مراحل حياته كلها، وتؤشر إلى ما ينتظره في آخرته..

وخلاصة القول: أنَّ الإنسان إما يريد الدنيا، وإما يريد الآخرة.

ونيل الدنيا قد يكون بالإيمان الصادق، والعمل الصالح، ومجاهدة النفس ضد الضلال والفساد. . أو قد يكون بالكفر والعمل الطالح، واتباع أهواء النفس. .

وقد ينالُ الدنيا أحياناً، أناسٌ، بلا عمل أو جهد، مثل الذين يرثون السلطان، والنفوذ، والثروة عن آبائهم من الحكام، أو أصحاب الجاه، أو الأثرياء، فيحافظون على ما ورثوا، أو يبدّدونه تبديداً! . .

أما نيل الآخرة فلا يكون إلّا لمن عمل لها وسعى لها سعيها. والسعي للآخرة يكون في هذه الدنيا، فأعمالنا الصالحة فيها تجاه ربنا، وتجاه أنفسنا، وتجاه الناس، هي الزاد الذي نحمله، والمؤونة التي ندَّخرها لتكون لنا الجنة هي المأوى. والاعتقاد بغير ذلك يخالف التربية الربانية لنا، ويجعلنا ننحرف عن المنهج الصحيح، والصراط المستقيم.

ولذلك كان من العجب العجاب، أمرُ هؤلاء الذين يدَّعون الزهد في الحياة، ويظنون أنَّ قيامهم على العبادات فقط، بلا أعمال صالحة تفيد أنفسهم وغيرهم، هو الذي يوصلهم إلى الآخرة. لا، إن الله تعالى يحب الإنسان العامل، صاحب الجدّ والكدح، لأنه مخلوقٌ للعمل، وعلى قيمة عمله في هذه الدنيا يتوقف مصيره في الآخرة. فمن قعد بلا عملٍ ـ خلافاً لما أراد الله تعالى منّا ـ فكيف يمكن أن يحظى بثواب الآخرة؟

والحديث الشريف يقدم لنا الحجة والبرهان، وهو يزن نيات الإنسان في تحديد خياراته ومواقفه من الدنيا والآخرة. يقول الرسول ﷺ: «مَنْ كانتْ نيتُهُ الدُّنيا فرّقَ الله عليه أمرَهُ، وجَعَلَ الفقرَ بين

عَيْنَيْهِ، ولم يُؤْتِهِ مِنَ الدُّنيا إلا ما كُتِبَ له. ومَنْ كانتْ نيّتهُ الآخرةَ جَمَعَ الله عليه شَمْلَهُ، وجَعَلَ غِناهُ في قلبِهِ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهِيَ راغِمَة»[1].

والسؤال: ما هو السبيل الأقوم لكي يتمكّن الإنسانُ من تحديد خياراته ومواقفه؟ والجواب واضحٌ في كتاب الله المبين والسنة النبوية المبيِّنة: إنه الدين، والدين عند الله الإسلام، الذي جاءت به الرسالات السماوية كافة، وكان ختامُها باكتمال الشرعة والمنهج، وبإتمام النعمة من الله العزيز الحكيم، وذلك بالرسالة الإسلامية التي بُعث بها محمد بن عبد الله ﷺ.. نقول ذلك بثقةٍ واطمئنانٍ ـ بإذن الله ـ واعتمادنا على القرآن الذي أُنزل بالحق، ومن الحق تبارك وتعالى، بقوله الكريم الذي لم ولن يدخل عليه أيُّ تحريفٍ، أو تبديلٍ، أو تزوير لأنَّه عصيٌّ على العالمين، في حين أنَّ الكتب السماوية الأخرى من مثل صحف إبراهيم، والزبور، والتوراة والإنجيل، إمَّا أنَّها لم تعد موجودة بصورة كاملة، أو لم يعد ميسوراً ـ على الأقل ـ الاطلاع عليها كما تنزّلَت على حقيقتها، وذلك لما لحقها من التحريف والإدخال، والحذف، والإخفاء.. لغايات وعللٍ شتى هي من صنع بني البشر..

وبقي القرآن وحده، كما أُنزلَ على قلب محمدٍ ﷺ منذ ما يزيد على ألف وأربعمئة وسبعة وعشرين عاماً، وسيظل كذلك إلى أنْ يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، لأنه كتاب محفوظ من الله الذي أنزله لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]. والذكر هو القرآن الكريم، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن أولى الحقائق التي جاءَ بها هذا الكتاب الكريم، بل ونبراسُها عقيدة

---

(١) أحمد بن حنبل، ج٥، ص١٨٣.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

التوحيد القائمة على أنه «لا إله إلا الله» وحده لا شريك له، وعلى أنه ربٌّ واحد لجميع العالمين، فلا أرباب وهمية أو بشرية في الوجود كله إلاّ وكانت من اختراع الناس وأوهامهم، وهذا ما يثبته الكتاب المجيد الذي يقدم منهج الله تعالى في العبادة والمعاملات، والذي يربط ما بين الأرض والسماء، كما يربط ما بين الدنيا والآخرة. .

ولذلك، ولأن القرآن الكريم هو كتاب الله المبين، وليس فيه إلّا قول الله العليم الحكيم، فقد بقي وحده محفوظاً. وهو في متناول كل الناس يستطيعون الإمساك به، وتلاوته، والاستماع إليه في كل حين، وفي أي بقعة من بقاع الدنيا. ولذلك كان وحده هو السبيل الأقوم الذي يمكّن الإنسان من معرفة أمور الدنيا والآخرة، وبالتالي يمكّنه من تحديد خياراته واتخاذ مواقفه في ضوء قناعاته إمّا بالتصديق الجازم لكل ما ورد في هذا الكتاب، جملةً وتفصيلاً؛ وإمّا بالإرادة الممانعة لمعرفة ما في كتاب الله، وبالتالي عدم الاهتداء إلى حقائق الدنيا والآخرة. . ولكل جزاؤه!. .

ولأنَّ القرآن يتناول حقائق الكون والحياة والإنسان، ولأنّه أنزل للناس كافة، للاهتداء إلى معرفة مبدئهم ومعاشهم ومعادهم، كان الربط ما بين القرآن والبيان. . .

القرآن والبيان في حياة الإنسان

ويبرز الربط ما بين القرآن والبيان في حياة الإنسان بقول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1].

وحيال قول الله ـ عزَّ وعلا ـ لا يسع الإنسان إلّا أن يوقن يقيناً

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١ ـ ٤.

قاطعاً وجازماً بأنَّ الذي خلَقَهُ هو الله تعالى، الرحمن، وأنَّ مِنْ رحمته التي وسعت كلَّ شيء، أنْ علَّمَهُ البيان، الذي يستطيع بواسطته أن يلج أبواب الحكمة، التي من شأنها أنْ تجعله يرتقي في معارج العلم والمعرفة ليبلغ ذروة الإنسانية بأروع معانيها وتجلياتها. وقوام هذه الحكمة التي يشاء الله تعالى للإنسان أن يهتدي إليها، هو هذا القرآن الذي جعلَ تعالى رحمتَهُ مقرونةً بقراءته وفهم معاني آياته وأحكامها ومقاصدها، فكلما ازداد الإنسانُ علماً بهذا القرآن، كان ذلك سبيلاً لنضوجه وارتقائه الفكري، والنفسي والجسدي، وترقياً لحياته الاجتماعية والانسانية..

وبعد أن يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة، أي ارتباط رحمة الله بتعليم القرآن، يعطف على حقيقة أخرى، وهي خلق الإنسان وتعليمه البيان. ولن نتوقف عند خلق الإنسان، لأننا بحثناه من قبل، ولكن تستوقفنا الخارقة الكبرى، والسر الأعظم، ألا وهو تعليم الإنسان البيان. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾. فما هو البيان؟! إنه هذا النطق، الذي يتميز به الإنسان عن سائر مخلوقات الأرض. فنحن نرى الإنسان ينطق (يتكلم)، ويعبّر، ويتفاهم ويتجاوب مع الآخرين فهو بيِّن.. ولكننا بحكم الألفة ننسى عظمة هذه الهبة، وروعة هذه الخارقة التي لولاها لما شعر الإنسان بإنسانيته.. وعظمة القرآن أنه يوقظنا من غفلتنا عن هذه الحقيقة، لنعود وندرك أهمية النطق، الذي يرتبط به عمل العقل والشعور، وسائر الملكات الأخرى في تكوين الإنسان، إذ لولا النطق لما أمكن للإنسان أن يؤدي وظيفته في دنيا الأرض، ولما أمكنه أنْ يعلم شيئاً عن الآخرة..

من هنا كان ربط القرآن بين حقيقة خلق الإنسان وحقيقة تعليمه

البيان. وكلتاهما من الرحمان، ومن صنعه وتقديره. فهو خالق الإنسان، وهو سبحانه الذي علَّمه البيان. . وقد قدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان، لأنه لا يمكن أن يتحقق في هذا الكائن الحي، معنى الإنسان، إلا بعد تعلّمه القرآن. ولا يتأتى له تعلّم القرآن إلا بالبيان. وهكذا شاءَ الله تعالى واقتضت حكمته السنية أنْ علّم الإنسان البيان، وذلك منذ أن خلق آدم عليه السلام وعلَّمه الأسماء كلها، أي مسميات الأشياء وخواصها، والحقائق الأساسية التي يدرك فيها معاني خلقه ووجوده، والغاية من جعله أباً للبشرية.

أمّا الأدوات أو الأجهزة والملكات التي خلقها الله تعالى في كيان الإنسان كي يعلّمه البيان، فيهدي إليها قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(١).

واضح من النص القرآني أنّ الله تعالى يُخرجُنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، أي إننا نولد وملكات العلم والمعرفة، والإدراك والتمييز ليس فيها إلاَّ الاستعدادات الكافية للتلقي والاكتساب، فنولد ونفوسُنا مثل الورقة البيضاء التي تخلو إلّا من السطور الفارغة التي يكتب عليها. . أما كيف نصبح قادرين على النطق، وعلى تعلّم العلم، وإدراك الحقائق، والتمييز بين الأشياء الحسية، والمعاني المجردة. . كلُّ ذلك إنّما مقوماته في ما جعلَ الله تعالى لنا من السمع والأبصار والأفئدة، التي هي بمثابة أجهزة الالتقاط والبث، التي نتعرَّف بها إلى عالم وجودنا وإلى ما هو مطلوب منّا. .

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.

ولو أردنا أنْ نقف على بعض جوانب خاصية «النطق» الذي يعبّر عن حقيقة البيان، لوجدنا أن جهازَهُ يُعدُّ عجيبةً من عجائب الله تعالى في خلق الإنسان، فاللسان، والشفتان، والفك، والأسنان، والحنجرة، والقصبة الهوائية، والشُّعَب والرئتان، كلها تشترك في عملية إخراج الصوت الآلية التي هي حلقة في سلسلة البيان. وهي على تنوعها، ودقائق تراكيبها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية المعقدة، المتعلقة بعد ذلك بالحواس الخمس، وبالأعصاب والدماغ، ثم بالعقل الذي يفكر، ويعطي الأحكام على الوقائع والأحداث؛ لأنَّ العقل هو الذي يصدر الأحكام، نعم. ثمّ تتكفل الأعصاب بإيصال هذه الأحكام عن طريق اللفظ المطلوب. وهذا اللفظ ذاته قد أودع الخالق في الإنسان خاصية تعلّمه، فكيف يجري الترابط ما بين العقل والأعصاب والأجهزة الصوتية حتى يتم اللفظ؟ يبدأ ذلك عندما تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها، ليمر من الشّعب، إلى القصبة الهوائية، إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة (التي لا تقاس إليها أوتار أية آلة موسيقية صنعها الإنسان، ولا مجموعة من الآلات الموسيقية المختلفة الأنغام). وفي الحنجرة يُحدِث الهواء صوتاً يتشكَّل حسبما يريده العقل: عالياً أو خافتاً، سريعاً أو بطيئاً، غليظاً أو ناعماً، حاداً أو رخيماً.. إلى آخر أشكال الصوت وصفاته. وهو يتشكَّل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة. وفي اللسان، خاصةً، يمرُّ كل حرف بمنطقة ذاتِ إيقاع معين، يتم فيه الضغط، ليصوّت الحرف بجرسٍ معين. ويحصل ذلك كله من أجل لفظ واحد. ومن الألفاظ تتكون العبارة الواحدة، والعبارات وما وراءها من موضوع، أو حدث، أو أفكار، أو مشاعر سابقة ولاحقة..

وكل منها يُعتبر عالماً قائماً بذاته، ينشأ في كيان هذا الإنسان الكريم بصنع من الرحمن الرحيم، فتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله ربِّ العالمينَ.

محمد ﷺ والقرآن

القرآن هو إمام البيان.. وهذه حقيقة تثبتها نصوص القرآن نفسها. ولقد نزل الوحيُ، بأمر الله تعالى إلى خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ أن يقرأ قرآناً مبيناً، وذلك بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]..

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. فالقراءة أمثل تعبير عن البيان، وهنا لها وقع خاص لأنها أمرٌ من ربِّ العالمين إلى «محمدٍ» بأنْ يقرأ القرآن، لأنَّ من معاني القرآن اللغويّة: القراءة، كما قال ابن عباس، فهو مصدر قرأتُ: أي تلوتُ، أو هو مصدر قرأتُ الشيء: أي جمعتُ بعضَه إلى بعضٍ، فيكون الربط واضحاً ما بين بعث محمد ﷺ، والقرآن الذي فيه كل معاني البيان اللغوي والفكري والشعوري والإيماني، ثم إنَّ الأمرَ من الله تعالى بأن يقرأ محمد ﷺ القرآن باسم ربّه الذي خلق الخلائق كلها، فمعناه التوكيد على صفة من صفات الله تعالى بأنه هو الخالقُ، وبأنَّ هذه الصفة مما يقتضيها كمال القدرة الإلهية، فلا خالق غيره سبحانه وتعالى لجميع الكائنات التي خلقها على مقتضى الحكمة من خلقها، وإخراجها من العدم إلى عالم

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

الوجود.. ومن تلك الكائنات، «الإنسان» الذي خصَّهُ التنزيل الحكيم بالذكر، تشريفاً له على سائر الكائنات الأخرى بما وهبه من ملكة البيان والعلم، علماً بأنَّ خلْقَهُ إنّما هو من نطفةٍ من ماءٍ مهينٍ يصيرُ علقةً في جدار الرحم، ثم تحوّله يدُ العناية الإلهية إلى مضغةٍ مخلّقة، حتى إذا اكتمل تكوينه، وخرج إلى عالم الحياة، كان من أهم خصائصه القدرة على النطق والتمييز.. ويعود الوحيُ ليؤكد على محمد ﷺ بأن يقرأ ثانية باسم ربه، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الأجلُّ والأعظم كرماً، بما حباك يا «محمد» من نعمة القراءة، أي تبيان وإدراك ألفاظ القرآن ومعانيه، وبما يعلّمك من علم البيان، وأداتُهُ «القلم» الذي به تجري القراءة والكتابة، والبيان الناطق، والبيان الفاعل «الذي علّم بالقلم».

وحتى نقف على مدلول هذا النص القرآني، يجب أن نشير إلى أن القلم ـ كما هو معروف ـ كان ولا يزال أوسع أدوات التعليم وأعمقها أثراً في حياة الإنسان. كما لا بد أن نشير إلى أن حقيقة القلم لم تكن يومَ تنزُّل القرآن على محمد ﷺ بهذا الوضوح الذي نلمسه اليوم، ونعرف أثره في حياة البشرية. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ شاءَ أن يبيّن لنا قيمة «القلم»، منذ أول لحظة من لحظات تنزيل الرسالة الأخيرة للبشرية، وفي أول قرآن يحمله جبريل الأمين عليه السلام إلى خاتم النبيين، ومع التوكيد على أنَّ محمداً ﷺ الذي بعثه الله تعالى ليحمل رسالة الإسلام بتمامها وكمالها، لم يكن كاتباً بالقلم، إذاً، فما كان له (ﷺ) أنْ يبرز هذه الحقيقة المتعلقة بقيمة القلم لو كان هو الذي يقول هذا القرآن..

فالقلم، وبمعناه الواسع (كتابةً، وقراءةً، وتعليماً، وتعلّماً، ونتاجاً)، من أكبر النعم على الإنسان وأجلّها، لأنه تعبير عن القيمة

الفكرية والعملانية التي تمكّن الإنسان من أن يحقّق كلَّ ما يستطيع إنجازه في هذه الدنيا، فضلاً عمّا يمهّد له من مصير في آخرته. .

إذاً فالقلم، وبهذا المعنى الذي يريده القرآن الكريم، هو كناية عن مجمل العلم الإنساني، والمعرفة الإنسانية، وما يقدر أن يصل إليه الإنسان من علوم ومعارف على مدار الزمان. قال قتادة: «القلم نعمة من الله عظيمة، لولاه لم يَقُمْ دينٌ، ولم يصِحَّ عيشٌ».

وبواسطة «القلم» علَّم الله تعالى الإنسان ما لم يكن يعلم من أمور الدنيا والآخرة، وممَّا يحتاج إليه من الهدى والإيمان، ومن الشرائع والأحكام، ومن العلوم والمعارف. . وكلُّ ذلك قد علمَهُ الله تعالى لهذا الإنسان، إما بالإلهام والفطرة، وإما على لسان النبيين والمرسلين، وإما عن إلجائه إلى الحاجة والاضطرار، وذلك بما نصب له من الأدلة التي تتلمَّسُها حواسه وعقله، وبما هيَّأَ له من الظروف والأسباب التي تقوده إلى العلم.

وهكذا أمكن الإنسان، بفضل الله تعالى عليه، أن يكتشف خواص الأشياء ولا سيما النافعة منها، فأنشأ من العلوم ما جعله يرتقي من عصر إلى عصر، وقد ظهر هذا الارتقاء باكتشاف الكهرباء والاتصالات السلكية واللاسلكية، والعقول الإلكترونية، وعلم الأحياء، والطب، والتعدين، والعمارة، وسائر العلوم الأخرى التي هي من صنع الإنسان أو اكتشافه، إنما مصدرها الله تعالى، لأنه ـ سبحانه ـ هو العالم، وهو الذي وهب الإنسان ملكة العلم، وعلَّمه ما لم يعلم.

ولكنْ أليس في الحياة، إلى جانب العلوم النافعة، علومٌ كثيرة

أخرى يمكن أنْ تضرَّ الإنسان، وما يحيط به؟!.. فهل هذه العلوم من الله تعالى؟ كلا، بل هي ضلال من الإنسان. لأن الله تعالى أوجَدَ الأشياء جميعاً، وأوجد لكل شيء خاصيّة، وكلّف الإنسان بالعمل مع منحه ملكة التمييز بين العلم والتطبيق. فإنْ لم يُراعِ الإنسانُ حق الله تعالى في ما علَّمه، ولم يراعِ حق عباده بأن حوَّل كثيراً من الأشياء التي خلقها الله تعالى إلى علوم ضارّة بهؤلاء العباد، بل وبغيرهم من المخلوقات، فهذا من سوء توجّه الإنسان، لأنه كان بإمكانه أن يحوّل هذه العلوم ذاتها، ومن مصادرها، إلى ما يفيده ويحقق له الخير والسعادة. وإن كثيراً من الناس ـ الذين يعتبرون من العلماء ـ قد أوجدوا من المكتشفات، وصنعوا من الآلات والتراكيب ما قد يؤدي إلى محو البشرية كلها في لحظات، خلافاً لما أراده الله تعالى للعباد!...

لقد كان التوكيد القرآني على ربط القراءة، والعلم والبيان، بكرم الله تعالى، اي بما تكرَّم به على الإنسان من عقل، وفكر، وإدراك، وتمييز، وشعور، وإحساس.. لا ليضارّ به هذا الإنسانُ نفسه وعيشه، بل ليأتمر بأوامر خالقِه الذي أراده أن يكون مكرماً في علمه، حكيماً في سعيه.. ولو عرف الإنسان كرامته حق المعرفة، لامتنع عن أي علمٍ يسبب له الشقاء أو القلق أو الفناء..

والله تعالى وهو يعلّم الإنسان ما لم يعلم، فإنه يضعه دائماً أمام الخيار بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين النافع والضار، ثم يتركه يتصرف وفق استعداداته، هو، لهذا الجانب أو ذاك. وهو ـ سبحانه ـ يعلّمه أيضاً، ويحذره، ويؤكد عليه أن وراء نياته وأعماله في هذه الحياة الدنيا حساباً لا بد منه، وهو ينتظره يوم القيامة ليجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَـرَهُۥ﴾[1] ولو أبقى الإنسانُ هذه الحقيقة راهنةً، حاضرةً في ذهنه وفي عقله وقلبه، لحاسبَ نفسه كل يوم، فابتعد عمّا قد يجرّه إلى خطأ، أو ذنب أو معصية، أو ضرر أو شقاء إلخ. . . ولو فعل الناس ذلك، لكان الإيمان يملأ نفوسهم، بدل أن يتحوَّل كثير منهم إلى كفران النعم الربانية وجحودها كما هو حاصل للإنسان اليوم في أكثر بقاع الأرض؛ ولذلك يأتي التقريع والتوبيخ من الله العزيز للإنسان على شدة كفره وجحوده حتى ليستأهل القتل عليه، في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾[2].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾. .

إنه بيان صريح من رب العالمين بأن هذا الإنسان يرتكب من المعاصي والقبائح والجرائم ما يستوجب عليه القتل. . فهذه المظالم التي يرتكبها بحق أبناء جنسه، فرادى وجماعات، وتلك المطامع الجامحة التي تدفعه إلى الاستغلال والاستبداد بغيره، وذلك الجنوح الذي يقوده إلى استلاب حقوق الآخرين إن بالدهاء والحيلة، أو بالعنوة والقهر. . كلها فظائع طغت على الإنسان فلم يراعِ حق الله تعالى في خلقه، وإنه ليستحق القتل عليها.

وما كانت تلك الفظائع من الإنسان إلاَّ لشدة تنكُّره لمقتضيات نشأته وخلقه، ومنْ لا يراعِ حق الله تعالى في خلقه، يكُنْ كافراً لا محالة. ولذلك يأتي تذكير الله تعالى لهذا الإنسان بأنَّ عليه أنْ يتفكَّر في بداية خلقه، في أصله المتواضع الضئيل الزهيد، وأنه من تلك

---

(1) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ و٨.

(2) سورة عبس، الآيات: ١٧ ـ ٢٣.

النطفة من ماءٍ مهينٍ، من منيٍّ إذا يُمنى؛ إذ لو تفكّر الإنسان بذلك، لأدرك مقدار فضل الله تعالى عليه: إنشاءً، وتدبيراً وهدايةً.. ومن لطف الله تعالى بالإنسان أنْ سترَهُ في موته، فجعل مثواه الأخير في تابوتٍ مخبّأ، أو في قبر تحت الأرض، حفاظاً له وكرامةً، فلا يطّلعُ أحدٌ على ما يحل بجسده من الفناء والاندثار، حيث يتحوَّل إلى جيفةٍ نتنةٍ تأكله الديدان، وهذا ما يريد مولانا الكريم أن ينبّه إليه بقوله المبين: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾، فستره في قبرٍ لا تنبعث منه روائح الميت الكريهة، ولا تخرج منه ديدانُهُ الآكلة!..

بل ومن الجدير بالإنسان أن يزنَ بعقله ما قد يصير إليه في ما هو أبعدُ من القبر، إذ إنَّ الموتَ هو نهاية وجوده في هذه الدنيا، ولكنه ليس نهاية حياته، يوم يُبعث الناسُ من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصبٍ يوفضون، ليحاسبَ كل امرىءٍ على ما قدَّم في دنياه، وأخَّر لآخرته؛ وهذه الحقيقة، حقيقة الحساب، هي من مقتضيات العدل الإلّهي الذي تقوم عليه الدنيا والآخرة، فكان على الإنسان أنْ يتهيَّأ لذلك الموقف الرهيب، يوم يقف بين يدَي العزيز الجبار لتوزن أعماله بميزان العدل الإلهي، الذي لا تفلت منه مثقال ذرّة من خير أو شرّ.. ولكن، ويا للأسف، يبدو أن «الإنسان» قد يعمى عن تلك الحقيقة، فلا يقوم بما أمرَهُ به ربُّهُ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ولذلك يقضي الكافر عمره، عابثاً، جاحداً، سادراً لا يعبأُ ليوم البعث والحساب أيَّ حسابٍ.. وحتى المؤمن، فقد يكون مقصِّراً، في أحيان كثيرة، عن أداء واجباته تجاه الله خالقه، وكافله، وحافظه، وهاديه؛ وهذا ما لا يليق بالمؤمن الذي عليه ألّا يتوانى عن طاعة ربه، أو يغفل عن حسن صنيعه به، سواء في أوقات الرخاء أو الشدّة، في حالة الضعف أو

القوة، ولكنَّ الإنسان ـ إجمالاً ـ مؤمناً كان أو كافراً، لم يقض في أحكامه على واقع حياته ما يتناسب وما أمرَه به الله تعالى. .

وإذا كانت أعمال المؤمن تتمايز في كثير من الأشياء عن أعمال الكافر، إلاَّ أنَّ على «الإنسان» أنْ يعلم بأن الله ـ جلَّت عظمته ـ أقرب إليه من حبل الوريد، فلا يفوته شيء من عباده ولا يسبقونه بشيء من إرادتهم وفعالهم بل ومن نياتهم، لأنه سبحانه يعلم «السرّ وأخفى». . وهذا ما يستدعي من كلِّ ابنِ آدم أنْ يفيق من غفلته عن موته، وقبره، ومآله ما بعد القبر، ليعمل بطاعة الله تعالى، وسيجد الله ربَّهُ غفوراً رحيماً. .

نماذج عن خيارات البشر ومواقفهم

إنَّ نصوص القرآن الكريم لا تكتفي بتصوير النماذج البشرية، وهم يتقلَّبون في واقع حياتهم، بل ونجدها تسبر أعماق النفوس لتكشف عمَّا تنطوي عليه من الأفكار والمشاعر، وما ترنو إليه من التطلعات والغايات، كما يمكن أن نتبيّن من بعض النماذج التي يظهرها القرآن على حقيقتها. .

ومن تلك النماذج البشرية.

دعاء المضطر وإعراضه

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.

هكذا نجد الإنسان. . . إنَّهُ ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة، وهو يضج بالحركة والنشاط والحيوية ويتمتع بالصحة والقوة والغنى. . . وقليل هم، من لم يجنح بهم التيار، الذين يتذكرون أنَّ أوقات الراحة والرخاء لا تدوم، وأنَّ المصائب أو الشدائد لا بدَّ أنْ تقع. . على أنَّ الإنسان ـ عموماً ـ لا يجد من يلتجئ إليه إبّان الحاجة والحرج والضيق، إلَّا خالقه. . فيتوجه إليه بالدعاء والرجاء في كل آنٍ، وعلى أي حالٍ، أكان مستلقياً على جنبه، أو قاعداً في ركنه، أو قائماً في ابتهاله، وهو يتضرّع بخشوعٍ إلى سيده ومولاه أن يكشف عنه ما ألَمَّ به من الضرّ الذي أضناه؛ والله سبحانه وتعالى وهو اللطيف الخبير، قد أخذ على نفسه الرحمة بعباده، فيستجيب للداعي إذا دعاه، ويلبي حاجة المحتاج، ويفرج كرب المكروب. . ولكنَّ المشكلة في هذا الإنسان الذي ما أن يكشف عنه ربُّهُ تعالى ضرَّه، ويزيل عنه بلاءه، وقد يزيده من العطاء والنعمة ما يجعله في أحسن حال!. حتى يعود إلى سابق عهده من الجحود والكفر، فكأنَّما لم يتضرّع إلى بارئه بلهفة، ولم يستغث به بحرقة، ولم يَدْعُهُ برجاءٍ قطّ. . لا، بل ويعرض عن ذكره تعالى كأن لا ضُرَّ مسَّهُ، ولا ربَّ ـ والعياذ بالله ـ التجأ إليه. . فما بال مثل هذا الإنسان، وبأي وصفٍ يوصف؟ إنك لو أسديت خدمةً لأحدٍ، يقرُّ ـ عادةً ـ بالفضل، لوجدته شاكراً، محاولاً أن يرد لك الجميل، بينما غيره قد يمرون على أيِّ فضل أو معروف، مرور العابر الساهي اللاهي، الذي لا يقيم وزناً لعلاقات التعاون، ولا اعتباراً لمشاعر الحدب والإغاثة، وهذه هي حال الجاحدين المنكرين الذين يكفرون برحمة الله ـ عزَّ وعلا ـ التي بها كشف ضرّهم، وأذهب عنهم الهمَّ والحزن. . فأولئك كما زُيِّن لهم الدعاء عند

الضرّ، والإعراض عند الرخاء، كذلك زين للمسرفين من الكفار المشركين سوء ما كانوا يعملون، فاستوت بذلك أعمال الجاحد وأعمال المشرك أو الكافر. وقانا الله تعالى شرَّ أولئك الناس، وحمانا من غيّهم، حتى لا نتخبّط بشرور الدنيا وآثامها..

الذين ينسون الله يتخذون الأوثان آلهة

وهذا نموذج آخر من الذين ينسون ما كانوا يدعون إلى الله تعالى وقت الشدة، وما كانوا ينيبون إليه حتى يكشف عنهم الضرَّ، فمثل هذا الإنسان إذا ما كشف عنه ربُّهُ الشدَّة التي وقع بها، بل وخوَّله فوق ذلك نعمةً منه وفضلاً، إذا به ينسى كل دعاءٍ وإنابة، ثم يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير فيتخذ من دون الله أنداداً ليضل عن سبيله تعالى، كما يبيّنه قوله الكريم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[1].

وهنا لا بدَّ من التوكيد، وفقاً لمنطوق هذه الآية الكريمة، على أنَّ فطرة الإنسان هي التي تتحرك، وتنطلق في أصالتها حين الضُّرّ، فتدفعه للتوجه إلى ربه في الدعاء، وتجعله يدرك بأن لا كاشف للضر عنه إلّا هو سبحانه؛ ولا مجيب لدعائه إلّا الله الرؤوف الرحيم..

ولكنَّ هذا الإنسان الذي استجابت فطرته لخالقه عندما مسَّهُ الضرُّ، سرعان ما ينسى كلَّ ما مرَّ به من شدةٍ، أو من دعاءٍ وتضرّع لله تعالى، ويغلب عليه الظنُّ بأنَّ من أعانَهُ، وسدَّدَ خطاه للخروج من محنته أو بلائه، هم أناسٌ أمثاله، بحيث يجعل من هؤلاء الناس أنداداً

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٨.

لله عزَّ وجلَّ، في حين أنّه لا ناصرَ ولا مجيرَ في الأصل إلّا ربُّ العزة والجلال، فيكون شأن هذا الإنسان الذي يتوهم بأنّ الناس أمثاله هم الذين ساعدوه في محنته، كشأن أولئك الكفار والمشركين في عهود الظلام والجاهلية، الذين كانوا يتخذون آلهةً وهمية من الأصنام أو الأرباب المتفرقة، يلجأون إليها لتمدّهم بالعون، وذلك جهلاً وضلالاً.. بل ومثل هذا الإنسان، الذي يتنكّر لفطرته وخالقه، قد يتّبع أهواءه حتى يكون عبداً لشهواته وأطماعه.. أو قد يطغى عليه حب المال أو الولد.. أو قد يلوذ بجوار أحد الكبراء أو الحكام حتى يصير تبعاً لهم.. وكل ذلك من الأمور التي تؤدّي به حكماً إلى أن ينسى الله ـ جلت عظمته ـ في الطاعة، والشكر والامتنان عليه، حتى تصير أهواؤه هي الموجهة له في كل شيءٍ، وتصير بمثابة الأرباب التي تتحكم به وتسيّره تبعاً لما يأمل ويرتجي!.. وهذا ما يجعل في قلبه نوعاً من الشرك الخفي، قد لا يأخذ شكل الشرك المعروف، ولكنه قطعاً هو من الشرك في الصميم، لأنَّ عقيدة التوحيد ـ التي لو كان يدين بها هذا الإنسان ـ لا تحتمل شريكاً لله تعالى، لا في هوى قلبٍ، ولا في حب مالٍ أو ولدٍ، ولا في تقديس وطنٍ أو أرضٍ، فكل ذلك يكون العبور إليه من خلال حبّ العبد لله ربّه، وطاعته، والعمل بما أنزل إليه من كتاب.. أما إذا أنكر الإنسانُ دواعي الفطرة، والإيمان بالله تعالى، فإن الشرك، واتخاذ الأنداد لله، هي سبيله في الحياة، وهذا ما ينتهي بالمشرك إلى النار في الآخرة، بحيث يكون كل ما تمتَّع به في دنياه قليلاً وزهيداً ـ لو طال به العمر ـ مقابل ما سوف يلاقي كثيراً وأليماً من العذاب في آخرته..

ومن قولٍ للإمام عليّ كرم الله وجهه: «إنما مَثَلُ الدّنيا مَثَلُ الحيّةِ:

لَيِّنٌ مسُّها، قاتلٌ سمُّها. فأعرضْ عمّا يُعجبُكَ فيها لقلّةِ ما يصحبُكَ منها. وَضَعْ عنك همومَهَا لِمَا أيقنتَ به مِنْ فراقها. وكنْ آنسَ ما تكونُ بها أَحْذَرَ ما تكونُ منها. فإنَّ صاحبَها كلّما اطمأنَّ فيها إلى سرور، أَشْخصتْهُ عنه إلى محذور، أو إلى إيناس، أزالتْهُ عنه إلى إيحاش!».

هؤلاء الذين نسوا الله تعالى في الدنيا، فنسيهم سبحانَهُ من رحمته في الآخرة، هم الكفار الذين يتوعدُهم الحقُّ تبارك وتعالى بقوله المبين: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.. أي تمتّع أيها الكافر بكفرك متاعاً قليلاً زائلاً فأنت إلى فناء، وبمقتضى العدل الإلهي ستكون وقوداً للنار، إذ سوف تتمتع بك النارُ كثيراً في آخرتك، كما تمتعت أنت قليلاً بكفرك في دنياك.

القَنوطُ مِنْ ضيقِ الرزق

يفرح الناسُ بالنعمة والرزق اللذين لا يكونان إلاّ من الله تعالى، وييأسون من الشح والضيق اللذين غالباً ما يكونان من صنع أيديهم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(1).

يتطرق النص القرآني هنا إلى أحوال الناس النفسية، وأوضاعهم الحياتية، فيبيّن لنا أنَّ الله تعالى إذا أنعمَ عليهم نعمةً، هي رحمةٌ منه سبحانه، لم يفقهوا معنى هذه الرحمة الربانية، فيأخذهم الفرح وهم يرفلون في ثوب الصحة والعافية، أشرين في أوقات الرخاء والسعة من

---

(1) سورة الروم، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

الرزق، بطرين في مناخات الدعة والأمن. . أما إذا حاقت بهم السيئة بما قدمت أيديهم من مثل الجهل لعدم التعلم، والفقر لعدم العمل، والمرض لعدم الوقاية؛ أو إذا حاقت بهم السيئات التي تصيب الجماعات من مثل القحط في الزروع، أو الرياح العاتية التي تذهب بالمواسم، والابتلاء بالنزاعات، وما إلى ذلك مما يشاء الله ـ جلّت حكمته ـ أن يوقعهم به بسبب الكفر والفساد، فإنهم ييأسون. . والله سبحانه وتعالى عندما قال: «بما قدَّمت أيديهم» فذلك على التغليب للأظهر الأكثر، لأن أكثر الأعمال يكون باليدين. هذا هو شأن غالبية الناس، يفرحون للنعمة، وقد يلهيهم الفرح حتى ينسيهم ربهم الكريم الذي هو مصدر النعم كلها، فلا يفطنون بأنه سبحانه وتعالى إنما يجود على عباده كرماً ورحمةً، فيتميّز من أعطى النعمة حقها فاستحقَّها، ممَّن لم يستأهلها، فهم إذاً عن حكمة الله غافلون، حتى إذا شاء سبحانه أن يأخذهم بأعمالهم وأنْ يمتحن قلوبهم إذا هم يقنطون!. . وهذه حالة أصحاب النفوس الضعيفة الذين قطعوا صلتهم بالله العزيز الحكيم، فلم يدركوا سننه في خلقه من حيث إنه وحده مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويضيق على من يشاء من عباده، يهب أناساً ويحرم آخرين، وذلك وفقاً لتقديره في تدبير شؤون خلقه، وهم يتقلبون في شتى الحالات والأوضاع التي يعيشونها، مصداقاً لقوله المبين: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾(١)، أي يسأله أهل السماوات والأرض، بنطقٍ أو حالٍ، ما يحتاجون إليه من القوة والرزق والمغفرة. . وهو سبحانه، كلَّ حينٍ

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

في شأنٍ من إغناءٍ وإفقار، وإعزازٍ وإذلالٍ، وإجابةِ دعاء، وإعطاء سائل. . وإنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون.

تقلب الإنسان بين اليأس والتفاخر

وفي السياق نفسه يُبرز البيانُ القرآني نموذج الإنسان الذي يذيقُهُ الله تعالى نعمةً من رحمته، ثم ينزعها منه فينقلب إلى اليأس والكفر، ونموذج الإنسان الذي يذيقه الله تعالى النعمة بعد الضر فيتحول سريعاً إلى الفرح والتفاخر. .

يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمة حالتان متقابلتان: حالة الإنسان الذي يطرأ على حياته شيءٌ من التبدّل والتغيير، فيمرض مثلاً، أو يخسر بعضاً من ماله، أو نفوذه، فيصير كما يصوّره القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾. .

وحالة الإنسان الذي يحصل التغيّر في حياته، ولكن بصورة عكسية، فتنكشف عنه حالة الشدة أو البلاء أو اليأس، فيصبح كما يصوّره القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾. . وهما من الحالات التي يعيشها كثير من الناس الذين ينقلبون بسرعة على أنفسهم وواقعهم، فلا يصبرون على البلاء بعد النعمة حتى يغلب عليهم اليأس والكفر. .

---

(١) سورة هود، الآيات: ٩ ـ ١١.

أو الناس الذين لا يتّعظون بما كانوا عليه من العسر أو الضيق فيأخذهم البطر بعد النعمة التي حلّت بهم فيفرحون ويتفاخرون، والأدهى أنَّ كثيراً من هؤلاء من يأخذه الغرور في نفسه فيقول: لقد ولَّت داهية الأيام عني ولن أعود إلى ما كنت عليه، لأنني صرت خبيراً بشؤون الحياة، وقادراً على تحقيق آمالي وطموحاتي بما عندي من العلم والحذلقة، وكيفية التدبّر واقتناص الفرص!.. وفي هذا منتهى البلاهة، والسفاهة في الحلم، لأنه محض إنكارٍ لله تعالى، صاحب الفضل والنعمة؛.. فهذا الإنسان الذي أعماه فرحه، وأضله تفاخره عن هذه الحقيقة، يقع في الخطأ القاتل والنكران المقيت، لأنه جاحد، ولا يعلم أنَّ من وهبَهُ النعمة التي صار بها فرحاً فخوراً، قادر على أنْ يسلبه إياها في كل حينٍ، بل وقادر على أن يوقعه بأشد البلاء حتى يعود أكثر يأساً عمَّا كان عليه!.. وفي مقابل تلك الفئات من البشر، هنالك المؤمنون الذين يتميزون عن غيرهم في كل شيء، فلا يقعون فريسة اليأس في الشدائد، ولا يفرحون بإقبال الدنيا عليهم فيتعالون، ويستكبرون.. وتبيِّن النصوص القرآنية بعضاً من مزاياهم، بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

... إلّا الذين صبروا على ما أصابهم من مكروه، فلاذوا بالإنابة إلى ربهم، زيادةً في الطاعة، وطلب العفو والمغفرة، ورجاء زوال الكرب والشدة.. والذين صبروا على بلاء النعمة، فلم يأخذهم بطرٌ ولا فرح، ولا غرور، ولا استعلاء بل زادتهم النعمة حمداً وشكراً لله تعالى، كما زادتهم إقبالاً أكثر على الأعمال الصالحة، ينفقون مما آتاهم الله من فضله، فيقضون حاجة المحتاج، ويسعون لنصرة المظلوم، يرعون المؤسسات الخيرية ويقدمون لها الدعم المادي والمعنوي..

وهم لا يبتغون إلّا رضوان الله تعالى. . «أولئك» الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. لأن الصبر والعمل الصالح هما من الإيمان. والإيمان هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس، والكفر والضجر وقت الشدة، كما يعصمها من البطر، والفجور والتفاخر وقت الرخاء. وهو الذي يربط دائماً ـ في السرّاء والضرّاء ـ القلب البشري بالله تعالى. وكلا الحالين خير للمؤمن، وليس ذلك إلا للمؤمن كما قال رسول الله ﷺ: **«عَجَباً لأَمْرِ المُؤْمِنِ إنَّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ، وليسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمؤمن. إنْ أصابَتْهُ سرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خيراً له، وإنْ أصابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ، فكانَ خيراً له»**[1].

والإنسان الذي يكون يؤوساً في الشدة، أو فخوراً في النعمة هو ـ عادة ـ الكافر، أما الإنسان الصبور الشكور فهو المؤمن؛ فالكفر والإيمان حدّان فاصلان في الحياة، فالإنسان مهما تقلبت عليه ظروف الحياة، أو ثقلت عليه الأوضاع فالشيء الذي يعنيه هو ما ينبع دائماً من نفسه، وهو الذي تصطبغ به تصرفاته، وتظهر به سريرتُهُ وسيرتُهُ، وعلى ذلك فالمؤمن مؤمن، والكافر كافرٌ، ولا خيارَ رمادياً بين الكفر والإيمان، إلّا خيار النفاق، الذي لا يعدو كونُه ظلماً للنفس قد يكون أشدَّ تأثيراً من الكفر. .

الإنسان القتور

من المعروف أنَّ الشائعةَ نوعٌ من المكر الذي قد يتخذه الإنسان سلاحاً للإيقاع بغيره. وهذا ما لجأ إليه المشركون في مكة لإظهار عجز النبي ﷺ وأنّه ليس رسولاً نبيّاً؛ فقد كانوا يجمعون الناس،

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث ٥٣١٨.

ويأتونه قائلين: إنْ كنت نبياً كما تدّعي، فلمَ لا تفجّر من حولنا ينبوعاً في هذه الأرض القاحلة؟!.. ولِمَ لا يكون لك جنات من نخيلٍ وأعناب، تجري من بينها الأنهار؟!.. ولمَ لا تجعل بيتك من ذهبٍ وفضةٍ؟ فإنْ فعلت نؤمن لك ونتّبع دينك!.. وذلك ما يبيّنه قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1]..

ذلك مبلغ ما يمكن أن يصل إليه أهلُ المكر والخبث والدهاء.. فلم تقف رعونة أولئك المشركين عند حدود طلب تفجير الينابيع والأنهار، وجعل البيوت ذهباً وفضةً.. بل تجاوزوا كلَّ مألوفٍ من البشر، وهم يتحدّون النبي ﷺ بأن ينزل عليهم من السماء العذابَ الذي يتوعدهم به القرآن، أو ﴿تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، والعياذ بالله من شرّ ما خلق، من مثل هؤلاء القوم الجاهلين..

وقد كان جواب النبي ﷺ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.. وحدَه سبحانه القادر على ما تطلبون أيها المشركون؛ أما أنا فما كنت إلاّ بشراً مثلكم، ورسولاً لهدايتكم.. وهل ما تقولون إلّا دليلٌ على سفاهة عقولكم، وبشاعة ما تنطوي عليه نفوسكم من الشرك والكفر، والحقد؟!..

ولكي تتبيّن حقيقة أولئك المشركين، وتظهر ضغائن قلوبهم فإنَّ

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

تلك المطالب المعجزة من النبيّ ﷺ ما كانت إلّا أوهاماً يتخيّلونها ولا تمت إلى حقيقة الواقع بصلة، وإنّما يراد بها إبعاد الناس عنه (ﷺ) فجاء النصّ القرآني ليردّ عليهم تلك المطالب، ويظهر ما كانت تحفل به حياتهم من صفاتٍ ذميمةٍ، يتبدّى بعضها في هذا الشحّ المادي حباً بالمال، وهذا الشحّ النفسي في عدم تقبّل الإيمان الحق، فأنزل تعالى على نبيّه المصطفى ﷺ قولَه المبين: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾[1].

أجل، لقد نزل الوحي يبيّن أحوال أولئك المشركين، ورسم قاعدة قرآنيةً، على مدى الزمان، تدلُّ على أهل البخل، وشحّ أنفسهم من الخير والإيمان..

يا أيها النبيّ، قل لهم: لو كنتم تملكون ـ فَرَضاً ـ الينابيع، والبساتين والأنهار، والبيوتَ من الذهب والفضة، كما طلبتموهُ مني مكراً وكيداً ليس إلا.. ثم سُئِلتم من ذلك شيئاً تنفقونه، لما أجبتم عطاءً لسائلٍ!.. بل ولو أُوكلت إليكم مقاليد خزائن رحمة ربي، التي بها ينزلُ المطرُ، وتفجر الينابيع، وتتدفق الأنهار، وتفيضُ الأرزاق والخيرات، بل ولو أُوكل إليكم أن تملكوا جواهرَ الدنيا كلها.. لأبيتم أن تنفقوا شيئاً منها، وذلك لشدة الشح والبخل اللذين يستحكمان في نفوسكم، ولخشيتم أن تعطوا ولو نزراً يسيراً من رحمة الله التي تفيض خيراً وبركة على الدنيا بأسرها، خوفاً منكم ـ لو كنتم تملكون مقاليدها ـ أن تنفد من أيديكم!..

وهذا من أهم الدلائل على خواء نفوسهم من استعدادات الهداية

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

إلى الإيمان، مثل شح نفوسهم من الاستعداد للإنفاق!.. ثم يأتي البيان القرآني ليقدم النموذج والمثال على كل الذين اكتسبوا أو ورثوا البخل حتى صار جزءاً من نفوسهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.. فلم يقل: «وخلق الإنسان قتوراً» بل قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾، أي إنه يكتسب البخل اكتساباً، فإذا تملَّك البخل نفسَهُ، صار المالُ عنده يعادل الروح..

هذا في نطاق تلك المعجزات التي كان المشركون يطلبونها من النبيّ ﷺ..

ولكنْ، نظراً لما للشحّ من تأثير على النفس، فقد جاءت معالجة القرآن الكريم لهذه الصفة الذميمة في كثير من الآيات الكريمة، حتى ليكاد يتبين لنا أن كتاب الله يدفعنا لأن يخوضَ معركةً حاميةً مع أصحاب الجشع والطمع والأهواء، والغايات المتفرقة.. هؤلاء الذين يحرصون على امتلاك المال، ولو كان فيه استلابٌ لحقوق الآخرين، كما هو ظاهر لمن يتتبع نصوص القرآن الكريم في تحذيره من الربا، ومن أكل أموال الناس بالباطل، ومن أكل أموال اليتامى، ومن الحَجْر على البنات اليتيمات، واحتجازهن للزواج الجائر رغبةً في أموالهنّ، ومن نَهْرِ السائل، وقَهْرِ اليتيم، وحرمانِ المسكين... إلى آخر ما يسوقه القرآن المجيد من حملات عنيفة على أصحاب النفوس الجشعة، الحريصة على الأثرة وحب الذات.. وما في هذه الحملات من توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية من تلك الأمراض.. لأن حبَّ المال وما يصاحبه من البخل، والجشع، والطمع.. كلها من الآفات التي تساور النفس البشرية، وتدفعها للشره، وإشباع الشهوات، أياً كانت جنسية الإنسان، وفي أي مكان وجد..

ومن التوجيهات والمعالجات القرآنية في هذا المجال قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾[1].

وهذا من جميل البيان القرآني الذي وحدَهُ يغوص في أعماق الإنسان ليكشف خبايا نفسه، وليس ذلك إلاَّ للقرآن، عندما يبيّن لنا، في هذه الآيات الكريمة، بأدق التعابير وأجلاها وضوحاً، انفعالاً من الانفعالات التي تستحكم في نفس الإنسان، ألا وهو الهلع الذي يصيبه في حالتي الشرّ أو الخير.. فهو ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، والجزع معناه الحزن الذي يصرف الإنسان عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه؛ تماماً كما هي حالة الإنسان الذي إذا ما حلَّ به الشرُّ، يحزن، ولشدة حزنه يسيطر عليه الجزع والتخبّط حتى ليكاد يشلُّ تفكيره وحركته، فكأنه يقطع على نفسه سبل التصوّر لأي مخرج أو فرج من ضيقه وشدته؛ وهذا شأن الكافر الذي لا يُوكل أمره إلى الله تعالى، ولا يرجو منه تغييراً لحاله!..

وكذلك الأمر: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ فإذا أصابَهُ الخيرُ، حَسِبَ أنه من كدّه وكسبه وحذلقته، فيبخل ويصبح أسيراً لما ملك، وعبداً للشحّ والحرص، لأنه لا يدرك حقيقة مصدر الرزق، وأنه من فضل الله تعالى.. فالجزوع من الشر، المنوع للخير، هو صورة للإنسان البائس الذي خلا قلبه من الإيمان؛ وحين يصبح القلب خاوياً من نعمة الإيمان، التي هي من أجلّ وأعظم المقومات لصلاح

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩ ـ ٢١.

الأنفس، فإن صاحبه يبيت في قلق مقيم، وخوف دائم، سواء أصابه الشر فجزع، أو أصابه الخير فمنع.

أما حين يغمر الإيمانُ القلبَ فإنه يجعل الإنسان في طمأنينة وعافية، لأنه يجعل الأمر كلّه لربه تعالى، فهو على يقين بأنّ هذا الربّ الكريم هو مصدر الأحداث، ومدبّر الأحوال. ولذلك يكون المؤمن دائماً مطمئناً إلى قدره، شاعراً برحمة ربه، مقدّراً لابتلائه، متطلعاً إلى فرجه من الضيق، ويسره بعد العسر، فإن أنفق فهو يعلم أنه منفق مما رزقه الله، وأنه مجزي على ما أنفق في سبيل الله وعباده.. وسوف يُعوَّض عن إنفاقه بخيرٍ في الدنيا، وثوابٍ في الآخرة..

الإنسان الكنود

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1].

وهذا ما يريد القرآن الكريم أن ينبّه إليه، ويحذّر من مغبّته، أي إلى هذه الحقيقة التي تظهر في جحود الإنسان لربه، حتى يعيده إلى جادة الصواب، فيجنّد إرادته، وكل طاقته لمكافحة هذا المرض في قلبه.. ويتمثل كنود الإنسان (جحوده) في مظاهر شتى من الأقوال والأفعال التي تقوم عليه مقام الشاهد يوم القيامة، حيث يُؤتى بكتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ وأحصاها عليه.. فأما أقواله فيشهد عليها لسانُهُ.. فإن هو كذب وأنكر ربط على لسانه فلا ينطق إلّا بالصدق والحق.. ثم يأتي دور الأيدي والأرجل التي تشهد عليه، كما

(١) سورة العاديات، الآيات: ٦ ـ ٨.

يهدينا إليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١].. وهذا في منتهى الوضوح من حيث إنّ كلّ عضو لدى الإنسان يشهد، يومَ الحساب، عمّا صدر عنه، بحيث يكون الإنسان شاهداً على نفسه بنفسه، مما يفرض عليه أن يذعن للحق، ويقرّ بما كان عليه من الجحود والكنود ساعة لا يمكنه إلّا أن ينطق بالحق، بلا جدال ولا محال..

«وإنه لحب الخير لشديد»، أي الخير كما يراه هو: مالاً، وسلطةً، ومتعةً، وشهوةً.. يريد أن يستأثر بها جميعاً لوحده، فتراه ينظر، على سبيل المثال، إلى من هو أكثر مالاً أو أعلى رتبةً نظرة حسدٍ وطمعٍ، لا يعرف كيف يضارُّهُ حتى ينزع ما عنده ليستأثر به. وهذا من أسوأ الأمراض النفسية التي تجعل الإنسان الكنود متبرّماً، قلقاً حتى ليحيل ما به من «الخير» إلى نقمةٍ ونكدٍ على حياته، بل وعلى حياة الآخرين من حوله.. روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَتدرُونَ مَنِ الكنودُ؟ هُوَ الذي يأكُلُ وحدَهُ، ويمنَعُ رِفدَهُ، ويَضرِبُ عَبدَه**»[٢].

الإنسان الظلوم الكفار

يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣].

قد يسأل الإنسانُ الله تعالى أن يهبه الصحة والعافية في جسده

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٥.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب عن أبي أمامه.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤

ونفسه فيمنّ بهما عليه، ويسأله زوالَ خطرٍ أو ضيق فيستجيب له، ويسأله الغنى فيرزقه الثروة، ويسأله الولد والعزَّ فيعطاهما.. ويسأله.. ويسأله.. فيُعطى مما يشاء الله تعالى أنْ يعطي لسائله وبمقدار ما يشاء، لأنه هو سبحانه الذي يهب الخير ويبسط الرزق لمن يشاء.. وهذا معنى ورود حرف الجر «مِن» في الآية الكريمة، إذ قد دخل هنا للتبعيض، لأنه لو قال: وآتاكم (كلَّ ما سألتموه) لاقتضى أنْ يعطيَ الله تعالى للعبد جميعَ ما يسأله، والأمر بخلاف ذلك، لأن ما فيه مفسدة محال أن يستجيب الله عزَّ وجلَّ لسائله، فيكون تقديره: وآتاكم من كل ما سألتموه شيئاً محدداً، شاءَ سبحانه أن يعطيه، من أنعمِهِ وفضائِلِه وحسنِ صنائِعِه التي لا تعد ولا تحصى، لأنها أكبر وأكثر من أن يحصيها الناس، بل هم لا يقدرون على إحصائها، لأن نعم الله تعالى مطلقة، فلا يحيط بها إدراك الإنسان.. ومع ذلك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فهو كثير الظلم لنفسه، وكثير الكفران لنعم ربه. كما أنه ظلوم لنفسه في الشدة، لكثرة ما يشكو ويجزع، مثلما هو كفّار في النعمة لكثرة ما يجمع ويمنع.

ولم يتناول نص الآية الكريمة الإنسان على العموم، بل «الإنسان الظلوم الكفَّار»، على وجه الخصوص، لشدة ظلمه، وكثرة كفرانه، وهذه رحمة زائدة من ربنا تعالى، لأنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم بمنأى ـ إن شاء الله ـ عن كل ظلم وكفر..

الإنسان مخلوق من عجل

وكما في فطرة الإنسان الهلع والجزع، كذلك في طبعه العجلة، فالإنسان مخلوق من عجل حتى أنه كثيراً ما يستعجل أموراً، وأحداثاً

قد لا تأتي لصالحه، ومع ذلك يُلحُّ في العجلة وهذا ما يبيّنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾(١).

والعرب كانوا يستعملون هذا اللفظ عند المبالغة، يقولون لمن يصفونَهُ بكثرة النوم: ما خُلِقَ إلّا نُوَمَة، وبكثرة وقوع الشرّ منه يقولون: ما خلق إلّا من شرّ..

فالعجلة إذاً في طبع الإنسان وتكوينه. وهو يمد ببصره دائماً إلى ما وراء ساعتِهِ، يريد أن يتناوله بيده، وكأنه يرغب أنْ يحقق كل ما يرنو إليه لمجرد أنْ يخطر بباله، ويريد أنْ يستحضر كلَّ ما يُوعَدُ به، ولو كانَ في ذلك ضرره وإيذاؤه... هذا في حين أنَّ المؤمن لا تأخذه العجلةُ دائماً، بل يتروّى، ويكدح، ويصبر، وهو متوكلٌ على الله تعالى في جميع أموره، فلا يتعجَّل قضاءه، مثلما لا يستبطئ قدره.. ولعلَّ المثالَ الذي يبرزه القرآن الكريم عن جهل الإنسان، واستعجاله ما يرغب ويتمنى، موقف الكفرة المشركين من النبي ﷺ، إذ كانوا يتحدّونه، عندما يتوعدهم بعذاب الله تعالى، فيقولون: ائتنا بعذاب الله إنْ كنت من الصادقين!.. ومثل هذه الرعونة، وهذا الاستهزاء يبين عواقبه الوخيمة القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢)

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٣ ـ ٥٥.

بل وتؤكّد لهم النصوص القرآنية أنَّ إنكارهم البعث، والاستهزاء بوعيد الله تعالى على لسان النبي ﷺ آتٍ لا محالة، وسوف يأتيهم بغتةً، فيحيّرهم فلا يستطيعون ردَّه، ولا يمهلون لمعذرة أو توبَةٍ، يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(١).

كل إنسان يعمل على شاكلته

تلك نماذج عن الناس في أفكارهم وتصوراتهم، في أخلاقهم وتعاملهم مع الآخرين، ومن بين المقاصد التي تدلُّ عليها مصاديق القرآن الكريم، أنّه يتوخّى دائماً تنبيه الإنسان إلى ظلمه وكفره، على شحّه وجحده، على يأسه وعجلته، حتى يجاهد هذا الإنسان نفسه، لعله يتخلّص من الأثقال التي ترهقها وتضنيها في هذه الحياة الدنيا، وقبل أنْ يصل إلى الآخرة، حيث يجدُ كلَّ ما عمل حاضراً! . ولذلك يجملُ القرآنُ الكريم مزايا الناس التي تظهر بأعمالهم، فيقول ربُّنا جلَّ وعلا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾(٢). وتأتي هذه الآية الكريمة لتقرر قاعدة عامة وثابتة مأخوذة من حقيقة الواقع في حياة الناس، إذ كما نسمع ونرى فإنَّ كلَّ إنسان إنما يعمل في هذه الحياة الدنيا على شاكلته، بما تزين له نفسه وأهواؤه، وبما يتخلّق من خلق، ويسلك من سلوك، وذلك في مطابقةٍ لواقع الأشياء

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

التي يدلُّ عليها المثل القائل: «كل إناء بما فيه ينضح». . فما في دخيلة الإنسان يتبدّى، مبدئياً، على قسمات وجهه، لأنَّ الوجهَ مرآةٌ للنفس، يعكس رضا الإنسان وسخطه، فرحه وحزنه، ارتياحه واطمئنانه، ألمه وقلقه. . أي كل ما ينوي في نفسه وما تنطوي عليه سريرته. . ولكنَّ الله تعالى: ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾. . . وفي هذا التقرير منه ـ جلَّ وعلا ـ تهديد خفي بعاقبة العمل والنية والاتجاه، ليأخذ كلّ إنسان حذره، ويحاول أنْ يسلك سبيل الهدى، ويجد طريقه إلى الله تعالى خالقه ومدبره، فهو سبحانه أعلم بمن هو أكثر استعداداً للهدى، وأقوم سلوكاً في الحياة، وما على الإنسان إلّا أن يسلك سبيل ربه حتى ينال طمأنينة في الدنيا، وسعادة في الآخرة. .

الناس والفساد

إن انصراف الناس إلى المادة، والاندفاع وراء متاع الحياة الدنيا دونما خوف من الله تعالى، ودونما وازع من ضمير أو وجدان، كل ذلك من شأنه أنْ يؤدي إلى ظهور الفساد في دنيا الأرض، برّها وبحرها. . ويحذّر القرآن الكريم الناس من ترك الفساد يستشري بسبب أفعالهم وتصرفاتهم، ومن ثم الاستدامة على الفسق والفجور، ويعظهم ويرشدهم، علَّ نفوسهم ترعوي فيقوى فيها المقت لهذا الفساد، ويدفعهم لمحاربته حتى تتطهر الأرض من الخبائث التي ملأت ديارها وعمرانها، وأفسدت هواءها وماءها. يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]. من الواضح أنَّ كلَّ ما يحيط بالناس من

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

أحوال، وأوضاع وأحداث، إنما يكون نتيجةً لأعمالهم، فعندما تنحرف أعمال الناس عن مسارها الطبيعي، وتتجاوز الحدود المرسومة لها، فإنها تنقلب إلى فسادٍ: فساد في الأفكار والتصورات، وفساد في المفاهيم والعقائد، وفساد في الأعمال والتصرفات، وهذا ما يوقع الظلم والجور في دنيا الأرض، ويجعل الجائرين والظالمين والمفسدين يسيطرون على مقدرات الناس وأرزاقهم، ويتحكمون بتقرير مصائرهم، حتى تكون لهم الغلبة.. على ما نرى في واقع الحياة..

والفساد عندما يصبح ظاهرةً متفشيةً مع ما يرافقه من الظلم والقهر والاستكبار، لا بدَّ من عقابٍ يقع عليه كله، أو على بعضه الذي يكون أشد إيذاءً وضرراً للناس. ويأتي هذا العقابُ من الله تعالى علَّ الناس يتوبون إلى رشدهم فيتوب العاصي، ويقلع الظالم عن ظلمه، ويرتدع الفاسد عن فساده، والضالُّ عن ضلاله..

وإنَّ في العقاب موعظةً للناس، لعلهم يرجعون إلى أصالة نفوسهم فيعبدوا الله تعالى، ويطيعوه، ويستبدلوا السيئات بالعمل الصالح ويسيروا على النهج القويم في الحياة، أولئك الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المقام: «إن الله تعالى يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوبَ تائبٌ، ويقلعَ مقلعٌ، ويتذكَّرَ مذَّكرٌ، ويزدَجِرَ مزدَجِرٌ. وقد جعلَ الله تعالى الاستغفار سبباً لورود الرزق، ورحمةِ الخلقِ، فقال سبحانه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[1]. فرحم الله امرأً استَقْبَلَ توبتَهُ، واستَقالَ خطيئَتَهُ، وبادَرَ منيّته».

فالاستغفار يجلب الرزق، ويشيع الرحمة الربانية على العباد. قد يخطئ هؤلاء العباد كثيراً، ويعصون ربهم طويلاً، ولكنه ـ سبحانه ـ وهو الغفور الرحيم، يلطف بهم. ولو شاء أن يحاسب الناس على ما يرتكبون من الإثم والمعصية، لزلزل بهم الأرض في كل حين يعمُّ فيه الفساد، ولذلك يحذرنا تعالى بقوله الجليل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[2]، لأنَّ ما يرتكبه الناس من المفاسد، التي هي مجلبة للمعاصي والشرور جميعاً، إنما يؤدي إلى الشرك بالله الواحد الأحد، والكفر بالنعم التي يهبها للناس، ويتفضل بها على العباد، فوق ما يشيع الشرك والكفر في الأرض من ظلم وطغيان وضلال وإضلال.. وهذا كله فظيع وشنيع. ولو آخذ الله تعالى الناس بما عملوا لأهلكهم كلهم، ولتجاوزهم هذا الهلاك إلى كل حيٍّ يدبُّ على ظهر الأرض، ولأصبحت الحياة معدومة فيها تماماً، حتى يشاء الله تعالى أن يبدِّل أمثال الناس تبديلاً، وينشئ خلقاً جديداً.

وقد يكون الفساد في البرِّ معروفاً.. وللتذكير فقط، فإنَّ من مظاهر هذا الفساد الحروب، واحتلال بلاد الآخرين، والمنكرات على اختلافها من تجارة المخدرات، وتعاطي المسكرات، وجعل المرأة سلعةً إعلانية، أو عارضة عري في النوادي الليلية، فضلاً عن الزنا،

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

والمقامرة، والربا، وانتهاك البيئة البريّة بكل ما فيها من ماءٍ وشجرٍ وحجرٍ!..

أما الفسادُ في البحر، فإنَّ من أسوأ مظاهره هذه البارجات العسكرية العملاقة، وهذه الغواصات التي تحمل الرؤوس النووية، وهي تجوب البحار عرضاً وطولاً؛ وكذلك النفايات الفاسدة ولاسيما التي تحمل الإشعاعات القاتلة التي تأتي من الصناعات الثقيلة.. أما أكثرها فساداً فهي التجارب النووية التي تجريها الدول «المتقدمة» في أعماق البحار، فكم تقتل من الأحياء المائية، وكم تقضي على أجناس من تلك الأحياء!..

والقرآن الكريم عندما نزل لم يكن شيء من ذلك بعدُ قد ظهر، ولكنَّه قول الله الكريم، الذي يعلم، ومنذ خلق الإنسان، ما سوف يفعل هذا الإنسان، كما يشير إليه قول الملائكة، في ما ألهمهم ربُّهم، عندما قال لهم سبحانه وتعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، إذ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وها هي أفعال الناس وأحوالهم، وبما تظهر عليه من الفساد في البرّ والبحر، تشهد على مصاديق القرآن الكريم، وتحذير ربّ العالمين من هذا الفساد، الذي يزداد، ويستفحل يوماً بعد يوم إلى أن يؤدي في النهاية إلى القضاء على حياتهم، وحياة سائر الكائنات من حولهم، وذلك من أجل أن تتطهر الأرض من دنس البشر!.. أي تماماً كما حصل في عهد نوح عليه السلام عندما غطى الطوفان الأرض، وأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر، بل

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

وقضى على كل الكائنات الحية الأخرى، إلّا ما حمله نوح معه في الفُلك، ليكون فيه ما شاء الله من حفظ للنوع والجنس. وبذلك تطهرت الأرض من فساد الكفار والمشركين، وعادت إليها طهارتها، فدبت فيها الحياة من جديد، وكثرت الأنواع والأجناس الحية. وما زالت الأرض تنعم بالطهارة في قليل من بقاعها، بينما هي تميد وتترنح تحت أعباء الفساد وأثقاله في معظم أنحائها. ودائماً تغلب رحمة الله تعالى فلا يؤاخذنا على ما كسبت أيدينا، لأن بشاعة ما نتعاطى به نحن البشر في ما بيننا، وما يرتدُّ علينا من آثاره السيئة، إنما يرتدُّ أيضاً على الحيوان الأعجم، والزرع الأبكم، والحجر المدر، وكأنَّ كل ما حولنا يقول لنا: إن مظالمنا وشرورنا نحن بني البشر، فيها أيضاً ظلم وإرهاق للكائنات الأخرى، وهذا ما لا يرضاه الله تعالى، لأنه لو شاء سبحانه أن يحاسبنا في هذه الدنيا لاستحققنا العذاب المباشر، وذلك بالقضاء علينا، وعلى تلك الكائنات الأخرى لتخليصها من ظلمنا.. نعم إن ما يتعاطاه الناس في ما بينهم، وفي انقطاعهم عن ربِّهم، له آثاره المدمّرة على الحياة بأسرها فيما لو يؤاخذ الله تعالى به الناس مؤاخذة سريعة. ولكن الله الغفور الحليم لا يعجّل على الناس ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[1]، بحيث يؤخر كلَّ نفس لأجلها المكتوب لها في هذه الحياة، ويؤخِّر كلَّ أمة أيضاً لأجلها، لأنَّ لكل أمةٍ أجلاً، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. إذ يكون لكل أمة حقبةٌ زمنيةٌ مقدَّرةٌ في حسبان رب العالمين، تأتي بعدها الأجيالُ لتحل محلَّ الأجيال التي انقضت، فتنشأ

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

دول بأنماطٍ للعيش، ومناهج غير التي سبقت! . . والتاريخ البشري شاهدٌ على ما ذهب وهلك من القبائل والجماعات والدول، بتتابع العصور والأجيال، وتداول الأيام بين الناس. . ثم هنالك تأخير للناس جميعاً إلى الأجل المحدد لانقضاء هذا العالم، ومجيء الساعة. . وإلى أن تحين الساعة تبقى الرحمة الربانية قائمة، والفرصة أمام الناس متاحة، لعلهم يرعوون، وعن غيِّهم يرجعون، وبما يأمرهم به الدين الحنيف يعملون.

وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوّر هذا المفهوم القرآني. إذ إن الناس ليسوا كلهم ظالمين، عادةً، إذ فيهم الأنبياء والمرسلون، وأولياء الله المخلصون، والمؤمنون الذين يعملون الصالحات. . فكيف يجوز أن يقع العذاب على كل هؤلاء، وهل يطالهم هذا العذاب أيضاً؟

والحقيقة أنه لولا وجود هذه الفئات من البشر، لكان من المحتوم أن تأتي مؤاخذة الله تعالى للناس، التي تحمل فناء الحياة على ظهر هذه الأرض. هذا من ناحية. . ومن ناحية أخرى فإن القرآن الكريم يتحدث عن عقاب دنيوي. . يتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه أمة عن طريق الظلم والطغيان. وهذه النتيجة لا تصيب الظالمين من أبناء الأمة وحدهم، بل تعم جميع أبنائها على اختلاف أجناسهم، وأفكارهم، وأهوائهم، ومشاعرهم، وسلوكهم؛ فلمَّا وقع التيهُ على بني إسرائيل لعبادتهم العجل، لم يقع في هذا التيه أولئك الظالمون الذين عبدوا العجل وحدهم من بني إسرائيل، بل شمل أيضاً موسى وأخاه هارون عليهما السلام وهما، كما هو معروف، رسولان من الله، والرسل معصومون من الخطأ، ومع ذلك وقع عليهم التيه في صحراء سيناء، كما وقع على الآخرين من بني إسرائيل الذين لم يعبدوا

العجل، لأنَّ قضاء الله ـ جلت حكمته ـ أن يشمل التيهُ جميع بني إسرائيل. . فكان حكمه تعالى عاماً، وظلوا في التيه لمدة أربعين عاماً، ولم يسلم منه أحدٌ ظلَّ حياً من بني إسرائيل طوال تلك المدة. .

وحين حلَّ البلاء بالمسلمين في غزوة «أحد»، طالَ هذا البلاءُ جميع المسلمين، إن بالقتل أو الجرح، أو الخوف أو الهرب، أو الهزيمة. . وقد أنزل الحكيم العليم قرآناً مبيناً، يتحدث عن ذلك البلاء، وعن الدروس والعظات والعبر التي تستفاد منه من أجل تربية المسلمين تربية إيمانية صادقة وثابتة، لما قد يترتب عليها من آثار، في ما بعد، تجاه أنفسهم، وتجاه البشر جميعاً. .

والسبب الذي جعل المسلمين يُهزمون في معركة «أحد» معروف في التاريخ الإسلامي، وهو مخالفة الرماة في الجيش لأمر رسول الله ﷺ، وتركهم مواقعهم على «جبل عينين» الذي يشرف على أرض المعركة، اندفاعاً وراء المغانم، ووراء الكسب الشخصي، فكان أن ارتدّت من خلفهم خيول المشركين وأوقعت بهم الهزيمة بعد النصر. . ووقع ما وقع. . وكانت العظة بأنْ عمَّ البلاءُ الجميع، حتى المؤمنون الذين صمدوا في المعركة وذبّوا عن رسول الله ﷺ قد أصابهم القرح، بل والعبرة تصبح أبلغ عندما نعلم بأنَّ رسول الله ﷺ ذاته لم يسلم من ذلك البلاء، فقد رماه أحد المشركين، وهو ابن قميئة الليثي، بالحجارة حتى أصيبت رباعيته، وشجَّ في وجهه الكريم، وكلمت شفتاه الطاهرتان، ودخلت حلقتان من المغفر الذي كان يستر به وجهه الرضي، في وجنتيه الشريفتين. . بل واندفع ذلك اللعين المشرك يريد أن يقتل النبي ﷺ لولا أن ذبَّ عنه الصحابي مصعب بن عمير رضي الله عنه وأرضاه.

هذا بعض مما يوحي به التوجيه القرآني، ومفاده أن الفساد عندما يظهر، على الناس تداركه حتى لا يحلَّ غضب الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ رحمته سبحانه تبقى أوسع وأجلّ مما يتصور الناس، وإلّا لو شاء أن يحاسبهم على نقائص نفوسهم وفساد أعمالهم لما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، وكلُّ شيء، يومئذٍ، عند الله تعالى بمقدار. .

ومما يتميز به توجيه كتاب الله المجيد أنه يضع على عاتق الإنسان موجبات دينية ودنيوية وأجلُّها شأناً طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله الكريم، من خلال حمل عقيدة التوحيد أمانةً قدسيةً في القلوب والأعناق. . .

الطاعة وحمل الأمانة

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(١). هذا «الإنسان»، مدعوٌّ إلى طاعة الله تعالى ورسوله الكريم. وهي طاعة مرتبطة أصلاً بنشأته ووجوده، ولذا وجب أن تستقيم هذه الطاعة حتى يحقق الإنسان غاية وجوده. . إنها واجب ديني وأخلاقي وإنساني في آنٍ. . وهي بذاتها فوز عظيم للإنسان، لأنها استقامة على نهج الله تعالى. والاستقامة على نهج الله تعالى مريحة مطمئنة. والاهتداء إلى الطريق المستقيم هو سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه. وليس الذي يسير في الطريق الممهد المنير، وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويصادقه،

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧١ و٧٢.

كالذي يسير في الطريق الوعر المظلم، وكل ما حوله من خلق الله تعالى يعاديه، ويؤذيه ويصادمه. فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها، وهو فوزٌ قبل يوم الحساب، لا يجزيه إلاّ الفوز العظيم بجنات النعيم. إذ إن نعيم الآخرة هو فضل زائد على جزاء الطاعة، وهو رحمة من فيوضات رحمة الله الواسعة، التي يؤخّرها لعباده يوم الدِّين. وهذا الفضل ركنه الركين قبول الإنسان حمل الأمانة، ونعني بها اعتناق دين الله الحق، والقيام بوظائف هذا الدين، في أصوله وفروعه، ولذلك جعله الله عزَّ وجلَّ أمانةً أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال، بينما هذا الإنسان، مع كل ما تراءى له من ثقل التبعة التي يضعها على عاتقه، تعهد حمل هذه الأمانة على الرغم من كل ما يتنازعه من عوامل الضعف، وقصور العلم، وقصر العمر، وحواجز الزمان والمكان، وعدم رؤية ما وراء الحواجز والآماد.

ولكن كيف كان أداؤه في حمل الأمانة التي اعتذرت السماوات والأرض والجبال عن حملها؟!

هذه السماوات التي يجهل الإنسان آفاقها، وهذه الأرض التي لمَّا يعلم عنها إلّا قليلاً، وهذه الجبال الرواسي التي تنتصب أمامَهُ في كل القارات وفي أعماق البحار والمحيطات.. هذه السماوات والأرض والجبال ـ وأين منها الإنسان بصغره وحجمه ـ على الرغم من أنها تدين بوجودها لخالقها، وعلى الرغم من أنها تسبّح الله تعالى وتقدسه طائعة غير مكرهة، فكل تلك الكائنات، مع عظيم خلقها، عندما عرضت عليها أمانة التبعة خافت من حملها خوفاً شديداً مانعاً، لأنها أمانة الإرادة، وأمانة المعرفة الذاتية، وأمانة المحاولة الخاصة، وهي لا تملك هذه القيم العظيمة التي يحتويها تكوين الإنسان..

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، الذي يعرف الله بارئه، بإدراكه وشعوره، والذي يهتدي إلى حقيقة وجوده ـ سبحانه ـ بتفكّره وتأمّله، والذي يطيع الله ربَّهُ بإرادته، وحمله لنفسه، ومقاومة انحرافاته ونزعاته، ومجاهدة ميوله وشهواته. . وهو مدرك، مريد، فعال لكل خطوة من خطواته. . يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي هذا الطريق. . هذا الإنسان، الذي حمل الأمانة، واختار الطريقَ محفوفاً بالأعباء والأثقال الجسام ورمى بنفسه في لجج المصاعب. . . ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، كان ظلوماً لنفسه بتعرضه لارتكاب المعاصي التي تبعده عن مستوى عبء المسؤولية التي اختار حملها، وظلوماً لنفسه بعدم إعطاء الأمانة ما تستحق من العناية والاهتمام:

إذا أنتَ لم تَبْرَحْ تُؤدّي أمانَةً وتَحْمِلُ أُخْرى أثْقَلَتْكَ الودائعُ

وهو يعني أنك إذا كنت لا تزال تقبل أمانة وتؤدي أخرى، فقد شغلتك نفسك بقبول الودائع وأدائها، فأثقلتك. .

وفي اللغة العربية تأتي لفظة «عرضنا» بمعنى عارَضْنا وقابلنا، فيكون المعنى في الآية الكريمة: إن هذه الأمانة في جلالة موقعها، وعظيم شأنها لو قيست بالسماوات والأرض والجبال وعورضت، أي وقوبلت بها، لكانت هذه الأمانة أرجح وأثقل وزناً. وأما قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ فمعناه: ضعفن عن حملها كذلك، وأشفقن منها، لأن الشفقة ضعف القلب، ولذلك صارت كناية عن الخوف الذي يضعفُ عندَه القلب. هذه الأمانة التي هي أثقل من السماوات والأرض والجبال، تقبَّلها الإنسان مع ضعف إمكاناته، وهزال جسمه، ولكنه ما قدر على حفظها، بل حملها وضيَّعها لظلمه لنفسه، ولجهله بأثقالها، وبمبلغ الثواب والعقاب المترتبين عليها. .

وفي تفسير آخر: أنه لو كانت السماوات والأرض والجبال عاقلة ومختارة مثل الإنسان، ثم عرضت عليها الأمانة ـ وهي وظائف الدين أصولاً وفروعاً ـ عرضَ تخيير، لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها، وشدتها وضخامتها، ولامتنعت عن حملها خوفاً من القصور عن أداء حقها. . ثم حملها الإنسان، إلاّ أنَّه ضيَّعَ قيمة خياره في هذا الحمل الثقيل، عندما لم يخف ـ ظلماً وجهلاً ـ الوعيد المترتب على قصوره، وعدم أداء الأمانة حقها القدسي. . .

أما الأنبياء والرسل، وأولياء الله، وعباده المؤمنون الذين يعملون الصالحات، فهم لا يدخلون تحت مفهوم «الإنسان» الذي كان يحمله الأمانة ظلوماً لنفسه، جهولاً بأنَّ النفس البشرية قد يصعب عليها حمل هذه الأمانة والمحافظة عليها. . فالأنبياء والرسل، هم الثلة التي اختارها ربُّ العالمين لإبلاغ هذه الأمانة للناس الذين نسوْها، ولذلك نجد القرآن الكريم لا يحدثنا عن سِيَرهم، وتاريخ حياتهم إلّا بأشياء تدلُّ على مضامين نفوسهم التي تؤهلم لحمل الأمانة، ولذلك يركز كتاب الله دائماً على مواقفهم من المبدأ الذي يحملونه، ومواقف المؤمنين الذين يعتنقون هذا المبدأ الذي يحمله إليهم في مقابل المعارضين له، جهلاً واستكباراً فكان من الحق ألّا يُدخل أولئك الأنبياء والرسل، ومن اتبعهم في فئات الناس التي بعدت عن الأمانة ولم تراع حقوقها وموجباتها. .

اللهم اجعلنا من الذين يحملون الأمانة ويستطيعون المحافظة عليها. .

الخاتمة

وحدانية الله تعالى
ووجوب الحمد والشكر له
على ما وهب وأنعم وتفضل وتكرم

الشكر والحمد

أحببنا أن نختتم هذا السفر النفيس بالحمد والشكر، لأنّ الحمد هو الثناء. والحمد لله رب العالمين كونه خلق العوالم وأنشأها ورعاها. والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة.. فالله هو الذي وهب وأنعم وأعطى وتفضل.. فإذا أعطاك رجلٌ كريمٌ شيئاً كنت بحاجة إليه، أو سألته حاجةً فلبَّاك فشكرته، تحسُّ في قرارة نفسك ارتياحاً، ويشعر هو أيضاً بأنك قد أعطيته حقه. فكيف بالمنعم المفْضِل إذا شكرته.. وهو الذي يستحق الشكر لأنه هو المُنْعِم الأول.

ولكنْ عجباً.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[سورة يونس، الآية: ٦٠].

لقد بات واضحاً، لمن اطَّلع على المواضيع التي تطرق إليها هذا الكتاب، أنَّ مقاربة معرفة النفس الإنسانية إنما سبيلها القويم القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وذلك لسببين جوهريين:

الأول: أنَّ الله تعالى هو خالق الإنسان، وهو أعلم منه بنفسه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

والثاني: أنه سبحانه هو الذي أنزل القرآن، وجعله شفاءً لما في نفوس الناس وذلك بما كشف لنا في كثير من آياته المباركة عن كوامن النفس البشرية، وما يعتمل فيها من المشاعر، والدوافع، والنوازع، والميول، والانفعالات، والرغبات والأهواء.. وبما بيّن لنا من العلاجات للأمراض والعاهات التي قد تعتري النفس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ

(١) سورة الملك، الآيتان: ١٣ و١٤.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[2].. ولو حاولنا استجلاء بعض معاني هذه النصوص المباركة لتبيّن لنا أن شفاء النفس يكون بالإِيمان بحقيقة وجود الله تعالى.. فإن كان الإنسان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات (وهي الترجمة العملية والفعلية لأوامر الله ونواهيه)، كان له القرآن خير زاد، وكان ربُّهُ تعالى الناصر والمعين على كل ما يخالج نفسه من سوء، وما قد يواجه في حياته من عثرات.. حتى وإنْ صدرت عن المؤمن هناتٌ أو غلب عليه الهوى في حالات الضعف، فإنَّ إيمانه يكون الرادع الذي يرده إلى جادة الصواب، ويجعله يسير على الطريق المستقيم، لأنه لا يجد ملجأً يلوذ إليه إلاَّ في كنف ربه ومولاه، ولأنه مطمئن إلى أنه وحده سبحانه القادر على أن ينجيه مما وقع فيه ساعة الغفلة، انطلاقاً من يقينه بأنَّ الله تعالى كتب على نفسه الرحمة بعباده، فلا يردُّ من سأله خيراً، ولا يضيّع من عبدَهُ طوعاً...

أما إنْ كان الإنسان غير مؤمن، فإنه يفقد أهم وازع وجداني كان يمكن أن يجعله يميّز بين الخير والشر، وبين الصواب والخطأ، وبين الحق والباطل، وبين الحقيقة والوهم وبين الهدى والضلال..

بل قد يقول إنسانٌ إنه مؤمن بالله، ولكنه، في الحقيقة، يعتنق مفاهيم وأفكار عقيدة دينية محرّفة، أو عقيدة دنيوية هي باطلة في أساسها، وهو يظن أنَّ هذه العقيدة أو تلك هي الصحيحة، وهنا تكمن المشكلة الرئيسة في حياة هذا الإنسان الذي يحدد خياراته ومواقفه وفقاً

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

لما أُشرِبَ في قلبه من فساد العقيدة التي يعتنقها، بحيث يصبح أشد خطراً على كل شيء في الحياة!.. والمثال الصارخ على هذا «الإنسان» هؤلاء الذين يعيثون في الأرض فساداً، ويقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾!..وتصبح المشكلة أشدَّ عتوّاً عندما يكون مثل هذا «الإنسان» من القادة الذين حالفهم الحظ، فوُضِعُوا في المناصب التي يتم فيها اتخاذ القرارات.. لا بل تصبح الأمور اكثر تعقيداً، وأشدَّ خطراً، عندما يمتلك هؤلاء القادة، ومن وراءهم من الأشخاص والمؤسسات، القوة التي يمتشقونها سلاحاً للتحكم بمصائر الناس ـ داخل بلادهم وخارجها ـ بحيث يزيفون الحقائق، ويلبسونها الثوب الذي يريدون، وذلك لفرض معتقداتهم، من خلال إظهار استكبارهم وجبروتهم، ولو كان في ذلك ظلم للآخرين، واستلابٍ لحقوقهم علناً وجهاراً!.. ولذلك لم يعد مستغرباً أن تطغى مثل هذه المشاكل الكبرى على حياة الناس، وأن يعيش العالم في خضم الصراعات الظاهرة والخفية، بفعل أولئك المتفرغين من أصحاب العقائد المضلّلة، الذين يجعلون مصالحهم الشخصية، فوق كل الاعتبارات، ويعتبرون معتقداتهم أعلى من كل القيم الأخلاقية، والمثل الرفيعة، بل وأسمى من كل المواثيق والاتفاقات والأعراف والقوانين المتعارف عليها دولياً..

وما هو أدهى وأضلّ سبيلاً أنْ يسخّروا أهل الفكر والعلم لمآربهم تلك، ولخدمة الأفكار والمبادئ التي يعتنقونها، وفرض الأنظمة التي يريدونها تحت شعارات برّاقة، غالباً ما تنطوي على المكر، والخداع، والكيد والدسيسة، والتآمر!.. وهذا ما يجعل العلوم والمعارف تحيد عن مضامينها ومراميها الإنسانية، لاستخدامها

في المرامي التي تضرّ بالناس! . . . ولا يظننَّ أحدٌ ـ أو يجهل علينا ـ بأننا لا نحبذ العلوم والمعارف، لأنَّ قرآننا المجيد كان من أسمى تجلياته أن حمل أولَ تنزيل من رب العالمين الذي يدعو إلى العلم والتعلّم، وهو أيضاً ما بيّنه رسولنا الكريم في كثير من أحاديثه الشريفة التي تحضّ على طلب العلم، الذي يرفع من شأن الإنسان، ويعزز كرامته، ويخدم حياته. . وهذا ما نتوخاه من العلوم والمعارف، أي أن تكون في خدمة الإنسان، ومن أجل تأمين أكبر قسط له من الأمان، والرفاهية والسعادة، لا من أجلِ أن تكون وسائل وأسلحةً للظلم، وفرض الهيمنة، والتسلّط، والتحكّم والاستعلاء! . .

أجل، مرحى للعلم الذي يعمل لخدمة الإنسان، وللمعرفة التي تزيد أفق الإنسان اتساعاً لمصلحة الإنسان. .

وكلاّ. . وألفُ «كلاّ» للعلم الذي يرهق الإنسانَ فيمتصّ الميزانيات التي يجب أن ترصد، في الأصل، لمحاربة الفقر، والمرض، والجهل. . وتعساً للعلم الذي يقتل الإنسان! ويفرض الهيمنة على الإنسان! ويهدر حقوق الإنسان! نقول هذا لأنه لم يعد يخفى أنه كلما تقدمت العلوم، استغلّها «الأشرار» لصنع كل ما يدمّر البشر والحجر، وها هم كثير من هؤلاء البشر يستخدمون العلوم الضارّة أنّى يشاؤون، وكيفما يشاؤون، دونما حسابٍ من أحد، لا بل ويستعملونها، في أغلب الأحيان، تحت ستار مظلة المجتمع الدولي، الذي بات متفرجاً، أو خانعاً متخاذلاً عما تقرره الدول الكبرى! . .

ولــكــنْ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

تأملوا في قول الله العزيز الجبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾!..

ودعونا من العصور القديمة أيام الفراعنة وأباطرة الرومان مثلاً.. ولننظر في القرنين الأخيرين: أين هم الذين ادّعوا أنهم «روّاد» القارة الأميركية ثم أنشأوا دولهم على اجتثاث الهنود الحمر من أراضيهم، وماذا يفعل الآن أحفاد أولئك الروّاد في العالم؟!

وأين ذهب أولئك «القادة» الذين استعمروا القارة الأفريقية، وأمعنوا نكالاً في شعوبها، يصطادونهم صيد الحيوانات ويحملونهم مكبلين في الأصفاد ليبيعوهم عبيداً لأهل بلاد الرأسمالية والإمبريالية؟!

وأين صار الذين أشعلوا الحرب العالمية الأولى والثانية، وخاضوا معاركها الوحشية المدمرة؟!

وكيف حفظ التاريخ ذكر الذي أمر بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناكازاكي في اليابان؟!

وأين هم أوائل غلاة الصهيونية الذين اقتلعوا الشعب الفلسطيني ليقيموا الدولة التوراتية المزيفة على أرض فلسطين؟!

وماذا حلَّ بأعظم أباطرة الشرق الأوسط في العصر الحديث

---

(١) سورة الروم، الآية: ٨ و٩.

ونعني به شاه إيران، الذي رفض حماتُهُ الغربيون أن يقيموا له قبراً في بلادهم؟!

وإلام صار حال الجزّار الإسرائيلي آرييل شارون ومن وقف معه من عملائه اللبنانيين فوق الجثث من البشر في مجزرة صبرا وشاتيلا التي ذبحوا فيها الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين المساكين الضعفاء؟!

وأين هم قادة دولة إسرائيل الذين قاموا بالمجازر البشرية في بعض قرى فلسطين مثل دير ياسين، وأم البلح، والذين قصفوا الأطفال في مدرسة بحر البقر في مصر، والذين سفكوا الدماء البريئة في مجازر حولا والصالحية في لبنان؟

بل ماذا يفعل الآن الرئيس الأميركي ـ ومن وراءه ومحافظوه الجدد ـ وتابعه رئيس وزراء بريطانيا، ومستشارة ألمانيا الجديدة وغيرهم!. أجل ماذا يفعلون اليوم في العراق، وفلسطين ولبنان، وكيف ستكون عاقبتهم، وأقلها ماذا سيكتب التاريخ عنهم؟؟!! وهل إلّا اللعنة الأبدية، كما لعن الله تعالى إبليس وطرده من رحمته؟!

هذه بعض من دلالات النصوص القرآنية التي تحذّر «الأشرار» وتدعوهم لكي ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم.. إنهم جميعاً إلى فناء، ولكنَّ وعيد الله العلي العظيم حق، وقد توعدهم في كل الكتب السماوية التي أنزلها، أنَّ مصيرهم النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين..

أجل، إنهم الكافرون والمشركون في كل زمانٍ ومكانٍ.. إنهم أصنافٌ من البشر، ولكنهم في الحقيقة هم «القادة» الذين يمارسون كل أشكال الإجرام والفساد والظلم، ولو كان في قلوبهم ذرة من الإيمان

الصادق بوحدانية الله، واتباع أوامره ونواهيه لما فعلوا ما يفعلون!! . .
ولذلك يدعو القرآن، كتاب الله المجيد (ومن باب العقل والمنطق) الناس، كل الناس ولا سيما الملأ منهم، أصحاب الطَّوْلِ والجبروت، لأن يتفكَّروا في أنفسهم، فيدركوا أنه سبحانه وتعالى ما خلق السماوات والأرض إلاَّ بالحق، وأنَّ الحقَّ، هو الغالب، لا محالة، في نهاية المطاف. . وأنَّ من شأن تفكّرهم هذا، أن يجعلهم يعون حقاً، ويدركون يقيناً أنه لا إلَهَ إلّا الله، واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذل وأنه سبحانه حرّم الظلم على نفسه، فهل يرضى بأن يمارس عبادٌ أذلاء هذا الظلم في دنيا البشرية؟! إلاَّ أن يكون هؤلاء من المشركين، أو الكافرين أو الملحدين، فلا يأبهوا لقدرة الله تعالى ولذلك ينصرفون وكأنهم هم «الأرباب» الذين يملكون مصائر الناس بأيديهم. . ولكي لا يظلّ هذا الشرك الظاهر والخفي هو الذي يتحكم في رقاب العباد، ولكي ينتهي أهل الشرك عن غرورهم وضلالهم، ويؤمنوا بأنه لا إلَه يعبد إلّا الله، ولا ربّ سواه، فقد جاء القرآن الكريم يبيّن هذه الحقيقة في كثير من آياته الكريمة وذلك عن طريق البرهان العقلي ـ ما داموا يمجدّون العقل ـ ومن قبيل ذلك ما أورد ربُّنا تبارك وتعالى في الآية (٩١) من سورة «المؤمنون» في قرآنه المجيد، التي تنفي الشرك بالله، وتؤكد وحدانيته عزَّ وجلَّ، وذلك بقوله العزيز: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

ولكي توضع هذه الآية الدّالة في إطارها القرآني الذي تتكامل فيه النصوص، لا بدَّ من الوقوف على بعض الآيات التي تسبقها في السورة نفسها، والتي تخاطب الناس بمسلّمات لا يمكنهم إنكارها، وتطرح عليهم تلك المسلمات بطريقة الخطاب الجدلي الذي من شأنه إنهاض العقل، وحثّه على التخلّي عن الاضطراب في العقيدة، كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ * بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

أسئلة يطرحها القرآن على ذوي العقول والبصائر ليستدلّوا على أنَّ كلَّ ما في الوجود إنما هو من صنع الله تبارك وتعالى، وأنه هو المالك المتصرف بكل ما في هذا الوجود، لأنه رب السماوات السبع، ورب الأرضين السبع، ورب العرش العظيم؛ فإن لم يقرُّوا ويوقنوا بأنَّ الله ـ جلّت عظمته ـ هو خالق الكون والحياة والإنسان، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبّر، فإنَّ القرآن يواجههم بآية واحدة محكمة تقدم لهم دليلين عقليين قاطعين على نفي الشرك بالله، وعلى وحدانيته تعالى في الألوهية والربوبية. وهذان الدليلان هما:

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٨٤ ـ ٩١.

الدليل الأول: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾. نفي قاطع وجازم بأنَّ الله سبحانه ما اتخذ من ولدٍ، وذلك دحضاً لافتراءات من كانوا يقولون بأن الملائكة بنات الله، أو الذين قالوا: إن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو ابن الله.. والنفي هنا معناه أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يجعل ولد غيره ولداً له، لأنه يستحيل أن ينسب لنفسه مثل هذا الأمر ما دام غنيّاً عن كل شيءٍ، ولا يحتاج إلى أي شيء، بل كل شيء يحتاج إليه لأنه يجير ولا يجار عليه. ثم إنَّ اتخاذ الولد يؤدي إلى جعل ولد غيره يقوم مقام ولده، كما هو الحال في التبنّي الذي تشرعه بعض القوانين الوضعية، ما لا يستقيم معه تبنّي شابٌّ شيخاً، ولا تبنيّ إنسان بهيمةً، لأن من غير الممكن عقلاً وواقعاً أن يكون الشيخُ ابناً للشاب، أو البهيمة ولداً للإنسان، فصار مستحيلاً عقلاً أن يتّخذ الله تعالى له من ولد بسبب الفوارق والاختلاف بين الألوهية والناسوتية.. أضف إلى ذلك أن فكرة اتخاذ الولد تقوم على الحاجة إلى الإشباع النفسي الكامن في غريزة النوع، أي حفظ النوع البشري، وعلى غريزة البقاء التي من مظاهرها التملك، بحيث تؤول الملكية بعد الموت لمن اتخذه ولداً. والله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن هذا الإشباع لأنه الحي القيوم الذي تعزز بالقدرة والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء، فلا يحتاج إلى شيء للحفاظ على وجوده، ولا إلى من يخلفه في ملكه، لأنه بيده ملكوتُ كل شيء، وهو الباقي بعد فناء كل شيء..

الدليل الثاني: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾[1]. وهذا أيضاً نفي قاطع وجازم بأنه

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٩١.

ليس مع الله ـ جلَّ جلاله ـ من إله آخر، فهو الله الذي لا إله إلَّا هو، إلهٌ واحدٌ أحدٌ، وهو رب السماوات والأرض، ورب العرش العظيم. . والدليل أنه لو كان مع الله من إلهٍ غيره، أو من آلهةٍ متعددة فماذا كان قد حصل؟!

ـ إنَّ افتراض تعدد الآلهة يعني حكماً تعدد الأكوان التي تخلقها تلك الآلهة، لأن من صفات «الإلَه» الخلق، ومن ثم يفترض هذا التعدد الاختلاف في القدرات على الخلق، بحيث تكون هنالك أكوان قوية، وأكوان ضعيفة، تبعاً لقدرة كل إلَه، وما أوجد، أو صنع!. . وهذا بخلاف ما أقرّه وأثبته علم الفلك، أي وحدة الكون، على الرغم من اتساعه، وترامي أبعاده وامتدادها إلى ملايين السنوات الضوئية. .

ـ إنَّ افتراض التعدد في آلهةٍ قادرة على الخلق والصنع، يفترض أيضاً التعدد في السنن والنواميس التي تحكم كل منها الكون الذي ابتدعه كلُّ إلَه منها، وبالتالي الصراع في ما بينها، لأنه يفترض أن يكون لدى تلك الآلهة طبيعة استعلاء بعضها على البعض الآخر، والعمل من الأقوى على إخضاع الآخرين له.

وكل ذلك ضرب من الافتراضات التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة؛ لأنه لو كان مع الله تعالى من آلهةٍ متفرقة، لكان أفضى ذلك إلى تعدد الإرادات، وتعدد الأنظمة الكونية وتنافرها، في حين أنه من الثابت للعقل البشري، ولدى مختلف أهل العلم أنَّ الكون بأسره تحكمه وحدة الإرادة والخلق، ووحدة النظام والتسيير، فضلاً عن دقة الصنع والتركيب، ومتانة الإبداع والتكوين بحيث لا يجد العقل أي تبديل أو تحويل في السنن والنواميس الكونية، كما لا يجد أي تفاوتٍ أو تباينٍ أو تصدع في مختلف أرجاء هذا الكون الفسيح، مصداقاً لقوله

تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(١)... فهذا هو البرهان الساطع أمام البصائر والعقول النيّرة، إذ كلما تقدم علم الفلك، إزداد العلماء يقيناً بوحدة الكون، وترابط مختلف عوالمه وتماسكها في نظام محكم ومتين، وكله ينبئ عن وحدانية الصانع العظيم، والمدبر الحكيم، عن وحدانية الله جلَّ جلاله، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٢).

أما ما يحصل من ظواهر كونية مثل الخسوف والكسوف، أو دخول كواكب في الثقوب السوداء وغيابها، وما إلى ذلك مما يعرفه علماء الفلك، فإنَّ مرده إلى الله تعالى، ولكنه قطعاً لا يؤثر على انتظام الكون وسيره وفقاً للسنن الثابتة، والنواميس الشاملة التي خلقها الله تعالى بقدر، مثلما خلق كلَّ شيء وقدَّره تقديراً..

ولعل من المفيد التذكير بأنَّ القرآن الكريم عندما يقدم دليلين عقليين في آية واحدةٍ على ألوهية الله تعالى المطلقة، وعلى ربوبيته المطلقة، فهذا إعجاز قرآني بذاته، لأنه ليس في كلام العرب وجيزة واحدة يمكن أن تقدم أكثر من دليل على قضية هي أهم القضايا التي تعدّ مدار الفكر البشري، ونعني بها العقيدة الدينية..

وفي السياق نفسه يقدم القرآن الكريم مباشرة، أي بعد الآية ٩١ من سورة «المؤمنون» برهاناً آخر على وحدانية الله سبحانه وتعالى

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ٣ و٤.
(٢) سورة الدخان، الآيتان ٧ و٨

وذلك لتفرّده بعلم الغيب، أي إنه هو علاّمُ الغيوب، ولا يمكن أحداً الاطلاع على غيبه إلاً من ارتضى من رسول، يوحي إليه سبحانه أموراً محدودة يريد أن يظهرها للناس لحكمة يشاؤها، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، أي كما يعلم الله الشهادة، وهي كل شيءٍ مشهود بأنظارنا، أو مدرَكٌ ببصائرنا، فإنه يعلم سبحانه كلَّ شيءٍ مغيّبٍ عنا، ولا يجلّيه لوقته إلّا هو تعالى، ما يعني أنَّ الماضي الذي شهده الإنسان، أو الحاضر الذي يعيشه هو ملك له، ويدخل في دائرة اهتمامه، أما ما غابَ عنه فهو شأنٌ إلَهيٌّ، فلا يعلمه إلّا الله تعالى وحده، بحيث لا يجوز للإنسان أن يتكهّن بما قد يحصل، أو لا يحصل في الآتي.. بل عليه أنْ يأخذ بالأسباب ويعدَّ العدّة لكل ما هو مطلوب منه، أو مرتقب لديه، ثم يترك النتائج لرب العالمين، الذي له الأمر من قبل ومن بعد، وهو على كل شيء قدير... وهذا بطبيعة الحال ما يتعلق بالأمور الدنيوية، أما الأمور الغيبية الأخروية فقد جعل الله تعالى لها آفاقاً أخرى أمام العقل البشري، ونصب له الأدلة والبراهين على حقيقتها، لكي تكون من القيم التي يؤمن بها..

وتلك الأدلة التي يقدمها القرآن الكريم، والتي تخاطب العقل وتلامس الفطرة، هي التي تجعل الإنسان العاقل المنصف يقرُّ بوحدانية الله تعالى، وتفرده بالألوهية المطلقة والربوبية المطلقة، فإنْ لم يؤمن الإنسانُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن اتخاذ الولد، أو أن يكون له شريك في الملك، وأصرَّ على غيّه وضلاله، فإنه عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنه،

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٢.

ـ بل وعن جميع مخلوقاته ـ وهو جلَّ جلاله قد نزَّه نفسه عن كل أنواع الشرك وأشكاله بقوله الحق: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

فهل بعد هذا البيان القرآني من سبيل أمام الإنسان لأن يكون من الكافرين أو المشركين، أو أن يغلّب الأهواء، والمطامع، والشهوات والمصالح التي تعد من الشرك الخفي، وقد تكون أكثر شرّاً من الشرك الظاهر؟! وأياً يكن الشرك، خفياً أو ظاهراً فإنه يبعد الإنسان عن رحمة الله تعالى ومغفرته مصداقاً لقوله المبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾[3].

مما نخلص معه إلى أن القرآن الكريم عندما يضع مسألة الألوهية والربوبية موضع التفكّر والتدبّر أمام العقل البشري، فإنّما يريد من الإنسان أن يتدبّر هذه المسألة بحكمةٍ حتى لا يشط به التصور، ويدّعي القوة والعزة والتكبّر، بما يجعله فريسة الغرور الذي يوقعه في ضلالٍ بعيدٍ، وعاقبة هذا الضلال عدم المغفرة من الله جلّ شأنه، وبالتالي المصير المحتوم إلى جهنم وبئس المصير.

الحمد لله على محامده كلها

إنه لجديرٌ بالإنسان، في محنته من هذا القلق الذي يقتحم عليه فكره وعقله، وفي خضم هذا التناحر على المطالب الدنيوية الذي

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة النساء الآية ٤٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٦.

يضني جسمَهُ ونفسه، وتلك الصراعات العقائدية التي تكاد تدمّر كيانه الأخلاقي والاجتماعي والإنساني، أن يعود إلى ربه تعالى، فيطيعه، ويدعوه مخلصاً له الدين. .

ونقول، ونحن على يقين ـ إن شاء الله ـ بأن الطريق المستقيم لطاعة الله تعالى، والإخلاص له في النية والقول والعمل، هو القرآن الحكيم الذي فيه الخلاص من كل ما يحيق بالإنسان من الظلم والقهر، والتجهيل، والإفساد والإضلال. . فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وهو أعلم بمصلحته، وبما ينفعه في دنياه وآخرته، فأنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ هدىً ورحمةً للعالمين، ولذلك نجد أنَّ هذا الكتاب يحمل دعوتين: إحداهما عامة للناس جميعاً، والأخرى خاصة بأهل الكتاب. .

أما الدعوة العامة، فهي خطاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للناس جميعاً، لكي يؤمنوا بالحق الذي جاءهم به الرسول محمد ﷺ من ربهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

وأما الدعوة الخاصة، فهي مخاطبة الله تعالى لأهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ بصورة مباشرة لاتّباع رسولِهِ محمدٍ ﷺ الذي هو نورٌ من الله، ومعه كتابٌ مبين يهدي به الله من آمن منهم سبيل السلامة والنجاة، ويخرجهم من الظلمات التي يتخبطون بها إلى نور الإيمان

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

الحق بإذنه، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

بل ويؤكد الخطاب الإلهي لأهل الكتاب بأنَّ رسوله محمداً ﷺ قد جاءهم مبشراً لهم بالجنة إنْ آمنوا به، ومنذراً لهم بالنار إن لم يصدقوه ويقرّوا بنبوته، فلا عذرَ لهم بعدُ إنْ لم يتّبعوه، ولا حجة لهم أن يقولوا قد انقضت مدة طويلة من الزمن، ولم يبعث لنا الله رسولاً بعدها يبيّن لنا شرائع الدين وأحكامه التي تهدينا إلى الحق لما اختلفنا فيه، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

ولا ريب بأنَّ هذه الدعوات الربانية لجديرةٌ أن يأخذها الناس ـ عموماً ـ وأهل الكتاب ـ خصوصاً ـ بعين التقدير والاعتبار، وأن يعملوا بها، لأنَّ فيها لمن اتَّبع رضوان الله تعالى سبل السلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله، والاهتداء إلى الصراط المستقيم..

ومن اتَّبع رضوان الله تعالى، فسوف يجد الله عفوّاً غفوراً له، مثنّياً عليه. علماً بأنه ـ جلّت عظمته ـ هو الذي يستحق الثناء

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ و١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٩.

والشكر، والثناء على صنائعه كلها بعباده، وعلى جميل ما كرَّمهم به، وفضَّلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً. .

والحمد والثناء:

هما من صفات الكمال التي وصف بها الله ذاته القدسية. .

وهما من السجايا والخصال التي تميَّز بها الأنبياء والمرسلون في الطاعة لله وحمل الأمانة التي عهدها إليهم. .

وهما من المزايا التي تعبَّد بها المؤمنون الصالحون لله العلي العظيم. .

وقد بيَّن القرآن الكريم المحامد لله في كثير من السور والآيات البيّنات، وهذه بعض مما وفَّقنا ربُنا إليها:

ـ الحمد لله على خلق السماوات والأرض وخلق الناس.

يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[1].

الحمد هو الوصف بالجمال، والكمال، والقدرة، والكبرياء، والعظمة والعزّة لله جميعاً. . وهو الوصف الثابت في السماوات والأرض للإيمان بالله تعالى والثناء عليه بما هو أهلٌ له، في خلقه السماوات والأرض ـ وقد خصَّهما بالذكر لعظيم خلقهما في ما يرى الناظرُ من المخلوقات ـ وانبثاق الظلمات والنور من النجوم والكواكب

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١ ـ ٣.

الموجودة في فضاء الكون الواسع، وما ينجم عن الظلام والنور من تعاقب الليل والنهار وتأثيرهما على حياة الناس.. وهذا من دلائل قدرة الله سبحانه، التي مع قيامها وانتصابها أمام العقل، فإنَّ الذين كفروا بربهم يعدلون، بعبادتهم عنه، أو يجعلون له أنداداً، فهم به مشركون، أو إنهم يعدلون بأفعالهم عنه، وينسبونها إلى أنفسهم، أو إلى مخلوقاتٍ مثلهم، في حين أنَّه بالمشيئة الإلَهية، وبالحقّ المبين قامت السماوات والأرض، إذ لو كان ركنٌ من الأركان الأربعة في العالم زائداً على الآخر، أو ناقصاً عنه، لم يكن العالمُ منتظماً.

والحمدُ لله الذي خلقنا من طين، ثم جَعَلَ من هذه الجبلةِ البشرية، أرقى مخلوقات الأرض..

وهو الله الذي يستحق العبادة في السماوات والأرض، يعلم ما نسرُّ في أنفسنا، فنحمده ونشكره لإمهالنا، وعدم افتضاح أسرارنا، لأنه لو شاء سبحانه لما ستَرَ علينا عوراتِ نفوسنا، وما نكيدُ لغيرنا، ونمكر بهم، فضلاً عن أنه عليم بما نجهرُ به من القول، وما نعمل من خير أو شرٍّ، فلا يجازينا على سوء أفعالنا، بل يمهلنا، ويأمرنا بأن نتوبَ إليه، فنقلع عن أخطائنا، وأفعالنا الجرمية، وهو التّواب لمن يشاء، والغفّارُ لمن يشاء من عباده..

والحمد لله، كما حَمَد سبحانه وتعالى نفسه القدسية، لأنه خالق السماوات والأرض بالإبداع، لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).. قال حبر الأمة عبد الله بن عباس: «ما كنت أدري معنى (فاطر) حتى احتكم إليَّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها،

(١) سورة فاطر، الآية: ١.

أي: أنا ابتدأتُ حفرها؛ فيكون معنى «فاطر السماوات والأرض» خلقهما ابتداءً من غير مثالٍ سبق، أو مثالٍ يحتذى به، فهي قدرة الله تعالى في إبداع خلقهما من العدم، وإبداع السنن الكونية التي تسيّرهما بهذه الدقة من القصد والإِحكام..

أما ما يدلُّ على الإِبداع في خلق الإنسان، فذلك الرشدُ الذي انتهى إليه السحرةُ في لحظات، عندما رأوا قدرة الله تعالى في تحويل عصا موسى عليه السلام الخشبية إلى ثعبانٍ حيٍّ يسعى، فآمنوا، وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون عليهما السلام، مما أثار حفيظة فرعون، وتهديده لهم بالقتل والصلب.. فما كان جواب السحرة إلّا أنْ أقسموا بالله الذي «فطرهم» إنهم لن يؤثروا فرعونَ على ما جاءهم من البينات الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته، كما يبيِّنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۞ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾(١). وهذا من الأدلة على صدق الفطرة لدى الإنسان، إذ في ساعة من أشد الساعات حرجاً، غلبت الفطرة على تلك الجماعة فآمنوا بالله إيماناً عقلياً صادقاً، ونبذوا كل مغريات فرعون الدنيوية بل ولم يأبهوا لتهديده إياهم بالصلب والقتل، وهذا منتهى صدق الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، مصداقاً لقوله المبين: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(٢). أي الفطرة والإبداع في ما ركز في الناس من معرفته سبحانه، ومن الاهتداء إلى الإيمان به.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٧٢ و٧٣.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الحمد لله رب السماوات والأرض

وهنا أيضاً الحمد لله لأنه ربُّ السماوات والأرض، وربُّ العالمين، وذلك بقوله المبين: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١].

فللّه سبحانه وتعالى العظمة والكبرياء والعزّة في السماوات والأرض، لأنه ربّهما، والمالك، السيّد المتصرف بما ملك، فلا يقال «الربُّ» مطلقاً إلّا لله تعالى، المتكفّل بمصلحة المخلوقات كلها في السماوات والأرض، وكذلك «الربوبية» فلا تقال إلّا لله ذي الجلال والإكرام؛ أما قولهم «أرباب»، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[٢]، فالجمع فيه على حسب اعتقادهم بوجود أرباب متعددة كانوا يتعبدون لها، لا على ما عليه ذاتُ الشيء في نفسه؛ ولذلك أنكر النبيُّ يوسف عليه السلام أنْ تكون تلك الأرباب، على تفرّقها في مصدر وجودها وفي انقيادها لخالقها خيراً من الله تعالى، الواحد القهار، رب الأرباب المدعاة، ورب الخلائق أجمعين، ربّ العالمين...

وقد جاء النهي القرآني عن اتخاذ الأرباب بصورة قاطعة وجازمة، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣].. إذاً فما كان

---

(١) سورة الجاثية، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٩ و٨٠.

لأحدٍ من النبيين والمرسلين أنْ يقول للناس: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين، أي علماء بما تعلّمون وتدرسون من الكتب التي تهدي إلى صراط الحميد المجيد، وبما تقدمون لأنفسكم، ولغيركم من خيرٍ تجدونه عند الله تعالى، وبذلك تكونون ربانيين منتسبين إلى الربِّ العلي القدير.. وما كان أيضاً لأحدٍ من النبيين والمرسلين أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة أرباباً كما فعلت الصابئة، أو أن يأمر الناس باتخاذ العباد، ولو كانوا من النبيين، أرباباً، كما فعل اليهود باتخاذ علمائهم أرباباً، وكما فعلت النصارى باتخاذ رهبانهم والمسيح ابن مريم عليه السلام أرباباً من دون الله تعالى، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، وكيف يأمر بالكفر هؤلاء الذين بعثهم الله تعالى هداةً ومصلحين؟!.. وكيف تقبل نفوسكم أيها الناس الكفر أو الشرك بالله تعالى بعد إذ أنتم مسلمون لله رب العالمين، منقادون له بالطاعة والاستسلام، والرضا بقضائه وقدره لقوله الحق المبين: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2].

فالمؤمن يكون مسلماً، منقاداً لعبادة الله تعالى وطاعته عن قناعة ورضىً، أما الكافر أو المشرك فإنه يلتجئ إلى ربّه بصورة تلقائية وعفوية، لأن الفطرة في داخله هي التي تتحرّك، وهي التي تحثّه على أن يستغيث بالله سبحانه، ويرجوه أن يخلّصه من شدته، وفي ذلك

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

منتهى الطواعية، ولو كرهاً، والاستسلام، ولو ظرفياً، لمن وحده يملك المشيئة والقدرة على أن يفعل ما يشاء، وليس ذلك لأحدٍ إلّا لله العزيز القاهر فوق عباده.

الحمد لله على نعمه وهباته

ومن النعم والهبات التي أنعم الله تعالى بها على الناس أنْ سخّر لهم ما في الأرض جميعاً، لأنها مستقرهم ومأواهم أحياءً وأمواتاً؛ وبما جعل لهم السماء بناءً، وسقفاً محفوظاً من طغيان الأجرام السماوية على أمّهم الأرض، وبما حباهم من حُسن الهيئة والخلقة، وصورهم فأحسن صورهم، ثم رزقهم من الطيبات ليحافظوا على رونق هذا الخلق الآدمي، فلا يشوهونه بالجحود، بل يجمّلونه بالحمد والشكر لصاحب الفضل والنعمة.

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، أجل «الحمد لله رب العالمين» على كل تلك الهبات، والنعم، والعطايا التي يَمتنُّ بها عليكم الخالق العظيم، والرزّاق الكريم، فاعبدوه حق العبادة، واخلصوا له في العبادة، والحمد والثناء عليه، لكي يكون حمدكم وشكركم له سبحانه بمثابة نَغَم في هذه السمفونية الكونية التي تُسبّحُ فيها السماوات والأرض ومَنْ فيهن لله العلي العظيم مصداقاً لقوله

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٦٤ و٦٥.

تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2]. .فما من شيء في السماوات والأرض إلّا ويُنزِّهُ الله في عليائه، ويسبحه في ملكوته، كأن يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله والله أكبر. . أو كأن يقول: سبحان الله، له الحمد، وله الشكر، وله النعمة، وله الرضى وهو على كل شيء قدير. . والحقيقة أنه ما من شيء في الوجود كله، إلّا ويسبح بحمد ربه، إنْ باللغة التي ينطق بها، أو بالصوت الذي يخرج من فمه، أو بالنفس الذي يتنفَّسه، حتى الجماد يسبح بحمد ربه، ومثاله الجبال التي كانت تردّدُ مع النبي داود عليه السلام تسابيحه بأنغام المجد لله في العلا، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[3]؛ وقوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[4]. . . فالجبال والطير كانت تسبح مع النبي داود عليه السلام وقت صلاة العشاء، ووقت صلاة الصبح حتى إشراق الشمس، وكذلك الطيور كانت تجتمع إليه من مختلف أجناسها وأنواعها، تسترجع تسبيحه في زغرداتها، وزقزقاتها وكأنها ترتّل أناشيد الخلود والتعظيم للخالق العظيم. . وقد عبر أحد الكُتّاب عن قضية تسبيح الكون جميعه لخالقه بكلمات جميلة فقال: (ولذلك

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٤) سورة ص، الآيتان: ١٨ و١٩.

فإنني عندما أسمع صياح الديكة في الصباح، وزغردة العصافير مع طلوع الشمس، أو في أيِ وقت من ليلٍ أو نهار، أجدني ساجداً لله تعالى، مسبّحاً، حامداً، شكوراً على ما وهبني، ووهب الإنسان، بل وكل مخلوقاته من نعمة التسبيح بحمده، وإن كنت أشاركها تسابيحها وتراتيلها في أنغام الوجود)...

ذلكم الله ربكم أيها الناس، فاعبدوه مخلصين له الدين، وسبّحوا بحمده بكرةً وأصيلاً ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾(١).

أما تسبيح الرسل والأنبياء لله رب العالمين، وحمده على ما أنزل عليهم من كتاب، وما آتاهم من النبوة، والحكمة، وما أيّدهم به من نصرٍ على الكافرين.. فإنَّ ذلك كله ممّا تحفل به آيات القرآن المجيد للدلالة على عظمة الله في ذاته، وقدسيته وجلاله، والاعتراف بهباته السنّية عليهم، وعلى عباده، بل وسائر مخلوقاته.. ففي خطاب الحق سبحانه للنبي نوح عليه السلام نجده يرشده بقوله الحكيم: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)، وهذا الحمد لا تقف مصاديقه عند هلاك الكافرين بالطوفان، بل ويستشرف الحياة الإنسانيةَ باستمرارها من ذرية نوح، وممَّن حمل مَعَهُ من المؤمنين في الفلك، وباستمرار حياة الحيوان والطير ممَّا حَمَلَ معه من كل صنفٍ زوجين، فكان هذا الذي نراه من الكائنات الحية على الأرض، من الناس، والأنعام، والدواب على اختلاف أصنافها..

وفي الإقرار بفضل الله عزَّ وعلا، على داود وسليمان عليهما السلام

(١) سورة الروم، الآيتان: ١٧ و١٨.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، إذ من العلم الذي آتاه الله تعالى لهما: القضاء بين الناس، وتعليمهما منطق الطير والحشرات.. فقد سخّر سبحانه لداود عليه السلام الجبال والطير - كما أشرنا إليه - تسترجع تسابيحه ومحامده لرب العالمين.. وسخّر لسليمان عليه السلام الجن والإنس والطير، و﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[2] وهذا ما يعبّر عنه سليمان عليه السلام، وهو يخاطب الناس، مبيّناً أنّه أوتيَ هو وأبوه «من كل شيءٍ» علماً وتسخيراً، كما يدلّ عليه قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[3].

ولم يكن سائر الانبياء والمرسلين، والحقُّ يقال: إلّا شاكرين، حامدين لربهم تعالى على ما آتاهم من النبوة، وحمل الرسالات، وأداء الأمانة وإبلاغها للناس.. ولا يسعنا البحث هنا أنْ نبين فضائلهم في عبوديتهم لرب العالمين، وما حباهم به من نعمة العرفان بالجميل، ولكن يمكن لكلّ من يشاء ذلك أن يطلع على سيرة حياتهم، وما تحفل به من القيم، والمثل والتعاليم، من خلال الكتب والسير الصادرة بهذا الخصوص.. إنما لا بدّ من تبيان بعض مدلولات معاني الحمد التي أوحاها الله عزَّ وجلَّ لرسوله الكريم محمد ﷺ، بوصفه خاتم النبيين، ورسول رب العالمين للناس أجمعين، لإبلاغ الدين

(١) سورة النمل، الآية: ١٥.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٦.
(٣) سورة النمل، الآيتان: ١٦ و١٧.

الكامل، الذي أتمَّ به العزيز الحكيم نعمته عليهم، وارتضاه لهم ديناً، لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]. .

والكتاب الذي يحمل الحمد لله تعالى، حمداً باقياً أبداً، ما بقي الليل والنهار هو، ولا ريب، القرآن الكريم، بل وفيه الحمد لله على إنزاله بالذات على قلب عبده محمدٍ ﷺ كما يبيِّنه قوله عزَّ وعَلاَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ۜ * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[2]، أي الخلود في الجنة. .

ولا يسعنا أنْ نتقصَّى ما في القرآن الحكيم من الصلة الوثيقة التي تربط محمداً ﷺ بربه تعالى، فكلّ ما في القرآن يبيّن هذه الصلة بمواثيقها، ونفحاتها، ومناسك عباداتها، فضلاً عمَّا تترامى به في الزمان والمكان بأبعادها، وآفاقها، ومدلولاتها، وكلها توحي بما يوجب على العبد من عبادةٍ لله الغفور الرحيم، ومن ذكر للرب العليم الحكيم، لا ينقطع فيهما الشكر والحمد له على آلائه، ونعمائه وفضله العظيم. . ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد كان حامداً شكوراً في كل شيءٍ من أبسط عمل يقوم به إلى أجلِّه، ومن أرقّ كلمة يتلفظ بها إلى أعظم بلاغ مبين للملأ أجمعين. . فمن المآثر في السيرة النبوية الشريفة: قوله ﷺ: **«إنَّ الله تعالى لَيَرْضَى عَنِ العبدِ أن يأكُلَ الأَكْلَةَ فيحمَدَهُ عليها، أو يَشرَبَ الشُّربَةَ فيحَمَدَهُ عليها»**[3]. . وكان

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الكهف، الآيات: ١ ـ ٣.
(٣) صحيح مسلم، الحديث الرقم ٤٩١٠.

ﷺ إذا رفعَ مائدتَهُ قال: «الحمدُ لله كثيراً طيّباً مُبارَكاً فيه غير مكفِيّ، وغير مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنىً عنهُ ربَّنا»[1] . . وكان ﷺ إذا فرغ من تناول طعامه قالَ: «الحمدُ لله الذي كَفَانَا وأَرْوَانَا، غيرُ مكفيٍّ وغيرُ مكفورٍ»[2] ـ وغيرُ مكفيٍّ: أي غير مردود.

وكان (ﷺ) يعلّم الناس معاني الحمد على سلامة البدن، ووفرة العافية بقوله ﷺ: «مَن رأى مُبْتَلىً فقال: الحمدُ لله الذي عَافَاني ممّا ابْتَلاكَ بِهِ وفَضَّلَني على كثيرٍ مِمَّنْ خلَقَ تَفْضيلاً، لم يُصِبْهُ ذلك البَلاءُ»[3] .

كما كان يربّي الناس على ألّا يحمدوا أنفسهم على ما يؤتون من صالح الأعمال، بل يُعزون ذلك إلى فضل الله تعالى عليهم، فكان يقول لهم: «مَنْ لَمْ يَحْمِدِ الله تعالى على ما عَمِلَ من عَملٍ صالحٍ وحَمَدَ نفسَهُ قل شكره وحَبِطَ عملُهُ، ومَنْ زعَمَ أنَّ الله جَعَلَ للعِباد مِنَ الأمرِ شيئاً فقدْ كَفَرَ بما أَنْزَلَ الله على الأنبياء لقولِهِ تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾»[4]، ولذلك كان ﷺ يدعو بهذا الدعاء، المترامي الأبعاد والمقاصد، فيقول: «اللّهمَّ لَكَ الحمدُ كلُّهُ، ولَكَ المُلكُ كلُّهُ، بيدِكَ الخيرُ كلُّه، إليْكَ يَرجِعُ الأمرُ كلُّهُ، عَلانيتُهُ وسرّه»[5] . .

وكان يقول ﷺ لأصحابه: «إني لأستغفرُ الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعينَ مرةً»[6] . . ولما كان النبي ﷺ يقوم الليل راكعاً

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٠٣٧ .

(٢) المصدر نفسه، حديث رقم ٥٠٣٨ .

(٣) سنن الترمذي، الحديث الرقم ٣٣٥٤ .

(٤) كنز العمال، الحديث الرقم ٦٤٧٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد، الحديث الرقم ٢٢٢٦٦ .

(٦) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٨٣٢ .

وساجداً لله حتى تتورم قدماه، قيل له: «غفرَ لكَ ربُّكَ ما تقدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخّر»(١)، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(٢).. فهذا بعضٌ من طيب أنفاس المصطفى ﷺ.. فانظر إلى هذه النفحات العلوية وهي تتنزل عليه قرآناً كريماً بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣).

فماذا ترى أيها الإنسان؟!

فهل ترى أنّ الله الذي خلق لك كل هذه الخيرات والبركات، وكل هذه النعم والأرزاق، هو خيرٌ لك في العبادة، أم تلك الآلهة المزعومة التي لا تنفع ولا تضر بشيء، فهل من سبيل يرتجي عندها من يشركونها في عبادة الله تعالى؟ أولا يتفكرون في ذلك فتستبين لهم ضحالة عقيدة الكفر والشرك من قوامة عقيدة التوحيد التي كلها خير وفلاح؟

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في مطلع سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [سورة الفتح، الآيتان: ١ و٢].

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤٥٩.

(٣) سورة النمل، الآيات: ٥٩ ـ ٦٣.

وإنه لواضحٌ أنَّ الله تعالى يستهلُّ خطابه للنبي ﷺ، في هذه الآيات المباركة، بالحمد الثابت له عزَّ وجلَّ، وبالسلام على عباده الذين اصطفاهم من خير البرية لحمل دينه القويم، ليعود ويبيّن مقدار الأنعام والهبات التي يتكرّم بها على مخلوقاته في هذه الأرض، وهي من الآلاء الدالة على قدرته، وعزته ومشيئته سبحانه، بحيث عندما نعلم كل هذه الفيوضات الربانية، يكون من صدق إيماننا، ومن ضرورة وجودنا أن نكون من الحامدين الدائمين لهذا الجود والكرم من ربنا العلي العظيم. .

أما إذا كان هنالك من الناس من ينكر جليل صنع الله وعطائه، ممّا هو ماثل أمام بصيرته، ولولاها لما كان له من وجود، أو من استمراريةِ بقاءٍ في هذه الحياة. . أو إذا كان هنالك من الناس من يغلّب عقائده أو مفاهيمه أو مآربَهُ على رضوان الله تعالى، ثم يتصرَّفون كأنَّ لهم خلوداً في هذه الدنيا! فكل أولئك الظالمين لأنفسهم، هل يحسبون وهم ينساقون وراء جحودهم، أنَّ القادر على كل شيء، غافل عن كفرهم، وشركهم وإلحادهم، أو أنه سبحانه لا يعلم خفايا صدورهم، وما يدبّرون ويصنعون؟

أبداً، فما كان الله تعالى لينسى، أو يغفل، أو لا يحاسب على كل نيةٍ أو عملٍ أو قول، ولكنه سبحانَهُ حليم لا يعاجل بالعقوبة، يمهل ولا يُهمل، إذا أصرّوا على كفرهم استدرجهم من حيث لا يعلمون! . .

المرسلون يحمدون الله تعالى على نصرتهم

. . . فمن الثابت في تاريخ الرسل أنهم كانوا يبلّغون عن الله ربهم عقيدة التوحيد، والشرائع التي أنزلت عليهم، ولكنَّ أكثر الناس

لم يؤمنوا، ولم يستجيبوا لدعواتهم، فكان مصيرهم الهلاك والدمار، كما حلَّ بالأقوام والأمم الغابرة.. فكان الرسل عليهم السلام يحمدون الله تعالى على نجاتهم من الظالمين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، حمداً يليق به سبحانه على نصر المرسلين، وهلاك الكافرين.

وفي إلقاء الحجة على الذين لا ينكرون حقيقة وجود الله تعالى، ولكنهم لا يدينون بعقيدة التوحيد، ولا يعتنقون الإسلام ديناً، كما بعث به محمد ﷺ، يأتي هذا البيان القرآني بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، ولئن سألتهم يا «محمد» من خلق السماوات والأرض، ليقولُنَّ، توكيداً: الله، قل: «الحمد لله» بظهور الحجة عليهم من أفواههم، فعندما يقرون بأنَّ الله ـ جلَّت عظمتُهُ ـ قد تفرَّد بالقدرة على هذا الخلق العظيم، فقد تفرَّد، حكماً، بالوحدانية، التي هي واجب عقائدي ووجداني على الإنسان، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن توحيد الله هو موجب وجودهم واعتقادهم، وأنَّ كلَّ ما خلا ذلك باطل، ولذلك ينحرفون عن الحق الثابت الأصيل في الوجود، عن عبادة الله الواحد الأحد، فيقعون في الشرك والضلال.

ولكي تستبين للإنسان ماهية عقيدة التوحيد عن ماهية عقائد الشرك، ما عليه إلَّا أن يستمع إلى ما ضرب الله تعالى مثلاً من أنفسنا بقوله المبين: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٨١ و١٨٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

هؤلاء الذين هم من أنفسكم، من البشر أمثالكم، ولكنهم بحكم الواقع عبيدٌ لكم أو مماليك، أو مستخدمون تتحكّمون برقابهم ولقمة عيشهم، فهل تشركونهم في ما رزقكم الله من الأموال، والشركات، والمؤسسات، والقصور، والأنعام، والأراضي والبساتين؟ أم هل تجعلونهم شركاء في قراراتكم التي تتخذونها؟! فهل تجعلونهم يتساوون معكم، في ذلك، حتى تخافوهم، كما تخافون من هم من صنوكم، وفي مستوياتكم الاجتماعية، والمالية؟ ليس المستخدمون في مؤسساتكم، أو الخدم في منازلكم. . ليسوا شركاء لكم بشيء، بل مجرد مأجورين عندكم، فكيف تجعلون، إذن، مماليك لله تعالى، أو مخلوقات له عزَّ وجلَّ، شركاء له؟ إلّا إذا كنتم قوماً لا تعقلون، ولا تتدبرون. .

وفي مثل قرآني آخر يقول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، فالعبد المملوك ـ إذا وُجِدَ في أيامنا ـ أو أي أحد يعمل لديكم أو لحسابكم، مهما كانت الصفة أو الوظيفة التي توكل إليه، والذي لا يقدر على شيءٍ إلّا تنفيذ الأوامر التي تعطى له، وليس له أي صلاحية أو حرية التصرف أو الحركة بخلاف ذلك. . وفي مقابله سيده، أو مولاه أو

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٥.

رئيسه، الذي رزقه الله تعالى من فضله مالاً وفيراً، فهو يتصرف به كيفما يشاء، بحيث ينفق منه سرّاً وجهراً، ولا يخاف عاقبة إنفاقه من أحد، فهل يستوي مع عبده ملكاً، وحريةً، وإرادةً وتصرّفاً؟ مستحيل.. إذ كيف يستوي، في نظركم، الله العليُّ العظيم مع من تحسبونهم شركاء له في ملكه، وهم عبيدٌ له، وهو قادر على أنْ يفعل بهم ما يشاء، فإنْ كانوا أصناماً بعث من يحطّمهم ويجتثهم، وإنْ كانوا أناساً بدّد ثرواتهم، وأزال سلطانهم، أو فرّق شملهم، أو فتَّت قواهم التي يستكبرون بها، والله على كل شيء قدير! وهل يمكن أن يُحمَدُ العبدُ المأمور الذي لا يقدر على شيء، أم يُحْمَدُ المنفق مما رزقه الله من الرزق الطيب الحلال؟ وهل يستوي كلاهما في المعيار البشري؟! أبداً... إذاً فهل يجب أن يكون الحمد في السماوات والأرض إلّا لله الحميد المجيد؟ فالحمد لله وحده، الذي يستأهل المحامد كلها.. أمّا هؤلاء الناس، الذين يدّعون أنهم «أحرارٌ» فلا يجوز لهم أن يحمدوا أنفسهم على ما آتاهم الله من العلم، والسلطان والمال حتى صاروا «عبيداً» بصورةٍ تراتبيّةٍ، منهم من يأتمرُهُ غيره جهراً، ومنهم من يُؤتَمرون سرّاً، وجميعهم، في نهاية المطاف، عبيدٌ للمال أو الأهواء أو المطامع الدنيوية، ولا سيما عبادتهم للمراكز التي نُصّبوا فيها، والتي تجعلهم يتمسكون بها ولو بظلم الناس ومخالفة شرع الله!.. فبئس «الأحرار» هم، وبئس ما ملكوا من الجاه والثروة والنفوذ! وهم يحمدون أنفسهم على ما آتاهم الله من فضله!.. وكيف يتماهون بمحامد أنفسهم والأعراف التي بحكمهم تجعل «الأسياد» يستخدمون دائماً الأتباع، أو الذين هم دون رتبةٍ، بما يخدم مصالحهم، وأنهم لا يتورعون عن التخلّص منهم ساعة يشاؤون؟!.. بل وما بال هؤلاء

الذين يتوهمون أنهم «سادة» العالم ينسون أو يتناسون أنَّ فوقهم الله العزيز الجبار، السيد المطلق، وهو سبحانه لهم بالمرصاد يحصي عليهم كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، فأين يهربون بسيادتهم الموهومة، والموتُ فوق رقابهم، والحساب آتٍ لا محالة؟!..

الله تعالى غنيٌ عن العالمين

ولئن كان الحمد والشكر يتلازمان مع إيمان الإنسان في عبادته، وطاعته واستسلامه لله تعالى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، فلا يحتاج سبحانه لعبادة مخلوقاته من الجن والإنس والملائكة أجمعين، ولكنه ـ جلَّ جلاله ـ فرض على خلائقه عبادته ليتبيّن الطائع من العاصي، كما أنه يحبّ لعباده أن يحمدوه، ويشكروه لأنَّ ذلك دليلٌ على الطاعة، وهو خيرٌ لأنفسهم، كما يبيّنه ربنا الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(٢)؛ فالناس مطلوب منهم أن يشكروا الله ربّهم على صنائعه بهم، ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه لأنَّ هناك جزاءً وثواباً ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٣)، ومن كفر فإنّما يرتدُّ كفرُهُ عليه عقاباً أليماً، والله غنيٌّ عن الكافرين، وعن خلقه أجمعين، فإنْ تعثر الحال بهؤلاء الكافرين، ولم يحمدوا الله أو يشكروه، فإنه سبحانه حميد مجيد في السماوات والأرض، محمودٌ في صفات كماله، مجيدٌ في سلطانه، ذو العرش المجيد، أمّا العباد فـ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۞ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

وإذا كان الشكر، بمعناه العام، هو تصور النعمة وإظهارها، فقد قيل بأن الشكر مقلوب عن الكشر، أي الكشف، ويضاده الكفر أو الستر، بما يجعل الكفر نسياناً للنعمة وسترها. والشكر يكون إمَّا بالقلب (وهو تصوّر النعمة)، وإما باللسان (وهو الثناء على النعم)، وإمّا بسائر الجوارح (وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها) وإذا كان من مقاييس الحكمة التي أوتيها «لقمان» أن يكون شاكراً لله تعالى على هذه النعمة الجليلة، فإنَّ ما أوحاه ربنا الكريم للنبي موسى عليه السلام، لكي يوعظ به قومه من بني إسرائيل، يبيّن أنَّ الشكر هو من خصال المؤمنين، ويضاده الجحود الذي هو من خصال الكافرين، ولكنَّ الفارق العظيم هو أنّ المؤمنين كلما ازدادوا شكراً، زادهم الله تعالى نعمةً وثواباً، بينما لا يلاقي الكافرون إلّا العذاب، كما نستدل به، على لسان موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۞ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(٢).

ونظراً لأهمية الشكر فقد جعله الله تعالى مقابلاً للكفر، بقوله المبين: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٣).

والنتيجة الحاسمة أنَّ الإيمان والكفر، والشكر والجحود، هي موازين لرصد وضبط حركة الإنسان بخالقه، ربِّ السماوات

---

(١) سورة الروم، الآيتان: ٤٤ و٤٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٧ و٨.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣.

والأرض، فهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وهو الغنيُّ عن العالمين، بقوله الحق: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وهكذا يتبيّن من الآيات الكريمة التي أوردناها عن الحمد والشكر أنها تنبئ ـ مثل غيرها في كثير من الآيات القرآنية ـ بأنَّ الإنسان على نفسه بصيرة، وأنه مخيّر بين صالح العمل أو سيّئه، بين عمل الخير أو الشر، وأنَّ سبيله الإيمان أو الكفر ـ وما بينهما من النفاق ـ فمن كفر أو أشرك ـ أو نافق ـ فقد يربح الدنيا، وقد لا يربحها، ولكنه حكماً سوف يخسر الآخرة.. وأما من آمن واتّقى، وحمد وشكر فإنَّ الجنة هي المأوى، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۞ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

محامد المؤمنين على وراثة الجنة

وقد أورد القرآن المجيد الآياتِ الكريمةَ التي تؤكد محامد المؤمنين لله تعالى، وهم في رحاب الجنة يتبوأون منها حيث يشاؤون في الدرجات التي أعدّت لهم.

ويكفي أن نتصوَّر مشهد يوم القيامة، والناس في الحشر،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦.

(٢) سورة الشورى، الآيتان: ٢٢ و٢٣.

والملائكة حافّين من حول العرش العظيم، وهم يقولون: سبحان الله وبحمده، وقضي بين الخلائق بالحق، الذي تقوم عليه موازين العدل الإلهي، في كفتين توزن بهما الذرة من الخير، مثلما توزن بهما الذرة من الشر، فيدخل المؤمنون الجنة، ويساق الكافرون إلى النار، وكان وعد الله مفعولاً، حيث تراتيل الملائكة، وهم يسبّحون أناشيد الحمد لله رب العالمين، كما يبيّنه قوله الكريم: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

أما الأنوار القدسية، التي تتلألأ بها جنبات الجنة فهي الأنوار التي تسطع بها آيات القرآن الكريم بشرى للمؤمنين بما ينتظرهم من النعيم المقيم، وذلك بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۞ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾(٣)، أي وقال أهل الجنة بعد أن أُدخلوها: الحمد لله الذي صدقنا وعده الذي وعدناه على ألسنة الرسل، وأورثنا أرض الجنة، حيث عاقبة أمرنا، نتبوَّأ فيها ما نشاء من

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٢ و٤٣.
(٣) سورة الزمر، الآيتان: ٧٣ و٧٤.

هذه القصور الرحبة، والجنائن الغنّاء، التي أعدَّها ربُّنا الكريم لعباده المتقين. .

وهذا الفضل العظيم، هو بذاته ما يستحق الثناء والحمد والشكر لله ربِّ العالمين، وهو لسان حال المؤمنين في جنات الخلد حيث دعواهم الأخيرة «أنِ الحمد لله رب العالمين»، كما يثبته قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ونحن آخر دعوانا «أنِ الحمد لله رب العالمين» على ما هدانا، وما قدَّرنا في محاولتنا لأنْ نقدم في هذا الكتاب من سبل لمعرفة النفس الإنسانية، وما أعاننا عليه سبحانه من فهم لمعاني ومقاصد الآيات القرآنية التي كانت دلائل حق، وبراهين نور في عملنا، وما وجَّهنا إليه مولانا الكريم للإفادة من السيرة النبوية الشريفة سيرة سيدنا محمد ﷺ في تبيين معاني الآيات التي تتناول النفس؛ فنسأل الله الودود الغفور أن نكون قد وفقنا في هذه المحاولة التي نتوخى منها ما قد يهدي الإنسان إلى صلاح نفسه وأحواله، كما نرجوه تعالى أن يعفو عنا إن كنا قد أهملنا أو قصرنا ـ عن غير قصد ـ في الأبحاث التي تناولها هذا الكتاب الذي نأمل ونرجو أن يكون خادماً أميناً للقرآن المجيد، وللسنة النبوية الشريفة، وعسى أن يدخلنا ربّنا تعالى في عباده الذين قال عنهم عزّ من قائل: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[2]. والحمد لله رب العالمين. .

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٩ و١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٤.

المراجع

(١) القرآن الكريم

(٢) نهج البلاغة

(٣) صحيح البخاري ــــــــــــ الإمام البخاري

(٤) صحيح مسلم ــــــــــــ الإمام مسلم

(٥) الموطأ ــــــــــــ مالك بن أنس

(٦) الأم ــــــــــــ محمد بن إدريس الشافعي

(٧) مسند أبي حنيفة ــــــــــــ أبو حنيفة

(٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل ــــــــــــ أحمد بن حنبل

(٩) السنن الكبرى ــــــــــــ البيهقي

(١٠) سنن ابن ماجة ــــــــــــ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

(١١) سنن النسائي ــــــــــــ شرح الحافظ جلال الدين السيوطي

(١٢) مجمع البيان ــــــــــــ الطبرسي

(١٣) الكشاف ــــــــــــ الزمخشري

(١٤) في ظلال القرآن ــــــــــــ سيد قطب

(١٥) لسان العرب ــــــــــــ ابن منظور

(١٦) تفسير مفردات الفاظ القرآن الكريم ــــــــــــ سميح عاطف الزين

(١٧) كتاب السياسة ــــــــ ابن سينا
(١٨) آراء أهل المدينة الفاضلة ــــــــ أبو نصر الفارابي
(١٩) تحفة المودود بأحكام المولود ــــــــ ابن قيم الجوزية
(٢٠) المقدمة ــــــــ لابن خلدون
(٢١) الوجيز في علم الأجنة القرآني ــــــــ محمد علي البار
(٢٢) علم نفس النمو: الطفولة والمراهقة ــــــــ حامد زهران
(٢٣) الشخصية ــــــــ محمد تقي الدين النبهاني
(٢٤) التفكير ــــــــ محمد تقي الدين النبهاني
(٢٥) نظريات الشخصية ــــــــ كالفين هول ـ ليندزي، ترجمة فرج أحمد فرج
(٢٦) أضواء على الشخصية والصحة العقلية ــــــــ عثمان لبيب فراج
(٢٧) الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي ــــــــ وليم الخولي
(٢٨) المعجم الفلسفي ــــــــ جميل صليبا
(٢٩) علم النفس ــــــــ جميل صليبا
(٣٠) مداخل علم النفس ــــــــ لندا ل. دافيدوف
(٣١) علم النفس الحديث ــــــــ مصطفى سويف
(٣٢) المرجع في علم النفس ــــــــ سعد جلال
(٣٣) مذاهب علم النفس ــــــــ علي زيعور
(٣٤) أصول الطب النفساني ــــــــ فخري الدباغ
(٣٥) الطب النفسي المعاصر ــــــــ أحمد عكاشة
(٣٦) قضايا نفسية في علم النفس المعاصر ــــــــ عطوف محمود ياسين
(٣٧) أسس الصحة النفسية ــــــــ عبد العزيز القوصي
(٣٨) التحليل النفسي (ترجمة الشنيطي) ــــــــ أرنست جونز
(٣٩) الموجز في التحليل النفسي (ترجمة سامي محمود علي) ــــــــ فرويد
(٤٠) كتاب تفسير الأحلام الكبير ــــــــ محمد بن سيرين
(٤١) تعطير الأنام في تعبير المنام ــــــــ عبد الغني النابلسي

(٤٢) الأمراض النفسية والعقلية ـــــــــــــ عزت راجح

(٤٣) علم النفس الديني ـــــــــــــ سيربل بيرت

(٤٤) التربية النفسية في المنهج الإسلامي ـــــــــــــ حسن الشرقاوي

(٤٥) القرآن وعلم النفس ـــــــــــــ محمد عثمان نيجاتي

(٤٦) الحديث النبوي وعلم النفس ـــــــــــــ محمد عثمان نيجاتي

(٤٧) من علم النفس القرآني ـــــــــــــ عدنان الشريف

(٤٨) التعريفات ـــــــــــــ علي بن محمد الجرجاني

(٤٩) الطفل في ضوء التربية الإسلامية ـــــــــــــ عصام ميتاوي

(٥٠) العديد من النشرات والمجلات

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

الفهرس

الفصل التاسع : الإيمانُ بالغيب وأثرُهُ على النّفس الإنسانية، الحقُّ والباطلُ، الهُدى والضلالُ ٥

البحث الأول : الإيمان بالغَيب وأثره على النفس الإنسانية ٧

علم الغيب وتأثيره على الحضارة والمدنية ١٦

البحث الثاني : الحق والباطل وتأثيرهما في الحياة على النفس الإنسانية ٤٣

الأمر الأول : ما يتعلق بالمغالطات التي تحصل من جراء تشابه الحقائق ٤٨

أولاً : عداوة اليهود للمسلمين وللشعب الفلسطيني ٤٩

أ ـ كون اليهود أعداء للمسلمين : حقيقة ٤٩

ب ـ كون اليهود أعداء للشعب الفلسطيني بالذات : حقيقة أيضاً ٤٩

ثانياً : امتلاك القوة النووية : ٥١

أ ـ كون إسرائيل دولة نووية : حقيقة ٥١

ب ـ وكون البلاد العربية الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط دولاً غير نووية : حقيقة أيضاً ٥١

ثالثاً : التدخل في شؤون الدول الأخرى ٥٣

أ ـ كون الولايات المتحدة الأميركية قوة عظمى، وتتولى مقاليد الزعامة في العالم : حقيقة ٥٣

ب ـ وكونها تتدخل في شؤون البلدان الأخرى،
ولا سيما في بلدان العالم الثالث: حقيقة أيضاً ٥٣
الأمر الثاني: ويتعلق بالمغالطات التي تصرف الناس عن الحقائق
عن طريق الأفكار والأعمال المضلّلة والمثال على ذلك ٥٤
أ ـ كون الأمة لا تنهض إلا بالفكر: حقيقة ٥٤
ب ـ وكون الأمة الإسلامية قادرة على النهوض من كبوتها: حقيقة ايضاً ٥٤
أولاً: الحق ٥٦
ثانياً: الباطل ٦٠
ثالثاً: أهل الحق وأهل الباطل ٦٣
١ ـ الباطل مثل الزبد الذي يذهب هدراً ٦٣
٢ ـ الكلمة الطيبة هي الحق، والكلمة الخبيثة هي الباطل ٦٩
٣ ـ الكافرون يتّبعون الباطل والمؤمنون يتّبعون الحق ٧٢
الضلال والخطأ ٧٥
البحث الثالث: الهُدى والضلال والخطأ وأثرهما على النفس الإنسانية ٧٥
الهدى والضلال ٧٦
أوجه الهدى ٨٣
الوجه الأول: الهداية التي عمَّ بها الخالق العظيم جميع خلقه ٨٣
الوجه الثاني: الهداية إلى الإِيمان ٨٤
الوجه الثالث: الهداية إلى العمل الصالح ٩١
الوجه الرابع: الهداية إلى الجنة ٩٤
القرينة الشرعية ١٠٣
القرينة الشرعية والعقلية ١٠٤
الفصل العاشر: النفس ونزغ الشيطان، الفتنة والتجربة،
الإغواء والإغراء ١٠٧
النزغ من الشيطان ١٠٩

البحث الأول: النفس ونزغ الشيطان ١٠٩
دور القرناء في حياة الإنسان ١١٠
الاستعانة بالله تعالى ١٣٤
الوجه الأول: الاستعانة بالله من شر مخلوقاته ١٣٤
الوجه الثاني: الاستعانة بالله من شر الوسواس في النفس ١٤٠
أولاً: الوسوسة في الصدور ١٤٢
ثانياً: فتنة الشيطان ١٤٩
ثالثاً: مسُّ الشيطان ١٥٣
الاستمرار في المعصية استسلام للشيطان ١٥٤
البحث الثاني: الفتنة والتجربة ١٥٧
١ ـ الفتنة عن الدين ١٦٠
٢ ـ فتنة الأموال والأولاد ١٦٧
٣ ـ فتنة الغرور ١٧٢
٤ ـ فتنة المؤمن ١٧٦
٥ ـ الفتنة من السنن الإلهية ١٧٩
البحث الثالث: الإغواء والإِغراء ١٨٣
١ ـ الإغـواء ١٨٣
٢ ـ الإغـراء ١٨٧
الفصل الحادي عشر: الدوافع والبواعث ١٩١
الدوافع الفطرية ١٩٥
الدوافع النفسية ١٩٧
الصراع بين الدوافع ١٩٨
إثـارة الدوافع ٢٠٣
انحراف الدوافع ٢٠٧
السيطرة على الدوافع ٢١٢

الفصل الثاني عشر: الإنفعالات، العقد النفسية، الحِيَل العقلية ٢١٩
البحث الأول: الانفعالات ٢٢١
الكافرُ الذي يقلّب كفّيه حسرة ٢٢٣
زيغان أبصار المؤمنين وانتفاخ قلوبهم من شدة الخوف ٢٢٥
القشعريرة في الأبدان ٢٢٦
شخوص الأبصار يومَ القيامة ٢٢٧
تغيّر ملامح الوجوه يوم القيامة ٢٢٨
١ ـ انفعال الضحك والبكاء ٢٣٠
٢ ـ انفعال الغضب ٢٣١
٣ ـ انفعال الحب ٢٣٣
السيطرة على الانفعالات ٢٣٤
البحث الثاني: العقد النفسية ٢٣٧
عقدة الامتناع ٢٣٨
عقدة حب الشهوة ٢٣٩
عقدة التقديس ٢٤٠
١ ـ عقدة الموت ٢٤٦
أ ـ عقدة قصر العمر ٢٤٨
ب ـ عقدة العذاب عند الموت ٢٤٩
جـ ـ عقدة القبر ٢٥٠
٢ ـ عقدة الفقر ٢٥٢
٣ ـ عقدة الطغيان ٢٥٧
البحث الثالث: الحيل العقلية ٢٥٩
تداعي الأفكار أو تجمع الأفكار ٢٦٤
الفصل الثالث عشر: القناعة والثقة، الجدية والتغيير ٢٦٧
البحث الأول: القناعة والثقة ٢٦٩

الثقة بالنفس ٢٧٥

البحث الثاني: الجدية والتغيير ٢٨١

أولاً ـ التفكير بوجود مشكلة ٢٨٢

ثانياً ـ جمع المعلومات عن المشكلة ٢٨٢

ثالثاً ـ وضع الفروض ٢٨٢

رابعاً ـ أفكار جديدة ومعلومات طارئة ٢٨٣

الجدية ٢٨٣

التغيير ٢٨٥

التغيير في المفهوم الإسلامي ٢٨٨

تأثير التغيير الإسلامي في العلاج النفسي ٢٩٨

الأصالة ٣٠١

الفصل الرابع عشر: الظروف والملابسات، الأحداث والوقائع، الأجواء والمناخات ٣٠٣

البحث الأول: الظروف والملابسات ٣٠٥

الظرف ٣٠٥

الملابسات ٣٠٦

الأحداث والوقائع ٣٠٩

البحث الثاني: الأجواء والمناخات ٣١٣

اللهو والمزاح ٣١٤

البطر والطرب ٣١٧

الإيقاع ٣١٩

الذوق ٣٢٠

الفصل الخامس عشر: مجاهدة النفس ٣٢٥

المناعة النفسية ٣٣١

١ ـ تحري الصدق والإقلاع عن الكذب ٣٣٣
٢ ـ الظن واليقين ٣٣٩
أ ـ الظنُّ ٣٣٩
الشـك ٣٤٣
الحدس ٣٤٤
ب ـ اليقين ٣٤٤
٣ ـ العفو والانتقام ٣٤٦
أ ـ كظم الغيظ ٣٤٩
ب ـ الصفح عن الإساءة ٣٤٩
ج ـ الإحسان إلى المسيء ٣٥٠
٤ ـ الصبر والجزع ٣٥١
أ ـ الصبر ٣٥١
ب ـ الجزع ٣٥٤
٥ ـ مجانبة الرياء والإخلاص في النية والعمل ٣٥٨
أ ـ الريـاء ٣٥٨
ب ـ الإخلاص في النية والعمل ٣٦٢
٦ ـ حسنُ الحديث والنهي عن كلام السوء ٣٦٤
أ ـ حسن الحديث ٣٦٤
ب ـ النهي عن كلام السوء ٣٦٦
الكـذب ٣٧٠
النفـاق ٣٧١
الاستهزاء والسخرية ٣٧٢
السباب والشتائم ٣٧٣
التجسس والغيبة ٣٧٥
اللّغـو ٣٧٧

الإطراء والمجاملة ٣٨٢
٧ ـ الإصغاء والاستماع ٣٨٨
الفصل السادس عشر: الأمراض العصابية، العلاج النفسي في الإسلام ٣٩٥
البحث الأول: الأمراض العصابية ٣٩٧
١ ـ الغمّ ٤٠٢
٢ ـ الهمُّ ٤٠٢
٣ ـ القلق ٤٠٣
البحث الثاني: العلاج النفسي في الإسلام ٤٠٩
الوقاية والتقوى في المفهوم الإسلامي ٤١٤
طلب غفران الذنوب ٤٢٦
١ ـ الندم والحسرة ٤٢٩
أ ـ الندم أو الندامة ٤٢٩
ب ـ الحسرة ٤٣٠
٢ ـ التوبـة ٤٣٢
العلاج النفسي عند ابن القيّم ٤٤١
الفصل السابع عشر: الأمان النفسي ٤٤٧
العبادات ٤٥٩
الصلاة ٤٦٠
الصيام ٤٦٤
الزكاة ٤٦٧
الحجّ ٤٧٩
ذكر الله تعالى ٤٨٦
١ ـ تلاوة القرآن ٤٩٤

٢ ـ الدعاء لله تعالى ٥٠٠
السؤال ٥٠٠
الدعـاء ٥٠٣
١ ـ الشروط التي تتعلّق بالداعي ٥٠٨
٢ ـ الشروط التي تتعلق بالدعاء ٥١٠
أ ـ تمجيد الله تعالى والثناء عليه ٥١٠
ب ـ أنْ لا يكون في الدعاء إثمٌ أو قطيعةُ رحمٍ ٥١٠
ج ـ عدم الدعاء بخلاف السنن الإلهية ٥١١
د ـ الدعاء بالخير والبرّ الذي ينسجم
مع روح الشريعة السمحاء ٥١١
هـ ـ التوسل بالنبي ﷺ وأهل بيته ٥١٣
الدعوة ٥١٤
الفصل الثامن عشر: السعادة النفسية ٥٢١
١ ـ الرجاء أو الأمل ٥٣٠
٢ ـ التمنّي والأمنية ٥٣٤
٣ ـ التفاؤل وعدم التشاؤم ٥٥٥
٤ ـ ترك الكبر والتواضع ٥٦٤
أ ـ تركُ الكبر ٥٦٤
ب ـ التواضع ٥٧٢
٥ ـ الرحمة والرأفة ٥٧٤
٦ ـ العمل بصحة التوكُّل على الله تعالى ٥٧٨
الفصل التاسع عشر: خيارات ومواقف ٥٨٥
خيار من يريد الدنيا ٥٩١
خيار من يريد الدنيا والآخرة معاً ٥٩٤
نظام الإسلام وحده فيه الخلاص ٦٠١

القرآن والبيان في حياة الإنسان ٦٠٨
محمد ﷺ والقرآن ٦١٢
نماذج عن خيارات البشر ومواقفهم ٦١٨
دعاء المضطر وإعراضه ٦١٨
الذين ينسون الله يتخذون الأوثان آلهة ٦٢٠
القَنوطُ مِنْ ضيقِ الرزقِ ٦٢٢
تقلب الإنسان بين اليأس والتفاخر ٦٢٤
الإنسان القتور ٦٢٦
الإنسان الكنود ٦٣١
الإنسان الظلوم الكفار ٦٣٢
الإنسان مخلوق من عجل ٦٣٣
كل إنسان يعمل على شاكلته ٦٣٥
الناس والفساد ٦٣٦
الطاعة وحمل الأمانة ٦٤٣
الحمد لله على جميع محامده كلها ٦٦١

الخاتمة: وحدانيةُ الله تَعالى ووجوب الحَمْدِ والشُكرِ لَهُ على ما وَهَبَ وأنعَمَ وتفضَّلَ وتكرَّمَ ٦٤٧
الحمد لله رب السماوات والأرض ٦٦٧
الحمد لله على نعمه وهباته ٦٦٩
المرسلون يحمدون الله تعالى على نصرتهم ٦٧٦
الله تعالى غنيٌّ عن العالمين ٦٨٠
محامد المؤمنين على وراثة الجنة ٦٨٢

المراجع ٦٨٥